ماريو بارغاس يوسا

حفلة التيس



ترجمة : صالح علماني

الطبعة الثانية



اسم المؤلف :ماريو بارغاس يوسا
عنوان الكتاب :حفلة التيس
ترجمة :صالح علماني
الناشر :المدى
الطبعة الأولى :٢٠٠٠
الطبعة الثانية :٢٠٠٨

Author : Mario Vargas Llosa
Title : La Fiesta del Chivo
Translator : Saleh Almani
Al- Mada : P.C.
First Edition : 2000
Second Edition : 2008

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

ماريو بارغاس يوسا

حفلة التيس

ترجمة صالح علماني



«الشعب يحتفل
بحماس كبير
بعيد التيس
في الثلاثين من أيار
قتلوا التيس».
أغينة ميرنغي شعبية دومينيكانية

الفصل الأول

أورانيا. لم يقدم لها أبواها جميلاً بهذا الأسم؛ فهو يوحي باسم كوكب، أو فلز منجمي، أو أي شيء آخر إلا أن يكون اسم امرأة ممشوقة القامة لطيفة التقاطيع، ذات بشرة مصقولة، وعينين واسعتين سوداوين، تعكسهما لها المرآة حزينتين بعض الشيء. أورانيا! يا له من اسم. لحسن الحظ أن أحداً لم يعد يدعوها به. فهم ينادونها أوري، أو مس كابرال، أو مسز كابرال أو الدكتورة كابرال. لم يعد هناك، حسبما تتذكر، من يدعوها في أدريان، أو في بوسطن، أو في واشنطن، أو في نيويورك، باسم أورانيا منذ أن غادرت مدينة سانتو دومنغو («أو بكلمة أدق **مدينة تروخييو**» لأن اسم العاصمة لم يكن قد أعيد إليها بعد عندما غادرتها) لم يعد هناك من يدعونها باسم أورانيا مثلما كانوا يدعونها من قبل في بيتها وفي مدرسة سانتو دومنغو، حيث كانت الراهبات الأمريكيات وزميلاتها ينطقن بصورة صحيحة تماماً هذا الاسم غير المعقول الذي ألصقوه بها عند ولادتها. هل خطر هذا الاسم له أم لها؟ لقد فات أوان التقصي عن ذلك يا فتاة؛ فأمك في السماء وأبوك ميت في الحياة. لن تعرفي ذلك مطلقاً. أورانيا! اسم لا يقل عبثية عن إهانة مدينة سانتو دومنغو دي غوثمان القديمة بتسميتها **مدينة تروخييو**. أيكون أبوها هو صاحب هذه الفكرة بتسمية المدينة أيضاً؟

إنها تنتظر أن يطل البحر من نافذة غرفتها في الطابق التاسع من فندق خاراغوا، لكي تراه أخيراً. الظلمة تنجلي خلال ثوان قليلة، وبريق الأفق الأزرق، المتنامي بسرعة، يبدأ المشهد الذي تنتظره منذ أن استيقظت في الساعة الرابعة، بالرغم من القرص الذي تناولته متجاوزة احتياطاتها ضد المنومات. سطح البحر الأزرق القاتم يمتد منكمشاً بذعر في لطخات زبد ليلتقي بسماء رصاصية عند خط الأفق النائي، أما هنا عند الشاطئ، فيتكسر في أمواج مدوية وزبدية على حاجز الكورنيش، حيث تظهر أجزاء من الشارع ما بين أشجار النخيل واللوز التي

تحيط به. لقد كان فندق خاراغوا يطل على البحر مواجهة في ذلك الحين، أما الآن، فإطلالته جانبية. الذاكرة تعيد إليها تلك الصورة - أهي صورة ذلك اليوم؟ - للطفلة الممسكة بيد أبيها وهي تدخل مطعم الفندق، ليتناولا الغداء معاً وحيدين. قدموا لهما طاولة إلى جوار النافذة، ومن خلال الستائر كانت أورانيا تلمح الحديقة الفسيحة والمسبح مع ألواح الوثب والسابحين. كانت هناك فرقة موسيقية تعزف ألحان ميرنغي في **البهو الإسباني** المحاط ببورسلين وأصص أزهار قرنفل. أكان في ذلك اليوم؟ «لا»، تقول ذلك بصوت عالٍ. لقد هدموا فندق خاراغوا ذلك الزمن وشيدوا مكانه هذا البناء الضخم الذي له لون النمر الوردي، والذي فأجأها كثيراً لدى وصولهما إلى مدينة سانتو دومنغو قبل ثلاثة أيام.

هل أحسنتِ صنعاً بالعودة؟ ستندمين يا أورانيا. تبددين أسبوع إجازة، أنت التي لم تجدي الوقت قط للتعرف على مدن ومناطق وبلدان كثيرة كنت تحبين مشاهدتها - الجبال والبحيرات الجليدية في ألاسكا مثلاً - تبددينه في الرجوع إلى الجزيرة التي أقسمتِ ألا تعودين إلى وضع قدميك فيها. أهي أعراض انحطاط؟ أهي عاطفة خريفية؟ إنه الفضول، وليس أكثر. أن تثبتي قدرتك على المشي في شوارع هذه المدينة التي لم تعد مدينتك، التجول في هذا البلد الغريب دون أن يثير فيك ذلك الحزن أو الحنين أو الحقد أو المرارة، أو السخط. أم أنك جئت لمواجهة الحطام الذي صار إليه أبوكِ؟ لتري الانطباع الذي ستثيره فيك رؤيته بعد كل هذه السنوات الطويلة. اجتاحتها قشعريرة من رأسها حتى قدميها. أورانيا، أورانيا! لاحظي أنك بعد كل هذه السنوات، تكتشفين تحت رأسك العنيد، المنظم، الذي لا يعرف الخمود، ووراء هذه الصلابة التي يقدرونك ويحسدونك عليها، تمتلكين قلباً غضاً، هياباً، محزوناً، عاطفياً. تتفجر في الضحك. كفاك حماقة يا فتاة.

تنتعل حذاءها الخفيف، البنطال، بلوزة الرياضة، تثبت شعرها بشبكة صغيرة. تشرب كأس ماء بارد، وتهم باشعال التلفزيون لمشاهدة أخبار CNN ولكنها تندم. تبقى إلى جوار النافذة، ناظرة إلى البحر، إلى الكورنيش، ثم تدير رأسها بعد ذلك، غابة السطوح، الأبراج، القباب، أبراج الأجراس وقمم أشجار المدينة. كم توسعت المدينة! عندما غادرتِها عام 1961، كانت تؤوي ثلاثمئة ألف نفس. أما الآن فيعيش فيها أكثر من مليون إنسان. لقد امتلأت بأحياء، وشوارع

عريضة، وحدائق، وفنادق. لقد أحستْ أمس بأنها غريبة وهي تتجول في سيارة مستأجرة بين الفيلات الأنيقة في بيبيا بيستا وحديقة الميرادور الشاسعة حيث يوجد هواة جري كثيرون كما في سنترال بارك النيويوركية. في طفولتها كانت المدينة تنتهي عند فندق السفير؛ وابتداء من هناك يصبح كل شيء مزارع وحقولاً. أما الكنتري كلوب، حيث كان يأخذها أبوها إلى المسبح في أيام الآحاد، فكان محاطاً بأراض خلاء، بدلاً من الإسفلت والبيوت وأعمدة النور مثلما هي الحال الآن.

ولكن المدينة الاستعمارية القديمة لم تتجدد، ولم يتجدد كذلك حي غاثكوي، حيّها. وهي متأكدة من أن بيتها لم يتبدل فيه شيء تقريباً. إنه مثلما كان، بحديقته الصغيرة، وشجرة المانجا وشجرة الفلامبويا ذات الأزهار الحمراء المستندة إلى الشرفة حيث اعتادا تناول الغداء في الهواء الطلق في نهاية الأسبوع؛ وسقف البيت القرميدي والشرفة الصغيرة لحجرة نومها، حيث كانت تخرج لانتظار ابنتي عمتها لوثيندا ومانوليتا، ولتراقب في سنة 1961 الأخيرة تلك، الفتى الذي كان يمر على دراجته، ناظراً إليها بطرف عينه، دون أن يتجرأ على التحدث معها. أما تزال حجرة نومها على حالها من الداخل؟ الساعة النمساوية التي تعلن الساعات كانت ذات أرقام قوطية ومزينة بمنظر صيد. أيكون أبوكِ على حاله؟ لا. لقد رأيتِه ينحدر في الصور التي ترسلها إليك كل بضعة شهور أو سنوات عمتك آديلينا وأقرباء بعيدون آخرون واصلوا الكتابة إليك، على الرغم من أنك لم تردي على رسائلهم قط.

تتهاوى على المقعد. شمس الصباح تصل إلى مركز المدينة؛ قبة القصر الوطني وجدرانه ذات اللون الأمغر الشاحب تلمع بنعومة تحت القبة الزرقاء. هيا اخرجي، فالحر سيصبح غير محتمل عما قريب. تغمض عينيها، مستسلمة لعطالة نادرة لديها هي المعتادة على النشاط الدائم، على عدم إضاعة الوقت في ما يشغلها ليل نهار مذ وطأت قدماها الأرض الدومينكانية.. في التذكر. «ابنتي لا تتوقف عن العمل، إنها تردد درسها حتى وهي نائمة.» هذا ما كان يقوله عنك السيناتور أغوسطين كابرال، الوزير كابرال، **المخيخ** كابرال، مزهواً أمام أصدقائه بطفلته التي نالت كل الجوائز، بالتلميذة التي تعتبرها الراهبات مثلاً وقدوة. أكان يفاخر كذلك أمام **الزعيم** بمآثر أورانيتا المدرسية؟ «أتمنى أن تتعرف عليها حضرتك، لقد حصلت على جائزة التفوق في كل السنوات منذ أن دخلت مدرسة

سانتو دومنغو. وسيكون تعرفها عليك، مصافحتك، سعادة كبيرة لها. فأورانيتا تصلي كل ليلة لكي يحفظ الله عليك هذه الصحة الحديدية. وهي تصلي كذلك من أجل دونيا خوليا، ودونيا ماريا. حقق لنا هذا الشرف. إنه رجاء، توسل، تضرع من أكثر كلابك وفاء. لن ترفض طلبي هذا في مقابلتها يا صاحب الفخامة! أيها الزعيم!»

أتشمئزين منه؟ أتكرهينه؟ هل ما زلت كذلك؟ «لا، لم أعد كذلك»، تقول بصوت عال. ما كنتِ ستعودين لو أن الضغينة مازالت تتأجج، ولو أن الجرح مازال ينزف؟ مثلما كانت في شبابها، حين كانت تدرس، تعمل. حين تحولت الدراسة والعمل إلى هاجس ووسيلة لعدم التذكر. لقد كانت تكرهه فعلاً آنذاك. بكل ذرات كيانها، بكل الأفكار والمشاعر التي يتسع لها جسدها. تمنيت له النكبات، الأمراض، الحوادث. وقد استجاب لكِ الله يا أورانيا. أو ربما هو الشيطان الذي استجاب لكِ. ألا يكفي أن النزيف الدماغي قد قتله في الحياة؟ انتقام لذيذ أن يعيش منذ عشر سنوات على كرسي متحرك، دون قدرة على المشي، على الكلام، معتمداً على ممرضة في أكله، نومه، لبسه، خلع ثيابه، قص أظفاره، حلاقة ذقنه، تبوله، تغوطه؟ أتشعرين بالتعويض؟ «لا».

تشرب كأس ماء أخرى وتخرج. إنها السابعة صباحاً. تداهمها الضجة في الطابق الأرضي من فندق خاراغوا، تلك الأجواء التي أمست أليفة بما فيها من الأصوات، والمحركات، وأجهزة الراديو الملعلعة، ألحان ميرينغي وسلسا، ودانثون وبوليرو، أو ألحان روك وراب، مختلطة، معتدية على بعضها البعض ومعتدية عليها بضجيجها. فوضى حماسية، حاجة عميقة إلى الشرود من أجل عدم التفكير، وربما من أجل عدم الشعور كذلك بهذا الشعب الذي كان شعبك يا أورانيا. وتتعالى كذلك انفجارات حياة وحشية، تعويضاً عن موجات الحداثة. هناك شيء في الدومينيكان يتشبث بتلك الطريقة ما قبل العقلانية، السحرية: إنها هذه الشهية إلى الضجيج. («إلى الضجيج، وليس إلى الموسيقى»).

لا تتذكر من طفولتها، عندما كانت العاصمة سانتو دمنغو تسمى **مدينة تروخييو**، أنه كان هناك مثل هذا الصخب في الشارع. ربما لم يكن موجوداً؛ ربما كانت المدينة أكثر صمتاً وأقل هستيرية قبل خمس وثلاثين سنة، عندما كانت أصغر مما هي عليه الآن بثلاث أو أربع مرات، مجرد مدينة ريفية، معزولة، هاجعة في الخوف والخضوع والمذلة، روحها منقبضة توقيراً ورعباً من **الزعيم**،

الجنراليسمو، المنعم، أبي الوطن الجديد، صاحب الفخامة الدكتور رافائيل ليونيداس تروخييو مولينا. أما اليوم، فكل أصوات الحياة، محركات السيارات، أجهزة الكاسيت، والديسكو، المذياع، أبواق السيارات، والنباح، والزمجرات، والأصوات البشرية، تلعلع بأعلى صوت، معلنة عن نفسها بأقصى ما لديها من قدرة على الضجيج الفموي، الآلي، الرقمي أو الحيواني (الكلاب تنبح بقوة أكبر والطيور تزقزق برغبة أشد). ويقال إن نيويورك مشهورة بضجيجها! ولكن أذنيها لم تسجلا قط، طوال عشر سنوات من الحياة في منهاتن، شيئاً شبيهاً بهذه السمفونية الجهنمية، النشاز، التي هي غارقة فيها منذ ثلاثة أيام.

الشمس تُشعل أشجار النخيل الشائبة ذات الرؤوس المنتصبة، والرصيف المخرب الذي يبدو وكأنه قد تعرض لقصف بسبب كثرة الحفر وأكوام الزبالة، حيث نساء يضعن مناديل على رؤوسهن يكنسن ويجمعن في أكياس غير كافية. «إنهن هايتيات» وهن الآن صامتات، ولكنهن كن يتهامسن أمس فيما بينهن **بالكريولية**. إلى الأمام قليلاً ترى رجلين هايتيين حافيين وشبه عاريين يجلسان على بعض الصناديق، تحت عشرات الأصبغة ذات الألوان الفاقعة المنشورة على جدار. هذا صحيح، فالمدينة، وربما البلاد بأسرها، قد امتلأت بالهايتيين. في ذلك الحين لم يكن يحدث مثل هذا. ألم يكن السيناتور أغوسطين كابرال يقول ذلك؟ «يمكن أن يُقال أي شيء عن **الزعيم**. ولكن التاريخ سيعترف له على الأقل بأنه بنى بلداً حديثاً وأوقف الهايتيين عند حدهم. فالداء الكبير يحتاج إلى علاج كبير!» لقد وجد **الزعيم** بلداً تسوده البربرية بسبب حروب الزعماء المحليين، لا قانون فيه ولا نظام، بلد مُفْقَر، آخذ بفقدان هويته، يجتاحه الهايتيون، جيرانه المتوحشون. يخوضون نهر ماساكيري ويأتون لسرقة الممتلكات، المواشي، البيوت، وينتزعون العمل من عمالنا الزراعيين، ويُشوهون ديانتنا الكاثوليكية بشعوذاتهم الشيطانية، يغتصبون نساءنا، يُفسدون ثقافتنا، ولغتنا وعاداتنا الغربية الهسبانية، فارضين علينا عاداتهم الأفريقية الهمجية. وقد وضع **الزعيم** حداً لتلك المعضلة: «يكفي!». الداء الكبير يحتاج إلى علاج كبير! لم يكن أبوها يبرر تلك المجزرة ضد الهايتيين في العام سبعة وثلاثين وحسب؛ بل كان يعتبرها إحدى مآثر النظام. ألم يُنقذ الجمهورية من التعهر للمرة الثانية في التاريخ على يد ذلك الجار النهاب؟ وما أهمية موت خمسة، أو عشرة، أو عشرين ألف هايتيتي إذا كان الهدف هو إنقاذ شعب؟

كانت تمشي بسرعة، متعرفة على المعالم: كازينو غويبيا، وقد تحوّل الآن إلى ناد، والمنتجع الذي تفوح منه الآن روائح المجاري الكريهة؛ وقريباً ستصل إلى تقاطع الكورنيش مع جادة مكسيمو غوميث، حيث الطريق الذي كان يقطعه **الزعيم** في مسيراته المسائية. فمنذ أن نبهه الأطباء إلى أن المشي مفيد للقلب، صار يمشي من مقر إقامته في منزل راداميس باتجاه جادة مكسيمو غوميث، مع وقفة في بيت دونيا خوليا، **السيدة السامية**، حيث دخلت أورانيتا في إحدى المرات لتلقي خطبة، لم تكد تتمكن من إلقائها، ثم ينزل بعد ذلك حتى كورنيش جورج واشنطن هذا، وعند هذه الناصية ينعطف ويواصل طريقه حتى المسلة المقلدة لمسلة واشنطن، بخطوة حيوية، محاطاً بوزراء، ومستشارين، وجنرالات، ومساعدين، وندماء، يبقون على مسافة احترام منه، عيونهم متيقظة، قلوبهم آملة، ينتظرون إيماءة، حركة تسمح لهم بالاقتراب من **الزعيم**، والاستماع إليه، واستحقاق حوار معه، حتى ولو كان توبيخاً. أي شيء، عدا بقاءهم بعيداً عنه، في جحيم المنسيين. «كم من المرات تمشيت معهم يا أبي؟ وكم مرة استحققت أن يكلمك؟ وكم من المرات عدت محزوناً لأنه لم يستدعك، مذعوراً من أن تكون قد استُبعدت من دائرة المختارين، من أن تكون قد سقطت بين المنبوذين. لقد عشتَ على الدوام خائفاً من أن تتكرر معك قصة أنسيلمو باولينو. وقد تكررت يا أبي.»

تضحك أورانيا فيظن زوجان بقميصي برمودا يمشيان في الاتجاه المعاكس بأنها تضحك لهما: «صباح الخير». ولكنها لا تضحك لهما، وإنما تضحك لصورة أبيها السيناتور أغوسطين كابرال وهو يذرع كل مساء هذا الكورنيش، بين الخدم المترفين، متيقظاً، ليس للنسيم الدافئ، ولا لهمسات البحر، ولا لطيران النوارس الأكروباتي، ولا لنجوم الكاريبي المشعة، وإنما ليدي، لعيني، لحركات الزعيم التي ربما تستدعيه، مفضلة إياه على الآخرين. لقد وصلتُ إلى المصرف الزراعي. وبعد ذلك ستأتي محطة رامفيس، وتليها وزارة العلاقات الخارجية وفندق هيسبانيولا. ثم الانعطاف.

وتفكر: «شارع سيسر نيكولاس بينسون، ناصية غالفان». هل تذهب أم ترجع إلى نيويورك دون أن تلقي نظرة على بيتها؟ ستدخلين وتسألين الممرضة عن المشلول المقعد، وتصعدين إلى غرفة النوم وإلى الشرفة التي يخرجونه إليها لينام القيلولة، هذه الشرفة التي تصبح حمراء بأزهار شجرة الفلامبويان. «مرحباً يا بابا. كيف حالك يا بابا. ألم تعرفني؟ أنا أورانيا. إنك تعرفني بالطبع. في المرة

الأخيرة كان عمري أربع عشرة سنة وأنا الآن في التاسعة والأربعين. إنها كومة من السنوات يا بابا. ألم تكن هذه هي سنوات عمرك في اليوم الذي رحلتُ فيه عنك إلى أدريان؟ أجل، كان عمرك ثماني وأربعين أو تسعاً وأربعين سنة. رجل في ذروة نضجه. أما الآن فأنت على وشك إكمال أربع وثمانين. لقد هرمت كثيراً يا أبي.» إذا ما كان في حالٍ تمكّنه من التفكير، فلا بد أن يكون قد وجد متسعاً كبيراً من الوقت في هذه السنوات من أجل مراجعة شاملة لحياته الطويلة. أتكونُ قد فكّرتَ بابنتك الجاحدة التي لم ترد طوال خمس وثلاثين سنة على رسالة واحدة من رسائلك، ولم ترسل لك صورة واحدة، أو تهنئة بعيد ميلادك، أو بأعياد الميلاد ورأس السنة، ولم تأت للسؤال عن صحتك عندما أصابك النزف الدماغي وظن الأعمام والعمات وأبناء وبنات العمومة أنك ستموت. يا للابنة الخبيثة يا أبي.

بيت شارع سيسر نيكولاس بينسون، عند ناصية غالفان، لم يعد يستقبل الزوار، في بهو المدخل، حيث جرت العادة أن يوضع تمثال العذراء ألتاغراثيا، مع تلك اللوحة البرونزية المتبجحة «الزعيم هو تروخييو في هذا البيت». أم أنك مازلت تحتفظ بها كدليل على الولاء؟ ستلقي بها إلى البحر مثل آلاف الدومنيكانيين الذين اشتروا تلك اللوحة وعلقوها في أكثر الأماكن بروزاً في بيوتهم، حتى لا يشك أحد في ولائهم للزعيم، وعندما انكسر السحر، أرادوا محو الآثار، خجلين مما تمثله تلك اللوحة: خنوعهم. أراهن بأنك أنت أيضاً أخفيتها يا أبي.

وصلت إلى فندق هيسبانيولا. إنها تتعرق، والقلب يتسرع. يمر نهر مزدوج من السيارات، شاحنات صغيرة وكبيرة من جادة جورج واشنطن، ويخيل إليها أنها كلها تمضي وأجهزة المذياع مفتوحة فيها وأن الضجيج يمزق طبلتي أذنيها. يطل أحياناً من إحدى السيارات رأس ذكوري وتلتقي عيناها للحظة بعيني ذكر تنظران إلى نهديها، إلى ساقيها، إلى مؤخرتها. يا لهذه النظرات. إنها تنتظر انقطاعاً في حركة السير يتيح لها اجتياز الشارع وتقول لنفسها مرة أخرى، مثلما قالت أمس، ومثلما قالت أول أمس، إنها في أرض دومينيكانية. ففي نيويورك لم يعد هناك من ينظر إلى النساء بهذا الاستهتار. إنهم يقيسونها، يزنونها، يقدرون كم من اللحم يوجد في كل واحد من الثديين أو الفخذين، وكم من الشعرات في عانتها ومدى دقة تكور ردفيها. تغمض عينيها وقد وقعت ضحية دوار خفيف.

في نيويورك لم يعد حتى اللاتينيين من دومينيكانيين وكولومبيين وغواتيماليين ينظرون إلى النساء بهذه الطريقة. لقد تعلموا كبح أنفسهم، تعلموا أنه عليهم عدم النظر إلى النساء مثلما تنظر الكلاب إلى الكلبات، والأحصنة إلى الأفراس، والخنازير إلى الخنزيرات.

استغلت انقطاع حركة المرور واجتازت الشارع راكضة. وبدلاً من أن تدور على عقبيها وتبدأ مسيرة العودة إلى فندق خاراغوا، قادتها قدماها، وليس إرادتها، للالتفاف حول فندق هيسبانيولا والعودة عبر جادة الاستقلال، وهي جادة عريضة تمضي من هناك، إذا لم تخنها الذاكرة، محفوفة بصفين من أشجار الغار الوارفة، تتعانق قممها فوق الشارع، فترطبه، إلى أن يتفرع ويختفي في وسط المدينة الاستعمارية القديمة. كم من المرات مشيت ممسكة بيد أبيك تحت ظل أشجار الغار ذات الحفيف في جادة الاستقلال. كانا ينزلان من شارع سيسر نيكولاس بينسون حتى هذه الجادة ثم يمضيان إلى حديقة الاستقلال. وفي محل المثلجات الإيطالية، على الجهة اليمنى، عند بداية شارع الكونت، يتناولان مثلجات بطعم جوز الهند، أو المانغا، أوالجوافة. كم كنتِ تشعرين بالفخر وأنت تمسكين يد ذلك السيد - السيناتور أغوسطين كابرال، الوزير كابرال. الجميع يعرفونه. يقتربون منه، يمدون له أيديهم ليصافحهم، يرفعون له قبعاتهم. ينحنون له باحترام، ويضرب الحراس والعسكريون كعوبهم حين يرونه يمر. كم تشتاق إلى تلك الأيام التي كنتَ فيها مهماً جداً يا بابا، بعد أن تحولت الآن إلى مجرد بائس من جموع العامة. لقد اكتفوا بشتمك في صفحة **المحكمة العامة**، ولكنهم لم يدخلوك السجن مثلما فعلوا بأنسيلمو باولينو. هذا هو ما كنتَ تخشاه، أليس كذلك؟ أن يصدر الزعيم في أحد الأيام أمراً: «مخيخ إلى السجن!». لقد كنتَ محظوظاً يا أبي.

مضى عليها ثلاثة أرباع الساعة ومازالت أمامها مسافة لا بأس بها للوصول إلى الفندق. لو أنها حملت معها نقوداً لدخلت إلى أي كافيتريا لتتناول الفطور وتستريح قليلاً. العرق يجبرها على مسح جبهتها في كل لحظة. إنها السنوات يا أورانيا. ففي التاسعة والأربعين لم تعودي شابة. مهما حافظت على جسدك خيراً من الأخريات. ولكنك لست منسية ومهملة كروبابيكيا عتيقة، إذا ما حكمنا من خلال هذه النظرات التي توجه من اليمين واليسار إلى وجهها وجسدها، نظرات متسللة، جشعة، وقحة، متمادية، من ذكور معتادين على أن يعرّوا بعيونهم

وبأفكارهم كل الإناث اللواتي في الشارع. «حوالي تسع وأربعين سنة وتحتفظين بقوام بديع يا أوري» هذا ما قاله لها ديك ليتني، زميلها وصديقها في مكتب المحاماة في نيويورك، يوم عيد ميلادُها، وهي جرأة لا يمكن لأي ذكر في المكتب أن يصل إليها إلا إذا كان، مثل ديك في تلك الليلة، قد شرب كأسين أو ثلاثة كؤوس من الويسكي. يا للمسكين ديك. لقد احمر خجلاً وتلعثم عندما جمدته أورانيا بواحدة من تلك النظرات البطيئة التي تواجه بها منذ نحو خمس وثلاثين سنة المغازلات، والنكات المتمادية، والظرافات، والتلميحات أو الحماقات التي تصدر عن الرجال، وأحياناً عن النساء.

تتوقف لتسترد أنفاسها. تشعر بقلبها خارجاً عن السيطرة، صدرها يعلو ويهبط. إنها عند تقاطع شارعي الاستقلال ومكسيمو غوميث، تنتظر بين جماعة من الرجال والنساء لاجتياز الشارع. يلتقط أنفها تشكيلة كبيرة من الروائح مثل تلك الأصوات غير المتناهية التي تطرق مسمعيها: رائحة الزيت الذي تحرقه محركات الحافلات وتطلقه العوادم، ألسنة دخانية تتحلل أو تبقى طافية فوق المشاة؛ روائح شحوم ومقالٍ تنبعث من كشك تفرقع فيه مقلاتان ويُقدم فيه طعام وشراب، وهذه الرائحة الزخمة، التي لا يمكن تحديدها، التروبيكالية، رائحة راتينج وأدغال في حالة تفسخ، رائحة أجساد متعرقة، وهواء عابق بخلاصات حيوانية ونباتية وبشرية تحفظها الشمس، وتؤخر تحللها وتلاشيها. إنها رائحة حارة تلمس خيطاً حميماً في ذاكرتها وتعيدها إلى طفولتها. إلى زهرات الثالوث متعددة الألوان المتدلية من الأسطح والشرفات، إلى جادة مكسيمو غوميث هذه. يوم عيد الأمهات! أجل بالطبع. أيار شمس ساطعة، وأمطار طوفانية، وحر. الطفلات المختارات من مدرسة سانتو دومنغو لحمل أزهار إلى ماما خوليا، الأم السامية، أم المنعم، مرآة ورمز الأم الكيسكية[1]. جاءت الطفلات في حافلة المدرسة، بزيهن الأبيض الناصع، ترافقهن رئيسة الراهبات الأخت ماري. متوقدات بالفضول، بالفخر، بالحب، وبالاحترام. كنتِ ذاهبة لتدخلي بيت ماما خوليا ممثلة للمدرسة، وكنتِ ستلقين أمامها قصيدة «الأم السامية، أم ومعلمة»، التي كتبتِها، وحفظتِها، وألقيتِها عشرات المرات أمام المرآة، وأمام زميلاتك، وأمام

---

[1] الكيسكية، نسبة إلى كيسكيّا Quisqueya وهي التسمية التي كان يطلقها السكان الأصليون على الجزيرة التي تشكل اليوم جمهورية الدومينيكان وهايتي.

لوثيندا ومانوليتا، وأمام أبيك، وأمام الراهبات، وكررتِها بصمت لتتأكدي من أنك لن تنسي حرفاً واحداً منها. وعندما أزفت اللحظة المجيدة، في بيت ماما خوليا الوردي الكبير، أصابها الذهول لمرأى العسكريين، والسيدات، والمساعدين، والوفود التي تملأ الحدائق والغرف والممرات، فانكمشت من الانفعال، والتأثر، وعندما تقدمت خطوة إلى الأمام، على بعد أقل من متر من العجوز التي تبتسم لها بأريحية من كرسيها الهزاز وهي تحمل باقة ورد قدمتها إليها للتو رئيسة الراهبات، انحبست حنجرتها وسيطر البياض على شاشة ذهنها. بدأت تبكين. تسمعين ضحكات، كلمات تشجيع من السيدات والسادة المحيطين بماما خوليا. أومأت لك الأم السامية لتقتربي وهي تبتسم. عندئذ استعادت أورانيتا تماسكها، فمسحت دموعها، ووقفت منتصبة وألقت بثبات وسرعة، ولكن دون الإيقاع المطلوب، قصيدة «الأم السامية، أم ومعلمة» دفعة واحدة. داعبت ماما خوليا شعرها وقبلتها بفمها المزموم بألف تجعيدة.

وأخيراً تبدل ضوء إشارة المرور. واصلت أورانيا مسيرها، محتمية من الشمس بظل أشجار شارع مكسيمو غوميث. إنها تمشي منذ ساعة. من الممتع المشي تحت أشجار الغار، واكتشاف هذه الشجيرات ذات الأزاهير الحمراء والمدقة الذهبية، شجيرات الكايينا أو دم المسيح، ومع أنها كانت مستغرقة في أفكارها، تهدهدها الأصوات والموسيقى، إلا أنها كانت متنبهة إلى اختلاف المستويات، والمطبات، والحفر، وتشوهات الطرق التي توشك أن تتعثر بها دوماً، أو أن تدوس بقدمها أكوام الزبالة التي تتشممها كلاب شاردة. أكنتِ سعيدة آنذاك؟ لقد كنتِ كذلك عندما ذهبتِ مع جماعة من تلميذات مدرسة سانتو دومنغو لحمل أزهار إلى الأم السامية وإلقاء القصيدة أمامها في عيد الأمهات. بالرغم من أن مفهوم السعادة ربما يكون قد تلاشى كذلك من حياة أورانيا منذ كسوف تلك الصورة الحامية، الجميلة، من طفولتها في بيت شارع سيسر نيكولاس بينسون. ولكن أباك وأعمامك – وخصوصاً العمة آديلينا والعم آنيبال، وابنتي العمة لوثينديتا ومانوليتا – والأصدقاء القدماء بذلوا كل ما يستطيعون من التدليل والملاطفة لكي يملؤوا الفراغ الذي سببه غياب أمك، ولهذا لم تشعري بالوحدة، ولا بالنقص. لقد كان أبوك أباً وأماً في تلك السنوات. ولهذا أحببته كثيراً. ولهذا السبب آلمك الأمر كثيراً يا أورانيا.

عندما تصل إلى الباب الخلفي لفندق خاراغوا، وهي بوابة قضبان حديدية

عريضة تدخل منها السيارات ومسؤولو الخدم والطهاة والنادلات وعمال التنظيف، لا تتوقف. إلى أين تذهبين؟ لم تتخذي أي قرار بعد. فقد كان تفكيرها مركزاً على طفولتها، على مدرستها، على أيام الآحاد التي كانت تذهب فيها مع عمتها آديلينا وابنتي عمتها إلى عروض الأطفال في سينما إليتيه، لم تمر في رأسها فكرة عدم الدخول إلى الفندق للاستحمام وتناول الفطور. قدماها هما اللتان قررتا مواصلة السير. إنها تمشي دون تردد، واثقة من الاتجاه، بين مشاة وسيارات جزعة من إشارات المرور. أأنت واثقة من أنك تريدين الذهاب إلى حيث أنت ذاهبة يا أورانيا؟ الآن تعرفين أنك ستذهبين، بالرغم من أنك ستندمين.

تنعطف يساراً في شارع ثيرفانتس وتتقدم نحو شارع بوليفار، متعرفة كما في حلم على الشاليهات المؤلفة من طابق واحد أو طابقين، والمحاطة بأسوار وحدائق، مع شرفات مكشوفة وكراجات توقظ فيها شعوراً أسرياً، صوراً محفوظة، معطوبة، باهتة بعض الشيء، مثلومة، مشوهة بإضافات وشوارب، حجيرات مقامة في السطوح، مركبة في الأركان الجانبية، في وسط الحدائق، لإبعاد الأبناء الذين يتزوجون ولا يستطيعون العيش وحيدين ويأتون ليضافوا إلى الأسر، مطالبين بحيز أوسع. تجتاز مصابغ، صيدليات، محلات أزهار، مقاهي، لوحات أطباء أسنان، أطباء، محاسبين ومحامين. وفي شارع بوليفار تمضي كمن تحاول اللحاق بأحد، وكما لو أنها ستنطلق جارية. قلبها يخرج من فمها. يمكن لك أن تنهاري في أي لحظة. وعند مستوى شارع روسا دوارتي تنعطف إلى اليسار وتركض. ولكن الجهد المفرط ينهكها وتعود إلى المشي، ببطء أكبر الآن، قريباً جداً من سور بيت أبيض، خشية أن يعاودها الدوار وتجد نفسها مضطرة إلى الاستناد إلى شيء ريثما تسترد أنفاسها. لم يتغير أي شيء باستثناء البناء الضيق المضحك المؤلف من أربعة طوابق الذي يقوم حيث كان بيت الدكتور إستانيسلاس الذي أجرى لها عملية استئصال اللوزتين. بل إنها تكاد تقسم بأن هؤلاء الخادمات اللواتي يكنسن الحدائق وواجهات البيوت سوف يحيينها: «مرحباً يا أورانيتا. كيف حالك أيتها الصغيرة. كم كبرت أيتها الطفلة. إلى أين تذهبين مستعجلة، لتحميك أم الرب المقدسة».

البيت لم يتغير كثيراً كذلك، مع أن لون جدرانه الرمادية الذي تتذكره أشد زخماً صار الآن باهتاً، مع بقع مقشورة الطلاء. الحديقة تحولت إلى أجمة أعشاب، وأوراق ميتة ونجيل يابس. لم يسقها أو يشذبها أحد منذ سنوات. ها

هي هناك شجرة المانجا. هل تلك هي شجرة الفلامبويان؟ لا بد أنها هي نفسها، حين كانت عليها أوراق وأزهار؛ أما الآن، فهي مجرد جذع بأذرع عارية كسيحة.

تستند إلى بوابة الحديد المزخرفة التي تؤدي إلى الحديقة. الممر المرصوف ببلاط تنمو الأعشاب في فراغاته يبدو مغطى بالعفونة، وعلى شرفة المدخل هناك كرسي متداع إحدى قوائمه مكسورة. لقد اختفى الأثاث المغطى بالكريتون الأصفر. واختفى كذلك مصباح الركن ذو الزجاج الملمع الذي كان يضيء الشرفة، وكانت تجتمع حوله الفراشات في النهار وتطنّ الحشرات في الليل. ولم تعد هناك على شرفة غرفتها نبتة أزهار الثالوث الخبازية التي كانت تغطيها: إنها الآن نتوء إسمنتي تغطيه بقع من الصدأ.

في أقصى الشرفة الأمامية يُفتح باب بأنّة طويلة. هيئة أنثوية ترتدي زياً أبيض تنظر إليها بفضول:

- أتبحثين عن أحد؟

لا تستطيع أورانيا التكلم؛ إنها منفعلة جداً، متأثرة، مرتعبة. تبقى صامتة، تنظر إلى تلك المجهولة. فتسألها المرأة:

- ماذا يمكنني أن أقدم إليك؟

- أنا أورانيا - تقول أخيراً - أنا ابنة أغوسطين كابرال.

الفصل الثاني

استيقظَ يشله إحساس بكارثة. بقي جامداً، يرمش في الظلام، أسير شبكة عنكَبوت، يوشك أن يلتهمه مخلوقٌ يغطيه الوبر وكله عيون. وأخيراً استطاع أن يمد يده نحو المصباح حيث يحتفظ بالمسدس والبندقية الرشاشة بمخزنها الجاهز. ولكنه بدلاً من السلاح، أمسك الساعة المنبهة: إنها الرابعة إلا عشر دقائق. تنهد. أجل، لقد استيقظ الآن تماماً. أهي الكوابيس من جديد؟ مازالت لديه بضع دقائق بعد، فهو المهووس بالدقة، لا يغادر السرير قبل الرابعة تماماً. دون دقيقة أقل أو دقيقة أكثر.

«إنني مدين بكل ما أنا عليه إلى الانضباط»، هذا ما خطر له. والانضباط الذي هو بوصلة حياته، يدين به للمارينز. أغمض عينيه. لقد كانت قاسية جداً تلك الاختبارات في سان بيدرو دي ماكوريس لكي يُقبل في سلك الشرطة الوطنية الدومينيكانية التي قرر اليانكيون إنشاءها في السنة الثالثة للاحتلال. وقد اجتازها دون صعوبات. وفي التدريب جرت تصفية نصف المتقدمين. أما هو فقد استمتع بكل واحد من تمرينات اللياقة، الإقدام، الجرأة، أو التحمل، بل وفي تلك التمارين القاسية لاختبار الإرادة والامتثال للقائد: الغطس في برك الوحل بكامل معدات الميدان أو البقاء على قيد الحياة في البراري بشرب بوله ومضغ سوق نباتات وأعشاب وجنادب. لقد منحه الرقيب جيتلمان أعلى درجات التقدير: «ستصل بعيداً يا تروخييو». وقد وصل، أجل، بفضل ذلك الانضباط الذي لا يلين، انضباط الأبطال والنساك الذي درّبه عليه جنود المارينز. تذكّر الرقيب سيمون جيتلمان بإحساس من الامتنان. إنه أمريكي وفي ونزيه بين أولئك الأمريكيين القميئين، ومصاصي الدماء، والجبناء. هل توصلت الولايات المتحدة إلى امتلاك صديق أشد منه إخلاصاً طوال الإحدى وثلاثين سنة الأخيرة؟ أي حكومة وقفت إلى جانبها أكثر منه في الأمم المتحدة؟ ومن هو أول من أعلن الحرب معها على ألمانيا واليابان؟ ومن الذي رشا بالدولارات أكثر منه ممثلي،

وشيوخ، وحكام ولايات، وعمد، ومحاميي، وصحفيي الولايات المتحدة؟ والمقابل: العقوبات الاقتصادية التي فرضتها عليه منظمة الدول الأمريكية، من أجل إرضاء الأسود رومولو بيتانكور [رئيس فنزويلا] ومواصلة امتصاص البترول الفنزويلي. لو أن جوني أبيس نفذ الأمور بصورة أفضل وانتزعت تلك القنبلة رأس المخنث رومولو، لما كانت هناك عقوبات ولما أزعجه اليانكيون الأوغاد في الحديث عن السيادة والديمقراطية وحقوق الإنسان. ولكنه ما كان سيكتشف آنذاك بأن له في تلك البلاد ذات المئتي مليون وغد، صديقاً وفياً، مثل سيمون جيتلمان، قادراً على خوض حملة شخصية للدفاع عن جمهورية الدومينيكان من فونيكس بأريزونا، حيث يعيش ويعمل في التجارة منذ تقاعده من قوات المارينز. دون أن يُطلب منه ذلك ودون أن يتقاضى شيئاً! يا له من درس لأولئك العلق في الكونغرس ومجلس النواب الذين علفهم هو نفسه طوال سنوات، والذين يريدون على الدوام مزيداً من الشيكات، ومزيداً من الامتيازات، ومزيداً من المراسيم، ومزيداً من الإعفاءات الضريبية، وعندما يحتاج إليهم الآن، يُظهرون عدم المبالاة والتجاهل.

نظر إلى الساعة: مازالت هناك أربع دقائق. أمريكي عظيم هو سيمون جيتلمان هذا! إنه جندي مارينز حقيقي. لقد هجر تجارته في أريزونا، ساخطاً من الإهانة الموجهة إلى تروخييو من قبل البيت الأبيض وفنزويلا ومنظمة الدول الأمريكية، وراح يقصف الصحافة الأمريكية الشمالية بالرسائل، مُذكراً بأن جمهورية الدومينيكان كانت طوال عهد تروخييو حصناً لمناهضة الشيوعية، وافضل حليف للولايات المتحدة في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية. ولم يكتف بذلك، بل أسس - ومن جيبه الخاص، يا للعنة! - لجان دعم، وأصدر نشرات، ونظم ندوات. ولكي يقدم مثلاً يحتذى، جاء إل **مدينة تروخييو** مع أسرته واستأجر بيتاً على الكورنيش. واليوم سيتناول سيمون وزوجته دوروثي الطعام معه في **القصر**، وسيتلقى رجل المارينز السابق وسام الاستحقاق خوان بابلو دوارتي، أرفع الأوسمة الدومينيكانية. إنه مارينز حقيقي، أجل يا سيدي!

إنها الرابعة بالضبط، الآن، أجل. أضاء المصباح الذي على الكوميدينو بجوار السرير، انتعل الخف ونهض، دون رشاقته القديمة. فعظامه تؤلمه ويشعر بتشقق عضلات ساقيه وظهره، مثلما حدث قبل بضعة أيام في **بيت كاويا**، في تلك الليلة اللعينة مع الصبية الخرقاء. الاستياء جعله يصر أسنانه. كان يتوجه نحو

الكرسي، حيث وضع له سينفورونو ملابس الرياضة وحذاء التمارين عندما أوقفه ارتياب مفاجئ. تفحص ملاءات السرير بجزع: اللطخة غير المنتظمة الضاربة إلى الرمادي كانت تُدنس بياض الملاءة القطنية. لقد خرجت منه مرة أخرى. محا السخط تلك الذكرى المزعجة في بيت كاوبا. اللعنة! اللعنة! فهذا ليس عدواً يمكنه هزيمته مثلما جرى لمئات، لآلاف، من واجههم وهزمهم على امتداد السنوات، بشرائهم، أو بتخويفهم، أو بقتلهم. إنه عدو يعيش في داخله، لحم من لحمه، دم من دمه. وها هو ذا يدمره في الوقت الذي هو أحوج ما يكون فيه إلى قوته وصحته بالضبط. لقد جلبت له تلك الفتاة المعروقة سوء الطالع.

وجد كل شيء مغسولاً ومكوياً بنصاعة: حمالة الخصيتين، الشورت، والقميص، وحذاء التمارين. ارتدى كل ذلك باذلاً مجهوداً كبيراً. لم يحتج في حياته قط إلى ساعات نوم طويلة؛ فمنذ شبابه، في سان كريستوبال، أو عندما كان قائداً للحراس الريفيين في معصرة قصب السكر بوكا تشيكا، كان يكتفي بأربع أو خمس ساعات نوم، حتى ولو كان قد شرب وضاجع حتى الفجر. قدرته على استعادة طاقته الجسدية بقدر قليل من الراحة، أسهمت في صنع هالة الكائن الخارق التي تحيط به. لقد انتهى كل ذلك. فهو يستيقظ متعباً ولا يتمكن من أن ينام ولو أربع ساعات؛ إنه ينام ساعتين أو ثلاث ساعات على الأكثر، ثم يستيقظ مذعوراً من الكوابيس.

الليلة الماضية بقي مؤرقاً في الظلام. كان يرى من خلال النوافذ قمم بعض الأشجار وقطعة من السماء الملطخة بالنجوم. وكانت تصل إليه، أحياناً، في الليل الهادئ، ثرثرة أولئك العجائز الساهرات، ينشدن أشعاراً لخوان دي ديوس بيثا، وآمادو نيرفو، وروبن داريو (وهذا جعله يشك في أن «**القذارة الحية**» موجود معهن، لأنه يحفظ أشعار داريو كلها عن ظهر قلب)، وقصائد «**عشرون قصيدة حب**» لبابلو نيرودا وعشاريات خوان أنظونيو آليكس اللاذعة. وكذلك أشعار زوجته دونيا ماريا بالطبع، الكاتبة والأخلاقية الدومينيكانية. راح يضحك، بينما هو يمتطي الدراجة الثابتة ويبدأ التمارين. لقد انتهى الحال بزوجته إلى التصديق وأخذ الأمر على محمل الجد، فصارت تقيم بين الحين والحين في قاعة التزلج في قصر راداميس، سهرات أدبية تُحضر إليها منشدات يلقين أشعاراً بلهاء. وقد اعتاد السيناتور هنري تشيرينوس، الذي يعتبر نفسه شاعراً، على المشاركة في تلك اللقاءات، ليعلف بفضلها تشمع كبده على حساب خزينة

الدولة. ومن أجل التودد إلى ماريا مارتينيث حفظت العجائز الحمقاوات، مثلما حفظ تشيرينوس نفسه، صفحات من «**تأملات أخلاقية**» أو مقاطع حوارية من الكتيب المسرحي «**صداقة زائفة**»، يلقينها ويصفقن كالببغاوات. أما زوجته - فتلك العجوز البدينة البلهاء، **السيدة المهيبة**، هي زوجته في نهاية المطاف - فقد صدقت أنها كاتبة وأخلاقية. ولم لا. ألا يقولون ذلك في الصحف والإذاعات والتلفزيون؟ أليست تلك «**التأملات الأخلاقية**» مع المقدمة التي كتبها المكسيكي خوسيه باسكونثيلوس هي كتاب إجباري مقرر في المدارس، وتعاد طباعته كل شهرين؟ أوليست «**صداقة زائفة**» هي أكبر نجاح مسرحي خلال الإحدى وثلاثين سنة من **عهد تروخييو**؟ أولم يضعها النقاد والصحفيون والأساتذة الجامعيون والكهنة والمثقفون في السحاب؟ أولم يكرسوا لها حلقة بحث في معهد العلوم التروخييوية؟ أولم يمتدح تصوراتها وأفكارها ذوو المسوح، المطارنة، أولئك الغربان الخونة، أولئك اليهوذات الذين عاشوا على جيوبه، ثم انقلبوا الآن أيضاً، مثل اليانكيين، ليتكلموا عن حقوق الإنسان؟ **السيدة المهيبة** كاتبة وأخلاقية. والفضل في ذلك لا يعود إليها، وإنما إليه، مثل كل شيء في هذه البلاد خلال ثلاثة عقود. فتروخييو قادر على تحويل الماء إلى نبيذ وعلى تكثير الخبز، إذا ما خطر ذلك لخصيتيه. لقد ذكَّر ماريا بذلك في شجارهما الأخير: «إنك تتسين أن هذه الحماقات لم تكتبيها أنت يا من لا تعرفين كتابة اسمك دون أخطاء نحوية، وإنما الغاليسي الخائن خوسيه ألمونيا الذي دفعتُ له أنا. ألا تعرفين ما يقوله الناس؟ إنهم يقولون إن الحرفين الأولين من «**صداقة زائفة**» A و F يعنيان: «كتبها ألمونيا»». داهمه الضحك مرة أخرى، ضحكة صريحة، سعيدة. لقد اختفى إحساسه بالمرارة. وقد انفجرت ماريا يومذاك بالبكاء، «كم تذلني!» وهددته بالشكوى إلى ماما خوليا. كما لو أن أمه المسكينة بسنوات عمرها الست والتسعين قادرة على التدخل في مشاكل العائلة العويصة. فزوجته، مثلها في ذلك مثل اخوته، تلجأ دوماً إلى **الأم السامية** متباكية. وقد اضطر إلى رشوتها مرة أخرى من أجل مصالحتها. لقد كان صحيحاً ما يقوله الدومينيكانيون بصوت خافت: الكاتبة والأخلاقية هي امرأة بخيلة مقتصدة، إنها روح مفعمة بالتقتير. وقد كانت كذلك منذ كانا عاشقين. ففي شبابها خطرت لها تلك الفكرة بغسل بدلات الشرطة الوطنية الدومينيكانية، وقد جمعت من ذلك العمل مدخراتها الأولى. حركة ساقيه على الدراجة الثابتة بعثت الحرارة في جسده. أحس بأنه

على ما يرام. خمس عشرة دقيقة: إنها كافية. ثم خمس عشرة دقيقة أخرى في التجذيف قبل أن يبدأ معركة اليوم.

جهاز التجذيف في الغرفة المجاورة المترعة بآلات التمارين. ما إن بدأ التجذيف حتى تردد صوت صهيل في هدوء الفجر. صهيل طويل، موسيقي، كأنه إشادة مرحة بالحياة. منذ متى لم يركب جواداً؟ منذ شهور. إنه لم ينفر من ذلك قط. فمازال ركوب الخيل، بعد مرور خمسين سنة، يبعث البهجة في نفسه، مثل الرشفة الأولى من كأس براندي إسباني من نوع كارلوس الأول، أو مثل النظرة الأولى إلى الجسد العاري، الأبيض، ذي الأشكال المكورة، لأنثى مشتهاة. لكن هذه الفكرة تسممت بتذكر تلك الفتاة النحيلة التي تمكن ابن العاهرة ذاك من دسها في سريره. أتراه فعل ذلك وهو مدرك للمذلة التي سيتعرض لها؟ ليس لديه الجرأة على عمل ذلك. ستكون هي قد أخبرته، وسيضحك هو مقهقهاً. ستتداول الألسنة القصة في مقاهي شارع الكونت. ارتعش من الخجل والغضب، بينما هو يواصل التجذيف، بانتظام. إنه يتعرق. لو أنهم يرونه يتعرق! فهذه واحدة أخرى من الأساطير التي تتردد عنه: «تروخييو لا يتعرق أبداً. إنه يرتدي في أشد أيام الصيف حرارة تلك البدلات التي من قماش صوفي، وقبعة ثلاثية الرؤس من القطيفة وقفازات، دون أن يظهر على جبهته بريق قطرة عرق». لا يتعرق إذا لم يشأ ذلك. ولكنه في وحدته، عندما يمارس تمارينه، يعطي الإذن لجسده بالتعرق. وفي هذه الفترة الأخيرة الصعبة، المشحونة بالمشاكل، حرم نفسه من الخيول. فلنر إذا ما كان سيذهب هذا الأسبوع إلى سان كريستوبال. وهناك سيمتطي حصاناً على انفراد، تحت الأشجار، إلى جانب النهر، مثلما كان يفعل في الزمن القديم، وسيشعر باستعادة الشباب. «لا يمكن حتى لذراعي أنثى أن يكونا حنونين مثل صهوة جواد أشقر.»

توقف عن التجذيف عندما أحس بتشنج في ذراعه الأيسر. وبعد أن مسح وجهه، نظر إلى البنطال عند مستوى السروال الداخلي: لا شيء. ما زال الظلام مخيماً. الأشجار والشجيرات في حدائق منزل راداميس تبدو لطخات قاتمة، تحت سماء صافية، مفعمة بأنوار صغيرة متلألئة. كيف هو بيت شعر نيرودا الذي يثير إعجاب الببغاوات صديقات الأخلاقية؟ «وترتجف الكواكب زرقاء في المدى البعيد.» أولئك العجائز يرتجفن حالمات بأن يحك لهن شاعرٌ حياءهن، فلا يجدن قريباً منهن سوى تشيرينوس، هذا الفرانكنشتاين. وداهمته مرة أخرى

ضحكة مفتوحة، وهو أمر نادراً ما يحدث له في هذه الأزمنة.

تعرى، وذهب بالخف والروب إلى الحمام ليحلق ذقنه. أشعل المذياع. كانوا يقرؤون الصحف في صوت الدومينيكان وإذاعة الكاريبي. لقد كانت نشرات الأخبار إلى ما قبل سنوات قليلة تبدأ في الساعة الخامسة. ولكن منذ أن عرف أخوه بيتان، وهو صاحب إذاعة صوت الدومينيكان، بأنه يستيقظ في الرابعة، قدم موعد نشرة الأخبار. وحذت بقية الإذاعات حذوه. إنهم يعرفون أنه يستمع إلى المذياع بينما هو يحلق ويستحم ويلبس، فيبذلون جهدهم بإتقان.

إذاعة صوت الدومينيكان، وبعد إعلان دعائي مغنى لفندق ومطعم الكونت، أعلنت فيه عن سهرة راقصة مع عمالقة الإيقاع بقيادة المايسترو غاتون والمغني جوني فينتورا، كشفت عن جائزة خوليا مولينا أرملة تروخييو لأكثر النساء إنجاباً. وكانت الفائزة هي السيدة أليخاندرينا فرانثيسكو، ولديها واحد وعشرون ابناً أحياء، وحين تلقت الميدالية التي تحمل رسم الأم السامية، صرحت قائلة: «أبنائي الواحد والعشرون يقدمون حياتهم في سبيل المنعم، إذا ما طلبها منهم».

«لستُ أصدقك أيتها النذلة».

كان قد نظف أسنانه وهو الآن يحلق ذقنه، بالدقة نفسها التي يفعل بها ذلك مذ كان غلاماً في ضواحي سان كريستوبال. حين لم يكن يعرف إذا ما كان لدى أمه المسكينة، التي تكرمها الآن البلاد بأسرها في يوم عيد الأمهات («ينبوع مشاعر الإحسان وأم الرجل المقدام الذي يحكمنا»، قال المذيع)، ما يكفي من اللوبياء والرز لإطعام ثمانية أفواه الأسرة في هذه الليلة. لقد كانت النظافة، والعناية بالجسد والتزين بالنسبة إليه هي الديانة الوحيدة التي يمارسها بوعي.

وبعد قائمة طويلة أخرى من الزائرين لبيت ماما خوليا لتهنئتها بيوم عيد الأمهات (يا للعجوز المسكينة، تستقبل بهدوء كل تلك القوافل من المدارس، والجمعيات، والمعاهد، والنقابات، شاكرة بصوتها الضعيف ما يقدمونه إليها من أزهار وتوقير)، بدأت الهجمات على المطرانين ريللي وبانال، «اللذين لم يولدا تحت شمسنا ولم يعانيا تحت قمرنا»، (وفكر: «هذا جميل»)، «ويتدخلان في حياتنا المدنية والسياسية، متوغلين في ميدان ما يستحق العقاب». جوني أبيس يريد اقتحام مدرسة سانتو دومنغو لإخراج المطران اليانكي من مخبئه. «ما الذي يمكن أن يحدث أيها الزعيم؟ الغرينغيون سيحتجون بالطبع. ألا يحتجون على كل شيء منذ بعض الوقت؟ لقد احتجوا من أجل غاليندیث، ومن أجل الطيار

مورفي، ومن أجل بنات آل ميرابيل، ومن أجل محاولة اغتيال بيتانكور ومن أجل ألف قضية أخرى. وما أهمية أن ينبحوا في كاراكاس، في بويرتو ريكو، في واشنطن، في نيويورك، في هافانا. المهم هو ما يحدث هنا. وذوو المسوح لن يتوقفوا عن التآمر إلا عندما يشعرون بالخوف.» لا. لم يحن الوقت بعد لتصفية الحساب مع ريللي، أو مع ابن العاهرة الآخر، ذلك المطران الإسباني بانال. ولكن الوقت سيحين، وسيدفعان الثمن. فغريزته لا تخدعه. يجب ألا يمسوا شعرة واحدة من المطرانين في الوقت الراهن، حتى ولو واصلا الإزعاج، مثلما يفعلان منذ يوم الأحد 25 كانون الثاني 1960 – منذ سنة ونصف!– عندما قُرئت الرسالة الأسقفية في كل القداديس، مفتتحة حملة الكنيسة الكاثوليكية ضد النظام.

يا للخبثاء! الغربان! الخصيان! يفعلون هذا به، هو الذي تقلد في الفاتيكان، على يد بيوس الثاني عشر، وسام الصليب البابوي الكبير من مرتبة سان غريغوريو. وفي إذاعة صوت الدومينيكان كان باينو بيتشاردو يتذكر، في خطاب ألقاه في اليوم السابق بوصفه وزيراً للداخلية والأديان، بأن الدولة قد أنفقت ستين مليون بيزو على هذه الكنيسة التي «يُلحق مطارنتها وأساقفتها الآن ضرراً كبيراً بالرعية الكاثوليكية الدومينيكانية». أدار مؤشر المذياع. كانوا يقرؤون في إذاعة الكاريبي رسالة احتجاج من مئات العمال لأن تواقيعهم لم تُضم إلى البيان الوطني الكبير «ضد الدسائس التي اقترفها المطران توماس ريللي، خائن الرب وتروخييو والمتنكر لرجولته، فهو بدلاً من البقاء في أبرشيته في سان خوان دي لاماغوانا، هرب مثل فأر مذعور ليختبئ في مدينة تروخييو ما بين تنانير الراهبات الأمريكيات الشماليات في مدرسة سانتو دومنغو، وكر الإرهاب والتآمر». عندما سمع أن وزير التربية قد أسقط الصفة الرسمية عن مدرسة سانتو دومنغو، بسبب «تواطؤ أولئك الراهبات الأجنبيات مع الدسائس الإرهابية لمطراني سان خوان دي لاماغوانا و لابيغا ضد الدولة»، رجع إلى صوت الدومينيكان في الوقت المناسب لسماع المذيع يعلن عن انتصار جديد لفريق البولو الدومينيكاني في باريس، حيث «في ملعب باغتيل البديع، وبعد إلحاق الهزيمة بفريق ليوبرد بخمس نقاط لأربع، حصل على كأس آبيرتو، مسبباً الذهول للمنافس الكفء». وكان رامفيس ورادامیس اللاعبين اللذين نالا أكبر

قسط من التصفيق. كذب، من أجل تملق الدومينيكانيين. وتملقه هو. أحس في فوهة معدته بالحموضة التي تداهمه كلما فكر في ابنيه، في هذين المخفقين بنجاح باهر، مخيبي الأمل. يلعبان البولو في باريس ويضاجعان فرنسيات، بينما أبوهما يخوض أقسى معركة في وجوده!

إنه يغسل وجهه. دمه يتحول إلى خل وهو يفكر في ابنيه. رباه، لم يكن هو من أخطأ. فسلالته سليمة، إنه فحل إنسال من مرابع كبرى. ولإثبات ذلك هاهم هناك الأبناء الذين أنجبهم حليبه في بطون أخرى. منهم ابن لينا لوفاتون دون المضي بعيداً، إنهم مربوعون، نشيطون، يستحقون ألف مرة أن يحتلوا مكان هذين البليدين، عديمي الكفاءة اللذين يحملان أسماء شخصيات أوبرا. لماذا أصرت السيدة المهيبة على أن تطلق على ابنيهما أسماء شخصيات عايدة، تلك الأوبرا التي شاهدتها في ساعة نحس في نيويورك؟ لقد جلب لهما الاسمان سوء الطالع؛ جعلا منهما مهرجي أوبرا بدل أن يكونا رجلين يكسو الشعر صدريهما. فهما بوهيميان، كسولان بلا شخصية ولا طموح، لا ينفعان إلا لحفلات القصف واللهو. لقد طلعا مثل أخوته، وليس مثله. إنهما مثل نيغرو، وبيتان، وبيبي، وآنيبال، هذه الزمرة من الزعران، الطفيليين، التنابلة، والتعساء الذين هم أخوته. لم يحصل أي واحد منهم على جزء من مليون من طاقته وإرادته وبصيرته. ما الذي سيصيب هذه البلاد إذا ما مات؟ من المؤكد أن رامفيس لا ينفع تماماً حتى في الفراش على خلاف ما تقوله الإشاعة التي ينشرها عنه متملقوه. هل ضاجع كيم نوفاك! هل ضاجع زازا غابور! هل مرت على سلاحه ديبرا باغيت ونصف هوليود! يا للمآثر. بهدايا مرسيدس بنز، وكاديلاك، ومعاطف من فراء النمس يمكن حتى للأحمق فاليريانو أن يضاجع ملكة جمال الكون وإليزابيث تايلور. يا للمسكين رامفيس. إنه يشك حتى في أنه يميل كثيراً إلى النساء. إنه يميل إلى المظاهر، إلى أن يقال إنه أفضل خيّال في هذه البلاد، أفضل حتى من بورفيريو روبيروسا، الدومينيكاني المشهور في العالم بحجم عضوه ومآثره كقواد دولي. أكان يلعب البولو مع ابنيه أيضاً هناك في باغتيل، ذلك المتهتك العظيم؟ لقد حسّن من مزاجه التعاطف الذي بدأ يشعر به تجاه بورفيريو منذ أن انضم إلى سلك مساعديه العسكريين، وهو إحساس احتفظ به على الرغم من إخفاق زواجه من ابنته الكبرى، **زهرة الذهب**. فلدى بورفيريو طموح، وقد ضاجع نساء عظيمات، ابتداء من الفرنسية دانييل داريو وحتى المليونيرة باربرا هوتون، دون أن

يهدي إليهن باقة ورد، بل إنه يعتصرهن، ليصبح ثرياً على حسابهن.

ملأ حوض الحمام بأملاح وفقاعات رغوة وغطس فيه بالارتياح الزخم الذي يفعل به ذلك كل صباح. لقد عاش بورفيريو على الدوام حياة جيدة. زواجه من باربرا هوتون استمر شهراً واحداً، ما يكفي ليسحب منها مليون دولار نقداً ومليوناً آخر ممتلكات. لو أن رامفيس أو راداميس كانا مثل بورفيريو على الأقل! هذا القضيب الحي الذي يقطر طموحاً. ومثل أي ناجح، يوجد له أعداء. وهم يسعون دوماً إلى أن يسربوا إليه إشاعات عنه، ينصحونه بأن يُبعد روبيروسا عن السلك الدبلوماسي لأن فضائحه تلطخ سمعة البلاد. إنهم حاسدون. فأي دعاية لجمهورية الدومينيكان أفضل من قضيب كهذا. مذ كان متزوجاً من ابنته زهرة الذهب وهم يريدون منه أن يقطع رأس ذلك الخلاسي غاوي المضاجعة الذي غرر بابنته، وكسب ودّها. ولكنه لن يفعل ذلك. فهو يعرف الخونة، يشمهم حتى قبل أن يعرفوا هم أنفسهم بأنهم سيخونون. ولهذا ما يزال حياً بينما يهوذات كثيرون يتعفنون في سجن الأربعين، وفكتوريا، وفي جزيرة بياتا، أوفي بطون أسماك القرش أو أنهم يُسمّنون ديدان الأرض الدومينيكانية. مسكين رامفيس، مسكين راداميس. ولحسن الحظ أن لدى أنخليتا شيء من قوة الشخصية وهي تبقى إلى جانبه على الدوام.

خرج من حوض الاستحمام وتلقى دفقة من ماء الدوش. توالي الماء الساخن والبارد ينشطه. إنه الآن متحمس حقاً. وبينما هو يرش مزيل العرق وبودرة التالك أعار انتباهه إلى إذاعة الكاريبي وهي تُعبر عن أفكار وشعارات «**الذكي الشرير**»، كما يلقب جوني أبيس عندما يكون رائق المزاج.

إنها تشن هجوماً على «فأر ميرافلوريس»[1]، « ذلك الحثالة الفنزولي»، ويُظهر المذيع الصوت المناسب للحديث عن مخنث، مؤكداً أنه إضافة إلى تجويع الشعب الفنزويلي، فإن الرئيس رومولو بيتانكور قد جلب سوء الطالع لفنزويلا، أولم تنفجر للتو طائرة أخرى من الخطوط الجوية الفنزولية مودية بحياة اثنين وستين شخصاً؟ لن يخرج هذا المخنث بما يبتغي. لقد توصل إلى جعل منظمة الدول الأمريكية تفرض عليه العقوبات، ولكن الكاسب هو من يضحك أخيراً. فليس يقلقه فأر قصر ميرافلوريس، ولا مونيوث مارين، رجل المخدرات في

---

[1] – قصر ميرافلوريس هو مقر رئاسة الجمهورية في فنزويلا.

بويرتو ريكو، ولا فيغيريس، الكاوبوي القاتل في كوستاريكا. أما الكنيسة فتقلقه. لقد حذره بيرون وهو يغادر مدينة تروخييو متوجهاً إلى إسبانيا: «كن حذراً من القسس أيها الجنراليسمو. فليست الأوليغارشية المتزلفة، ولا العسكريون هم الذين أسقطوني؛ وإنما ذوو المسوح. فتحالف معهم أو أقض عليهم دفعة واحدة». أما هو فلن يتمكنوا من إسقاطه. إنهم يزعجون، أجل هذا صحيح. منذ يوم 25 كانون الثاني 1960، أي منذ سنة وأربعة أشهر بالضبط، لم يتوقفوا يوماً واحداً عن الإزعاج. رسائل، مذكرات، قداديس، تراتيل، مواعظ. وكل ما تقوله عصبة الأوغاد ذوي المسوح وتفعله ضده يتردد صداه في الخارج، وتتحدث الصحف والإذاعات والتلفزيونات عن سقوط تروخييو الوشيك، الآن «وقد أدارت له الكنيسة ظهرها».

ارتدى السروال الداخلي، وقميص الفانيلا والجوربين، وهي الأشياء التي كان سينفوروسو قد طواها في العشية، إلى جانب الخزانة، وإلى جوار الشماعة حيث تتألق البدلة الرمادية، والقميص الأبيض ذو الياقة وربطة العنق الزرقاء مع لطخات بيضاء التي سيرتديها هذا الصباح. كيف يقضي المطران ريللي أيامه ولياليه في مدرسة سانتو دومنغو؟ في مضاجعة الراهبات؟ إنهن فظيعات، لبعضهن شعور في وجوههن. إنه يتذكرهن، فابنته أنخيليتا درست في تلك المدرسة.. مدرسة الناس المحترمين. وحفيداته درسن هناك أيضاً. كم تملقته أولئك الراهبات، إلى أن ظهرت الرسالة الأسقفية. ربما كان جوني أبيس على حق وأن ساعة العمل قد حانت. فبما أن البيانات، والمقالات، واحتجاجات الإذاعات والتلفزيون، والهيئات، ومجلس الشيوخ، لم تنفع معهم، فلا بد من الضرب. الشعب هو الذي فعل ذلك! طغى على الحراس المكلفين هناك بحماية المطرانين الأجنبيين، واقتحم مدرسة سانتو دومنغو ومطرانية لابيغا، وسحب الأمريكي ريللي والإسباني بانال من شعريهما وشنقهما في الشارع. لقد انتقم الشعب لإهانة الوطن. وتُبعث بعد ذلك التعازي والاعتذارات إلى الفاتيكان، إلى الأب المقدس يوحنا الوغد - لقد كان بالاغير معلماً في كتابة تلك البرقيات والاعتذارات - وتجري بعد ذلك معاقبة نموذجية لحفنة من المذنبين، يتم اختيارهم من بين المجرمين العاديين. هل يرتدع الغربان الآخرون حين يرون جثتي المطرانين ممزقتين بالغضب الشعبي؟ لا، ليس هذا بالوقت المناسب لعمل ذلك. يجب عدم الإقدام على أي شيء يعطي المبرر لكينيدي كي يرضي بيتانكور،

ومونيوث مارين وفيغيريس ويأمر بإنزال قواته. يجب الحفاظ على برودة الرأس والتصرف بحذر، مثلما يليق بجندي مارينز.

ولكن ما يمليه عليه العقل لا يُرضي غدده. كان عليه أن يتوقف عن ارتداء ملابسه، مبهوراً. فالغيظ يصعد عبر كل دروب جسده، نهر من المهل البركاني يصعد إلى دماغه الذي بدا وكأنه يفرقع. عدّ حتى العشرة وعيناه مغمضتان. فالغيظ سيئ للحكم وسيئ لقلبه، إنه يقربه من السكتة القلبية. في ليلته السابقة في بيت كاوبا، أوصله الغيظ إلى حافة الإغماء. راح يُهدئ نفسه. لقد عرف على الدوام كيف يتحكم بغيظه كلما احتاج إلى ذلك: بالتكتم، وبإبداء المودة والعاطفة تجاه أسوأ النفايات البشرية، أرامل أو أبناء أو أخوة الخونة إذا اقتضى الأمر. ولهذا سوف يكمل اثنتين وثلاثين سنة وهو يحمل على كاهله أثقال بلد بكامله.

كان يبذل جهده في المهمة المعقدة لتثبيت جوربيه بأربطة الساق، حتى لا تحدث فيهما تجعدات. والآن، كم هو مبهج إطلاق العنان للغيظ حينما لا يكون فيه أي خطر على الدولة، حين يكون بالإمكان فرض العقاب اللائق على الفئران، الضفادع، الضباع، والأفاعي. بطون أسماك القرش شاهدة على أنه لم يحرم نفسه من هذه المتعة. أوليست جثة الخائن الغاليسي خوسيه ألمونيا شاهدة هناك في مكسيكو؟ وجثة الباسكي خيسوس دي غاليندث، ذلك الثعبان الآخر الذي يلدغ اليد التي تطعمه؟ وجثة رامون ماريرو أريستي الذي ظن أن كونه كاتباً مشهوراً يخوله تقديم تقارير إلى **النيويورك تايمز** ضد الحكومة التي تدفع تكاليف سكره وطباعة كتبه وعاهراته؟ وجثث الأخوات ميرابال الثلاث اللواتي أردن أن يلعبن لعبة الشيوعيات والبطلات، أوليست كلها هناك، شاهدة على أنه حين يفلت غيظه فليس ثمة سد قادر على وقفه؟ وحتى فاليريانو وباراخيتا، مجنونا شارع الكونت، يمكنهما أن يقدما دليلاً في هذا المجال.

بقي الحذاء في يده وهو يتذكر ذلك الثنائي المشهور. لقد كانا مؤسسة قائمة بذاتها في المدينة الاستعمارية القديمة. يقيمان تحت أشجار الغار في حديقة كولون، وبين قناطر الكتدرائية، وفي ساعات الازدحام القصوى، يظهران عند أبواب محلات الأحذية والمجوهرات الأنيقة في شارع الكونت، ويؤديان استعراضهما كمجنونين كي يلقي إليهما الناس قطعة من النقود أو شيئاً يأكلانه. لقد رأى هو نفسه فاليريانو وباراخيتا مرات كثيرة بأسمالهما وزيناتهما العبثية. عندما ظن فاليريانو نفسه المسيح، صار يجر صليباً؛ وعندما ظن نفسه نابليون، كان

يؤرجح عصا مكنسة، ويزمجر مصدراً الأوامر وينقّض مهاجماً العدو. جاء أحد مخبري جوني أبيس يوماً بخبر أن المجنون فاليريانو بدأ يسخر من **الزعيم**، ويسميه **غطاء القنينة**. أثار الأمر فضوله. ذهب ليرى ذلك بنفسه من سيارة قاتمة الزجاج. كان المجنون العجوز، بصدريته المغطاة بالمرايا وأغطية زجاجات البيرة، يتبختر عارضاً أوسمته بحركات مهرج أمام جمهرة من الناس المذعورين، والمترددين بين أن يضحكوا أو يهربوا مبتعدين. «صفقوا لغطاء القنينة أيها الأنذال»، كانت باراخيتا تصرخ بذلك وهي تشير إلى صدر المجنون المتلألئ. أحس هو حينئذ بالسعير يجوب جسده، يُفقده صوابه، يستحثه على معاقبة المتواقح. أصدر الأمر على الفور. ولكنه فكر في صباح اليوم التالي بأن المجانين لا يعرفون في نهاية المطاف ما يفعلونه، وأنه بدلاً من معاقبة فاليريانو يجب إلقاء القبض على الظرفاء الذين علّموا المجنونين عمل ذلك. فأمر جوني أبيس، في فجر يوم قاتم مثل هذا اليوم: «أطلق سراحهما، فالمجانين هم مجانين». فاحتقن وجه قائد المخابرات العسكرية: «لقد فات الأوان يا صاحب الفخامة. فقد ألقينا بهما إلى أسماك القرش يوم أمس، وهما حيان، مثلما أمرت سيادتك».

نهض واقفاً، وكان قد انتعل حذاءه. رجل الدولة لا يندم على قراراته. وهو لم يندم قط على أي شيء. ويرغب في إلقاء هذين المطرانين حيين إلى أسماك القرش أيضاً. بدأ مرحلة النظافة الصباحية اليومية التي يمارسها بتلذذ، متذكراً رواية قرأها في شبابه، وهي الوحيدة التي تبقى حاضرة لديه: **كوفاديس؟** إنها قصة رومان ومسيحيين، ولم ينس منها صورة المتأنق والثري جداً بيترونيو، **فيصل الأناقة**، الذي ينبعث كل صباح بفضل المساجات والاغتسالات والمراهم والخلاصات والعطور ومداعبات جواريه. لو كان لديه متسع من الوقت لفعل ما كان يفعله ذلك **الفيصل**: يسلم نفسه كل صباح لأيدي مدلكات، وأطباء أقدام، ومشذبات أظفار، وحلاقين، ومُحَمّمين، بعد الانتهاء من التمارين من أجل إيقاظ العضلات وتنشيط القلب. لقد كان يقوم بمساج قصير في الظهيرة، بعد الغداء، وبتمهل أكبر في أيام الآحاد، عندما كان بإمكانه أن يتجاهل لساعتين أو ثلاث ساعات المشاغل التي تستغرقه. ولكن الأزمنة لم تعد مناسبة للاسترخاءات الحسية مثلما كان يفعل بيترونيو العظيم. عليه أن يقتنع بهذه الدقائق العشر التي يتعطر فيها بعطر ياردلي المزيل لرائحة العرق الذي يرسله إليه من نيويورك

مانويل ألفونسو- يا للمسكين مانويل، كيف ستكون حاله بعد العملية الجراحية -، والكريم الفرنسي المرطب للبشرة بينافيه دو ماتان، وماء الكولونيا، وهو أيضاً من ماركة ياردلي، مع عبق خفيف من رائحة حقول الذرة ليفرك به صدره. عندما انتهى من تسريح شعره وسوى طرفي شاربه الذبابي الذي أطلقه منذ عشرين سنة، مسح وجهه بمسحوق التالك بإسهاب لكي يخفي تحت سحابة بيضاء رقيقة تلك السمرة التي أتته من أسلافه لأمه، الزنوج الهايتيين، والتي طالما احتقرها في بشرة الآخرين وفي بشرته بالذات.

كان قد أكمل ارتداء ملابسه، مع السترة وربطة العنق، في الساعة الخامسة إلا ست دقائق. وتأكد من ذلك برضى: فهو لا يتجاوز الموعد أبداً. لقد كانت تلك هي إحدى تطيراته: إذا لم يدخل إلى مكتبه في الساعة الخامسة تماماً، فإن شيئاً خبيثاً سيحدث في ذلك النهار.

دنا من النافذة. مازال الظلام مخيماً، وكأن الوقت منتصف الليل. ولكنه لمح نجوماً أقل مما كانت عليه قبل ساعة. وكانت تبدو فزعة. فالنهار على وشك أن يبدأ وهي ستختفي سريعاً. تناول عكازاً واتجه نحو الباب. ما كاد يفتحه حتى سمع خبط كعوب المساعدَين العسكريَين.

- صباح الخير يا صاحب الفخامة.

- صباح الخير يا صاحب الفخامة.

ردّ عليهما بإيماءة من رأسه. وبنظرة سريعة عرف أنهما في كامل زيهما. لم يكن يتقبل الإهمال، أو التهاون، من أي ضابط أو جندي في القوات المسلحة، ولكن حدوث مثل ذلك بين المساعدين العسكريين، الوحدة المكلفة بحراسته، كنقص أحد الأزرار، أو وجود لطخة أو تجعيدة في البنطال أو السترة، أو ميلان قبعة، هي مخالفات خطيرة يُعاقب عليها بعدة أيام سجن، وأحياناً بالطرد من الوحدة وإعادة المُخالف إلى الكتائب النظامية.

كان نسيم خفيف يهز أشجار منزل راداميس، وبينما هو يجتازها مستمعاً إلى حفيف الأوراق، جاءه من الإسطبل مرة أخرى صهيل جواد. جوني أبيس وتقرير عن سير الحملة ضد المطرانيين، زيارة إلى القاعدة الجوية في سان إيسيدرو، تقرير تشيرينوس، غداء مع جندي المارينز، ثلاث أو أربع مقابلات، لقاء مع أمين

الدولة للداخلية والأديان، لقاء مع بالاغير، لقاء مع كوتشو ألبريث بينا، رئيس الحزب الدومينيكاني، ثم نزهة عبر الكورنيش، بعد تحية ماما خوليا. هل يذهب للنوم في سان كريستوبال، ليتخلص من الطعم الكريه الذي خلفته لديه الليلة الأخيرة هناك؟

دخل إلى مكتبه في القصر الوطني عندما كانت ساعته تشير إلى الخامسة. كان الفطور على طاولة المكتب – عصير فواكه، خبز محمص مع زبد، قهوة معدة للتو – ومع الفطور فنجانان. وعندئذ نهض واقفاً شبح رئيس الاستخبارات العسكرية المترهل، الكولونيل جوني أبيس غارثيا.

– صباح الخير يا صاحب الفخامة.

الفصل الثالث

- لن يأتي - صاح سلفادور فجأة، ثم أضاف: - إنها ليلة ضائعة أخرى، وسترون.

فرد آماديتو على الفور فاقداً الصبر:

- سيأتي. لقد ارتدى الزي الأخضر الزيتوني. وتلقى المساعدون العسكريون الأمر بتجهيز سيارة الشفروليه الزرقاء. لماذا لا تصدقونني؟ سيأتي.

كان سلفادور وآماديتو يشغلان المقعد الخلفي من السيارة المتوقفة قبالة الكورنيش وقد تبادلا الكلام نفسه مرتين على الأقل خلال نصف الساعة التي أمضياها هناك. وكان أنطونيو إمبرت يجلس وراء المقود، وأنطونيو دي لاماثا إلى جواره، يستند بمرفقه إلى النافذة، ولم يتدخلا للتعليق بأي شيء هذه المرة أيضاً. الأربعة ينظرون بجزع إلى السيارات القليلة القادمة من مدينة تروخييو والتي تمر أمامهم مخترقة الظلام بمصابيحها الصفراء، باتجاه سان كريستوبال. لم تكن بينها الشفروليه الزرقاء السماوية، موديل 1957، ذات الستائر على نوافذها، والتي ينتظرونها.

كانوا على بعد مئات الأمتار من سوق المواشي، حيث توجد عدة مطاعم - لا بد أن مطعم البوني، أكثرها شعبية، مزدحم الآن بأناس يأكلون اللحم المشوي - وباران تُعزف فيهما الموسيقى، ولكن الريح تهب باتجاه الشمال ولا يصلهم أي صخب من هناك، إلا أنهم يلمحون الأنوار من بعيد، ما بين جذوع وقمم أشجار النخيل. أما دوي الأمواج بالمقابل وهي تتكسر على الصخور وجلبة تراجعها فكان قوياً إلى حد يتوجب عليهم معه أن يرفعوا أصواتهم كثيراً ليسمعوا ما يقولونه فيما بينهم. كانت سيارتهم مغلقة الأبواب ومطفأة الأنوار، وجاهزة للانطلاق.

- أتتذكرون عندما انتشرت موضة المجيء إلى هذا الكورنيش للاستمتاع بالبرودة، دون خوف من ملاحقة المخبرين؟ - وأخرج أنطونيو إمبرت رأسه من النافذة ليستنشق النسيم الليلي ملء رئتيه، ثم أضاف: - هنا بدأنا نتكلم جدياً عن هذه العملية.

لم يردّ عليه أي واحد من أصدقائه فوراً، كما لو أنهم يستشيرون ذاكرتهم، أو أنهم لم يولوا اهتماماً لما يقوله.

ولكن سلفادور استريّا سعد الله قال بعد هنيهة:

- أجل هنا، على الكورنيش، قبل نحو ستة أشهر.

فدمدم أنطونيو دي لاماثا دون أن يلتفت:

- بل قبل ذلك. عندما قتلوا بنات آل ميرابال، في شهر تشرين الثاني، وقد تحدثنا عن تلك الجريمة هنا. إنني متأكد من ذلك. وكان قد مضى علينا آنذاك بعض الوقت ونحن نأتي إلى الكورنيش في الليل.

وشرد إمبرت:

- يبدو حلماً.. صعباً، وبعيداً جداً. مثلما يحلم أحدنا في صباه بأن يكون بطلاً، مكتشفاً، ممثلاً سينمائياً. مازلت غير مصدق أن ذلك سيحدث هذه الليلة.

- هذا إذا أتى - دمدم سلفادور متأففاً.

فكرر آماديتو بحزم:

- أراهنك على ما تشاء بأنه سيأتي أيها التوركو[1].

وزمجر أنطونيو دي لاماثا:

- ما يجعلني أتشكك هو أننا في يوم الثلاثاء. وهو يذهب دوماً إلى سان كريستوبال في أيام الأربعاء، وأنت تعرف ذلك أفضل من الجميع يا آماديتو لأنك من سلك المساعدين العسكريين. لماذا غيّر اليوم يا ترى؟

فألح الملازم الأول:

- لست أدري السبب. ولكنه سيذهب. لقد ارتدى الزي الأخضر الزيتوني. وأمر بإعداد الشفروليه الزرقاء. سيذهب.

- سيكون هناك فَرْجٌ بانتظاره في بيت كاوبا - قال أنطونيو إمبرت - فرج جديد، غير مفتوح.

فقاطعه سلفادور:

- لنتكلم في أمر آخر إذا كان ذلك لا يهمك.

- إنني أنسى دوماً أنه لا يمكن الحديث عن الفُروج أمام تقي مثلك - قال الجالس إلى المقود معتذراً - فلنقل إن لديه موعداً في سان كريستوبال. هل يمكنني قول ذلك أيها التوركو؟ أم أن هذا يسيء أيضاً إلى أذنيك الرسوليتين؟

---

[1] التوركو هي تسمية تطلق في أميركا اللاتينية على المواطنين من أصل عربي. والمقصود بها هنا هو سلفادور إستريا سعد الله، اللبناني الأصل.

ولكن لم يكن هناك من لديه رغبة في المزاح. ولا حتى إمبرت نفسه؛ فقد كان يتكلم لمجرد شغل وقت الانتظار.

- انتبهوا. صاح أنطونيو دي لاماثا وهو يقرّب رأسه.

- إنها شاحنة - ردّ سلفادور بمجرد النظر إلى المصباحين الأصفرين اللذين يقتربان، ثم تابع قائلاً: - أنا لستُ تقياً ولا متعصباً يا أنطونيو. إنني أمارس إيماني وحسب. وقد صرت فخوراً بكوني كاثوليكياً بعد رسالة المطارنة الأسقفية في 31 كانون الثاني من العام الماضي.

لقد كانت السيارة القادمة شاحنة بالفعل. مرت مزمجرة ومتبخترة بحمولة عالية من الصناديق المثبتة بحبال؛ وراحت زمجرتها تخفت إلى أن تلاشت.

- وهل محظور على الكاثوليكي التكلم عن الفُروج ومسموح له بالقتل أيها التوركو؟ - استفزه إمبرت. وهو ما يفعله بكثرة: ذلك أنه وسلفادور الصديقان الأكثر حميمية بين أفراد الجماعة؛ وهما يتبادلان المزاح على الدوام، ويكون مزاحهما ثقيلاً في بعض الأحيان حتى يخيل لمن معهما بأنهما سينتهيان إلى تبادل اللكمات. ولكنهما لم يتشاجرا قط، فقد كانت أخوتهما متينة لا تنفصم. ومع ذلك، لم يكن يبدو على التوركو هذه الليلة أي ميل إلى المزاح:

- قتل أي شخص، لا. أما القضاء على طاغية فنعم. هل سمعت بكلمة «المستبد»؟ الكنيسة تسمح بذلك في بعض الحالات القاهرة. لقد كتبَ حول الأمر القديس توما الأكويني. أترغب في أن تعرف كيف عرفتُ بذلك؟ عندما بدأتُ بمساعدة جماعة 14 حزيران وأدركتُ أنني قد اضطر إلى الضغط على الزناد في أحد الأيام، ذهبت لاستشارة مرشدنا الروحي، الأب فورتين. وهو راهب كندي، في سنتياغو. وقد رتب لي لقاء مع المونسينيور لينو ثانيني، القاصد الرسولي لقداسته. «هل إقدام المؤمن على قتل تروخييو خطيئة أيها المونسينيور؟» أغمض عينيه متأملاً. ويمكنني أن أكرر لك الكلمات التي قالها لي بلكنته الإيطالية. ثم أراني عبارة القديس توما في «**خلاصة اللاهوت**». ولو أنني لم اقرأ تلك العبارة لما كنت معكم هنا هذه الليلة.

كان أنطونيو دي لاماثا قد عاد للنظر إليه:

- هل استشرت مرشدك الروحي حول هذا الذي نحن فيه؟

بدا صوته مضطرباً. وخشي الملازم آمادو غارثيا غيرّيرو أن ينفجر في واحدة من نوبات الهيجان تلك التي كان دي لاماثا ينزع إليها منذ أن دبر تروخييو

اغتيال أخيه أوكتافيو قبل سنوات. نوبة مثل التي أوشكت أن تقوض الصداقة التي تربطه بسلفادور استريّا سعد الله. ولكن هذا طمأنه:

- لقد جرى ذلك منذ زمن بعيد يا أنطونيو. عندما بدأتُ بمساعدة جماعة 14 حزيران. هل تظنني مخنثاً إلى حد إبلاغ كاهن مسكين بمسألة مثل هذه؟

- اشرح لي لماذا تستطيع أن تقول «مخنثاً» ولا يمكنك أن تقول طيز، فرج، مضاجعة أيها التوركو. - قال إمبرت ذلك ساخراً، ومحاولاً أن يرخي التوتر مرة أخرى - ألا تستثير كل الكلمات البذيئة غضب الرب؟

- غضب الرب لا تستثيره الكلمات وإنما الأفكار البذيئة - قال التوركو منصاعاً لمجاراته - وربما لا يُغضبه المخنثون الذين يسألون عن تخنثات. ولكنهم يسببون له ضجراً شديداً.

- وهل شاركت في القربان الرباني صباح هذا اليوم لكي تصل إلى الحدث العظيم بروح نقية؟

- أنا أشارك في تناول القربان كل يوم، منذ عشر سنوات - أكد سلفادور - لست أدري إذا ما كانت روحي مثلما يجب أن تكون روح المسيحي. فهذا أمر لا يعرفه إلا الله.

«إن روحك كذلك»، فكر آماديتو. فبين جميع الأشخاص الذين تعرّف عليهم خلال إحدى وثلاثين سنة من حياته، كان التوركو هو أكثرهم إثارة للاعجاب. لقد كان متزوجاً من أورانيا ميسيس، إحدى خالات آماديتو، وأكثرهن محبة لديه. فمنذ أن كان تلميذ ضابط في أكاديمية معركة كاريراس العسكرية التي يقودها الكولونيل خوسيه ليون إستيفيث (بيتشيتو)، زوج أنخيليتا تروخييو، اعتاد على قضاء أيام الخروج من الثكنة في بيت آل استريّا سعد الله. وصارت لسلفادور أهمية كبيرة في حياته؛ فهو يبوح له بمشاكله، ومخاوفه، وأحلامه، وشكوكه، ويطلب منه النصح حيال أي قرار حاسم. وقد أقام آل استريا سعد الله حفلة الاحتفاء بتخرج آماديتو وحصوله على سيف الشرف - الأول على دفعة مؤلفة من خمسة وثلاثين ضابطاً! -، وحضرت الحفلة خالاته الأحدى عشرة، كما احتفلوا بعد سنوات من ذلك بالخبر الذي ظن الملازم الشاب أنه سيكون أفضل خبر يتلقاه على الإطلاق: قبول طلبه بالانضمام إلى أكثر الوحدات شهرة في القوات المسلحة: وحدة المساعدين العسكريين، المكلفين بتأمين الحماية الشخصية للجنراليسمو.

أغمض آماديتو عينيه واستنشق النسيم المالح الذي يدخل من نوافذ السيارة

الأربع المفتوحة. كان إمبرت، والتوركو، وأنطونيو دي لاماثا يعتصمون بالصمت. لقد تعرّفَ على إمبرت وعلى دي لاماثا في بيت التوركو في شارع مهاتما غاندي، وشاءت الصدفة أن يكون شاهداً على المشادة بين التوركو وأنطونيو، وكان الشجار عنيفاً إلى حد ظن معه أنهما سيتبادلان إطلاق الرصاص، وبعد شهور من ذلك، شهد المصالحة بين أنطونيو وسلفادور في سبيل تحقيق الهدف نفسه: قتل التيس. من كان سيصدق في ذلك اليوم من عام 1959، عندما أعد له سلفادور وأورانيا تلك الحفلة التي تناولوا فيها الكثير من الروم، أنه سيكون بعد أقل من سنتين، في هذه الليلة الدافئة المفعمة بالنجوم ليوم الثلاثاء 30 أيار 1961، بانتظار تروخييو نفسه لقتله. كم من الأمور جرت منذ ذلك اليوم الذي جاء فيه إلى البيت رقم 21 في شارع مهاتما غاندي، وأمسكه سلفادور من ذراعه واقتاده إلى أقصى ركن في الحديقة، بمظهر رصين.

– عليّ أن أخبرك شيئاً يا آماديتو. بدافع المحبة التي أكنها لك. والتي نكنها لك جميعنا في هذا البيت.

كان يتكلم بصوت خافت جداً حتى أن الضابط الشاب اضطر إلى تقريب رأسه منه ليسمعه.

– وما سبب هذا الكلام الآن يا سلفادور؟

– سببه أنني لا أريد إلحاق الضرر بحياتك المهنية. فمجيئك إلى هنا قد يسبب لك المشاكل.

– أي نوع من المشاكل؟

تشنجت ملامح التوركو التي تبدو هادئة على الدوام. وأطل من عينيه وميض إنذار.

– إنني أتعاون مع شبان حركة 14 حزيران. وإذا ما كتشفوا ذلك سيكون الوضع حرجاً بالنسبة إليك. فأنت ضابط في وحدة مساعدي تروخييو العسكريين. تصور!

لم يكن بإمكان الملازم أن يتصور سلفادور متآمراً سرياً، يساعد أولئك الذين نظموا أنفسهم للنضال ضد تروخييو بعد عملية الغزو الكاستروية في 14 حزيران، في كونستانثا ومايمون واستيرو أوندو، والتي أودت بضحايا كثيرين. كان يعرف أن التوركو يمقت النظام، وبالرغم من أن سلفادور وزوجته يتوخيان الحذر أمامه، إلا أن بعض العبارات المعادية للحكومة كانت تفلت منهما أحياناً.

فيصمتان على الفور، لأنهما يعرفان أن آماديتو، وعلى الرغم من عدم اهتمامه بالسياسة، هو مثل أي ضابط في الجيش يكنُّ ولاء كلبياً، أحشائياً للزعيم الأعلى، المنعم، أبي الوطن الجديد الذي يترأس منذ ثلاثة عقود مصائر الجمهورية وحياة الدومينيكانيين وموتهم.

- ولا أي كلمة أخرى يا سلفادور. لقد قلتَ لي ما تريد. وسمعتُه. وقد نسيتُ ما سمعت. سأواصل المجيء كالعادة. فهذا البيت هو بيتي.

نظر إليه سلفادور بتلك النظرة النقية التي تنقل إلى آماديتو عدوى الإحساس بالامتنان للحياة.

- هلم بنا لنتناول كأساً من البيرة إذن. ولنبعد الحزن جانباً.

وبالطبع، فإن أول أشخاص قدم لهم خطيبته عندما أحب وبدأ يفكر في الزواج هما سلفادور وأورانيا، بعد خالته ميكا - المفضلة بين أخوات أمه الإحدى عشرة -. خطيبته لويسيتا خِيل! كلما تذكرها يلوي الندم أحشاءه ويثور غضبه. أخرج سيجارة ووضعها في فمه. أشعلها له سلفادور بولاعته. لويسيتا خيل اللطيفة المتغنجة. حدث ذلك بعد إحدى المناورات العسكرية، حين خرج مع اثنين من زملائه للقيام بنزهة في زورق شراعي، في لاروماتا. وفي المرسى التقوا بفتاتين تشتريان سمكاً طازجاً. بدؤوا معهما حديثاً ثم ذهبوا معاً للاستماع إلى الفرقة الموسيقية البلدية. دعتهم الفتاتان إلى حفلة زفاف. ولكن آماديتو وحده هو الذي تمكن من الذهاب، فقد كان مأذوناً في ذلك اليوم، بينما اضطر زميلاه إلى العودة إلى الثكنة. أُغرم إلى حد الجنون بتلك السمراء المشوقة سريعة البديهة وخفيفة الظل، ذات العينين المتلألئتين، والتي ترقص الميرنغي مثل نجمة من «صوت الدومينيكان». وأحبته هي أيضاً. وعندما خرجا معاً في المرة الثانية، ذهبا إلى السينما وإلى مطعم أسماك، واستطاع أن يقبلها ويداعبها. لقد كانت امرأة حياته، ولن يستطيع أبداً أن يكون مع سواها. لقد قال آماديتو الرشيق هذا الكلام لنساء كثيرات مذ كان طالب ضابط، ولكنه قاله هذه المرة بصدق. أخذته لويسا للتعرف على أسرتها في لاروماتا، ودعاها هو للعشاء في بيت الخالة ميكا. في مدينة تروخيو، ثم أخذها في يوم أحدٍ إلى بيت آل استريّا سعد الله: وقد فُتن الزوجان بلويسا. وعندما أخبرهما بأنه يفكر في طلب يدها، شجعاه على ذلك: فهي امرأة فاتنة. طلبها آماديتو رسمياً من أبويها. ووفقاً للأنظمة العسكرية، طلب من قيادة المساعدين العسكريين منحه الإذن بالزواج.

وكانت تلك هي صدمته الأولى بالواقع الذي كان يجهله تماماً حتى ذلك الحين. على الرغم من سنوات عمره التسع والعشرين، ومن درجاته الرائعة، وملفه العظيم كطالب ضابط وكضابط. (وفكر: «مثل معظم الدومينيكانيين»). تأخر الرد على طلبه. وأوضحوا له بأن وحدة المساعدين العسكريين رفعت الطلب إلى المخابرات العسكرية، للتقصي عن الشخص المعني. وأنه سيحصل على الموافقة خلال أسبوع أو عشرة أيام. ولكن الرد لم يأته في عشرة أيام، ولا في خمسة عشر يوماً، ولا في عشرين يوماً. وفي اليوم الحادي والعشرين، استدعاه **الزعيم** إلى مكتبه. وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي تبادل فيها بضع كلمات مع **المنعم**، بالرغم من أنه كان قريباً منه في مرات كثيرة، في مناسبات عامة، إنها المرة الأولى التي ينظر فيها إليه ذلك الرجل الذي يراه يومياً في منزل راداميس.

كان الملازم آماديو غارثيا غيريرو قد سمع منذ طفولته في البيت - وخصوصاً من جده الجنرال هيرموخينيس غارثيا -، وفي المدرسة، ثم بعد ذلك وهو طالب ضابط، وضابط، عن نظرة تروخييو. نظرة لا يمكن لأحد تحملها دون أن يخفض بصره مرعوباً، مسحوقاً بالقوة التي تشع بها حدقتاه الثاقبتان، ونظرة تقرأ كما يبدو أشد الأفكار سرية، والرغبات والشهوات الخفية، فتجعل الناس يشعرون بأنهم عراة. وكان آماديتو يضحك من كل تلك المبالغات. لا بد أن **الزعيم** رجل دولة عظيم، رؤيته وإرادته وقدرته على العمل جعلت من جمهورية الدومينيكان بلداً عظيماً. ولكنه ليس الرب. ولا يمكن لنظرته إلا أن تكون نظرة إنسان فانٍ.

كان يكفيه أن يدخل إلى المكتب، ويضرب كعبيه معلناً بأقصى صوت حربي استطاع إخراجه من حنجرته - «الملازم الثاني غارثيا غيريرو رهن أوامرك، سيدي صاحب الفخامة!» - لكي يشعر بالتكهرب. «أدخل»، قال الصوت الحاد للرجل الجالس في الطرف الآخر من الحجرة، وراء مكتبٍ مغلف بجلد أحمر، وهو يكتب دون أن يرفع رأسه. تقدم الشاب بضع خطوات وبقي واقفاً بتأهب، دون أن يحرك عضلة ودون أن يفكر وهو يرى الشعر الرمادي المصفف بعناية والملابس الفخمة - سترة وصدرية زرقاوين، قميصاً أبيض بياقة ناصعة ومعصمين منشيين، وربطة عنق مفضضة ومثبتة بلؤلؤة - ويديه اللتين تثبت إحداهما ورقة بينما تملؤها اليد الأخرى بخطوط سريعة بالحبر الأزرق. واستطاع أن يلمح في اليد اليسرى الخاتم ذا الحجر الكريم البرّاق الذي هو،

حسب الخرافات الشائعة، تميمة أعطاها له في شبابه ساحر هايتي، عندما كان عضواً في الحرس المحلي، يقوم بمطاردة «زمرة» المتمردين ضد الاحتلال العسكري الأمريكي، وقد أكد له الساحر يومذاك أنه سيكون في مأمن من الأعداء طالما هو لم ينزع ذلك الخاتم.

سمعه يقول:

- لديك صحيفة خدمة جيدة أيها الملازم.

- شكراً جزيلاً يا صاحب الفخامة.

تحرك الرأس الفضي، وبحثت العينان الكبيرتان، الثابتتان، الخاليتان من البريق أو الرطوبة عن عينيه. «أنا لم أعرف الخوف في حياتي قط» اعترف الملازم الشاب فيما بعد لسلفادور. «لم أعرف الخوف إلى أن حطّتْ علي تلك النظرة أيها التوركو. هذا صحيح. أحسست كما لو أن هناك حكة في وعيي.» ساد صمت طويل بينما ذينك العينان تتفحصان زيه العسكري، أحزمته، أزراره، ربطة عنقه، قبعته. بدأ آماديتو يتعرق. كان يعرف أن أدنى إهمال في اللباس يثير في الزعيم استياءً إلى حدٍ قد ينفجر معه في توبيخات عنيفة.

- صحيفة الخدمة الجيدة هذه لا يمكن تلطيخها بالزواج من شقيقة شيوعي. ففي حكومتي لا يمكن الجمع بين الأصدقاء والأعداء.

كان يتكلم بنعومة، دون أن يرفع نظرته الثاقبة. وفكر في أن الصوت الصائت قد يُفلت في أي لحظة ديكاً.

- شقيق لويسا خيل هو واحد من أولئك الانقلابيين في حركة 14 حزيران. هل تعرف ذلك؟

- لا يا صاحب الفخامة.

- ها أنتذا تعرفه الآن – جلا حنجرته، ثم أضاف دون أن يبدل نبرة صوته: هناك نساء كثيرات في هذه البلاد. ابحث لك عن واحدة أخرى.

- أجل يا صاحب الفخامة.

رآه يومئ موافقاً، ومشيراً إلى انتهاء المقابلة.

- أستأذنك بالانصراف يا صاحب الفخامة.

ضرب كعبيه بقوة وأدى التحية. خرج بخطوة عسكرية، موارياً القلق الذي يحاصره. على العسكري أن يطيع الأوامر، وخصوصاً إذا جاءت من المنعم وأبي الوطن الجديد الذي بدد بضع دقائق من وقته ليتكلم معه مباشرة. وإذا كان قد

أصدر هذا الأمر إليه، هو الضابط المحظوظ، فإنما فعل ذلك من أجل خيره. عليه أن يطيع. فعل ذلك وهو يضغط أسنانه. ولم تتضمن رسالته إلى لويسا خيل كلمة واحدة ليست صحيحة: «بأسف شديد، وبالرغم من تألم مشاعري، أتخلى عن حبي لكِ، وأُعلمكِ ببالغ الألم بأننّا لن نستطيع الزواج. تمنعني من ذلك قيادتي بسبب نشاطات أخيك المناهضة لتروخييو، وهو أمر أخفيتِه عني. أتفهم دوافعك، ولكنني آمل، لهذا السبب نفسه، أن تتفهمي القرار الصعب الذي أجد نفسي مضطراً إلى اتخاذه، ضد مشيئتي. ومع أنني سأتذكرك دائماً بمحبة، إلا أننا لن نلتقي مرة أخرى. أتمنى لك حظاً طيباً في الحياة. ولا تحملي لي الضغينة».

هل سامحته فتاة لارومانا الجميلة، المرحة، المشوقة؟ مع أنه لم يعد لرؤيتها، إلا أنه لم يُحِلَّ أحداً مكانها في قلبه. لقد تزوجت لويسا من مُزارع مزدهر في بويرتو بلاتا. ولكنها إذا كانت قد سامحته على قطيعته، فإنها لن تسامحه مطلقاً على الأمر الآخر إذا ما توصلت إلى معرفته. وهو أيضاً لن يسامح نفسه عليه أبداً. مع أنه، بعد دقائق، سيجد عند قدميه جثة التيس مدروزة بالرصاص – يريد أن يمزق ذينك العينين اللتين كعيني عظاءة إغوانا برصاصات مسدسه – إلا أنه لن يسامح نفسه. «هذا الأمر على الأقل لن تعرف به لويسا.» لا هي ولا أحد سواها، باستثناء من دبروا الكمين.

وسلفادور استريّا سعد الله بالطبع، فإلى بيته في شارع مهاتما غاندي الرقم 21، وصل الملازم غارثيا غيريرو في فجر ذلك اليوم، محطماً بالحقد والكحول واليأس، وكان آتياً مباشرة من ماخور بوتشا فيتيني، الشهيرة ببوتشا براثوبان، في أعلى شارع خوانا سالتيتوبي، حيث أخذه، بعد تلك الفعلة، الكولونيل جوني أبيس والميجر روبيرتو فيغيروا كاريون، لينسى اللحظة القاسية ببضع كؤوس من الخمر وامرأة جيدة. «لحظة قاسية»، «تضحية في سبيل الوطن»، «اختبار للإرادة»، «تقدمة دم متواضعة إلى الزعيم».. هذه هي العبارات التي قالاها له. وبعد ذلك هنآه لأنه أظهر جدارته بالترقية. أخذ آماديتو نفساً من السيجارة وألقى بها إلى الطريق: تناثرت منها شرارات نارية لدى ارتطامها بالاسفلت. «إذا لم تفكر في شيء آخر فسوف تبدأ بالبكاء»، قال ذلك لنفسه شاعراً بالخجل من فكرة أن يراه إمبرت وأنطونيو وسلفادور منفجراً بالنحيب. سيظنون أنه قد جبن. ضغط أسنانه إلى حد إحداث أذى. لم يكن واثقاً في يوم من الأيام مما يفعله مثلما هو واثق اليوم من هذه العملية. فما دام التيس حياً لن يستطيع هو الحياة، سيكون يائساً

يهيم على وجهه مثلما كان في تلك الليلة من كانون الثاني 1961 التي انهار فيها عالمه. ولكي لا يطلق يومئذ رصاصة في فمه، هرع إلى الرقم 21 في شارع مهاتما غاندي ليلوذ بصداقة سلفادور. روى له كل شيء. ليس فوراً. لأن التوركو الذي فتح الباب متفاجئاً بطرقات الفجر على بابه، تلك الطرقات التي أخرجته هو وزوجته وطفليه من الفراش والنوم، وجد عند العتبة شبح آماديتو منهاراً تفوح منه رائحة الكحول، وغير قادر على النطق بكلمة واحدة. فتح ذراعيه وعانق سلفادور. «ما الذي جرى يا آماديتو؟ من الذي مات؟» اقتاداه إلى حجرة نومهما، وطرحاه على السرير، وتركاه يفرج عن نفسه بتلعثمات غير متماسكة. أعدت له أورانيا ميسيس شاي نعناع، وقدمته إليه في رشفات صغيرة، مثل طفل.

قاطعه التوركو:

- لا تخبرنا بشيء يمكن لك أن تندم عليه.

كان يرتدي فوق البيجاما روباً مزيناً بكتابات. وكان يجلس على إحدى زوايا السرير، ناظراً بحنان إلى آماديتو.

- سأتركك على انفراد مع سلفادور- وقبلت خالته أورانيا جبهته وهي تنهض- لكي تتكلما براحة، ولكي تخبره بما يحزنك قوله لي.

شكرها آماديتو. أطفأ التوركو الضوء الذي في وسط الغرفة. وكان على كلة مصباح الكوميدينو رسوم يجعلها بريق الضوء حمراء. أهي سحب؟ رسوم حيوانات؟ وفكر الملازم بأنه لن يتحرك من مكانه إذا ما اندلع حريق.

- نم الآن يا آماديتو. فبعد بزوغ ضوء النهار، ستبدو لك الأمور أقل مأساوية.

- لن يتبدل شيء أيها التوركو. سأبقى على قرفي من نفسي ليلاً ونهاراً. وسيكون الحال أسوأ عندما يزول تأثير الخمر.

بدأ الأمر في ظهيرة ذلك اليوم، في ثكنة المساعدين العسكريين، المجاورة لمنزل رادامیس. وكان قد رجع للتو من بوكا تشيكا، حيث أرسله الميجر روبيرتو فيغيروا، ضابط الارتباط بين رئيس هيئة الأركان المشتركة والجنراليسمو تروخييو، ليسلم مغلفاً مختوماً للجنرال رامفيس تروخييو، في قاعدة القوات الجوية الدومينيكانية. ودخل الملازم لدى رجوعه إلى مكتب الميجر ليُعلمه بتنفيذ المهمة، فاستقبله هذا بابتسامة خبيثة. وعرض عليه حافظة أوراق ذات غلاف أحمر كانت فوق مكتبه:

- أراهن أنك لا تعرف ما يوجد هنا؟
- أهي إجازة لمدة أسبوع لكي أذهب إلى شاطئ البحر يا سيدي الميجر؟
- إنها ترقيتك إلى رتبة ملازم أول يا فتى! - قال قائده ذلك مبتهجاً وهو يقدم له الملف.
- أصابني الذهول، لأن موعد ترقيتي لم يحن بعد- بقي سلفادور جامداً دون حراك، وواصل آماديتو:- كانت ما تزال أمامي ثمانية شهور لطلب الترقية. وفكرت: «إنها مكافأة عزاء مقابل رفض منحي الإذن بالزواج».
كشَّر سلفادور باستياء وهو يجلس عند طرف السرير:
- ألم تكن تعرف ذلك يا آماديتو؟ ألم يحدثك زملاؤك أو قادتك عن اختبار الولاء؟
أنكر آماديتو بقناعة، وغضب:
- كنت أظن أنها مجرد تقولات. أقسم لك. فالناس لا يتحدثون في ذلك الأمر متفاخرين. لم أكن أعرف. لقد أخذوني على حين غرة.
أصحيح ما تقوله يا آماديتو؟ إنها كذبة أخرى، كذبة رحيمة أخرى في هذه السلسلة من الأكاذيب التي كانتها الحياة منذ دخوله إلى الأكاديمية العسكرية. بل منذ ولادته، لأنه ولد مع بداية **العهد** تقريباً. لا بد أنه كان يعرف شيئاً.. يرتاب بشيء بالطبع، ولا بد أنه سمع بالطبع في حصن سان بيدرو دي ماكوريس، ثم وهو بين المساعدين العسكريين، وحدس، واكتشف، من خلال المزاح، والتبجح، والمبالغات، والتفاخر، بأن المحظوظين، المختارين، الضباط الذين يعهد إليهم بأعلى مواقع المسؤولية يتم إخضاعهم لاختبار ولاء لتروخييو، قبل إقرار ترقيتهم. أنت تعرف جيداً أن تلك الأمور موجودة. أما الآن، فالملازم الثاني آماديتو غارثيا غيريرو يعرف أيضاً أنه لم يكن يرغب في الإطلاع بالتفصيل قط على مضمون ذلك الاختبار. شدّ الميجر فيغيروا كاريون على يده، وكرر على مسمعيه شيئاً صار يصدقه لكثرة ما سمعه.
- إنك تحقق تقدماً مهنياً عظيماً أيها الشاب.
ثم أمره بأن يمر عليه في بيته في الساعة الثامنة ليلاً: فسوف يذهبان لتناول بضع كؤوس احتفالاً بترقيته، ولإنجاز أمر إجرائي.
- وخذ معك سيارة الجيب. قال له الميجر مودعاً.

في الساعة الثامنة كان آماديتو في بيت رئيسه. ولكن هذا لم يُدخله إلى البيت. لا بد أنه كان ينتظره من وراء النافذة، وقبل أن يتمكن آماديتو من النزول من سيارة الجيب، ظهر الميجر عند الباب. صعد إلى السيارة قافزاً ودون أن يرد على تحية الملازم، ثم أمره بصوت طبيعي زائف:

- إلى «الأربعين» يا آماديتو.

- إلى السجن يا سيدي الميجر؟

- أجل، إلى الأربعين - كرر الملازم آماديتو - وأنت تعرف من كان ينتظرنا هناك أيها التوركو.

فدمدم سلفادور:

- جوني أبيس.

وصحح آماديتو بسخرية صماء:

- الكولونيل جوني أبيس غارسيا. رئيس الاستخبارات العسكرية.

- هل أنت متأكد من أنك ستروي لي هذا الأمر يا آماديتو؟ - وأحس الملازم الشاب بيد سلفادور على ركبته - ألن تكرهني بعد ذلك لأنك تعرف أنني أنا أيضاً أعرف؟

كان آماديتو يعرف جوني أبيس بالرؤية. فقد رآه وهو ينسل مثل شبح في ممرات القصر الوطني، مترجلاً من سيارته الكاديلاك السوداء المصفحة أو صاعداً إليها في حدائق منزل راداميس، داخلاً أو خارجاً من مكتب الزعيم، وهو أمر يمكن لجوني أبيس، وربما دون سواه في البلاد كلها، عمله - فهو يأتي في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل إلى القصر الوطني أو إلى منزل المنعم الخاص، ويتم استقباله فوراً - وكان آماديتو، كما هو حال كثيرين من زملائه في الجيش والبحرية والطيران، يشعر بقشعريرة أمام ذلك الشبح المترهل المحشور بصورة سيئة في بدلة كولونيل، ذلك النفي المجسد للمظهر اللائق، والوجاهة، والمسحة الحربية، والرجولة، والصلابة، والرشاقة التي يجب أن يتحلى بها العسكريون - مثلما يقول الزعيم كلما تكلم إلى الجنود في العيد الوطني أو في يوم القوات المسلحة -، ذلك الوجه الممتلئ الخدين، والمأتمي، بشاربه المشذب على طريقة أرتورو دي كوردوبا أو بيدرو لوبيث موكتيزوما، أشهر ممثلين مكسيكيين رائجين، وبغبغب ديك مخصي يتدلى فوق زوره المنكمش. ومع أن الضباط لا يبوحون بذلك إلا في أضيق الحلقات الحميمة، وبعد كؤوس كثيرة من

الخمر، إلا أنهم يكرهون الكولونيل جوني أبيس غارسيا لأنه ليس عسكرياً حقيقياً، فهو لم يحصل على رتبته مثلهم، بالدراسة، والمرور عبر الأكاديمية والثكنات، وببذل العرق لارتقاء سلم المراتب. بل حصل على رتبته مقابل خدمات لا شك في أنها قذرة، من أجل تبرير تعيينه في منصب رئيس الاستخبارات العسكرية القادر على كل شيء. وكانوا يرتابون منه بسبب المآثر القاتمة التي تُنسب إليه، والاختفاءات، والإعدامات، والنكبات المفاجئة التي تحل بشخصيات بارزة - مثلما جرى مؤخراً للسيناتور أغوسطين كابرال -، بالوشايات الرهيبة، والتهم بخيانة الأمانة، والافتراءات والتشهير في العمود الصحفي «**المحكمة العامة**» الذي يظهر كل صباح في جريدة **الكاريبي**، وهو العمود الخفي الذي يُبقي الجميع غير مستقرين، لأن مصيرهم مرتبط بما يقال هناك، وبسبب الدسائس والعمليات التي تُقترف أحياناً ضد أناس غير سياسيين، أناس محترمين، أو مواطنين مسالمين سقطوا في أحابيل التجسس المترامية التي ينصبها جوني أبيس غارسيا وجيشه من المخبرين في كل أنحاء المجتمع الدومينيكاني. وهناك ضباط كثيرون - الملازم غارثيا غيريرو واحد منهم- يشعرون بأن لهم الحق في دخيلتهم باحتقار هذا الشخص، على الرغم من الثقة التي يوليه إياها **الجنراليسمو**، لأنهم يفكرون، مثل كثيرين من رجال الحكومة، ومثل رامفيس ابن تروخييو نفسه كما يبدو، بأن الكولونيل أبيس غارثيا، بسبب قسوته المكشوفة، يشوه سمعة النظام ويقدم المبررات لمنتقديه. ومع ذلك، فإن آماديتو يتذكر مناقشة بين جماعة من المساعدين العسكريين دارت بعد عشاء تخلله شرب بيرة، وقد شارك فيها قائده المباشر الميجر فيغيروا كاريون، وتولى الدفاع عن أبيس: «يمكن للكولونيل أن يكون شيطاناً؛ ولكنه مفيد للزعيم: فكل ما هو سيئ يُنسب إليه، بينما يُنسب الجيد إلى تروخييو. هل هناك خدمة وفائدة أكبر من هذه؟ فلكي تستمر حكومة مدة ثلاثين سنة، لا بد من وجود جوني أبيس يدس يده في البراز. بل ويدس جسمه ورأسه إذا اقتضى الأمر. إنه يحرق نفسه. إنه يستقطب كراهية الأعداء، وأحياناً الأصدقاء. **الزعيم** يعرف ذلك، ولهذا يستبقيه إلى جانبه. ولولا أن الكولونيل يحمي ظهر الزعيم، لما كان بالإمكان ضمان ألا يحدث له ما جرى لبيريث خيمينث في فنزويلا، وباتيستا في كوبا، وبيرون في الأرجنتين».

- مساء الخير أيها الملازم.

- مساء الخير سيدي الكولونيل.

رفع آماديتو يده إلى قبعته وأدى التحية العسكرية، ولكن أبيس غارسيا شدّ على يده - يد طرية مثل اسفنجة، ومبللة بالعرق - وربت على ظهره.

- تفضلا من هنا.

إلى جوار موقع الحراسة، حيث يجتمع نصف دزينة من الحراس، وبعد اجتياز بوابة المدخل الحديدية، هناك غرفة صغيرة، لا بد أنها تُستخدم كمكتب إداري، فيه طاولة وكرسيان. تضيئه بصورة سيئة لمبة واحدة تتأرجح في نهاية حبل طويل يغص بالذباب؛ وفيما حولها تحوم سحابة من الحشرات. أغلق الكولونيل الباب، وأشار لهما إلى الكراسي. دخل أحد الحراس حاملاً زجاجة جوني ووكر ذات بطاقة حمراء (وقال الكولونيل مازحاً: «إنها ماركتي المفضلة، لأن حنا المشاء هو سميي»)، وأحضر الحارس كؤوساً، وسطل ثلج وبضع زجاجات مياه معدنية. وبينما الكولونيل يسكب الخمر، كان يتكلم إلى الملازم، وكأن الميجر فيغيروا كاريون غير موجود.

- تهانيّ على الرتبة الجديدة. وعلى صحيفة خدمتك. إنني أعرفها جيداً. الاستخبارات العسكرية أوصت بترقيك. بسبب مزاياك العسكرية والمواطنية. سأخبرك بسر. أنت أحد الضباط القلائل الذين رُفض منحهم إذناً بالزواج وأطاعوا دون أن يطلبوا إعادة نظر بالأمر. ولهذا كافأك الزعيم بتقديم ترقيتك سنة. فلنشرب نخباً من حنا المشاء!

شرب آماديتو رشفة طويلة. وكان الكولونيل أبيس غارسيا قد ملأ له الكأس بالويسكي وأضاف إليه قليلاً من الماء، ولهذا تلقى السائل مثل طلقة نارية في الدماغ.

- بعد بلوغ الأمر ذلك الحد، في ذلك المكان، حيث جوني أبيس يقدم لك الشراب، ألم تدرك ما الذي سيحل بك؟ - دمدم سلفادور بذلك. والتقط الشاب آماديتو الكدر الذي تتم عنه كلمات صديقه.

- بلى، لقد أدركت أن ما سيأتي سيكون قاسياً وقبيحاً أيها التوركو - ردّ وهو يرتجف - ولكنني لم أصل إلى التفكير بإمكانية حدوث ما جرى.

سكب الكولونيل جولة أخرى من الشراب. وكان الثلاثة قد بدؤوا بالتدخين وتكلم رئيس الاستخبارات العسكرية عن ضرورة عدم السماح للعدو الداخلي برفع رأسه، وسحقه كلما حاول التحرك.

- مادام العدو الداخلي ضعيفاً ومفككاً، فإن ما يفعله العدو الخارجي لن

يكون مهماً. فصراخ الولايات المتحدة، ورفس منظمة الدول الأمريكية، ونباح فنزويلا وكوستاريكا، لن يضرنا في شيء. بل إنه يفيد في توحيد الدومينيكانيين كالقبضة الواحدة حول **الزعيم**.

كان له صوت خسيس، ونظرة تتهرب من نظرة محدثه. عيناه الضيقتان، القاتمتان، السريعتان، المتهربتان، كانتا تتحركان طوال الوقت وكأنهما تكشفان شيئاً خفياً على الآخرين. وبين لحظة وأخرى يمسح العرق بمنديل كبير أحمر.

– وخصوصاً العسكريين – وتوقف لكي ينفض على الأرض رماد سيجارته – وخصوصاً صفوة العسكريين أيها الملازم غارثيا غيريرو. الذين صرت تنتمي إليهم. **الزعيم** يريدك أن تسمع هذا.

عاد إلى التوقف ثانية، قرع كأسه، وشرب رشفة من الويسكي. وعندئذ فقط بدا عليه أنه قد اكتشف وجود الميجر فيغيروا كاريون:

– هل يعرف الملازم ما الذي ينتظره **الزعيم** منه؟

– ليس بحاجة إلى من يخبره بذلك. إنه أكثر ضباط دفعته رجاحة عقل – كان للميجر وجه ضفدع، وملامحه المنتفخة ازدادت انتفاخاً وتورداً بفعل الكحول. وبدا حوارهما لآماديتو أشبه بمسرحية محفوظة – يخيل إليّ أنه يعرف ما هو المطلوب منه، وإلا فإنه لا يستحق الترقية الجديدة.

كانت هناك وقفة أخرى بينما الكولونيل يملأ الكؤوس للمرة الثالثة. ألقى مكعبات الثلج بيديه. «صحتك»، وشرب، وشربا هما أيضاً. وقال آماديتو لنفسه إنه يفضل ألف مرة شرب رشفة من الروم مع كوكاكولا على هذا الويسكي شديد المرارة. وفي تلك اللحظة فقط فهم ما الذي يعنيه بحنا المشاء. وفكر: «كم كنت غبياً بعدم الانتباه إلى ذلك». كم هو غريب هذا المنديل الأحمر الذي مع الكولونيل! لقد رأى من قبل مناديل بيضاء، زرقاء، رمادية. ولكن، مناديل حمراء! يا لهذه النزوة.

– ستحصل بالتدريج على مزيد من المسؤوليات – قال له الكولونيل بنبرة وقورة – و**الزعيم** يريد أن يكون متأكداً من أنك على مستوى المسؤولية.

استثارت كل هذه الديباجات آماديتو:

– ماذا يتوجب علي أن أفعل يا سيدي الكولونيل؟ لقد نفذت على الدوام كل ما يأمرني به رؤسائي. ولن أخيب ظن **الزعيم** بي أبداً. الأمر يتعلق باختبار الولاء، أليس كذلك؟

كان الكولونيل يحني رأسه ناظراً إلى الطاولة. وعندما رفع وجهه، انتبه الملازم إلى بريق رضى في العينين المتهربتين.

– هذا صحيح، فالضباط ذوو الخصيات، التروخييون حتى النخاع، لا يمكن تزيين الأمور لهم – نهض واقفاً – معك حق أيها الملازم. فلننه هذه التفاهة، لكي نحتفل بالترقية الجديدة بعد ذلك عند بوتشيتا براثوبان.

– ماذا كان عليك أن تفعل؟ – كان سلفادور يتكلم بمشقة، بحنجرة مشروخة وملامح ذاهلة.

– أن أقتل خائناً بيدي. هذا ما قاله لي: «ودون أن ترتعش يدك أيها الملازم».

عندما خرجوا إلى فناء «الأربعين» أحس آماديتو بطنين في صدغيه. وعند شجيرة البامبو، بجانب الفيلا المتحولة إلى سجن ومركز تعذيب للاستخبارات العسكرية، كانت تقف بالقرب من سيارة الجيب التي جاء فيها، وواحدة أخرى مشابهة تماماً، أضواؤها مطفأة. وكان هناك في مقعدها الخلفي حارسان يحملان بندقيتين ويجلسان على جانبي شخص مقيد وفمه مكمم بمنشفة.

– تعال معي أيها الملازم – قال جوني أبيس وهو يجلس وراء مقود الجيب التي فيها الحارسان، ثم قال للميجر: – اتبعنا يا روبيرتو.

لدى خروج السيارتين من السجن واتخاذهما طريق الشاطئ، انفلتت عاصفة وامتلأ الليل بالرعود والبروق. وغمرهم وابل المطر.

علق الكولونيل:

– من الأفضل أن يهطل المطر، حتى لو تبللنا. فهو يخفف من هذا الحر. كما أن الفلاحين يتضرعون من أجل قليل من الماء.

لا يتذكر كم استغرق الطريق، ولكنه يجب ألا يكون طويلاً، ذلك أنه يتذكر بالمقابل أنهم عندما دخلوا إلى ماخور بوتشا فيتيني، بعد أن أوقفوا سيارة الجيب في شارع خوانا سالتيتوبي، كانت ساعة جدار صالون المدخل تشير إلى العاشرة ليلاً. كل ذلك الذي جرى منذ أن مرّ على بيت الميجر فيغيروا كاريو، استمر أقل من ساعتين. خرج أبيس غارسيا عن الطريق وطفرت سيارة الجيب واهتزت كما لو أنها ستتفكك في تلك الأرض الخلاء ذات الأعشاب الطويلة والأحجار التي تجتازها، تبعتها عن قرب جيب الميجر بأنوارها التي تضيئهم. كان الظلام مخيماً، ولكن الملازم عرف أنهم يتقدمون بموازاة البحر لأن هدير الأمواج قد اقترب حتى تغلغل في أذنيه. بدا له أنهم يقتربون من مرفأ لاكاليتا الصغير. وما كادت السيارة تتوقف، حتى توقف هطول المطر. ترجل الكولونيل قافزاً، وحذا الملازم حذوه. وقد كان الحارسان مجربين، ذلك أنهما أنزلا السجين بالدفش دون أن

ينتظرا الأوامر. وعلى ضوء ومضة برق، رأى الملازم أن المكمم بلا حذاء. وكان هذا قد احتفظ طوال الطريق بوداعة مطلقة، ولكنه ما إن وطأ الأرض، وكأنه وعى أخيراً ما سيجري له، حتى بدأ يتلوى، يزمجر، محاولاً التخلص من الأربطة ومن الكمامة. أما آماديتو الذي تفادى حتى ذلك الحين النظر إليه، فقد انتبه إلى حركات رأسه المتشنجة وهو يحاول تحرير فمه، لقول شيء، ربما التوسل إليهم ليرحموه، ربما شتمهم. وفكر: «وماذا لو أخرجت مسدسي وأطلقت النار على الكولونيل والميجر والحارسين وتركته يهرب؟».

وقال له سلفادور:

– حينئذ سيكون هناك ميتان على المنحدر بدلاً من ميت واحد.

– لحسن الحظ أن المطر قد توقف – قال الميجر فيغيروا كاريون وهو يترجل:– يا للعنة، لقد تبللت.

سأل الكولونيل أبيس غارسيا:

– هل تحمل سلاحك أيها الملازم؟ لا تُحمّل هذا الشيطان البائس مزيداً من المعاناة.

أومأ آماديتو برأسه دون أن يقول كلمة واحدة. تقدم بضع خطوات حتى صار إلى جانب السجين. افلته الحارسان وابتعدا جانباً. لم ينطلق ذلك الشخص راكضاً مثلما ظن آماديتو أنه سيفعل. فساقاه لا تتطاوعانه، الخوف يُبقيه مثبتاً إلى أعشاب ووحل هذا الخلاء حيث تهب الرياح بعنف. ولكن على الرغم من عدم محاولته الهرب، بقي يحرك رأسه بيأس إلى اليمين واليسار، إلى أعلى وأسفل، في محاولة غير مجدية للتخلص من الكمامة. كان يُصدر زمجرة متقطعة. وضع الملازم آماديتو غارثيا غيريرو المسدس على صدغه وأطلق النار. صمّ العيار الناري أذنيه وجعله يغمض عينيه لثانية واحدة.

وقال أبيس غارسيا:

– أجهز عليه. فمن يدري.

انحنى آماديتو، لمس رأس المطروح أرضاً – كان ساكناً وصامتاً – ثم أطلق ثانية، عن قرب.

– الآن انتهى – قال الكولونيل ذلك وهو يمسكه من ذراعه ويدفعه نحو سيارة جيب الميجر فيغيروا كاريون، ثم أضاف:– الحارسان يعرفان ما يجب عليهما

عمله. فلنذهب الآن إلى بوتشيتا، لتحمية اجسادنا.

في الجيب التي يقودها الميجر روبيرتو، بقي الملازم غارثيا غيريرو صامتاً، يستمع دون تركيز إلى حوار الكولونيل والميجر. إنه يتذكر شيئاً مما قالاه:

- هل سيدفنانه هناك؟

- سيلقيان به إلى البحر - أوضح رئيس الاستخبارات العسكرية - هذه هي ميزة هذا الصخرة، إنها عالية وتبدو كأنها مقطوعة بسكين. وفي الأسفل، هناك توغل من البحر، شديد العمق، مثل بئر، وهو يغص بأسماك القرش المتلهفة. ستلتهمه في ثوان، إنه مشهد جدير بالمشاهدة. لن تبقي منه أثراً. طريقة مضمونة، وسريعة، ونظيفة أيضاً.

سأله سلفادور:

- هل يمكنك التعرف على تلك الصخرة؟

لا. فهو لايتذكر إلا أنهم مروا، قبل أن يصلوا، بالقرب من ذلك الخليج الصغير المسمى لاكاليتا. ولكنه لا يستطيع تذكر كل الطريق الذي قطعوه منذ خروجهم من الأربعين.

أعاد سلفادور وضع يده برفق على ركبته قائلاً له:

- سأعطيك قرصاً منوِّماً يجعلك تنام ست أو ثماني ساعات.

- لم أنته بعد أيها التوركو. اصبر قليلاً، لكي تبصق في وجهي وتطردني من بيتك.

ذهبوا إلى ماخور بوتشا فيتيني، الملقبة بوتشيتا براثوبان، وهو بيت قديم ذو شرفات وحديقة يابسة، ماخور يرتاده المخبرون، وأناس مرتبطون بالحكومة وبالاستخبارات العسكرية التي تعمل لها، كما تقول الإشاعات، تلك العجوز البذيئة واللطيفة بوتشا، والتي ترقت مرتبتها إلى مديرة ومشرفة على المومسات، بعد أن كانت هي نفسها مثلهن في مواخير الشارع الثاني، منذ شبابها المبكر وبنجاح كبير. استقبلتهم عند الباب وصافحت جوني أبيس والميجر فيغيروا كاريون كصديقين قديمين. أما آماديتو فأمسكته من ذقنه «يا للفتى الجميل!». قادتهم إلى الطابق الثاني وأجلستهم إلى طاولة صغيرة قريبة من البار. وطلب منها جوني أبيس أن تحضر لهم حنا المشاء.

واعترف آماديتو:

- لم أعرف إلا بعد وقت غير قصير أنك تعني الويسكي يا سيدي الكولونيل. جوني ووكر. حنا المشاء. أمر سهل جداً ولم أنتبه إليه.

فقال الكولونيل:

- إنه أفضل من الأطباء النفسيين. فلولا حنا المشاء لما استطعت الحفاظ على الاتزان الذهني، وهو أهم ما أحتاجه في عملي. فمن أجل القيام بهذا العمل على خير وجه، لا بد للمرء من التمتع بصفاء الذهن، وبرودة الأعصاب، وبخصيتين مثلجتين. ويجب عليه عدم الخلط مطلقاً ما بين العواطف والتعقل.

لم يكن هناك زبائن بعد، باستثناء أصلع يضع نظارات ويجلس إلى الكونتوار وهو يشرب كأساً من البيرة. وكانت تصدح من جهاز الموسيقى أغنية بوليرو تعرف فيها آماديتو على صوت تونيا الزنجية. نهض الميجر فيغيروا كاريون وأخرج للرقص إحدى النساء اللواتي كن يتهامسن في أحد الأركان، تحت ملصق كبير لفيلم مكسيكي من تمثيل ليبرتاد لاماركي وتيتو غيثار.

- لك أعصاب قوية تماماً - أكد الكولونيل أبيس غارسيا -. ليس كل الضباط هكذا. لقد رأيت شجعاناً كثيرين يتكشفون عن أنذال في ساعة الخطر. رأيتهم يتغوطون خوفاً. فالمرء، وإن لم يصدق أحد ذلك، يحتاج من أجل القتل إلى جرأة أكبر مما يحتاجه للموت.

ملأ الكؤوس وقال: «صحتك». وشرب آماديتو بشراهة. كم من الكؤوس شرب؟ ثلاثاً، خمساً، سرعان ما فقد الإحساس بالزمان والمكان. وإضافة إلى الشرب، رقص مع هندية قام بمداعبتها وأدخلها إلى حجرة مضاءة بمصباح مغطى بورقة سوليفان حمراء، ينوس فوق سرير ذي مفرش يغص بألوان صارخة. لم يستطع مضاجعتها. «لأنني مخمور جداً يا عزيزتي»، قال لها معتذراً. ولكن السبب الحقيقي هو تلك العقدة في معدته، ذكرى ما كان قد فعله للتو. وأخيراً تسلح بالجرأة ليقول للكولونيل والميجر إنه سيذهب، لأنه يشعر بالبلبلة لكثرة ما شرب من الخمر.

خرج الثلاثة حتى الباب. وهناك كانت سيارة الكاديلاك السوداء المصفحة مع سائقها بانتظار جوني أبيس، ومعها جيب حراسة فيه حراس مسلحون. مدّ الكولونيل يده إليه مصافحاً.

- ألا تشعر بالفضول لمعرفة من كان ذلك الشخص؟

- أُفضل ألا أعرف ذلك يا سيدي الكولونيل.

تمدد وجه أبيس غارسيا المترهل في ضحكة ساخرة، بينما هو يمسح وجهه بمنديله ذي اللون الناري:

- كم سيكون الأمر سهلاً، إذا ما فعل أحدنا تلك الأشياء دون أن يعرف من القتيل. لا تزعجني أيها الملازم. فمن يلقي بنفسه في الماء لا بد له من أن يبتل. لقد كان من قتلته واحداً من جماعة 14 حزيران، وهو شقيق خطيبتك السابقة على ما أعتقد. اسمها لويسا خيل، أليس كذلك؟ حسن، إلى اللقاء في أي يوم، وسنقوم معاً بأعمال مشتركة. إذا ما احتجت لي، فأنت تعرف أين تجدني.

وأحس الملازم مرة أخرى بيد التوركو على ركبته.

- إنه يكذب يا آماديتو - أراد سلفادور أن يشجعه - يمكن لذلك الرجل أن يكون أي شخص. لقد خدعك. لكي يدمرك تماماً، لكي يجعلك تشعر بمزيد من التورط، ومزيد من العبودية. انسَ ما قاله لك. أنسَ كل ما فعلته.

هز آماديتو رأسه موافقاً. وأشار ببطء شديد إلى المسدس في قرابه، وقال:

- في المرة القادمة التي سأُطلق فيها النار، سأفعل ذلك من أجل قتل تروخييو أيها التوركو. يمكنك أنت وطوني إمبرت أن تعتمدا علي في أي شيء. لم تعودا بحاجة إلى تبديل موضوع حديثكما عندما أصل إلى هذا البيت.

- انتبهوا، انتبهوا، هذه السيارة تتقدم مباشرة. - قال أنطونيو دي لاماثا وهو يرفع السبطانه القصيرة إلى مستوى النافذة، مستعداً لإطلاق النار.

أمسك آماديتو وإستريّا سعد الله كذلك بسلاحيهما. وأدار أنطونيو إمبرت محرك السيارة. ولكن السيارة القادمة على الكورنيش باتجاههم، منزلقة ببطء، باحثة، لم تكن الشفروليه المنتظرة، وإنما فولكسفاغن صغيرة. راحت تفرمل، إلى أن وجدتهم. وعندئذ دارت بالاتجاه المعاكس، إلى حيث هم متوقفون. وتوقفت إلى جانبهم، وأنوارها مطفأة.

الفصل الرابع

- ألن تصعدي لرؤيته؟- قالت لها الممرضة أخيراً.

أورانيا تعرف أن السؤال يصارع للخروج من شفتي المرأة مذ دخلت إلى البيت في شارع سيسر نيكولاس بينسون، وبدلاً من أن تطلب منها أن تقودها إلى غرفة السيد كابرال، توجهت إلى المطبخ وأعدت لنفسها فنجاناً من القهوة. إنها تتذوقه في رشفات منذ نحو عشر دقائق.

- سأنتهي أولاً من تناول فطوري - ترد دون أن تبتسم، فتخفض الممرضة بصرها مرتبكة - إنني أستجمع قواي لكي أصعد هذا السلم.

- أعرف أنه كان هناك شقاق بينك وبينه، لقد سمعتُ شيئاً من ذلك - تعتذر المرأة، دون أن تدري ما تفعل بيديها - ما قلته هو لمجرد السؤال وحسب. لقد قدمت الفطور للسيد وحلقت له ذقنه. إنه يستيقظ باكراً على الدوام.

تومىء أورانيا موافقة. إنها مطمئنة وواثقة من نفسها الآن. تتفحص مرة أخرى الخراب الذي يحيط بها. ففضلاً عن تدهور طلاء الجدران، وسطح الطاولة، والمجلى، والخزانة، بدا كل شيء منكمشاً ومزعزعاً. أهو الأثاث نفسه؟ إنها لا تتعرف على شيء.

- هل يأتي أحد لزيارته؟ أعني من الأسرة.

- ابنتا السيدة آديلينا، السيدة لوثينديتا والسيدة مانوليتا تأتيان دائماً، في حوالي منتصف النهار - المرأة الطويلة، المتقدمة في السن، ببنطال تحت زيها الأبيض، تقف عند عتبة المطبخ، ولا تخفي انزعاجها:- من قبل، كانت عمتك تأتي كل يوم. ولكنها لم تعد تخرج من بيتها مذ أصيبت بكسر في حوضها.

العمة آديلينا أصغر من أبيها بكثير، لا بد أنها في حوالي الخامسة والسبعين على أبعد تقدير. لقد انكسر حوضها إذن. أتراها ما تزال متدينة؟ لقد كانت تذهب إلى القداس يومياً في ذلك الحين.

- أهو في حجرته؟ . وتشرب أورانيا آخر رشفة من القهوة - حسن، وأين سيكون. لا، لا ترافقيني.

تصعد السلم ذا الحاجز باهت الطلاء والخالي من أصص الأزهار التي تتذكر أنها كانت عليه، يراودها طوال الوقت إحساس بأن البيت قد تضاءل وانكمش. لدى وصولها إلى الطابق العلوي، تنتبه إلى قطع البورسلين المشققة، وإلى أن بعضها مخلخلة وغير ثابتة. لقد كان هذا البيت بناء حديثاً، مزدهراً، مؤثثاً بذوق رفيع؛ وقد سقط رأسياً، فهو مجرد كوخ بالمقارنة مع المنازل والفيلات التي رأتها في اليوم السابق في ببيا بيستا. تتوقف أمام الباب الأول - هذه كانت حجرته -، وقبل أن تدخل، تطرق بمفاصل أصابعها مرتين.

يتلقاها نور متوهج، يدخل من النافذة المفتوحة على مصراعيها. يبهرها ضوء الشمس لبضع ثوانٍ؛ وبعد ذلك، تبدأُ رؤيةً إجمالية للسرير المغطى بمفرش رمادي، والخزانة القديمة بمرآتها البيضوية، والصور الفوتوغرافية على الجدران - كيف تراه حصل على صورة تخرجها من هارفرد؟-، وأخيراً، على المقعد الجلدي القديم ذي المسند والذراعين العريضين، ترى العجوز المحشور في بيجاما زرقاء وخف بيتي. يبدو ضائعاً في المقعد. لقد ترقق وانكمش، مثل البيت. يلفت انتباهها إناء أبيض عند قدمي أبيها: إنها مبولة، وهي نصف ممتلئة بالبول.

كان شعره آنذاك أسود باستثناء بعض الشيب الأنيق في صدغيه؛ أما الآن، فخصل الشعر القليلة في صلعته متسخة وتميل إلى الصفرة. وكانت عيناه كبيرتين، واثقتين من نفسيهما، مهيمنتين على العالم (حين لا يكون قريباً من **الزعيم**)؛ أما هاتان الفجوتان اللتان تنظران إليها بثبات، فهما صغيرتان، فأريتان، ومذعورتان. كانت له أسنان، والآن لا؛ لا بد أنهم قد نزعوا أسنانه الاصطناعية (لقد دفعت هي نفسها الفاتورة منذ بضع سنوات)، فشفتاه غائرتان وخداه مجعدان يكاد أحدهما أن يلمس الآخر. لقد تدهور، قدماه لا تكادان تلمسان الأرض. لقد كانت تضطر آنذاك إلى رفع رأسها، وشدّ رقبتها لكي تراه؛ أما الآن، فإنه لن يصل إلى مستوى كتفها إذا ما استطاع النهوض.

- أنا أورانيا - تتلعثم وهي تقترب. تجلس على السرير، على مسافة متر من أبيها - هل تتذكر بأنه كانت لك ابنة؟

هناك اضطراب داخلي في العجوز الهرم، حركة في اليدين المعروقتين، الشاحبتين اللتين تستريحان على رجليه بأصابعهما النحيلة. ولكن العينين الصغيرتين تبقيان بلا تعبير محدد، بالرغم من أنهما لا تبتعدان عن أورانيا.

- وأنا لم أتعرف عليكَ أيضاً - دمدمت أورانيا - لست أدري لماذا جئتُ، وما الذي أفعله هنا.

بدأ العجوز بتحريك رأسه من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى. حنجرته تُصدر أنّة خشنة، طويلة، متقطعة، كما في غناء كئيب. ولكنه يستكين بعد لحظات قصيرة، وتبقى عيناه مثبتتين عليها.

تتأمل أورانيا الجدران العارية:

- كان البيت ممتلئاً بالكتب. ماذا جرى لها؟ لم تعد قادراً على القراءة بالطبع. هل كان لديك متسع من الوقت للقراءة آنذاك؟ لا أتذكر أنني رأيتك تقرأ قط. لقد كنتَ رجلاً مشغولاً جداً. وأنا كذلك الآن، إنني مشغولة مثلما كنتَ أنت، أو أكثر مما كنت أنت مشغولاً في تلك الحقبة. عشر ساعات أو اثنتا عشرة ساعة أقضيها في مكتب المحاماة أو في زيارة الزبائن. ولكنني أوفر لنفسي بعض الوقت لأقرأ قليلاً كل يوم. في الصباح الباكر، وأنا أرى شروق الشمس ما بين ناطحات السحاب في منهاتن، أو في الليل، وأنا أرى أنوار تلك الأنياب الزجاجية. القراءة تروقني جداً. في أيام الآحاد أقرأ أربع أو خمس ساعات، بعد مشاهدة برنامج «لقاء الصحافة» في التلفزيون. إنه امتياز بقائي عازبة يا أبي. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟ لقد بقيت ابنتك لرعاية القديسين. هذا ما كنت تقوله أنت عمن لا يتزوجن: «يا للإخفاق الكبير! لم تستطع أن تصطاد زوجاً!» وأنا كذلك لم أصطد زوجاً يا أبي، أو بكلمة أصح، لم أشأ ذلك. تلقيتُ عروضاً. في الجامعة. في البنك الدولي. في مكتب المحاماة. تصور أنه مازال يظهر لي متودد بين حين وآخر. وأنا أحمل على كاهلي تسعاً وأربعين سنة! البقاء عانساً ليس بالأمر الفظيع. فأنا لدي على سبيل المثال متسع من الوقت للقراءة، بدلاً من أن أكون في خدمة الزوج والأبناء.

يبدو أنه يفهم، وأنه مهتم، فهو لا يُقدم على تحريك عضلة واحدة حتى لا يقاطعها. إنه جامد، صدره الصغير يتحرك بانتظام، عيناه متعلقتان بشفتيها. وفي الشارع، تمر بين حين وآخر سيارة، وقع خطوات، أصوات، شذرات من أحاديث، تدنو، تعلو، تنخفض ثم تتلاشى في البعيد.

- شقتي في منهاتن مملوءة بالكتب - تعود أورانيا إلى الكلام - مثلما كان هذا البيت في طفولتي. كتب في الحقوق، في الاقتصاد، في التاريخ. أما في غرفة نومي فلا توجد إلا كتب دومينيكانية. شهادات، دراسات، مذكرات، كتب تاريخ كثيرة. احزر عن أي عهد كلها؟ وعن أي عهد ستكون: عن عهد **تروخييو** بالطبع. فهو أهم ما جرى لنا طوال خمسمئة سنة. هذا ما كنتَ تقوله بقناعة

راسخة. وهذا صحيح يا أبي. ففي الإحدى والثلاثين سنة تلك تبلور كل ما كنا نجرجره من خبث منذ الغزو الإسباني. إنك تظهر في بعض تلك الكتب، كشخصية مهمة. وزير دولة، سيناتور، رئيس الحزب الدومينيكاني. وهل هناك شيء لم تكنه يا أبي؟ لقد تحولتُ إلى خبيرة بتروخييو. فبدلاً من لعب البريدج أو الغولف، وبدلاً من امتطاء الخيول أو الذهاب إلى الأوبرا، صارت هوايتي هي معرفة ما حدث في تلك السنوات. من المؤسف أننا لا نستطيع تبادل الحديث. فكم من الأمور يمكنك توضيحها لي، أنت الذي عشت تلك السنوات في الممارسة مع زعيمك المحبوب، الذي دفع ثمن ولائك له بأسوأ الأثمان. لقد كنتُ أحب أن توضح لي على سبيل المثال، إذا ما كان فخامته قد ضاجع أمي أيضاً.

تلمح رعشة مفاجئة في العجوز. جسده الهش، المستنفد، قام بطفرة في المقعد. تقرب أورانيا رأسها وتتفحصه. أهو انطباع زائف؟ يبدو أنه يسمعها، وأنه يبذل جهداً لفهم ما تقوله.

- هل سمحتَ بحدوث ذلك؟ هل استسلمتَ للأمر؟ هل استغللته في صعودك؟

تتنفس أورانيا بعمق. تتفحص الحجرة. هناك صورتان في إطارين من فضة، فوق الكوميدينو بجانب السرير. صورتها في مناولتها الأولى، في السنة التي ماتت فيها أمها. ربما تكون قد غادرت هذا العالم برؤيا لابنتها مرتدية تول ذلك الفستان البديع وهذه النظرة الملائكية. والصورة الثانية لأمها: شابة، ذات شعر أسود مفروق إلى نصفين، الحاجبان منتوفان، والعينان كئيبتان وحالمتان. إنها صورة قديمة مصفرة، ذاوية بعض الشيء. تقترب من الكوميدينو، ترفعها إلى شفتيها وتقبلها.

تسمع فرملة السيارة عند بوابة البيت. يطفر قلبها من مكانه؛ ودون أن تتحرك من موقعها، تلمح من خلال الستائر كروم السيارة الفخمة اللامع، وهيكلها الصقيل، ومصابيحها المتلألئة. تسمع وقع الخطى، يتردد الطرق على الباب مرتين أو ثلاثاً - وبينما هي منوّمة، مرعوبة، دون حراك - تسمع الخادمة تفتح الباب. وتسمع، دون أن تفهم، الحوار القصير عند أسفل السلم. قلبها المجنون يوشك أن ينفجر. مفاصل الأصابع تقرع باب الغرفة المشحونة. إنها شابة، هندية الملامح، تضع غطاء رأس، تعابير وجهها مذعورة، تطل فتاة الخدمة من الباب الموارب:

- لقد جاء الرئيس لزيارتك يا سيدتي. إنه **الجنراليسمو** يا سيدتي!

– قولي له إنني متأسفة، ولكنني لا أستطيع استقباله. قولي له إن السيدة كابرال لا تستقبل الزائرين عندما لا يكون أغوسطين في البيت. هيا، قولي له ذلك.

تبتعد خطوات الصبية وجلة، مضطربة، على السلم الذي تملأ حاجزه أصص جيرانيوم متوقدة. تضع أورانيا صورة أمها على الكوميدينو، وتعود إلى زاوية السرير. أبوها يتطلع إليها مذعوراً وهو مركون على المقعد.

– هذا ما فعله **الزعيم** بوزير تربيته، في بداية حكومته، وأنت تعرف ذلك جيداً يا أبي. هذا ما فعله بالعلّامة الشاب دون بيدرو إنريكيث أورينيا، المثقف والنابغة. جاء لزيارة زوجته بينما هو في عمله. وكانت لديها الشجاعة لأن تأمر بأن يقال له إنها لا تستقبل زائرين حين لا يكون زوجها في البيت. كان ذلك في بداية **العهد**، وكان لا يزال بإمكان امرأة أن ترفض استقبال **الزعيم**. وعندما أخبرت زوجها بذلك، استقال دون بيدرو من الوزارة، وغادر البلاد ولم يعد إلى هذه الجزيرة قط. وبفضل ذلك صار أستاذاً ومؤرخاً وناقداً ولغوياً مرموقاً في المكسيك والأرجنتين وإسبانيا. من حسن حظه أن **الزعيم** رغب يوماً في مضاجعة زوجته. في تلك الأزمنة الأولى كان بإمكان وزير أن يستقيل دون أن يتعرض لحادث، دون أن يسقط في هاوية، دون أن يطعنه مجنون بسكين، ودون أن تأكله أسماك القرش. لقد أحسن صنعاً، ألا ترى ذلك؟ تصرفه ذاك أنقذه من أن يصير مثلك يا أبي. هل كنتَ ستفعل مثله أم أنك كنت ستتظاهر بأنك لا تعلم؟ مثلما كان يفعل عدوك وصديقك الطيب، كارهك وزميلك العزيز، دون فرويلان، جارنا. هل تتذكره يا أبي؟

يأخذ العجوز بالارتعاش والأنين، بتلك الغرغرة الجهنمية. تنتظر أورانيا إلى أن يهدأ. السيد فرويلان! كان يتبادل الوشوشة في الصالة، على الشرفة، أو في الحديقة مع أبيها، وكان يأتي للقاء به عدة مرات كل يوم في الأزمنة التي كانا فيها حليفين أثناء الصراعات الداخلية بين الفئات التروخييوية، صراعات كان **المنعم** يؤججها لكي يحيّد معاونيه، مبقياً إياهم مشغولين لحماية ظهره من خناجر أولئك الأعداء الذين كانوا، أمام الملأ، أصدقاءه وأخوته ومناصريه. وكان دون فرويلان يعيش في البيت المقابل الذي تصطف على سطحه القرميدي في هذه اللحظة بوضعية التأهب، نصف دزينة من الحمائم. تدنو أورانيا من النافذة. لم يطرأ تبدل كبير أيضاً على بيت ذلك السيد المتنفذ الذي كان كذلك وزيراً، وسيناتوراً، ومديراً للقصر، ومستشاراً، وسفيراً وكل ما يمكن أن يكونه المرء في

تلك السنوات. ولم يكن أقل من وزير خارجية، في شهر أيار 1961، عند وقوع الأحداث الكبرى.

مازالت للبيت واجهته المطلية باللونين الرمادي والأبيض، ولكنه تقزم أيضاً. لقد أضافوا إليه جناحاً من أربعة أو خمسة أمتار، لا يتناسب مع هذه البوابة البارزة والمثلثة كما في قصر قوطي، حيث رأت هي نفسها مرات ومرات، لدى ذهابها وعودتها من المدرسة، في الأمسيات، الشبح المميز لزوجة دون فرويلان. وما كانت تكاد تلك المرأة تراها حتى تناديها: «أورانيا، أورانيتا! تعالي، دعيني أراكِ يا حبيبتي. يا لعينيك أيتها الصغيرة! إنهما جميلتان مثل عيني أمك يا أورانيتا ». كانت تداعب شعرها بيديها المعتنى بهما جيداً، بأظفارهما الطويلة المطلية بلون أحمر كثيف. وكان ينتاب أورانيا إحساس منوم عندما تنسل تلك الأصابع بين شعرها وتلمس جلدة رأسها. أكان اسم تلك المرأة أوخينيا؟ لاورا؟ أم كان لها اسم زهرة؟ منوليا؟ لقد انمحى الاسم من ذاكرتها. ولكن الوجه لم ينمحِ، ولا بشرتها الثلجية، وعينيها الحريريتين، وقامتها الملكية. كانت تبدو على الدوام كأنها بزي احتفالي. وكانت أورانيا تحبها لشدة حنانها، وللهدايا، ولأنها تأخذها إلى الكنتري كلوب للسباحة في المسبح، ولأنها قبل كل شيء كانت صديقة لأمها. وهي تتصور أنه لو لم تذهب أمها إلى السماء، لكانت جميلة جداً ومتأنقة مثل زوجة السيد فرويلان. أما هو بالمقابل، فلم يكن على أي شيء من الوسامة. فهو قصير، أصلع، مربوع، ما كان لأي امرأة أن تتطلع إليه. أكان التسرع في العثور على زوج أم المصلحة هي التي قادتها إلى الزواج منه؟

هذا ما كانت تسأل نفسها عنه مبهورة، وهي تفتح علبة الشوكولاته الملفوفة بورق ألمنيوم التي قدمتها إليها السيدة، مع قبلة على خدها، بعد أن خرجت من بيتها لتناديها – «أورانيتا! تعالي، لدي مفاجأة لك!» – عندما كانت الطفلة تنزل من حافلة المدرسة. تدخل أورانيا إلى البيت، تقبل السيدة – إنها ترتدي فستاناً شديد الزرقة، وحذاء ذا كعب عال، وهي متبرجة وكأنها ذاهبة إلى حفلة، مع عقد لؤلؤ ومجوهرات في يديها –، تفتح العلبة المغلفة بورق مزركش والمعقودة بشريط وردي. تتأمل قطع الشوكولاته المصفوفة، متلهفة لتذوقها، ولكنها لا تتجرأ، إذ.. ألن يكون ذلك قلة أدب؟، وعندئذ تتوقف السيارة في الشارع، قريباً جداً. تطفر السيدة مذعورة، مثل تلك الطفرات الغريبة التي تقوم بها الخيول فجأة وكأنها تهرب من أمر خفي. لقد أصابها الشحوب وصوتها المتعجل يقول:

«يجب أن تذهبي الآن». اليد الموضوعة على كتفها تتشنج، تضغط عليها، تدفعها نحو المخرج. وعندما تتصاع هي، تحمل حقيبة دفاترها وتمضي للخروج، ينفتح الباب على مصراعيه: ويقطع عليها الطريق الشبح المهيمن للرجل المهيب المحشور في بدلة قاتمة، بمعصمين أبيضين منشيين وأزرار ذهبية بارزة من كمي السترة. إنه سيد يضع نظارة قاتمة وموجود في كل مكان، حتى في ذاكرتها. تقف مشلولة، فاغرة فمها، ناظرة، وناظرة. ويوجه إليها فخامته ابتسامة مطمئنة.

- من هي هذه؟

- إنها أورنيتا، ابنة أغوسطين كابرال - ترد صاحبة البيت -. إنها ذاهبة.

وتذهب أورانيا بالفعل، حتى دون أن تودع، لشدة تأثرها. تجتاز الشارع، تدخل بيتها، تصعد السلم، وتراقب من خلال ستائر حجرة نومها، منتظرة عودة الرئيس للخروج من البيت المقابل.

- وكانت ابنتك ساذجة لا تسأل عما يأتي أبو الوطن ليفعله هناك بينما دون فرويلان غير موجود في البيت - يهدأ أبوها الآن، يستمع إليها، أو يبدو أنه يسمعها، دون أن ينقل عينيه عنها -. كانت ساذجة جداً إلى حد أنها ركضت إليك لدى رجوعك من مجلس الشيوخ، لتخبرك بالأمر. لقد رأيتُ الرئيس يا بابا! لقد جاء لزيارة زوجة دون فرويلان يا بابا. ويا للوجه الذي أبديته لي يومذاك!

كما لو أنهم أخبروه بموت شخص عزيز جداً. كما لو أنهم شخصوا إصابته بالسرطان. كان محتقناً، شاحباً، ثم محتقناً. وعيناه تجوبان وجه الطفلة مرة بعد أخرى. كيف يشرح لها ذلك؟ كيف ينبهها إلى الخطر الذي قد تتعرض له العائلة؟ عينا المشلول تريدان أن تنفتحا، أن تستديرا.

- بنيتي، هناك أشياء لا يمكنك أن تعرفيها، أشياء لا تفهمينها بعد. أنا موجود لأعرفها بدلاً منك، لحمايتك. أنت أحب ما لدي في الدنيا. لا تسأليني لماذا، ولكن عليك أن تنسي ما رأيتِه. فأنت لم تكوني في بيت فرويلان. ولم تري زوجته. وأقل من ذلك، أقل من ذلك بكثير، مَنْ حلمتِ بأنك رأيتِه. هذا من أجل خيرك يا بنيتي. ومن أجل خيري أنا أيضاً. لا تكرري قول ذلك، لا ترويه لأحد. هل تعدينني؟ أبداً؟ ولا لأحد؟ أتقسمين لي؟

- وأقسمتُ لك - تقول أورنيا -. ولكنني لم أشك مع ذلك في شيء. ولا عندما هددتَ الخدم بأنهم سيفقدون عملهم إذا ما رددوا تخيلات الطفلة. هكذا كنتُ ساذجة. عندما اكتشفتُ سبب زيارة **الجنراليسمو** لزوجاتكم، لم يكن بإمكان

الوزراء أن يفعلوا مثلما فعل إنريكيث أورينيا. وكان عليهم أن يستسلموا للقرون، مثل دون فرويلان. وبما أنه لم يكن لديهم خيار آخر، راحوا يستجرون المكاسب. هل فعلتَ ذلك؟ هل زار الزعيم أمي؟ قبل أن أولد؟ عندما كنت صغيرة جداً وغير قادرة على التذكر؟ لقد كان يفعل ذلك عندما تكون الزوجات جميلات. وأمي كانت جميلة، أليس كذلك؟ أنا لا أتذكر أنه كان يأتي، ولكن ربما فعل ذلك من قبل. ماذا فعلت أمي؟ هل استسلمت؟ هل ابتهجت، فخورة بهذا الشرف؟ هذه هي القاعدة، أليس كذلك؟ فالدومينيكانيات الصالحات يسعدهن أن يتنازل الزعيم ويضاجعهن. أتبدو لك هذه الكلمة سوقية؟ ولكنه الفعل الذي كان يستخدمه زعيمك المحبوب نفسه.

أجل، هذا هو الفعل. أورانيا تعرف ذلك، لقد قرأته في مكتبتها الوافرة حول **العهد**. فتروخييو شديد الحذر، والتهذب، والتأنق في كلامه – إنه ساحر أفاعٍ عندما يقرر ذلك –، يصير فجأة، في الليل، بعد بضع كؤوس من براندي كارلوس الأول الإسباني، قادراً على إطلاق أشد الكلمات بذاءة. والتكلم مثلما يتكلمون في مصنع للسكر، في معاصر القصب، بين حمالي الميناء على نهر أوزاما، في الستادات أو في المواخير، يتكلم مثلما يتكلم الرجال عندما يريدون أن يشعروا بأنهم فحول أكثر مما هم عليه. يمكن للزعيم في بعض الأحيان أن يكون مبتذلاً بصورة رهيبة ويردد ألفاظ الغيظ البذيئة التي كان يستخدمها في شبابه، عندما كان ناظراً في مزارع سان كريستوبال أو حارساً بلدياً. ويحتفي بها ندماؤه بالحماس نفسه الذي يحتفون فيه بخطبه التي يكتبها له السيناتور كابرال أو **الدستوري سكران**. ويصل به الأمر إلى التبجح عن «الإناث اللواتي ضاجعهن»، وهو أمر يحتفي به ندماؤه أيضاً، حتى عندما يجعلهم ذلك أعداء أساسيين لزوجته دونيا ماريا مارتينث، **السيدة المهيبة**، وحتى عندما تكون هاتيك الإناث زوجاتهم، أخواتهم، أمهاتهم أو بناتهم. لم تكن تلك مبالغات من المخيلة الدومينيكانية المحمومة، المندفعة في تضخيم الفضائل والرذائل وتكبير الحوادث الواقعية إلى حد تحويلها إلى خرافات. لقد كانت هناك قصص مختلقة، مضخمة، مزينة بميول مواطنيها القاسية. ولكن لا بد أن قصة باراهونا كانت صحيحة. وهذه القصة لم تقرأها أورانيا، بل سمعتها (وهي تشعر بالغثيان) على لسان شخص كان على الدوام قريباً، وقريباً جداً من **المنعم**.

– إنه **الدستوري سكران** يا أبي، أجل السيناتور هنري تشيرينوس، يهوذا الذي

خانك. لقد سمعتها من خطمه. أتستغرب لقائي به؟ لم يكن أمامي مفر كموظفة في البنك الدولي. فقد طلب مني المدير أن أمثله في حفل الاستقبال ذاك الذي أقامه سفيرنا، أو بالأصح، سفير الرئيس بالاغير. سفير حكومة الرئيس بالاغير الديمقراطية المدنية. لقد أحسن تشيرينوس اللعب أفضل منك يا أبي. فقد أزاحك من الطريق، ولم يقع في المحنة قط مع تروخييو، ثم انقلب في النهاية واستقر مع الديمقراطية بالرغم من أنه كان تروخييوياً متعصباً مثلك. وقد كان هناك، في واشنطن، أشد قبحاً مما كان عليه على الإطلاق، منتفخاً مثل ضفدع، يجامل المدعوين ويشرب مثل اسفنجة. مانحاً نفسه ترف تسلية المدعوين بطرائف عن عهد تروخييو. هو!

أغمض المشلول عينيه. أتراه نام؟ رأسه مستند إلى المسند، وفمه المغضن والخاوي مفتوح. إنه يبدو أشد نحولاً وضعفاً وهو على هذه الحال؛ ومن خلال الروب البيتي يظهر جزء من صدره الأمرد، ذي البشرة شديدة البياض التي تبرز منها العظام. إنه يتنفس بإيقاع منتظم. الآن فقط انتبهتْ إلى أن أباها بلا جورب؛ ظاهر قدميه وكعبيه أشبه بما هما لدى طفل.

لم يتعرف عليها. وكيف يمكن له أن يتصور أن هذه الموظفة في البنك الدولي التي تنقل له بالإنكليزية تحية المدير، هي ابنة زميله القديم ورفيقه **مخيخ كابرال**؟ وتدبرت أورانيا الأمر لتبقى بعيدة عن السفير بعد تلك التحية البرتوكولية، متبادلة بعض الأحاديث التافهة مع أناس موجودين هناك، مثلها، بصورة اضطرارية تفرضها عليهم مناصبهم. وبعد مرور بعض الوقت، استعدت للمغادرة. دنت من الدائرة التي تستمع إلى سفير الديمقراطية، ولكن ما كان يرويه اجتذبها. وجه رمادي تملؤه الدمامل، وحلق مثل حلق وحش ضار مصاب بالسكتة الدماغية، وغبغب ثلاثي، وكرش فيلي يوشك أن يمزق البدلة الزرقاء ذات الصدرية البرّاقة وربطة العنق الحمراء التي يتحزم بها. وكان السفير يقول إن تلك الواقعة جرت في باراهونا، في المرحلة الأخيرة، عندما أعلن تروخييو في واحدة من تبجحاته التي اعتاد عليها، أنه من أجل تقديم مثل وتنشيط الديمقراطية الدومينيكانية، سينسحب من الحكومة (كان قد عين أخاه هيكتور بيّنبيتديتو، الملقب نيغرو، كرئيسٍ دمية)، وسيتقدم، ليس إلى الرئاسة، وإنما إلى منصب حاكم مقاطعة نائية. كمرشح عن المعارضة!

يلهث سفير الديمقراطية، يلتقط أنفاسه، ويرصد بعينيه المتقاربتين جداً تأثير

كلماته. «لاحظوا ذلك أيها السادة»، يقول متهكماً: «تروخييو مرشح معارض لنظامه نفسه!». يبتسم ويواصل موضحاً أنه في تلك الحملة الانتخابية، ألقى دون فرويلان أرالا، أحد أذرع الجنراليسمو اليمنى، خطاباً حث فيه الزعيم على التقدم ليس لحكم مقاطعة، وإنما إلى المنصب الذي ما زال يشغله في قلب الشعب الدومينيكاني: رئاسة الجمهورية. ظن الجميع أن دون فرويلان يتبع تعليمات **الزعيم**. ولكن الأمر لم يكن كذلك. أو أنه على الأقل - ويشرب السفير تشيرينوس رشفة الويسكي الأخيرة وبريق خبيث يشع من عينيه - لم يكن كذلك في تلك الليلة، ويمكن أيضاً أن يكون دون فرويلان قد فعل ذلك بناء على أمر من **الزعيم**، وأن هذا قد غيّر رأيه وقرر مواصلة المهزلة لبضعة أيام أخرى. وهو ما كان يفعله أحياناً، حتى لو أدى ذلك إلى وضع معاونيه اللامعين في مواقف مضحكة. لقد كان دون فرويلان أرالا يتألق بقرنين بروكيين، ولكنه يمتلك في الوقت نفسه دماغاً ممتازاً. وقد عاقبه **الزعيم** على ذلك الخطاب القدسي مثلما اعتاد أن يفعل: بإذلاله في الموضع الذي يسبب له أكبر قدر من الألم، أي في شرفه الرجولي.

جميع شخصيات المجتمع في تلك المقاطعة حضروا في النادي حفل الاستقبال الذي أقامته على شرف **الزعيم** القيادة المحلية للحزب الدومينيكاني في مقاطعة باراهونا. رقصوا وشربوا. وفجأة، بينما كان **الزعيم** يتحدث بمرح، في وقت متأخر، أمام عدد كبير من المستمعين الرجال فقط - عسكريون من الحامية المحلية، وزراء، سيناتورات ونواب يرافقونه في جولته، وحكام مقاطعات ووجهاء - ويمتعهم بذكرياته عن جولته السياسية الأولى، قبل ثلاثة عقود، متخذاً تلك النظرة العاطفية، النوستالجية التي يُظهرها فجأة في نهاية عباراته، هتف وكأنه يستسلم لنوبة ضعف:

- لقد كنت على الدوام رجلاً محبوباً. رجلاً احتضن بين ذراعيه أجمل نساء هذه البلاد. وهن من منحنني القوة لتقويم البلاد، فبدونهن ما كان لي أن أفعل ما فعلته قط. (رفع كأسه إلى الضوء، وتفحص السائل، تأكد من شفافيته، وصفاء لونه) أتدرون من هي الأفضل بين كل من ضاجعتهن؟ («واعذروني أيها الأصدقاء على استخدام هذا الفعل البذيء».) (ثم توقف مرة أخرى، استنشق أريج كأس البراندي. وبحث الرأس ذو الشعر الفضي ووجد بين دائرة الأعيان الذين يستمعون إليه وجه الوزير الشاحب والبدين. فأنهى كلامه قائلاً:) إنها زوجة فرويلان!

تكشر أورانيا مشمئزة، مثلما فعلت في تلك الليلة التي سمعت فيها السفير

تشيرينوس يضيف أن دون فرويلان ابتسم ببطولة، وضحك، محتفلاً مع الاخرين، بفكاهة **الزعيم**. وقد قال الدبلوماسي محدداً بدقة: «كان شاحباً بمثل بياض الورق، ولكن دون أن يفقد الوعي، ودون أن ينهار مصعوقاً بنوبة إغماء».

– كيف كان ذلك ممكناً يا أبي؟ أن يصل الأمر برجل مثقف، مؤهل، ذكي مثل فرويلان أرالا إلى تقبل ذلك. ماذا كان يفعل لكم؟ ماذا كان يعطيكم، ليحوّل دون فرويلان، وتشيرينوس، ومانويل ألفونسو، وأنت، وكل من كانوا أذرعه اليمين واليسار، إلى خرق قذرة؟

لن تفهمي ذلك يا أورانيا. هناك أشياء كثيرة من **العهد** استطعت فهمها: بعضها بدت لك في البدء غير قابلة للتفسير، ولكنك من خلال القراءة، والاستماع، والمقارنة والتفكير، توصلتِ إلى فهم كيف يمكن لكل تلك الملايين من الأشخاص المهروسين بالدعاية والافتقار إلى المعلومات، المخبولين بالتلقين العقائدي والعزلة، المحرومين من حرية الاختيار، ومن الإرادة وحتى من الفضول بسبب الخوف وممارسة التذلل والخنوع، أن يصلوا إلى تأليه تروخييو. ليس إلى الخوف منه وحسب، وإنما إلى حبه، مثلما يتوصل الأبناء إلى محبة الآباء المتسلطين، وإقناع أنفسهم بأن الجلد والعقوبات إنما هي لمصلحتهم. ولكن ما لم تفهميه مطلقاً هو أن الدومينيكانيين الأكثر تأهيلاً، أدمغة البلاد، من محامين، وأطباء، ومهندسين، متخرجين أحياناً من جامعات كبيرة في الولايات المتحدة أو أوربا، الحساسين، المثقفين، ذوي الخبرة، والقراءات، والأفكار، والمفترض أن لديهم إحساساً متطوراً للشعور بالسخرية، يتقبلون أن يكونوا محط تنكيل بتلك الطريقة الوحشية (وجميعهم تعرضوا لذلك في إحدى المرات) مثلما جرى في تلك الليلة، في باراهونا، لدون فرويلان أرالا.

– مؤسف أنك غير قادر على الكلام – تكرر، عائدة إلى الحاضر- كنا سنحاول فهم ذلك معاً. ما الذي جعل دون فرويلان يحتفظ بولاء كلبي لتروخييو؟ لقد بقي مخلصاً حتى النهاية، مثلك. فهو لم يشارك في المؤامرة، ولم تفعل ذلك أنت أيضاً. واصل لحس يد **الزعيم** بعد تبجحه في باراهونا بأنه ضاجع زوجته. **الزعيم** الذي جعله يلف ويدور في أميركا الجنوبية، ليزور بلداناً كوزير خارجية للجمهورية، ويتنقل من بوينس آيرس إلى كاراكاس، ومن كاراكاس إلى ريو أو برازيليا، ومن برازيليا إلى مونتيفيديو، ومن مونتيفيديو إلى كاراكاس، لمجرد أن يواصل **الزعيم** مضاجعة جارتنا الجميلة باطمئنان.

إنها صورة تحاصر اورانيا منذ زمن طويل، تسبب لها الضحك والسخط.

صورة وزير الدولة للعلاقات الخارجية في العهد وهو يصعد ويهبط من طائرات، ليجوب العواصم الأمريكية الجنوبية، منصاعاً لأوامر مستعجلة تنتظره في كل مطار، لكي يواصل ذلك الطريق الهستيري، مزعجاً الحكومات بذرائع فارغة. وكل ذلك من أجل ألا يعود إلى مدينة تروخييو بينما الزعيم يضاجع زوجته. هذا ما يرويه كراسويلر نفسه، أبرز كتّاب سيرة حياة تروخييو. أي أن الجميع كانوا يعرفون ذلك، ودون فرويلان نفسه أيضاً.

- أهناك ما يستحق كل ذلك يا أبي؟ أكان الوهم بالتمتع بالسلطة؟ أحياناً أفكر أن لا، وأن الازدهار كان أمراً ثانوياً. وأنكم في الحقيقة، أنت، وأرالا، وبيتشاردو، وتشيرينوس، وألفاريث بينا، ومانويل ألفونسو، كنتم تستلذون التلوث بالقذارة. وأن تروخييو قد أخرج من أعماق أرواحكم ميلاً مازوشياً، ككائنات تحتاج إلى من يبصق عليها، يهينها، لأنها بالتحقير تجد ذواتها.

ينظر إليها المشلول دون أن يرمش، دون أن يحرك شفتيه، ولا يديه الضئيلتين اللتين فوق ركبتيه. يمكن القول إنه مومياء، قزم محنط، دمية من الشمع. روبه حائل اللون، ومنسل الخيوط في بعض المواضع. لا بد انه قديم جداً، منذ عشر أو خمس عشرة سنة. يُطرق الباب. تقول «أدخل» وتطل المرضة، حاملة طبقاً صغيراً فيه أجزاء من المانجا مقطعة على شكل أهلة وتفاح أو موز مهروس.

- في الضحى أقدم له شيئاً من الفاكهة - توضح المرأة دون أن تدخل - يقول الطبيب إنه يجب ألا يقضي ساعات طويلة بمعدة خاوية. بما أنه لا يتغذى جيداً، لا بد من إعطائه شيئاً ما ثلاث أو أربع مرات في النهار. أما في الليل، فحساء فقط. هل يمكنني الدخول؟

- أجل، أدخلي.

تنظر أورانيا إلى أبيها وعيناه تواصلان التطلع إليها؛ إنه لا ينظر إلى المرضة حتى عندما جلست قبالته، وبدأت تقدم له ملاعق صغيرة من وجبته الخفيفة.

- أين هو طقم أسنانه الاصطناعية؟

- اضطررنا إلى انتزاعه. فبعد أن هزل كثيراً، صار يسبب له نزفاً في لثته. وبما أن الأشياء التي يأكلها تقتصر على الحساء، والفواكة المقطعة، والبوريه، والأطعمة المخفوقة، فإنه لم يعد يحتاج إلى الأسنان الاصطناعية.

تبقيان صامتتين لوقت لا بأس به. وعندما ينتهي المشلول من الابتلاع، تقرّب المرضة الملعقة من فمه وتنتظر بصبر أن يفتحه المريض. وعندئذ تقدم له الملعقة

التالية برقة بالغة. أتراها تفعل ذلك على الدوام؟ أم أن سبب هذه الرقة هو وجود ابنته؟ بكل تأكيد. فعندما تكون وحدها معه، تؤنبه، تقرصه، مثلما تفعل المربيات مع الأطفال الذين لم يتعلموا الكلام بعد عندما لا تراهن الأمهات.

تقول لها الممرضة:

- قدمي له بضع ملاعق. إنه راغب في ذلك. أليس صحيحاً يا دون أغوسطين؟ أنت ترغب في أن تُطعمك ابنتك الفاكهة المخفوقة، أليس كذلك؟ أجل، أجل، إن ذلك يروقه. أعطه بعض اللقيمات ريثما أنزل لإحضار كأس الماء الذي نسيته.

تضع الطبق الذي انتهى من تناول نصفه بين يدي أورانيا التي تتلقاه بصورة آلية، وتنصرف تاركة الباب مفتوحاً. وبعد لحظات من التردد، تقرب أورانيا من فمه ملعقة فيها شريحة صغيرة من المانجا. ولكن المشلول الذي لم يرفع عينيه عنها بعد، يطبق فمه، مقطباً شفتيه، مثل طفل صعب المراس.

الفصل الخامس

- صباح الخير - ردّ عليه.

كان الكولونيل جوني أبيس قد وضع فوق مكتبه التقرير الذي يقدمه إليه كل صباح، ويتضمن أحداث اليوم السابق، وتوقعاتٍ واقتراحات. كان يحب قراءة تلك التقارير؛ فالكولونيل لا يضيع الوقت في الحماقات مثلما كان يفعل الرئيس السابق لجهاز الاستخبارات العسكرية، الجنرال أرتورو ر. إسبايّات «المدية»، خريج مدرسة ويست بوينت العسكرية، والذي كان يسبب له الضجر بهذياناته الاستراتيجية. هل كان المدية يعمل لمصلحة الـ CIA؟ لقد أكدوا له ذلك. ولكن جوني أبيس لم يستطع إثباته. إذا كان هناك من لا يعمل لمصلحة الـ CIA، فهو الكولونيل: لأنه يكره اليانكيين.

- قهوة يا صاحب الفخامة؟

كان جوني أبيس بالزي العسكري. ومع أنه كان يبذل جهده لارتداء الزي بالدقة التي يطالب بها تروخييو، إلا أنه لم يستطع أن يفعل إلا ما تتيحه له بنيته الجسدية المتراخية والمترهلة. فهو أقرب إلى قصر القامة منه إلى طولها، كرشه المكور يتناسب مع غبغبه المزدوج الذي تتدفع فوقه ذقنه البارزة، والمقسومة بانهدام عميق. وكان خداه مترهلين أيضاً. أما عيناه دائمتا الحركة والقاسيتان فهما وحدهما اللتان تشيان بذكاء تلك الخراقة الجسدية. له من العمر خمس وثلاثون أو ست وثلاثون سنة، ولكنه يبدو عجوزاً. لم يذهب إلى ويست بوينت أو أي مدرسة عسكرية أخرى؛ وما كان سيُقبل فيها لافتقاره إلى اللياقة والميول العسكرية. إنه من ذلك النوع الذي كان المدرب جيتلمان يسميه، حين كان المنعم مع المارينز، بـ«الضفدع جسداً وروحاً»، بسبب افتقاره إلى العضلات، وإفراط شحومه وميله إلى الدسائس. وقد جعل منه تروخييو كولونيلاً بين ليلة وضحاها في الوقت نفسه الذي قرر فيه، في واحدة من تلك النزوات المفاجئة التي تميز مسيرته السياسية، أن يعينه رئيساً لجهاز الاستخبارات العسكرية بدلاً من المدية،

لماذا فعل ذلك؟ ليس لأنه قاسٍ، بل ربما لأنه بارد الأعصاب: إنه أكثر الكائنات التي عرفها جليدية في بلاد الناس الحارين جسداً وروحاً هذه. وهل كان اختياره له قراراً سعيداً؟ لقد صار يرتكب الأخطاء في الآونة الأخيرة. فإخفاق عملية اغتيال الرئيس الفنزويلي بيتانكور لم تكن الفشل الوحيد؛ لأنه أخطأ كذلك في التمرد المزعوم ضد فيدل كاسترو الذي سيقوم به القائدان العسكريان إلوي غوتيريث مينويو ووليم مورغان، والذي تبين أنه كمين نصبه ذلك الملتحي لاجتذاب المنفيين الكوبيين إلى الجزيرة وإلقاء القبض عليهم. هذا ما فكر به المنعم وهو يتصفح التقرير ما بين رشفات القهوة.

- إنك تصر على إخراج المطران ريللي من مدرسة سانتو دومنغو - دمدم - اجلس، اسكب قهوة.

- أتسمح لي يا صاحب الفخامة؟

رنة صوت الكولونيل الموسيقية يحتفظ بها من سنوات فتوته، عندما كان معلقاً إذاعياً لمباريات البيسبول، وكرة السلة، وسباقات الخيول. وهو لم يعد يحتفظ من تلك المرحلة إلا على القراءات السّرية - وكان يعترف لنفسه بأنه تأملي -، وهذه المناديل التي يوصي على صبغها بالأحمر لأنه - حسب قوله - لون الحظ لمواليد برج الحمل، ويمنح القدرة على حدس خفايا كل شخص (حماقات تمتع الجنراليسمو وتُضحكه). وقف مقابل طاولة الزعيم، حاملاً فنجان قهوة في يده. كان الظلام ما يزال مخيماً في الخارج والمكتب تكتنفه الظلال، يكاد لا يضيؤه المصباح الذي يحصر يدي تروخييو في دائرة مذهبة.

- لا بد لنا من فقء هذا الدمل يا صاحب الفخامة. مشكلتنا الكبرى ليست كيندي، فهو مشغول تماماً بفشل غزوه لكوبا. المشكلة هي الكنيسة. إذا نحن لم نقضِ على عناصر الطابور الخامس هنا، فسوف نواجه المشاكل. فالمطران ريللي يعمل في خدمة المطالبين بالغزو الأمريكي. وهم في كل يوم ينفخونه ويضخمونه أكثر، ويضغطون في الوقت نفسه من أجل إرسال المارينز لإنقاذ المطران المسكين المطارَد. ويجب ألا ننسى أن كيندي كاثوليكي.

- جميعنا كاثوليك - تنهد تروخييو. وقوض تلك الحجة:- وهذا هو بالأحرى مبرر آخر للامتناع عن لمسه. لأن إقدامنا على ذلك سيكون كمن يقدم إلى الأمريكيين الذريعة التي يبحثون عنها.

بالرغم من أن تروخييو كان يصل في بعض اللحظات إلى الاستياء من

صراحة الكولونيل، إلا أنه كان يتسامح معه. فلدى رئيس الاستخبارات العسكرية أوامر بالتحدث إليه بكل صراحة، حتى ولو كان ما يقوله فظيعاً على مسمعيه. المدية لم يكن يستخدم هذا الامتياز مثلما يستخدمه جوني أبيس.

- لا أظن أن بالإمكان التراجع إلى الوراء في علاقتنا مع الكنيسة، فذلك الغرام الذي استمر ثلاثين سنة قد انتهى - كان يتكلم ببطء بينما عيناه الصغيرتان الزئبقيتان تدوران في محجريهما وكأنهما تستطلعان محيط المكان بحثاً عن شِراك -. لقد أعلنت الكنيسة علينا الحرب في 25 كانون الثاني 1960، برسالة المطارنة الأسقفية، وهدفها هو القضاء على النظام. فرجال الدين لن يكتفوا ببعض الامتيازات. لن يعودوا إلى دعمكم يا صاحب الفخامة. مثلهم في ذلك مثل اليانكيين. وفي الحرب لا وجود إلا لطريقين: إما الاستسلام أو إلحاق الهزيمة بالعدو. والمطرانان بانال وريللي يخوضان تمرداً سافراً.

كان لدى الكولونيل أبيس خطتان: الأولى، استخدام «القبضايات» كدرع، وهؤلاء جماعة من القتلة المسلحين بالهراوى والسكاكين من أتباع الرئيس السابق الذي كان في خدمته، وفي الوقت نفسه ينطلق المخبرون السّريون كجماعات هائجة في مظاهرة احتجاج ضد المطرانيين الإرهابيين، ويقتحمون أسقفية لابيغا ومدرسة سانتو دومنغو، ويجهزون على المطرانيين قبل أن تتمكن قوات الأمن من إنقاذهما. وهذه الصيغة تنطوي على مجازفة؛ ويمكن لها أن تتسبب بوقوع الغزو. ولكن ميزتها أن موت المطرانيين سوف يشل بقية رجال الدين لوقت لا بأس به. أما في الخطة الثانية، فيتمكن الحراس من إنقاذ بانال وريللي قبل أن يشنقهما الرعاع، وتطردهما الحكومة عندئذ إلى إسبانيا والولايات المتحدة، بحجة أنها الطريقة الوحيدة لضمان سلامتهما. ثم يقر مجلس الشيوخ قانوناً بوجوب أن يكون جميع الرهبان الذين يمارسون التبشير في البلاد من الدومينيكانيين بالمولد. أما الأجانب أو المتجنسون فيعادون إلى بلدانهم. وبهذه الطريقة - وهنا استشار الكولونيل دفتر ملاحظات صغير - يتقلص عدد القسس الكاثوليك إلى الثلث. وهكذا يكون بالإمكان التحكم بالأقلية المتبقية من الكهنة المحليين.

صمت عندما قام المنعم الذي كان خافضاً رأسه، برفعه.

- هذا ما فعله فيدل كاسترو في كوبا.

وافق جوني أبيس:

- هناك أيضاً بدأت الكنيسة بالاحتجاج، ثم بالتآمر بعد ذلك، مهيئة الأرضية

للأمريكيين. لقد طرد كاسترو الرهبان الأجانب وأصدر إجراءات صارمة ضد من بقي منهم. وما الذي جرى له؟ لا شيء.

- هذا حتى الآن - صحح له **المنعم** - ولكن كيندي سيُنزل المارينز في كوبا في أي لحظة. ولن تكون هذه المرة مثل تلك البلاهة التي قاموا بها الشهر الماضي في خليج الخنازير.

- في مثل هذه الحالة سيموت ذلك الملتحي وهو يقاتل - وافق جوني أبيس - وليس من المستحيل أن يقوم المارينز بإنزال هنا أيضاً. وقد قررت سيادتك أن نموت جميعنا ونحن نقاتل أيضاً.

أفلت تروخييو ضحكة ساخرة. فإذا كان لا بد من الموت في القتال ضد المارينز، كم من الدومينيكانيين سيضحون بأنفسهم معه؟ الجنود سيفعلون دون شك. وقد أثبتوا ذلك في مواجهة الغزوة التي أرسلها فيدل في 12 حزيران 1959. لقد قاتلوا ببسالة، وأبادوا الغزاة خلال أيام قليلة، في جبال كونستانثا، وفي شواطئ مايمون وإستيرو أوندو. ولكن، إذا كان القتال ضد المارينز...

- أخشى ألا يكون هناك كثيرون إلى جانبي. هروب الفئران سيثير كثيراً من العجاج. أنت ستقاتل معي، فليس أمامك من وسيلة سوى الموت إلى جانبي. فأينما ذهبتَ سيكون السجن بانتظارك، أو سيغتالك أعداؤك المنتشرون في العالم.

- لقد فعلتُ ما فعلته دفاعاً عن هذا النظام يا صاحب الفخامة.

وألح تروخييو مستمتعاً:

- الوحيد الذي لا يستطيع خيانتي بين جميع من يحيطون بي، حتى لو رغب في ذلك، هو أنت. لأنني الشخص الوحيد الذي يمكنك اللجوء إليه، والذي لا يكرهك ولا يحلم بقتلك. إننا متزوجان إلى أن يفرق الموت بيننا.

ضحك ثانية بمزاج رائق وهو يتفحص الكولونيل، مثلما يتفحص عالمُ حشرات حشرةً يصعب عليه تصنيفها. هناك أشياء كثيرة تقال عنه، وخصوصاً عن قسوته. وهذه سمه مناسبة لشخص يمارس وظيفته. يقال مثلاً إن أباه الأمريكي، من أصل ألماني، فاجأ ابنه جوني الصغير، وكان ما يزال يرتدي بنطالاً قصيراً، وهو يفقأ عيون الصيصان في قن الدجاج. وإنه كان يبيع في شبابه إلى طلاب الطب جثثاً يسرقها من المدافن في مقبرة الاستقلال. وإنه مخنث على الرغم من كونه متزوجاً من لوبيتا، تلك المكسيكية الفظيعة المجربة التي تمضي

وفي حقيبتها مسدس. بل يقال إنه ينام مع أخ الجنراليسمو غير الشقيق، نيني تروخيو.

- أنت تعرف الإشاعات التي يروجونها عنك في كل مكان - واجهه وهو ينظر إلى عينيه دون أن يتوقف عن الضحك -. لا بد أن بعضها صحيح. هل كنت تلعب في طفولتك بفقء عيون الدجاج؟ أكنت تسلب مدافن مقبرة الاستقلال لكي تبيع الجثث؟

ابتسم الكولونيل ابتسامة لا تكاد تظهر.

- المسألة الأولى يجب ألا تكون صحيحة، فأنا لا أتذكرها. أما الثانية فهي نصف الحقيقة يا صاحب الفخامة. لم تكن جثثاً، وإنما عظاماً وجماجم، شبه مكشوفة بفعل الأمطار. وكنت أفعل ذلك من أجل كسب بعض النقود. وهم يقولون الآن إنني في عملي كرئيس للاستخبارات العسكرية أقوم بردّ تلك العظام.

- وماذا عن أنك مخنث؟

لم يتأثر الكولونيل كذلك الآن. فقد بقي محتفظاً بعدم مبالاته السريرية:

- لم أطرق ذلك الطريق قط يا صاحب الفخامة. فأنا لمْ أنم مع رجل على الإطلاق.

- حسن، يكفي حماقات - قاطعه الزعيم متخذاً مظهر الجدية - إياك أن تمس المطرانين.. في الوقت الراهن على الأقل. سنرى ما نفعله حسب تطور الأمور. إذا كان بالإمكان معاقبتهما، سنفعل ذلك. فلتتواصل مراقبتهما جيداً الآن. واصل حرب الأعصاب. لا تدعهما ينامان أو يأكلان مطمئنين. ولنر إذا ما قررا الذهاب من هنا بإرادتهما.

هل سيحقق المطرانان مآربهما ويخرجان من المواجهة سعيدين مثل ذلك الفأر الأسود بيتانكور؟ انتابه الغيظ مرة أخرى. لقد توصل وحش كاراكاس ذاك إلى جعل منظمة الدول الأمريكية تفرض عقوبات على جمهورية الدومينيكان، فقطعت جميع البلدان علاقاتها معها وطبقت عليها ضغوطاً اقتصادية راحت تخنق البلاد. فكل يوم، كل ساعة، تبدو آثار ذلك على ما كان يُعتبر اقتصاداً مزدهراً. وبيتانكور الذي ما يزال حياً، يرفع راية الحرية، عارضاً في التلفزيون يديه المحروقتين، متفاخراً بنجاته من محاولة الاغتيال الغبية التي ما كان يتوجب تركها بين أيدي أولئك العسكريين الفنزويليين الأنذال. المحاولة القادمة سيتولاها جهاز الاستخبارات العسكرية وحده. لقد شرح له أبيس بطريقة تقنية،

وموضوعية، تفاصيل العملية الجديدة التي ستنتهي بانفجار ضخم يجري التحكم به بجهاز عن بُعد، بمتفجرات مشتراة بسعر الذهب من تشيكوسلوفاكيا، وهي موجودة الآن في القنصلية الدومينيكانية في هايتي. وسيكون من السهل نقلها من هناك إلى كاراكاس في الوقت المناسب.

منذ عام 1958، عندما قرر تعيينه في المنصب الذي هو فيه، يقوم الزعيم يومياً بتصريف الأمور مع الكولونيل في هذا المكتب، أو في بيت كاوبا أو في أي مكان يكون تروخييو فيه، ودوماً في مثل هذه الساعة. فجوني أبيس مثله مثل الجنراليسمو، لا يأخذ إجازات مطلقاً. لقد سمع تروخييو به للمرة الأولى من الجنرال إسبايّات. إذ فاجأه الرئيس السابق لجهاز الاستخبارات بمعلوماته الدقيقة والتفصيلية عن المنفيين الدومينيكانيين في المكسيك: ماذا يعملون، وماذا يخططون، وأين يعيشون، وأين يجتمعون، ومن يساعدهم، وأي الدبلوماسيين يزورون.

– كم لديك من العملاء في المكسيك لتحصل على كل هذه المعلومات عن أولئك الأنذال؟

– كل المعلومات تأتي من شخص واحد يا صاحب الفخامة – قال المدية ذلك وهو يقوم بإيماءة انشراح مهنية –. وهو شخص فتي جداً. يدعى جوني أبيس غارسيا. ربما تكون قد تعرفت على أبيه، إنه أمريكي نصف ألماني جاء للعمل في شركة الكهرباء وتزوج من دومينيكانية. كان الفتى صحفياً رياضياً ونصف شاعر. بدأت أستخدمه كمخبر عن العاملين في الإذاعة والصحافة، وعن سهرات صيدلية غوميث التي يرتادها مثقفون كثيرون. وقد قام بذلك على أحسن وجه مما دفعني إلى إرساله إلى المكسيك، بمنحة مزيفة. وها أنتذا ترى، لقد نال ثقة كل المنفيين. إنه على علاقة جيدة بالكلاب والقطط على السواء. لست أدري كيف توصل إلى ذلك يا صاحب الفخامة، ولكنه انتهى في المكسيك إلى إقامة علاقة مع لومباردو توليدانو، الزعيم النقابي اليساري. والقبيحة التي تزوج منها كانت سكرتيرة ذلك الشيوعي التافه، تصور.

يا للمدية المسكين! فمع حديثه بذلك الحماس بدأ بفقدان منصبه في رئاسة جهاز الاستخبارات العسكرية الذي أعدوه له في ويست بوينت.

أمره تروخييو:

– أحضره إلى هنا، وأعطه منصباً حيث أستطيع مراقبته.

وهكذا ظهر في ممرات القصر الوطني ذلك الشخص الأخرق، ذو العينين دائمتي الحركة. شغل منصباً تافهاً في مكتب الاستعلامات. وكان تروخييو يدرسه عن بعد. فمنذ شبابه المبكر في سان كريستوبال، يتبع هذه الطريقة في الحدس التي تتيح له بعد نظرة بسيطة، أو محادثة قصيرة، أو مجرد إشارة عابرة، التأكد من أنه يمكن للشخص المعني أن يفيده ويخدمه. بهذه الطريقة اختار عدداً كبيراً من معاونيه، ولم يكن اختياره سيئاً. عمل جوني أبيس غارسيا عدة أسابيع في مكتب غامض، تحت إدارة الشاعر رامون إميليو خيمينث، ومع ديب فيلاري فونت، وكيرول، وغريمالدي، بكتابة رسائل من قراء مزعومين إلى صفحة **المحكمة العامة** في جريدة **الكاريبي**. وراح **الجنراليسمو** ينتظر إشارة حظ، دون أن يعرف كنهها، قبل أن يضعه على محك الاختبار. وقد جاءت الإشارة بأكثر الطرق بُعداً عن المتوقع، في اليوم الذي فاجأ فيه جوني أبيس في أحد ممرات القصر وهو يتبادل الحديث مع أحد وزرائه. ما الحديث الذي يمكن أن يتبادله الوزير المهذب والورع والمتقشف خواكين بالاغير مع مخبر المدية؟

- لا شيء ذو أهمية يا صاحب الفخامة - أوضح بالاغير في موعد الاجتماع الوزاري -. لم اكن أعرف ذلك الشاب. وحين لاحظت انهماكه في القراءة، ذلك أنه يقرأ بينما هو يمشي، لسعني الفضول. وسيادتك تعرف أن الكتب هي هوايتي الكبرى. لقد فوجئت بما كان يقرأه. لا بد أنه لا يتمتع بكامل قواه العقلية. أتدري أن ما كان يقرأه سيعجبك كثيرا؟ إنه كتاب عن أساليب التعذيب الصينية، وفيه صور أشخاص مقطوعي الرؤوس مسلوخي الجلود.

في تلك الليلة بالذات أرسل في طلبه. بدا أبيس مثقلاً جداً - من السعادة أم من الخوف، أم من كليهما - لهذا الشرف الكبير إلى حد أن الكلمات لم تكد تخرج منه وهو يحيي **المنعم**.

- لقد أنجزتَ عملاً جيداً في المكسيك - قال له بصوته النايّ والقاطع الذي كان، مثل عينيه، يمارس تأثيراً يؤدي بمحدثيه إلى الشلل -. لقد أخبرني إسبايّات عنك. وأنا أرى أنك قادر على تولي مهمات أكثر جدية. هل أنت مستعد؟

- كل ما تأمر به فخامتك - كان ساكناً، قدماه متلاصقتان، مثل تلميذ أمام معلمه.

- هل تعرفت على خوسيه ألمونيا هناك في مكسيكو؟ إنه غاليسي جاء إلى هنا مع الجمهوريين الإسبان المنفيين.

- أجل يا صاحب الفخامة. لقد عرفته بالشكل فقط، ولكنني كنت أعرف جيداً الكثيرين من أفراد الجماعة التي يجتمع معها في مقهى كوميرثيو. إنهم يطلقون على أنفسهم تسمية «الإسبان الدومينيكانيين».

- هذا الشخص نشر كتاباً ضدي بعنوان **«دولة مرزبان فارسي في الكاريبي»**، ودفعت له مقابل ذلك الحكومة الغواتيمالية. وقد وقعه بالاسم المزيف غريغوريو بوستامانتي، وبعد ذلك، ومن أجل التمويه، كانت لديه الوقاحة لنشر كتاب آخر في الأرجنتين، باسمه الحقيقي، وبعنوان **«كنتُ سكرتير تروخييو»**، رفعني فيه إلى السحاب. وبما أن سنوات عديدة قد انقضت، فقد صار يشعر بأنه في منجى هناك في المكسيك. يظن أنني نسيت تشويهه لسمعة أسرتي والنظام الذي أطعَمَه. هذه الذنوب لا تُغتفر. أترغب في تسوية الأمر؟

- سيكون ذلك شرفاً عظيماً لي يا صاحب الفخامة - ردّ أبيس غارسيا على الفور، بتأكيد لم يكن قد أبداه حتى تلك اللحظة.

بعد فترة من ذلك، مات مجندلاً بالرصاص في العاصمة المكسيكية السكرتير السابق للجنراليسمو، ومؤدب ابنه رامفيس وكاتب أعمال زوجته دونيا ماريا مارتينيث، **السيدة المهيبة**. دار لغط وصخب بين المنفيين والصحافة، ولكن أحداً لم يستطع إثبات ما قاله أولئك من أن عملية الاغتيال دبرتها «يد تروخييو الطويلة». لقد كانت عملية سريعة لا تشوبها شائبة، ولم تكد تكلف أكثر من ألف وخمسمئة دولار، حسب الفاتورة التي قدمها جوني أبيس غارسيا لدى عودته من مكسيكو. فضمه **المنعم** إلى الجيش برتبة كولونيل.

لم تكن تصفية خوسيه ألمونيا إلا واحدة من سلسلة عمليات باهرة أنجزها الكولونيل وأدت إلى مقتل أو عطب أو جرح عشرات من أكثر المنفيين صخباً. في كوبا، والمكسيك، وغواتيمالا، ونيويورك، وكوستاريكا، وفنزويلا. عمليات خاطفة ونظيفة بهرت **المنعم**. كل عملية منها هي عمل عبقري بمهارته وخفته، ودقيق كآلية الساعة. وفي معظم الأحيان، إضافة إلى تصفية العدو، كان أبيس غارسيا يتدبر الأمر لتقويض سمعة ضحاياه. فالنقابي روبيرتو لامادا، اللاجئ في هافانا، توفي نتيجة ضرب تلقاه في ماخور في الحي الصيني، على يد بعض القوادين الذين اتهموه أمام الشرطة بأنه حاول أن يطعن إحدى المومسات لأنها رفضت الانصياع للانحرافات السادية التي طالبها ذلك المنفي بها؛ وقد ظهرت المرأة المعنية، وهي خلاسية شعرها مصبوغ بلون أشقر ضارب إلى الحمرة، في

مجلتي **كارتيلس** و**بوهيميا**، وهي تبكي وتعرض الجراح التي سببها لها ذلك المنحط. والمحامي سيبريوتا مات في كاراكاس في مشاجرة بين مخنثين: وجدوه مطعوناً في فندق سيئ السمعة، وهو بسروال وحمالة صدر نسائيين، وفمه مطلي بأحمر شفاه. وقد أثبت تقرير الطب الشرعي وجود مني في مستقيمه. بأي عبقرية يقيم الكولونيل أبيس تلك الاتصالات بسرعة، في مدن لا يكاد يعرفها، مع أولئك الضواري من حثالة المجتمع، من القتلة، والمهربين، وضاربي السكاكين، والمومسات، ورواد المقاهي المشبوهة، والنشالين، الذين يشاركون دوماً في تلك العمليات التي تظهر في صفحات الإثارة الحمراء وتشكل وجبة دسمة للصحف الحسية، ويجد أعداء النظام أنفسهم متورطين فيها؟ كيف تمكن من تغطية أميركا اللاتينية والولايات المتحدة بشبكة فعالة من المخبرين والقتلة بإنفاق مبالغ زهيدة جداً؟ لقد كان وقت تروخييو ثميناً جداً لا يمكنه إضاعته في التقصي عن تلك التفاصيل. ولكنه، عن بُعد، كان يقدر كعارف جيد قيمة تلك الجوهرة الثمينة، والدقة والأصالة اللتين يخلّص بهما جوني أبيس النظام من أعدائه. ولم يستطع المنفيون أو الحكومات المعادية أن يجدوا أي علاقة بين تلك الحوادث المريعة والجنراليسمو. وإحدى أكثر تلك العمليات إتقاناً هي عملية رامون ماريرو أريستي، مؤلف «OVER»، الرواية التي تتحدث عن عمال قصب السكر في لارومانا، والمعروفة في أميركا اللاتينية كلها. لقد كان ماريرو مديراً سابقاً لجريدة **لاناسيون**، الجريدة التروخييوية المتعصبة بهستيرية، ووزيراً للعمل في عام 1956، ثم مرة أخرى في عام 1959، عندما بدأ بتسريب تقارير إلى الصحفي الأمريكي تيد زولك، لكي يلطخ سمعة النظام بمقالاته في **النيويورك تايمز**. وعندما انتبه إلى انكشاف أمره، بعث برسائل استدراك وتصحيح إلى الصحيفة الأمريكية. ثم جاء وذيله بين ساقيه إلى مكتب تروخييو، ليتذلل، ليبكي، ليطلب الصفح، ليقسم بأنه لم يخن قط ولن يخون. استمع إليه **المنعم** دون أن يفتح فمه، ثم صفعه بعد ذلك بحزم. حاول ماريرو الذي كان يتعرق أن يُخرج منديله، فقتله برصاصة في المكتب نفسه قائد المساعدين العسكريين الكولونيل غواريونيكس استريّا سعد الله. وتولى أبيس غارسيا ترتيب إخراج للعملية، وبعد أقل من ساعة انزلقت سيارة – أمام شهود عيان – إلى هاوية في سلسلة الجبال الوسطى وهي في طريقها إلى كونستانثا؛ ولم يكن ممكناً التعرف على جثتي ماريرو أريستي وسائقه اللتين تمزقتا من شدة الصدمة. ألم يكن جلياً أن

الكولونيل جوني أبيس غارسيا سيحل محل المدية على رأس جهاز الاستخبارات؟ فلو أنه كان على رأس هذا الجهاز عند عملية اختطاف غالينديث في نيويورك التي قادها إسبايّات، لما انفجرت على الأغلب تلك الفضيحة التي ألحقت الضرر بصورة النظام على الصعيد الدولي.

أشار تروخييو إلى التقرير الذي على مكتبه بازدراء:

- أهي مؤامرة أخرى لاغتيالي يقودها خوان توماس ديات؟ أيشارك في تدبيرها كذلك القنصل الأمريكي هنري دياربورن، أبله الـ CIA؟

تخلى الكولونيل أبيس غارسيا عن جموده لكي يريح مؤخرته على الكرسي. وأومأ مؤكداً دون أن يولي الأمر أهمية.

- هكذا يبدو يا صاحب الفخامة.

فقاطعه تروخييو:

- هذا ظريف. قطعوا علاقاتهم معنا تنفيذاً لقرار منظمة الدول الأمريكية. فسحبوا دبلوماسييهم، ولكنهم تركوا لنا هنري دياربورن وعملاءه، لكي يواصلوا حبك الدسائس. هل أنت متأكد من أن خوان توماس يتآمر؟

- لا يا صاحب الفخامة، إنها مجرد مؤشرات غامضة. ولكن منذ أن قمت سيادتك بعزله، تحول الجنرال ديات إلى بئر ضغينة، ولهذا السبب أقوم بمراقبته عن قرب. هناك تلك الاجتماعات في بيته في غاثكوي. فحين يتعلق الأمر بحاقد، لا بد من انتظار الأسوأ دائماً.

- لم يكن عزله هو السبب - علق تروخييو وكأنه يحدث نفسه بصوت عالٍ -. وإنما لأنني قلت له إنه جبان. لأنني ذكّرته بأنه قد أهان الزي العسكري.

- أنا كنتُ موجوداً في ذلك الغداء يا صاحب الفخامة. وظننت أن الجنرال ديات سيحاول النهوض والانصراف. ولكنه تحمل، شاحباً ومتعرقاً. لقد خرج متعثراً مثل مخمور.

فقال تروخييو:

- لقد كان خوان توماس مغروراً دوماً، وكان بحاجة إلى تلقينه درساً. فتصرفه في كونستانثا كان تصرف شخص ضعيف. وأنا لا أقبل جنرالات ضعفاء في القوات المسلحة الدومينيكانية.

تلك الحادثة جرت بعد بضعة شهور من سحق الإنزال في كونستانثا ومايمون وإستيرو أوندو، حين كان جميع أفراد الحملة - ومن بينهم كوبيون، وأمريكيون

شماليون، وفنزويليون، إضافة إلى الدومينيكانيين - قد قتلوا أو اعتقلوا، في الأيام التي اكتشف فيها النظام، في شهر كانون الثاني 1960، شبكة واسعة من المعارضين السريين أطلقت على نفسها، تكريماً لذلك الغزو، اسم حركة 14 حزيران. وكانت تضم طلاباً ومهنيين شباناً من الطبقة المتوسطة والراقية، كثيرون منهم ينتمون إلى أسر مقربة من النظام. وفي أوج حملة التطهير ضد تلك المنظمة الانقلابية، والتي كان من نشطائها البارزين الشقيقات ميرابال الثلاث وأزواجهن - مجرد تذكرهم ينشط مرارة الجنراليسمو -، دعا تروخييو إلى ذلك الغداء في القصر الوطني حوالي خمسين من شخصيات النظام العسكرية والمدنية، من أجل التهكم على صديق طفولته، ورفيق دربه العسكري، الذي شغل أعلى المناصب في القوات المسلحة خلال العهد، والذي قام بإقالته من قيادة منطقة لابيغا التي تتضمن كونستانثا، حين لم تكن قد انتهت بعد عملية القضاء على آخر بؤر الغزاة المنتشرين في تلك الجبال. وكان الجنرال توماس دياث يطلب دون طائل الاجتماع بالجنراليسمو منذ ذلك الحين. ولا بد أنه فوجئ بتلقيه دعوة إلى ذلك الغداء، وخصوصاً بعد أن كانت أخته غراثيتا قد التجأت إلى سفارة البرازيل. لم يصافحه الزعيم ولم يوجه إليه الكلام خلال تناول الطعام، بل أنه لم يوجه نظرة واحدة إلى ركن المائدة الطويلة حيث أُجلس الجنرال دياث، بعيداً جداً عن رأس المائدة، في إشارة إلى سقوطه في المحنة.

وبينما كان يجري تقديم القهوة، فجأة، وفوق أزيز المحادثات التي كانت تطفو فوق المائدة الطويلة، ورخام الجدران وكريستال الثريا المضاءة - وكانت المرأة الوحيدة الحاضرة هي إيزابيل ماير، القائدة التروخييوية في الشمال الشرقي -، ارتفع الصوت الحاد الذي يعرفه جميع الدومينيكانيين، بنبرة متسرعة تنبئ بعاصفة:

- ألا يفاجئكم أيها السادة أن يكون على هذه المائدة، بين أبرز عسكريي ومدنيي النظام، ضابط عُزل من موقعه القيادي لأنه لم يكن على مستوى ذلك الموقع في ميدان المعركة؟

خيم الصمت. والخمسون رأساً التي تحيط بمستطيل الشراشف المطرزة الفسيح تجمدت. لم يكن المنعم يتطلع إلى ركن الجنرال دياث. بل كان وجهه يستعرض المدعوين الآخرين واحداً واحداً، بتعبير مفاجئ، وعينين مفتوحتين على اتساعهما وشفتين متباعدتين، طالباً من مدعويه أن يساعدوه في حل اللغز.

- أتعرفون عمن أتكلم؟ - واصل الكلام بعد الوقفة المسرحية -. إنه الجنرال

خوان توماس دياث، قائد منطقة لافيغا العسكرية في أثناء الغزو الكوبي-الفنزويلي، وقد عُزل في ذروة الحرب، بسبب سلوكه المخزي في مواجهة العدو. ومثل هذا التصرف يُعاقب عليه في أي مكان آخر بمحاكمة ميدانية والإعدام رمياً بالرصاص. أما في ديكتاتورية رافائيل ليونيداس تروخييو مولينا، فيدعى الجنرال الجبان للغداء في القصر مع صفوة وزهرة البلاد.

نطق الجملة الأخيرة ببطء شديد، متلذذاً، لكي يعزز تهكمه.

فتلعثم الجنرال خوان توماس دياث باذلاً جهداً أكبر من طاقة البشر:

- إذا ما سمحت لي يا صاحب الفخامة. أود أن أذكّر بأنه عندما جرت إقالتي، كان قد تم إلحاق الهزيمة بالغزو المعادي. وأنا قمت بواجبي.

كان رجلاً قوياً وفظاً، ولكنه تضاءل في مقعده. لقد بدا شاحباً جداً، وكان يطلق اللعاب من فمه طوال الوقت. وكان ينظر إلى **المنعم**، ولكن هذا، كما لو أنه لم يره ولم يسمعه، راح يمر بنظره للمرة الثانية على المدعوين بخطبة جديدة:

- أنا لا أدعوه إلى القصر فقط. بل يحال إلى التقاعد براتبه كاملاً وامتيازاته كجنرال بثلاث نجوم، لكي يستريح بضمير من أنجز واجبه. ويتمتع في مزارع مواشيه برفقة تشانا دياث، زوجته الخامسة، وهي في الوقت نفسه ابنة أخته، بالراحة المستحقة. أي دليل أكبر من هذا على أريحية هذه الدكتاتورية الدموية؟

عندما انتهى **المنعم** من الكلام، كان رأسه قد انتهى من الجولة على المائدة. والآن، توقف عند ركن الجنرال خوان توماس دياث. لم يعد وجه **الزعيم** هو الوجه المتهكم، الميلودارمي، الذي كان عليه قبل لحظة. كانت تغطيه صرامة قاتلة. وكانت عيناه قد اكتستا بثبات مكفهر، ثاقب، لا يعرف الرحمة، لتذكرا الجميع بمن هو صاحب الأمر في البلاد وفي حياة الدومينيكانيين. فخفض خوان توماس دياث بصره.

- لقد رفض الجنرال دياث تنفيذ أمر أصدرته وسمح لنفسه بتوبيخ ضابط كان ينفذ الأوامر - قال ببطء، وبازدراء - وكل ذلك في أوج الغزو. عندما كان الأعداء الذين سلحهم فيدل كاسترو، ومونيوث مارين، وبيتانكور، وفيغيريس، هذه الزمرة من الحاسدين، قد نزلوا من البحر بالدم والنار، وقتلوا جنوداً دومينيكانيين، مصممين على قطع رؤوسنا نحن جميع الموجودين حول هذه المائدة. في تلك الأثناء، اكتشف قائد لابيغا العسكري أنه رجل رؤوف. رجل رقيق، معاد للمؤثرات العنيفة، لا يمكنه رؤية الدم يسيل. وسمح لنفسه بمخالفة

أوامري بإعدام كل واحد من الغزاة يلقى القبض عليه وفي يديه بندقية في المكان عينه. وبإهانة ضابط احترم قيادته، وفعل ما يجدر فعله بمن جاؤوا لفرض دكتاتورية شيوعية هنا. لقد سمح الجنرال في تلك اللحظات العصيبة من حياة الوطن، بزرع البلبلة وإضعاف معنويات جنودنا. ولهذا السبب لم يعد عضواً في الجيش، بالرغم من أنه ما يزال يرتدي الزي العسكري.

صمت، ليشرب رشفة من الماء. ولكنه ما إن فعل ذلك، وبدلاً من أن يواصل كلامه، نهض بصورة فظة تماماً وودعهم، معتبراً الغداء منتهياً: «طاب مساءكم أيها السادة».

– خوان توماس لم يحاول الذهاب يومذاك، لأنه كان يعرف أنه لن يكون قادراً على الوصول حياً حتى الباب – قال تروخييو –. حسن، في أي دسائس يمضي الآن.

ليس ثمة شيء محدد تماماً في الواقع. فمنذ بعض الوقت يستقبل الجنرال دياث وزوجته في بيتهما في غازكوي زيارات كثيرة. الذريعة هي مشاهدة أفلام سينمائية تعرض في الفناء، في الهواء الطلق، بجهاز عرض يديره صهر الجنرال. والحضور هم خليط غريب. ابتداء من رجال بارزين في النظام، مثل صهر وشقيق صاحب البيت، موديستو دياث كيسادا، وحتى موظفين سابقين مستبعدين من الحكومة، مثل آميامـا تيو وأنطونيو دي لاماثا. وكان الكولونيل أبيس غارسيا قد حول أحد الخدم إلى مخبر منذ نحو شهرين. ولكن الشيء الوحيد الذي التقطه هو أن السادة، في أثناء رؤية الأفلام، لا يتوقفون عن الكلام، كما لو أن تلك الأفلام لا تهمهم إلا كوسيلة لإخماد صوت المحادثات. وهي في نهاية المطاف ليست من تلك الاجتماعات التي يجري فيها الحديث بالسوء عن النظام بين رشفة وأخرى من الروم أو الويسكي مما هو جدير بأخذه بعين الاعتبار. ولكن الجنرال دياث التقى يوم أمس سراً بمبعوث من هنري دياربورن، الدبلوماسي الأمريكي المزعوم الذي تعرف فخامتك أنه كان مسؤول الـ CIA في مدينة تروخييو.

– سيطلب منه مليون دولار مقابل رأسي – علق تروخييو –. لا بد أن ذلك الغرينغو قد داخ من كثرة المتشدقين الذين يطلبون منه مساعدات مالية للقضاء علي. أين تم اللقاء؟

– في فندق السفير يا صاحب الفخامة.

فكر **الجنراليسمو** لحظة. أيكون خوان توماس قادراً على تدبير شيء جدي؟ ربما كان بإمكانه ذلك قبل عشرين سنة. فقد كان حينذاك رجل عمل. أما في ما بعد فأصبح حسياً. إنه مغرم بالإفراط في الشراب ومصارعات الديكة، بالأكل واللهو مع الأصدقاء، والزواج والانفصال، وليس لديه متسع ليلعب محاولة قلب نظامه. الأمريكيون يستعينون بعصا سيئة. ياه، ليس هناك ما يدعو إلى القلق.

- أوافقك الرأي يا صاحب الفخامة. أظن أنه ليس هناك خطر في الوقت الراهن من الجنرال دياث. إنني أتابع خطواته. نعرف من يزوره ومن يزور. وهاتفه مراقب.

هل ثمة شيء آخر؟ ألقى **المنعم** نظرة إلى النافذة: مازالت الظلمة على حالها، بالرغم من أن الساعة توشك أن تبلغ السادسة. ولكن الصمت لم يعد مخيماً. فمن بعيد، في محيط القصر الوطني المفصول عن الشوارع بامتدادات واسعة من العشب والأشجار ومحاط بسور قضبان حديدية تنتهي بحراب، تمر بين حين وآخر سيارة تطلق نفيرها، وفي داخل المبنى، تُسمع حركة المكلفين بالتنظيف وهم ينعمون، يكنسون، يمسحون بالشمع، ينفضون. سيجد المكاتب والممرات نظيفة ولامعة عندما سيجتازها. وهذه الفكرة أثارت فيه إحساساً بالراحة.

- اعذرني على إلحاحي يا صاحب الفخامة، ولكنني أريد أن أعيد التدابير الأمنية إلى شارعي مكسيمو غوميث والكورنيش، في أثناء قيام سيادتك بمسيرتك اليومية. وكذلك على الطريق العام، عند ذهابك إلى بيت كاوبا.

لقد أمر قبل حوالي شهرين، وفي وقت غير مناسب، بأن توقف تدابير الأمن. لماذا فعل ذلك؟ ربما لأنه في أحد الأيام، أثناء مسيره عند الغسق، وهو ينزل من جادة مكسيكو غوميث باتجاه البحر، لمح في كل الشوارع الجانبية، حواجز بوليسية تمنع المارة والسيارات من الدخول إلى الجادة وإلى الكورنيش في أثناء مسيرته. وتصور أعداد سيارات الفولكسفاغن الممتلئة بالمخبرين التي ينشرها جوني أبيس في محيط طريقه كله. أحس بالضيق، برهاب الأماكن المغلقة. وحدث له ذلك أيضاً في إحدى الليالي، وهو ذاهب إلى مزرعة فونداثيون، حين رأى على امتداد الطريق العام سيارات «**الخنفسة**» والحواجز العسكرية التي تحرس مروره. أم أن دافعه هو الافتتان الذي مارسه عليه الخطر على الدوام - روح المارينز الجامحة - بما يحمله إلى تحدي الحظ في أخطر لحظات التهديد التي يتعرض لها النظام؟ لقد كان قراراً لا رجعة عنه على أي حال.

- ما زال القرار سارياً - كرر بنبرة لا تقبل الجدال.

بقي ينظر إلى عيني الكولونيل - فخفض هذا عينيه على الفور - وباغته بشرارة سخرية:

- هل تظن أن محبوبك فيدل كاسترو يسير في الشوارع مثلي، دون حماية؟

أنكر الكولونيل ذلك بحركة من رأسه.

- لا أظن أن فيدل كاسترو رومنطيقي مثلك يا صاحب الفخامة.

هو رومنطيقي؟ ربما هو كذلك مع بعض النساء اللواتي أحبهن، ربما مع لينا لوفاتون. ولكن خارج الميدان الغرامي، في الميدان السياسي، أحس على الدوام بأنه كلاسيكي. إنه عقلاني، هادئ، برغماتي، ذو أعصاب باردة ونظرة بعيدة.

- عندما تعرفتُ على فيدل كاسترو، هناك في المكسيك، كان يُعدّ العدة لحملة **الغرانما**. وكانوا يعتبرونه كوبياً به مس من الجنون، ومغامراً بسبب افتقاره التام للعواطف. مع أنه يبدو تروبيكالياً، متدفقاً، وعاطفياً في خطبه. ولكن هذا للجمهور فقط. فهو على عكس ذلك. إنه ذكاء جليدي. لقد عرفتُ منذ البداية بأنه سيصل إلى السلطة. ولكن، اسمح لي بتوضيح يا صاحب الفخامة. إنني أتقبل شخصية كاسترو، والطريقة التي عرفَ كيف يخدع بها الأمريكيين، وكيف يتحالف مع الروس والبلدان الشيوعية، ويستخدمهم كواقية صدمات في مواجهة واشنطن. ولكنني لا أتقبل أفكاره، فأنا لستُ شيوعياً.

- أنت رأسمالي قلباً وقالباً - قال تروخييو ساخراً وهو يضحك ضحكة صفراء - فشركة «**أولترامار**» حققت صفقات جيدة، باستيراد منتجات من ألمانيا، والنمسا والبلدان الاشتراكية. فالوكالات التجارية الحصرية لا تعرف الخسائر.

وافق الكولونيل:

- وهذا أمر آخر أشكركم عليه يا صاحب الفخامة. الحقيقة أنه ما كان ليخطر لي ذلك على بال. فأنا لم أهتم بالأعمال التجارية قط. لقد فتحت شركة **أولترامار** لأن سيادتك طلبت مني ذلك.

وأوضح **المنعم**:

- لأني أُفضل أن يحقق معاونيّ صفقات تجارية رابحة بدل أن يسرقوا. فالمشاريع التجارية الجيدة تخدم البلاد، وتوفر فرص عمل، وتنتج ثروات، وترفع معنويات الشعب. ولكنني أتصور أن الأمور تسوء في «**أولترامار**» أيضاً منذ فرض العقوبات.

- إنها مشلولة عملياً. ولكن ذلك لا يهمني يا صاحب الفخامة. فأنا الآن أكرس ساعات يومي الأربع والعشرين لمنع الأعداء من تقويض هذا النظام وقتل سيادتك.

قال ذلك دون انفعال، بالنبرة القاتمة والمحايدة التي يعبر بها عادة عن نفسه.

- هل عليّ أن أستنتج بأنك تقدرني كثيراً مثلما تقدر التافه فيدل كاسترو؟ - علق تروخييو باحثاً عن ذينك العينين المتهربتين.

فدمدم الكولونيل أبيس وهو يخفض بصره:

- لستُ أقدرك يا صاحب الفخامة. إنني أعيش بك ولك. وإذا سمحت لي، فإنني كلب حراستك.

بدا للمنعم أن صوت أبيس غارسيا قد ارتعش وهو يقول الجملة الأخيرة. كان يعرف أنه لا يتأثر ولا ينفعل بتدفق العواطف ذاك الذي كثيراً ما يتردد على ألسنة ندمائه الآخرين، ولهذا بقي يتفحصه بنظراته الحادة كالسكين.

- إذا ما قتلوني، فسوف يفعل ذلك أحد المقربين جداً، خائن من الأسرة - قال ذلك وكأنه يتحدث إلى شخص آخر - وسيكون ذلك نكبة كبرى بالنسبة إليك.

- وبالنسبة إلى البلاد ايضاً يا صاحب الفخامة.

فوافق تروخييو:

- ولهذا السبب أواصل على صهوة الجواد. وإلا كنتُ استقلت مثلما جاء ينصحني مبعوثون من الرئيس إيزنهاور، ومن وليم باولي، والجنرال كلارك والسيناتور سمثيرز، أصدقائي الأمريكيين. «أدخل التاريخ كرجل دولة شهم تنازل عن دفة الحكم للشباب». هذا ما قاله لي سمثيرز، صديق روزفلت. وكانت تلك رسالة من البيت الأبيض. هذا ما جاؤوا من أجله. ليطلبوا منى التنحي وليعرضوا علي حق اللجوء في الولايات المتحدة. «هناك ستكون ثروتك في أمان». أولئك الأوغاد يظنونني مثل باتيستا، مثل روخاس بينيّا، مثل بيريث خيمينث. لن يستطيعوا إخراجي من هنا إلا ميتاً.

عاد المنعم إلى التسلية، ذلك أنه تذكر غوادالوبي، أو لوبي كما يدعوها الأصدقاء، تلك المكسيكية الضخمة المسترجلة التي تزوج منها جوني أبيس في تلك المرحلة الغامضة والمغامرة من حياته في مكسيكو، عندما كان يبعث، من جهة، تقارير تفصيلية إلى المدية حول تحركات المنفيين الدومينيكانيين، ويتردد

من جهة أخرى على الأوساط الثورية، مثل فيدل كاسترو وتشي غيفارا وأعضاء حركة 26 تموز الكوبية الذين كانوا يعدون العدة لحملة **الغرانما**، وأناس من نمط فيثيني لومباردو توليدانو، وثيق الصلة بحكومة المكسيك التي كانت حاميته. لم يُتح للجنراليسمو الوقت قط للاستفسار منه بهدوء حول تلك المرحلة من حياته، والتي اكتشف فيها الكولونيل ميوله وموهبته في التجسس والعمليات السرية. وهي حياة لذيذة دون ريب، ومليئة بالطرائف. لماذا تراه تزوج من تلك المرأة الفظيعة؟

- هناك أمر أنسى سؤالك عنه دوماً - قال ذلك بالفظاظة التي يتوجه بها إلى معاونيه - كيف حدث وتزوجت بامرأة على هذا القدر من القبح؟

لم يلمح أدنى قدر من الاستغراب في وجه أبيس غارسيا.

- لم يكن الحب هو الدافع يا صاحب الفخامة.

- هذا ما أعرفه منذ زمن - قال **المنعم** مبتسماً - وهي ليست غنية، أي أنه لم يكن زواجاً للانتفاع بثروة.

- الدافع هو الامتنان. فقد أنقذت لوبي حياتي في أحد الأيام. لقد قتلتْ من أجلي. فعندما كانت سكرتيرة فيثنتي لومباردو توليدانو، كنتُ أنا حديث القدوم إلى المكسيك. وبفضل فيثنتي بدأت أفهم ما هي السياسة. وكثير مما فعلته ما كان يمكن له أن يتحقق لولا لوبي يا صاحب الفخامة. إنها لا تعرف ما هو الخوف. ولديها غريزة لم تتوقف حتى الآن عن العمل بصواب.

- أعرف أنها شجاعة، وأنها تُحسن الشجار، وأنها تحمل على الدوام مسدساً وتذهب إلى محلات الجلود، مثل فحل - قال **الجنراليسمو** ذلك بسخرية باهرة - بل إنني سمعت أن نوتشيتا براثوبان تحجز لها فتيات صغيرات. ولكن ما يختلط عليّ هو أنك استطعت إنجاب أبناء من هذه المسخ.

- إنني أحاول أن أكون زوجاً صالحاً يا صاحب الفخامة.

انفجر **المنعم** بالضحك، في واحدة من ضحكات الأزمنة الغابرة المدوية. وقال باحتفالية:

- يمكن لك أن تكون لاهياً عندما تشاء. لقد أخذتها بدافع الامتنان إذن. ولا بد أن عضوك ينتصب وفق مشيئتك في هذه الحال.

- إنه مجرد كلام يا صاحب الفخامة. فالحقيقة أنني لا أحب لوبي، ولا هي تحبني. على الأقل بالطريقة التي يُفهم بها الحب. إننا مرتبطان بشيء أشد متانة. بالمخاطر المشتركة كتفاً إلى كتف ونحن نرى وجه الموت. وبدماء كثيرة تلطخنا معاً.

هز المنعم رأسه. إنه يفهم ما يعنيه. وهو يتمنى لو كانت لديه امرأة مثل تلك الفزاعة، يا للعنة!. ما كان سيشعر، أحياناً، بأنه وحيد جداً، عندما يكون عليه اتخاذ بعض القرارات. ليس هناك ما يقيد المرء مثل الدم، هذا صحيح. ايكون هذا هو سبب إحساسه بالارتباط ببلاد الجاحدين والجبناء والخونة هذه. فلكي يُخرجها من التخلف، من الفوضى، من الجهل والبربرية، اضطر إلى أن يلطخ نفسه بالدم مرات كثيرة. هل سيشكره في المستقبل هؤلاء الأوغاد؟

ومرة أخرى هوى عليه القنوط. تظاهر بالنظر إلى ساعته، وألقى نظرة مواربة بطرف عينه إلى فتحة بنطاله. ولم يرفع من معنوياته تأكده من عدم وجود شيء. ومرت في ذهنه من جديد ذكرى تلك الفتاة في بيت كاوبا. حدث كريه. أكان من الأفضل أن يطلق عليها رصاصة هناك بالذات، حين كانت تنظر إليه بذينك العينين؟ ترهات. فهو لم يطلق الرصاص مجاناً قط، وأقل من ذلك من أجل شؤون الفراش. لم يفعل ذلك إلا حين لم يكن ثمة خيار آخر، حين يكون لا بد من عمل ذلك من أجل السير قدماً بالبلاد، أو من أجل غسل إهانة.

- اسمح لي يا صاحب الفخامة.

- ماذا؟

- لقد أعلن الرئيس بالاغير من الإذاعة أمس بأن الحكومة ستطلق سراح جماعة من المعتقلين السياسيين.

- لقد فعل بالاغير ما أمرته به. لماذا تسأل؟

- إنني بحاجة إلى قائمة بأسماء من سيتم إطلاق سراحهم. لكي نقص شعورهم ونحلق ذقونهم ونؤمن لهم ملابس لائقة. أتصور أنه سيجري عرضهم على الصحافة.

- سأرسل إليك القائمة فور مراجعتها. بالاغير يرى أن مثل هذه اللفتات مفيدة في مجال الدبلوماسية. سنرى. تقديمه للإجراء كان جيداً على أي حال.

كانت خطبة بالاغير على طاولته. قرأ بصوت عالٍ المقطع المؤشر تحته بخط: «لقد بلغت منجزات فخامة الجنراليسمو الدكتور رافائيل ل. تروخييو مولينا من المتانة حداً يسمح لنا، بعد ثلاثين سنة من السلام المنظم والقيادة المستمرة، أن نقدم لأميركا مثلاً يحتذى للمقدرة الأمريكية اللاتينية على الممارسة الواعية للديمقراطية التمثيلية الحقيقية». وعلق:

- كتابة متقنة، أليس كذلك؟ هذه هي الفائدة من تعيين شاعر وأديب في

رئاسة الجمهورية. عندما كان أخي نيغرو يشغل منصب الرئاسة، كانت خطاباته مملة ومنومة. حسن، أعرف أن بالاغير لا يروقك.

- أنا لا أخلط بين مشاعري واستيائي الشخصي وعملي يا صاحب الفخامة.

- لم أفهم قط سبب عدم ثقتك به. بالاغير هو أكثر معاوني مسالمة. ولهذا وضعته في المنصب الذي هو فيه.

- أنا أظن بأن طريقته شديدة التكتم في الحياة، هي خطة استراتيجية. وأنه ليس من رجال النظام، وإنما يعمل لمصلحة بالاغير وحسب. ربما أكون مخطئاً. وما سوى ذلك، لم أجد أي شيء مثير للريبة في سلوكه. ولكنني لن أدس يدي في النار من أجل مسألة ولائه.

نظر تروخييو إلى ساعته. دقيقتان لبلوغ السادسة. لقاؤه اليومي مع أبيس غارسيا لا يدوم أكثر من ساعة، اللهم إلا في حالات استثنائية. نهض واقفاً وحذا رئيس الاستخبارات العسكرية حذوه.

- إذا ما غيرتُ رأيي بالنسبة للمطرانيين، فسوف أخبرك - قال ذلك على سبيل الوداع - الخطة جاهزة لدي على كل حال.

- يمكن وضعها موضع التنفيذ في اللحظة التي تقرر فيها سيادتك ذلك. أستأذنك بالانصراف يا صاحب الفخامة.

ما إن خرج أبيس غارسيا من المكتب حتى ذهب المنعم لتأمل السماء من النافذة. ليس هناك أي شعاع ضوء بعد.

الفصل السادس

- آه، لقد عرفت من هو- قال أنطونيو دي لاماثا.

فتح باب السيارة، وهو يحمل في يده البندقية ذات السبطانة القصيرة، وخرج إلى الطريق. لم يلحق به أي واحد من زملائه - توني، واستريا سعد الله وآماديتو - الذين كانوا يراقبون من داخل السيارة شبحه المربوع في الظلام الذي يضيئه بخفوت وميض القمر، بينما هو يتوجه نحو الفولكسفاغن الصغيرة التي تقدمت، بأنوار مطفأة، لتقف إلى جانبهم.

- لا تقل لي الآن إن الزعيم غيّر رأيه. هتف أنطونيو على سبيل التحية وهو يُدخل رأسه من النافذة ويُقرب وجهه كثيراً من سائقها وراكبها الوحيد، وهو رجل لاهث، يرتدي بدلة وربطة عنق، شديد البدانة إلى حد يبدو من المستحيل معه تصور كيف دخل في السيارة التي يبدو فيها مثل محبوس في قفص.

- بالعكس يا أنطونيو - طمأنه ميغيل آنخل بايث دياث، ويداه تمسكان بالمقود - سيأتي إلى سان كريستوبال في كل الأحوال. لقد تأخر لأنه، بعد مشوار المسير على الكورنيش، أخذ بوبو رومان إلى قاعدة سان إيسيدرو. لقد جئت لطمأنتك، إنني أتصور جزعك. قد يأتي في أي لحظة. كونوا جاهزين.

- لن نخفق يا ميغيل آنخل. وآمل ألا تخفقوا أنتم كذلك.

تبادلا الحديث للحظات، ووجهاهما متقاربان جداً، وكان البدين يمسك بالمقود طوال الوقت بينما دي لاماثا يوجه النظرات إلى الطريق القادم من مدينة تروخييو، خشية أن تتجسد السيارة المنشودة فجأة ولا يتاح له الوقت للعودة إلى سيارته.

- وداعاً، وعسى أن يمضي كل شيء على ما يرام - قال ميغيل آنخل بايث دياث مودعاً.

انطلق عائداً إلى مدينة تروخييو، مبقياً أنوار سيارته مطفأة طوال الوقت. وبينما أنطونيو واقف في المكان، يستنشق الهواء المنعش، ويسمع الأمواج تتكسر على بعد أمتار قليلة - كان يحس برذاذ على وجهه ورأسه حيث بدأ شعره يصبح

مخلخلاً - رأى السيارة تبتعد، ورآها تختلط بالليل هناك في البعيد، حيث تتلألأ أنوار المدينة، ومطاعمها التي تغص بالرواد دون شك. يبدو ميغيل آنخل واثقاً. ليس ثمة شك إذن: سيأتي، وسيتمكن هو أخيراً، في يوم الأربعاء هذا، 30 أيار 1961، من إنجاز القَسم الذي أقسمه في مزرعة الأسرة في موكا، أمام أبيه وأخوته وزوجات أخوته وأزواج أخواته، قبل أربع سنوات وأربعة شهور، في السابع من كانون الثاني 1957، يوم دفن أخيه تافيتو.

فكَّرَ بكم هو قريب مطعم البوني، وبكم هو رائع تناول كأس من الروم مع كثير من الثلج على دكة عالية محشوة بالقش في ذلك البار الصغير، مثلما اعتاد أن يفعل بكثرة مؤخراً، والاحساس بالكحول يصعد إلى دماغه، فيسلوه ويُبعده عن التفكير بتافيتو، وعن المرارة، وعن الغيظ وعن الحمى التي صارت إليها حياته منذ الاغتيال الجبان لأخيه الأصغر، وأكثر أخوته التصاقاً به، وأحبهم إليه. وفكر: «خصوصاً بعد الافتراء المشين الذي اختلقوه، لكي يقتلوه مرة أخرى». رجع ببطء نحو الشفروليه. إنها سيارة فاخرة، استوردها أنطونيو من الولايات المتحدة وعززها وحسّنها، وقد أوضح في الكراج أن ظروف عمله كمالك ومدير مناشر أخشاب في ريستاوراثيون، على الحدود مع هايتي، تفرض عليه قضاء وقت طويل من السنة في السفر والتنقل، ولهذا فإنه يحتاج إلى سيارة أكثر سرعة ومتانة. وها قد حانت فرصة اختبار هذه الشفروليه آخر موديل، القادرة، بفضل إعادة تعيير الصمامات والمحرك على السير بسرعة 200 كيلومتر في الساعة بعد دقائق قليلة من انطلاقها، وهو ما لا يمكن لسيارة **الجنراليسمو** عمله. عاد للجلوس إلى جانب أنطونيو إمبرت.

- من كان الزائر؟ قال آماديتو من المقعد الخلفي.

فهمس توني إمبرت دون أن يلتفت للنظر إلى الملازم آماديتو غارثيا غيريرو:

- هذه الأمور لا يمكن السؤال عنها.

- لم يعد هناك أي سرّ الآن - قال أنطونيو دي لاماثا - إنه ميغيل آنخيل بايث. وقد كنتَ على حق يا آماديتو. سيذهب هذه الليلة إلى سان كريستوبال في كل الأحوال. لقد تأخر، ولكنه لن يتخلف.

- أقلت إنه ميغيل آنخل بايث دياث؟ - صفّر سلفادور استريّا سعد الله - أهو مشارك في هذا الأمر أيضاً؟ لا يمكن طلب المزيد. إنه تروخييوي أنطولوجي. ألم يكن نائب رئيس الحزب الدومينيكاني؟ إنه أحد من يمشون كل يوم مع **التيس** في الكورنيش، ويمسح له مؤخرته، ويرافقه كل يوم أحد إلى ميدان سباق الخيل.

- واليوم تمشى معه أيضاً - وافق دي لاماثا - ولهذا يعرف أنه سيأتي.

ساد صمت طويل.

- أعرف أننا يجب أن نكون عمليين، وأننا بحاجة إليه - تنهد التوركو - ولكنني أشعر في الحقيقة بالقرف من كون شخص مثل ميغيل آنخل حليفاً لنا الآن.

- ها قد أطل برأسه التقي، الورع، الملاك ذو اليدين الطاهرتين - قال إمبرت باذلاً جهده في السخرية، وأضاف: - أرأيت يا آماديتو لماذا يُفضل عدم السؤال، وعدم معرفة المشاركين في الأمر؟

وزمجر أنطونيو دي لاماثا:

- إنك تتكلم يا سلفادور كما لو أننا لسنا جميعنا من أتباع تروخييو أيضاً. أولم يكن طوني حاكماً على بويرتو بلاتا؟ أوليس آماديتو معاوناً عسكرياً؟ ألا أدير أنا منذ نحو عشرين سنة مناشر خشب التيس في ريستاوراثيون؟ أوليست شركة البناء التي تعمل فيها أنت هي ملك لتروخييو أيضاً؟

- إنني أسحب ما قلته - ربت سلفادور على ذراع دي لاماثا - إن لساني ينفلت وأتفوه بحماقات. معك حق. يمكن لأي شخص أن يقول عنا ما قلتُه عن ميغيل آنخل. لم أقل شيئاً، وأنتم لم تسمعوا أي شيء.

ولكنه كان قد قال ما قاله، لأن سلفادور إستريّا سعد الله، وعلى الرغم من هذا المزاج الهادئ والعقلاني الذي يرضيهم جميعاً، قادر على قول أشد الأمور قسوة، مدفوعاً بروح العدالة تلك التي تتلبسه فجأة. وكان قد قال له بالذات، وهو صديقه طوال الحياة، في مناقشة كان يمكن لأنطونيو دي لاماثا أن يطلق عليه رصاصة يومها. «أنا لا أبيع أخي بأربعة قروش» تلك الجملة التي فرقت بينهما، فلم يلتقيا أو يتبادلا الكلام طوال أكثر من ستة شهور، تعود إليه بين حين وآخر، مثل كابوس جوال. إنه بحاجة في هذه اللحظة إلى كؤوس كثيرة من الروم يشربها كأساً بعد أخرى. وحتى حين يكون سكراناً تداهمه تلك الأحقاد العمياء التي تحوله إلى محب للشجار وتقوده إلى استفزاز أقرب شخص منه وتوجيه الرفسات واللكمات إليه.

لقد كان، بسنوات عمره السبع والأربعين التي أكملها منذ أيام قليلة، أحد أكبر الرجال السبعة سناً، والذين يشكلون الجماعة المرابطة على طريق سان كريستوبال بانتظار تروخييو. ذلك أنه إضافة إلى الأربعة الذين ينتظرون في الشفروليه، هناك على بعد كيلومترين إلى الأمام، في سيارة قدمها إستريّا سعد

الله، شخصان آخران هما بيدرو ليفيو ثيدينيو وهواسكار تيخيدا بيمينتيل، وعلى مسافة كيلومتر آخر، ينتظر روبيرتو باستوريث نيريت وحيداً في سيارته الخاصة. وبهذه الطريقة سيقطعون عليه الطريق ويمطرونه برصاص محكم من الأمام والخلف، دون أن يتركوا له مهرباً. لا بد أن بيدرو ليفيو وهواسكار قلقان مثلهم هم الأربعة. وحال روبيرتو ستكون أسوأ بلا شك، دون أن يكون معه من يكلمه ويشجعه. هل سيأتي؟ أجل، سيأتي. وسينتهي العذاب الطويل الذي عاشه انطونيو منذ موت أخيه تافيتو.

القمر المستدير مثل قطعة عملة، يلمع محروساً بعباءة من النجوم ويلوّن بالفضة قنازع نخيل جوز الهند القريبة التي يراها أنطونيو تهتز مع حركة الهواء. أنها بلاد جميلة علىَ الرغم من كل شيء، يا للعنة. وستكون أجمل بعد موت هذا اللعين الذي أغرقها بالعنف وسمّمها خلال ثلاثين السنة الماضية أكثر مما جرى طوال قرن كامل عاشته الجمهورية تحت الاحتلال الهايتي، وطوال الغزو الإسباني والأمريكي الشمالي، والحروب الأهلية وصراعات الفئات والزعماء المحليين، وأكثر من كل الكوارث - زلازل وأعاصير- التي نزلت بالدومينيكانيين من السماء، أو البحر، أو من أعماق الأرض. وما لا يستطيع أن يغفره له هو أن التيس، ومثلما عهّر وسفّل هذه البلاد، قد عهر وسفّل كذلك أنطونيو دي لاماثا.

دارى اضطرابه أمام رفاقه بإشعال سيجارة أخرى. كان يدخن دون أن يُخرج السيجارة من بين شفتيه، مطلقاً الدخان من فمه وأنفه، وهو يداعب البندقية ذات السبطانة القصيرة مفكراً بالطلقات المعززة بالفولاذ التي صنعها له خصيصاً لهذه الليلة صديقه الإسباني بالسيه الذي تعرف عليه بفضل متآمر آخر هو مانويل أوفين، الخبير بالأسلحة والرامي الماهر. إنه ماهر مثل أنطونيو دي لاماثا نفسه تقريباً والذي كان يحظى منذ طفولته في أراضي الأسرة في موكا بتقدير الأبوين والاخوة والأصدقاء لدقة تصويبه. ولهذا أُعطي مقعد الامتياز هذا، إلى يمين إمبرت، ليكون أول من يطلق النار. فالجماعة التي ناقشت مطولاً كل شيء، اتفقت على الفور ودون جدال حول هذا الأمر: فأنطونيو دي لاماثا والملازم أمادو غارثيا غيريرو، وهما أمهر راميين، يجب أن يحملا البندقيتين اللتين قدمتهما الـ CIA للمتآمرين وأن يحتلا المقعدين اليمينيين، لكي يحققا الإصابة من الطلقة الأولى.

إحدى مفاخر موكا، مسقط رأسه، ومفاخر أسرته، أن آل دي لاماثا كانوا منذ

اللحظة الأولى – عام 1930 – مناهضين لتروخييو. بالطبع. فالجميع في موكا، من أرفع الناس شأناً وحتى أشد العمال الزراعيين بؤساً، كانوا هوراسيين، لأن الرئيس هوراسيو فيلاثكيث كان من موكا، وهو شقيق أم أنطونيو. ومنذ اليوم الأول نظر آل دي لاماثا باستياء وسخط إلى الدسائس التي لجأ إليها في ذلك الحين قائد **الشرطة الوطنية**- أسسها المحتل الأمريكي، وتحولت لدى مغادرة المحتل إلى الجيش الدومينيكاني – رافائيل ليونيداس تروخييو، من أجل هزيمة هوراسيو فيلاثكيث في عام 1930، في أول انتخابات مزورة في تاريخه من الغش الانتخابي، والوصول إلى رئاسة الجمهورية. وعندما حدث ذلك، قام آل دي لاماثا بما كانت تقوم به تقليدياً الأسر النبيلة والزعماء المحليون حين لا تروقهم الحكومة: أي الصعود إلى الجبال مع رجال مسلحين وتولي تمويلهم من جيبهم الخاص.

وخلال ما يقرب من ثلاث سنوات، مع تقطع، منذ كان في السابعة عشرة وحتى بلوغه العشرين من عمره – وكان رياضياً، وفارساً لا يكل، وصياداً شغوفاً، مرحاً، جسوراً ومقبلاً على الحياة –، قاتل أنطونيو دي لاماثا بالرصاص مع أبيه وأعمامه واخوته ضد قوات تروخييو، دون إلحاق ضرر جدي بها. وشيئاً فشيئاً راحت تلك القوات تفكك عصاباتهم المسلحة، وتُنزل بهم بعض الهزائم، ولكن، وقبل كل شيء، بما أنهم كانوا يشترون معاونيهم وأنصارهم، فقد انتهى الأمر بآل دي لاماثا إلى الإنهاك وأشرفوا على الإفلاس، وقبلوا عروض السلام التي قدمتها الحكومة، ورجعوا إلى موكا ليشتغلوا في أرضهم شبه المهجورة. باستثناء الجامح والعنيد أنطونيو. وابتسم وهو يتذكر مكابرته تلك في أواخر عام 1932 وأوائل عام 1933، عندما انطلق مع أقل من عشرين رجلاً، من بينهم أخواه ارنستو وتافيتو (وكان هذا الأخير ما يزال طفلاً) ليهاجموا مواقع للشرطة وينصبوا كمائن للدوريات الحكومية. لقد كانت تلك الأزمنة شديدة الخصوصية، وكان بإمكان الأخوة الثلاثة، على الرغم من تلك المشاغل العسكرية، أن يوقفوا نشاطهم ليناموا في بيت الأسرة في موكا عدة أيام كل شهر. وبقوا على تلك الحال حتى ذلك الكمين في محيط بلدة تامبوريل، حين تمكن الجنود من قتل اثنين من رجالهم وجرحوا ارنستو وأنطونيو نفسه.

ومن المستشفى العسكري في سنتياغو كتب إلى أبيه، دون بيثنتي، أنه غير

نادم على شيء، ويرجو الأسرة ألا تتذلل بطلب الرحمة من تروخييو. وبعد يومين من تسليم هذه الرسالة إلى العريف الممرض مع إكرامية كبيرة لكي يوصلها إلى موكا، جاءت عربة عسكرية لنقلهم مقيدين وتحت الحراسة إلى العاصمة سانتو دومنغو (لن يبدل كونغرس الجمهورية اسم العاصمة العريقة ويحولها إلى مدينة تروخييو إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك). وكانت مفاجأة الشاب أنطونيو دي لاماثا أن العربة العسكرية، وبدلاً من أن تنقلهم إلى السجن، أوصلتهم إلى دار الحكومة، وكانت آنذاك بالقرب من الكتدرائية القديمة. وهناك فكوا قيوده وأدخلوه إلى غرفة مفروشة بالسجاد، حيث كان الجنرال تروخييو بزيه العسكري، وبذقن حليقة وشعر مسرح بدقة.

كانت تلك هي أول مرة يراه.

- لا بد من امتلاك جرأة وخصيات لكتابة مثل هذه الرسالة.- وكان رئيس الدولة يهز الرسالة في يده - وقد أثبت أنك تملكهما بخوضك الحرب ضدي قرابة ثلاث سنوات. ولهذا أردت رؤية وجهك. هل صحيح ما يقال عن دقتك في التصويب؟ يجب أن نتبارى يوماً لنرى إذا ما كنت تصوب خيراً مني.

بعد ثمان وعشرين سنة من ذلك اللقاء، كان أنطونيو يتذكر ذلك الصوت الصائت، وتلك المودة غير المتوقعة، والموشاة بظلال من السخرية. ونفوذ ذينك العينين اللتين لم يستطع - وهو المغتر بنفسه - أن يقاوم نظرتهما.

- لقد انتهت الحرب. لقد قضيتُ على كل الزعامات المحلية، بما في ذلك زعامة آل دي لاماثا. يكفي رصاصاً. يجب علينا الآن بناء البلاد التي تنهار مفتتة. إنني بحاجة إلى أفضل الناس إلى جانبي. أنت مندفع وتتقن القتال، أليس كذلك؟ تعال واعمل إلى جانبي. سيتاح لك المجال لإطلاق الرصاص. إنني أعرض عليك منصباً للثقة، بين المعاونين العسكريين المكلفين بحراستي. وهكذا يمكنك أن تطلق عليّ رصاصة إذا ما خذلتك في أحد الأيام.

تلعثم الشاب دي لاماثا:

- ولكنني لستُ عسكرياً.

فقال تروخييو:

- لقد صرتَ كذلك منذ هذه اللحظة أيها الملازم أنطونيو دي لاماثا.

كان ذلك هو امتيازه الأول، هزيمته الأولى، على يدي ذلك المعلم في التلاعب بالساذجين، والحمقى، والبلهاء، ذلك المستغل الخبيث لغرور، وجشع، وبلاهة

الرجال. كم من السنوات أمضى وهو على بعد أقل من متر عنه؟ مثلما كان بالنسبة لآماديتو أيضاً في هاتين السنتين الأخيرتين. كم من المآسي كنت ستخلص منها هذه البلاد، وأسرة دي لاماثا، لو أنك فعلت آنذاك ما أنت مقدم على فعله الآن. لو فعلتُ ذلك لكان تافيتو حياً بكل تأكيد.

إنه يسمع آماديتو والتوركو، وراء ظهره، مستغرقين في الحوار، وبين حين وآخر يتدخل إمبرت في الحديث. ليس هناك ما يدعوهم إلى الاستغراب من بقاء أنطونيو صامتاً؛ فقد كان قليل الكلام على الدوام، ولكن قلة كلامه ازدادت حتى بلغت حد البكم منذ موت تافيتو. تلك النكبة التي أثرت عليه بطريقة يعرف هو نفسه أنه لا صلاح لها، وحولته إلى رجل ليست لديه سوى فكرة واحدة: قتل التيس.

سمع التوركو يقول:

- لا بد أن أعصاب خوان توماس أسوأ حالاً من أعصابنا. فليس هناك ما هو أشد رعباً من الانتظار. ولكن، هل سيأتي أم لا؟

فقال الملازم غارثيا غيريرو متوسلاً:

- سيأتي في أي لحظة. صدقني، يا للعنة.

أجل، لا بد أن الجنرال خوان توماس ديات يقبع في بيته في غاثكوي في هذه اللحظات، يقضم أظفاره، متسائلاً عما إذا كان قد حدث ذلك الأمر الذي حلم به هو وأنطونيو، وعللا نفسيهما به، وسقياه، وأبقياه حياً وسرياً منذ أربع سنوات وأربعة أشهر بالضبط. أي منذ ذلك اليوم الذي قفز فيه أنطونيو إلى سيارته بعد تلك المقابلة مع تروخييو، بُعيد دفن جثة تافيتو، وانطلق بسرعة 120 كيلومتراً في الساعة بحثاً عن خوان توماس في مزرعته في لابيغا.

- بحق عشرين سنة من الصداقة التي تجمع بيننا، ساعدني. يجب أن أقتله! يجب أن أنتقم لتافيتو يا خوان توماس!

أطبق له الجنرال فمه بيده. ألقى نظرة فيما حوله، مشيراً إليه بأنه يمكن للخدم أن يسمعوهما. وقاده إلى ما وراء الاسطبلات، حيث اعتادا التدرب على إطلاق النار على هدف.

- سنفعل ذلك معاً يا أنطونيو. لكي نثأر لتافيتو ولدومينيكانيين كثيرين وللعار الذي نحمله في داخلنا.

كان أنطونيو وخوان توماس صديقين حميمين منذ الزمن الذي كان فيه دي

لاماثا معاوناً عسكرياً لدى **المنعم**. الشيء الطيب الوحيد الذي يتذكره من السنتين اللتين أمضاهما، كملازم، وكنقيب، إلى جانب **الجنراليسمو**، مرافقاً إياه في جولاته في داخل البلاد، وفي خروجه من دار الحكومة إلى مجلس الشيوخ، إلى ميدان سباق الخيل، إلى حفلات الاستقبال والاستعراضات، إلى المهرجانات السياسية والمغامرات النسائية، إلى زياراته ومؤامراته مع الشركاء، والحلفاء، والرفقاء، إلى اجتماعات عامة، وخاصة، وشديدة السرية. دون أن يتحول إلى تروخييويّ متحمس، مثلما كان آنذاك خوان توماس دياث. فأنطونيو في تلك السنوات، وعلى الرغم من احتفاظه سراً بشيء من الحقد مثل كل الهوراسيين، نحو من قوض مسيرة الرئيس هوراسيو بيلاثكيث السياسية، إلا أنه لم يستطع الابتعاد بنفسه عن الجاذبية التي يشع بها ذلك الرجل الذي لا يكل، القادر على العمل عشرين ساعة متواصلة ثم البدء، بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من النوم، بيوم جديد منذ الفجر، نشيطاً مثل مراهق. ذلك الرجل الذي تقول الأسطورة الشعبية إنه لا يتعرق، ولا ينام، ولم تظهر قط تجعيدة واحدة في زيه العسكري، أو سترته الرسمية، أو بدلة خروجه إلى الشارع. والذي تمكن فعلاً أن يغير هذه البلاد خلال تلك السنوات التي كان فيها أنطونيو واحداً من حرسه الحديدي. أجل، غيّرها بالطرق والجسور والصناعات التي أنشأها، ولكنه غيّرها كذلك لأنه راح يراكم في كل المجالات - السياسية، والعسكرية، والمؤسساتية، والاجتماعية، والاقتصادية - سلطات واسعة تبدو قزمة بالمقارنة معها كل الدكتاتوريات التي عانت منها جمهورية الدومينيكان في تاريخها الجمهوري، بما في ذلك دكتاتورية أوليسيس هيرياو (ليليس) الذي اعتبر من قبل قاسياً لا يعرف الرحمة.

احترام أنطونيو ذاك وافتتانه بتروخييو لم يتحول قط إلى تقدير، ولا إلى حب خانع، خسيس، كذاك الذي يبديه نحو قائدهم تروخييوون آخرون، بمن فيهم خوان توماس الذي تداول أنطونيو معه منذ العام 1957 كل الطرق الممكنة لتخليص جمهورية الدومينيكان من تلك الشخصية التي تمتصها وتسحقها، والذي كان في الأربعينات تابعاً متعصباً للمنعم، لا يتورع عن اقتراف أي جريمة في سبيل الرجل الذي يرى فيه منقذ الوطن ورجل الدولة الذي أعاد إلى أيدي الدومينيكانيين مصلحة الجمارك بعد أن كان يديرها اليانكيون، وحلّ مشكلة الدين الخارجي مع الولايات المتحدة، فاستحق لقب **مستعيد الاستقلال المالي** الذي أطلقه عليه مجلس الشيوخ، وأنشأ قوات مسلحة حديثة ومحترفة، هي

الأفضل تجهيزاً في منطقة الكاريبي بأسرها. في تلك السنوات لم يكن أنطونيو ليتجرأ على الحديث بالسوء عن تروخييو إلى خوان توماس دياث. فقد ارتقى هذا الأخير المراتب في الجيش حتى وصل إلى رتبة جنرال بثلاث نجوم وحصل على قيادة منطقة لابيغا العسكرية، حيث فاجأه غزو 14 حزيران 1959، وكانت تلك هي بداية سقوطه في المحنة. وعندما حدث ذلك، لم تعد لدى خوان توماس أوهام حول النظام. ففي الجلسات الحميمة، عندما يكون واثقاً من أن أحداً لا يسمعه، خلال حفلات الصيد في الجبال، في موكا أو لابيغا، وفي ولائم الغداء العائلية أيام الآحاد، كان يعترف لأنطونيو بأنه يشعر بالعار من كل شيء، من الاغتيالات، والاختفاءات، والتعذيب، ومن عدم استقرار الحياة، ومن الفساد وتسليم أجساد وأرواح وضمائر ملايين الدومينيكانيين إلى رجل واحد.

لم يكن أنطونيو دي لاماثا تروخييوياً من أعماق قلبه قط. حتى عندما كان معاوناً عسكرياً، ثم بعد ذلك، عندما طلب الإذن بترك الحياة العسكرية، وعمل لدى تروخييو كمدني، بإدارة مناشر آل تروخييو في ريستاوراثيون. ضغط أسنانه مشمئزاً: لم يستطع التخلي عن العمل لدى الزعيم قط. سواء وهو عسكري أو وهو مدني، فمنذ بضع وعشرين سنة يساهم في زيادة ثروة وسلطة **المنعم** وأبي الوطن الجديد. لقد كان ذلك هو إخفاق حياته الكبير. فهو لم يستطع الإفلات مطلقاً من الشراك التي ينصبها له تروخييو. ومع أنه يكرهه بكل قواه، فقد واصل العمل في خدمته، حتى بعد موت تافيتو. ولهذا جاءته إهانة التوركو حين قال له «أنا لا أبيع أخي مقابل أربعة قروش». إنه لم يبع تافيتو. دارى غيظه مبتلعاً مرارته. وأي شيء غير ذلك يستطيع عمله؟ هل يعطي مبرراً لمخبري جوني أبيس كي يقتلوه، من أجل أن يموت مطمئن الضمير؟ ليست راحة الضمير هي ما يريده أنطونيو. إنه يريد الانتقام لنفسه والثأر لتافيتو. ومن أجل التوصل إلى ذلك ابتلع كل براز العالم خلال هذه السنوات الأربع، ووصل به الأمر حد سماع أحد أحب أصدقائه يواجهه بتلك الجملة التي هو واثق من أن أشخاصاً كثيرين يرددونها وراء ظهره.

هو لم يبع تافيتو. فذلك الأخ الأصغر كان صديقاً حميماً له. وعلى خلاف أنطونيو، كان تافيتو الفتي بكل سذاجته وبكل براءته، تروخييوياً مقتنعاً، واحداً من أولئك الذين يرون في **الزعيم** كائناً خارقاً. لقد تناقشا مرات كثيرة، لأنه كان يغتاظ من سماع أخيه الصغير يردد، كلازمة، أن تروخييو هو هبة من السماء

للجمهورية. حسن، الصحيح أن **الجنراليسمو** كان قد قدم بعض الأفضال لتافيتو. فبفضل أمر منه تم قبوله في سلاح الطيران وتعلم أن يطير - وهو حلمه منذ طفولته - ثم تعاقدوا معه فيما بعد كطيار في شركة الطيران الدومينيكانية، مما يتيح له السفر بكثرة إلى ميامي، وهو ما كان يفتن أخاه الصغير، لأنه يستطيع أن يضاجع الشقراوات هناك. وقبل ذلك، كان تافيتو ملحقاً عسكرياً في لندن. وفي مشاجرة سُكر هناك، قتل بالرصاص القنصل الدومينيكاني لويس بيرناردينو. وقد أنقذه تروخييو من السجن، مطالباً له بالحصانة الدبلوماسية، وأمر محكمة **مدينة تروخييو** التي حاكمته بتبرئته. أجل، لقد كانت لدى تافيتو أسبابه للشعور بالامتنان تجاه تروخييو، وبأنه، مثلما قال لأنطونيو، «مستعد لتقديم حياتي في سبيل الزعيم ولتنفيذ أي شيء يطلبه مني». يا للعنة، إنها عبارة نبوئية.

«أجل، لقد قدمتَ حياتك من أجله»، فكر أنطونيو وهو يمج السيجارة. فتلك القضية التي وجد تافيتو نفسه متورطاً فيها عام 1956، بدت له ذات رائحة كريهة منذ اللحظة الأولى. لقد جاء أخوه ليخبره بالأمر، لأن تافيتو كان يخبره بكل شيء. بما في ذلك هذه المسألة التي لها سيماء تلك العمليات الغامضة التي يغص بها تاريخ الدومينيكان منذ صعود تروخييو إلى السلطة. ولكن الأبله تافيتو، وبدلاً من أن يقلق، ويرفع أذنيه حذراً، ويرتعب من المهمة التي كلفوه بها - أن يحمل من مونتيكريستي، في سيارة سيسنا صغيرة دون لوحة، شخصاً ملثماً ومخدراً، أنزلوه من طائرة آتية من الولايات المتحدة، ويأخذه إلى مزرعة فونداثيون التي يملكها تروخييو في سان كريستوبال -، فُتن بتلك المهمة، معتبراً إياها إشارة إلى الثقة التي يوليه إياها **الجنراليسمو**. ولكن تافيتو لم يبد أي قلق حتى عندما اهتزت الصحافة الأمريكية وبدأ البيت الأبيض الضغوط لكي تسهل الحكومة الدومينيكانية التحقيق في عملية الاختطاف التي جرت في نيويورك، للبروفسور الباسكي الإسباني خيسوس دي غالينديث.

وقد حذره أنطونيو:

- يبدو أن مسألة غاليندیث هذه جدية حقاً. إنه الشخص الذي نقلته من مونتيكريستي إلى مزرعة تروخييو الخاصة، ومن سيكون سواه. لقد اختطفوه من نيويورك وأحضروه إلى هنا. أطبق فمك عن الموضوع. انسَ كل شيء. إنك تقامر بحياتك يا أخي.

لقد تشكلت لدى أنطونيو دي لاماثا الآن فكرة عما يمكن أن يكون قد جرى لخسوس دي غاليندث، أحد الجمهوريين الإسبان الذين وافق تروخييو، في واحدة من تلك المناورات السياسية التي كانت من سماته، على منحهم حق اللجوء في جمهورية الدومينيكان بعد انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية. أنطونيو لم يتعرف على ذلك البرفسور الإسباني، ولكن كثيرين من أصدقائه عرفوه، ومن خلالهم عرف أنه عمل لدى الحكومة، في وزارة العمل وفي المدرسة الدبلوماسية الملحقة بوزارة العلاقات الخارجية. وفي عام 1946 غادر مدينة تروخييو، واستقر في نيويورك وبدأ من هناك مساعدة المنفيين الدومينيكانيين، والكتابة ضد نظام تروخييو الذي يعرفه من الداخل.

وفي آذار 1956 اختفى خيسوس دي غاليندث، الذي كان قد حصل على الجنسية الأمريكية، وقد رؤي آخر مرة وهو يخرج من محطة للمترو في برادواي، في قلب منهاتن. وكان قد أُعلن قبل أسابيع من ذلك عن نشر كتاب له حول تروخييو، قدمه لجامعة كولومبيا، حيث يدّرس، كأطروحة دكتوراه. وكان يمكن لاختفاء منفي إسباني مجهول في مدينة وبلاد يختفي فيها أناس كثيرون، أن يمر دون أن يلفت الانتباه، وما كان لأحد أن يهتم بالضجة التي أثارها المنفيون الدومينيكانيون حول عملية الاختفاء لو لم يكن غاليندث قد أصبح مواطناً أمريكياً، خاصة أنه كان يتعاون مع وكالة المخابرات المركزية، وهو ما تكشف بعد انفجار الفضيحة. ولم تستطع ماكينة الصحفيين، والشيوخ، واللوبيين، والمحامين ورجال الأعمال التي يملكها تروخييو في الولايات المتحدة من كبح الضجة التي أثارتها الصحافة، بدءاً من **النيويورك تايمز**، وعدد كبير من أعضاء الكونغرس، حيال احتمال أن يكون الديكتاتور الكاريبي قد أباح لنفسه اختطاف واغتيال مواطن أمريكي على أرض الولايات المتحدة.

وخلال الأسابيع والشهور التي تلت اختفاء غاليندث – ذلك أنه لم يُعثر على الجثة قط – كشفت تحريات الصحافة ومكتب التحقيقات الفيدرالي بصورة لا تقبل الشك مسؤولية النظام الكاملة. فقبل الحادث بقليل، جرى تعيين الجنرال إسباياّت، **المدية**، رئيس جهاز الاستخبارات قنصلاً للدومينيكان في نيويورك. وتوصل مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى الاطلاع على تحريات مشبوهة حول غاليندث قامت بها مينيرفا بيرناردينو، وهي دبلوماسية دومينيكانية في الأمم المتحدة، وامرأة تحظى بثقة تروخييو الكاملة. والأخطر من كل ذلك أن مكتب

التحقيقات الفيدرالي توصل إلى تحديد هوية طائرة صغيرة، بوثائق تسجيل مزيفة، يقودها طيار يفتقر إلى الوثائق المناسبة، انطلقت بصورة غير شرعية من مطار صغير في لونغ إيسلاند باتجاه فلوريدا، في ليلة الاختطاف بالذات. ذلك الطيار يدعى مورفي وهو موجود منذ ذلك الحين في جمهورية الدومينيكان، حيث يعمل في شركة الطيران الدومينيكانية. وكان مورفي وتافيتو يطيران معاً وقد تحولا إلى صديقين حميمين.

وبما أن الرقابة لم تكن تسمح للصحف والإذاعات الدومينيكانية بقول أي شيء حول الموضوع، فقد علم أنطونيو بكل تلك الأمور في نتف متفرقة، من خلال إذاعات بويرتوريكو أو فنزويلا أو صوت أميركا التي يمكن التقاطها على الموجة القصيرة، أو من خلال نسخ من صحيفتي **ميامي هيرالد والنيويورك تايمز** اللتين كانتا تتسربان إلى البلاد في حقائب وملابس الطيارين والمضيفات.

وبعد سبعة شهور من اختفاء غاليندث، عندما قفز اسم مورفي إلى الصحافة العالمية على أنه قائد الطائرة التي أخرجت غاليندث مخدراً من الولايات المتحدة ونقلته إلى جمهورية الدومينيكان، سارع أنطونيو الذي كان قد تعرف على مورفي من خلال تافيتو- كان الثلاثة قد أكلوا معاً وجبة بائيّا إسبانية مضمخة بنبيذ ريوخا في مطعم البيت الإسباني، في شارع بيلليني - إلى القفز إلى سيارته في تيرولي، قريباً من الحدود الهايتية، وانطلق بأقصى سرعة وهو يشعر بأن دماغه سينفجر من التكهنات المشؤومة، وجاء إلى **مدينة تروخييو**. وجد تافيتو في بيته مطمئناً تماماً، يلعب جولة بريدج مع زوجته آلتاغراثيا. ولكي لا يثير قلق زوجة أخيه، أخذه أنطونيو إلى مطعم تيبيكو ناخايو الصاخب، حيث يمكنهما بفضل صخب موسيقى رامون غابيياردو ومغنيه رافائيل مارتينث، أن يتبادلا الحديث دون أن تسمع الآذان المتيقظة ما يقولانه. وبعد أن طلبا طبقاً من لحم الجدي المطبوخ وزجاجتي بيرة ماركة الرئيس، نصح أنطونيو أخاه تافيتو دون مقدمات بأن يطلب اللجوء إلى إحدى السفارات. فانفجر أخوه الأصغر في الضحك: يا للحماقة. لم يكن يعرف حتى بأن اسم مورفي صار متداولاً في كل الصحف الأمريكية. ولكن ذلك لم يثر مخاوفه. فثقته بتروخييو لم تكن تقل عمقاً عن سذاجته.

وذهل أنطونيو حين سمعه يقول:

- يجب أن أحذر الغرينغو مورفي. إنه يبيع أشياءه، وقد قرر الرجوع إلى الولايات المتحدة ليتزوج. لديه خطيبة في أريغون. ولكن ذهابه إلى هناك الآن

سيكون أشبه بدس رأسه في فم الذئب. هنا لن يحدث له شيء. فالزعيم هو من يأمر هنا يا أخي.

لم يسمح له أنطونيو بمواصلة المزاح. ودون أن يرفع صوته، لكي لا يلفت انتباه من هم على المناضد المجاوِرة، حاول أن يجعله يفهم حقيقة وضعه وهو يشعر بغضب أصم لسذاجته:

– ألا ترى الوضع الذي أنت فيه أيها الأبله؟ المسألة خطيرة. لقد وضعت عملية الاختطاف تروخييو في موقف حرج مع اليانكيين. حياة كل من شاركوا في الاختطاف مربوطة بخيط واهٍ الآن. مورفي وأنت شاهدان خطيران. وربما كنتَ أنت أشد خطورة من مورفي. لأنك أنت من نقلت غاليندیث إلى مزرعة فونداثيون، حيث منزل تروخييو الخاص. أين عقلك؟

فأصر أخوه وهو يقرع كأسه بكأس أنطونيو:

– أنا لم أنقل غاليندث. لقد نقلت شخصاً لا أعرفه، شخصاً مخموراً وغائباً عن الوعي. لست أعرف شيئاً. ولماذا يجب ألا أثق بالزعيم؟ أولم يثق هو بي في عملية على هذا المستوى من الأهمية؟

عندما تودعا في تلك الليلة، عند باب بيت تافيتو، قال هذا أخيراً حيال إلحاح أخيه الأكبر، إنه سيفكر في ما اقترحه عليه. وطلب منه ألا يقلق: سأُبقي فمي مطبقاً جيداً.

وكانت تلك هي آخر مرة يراه فيها أنطونيو حياً. فبعد ثلاثة أيام من تلك المحادثة، اختفى مورفي. وعندما رجع أنطونيو إلى مدينة تروخييو، كان قد تم اعتقال تافيتو. وكان معزولاً في سجن لافيكتوريا. ذهب أنطونيو بنفسه ليطلب مقابلة **الجنراليسمو**، ولكنه لم يستقبله. أراد التكلم مع الكولونيل كوبيان بارّا، رئيس الاستخبارات، ولكن هذا تحول إلى كائن غير مرئي، ثم قتله بعد وقت قصير في مكتبه أحد الجنود بأمر من تروخييو. وفي الساعات الثماني والأربعين التالية، اتصل أنطونيو أو زار كل المسؤولين وكبار موظفي النظام الذين يعرفهم، ابتداء من رئيس مجلس الشيوخ أغوسطين كابرال، وحتى رئيس الحزب الدومينيكاني ألفاريث بينا. ووجد لديهم جميعاً تعبير القلق نفسه، وجميعهم قالوا له إن أفضل ما يمكنه عمله من أجل أمنه وأمن ذويه، هو أن يتوقف عن الاتصال وعن مراجعة أناس لا يمكنهم مساعدته، بينما هو يعرضهم للخطر بالمقابل. «كان ذلك أشبه بضرب الرأس بالجدران»، هذا ما قاله أنطونيو فيما

بعد للجنرال خوان توماس دياث. لو أن تروخييو وافق على استقباله، لكان توسل إليه، ولكان جثا أمامه على ركبتيه، وفعل أي شيء من أجل إنقاذ تافيتو.

بعد قليل من ذلك، وفي فجر أحد الأيام، توقفت أمام منزل تافيتو دي لاماثا إحدى سيارات الاستخبارات العسكرية وفيها مخبرون مسلحون ببنادق رشاشة، وهم بملابس مدنية. سحبوا جثته وألقوا بها دون اعتبار في الحديقة الصغيرة التي عند المدخل، ما بين نبتات أزهار الثالوث. وصرخوا وهم يهمون بالانصراف بزوجته آلتاغراثيا التي خرجت إلى الباب بقميص النوم وراحت تنظر برعب:

- زوجك شنق نفسه في السجن. لقد أحضرناه لكي تدفنيه كما يجب.

وفكر أنطونيو: «ولكن ذلك لم يكن هو الأسوأ». لا، فرؤية جثة تافيتو، وحبل الانتحار المزعوم ما يزال حول عنقه، وذلك الجسد الذي ألقاه مثل كلب عند عتبة بيته جماعة من أولئك السفلة المرخصين الذين هم عملاء الاستخبارات العسكرية، لم يكن هو الأسوأ. لقد كرر أنطونيو ذلك عشرات، مئات المرات، في الأربع سنوات والنصف تلك، بينما هو يكرس أيامه ولياليه وكل ما تبقى لديه من صحو وذكاء، للتخطيط لعملية الثأر التي ستُحسم -- فليتبارك الرب - هذه الليلة. فالأسوأ هو ميتة تافيتو الثانية، بعد ميتته الأولى، عندما جرى استخدام كل الآلة الإعلامية والدعائية: جريدتي **الكاريبي ولاناسيون**، والتلفزيون وإذاعة صوت الدومينيكان، وإذاعة صوت التروبيكو، **وراديو كاريبي**، وعشر صحف وإذاعات محلية صغيرة، وظفها النظام كلها في واحدة من أقسى مهازله، بنشر رسالة مزعومة مكتوبة بخط أوكتافيو (تافيتو) دي لاماثا، يوضح فيها سبب انتحاره: إنه تأنيب الضمير لإقدامه على قتل الطيار مورفي، صديقه وزميله في شركة الطيران الدومينيكانية! لم يكتف **التيس** بالأمر بقتله، لكي يمحو آثار قضية غاليندث، بل كان لديه التفنن الجهنمي بتحويل تافيتو إلى قاتل. فهكذا يتخلص من الشاهدين المزعجين. ولكي يكون كل شيء دنيئاً، فإن الرسالة المكتوبة بخط يد تافيتو توضح سبب قتله لمورفي: الشذوذ الجنسي. فقد أُغرم هذا الأخير بأخيه الأصغر، وحاصره بشدة مما دفع تافيتو إلى التصرف برد فعل رجولي، فغسل شرفه بقتل ذلك المنحط وأخفى جريمته بافتعال حادث سيارة.

اضطر أنطونيو إلى الانحناء في مقعد الشفروليه، ضاغطاً البندقية القصيرة إلى بطنه، ومدارياً التشنج الذي أحس به. لقد ألحت عليه زوجته لكي يذهب إلى الطبيب، لأنه يمكن لهذه الآلام أن تكون قرحة أو شيئاً أشد خطورة، ولكنه رفض

ذلك. إنه لا يحتاج إلى أطباء لكي يعرف أن جسده قد تدهور في السنوات الأخيرة كانعكاس لمرارة روحه. فمنذ ما جرى لتافيتو، فقد كل وهم، كل حماسة، وكل حب لهذه الحياة أو الحياة الأخرى. وفكرة الانتقام وحدها هي التي كانت تبقيه حياً؛ ولم يكن يحيا إلا لإنجاز اليمين الذي أقسمه بصوت عالٍ، وبلبل فيه من الخوف أهالي موكا الذين جاؤوا لمرافقة آل دي لاماثا - الأبوين، الأخوة والأخوات، الأصهار وزوجات الأخوة، وأبناء الأخوة، والأبناء، والأحفاد، والعمات والأعمام- في السهر على ميتهم.

- أقسم بالله المقدس إنني سأقتل بيدي هاتين ابن العاهرة الذي فعل هذا!

جميعهم عرفوا أنه يعني **المنعم، أبا الوطن الجديد، الجنراليسمو الدكتور رافائيل ل. تروخييو مولينا**، والذي كان إكليله الجنائزي ذو الأزهار النضرة والعابقة الذي أرسله هو الأكثر بروزاً في حجرة تسجية الميت. ولم تتجرأ أسرة دي لاماثا على رفض تقبل الإكليل أو سحبه من ذلك المكان، حيث كان ظاهراً بوضوح لعيون كل من جاؤوا لرسم إشارة الصليب وترديد صلاة إلى جانب التابوت، وعرفوا أن **الزعيم** قد حزن لميتة ذلك الطيار المأساوية، «أحد أشد أتباعي وفاء، وإخلاصاً وحماسة»، حسب ما جاء في رسالة التعزية.

في اليوم الذي تلا الدفن، نزل اثنان من المساعدين العسكريين في القصر من سيارة كاديلاك ذات لوحة رسمية، ودخلا بيت آل دي لاماثا، في موكا. كانا آتيين في طلب أنطونيو.

- هل أنا معتقل؟

- ولا بأي حال - سارع إلى القول له الملازم الأول روبيرتو فيغيروا كاريون -. فخامته يود رؤيتك.

لم يتكلف أنطونيو مشقة دس مسدسه في جيبه. فقد افترض أنهم سينزعون سلاحه قبل دخوله إلى القصر الوطني، هذا إذا كانا سيأخذونه إلى هناك حقاً وليس إلى **لافيكتوريا** أو **الأربعين**، أو إذا لم تكن لديهما أوامر بإلقائه في أحد أودية الطريق. لم يهمه ذلك. لقد كان يعرف مدى قوته، كما كان يعرف أن قوته التي تتضاعف بسبب الحقد ستكون كافية لقتل الطاغية، مثلما أقسم في اليوم السابق. زمجر بذلك القرار، مصمماً على وضعه موضع التنفيذ، وهو يعلم أنهم سيقتلونه قبل أن يتمكن من الفرار. سيدفع هذا الثمن، لمجرد التخلص من المستبد الذي حطم حياته وحياة أسرته.

لدى نزوله من السيارة الرسمية، سار المساعدان العسكريان لحراسته حتى مكتب المنعم، دون أن يفتشه أحد. لا بد أنه كانت لدى الضابطين أوامر محددة؛ فما إن ردّ الصوت الصافر المعروف «أدخل»، حتى ابتعد الملازم الأول روبيرتو فيغيروا كاريون ورفيقه، مفسحين لأنطونيو المجال للدخول من بينهما. كانت تسود المكتب ظلمة خافتة بسبب أباجورات النوافذ المطلة على الحديقة نصف المغلقة. وكان الجنرال وراء مكتبه يرتدي بدلة عسكرية لا يتذكرها أنطونيو: سترة بيضاء وطويلة ذات أذيال، مع أزرار ذهبية وكتفيتين بحواش مذهبة، وعلى صدره تتدلى مروحة من الميداليات والأوسمة المتعددة الألوان. وكان يرتدي بنطالاً أزرق فاتحاً من قماش قطني ناعم مع خط أبيض عمودي على الجانبين. إنه مستعد لحضور احتفال عسكري ما. كان نور المصباح يضيء الوجه العريض، الحليق بعناية، والشعر الرمادي المسرح جيداً، والشارب الذبابي، على طريقة هتلر (الذي سمع أنطونيو أن الزعيم معجب به «ليس بسبب افكاره، وإنما بسبب طريقته في ارتداء الزي العسكري وترؤس استعراضات الجيش»). تلك النظرة الثابتة المباشرة جمدت أنطونيو في مكانه فور اجتيازه العتبة. توجه إليه تروخييو بعد أن تفحصه لبعض الوقت:

- أعرف أنك تظن بأنني أنا الذي أمرت بقتل أوكتافيو وأن مسألة الانتحار ما هي إلا مهزلة دبرتها الاستخبارات. لقد بعثتُ في طلبك لكي أقول لك شخصياً إنك مخطئ. لقد كان أوكتافيو من رجال النظام. وكان مخلصاً وتروخييوياً على الدوام. وقد عينت للتو لجنة برئاسة مدعي عام الجمهورية، المجاز فرانثيسكو إيلبيديو بيراس. بصلاحيات واسعة لاستجواب الجميع، عسكريين ومدنيين. فإذا كانت مسألة انتحاره ملفقة، فسوف يدفع المذنبون الثمن.

كان يكلمه دون عداء ودون مواربات، ناظراً إلى عينيه بالطريقة المباشرة والحاسمة التي يكلم بها على الدوام مرؤوسيه، وأصدقاءه، وأعداءه. بقي أنطونيو بلا حراك، مصمماً أكثر من أي وقت آخر على الانقضاض على ذلك المهرج والضغط على عنقه، دون أن يتيح له الفرصة لطلب المساعدة. وكما لو أن تروخييو أراد تسهيل المهمة عليه، فقد نهض واقفاً وتقدم باتجاهه، بخطوات بطيئة، وقورة. وكان حذاؤه الأسود أشد لمعاناً من خشب أرضية مكتبه المطلي بالشمع.

- كما خولت مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي بالمجيء للتحقيق هنا في موت ذلك المدعو مورفي - أضاف بالنبرة الحادة نفسها -. إن في ذلك خرقاً

لسيادتنا بالطبع. هل يسمح الأمريكيون لشرطتنا بالذهاب للتحقيق في مقتل دومينيكاني في نيويورك أو واشنطن أو ميامي؟ فليأتوا. وليعلم العالم بأسره بأنه ليس لدينا ما نخفيه.

كان على بعد متر منه. لم يكن بإمكان أنطونيو مقاومة نظرة تروخييو الهادئة، وكان يرمش دون توقف.

- أنا لا ترتعش يدي عندما يتوجب علي أن أقتل - أضاف بعد توقف قصير- فالحكم يتطلب أحياناً التلوث بالدم. وقد اضطررت من أجل مصلحة هذه البلاد إلى عمل ذلك مرات كثيرة. ولكنني رجل شرف. والمخلصون لي أحاكمهم، لا آمر بقتلهم. وأوكتافيو كان مخلصاً، من رجال النظام، تروخييوي مجرب. ولهذا السبب، تدخلت كي لا يذهب إلى السجن عندما أفلتت يده في لندن وقتل لويس بيرناردينو. سيتم التحقيق في موت أوكتافيو. وأنت وأسرتك يمكنكم المشاركة في أعمال لجنة التحقيق.

دار على عقبيه، وعاد بالطريقة الهادئة نفسها إلى مكتبه. لماذا لم ينقض عليه عندما كان قريباً في متناول يده؟ ما زال يسأل نفسه هذا السؤال بعد أربع سنوات ونصف. ليس لأنه صدق كلمة واحدة مما قاله له. فذلك كان جزءاً من المهزلة التي كان تروخييو شديد التعلق بها والتي تفرضها الدكتاتورية على جرائمها، كلمسة إضافية ساخرة على الأعمال المفجعة التي تقوم عليها. لماذا إذن؟ ليس بسبب الخوف من الموت، لأنه لا وجود للخوف من الموت بين كل نقائصه التي يعترف بها. فمنذ أن كان متمرداً مع حفنة من القوات الهوراسية قاوم الدكتاتور بالرصاص، وقامر بحياته مرات كثيرة. ما منعه من الانقضاض عليه هو شيء أكثر غموضاً وإبهاماً من الخوف: إنه ذلك الشلل، تخدر الإرادة والقدرة العقلية وحرية المشيئة الذي يمارسه ذلك الرُّجيل المتأنق إلى حد الإضحاك، ذو الصوت النابيّ والعينين المنوِّمتين، على كل الدومينيكانيين الفقراء والأغنياء، المثقفين والجهلة، الأصدقاء والأعداء. ذلك هو ما أوقفه هناك صامتاً، سلبياً، مصغياً إلى تلك الأكاذيب، كشاهد وحيد على تلك التلفيقة، عاجز عن تحول إرادته في الانقضاض عليه إلى ممارسة ووضع حد لاجتماع الساحرات والمشعوذين الذي تحول إليه تاريخ البلاد.

- أضف إلى ذلك، وكدليل على أن النظام يعتبر آل دي لاماتا أسرة مخلصة،

هو أنه تم هذا الصباح منحك امتياز انجاز الجزء المتبقي من طريق سانتياغو- بويرتو بلاتا.

توقف مرة أخرى، ليبلل شفتيه برأس لسانه، وانتهى بجملة تشير في الوقت نفسه إلى أن المقابلة قد انتهت:

- وهكذا يمكنك مساعدة أرملة أوكتافيو. لا بد أن المسكينة آلتاغراثيا تمر بأوقات عصيبة. قدم إليها قبلة من طرفي، وأخرى إلى أبويك.

خرج أنطونيو من القصر الوطني وهو مشوش أكثر مما لو أمضى الليل كله في الشرب. أكان هو نفسه؟ أسمع بأذنيه ما قاله ابن العاهرة ذاك؟ هل تقبّل تفسيرات تروخييو، وقبل فوق ذلك صفقة مقاولات، طبق عدس يتيح له أن يضع في جيبه بضعة آلاف من البيزوات، لكي يبتلع مرارته ويتحول إلى متواطئ - أجل، متواطئ - في اغتيال تافيتو؟ لماذا لم يتجرأ حتى على أن ينهره، أن يقول له إنه يعرف جيداً بأن تلك الجثة التي ألقيت عند باب زوجة أخيه تم قتلها بأمر منه، مثلما جرى قتل مورفي قبل ذلك، وأنه هو نفسه من صمم كذلك، بصوته الميلودرامي، مهزلة الشذوذ الجنسي لدى الطيار الأمريكي وتأنيب الضمير لدى تافيتو، لأنه قتله؟

بدلاً من أن يعود إلى موكا في ذلك الصباح، مضى أنطونيو دون أن ينتبه كيف حدث ذلك إلى ملهى سيئ السمعة، **ملهى المصباح الأحمر**، عند تقاطع شارعي فيثنتي بوبلي وباراهونا، وكان صاحبه «اللوكو فرياس»، ينظم مسابقات رقص. شرب كؤوساً لا تحصى من الروم وهو ساهم يسمع، في البعيد، ألحان الميرينغي الراقصة، وفي إحدى اللحظات، ودون أي تفسير، حاول أنطونيو أن يضرب عازف الماراكا في الفرقة الموسيقية التي كانت تبعث الحماسة في المحل، ولكن السكر جعل الهدف يغيم أمامه. فلكم الهواء وهوى على الأرض، ولم يستطع النهوض.

عندما رجع إلى موكا، بعد يوم من ذلك، مشعثاً وثيابه مهلهلة، كان في انتظاره في بيت الأسرة أبوه دون فيثنتي، وأخوه أرنستو، وأمه وزوجته «عايدة» بمظهر فزع. وكانت زوجته هي التي تكلمت مرتعشة:

- يقال في كل مكان إن تروخييو قد أطبق فمك بإعطائك مقاولة الطريق من سنتياغو إلى بويرتو بلاتا. لستُ أدري كم من الأشخاص اتصلوا بنا.

يتذكر أنطونيو الآن مفاجأته حين سمع عايدة تؤنبه أمام أبويه وارنستو. إنها الزوجة الدومينيكانية النموذجية، تعيش صامتة، متذللة، متألمة، تتحمل سكراته،

مغامراته مع النساء، مشاجراته. لياليه التي يقضيها خارج المنزل، وتستقبله على الدوام بوجه بشوش، ترفع معنوياته، وتسارع إلى إيجاد الأعذار له عندما يترفع هو عن تقديمها، وتبحث في القداس كل يوم أحد، وفي الصلوات، والاعترافات عن عزاء للتناقضات التي عجنت منها حياتها.

- لم يكن بإمكاني تسليم نفسي للموت لمجرد القيام بمأثرة - قال ذلك وهو ينهار على الكرسي الهزاز القديم الذي كان أبوه دون فيثتي يغفو عليه عادة في ساعات القيلولة - تظاهرتُ بأنني أصدق تفسيراته، وبأنني أسمح له بشرائي.

كان يتكلم وهو يشعر بتعب قرون على كاهله، بينما نظرات زوجته وأبويه وأخيه ارنستو تحرق ضميره.

- ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ لا تسئ الظن بي يا أبي. لقد أقسمتُ على الثأر لتافيتو. وسأفعل ذلك يا أماه. يجب ألا تشعري بالخجل مني قط يا عايدة. أقسم لك. أقسم لكم على ذلك من جديد.

ذلك القسم سيتحقق الآن في أي لحظة. خلال عشر دقائق، أو دقيقة واحدة، فسيارة الشفروليه التي يذهب بها ذلك الذئب العجوز كل أسبوع إلى بيت كاوبا في سان كريستوبال ستظهر، ووفقاً للخطة الموضوعة بدقة، سيتم الثأر لمقتل غاليندیث، ومورفي، وتافيتو، والأخوات ميرابال، وآلاف الدومينيكانيين، وسيسقط التيس برصاص ضحية أخرى من ضحاياه، برصاص أنطونيو دي لاماثا الذي قتله تروخييو أيضاً، قتله بطريقة أبطأ وأخبث من تلك التي صفى بها الآخرين بالرصاص، أو بالضرب، أو الإلقاء بهم إلى أسماك القرش. لقد قتله على مراحل، منتزعاً منه الوقار، الشرف، احترامه لنفسه، مرح الحياة، الآمال، الرغبات، وخلّفه جلداً وعظماً معذباً بهذا الضمير الموجوع الذي يدمره شيئاً فشيئاً منذ سنوات.

وسمع سلفادور إستريّا سعد الله يقول:

- سأحرك ساقيّ قليلاً. لقد تشنجتا من الجلوس.

رأى التوركو يخرج من السيارة ويخطو بضع خطوات على حافة الطريق. أيكون سلفادور جزعاً مثله؟ لا شك في ذلك. وكذلك هو حال طوني إمبرت وآماديتو. وهو حال من ينتظرون أيضاً هناك، إلى الأمام، روبيرتو باستوريثا، وهواسكار تيخيدا، وبيدرو ليفيو ثيدينيا. ينهشهم القلق من أن يحول شيء، أو أحد، دون مجيء التيس إلى هذا الموعد. ولكن لتروخييو حسابات قديمة معه

شخصياً عليه تصفيتها، فهو لم يُلحق بأي واحد من رفاقه الستة، ولا بعشرات الآخرين، من أمثال خوان توماس ديات، المشاركين بهذه المؤامرة، مثل ذلك الأذى الذي ألحقه بأنطونيو. ألقى نظرة من النافذة: كان التوركو يهز ساقيه بحركات نشطة. وتمكن من ملاحظة أن سلفادور يحمل المسدس في يده. رآه يرجع إلى السيارة ويحتل موقعه في المقعد الخلفي، إلى جوار آماديتو.

- حسن، إذا هو لم يأت سنذهب إلى **البوني** لنشرب بيرة مثلجة - سمعه يقول محزوناً.

بعد تلك المشاجرة، أمضى هو وسلفادور شهوراً دون أن يتقابلا. كان يتفق تواجدهما في لقاءات اجتماعية، ولكنهما لا يتبادلان التحية. تلك القطيعة زادت من تأزم العذاب الذي يعيشه. وعندما بلغ التحضير للمؤامرة مستوى متقدماً، كانت لدى أنطونيو الجرأة للذهاب إلى الرقم 21 في شارع مهاتما غاندي والدخول مباشرة إلى الصالة حيث يجلس سلفادور. وقال له على سبيل التحية:

- لا جدوى من تشتيت جهودنا. خططك لقتل التيس طفولية. عليك أنت وإمبرت أن تنضما إلينا. فخطتنا بلغت مرحلة متقدمة ولا يمكن لها أن تفشل.

نظر سلفادور إلى عينيه دون أن يقول شيئاً. لم يقم بأي حركة عدائية ولم يطرده من البيت.

- لدي دعم الأمريكيين - أوضح له أنطونيو خافضاً صوته -. ومنذ شهرين وأنا أعالج التفاصيل مع السفارة. وقد تحدث خوان توماس ديات كذلك مع مبعوثين من القنصل دياربورن. سيقدمون لنا الأسلحة والمتفجرات. هناك قادة عسكريون يشاركون معنا. يجب أن تنضم أنت وطوني إلينا.

- إننا ثلاثة - قال أخيراً التوركو- فآماديتو غارثيا غيريرو صار واحداً من جماعتنا منذ عدة أيام.

كانت مصالحة شديدة النسبية. لم يعودا إلى الدخول في جدال جدي طوال هذه الشهور، بينما كانت خطة قتل تروخييو تتقدم، تتراجع، ثم تتقدم من جديد متخذة في كل شهر، وفي كل أسبوع، وكل يوم، أشكالاً ومواعيد مختلفة، بسبب تردد اليانكيين. فطائرة الأسلحة التي وعدت بها السفارة في البدء تقلصت في نهاية الأمر إلى بندقيتين سلمه إياهما قبل وقت غير بعيد صديقه لورينثو بيري، صاحب سوبرماركت «ويمبيز»، الذي أذهله أن يتبين أنه رجل الـ CIA في مدينة تروخييو. وبالرغم من تلك اللقاءات الحميمة، فقد كان موضوع حديثهما الوحيد

هو الخطة دائمة التحولات، ولم تعد العلاقة بينهما إلى ذلك التواصل الأخوي القديم، إلى المزاح، وتبادل الأسرار الخاصة، وإلى مثل ذلك التلاحم الحميم المشترك الموجود بالمقابل- وأنطونيو يعرف ذلك - ما بين التوركو وإمبرت وآماديتو، وهو وضع استُبعد منه منذ المشاجرة. إنها مذلة أخرى تدفعه لتصفية الحساب مع التيس: فقدانه ذلك الصديق إلى الأبد.

ربما كان رفاقه الثلاثة في السيارة، والثلاثة الآخرون الذين ينتظرون إلى الأمام قليلاً، هم أقل من يعرفون عن المؤامرة. قد تكون لديهم شكوك عن بعض المشاركين الآخرين، ولكن إذا حدث خطأ، ووقعوا في يد جوني أبيس غارسيا، واقتادهم المخبرون إلى سجن «الأربعين» وأخضعوهم للتعذيب المعروف، فلن يكون بإمكان التوركو، ولا إمبرت، ولا آماديتو، ولا هواسكار، ولا باستوريثا، ولا بيدرو ليفيو أن يورطوا أناساً كثيرين. ربما يعرفون الجنرال خوان توماس دياث، ولويس أميام تيو واثنين أو ثلاثة آخرين. ولكنهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن الآخرين، ممن توجد بينهم أعلى شخصيات الحكومة. مثل بوبو رومان على سبيل المثال - قائد القوات المسلحة، والرجل الثاني في النظام -، ولا يعرفون شيئاً كذلك عن أعداد الوزراء، والسيناتورات، والموظفين المدنيين والقادة العسكريين، المطلعين على الخطط، والذين شاركوا في إعدادها، أو أولئك الذين عرفوا بالأمر بصورة غير مباشرة وأخبروا الوسطاء أو ألمحوا أو أوحوا لهم (مثلما هو حال بالاغير نفسه، الرئيس النظري للجمهورية) بأنه بعد أن تتم تصفية التيس سيكونون على استعداد للمشاركة في إعادة البناء السياسي، وتصفية كل الحثالة التروخييوية المتبقية، والانفتاح، وفي الانضمام إلى المجلس المدني-العسكري الذي سيضمن، بدعم من الولايات المتحدة، الأمن، ويغلق الطريق على الشيوعيين، وسيدعو إلى انتخابات. هل ستصبح جمهورية الدومينيكان أخيراً بلداً عادياً، فيه حكومة منتخبة، وصحافة حرة، وقضاء جدير بهذا الاسم؟ تنهد أنطونيو. لقد عمل طويلاً من أجل ذلك وهو لا يتوصل إلى تصديقه. الحقيقة أنه الوحيد الذي يعرف مثل راحة يده كل تلك الشبكة العنكبوتية من الأسماء والتواطؤات. وفي مرات كثيرة، بينما كانت تدور المحادثات السرية المحبطة، وينهدم كل ما تحقق، ويكون لا بد من العودة للنهوض من العدم، كان يشعر بأنه كذلك بالضبط: عنكبوت في قلب متاهة من الخيوط التي نسجها هو نفسه، والتي تربط جموعاً من الأشخاص الذين يجهلون بعضهم بعضاً. وكان هو الوحيد

الذي يعرف الجميع. وهو يعرف درجة الالتزام التي أبداها كل واحد منهم. وكانوا كثيرين! حتى انه هو نفسه لا يستطيع أن يتذكر عددهم الآن. إنها معجزة - وهذه البلاد على ما هي عليه، ومع كون الدومينيكانيين مثلما هم - أن لا تحدث أي وشاية تقوض الخطة. ربما كان الرب معهم، مثلما يعتقد سلفادور. لقد اتخذ الاحتياطات، بحيث لا يعلم الآخرون جميعهم إلا القليل جداً، باستثناء الهدف النهائي، ولكنهم يجهلون الطريقة، وظروف التنفيذ، والموعد. ليس هناك أكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص يعرفون بأنهم هم السبعة موجودون هنا الليلة، ويعرفون من هي الأيدي التي ستعدم التيس.

كانت تثقل عليه أحياناً فكرة أنه الوحيد القادر، إذا ما تمكن جوني أبيس من اعتقاله، من تحديد كل المتورطين. كان مصمماً على عدم السماح بالقبض عليه حياً، على الاحتفاظ بالطلقة الأخيرة لإطلاقها على نفسه. وقد اتخذ كذلك الاحتياطات بإخفاء سم من السيانور في كعب حذائه المجوف، حضّره له صيدلي في موكا معتقداً أنه سيُستخدم للقضاء على كلب متوحش يعيث خراباً في دواجن المزرعة. لن يقبضوا عليه حياً، لن يمنح جوني أبيس متعة رؤيته يتلوى على الكرسي الكهربائي. وبعد موت تروخييو، سيكون من دواعي سروره أن يقضي على رئيس الإستخبارات العسكرية. سيكون هناك متطوعون كثيرون لعمل ذلك. والاحتمال الأكبر هو أن جوني أبيس، ما أن يعلم بموت الزعيم حتى يتوارى عن الأنظار. لا بد أنه قد اتخذ كل الاحتياطات؛ فهو يعرف بالتأكيد كم يكرهونه، وكم يودون الانتقام منه. ليس المعارضون وحسب؛ بل هناك وزراء، وسيناتورات، وعسكريون يقولون ذلك بصورة سافرة.

أشعل أنطونيو سيجارة أخرى ودخن وهو يعض على عقبها بقوة لكي يخمد تلهفه. لقد توقفت حركة المرور تماماً؛ فمنذ بعض الوقت لم تمر أي شاحنة أو سيارة في أي من الاتجاهين.

الحقيقة، قال لنفسه، أنه لا يهمه قدر براز ما سيحدث في ما بعد. الأساسي هو ما سيحدث الآن. رؤية التيس ميتاً لكي يعرف أن حياته لم تذهب عبثاً، وأنه لم يمر في هذه الدنيا ككائن محتقر.

- هذا القواد لن يأتي أبداً، عليه اللعنة! - صاح توني إمبرت غاضباً بجانبه.

الفصل السابع

في المرة الثالثة التي ألحت فيها أورانيا على تقديم اللقمة، فتح المشلول فمه. وعندما رجعت الممرضة بكأس الماء، كان السيد كابرال مسترخياً وكالساهم، يتقبل بوداعة لقيمات الفاكهة المخفوقة التي تقدمها إليه ابنته، وشرب في رشفات قصيرة نصف كأس الماء. انزلقت بضع قطرات من جانبي فمه حتى ذقنه. فمسحتها الممرضة برقة. وهنأته:

– جيد جداً، جيد جداً، لقد أكلت فاكهتك مثل طفل طيب. إنك سعيد بالمفاجأة التي قدمتها إليك ابنتك، أليس كذلك يا سيد كابرال؟

لا يتكرم المشلول بالنظر إليها.

– هل تتذكرين تروخييو؟ – تسألها أورانيا مباشرة.

تنظر إليها المرأة بحيرة. إنها عريضة المؤخرة، محتقنة، لها عينان زائغتان. وشعر ذو لون أشقر صدئ تشي جذوره السوداء بالصبغة المستخدمة. وأخيراً تستجيب:

– وماذا يمكنني أن أتذكر، لقد كان عمري أربع أو خمس سنوات عندما قتلوه. لستُ أتذكر شيئاً، لا شيء سوى ما سمعته في بيتي. لقد كان أبوك شخصية مهمة في ذلك الحين، أعرف ذلك.

تهز أورانيا رأسها موافقة، وتدمدم:

– سيناتور، وزير، كل شيء. ولكنه وقع في المحنة في نهاية المطاف.

ينظر إليها العجوز مذعوراً. وتحاول الممرضة أن تبدو لطيفة:

– حسن، حسن. قد يكون دكتاتوراً وكل ما يقولونه عنه، ولكن يبدو أن الحياة كانت أفضل آنذاك. الجميع كان لديهم عمل، ولم تكن تُقترف كل هذه الجرائم. أليس كذلك يا آنسة؟

– لو كان بإمكان أبي أن يفهمك، فسيكون سعيداً بسماع ما تقولين.

– إنه يفهمني بالطبع – تقول الممرضة وقد أصبحت عند الباب – أليس كذلك

يا سيد كابرال؟ أبوك وأنا نُجري أحاديث طويلة. حسن، يمكنك أن تستدعيني إذا ما احتجت إليّ.

تخرج وتغلق الباب.

ربما كان صحيحاً - بسبب الحكومات الكارثية التالية - أن دومينيكانيين كثيرين يحنّون إلى تروخييو. لقد نسوا التعسف، والاغتيالات، والفساد، والتجسس، والعزلة، والخوف: فقد تحول الرعب إلى أسطورة، «الجميع كان لديهم عمل، ولم تكن تُقترف كل هذه الجرائم».

- بل كانت تُقترف يا أبي - تبحث عن عيني المشلول الذي راح يرمش - لم يكن هناك لصوص كثيرون يدخلون البيوت، ولم يكن ثمة نشالون كثيرون ينقضون في الشارع لانتزاع حقائب، وساعات، وعقود المارة. ولكن كان الناس يُقتلون، يُضربون، يُعذَبون ويختفون. بمن في ذلك أكثر الناس قرباً من النظام. كم من أعمال التعسف اقترفها مثلاً الابن المدلل، رامفيس الجميل. وكم كنتَ ترتجف خوفاً من أن يضع عينه عليّ.

أبوها لا يعرف، لأن أورانيا لم تخبره، بأنها وزميلاتها في مدرسة سانتو دومينغو، وربما كل فتيات جيلها، كن يحلمن برامفيس. بشاربه الدقيق المشذب مثل عاشق في فيلم مكسيكي، ونظارته ماركة راي-بان، وبدلاته المزركشة، وبزاته العسكرية المتنوعة كقائد لسلاح الطيران الدومينيكاني، وعينيه السوداوين، وقامته الرياضية، وساعاته وخواتمه التي من الذهب الخالص، وسيارته المرسيدس بنز، يبدو وكأنه صفي الآلهة: فهو غني، متنفذ، وسيم، سليم، قوي، سعيد. إنك تتذكرينه جيداً يا أورانيا: فعندما لا يكون بإمكان الراهبات رؤيتكن أو سماعكن، كنتِ أنت وزميلاتك تعرضن مجموعاتكن من صور رامفيس تروخييو، بالثياب المدنية، بالزي العسكري، بملابس السباحة، بربطة عنق، بلباس الرياضة، الإتيكيت، بدلة ركوب الخيل، وهو يقود فريق البولو الدومينيكاني أو وهو جالس وراء مقود طائرته. وكن يختلقن أنهن رأينه، تحدثن معه، في النادي، في المهرجان، في الحفلة، في الاستعراض، في الملهى، وعندما يتجرأن على قول هذه الأشياء - وهن يشعرن بالحياء، بالذعر، ويعرفن أنهن يرتكبن خطيئة الكلمة والتفكير التي لا بد لهن من الاعتراف عنها في الكنيسة - يتوشوشن، كم هو جميل، كم هو بديع أن يحبهن، يقبلهن، يعانقهن، يداعبهن رامفيس تروخييو.

- لا يمكنك أن تتصور كم من المرات حلمتُ به يا أبي.

أبوها لا يضحك. لقد طفر في مقعده ثانية وفتح عينيه كثيراً لدى سماع اسم ابن تروخييو الأكبر. الابن المفضل، والذي كان لهذا السبب بالذات، أسوأ خيبات أمل أبيه. لقد كان أبو الوطن الجديد يرغب في أن يكون لدى نجله -«هل كان ابنه حقاً يا أبي؟»- مثل شهيته إلى السلطة، وأن يكون نشيطاً وعملياً مثله. ولكن رامفيس لم يرث عنه أياً من فضائله أو عيوبه، ربما باستثناء هوس المضاجعة، الحاجة إلى طرح نساء في الفراش لكي يُقنع نفسه بفحولته. كان يفتقر إلى الطموح السياسي، وإلى أي نوع من الطموح، وكان كسولاً، ميالاً إلى الخمول، إلى الانطواء العصابي، محاصراً بعقد، بكروب وتقلبات، بسلوك متعرج ذي انفجارات هستيرية وفترات طويلة من فقدان الإرادة يطفئها بالمخدرات والكحول.

- أتعرف ما الذي يقوله كتّاب سيرة **الزعيم** يا أبي؟ يقولون إنه تحول إلى تلك الحال عندما عرف أن أمه، عند ولادته، لم تكن قد تزوجت من تروخييو بعد. وإنه بدأ يصاب بالاكتئاب حين علم أن أباه الحقيقي هو الدكتور دومينيتشي، أو ذلك الكوبي الذي أمر تروخييو بقتله، العشيق الأول لدونيا ماريا مارتينيث، حين لم تكن تحلم بأنها ستصير **السيدة المهيبة**، وكانت مجرد امرأة عادية ذات حياة مريبة، ملقبة بـ «الاسبانيوليتا». أأنت تضحك؟ لا أصدق ذلك!

من الممكن أنه يضحك. ويمكن أيضاً أن يكون مجرد ارتخاء في عضلات الوجه. ولكن وجهه على أي حال ليس وجه شخص يستمتع؛ بل هو أقرب إلى وجه من انتهى للتو من التثاؤب أو الصياح وبقي بفك مرتخ وعينين نصف مفتوحتين وشدق مفتوح، مبدياً فجوة قاتمة، بلا أسنان.

- أتريدني أن أستدعي الممرضة؟

يغمض المشلول عينيه، يرخي وجهه ويستعيد التعبير المتيقظ والمذعور. يبقى منكمشاً، ساكناً، منتظراً. يلفت انتباه أورانيا فجأة صراخ ببغاوات يثير الاضطراب في الغرفة. ولكنه يتوقف بغتة مثلما بدأ. هناك شمس بديعة؛ تصل إلى الأسطحة والزجاج وتبدأ بتدفئة الحجرة.

- أتعرف يا أبي؟ على الرغم من كل الحقد الذي كنت ومازلت أكنه لزعيمك، لأسرته، ولكل ما له رائحة تروخييو، إلا أنني في الحقيقة، عندما أفكر في رامفيس، أو أقرأ عنه، لا أستطيع إلا أن أشعر بالأسى.. بالشفقة.

من الممكن أنه كان مسخاً، مثل كل تلك الأسرة من المسوخ. وما الذي كان بإمكانه أن يكونه، وهو ابن من كان ابنه، ترعرع وتربى مثلما ترعرع وتربى؟ أي

شيء آخر كان يمكن أن يكونه ابن هيليوغابال، ابن كاليجولا، ابن نيرون؟ أي شيء آخر يمكن أن يصير إليه طفل يجري تعيينه وهو في السابعة من عمرة، بمرسوم - «هل أنت من قدمت ذلك المرسوم إلى مجلس الشيوخ يا أبي أم السيناتور تشيرينوس؟»- كولونيلاً في الجيش الدومينيكاني، ويُرّفع في العاشرة من عمره إلى جنرال، في احتفال عام، يتوجب على السلك الدبلوماسي حضوره، وأن يقدم إليه القادة العسكريون فروض الاحترام؟ وأورانيا تحتفظ بتلك الصورة محفورة في ذهنها، صورة في الألبوم الذي كان أبوها يحفظه في خزانة الصالة - تراه ما زال هناك؟- وفيها يظهر السيناتور المتأنق أغوسطين كابرال («أم أنك كنتَ وزيراً في ذلك الحين يا أبي؟»)، بسترة فراك متقنة، تحت شمس حارقة، ينحني باحترام لتقديم تحيته إلى الطفل الذي يرتدي زي الجنرال، وهو يقف فوق منصة صغيرة مغطاة بمظلة حيث انتهى للتو من استعراض العرض العسكري وبدأ يتلقى تهاني صف طويل من الوزراء والبرلمانيين والسفراء. وفي عمق المنصة يظهر الوجهان السعيدان للمنعم **والسيدة المهيبة**، الأم الفخورة بابنها.

- أي شيء آخر كان يمكن له أن يصير إليه سوى ذلك الكسول، السكير، المغتصب، الأبله، قاطع الطريق، مختل التوازن الذي كانه؟ لم نكن أنا وزميلاتي في مدرسة سانتو دومنغو نعرف شيئاً من ذلك عندما كنا نعشق رامفيس. أما أنت فكنت تعرف يا أبي. ولهذا كنت تخشى أن يراني، أن يتوحم على ابنتك، ولهذا السبب أبديت ما أبديته في ذلك اليوم الذي وجّه إليّ لفتة حانية وعبارة متوددة. أنا لم أكن أفهم شيئاً!

يرمش المشلول مرتين، ثلاث مرات.

فعلى العكس من زميلاتها اللواتي كانت قلوبهن تخفق من أجل رامفيس تروخييو، وكن يختلقن أنهن رأينه وتكلمن معه، وأنه ابتسم لهن وغازلهن، فإن ذلك قد حدث لأورانيا حقاً. فخلال افتتاح الحدث العظيم للاحتفال بالسنة الخامسة والعشرين لعهد تروخييو: **مهرجان سلام وأخوة العالم الحر**، والذي يبدأ منذ 20 كانون الأول 1955، ويستمر طوال عام 1956، ويكلف -«لم يُعرف قط الرقم الحقيقي يا أبي»- ما بين خمسة وعشرين وسبعين مليون دولار، أي ما بين ربع ونصف الميزانية الوطنية. أورانيا مازالت تحتفظ في ذاكرتها بتلك الصور حية، وبالانفعال، والإحساس العجيب الذي غمر البلاد بأسرها في ذلك المهرجان المشهود. لقد كان تروخييو يحتفل بذاته.. تروخييو يحتفل بتروخييو، محضراً إلى

مدينة سانتو دومنغو («بل إلى مدينة تروخييو، اعذرني على هذا الخطأ يا أبي.») أوركسترا خابيير كوغات، وكورال الليدو من باريس، وفتيات فريق آيس كاباديس الأمريكيات للتزلج على الجليد، ويبني في مساحة المعرض المؤلفة من ثمانمئة ألف متر مربع واحداً وسبعين مبنى، بعضها من الرخام، والمرمر، والعقيق، من أجل إيواء وفود الاثنين والأربعين بلداً من العالم الحر الذين حضروا... باقة من الشخصيات السامية من بينها رئيس البرازيل جوسلينو كوبيتشيك، والطلعة الارجوانية للكردينال فرانسيس سبيلمان، مطران نيويورك. وكانت ذروة أحداث تلك الاحتفالات هي ترفيع رامفيس، لخدماته المرموقة التي قدمها للوطن، إلى رتبة جنرال أول، وتتويج عطوفة جلالة أنخيليتا الأولى ملكة للمهرجان، وقد وصلتْ ابنة تروخييو إلى مكان الاحتفال في سفينة، تحييها صفارات كل سفن البحرية وتقرع من أجلها نواقيس كل كنائس العاصمة، بتاجها من الأحجار الكريمة وفستانها المتقن من السِب الشفاف والحرير المخرم الذي تم تفصيله في روما على يد خياطتين مشهورتين، هما الأختان فونتانا، استخدمتا فيه خمسة وأربعين متراً من فراء القاقُم الروسي، طول ذيله ثلاثة أمتار، وعباءته تحاكي تلك التي ارتدتها إليزابيت الأولى ملكة إنكلترا في حفل تتويجها. وبين الوصيفات والغلمان، كانت أورانيا بفستان متقن من الأورغنزا، وقفازين من الحرير وحفنة ورود في يدها، مع طفلات وشابات أخريات منتقيات من المجتمع الدومينيكاني الراقي. كانت أصغر الوصيفات في بطانة البراعم اللواتي يحرسن ابنة تروخييو تحت الشمس الانتصارية، وسط تلك الحشود التي تصفق للشاعر ووزير الرئاسة دون خواكين بالاغير، وهو يمتدح جلالة أنخيليتا الأولى ويضع الشعب الدومينيكاني عند قدميها وعطفها. وبينما أورانيتا تحس بأنها امرأة صغيرة، كانت تسمع أباها، بملابس الاتيكيك، يقرأ خطبة تقريظ لمنجزات الخمس والعشرين سنة تلك، والتي تحققت بفضل تصميم، وبصيرة، ووطنية تروخييو. إنها سعيدة إلى أقصى الحدود («لم أعد إلى الشعور بالسعادة قط مثلما شعرت بها في ذلك اليوم يا أبي.») تحس بأنها مركز الاهتمام. والآن، في قلب المهرجان، يزاح الستار عن تمثال تروخييو البرونزي، بسترة وعباءة أكاديمية، وفي يده دبلومات الأستاذية. وفجأة - مسك ختام ذلك الصباح السحري - تكتشف أورانيا، إلى جانبها، رامفيس تروخييو، ببزة الاستعراض الكبير، ينظر إليها بعينيه الحريريتين.

- وهذه الصبية باهرة الجمال، من تكون؟ - يبتسم لها الجنرال الأول الباهر. وتشعر أورانيا بأصابع دافئة، رفيعة، ترفع ذقنها - ما هو اسمك؟

- أورانيا كابرال - تتلعثم بقلب جامح.

«كم أنت جميلة، بل كم ستصبحين جميلة»، ينحني رامفيس وتقبل شفتاه يد الطفلة التي تسمع الصخب، والتنهدات، والمزاح الذي يحتفي به غلمان ووصيفات جلالة أنخيليتا الأولى. لقد انصرف ابن الجنراليسمو. أما هي فلم تعد نفسها تتسع لها من السعادة. ما الذي ستقوله صديقاتها عندما يعلمن أن رامفيس، وليس اقل، قد ناداها بالجميلة، وأمسك خدها وقبّل يدها، وكأنها امرأة صغيرة.

- كم استأتَ يا أبي عندما أخبرتُك بذلك. كم غضبتَ. موقفك يدعو للسخرية، أليس كذلك؟

غضبُ أبيها ذاك حين علم بأن رامفيس قد لمسها، جعل أورانيا ترتاب للمرة الأولى بأن ليس كل شيء على ما يرام كما يبدو في جمهورية الدومينيكان، مثلما يقول الجميع، وخصوصاً السيناتور كابرال.

- وما السيئ في أن يقول لي إنني جميلة ويداعبني مداعبة حانية يا أبي.

- كل سوء العالم - يرفع أبوها صوته مثيراً ذعرها، فهو لم يؤنبها قط بإصبعه السبابة الحاسمة تلك التي تهتز فوق رأسها - إياك أن يتكرر ذلك! اسمعي جيداً يا أورانتا. إذا ما اقترب منك، أخرجي راكضة. لا تحييه، لا تكلميه. اهربي. هذا من أجل مصلحتك.

- ولكن، ولكن... - لقد صارت الطفلة بحراً من البلبلة.

كانا قد رجعا للتو من **مهرجان سلام وأخوة العالم الحر**، هي ما تزال بفستانها البديع كوصيفة مرافقة لجلالة أنخيليتا الأولى، وأبوها بسترة الفراك التي ألقى بها خطبته أمام تروخييو، وأمام الرئيس نيغرو تروخييو، والدبلوماسيين والوزراء، والمدعوين، وآلاف آلاف الأشخاص الذين يملؤون الجادات والشوارع والمباني المزينة بأعلام المهرجان. لماذا غضب هكذا؟

- لأن رامفيس، هذا الفتى، هذا الرجل... سيئ. - يبذل أبوها جهداً لكي لا يقول كل ما يريد قوله -. إنه سيئ مع الفتيات، مع الطفلات. لا تخبري بذلك صديقاتك في المدرسة. لا تخبري أحداً. إنني أقول هذا لك، لأنك ابنتي. وهذا واجبي. يجب عليّ أن أحميك. من أجل مصلحتك يا أورانيتا، هل تفهمينني؟

أجل، فلهذا أنتِ ذكية. لا تتركيه يقترب منك، أو يكلمك. إذا ما رأيته، فأسرعي إلى حيث أكون أنا. فهو لن يفعل بك شيئاً وأنت بجانبي.

لم تفهمي يا أورانيا. فأنت نقية مثل زنبقة بيضاء. بلا أي خبث بعد. تقولين لنفسك إن أباك غيور، لا يريد أن يكوْن هناك من يحنو عليك أو يقول لك إنك جميلة، إلا هو. ردة فعل السيناتور كابرال تلك تشير إلى أن رامفيس الرشيق، رامفيس الرومنطيقي، كان قد بدأ في ذلك الحين فظاعاته مع الطفلات، مع الصبايا، مع النساء، تلك الفظاعات التي تضخم سمعته، وهي سمعة يتطلع كل دومينيكاني، وضيع أو رفيع المولد، إلى التوصل إليها. أن يكون مضاجعاً عظيماً. فحلاً، ومجامعاً شرساً. وتأخذين بمعرفة ذلك شيئاً فشيئاً، في دروس وباحات مدرسة سانتو دومنغو، مدرسة البنات الراقيات، مدرسة راهبات الدومينيك الأمريكيات والكنديات، ذوات الزي الحديث، وتلميذاتهن لا يبدون مستجدات، فهن يلبسن ثياباً وردية وزرقاء وبيضاء، وجوارب سميكة وأحذية بلونين (أبيض وأسود)، مما يمنحهن مظهراً رياضياً ومعاصراً لزمنهن. ولكن، حتى هؤلاء الفتيات لسن بمنجى عندما يخرج رامفيس في جولاته، وحيداً أو مع أصدقائه، بحثاً عن إناث في الشوارع، في الحدائق، في الأندية، أو في البيوت الخاصة في إقطاعيته الكبرى التي هي جزيرة كيسكيا. كم من الدومينيكانيات غرر بهن، اختطفهن، اغتصبهن رامفيس الجميل؟ لم يكن يهدي للوطنيات سيارات كاديلاك، ولا معاطف من فرو النمس، مثلما كان يهدي لفنانات هوليود بعد أن يضاجعهن أو من أجل أن يضاجعهن. لأن الشاب الطيب رامفيس، وعلى خلاف أبيه، هو بخيل مثل أمه. فالدومينيكانيات يضاجعهن مجاناً، مقابل شرف أن يضاجعهن ولي العهد، كابتن فريق البولو الوطني الذي لا يُهزم، الجنرال الأول، وقائد سلاح الطيران.

كل ذلك رحتِ تعرفينه من خلال الوشوشات والإشاعات، من خلال تخيلات ومبالغاتٍ مختلطة بوقائع تتداولها التلميذات، من وراء ظهر الراهبات، في الفسحة بين الدروس، مصدقة وغير مصدقة، بين جذب وصد، إلى أن وقع أخيراً ذلك الزلزال في المدرسة، في مدينة تروخييو، لأن ضحية ابن أبيه المدلل في هذه المرة كانت واحدة من أجمل بنات المجتمع الدومينيكاني، ابنة كولونيل في الجيش. إنها المتألقة روساليا بيردومو، ذات الشعر الأشقر الطويل، والعينين السماويتين، والبشرة المصقولة، والتي تؤدي دوماً دور مريم العذراء عند تمثيل

آلام المسيح، فتذرف الدموع مثل أم محزونة حقيقية عندما يموت ابنها. لقد شاعت روايات كثيرة حول ما حدث. بعضها يقول إن رامفيس تعرف عليها في حفلة، إنه رآها في الكانتري كلوب، في أحد الملاهي، وأنه وضع عينه عليها في ميدان سباق الخيل، وحاصرها، اتصل بها، كتب إليها وواعدها، وفي مساء يوم الجمعة ذاك، بعد ساعة الرياضة التي تبقى خلالها روساليا في المدرسة بعد الدروس، لأنها ضمن فريق كرة الطائرة المدرسي. رأتها رفيقات كثيرات، لدى الخروج – أورانيا لا تتذكر إذا كانت قد رأتها، وليس ذلك مستحيلاً–، بأنها بدلاً من أن تصعد إلى حافلة المدرسة، ركبت في سيارة رامفيس الذي كان ينتظرها على بعد أمتار قليلة من الباب. لم يكن وحيداً. فابن أبيه المدلل لا يمضي وحيداً أبداً، فعلى الدوام يرافقه صديقان أو ثلاثة يحتفون به، يتملقونه، يخدمونه ويزدهرون على حسابه. مثل صهره، زوج أخته أنخيليتا، الملقب بيتشيتو، ومدلل آخر، الكولونيل لويس خوسيه ليون إستيفيث. أيكون معهم الأخ الأصغر كذلك؟ القبيح، الفظ، عديم الجاذبية راداميس؟ بكل تأكيد. أهم مخمورون؟ أم أنهم سيسكرون بينما هم يفعلون ما سيفعلونه بالشقراء، البيضاء كالثلج روساليا بيردومو؟ لا شك في ذلك، ولن ينتظروا إلى أن تنزف الصغيرة دمها. وعندئذ يتصرفون بشهامة. قبل ذلك يغتصبونها. ويكون من نصيب رامفيس، لكونه من يكون، أن يفض بكارة الوجبة اللذيذة. ومن بعده الآخرون. أيفعلون ذلك حسب نظام الأقدمية أو درجة القرابة؟ أم تراهم يضربون قُرعة من أجل الدور؟ كيف يفعلون ذلك يا أبي؟ وفي أوج الهجمة، يفاجئهم النزيف.

وبدلاً من أن يلقوا بها في حفرة، في الحقول، مثلما كانوا سيفعلون لو لم تكن روساليا تحمل كنية بيردومو، لو لم تكن طفلة بيضاء، شقراء، غنية ومن أسرة تروخييوية مرموقة، مثلما كانوا سيفعلون لو أنها بلا كنية معروفة، بلا مال. يتصرفون بتقدير للمكانة. يأخذونها إلى بوابة مستشفى ماريون، وهناك – أهو حسن حظ روساليا أم محنتها؟– يتمكن الأطباء من إنقاذها. وينشرون كذلك القصة. يقال إن أباها المسكين، الكولونيل بيردومو لم يسترد وعيه من حالة الذهول التي أصابته حين علم أن رامفيس تروخييو وأصدقاءه قد دنسوا بلهوٍ كرامة ابنته المعبودة، ما بين الغداء والعشاء، مثل من يقتل الوقت بمشاهدة فيلم. أما أمها فلم تطأ الشارع منذ ذلك اليوم وقد حطمها العار والألم. ولم يعد يراها أحد حتى في القداس.

- أهذا ما كنتَ تخشاه يا أبي؟ - تتابع أورانيا عيني المشلول - أكنت تخشى أن يفعل بي رامفيس وأصدقاؤه مثلما فعلوا بروساليا بيردومو؟

«إنه يفهم»، تفكر وهي تصمت. أبوها يثبت عينيه عليها؛ في عمق حدقتيه ثمة توسل صامت: اصمتي، توقفي عن حك هذه القروح، عن بعث هذه الذكريات. ليست لديها أي نية لعمل ذلك. أولم تحضري من أجل هذا إلى هذه البلاد التي أقسمتِ ألا ترجعي إليها؟

- أجل يا أبي، لا بد أنني جئت من أجل هذا - تقول ذلك بصوت خافت جداً لا تكاد تسمعه -. لقد جئتُ لأجعلك تمر بلحظة عصيبة. مع أنك أخذت احتياطاتك بهذا الشلل الدماغي. انتزعت من ذاكرتك الأمور الكريهة. هل محوت كذلك قضيتي، قضيتنا؟ أنا لم أمحها. ولا ليوم واحد. ولا يوم من هذه السنوات الخمس والثلاثين يا أبي. لم أنس أبداً، ولم أسامحك. ولهذا السبب، عندما كنت تتصل بي وأنا في جامعة سينا العليا، أو في هارفرد، كنتُ أسمع الصوت وأقفل الخط دون أن أتركك تكمل. «بنيتي، أهذه أنت...؟» تك. «أورانيتا، اسمعيني...»، تك. ولهذا السبب لم أرد مطلقاً على أي واحدة من رسائلك. هل كتبتَ لي مئة رسالة؟ مئتين؟ كنت أمزقها أو أحرقها كلها. لقد كانت رسائلك تلك شديدة النفاق. تتكلم فيها بلف ودوران، بتلميحات، خوفاً من أن تقع رسائلك في أيد غريبة، خوفاً من أن يعلم آخرون بتلك القصة. أتدري لماذا لم أستطع أن أسامحك قط؟ لأنك لم تندم قط على ذلك ندماً حقيقياً. فبعد كل تلك السنوات الطويلة في خدمة **الزعيم**، فقدتَ الوساوس، والحساسية، وأدنى قدر من الاستقامة. مثلما هم زملاؤك. وربما مثلما هي البلاد بأسرها. أكان ذلك هو المطلوب من أجل البقاء في السلطة دون أن تموتوا قرفاً؟ أن تبقوا مشرقين وسعداء مثل رامفيس الجميل بعد اغتصابه روساليا وتركها تنزف في مستشفى ماريون.

الطفلة روساليا بيردومو لم ترجع إلى المدرسة بالطبع، ولكن وجهها العذب وهي تمثل دور مريم العذراء مازال يسكن قاعات، وممرات، وأفنية مدرسة سانتو دومنغو. فالأقاويل، والوشوشات، والتخيلات التي أثارتها محنتها استمرت لأسابيع، لشهور، بالرغم من أن الراهبات منعن حتى ذكر اسم روساليا بيردومو. ولكن، في بيوت المجتمع الدومينيكاني، وحتى في بيوت أكثر الأسر تعصباً لتروخييو، كان هذا الاسم يتردد مرة بعد أخرى، كتحذير فظيع، كتنبيه مرعب،

وخصوصاً في البيوت التي فيها صغيرات وآنسات في سن الاستحقاق، وتؤجج القصة الخوف من أن رامفيس الجميل (وكان فوق ذلك متزوجاً من المطلقة أوكتافيا -تانتانا- ريكارت!) سيكتشف فجأة وجود الطفلة، وجود الفتاة، وسيقيم عليها واحدة من حفلات الوريث المدلل تلك التي ينظمها بين حين وآخر على من يشتهيها، فمن الذي سيحاسب الابن الأكبر للزعيم وحلقة أصدقائه المقربين؟

- وبسبب مسألة روساليا بيردومو أرسل زعيمك ابنه رامفيس إلى الأكاديمية العسكرية في الولايات المتحدة، أليس كذلك يا أبي؟

أرسله إلى أكاديمية فورت ليفنوورث، في كنساس سيتي، عام 1958. لكي يبقيه سنتين بعيداً عن مدينة تروخييو، حيث قصة روساليا بيردومو، كما يقال، أثارت حنق فخامته بالذات. ليس لأسباب أخلاقية، وإنما عملية. فهذا الفتى الأحمق، بدلاً من أن يتشرب شؤون الحكم ويهيئ نفسه باعتباره ابن الزعيم البكر، يقضي حياته في التهتك، في لعب البولو، في السكر مع بطانة من الكسالى والطفيليين والقيام بظرافات مثل اغتصاب والتسبب في نزف طفلة من إحدى أشد الأسر ولاء لتروخييو. فتى مغرور، سيئ التربية. فليذهب إلى أكاديمية فورت ليفينوورث، في كنساس سيتي!

ضحكة هستيرية تجمد أورانيا ويعود المشلول إلى الانطواء على نفسه، كما لو أنه يريد الاختفاء في نفسه بالذات، مرتبكاً من هذه القهقهة المفاجئة. فتضحك أورانيا حتى تمتلئ عيناها بالدموع. فتمسحهما بالمنديل.

- لقد كان الدواء أسوأ من الداء. فبدلاً من أن تكون عقوبة، تحولت رحلة رامفيس الجميل إلى فورت ليفنوورث إلى مكافأة.

لا بد أن الأمر كان مضحكاً، أليس كذلك يا أبي؟: فالضابط الدومينيكاني الصغير يصل إلى هناك لاتباع دورة للنخبة، بين مجموعة مختارة من ضباط الولايات المتحدة، فيظهر برتبة الجنرال أول، وبعشرات الأوسمة، وبحياة عسكرية طويلة على كاهله (بدأها وهو في السابعة من عمرة) مع بطانة من الضباط المساعدين، والموسيقيين، والخدم، ويخت راس في خليج سان فرانسيسكو وأسطول من السيارات. يا للمفاجأة التي يقع فيها أولئك النقباء والرواد والملازمون والرقباء والمدربون والأساتذة. فذلك العصفور التروبيكالي يصل إلى أكاديمية فورت ليفينوورث العسكرية ليتبع دورة فيها وهو يحمل من الأوسمة والألقاب ما لم يحصل عليه إيزنهاور في حياته. كيف يعاملونه؟ كيف يسمحون

له بالتمتع بتلك الامتيازات دون أن يحطوا من سمعة الأكاديمية والجيش الأمريكي؟ هل من الممكن غض النظر عن هرب الوريث أسبوعاً بعد آخر من كنساس سيتي الإسبارطية الصارمة إلى هوليود الصاخبة، حيث يقوم مع صديقه بورفيريو روبيروسا بدور البطولة في حفلات مجون مليونيرية مع فنانات مشهورات تعلق عليها بهذيان صحافة أخبار الفنانين والاشاعات؟ وقد كشفت لويللا بارسونز، أشهر صحفيات لوس أنجلوس، أن ابن تروخييو قد أهدى سيارة كاديلاك آخر موديل إلى كيم نوفاك ومعطفاً من فرو النمس إلى زازا غابور. وقدر عضو ديمقراطي في الكونغرس، في جلسة للمجلس، بأن تلك الهدايا تكلف ما يعادل المساعدة العسكرية السنوية التي تقدمها واشنطن بظرافة إلى دولة الدومينيكان، وتساءل عما إذا كانت تلك هي أفضل طريقة لمساعدة البلدان الفقيرة ومقاومة الشيوعية وإنفاق أموال الشعب الأمريكي.

كان من المستحيل تفادي الفضيحة. في الولايات المتحدة بالطبع، وليس في جمهورية الدومينيكان حيث لم تنشر ولم تُقل كلمة واحدة بشأن لهو رامفيس. أما هناك، في الولايات المتحدة، ومهما كان ما يقال، فيوجد رأي عام وصحافة حرة، والسياسيون يُسحقون إذا ما أظهروا خاصرة ضعيفة. وهكذا، وبناء على التماس الكونغرس، قُطعت المساعدة العسكرية. هل تتذكر كل ذلك يا أبي؟ وأعلمت الأكاديمية العسكرية بصورة متكتمة وزارة الخارجية الأمريكية، وهذه بدورها أعلمت **الجنراليسمو** بصورة أكثر تكتماً، بأنه ليس هناك أدنى احتمال بأن ينجح ابنه في الدورة، وحيث أن صفحة خدمته بمثل تلك الكفاءة، فمن الأفضل أن ينسحب بنفسه ليتجنب إذلال الطرد من أكاديمية فورت ليفينوورث العسكرية.

لم يرق للأب عمل مثل تلك اللعبة الخبيثة مع رامفيس المسكين، أليس كذلك يا أبي؟ فهو لم يفعل أكثر من مضاجعة إحداهن ليرى كيف يكون ردّ فعل الأمريكيين المتزمتين. وكإجراء انتقامي، أراد زعيمك طرد ممثليّ الولايات المتحدة البحري والعسكري، واستدعى السفير للاحتجاج. وكان على أصدقائه المقربين، باينو بيتشاردو، وأنت نفسك، وبالاغير، وتشيرينوس، وأرالا، ومانويل ألفونسو أن يقوموا بالمعجزات لإقناعه بأن القطيعة ستسبب أضراراً هائلة. هل تتذكر؟ المؤرخون يقولون إنك كنت أحد من حالوا دون تسمم العلاقات مع واشنطن بسبب مآثر رامفيس. لقد توصلت إلى ذلك وسطياً فقط يا أبي. فمنذ ذلك الحين، منذ تلك التصرفات المتمادية، أدركت الولايات المتحدة أن ذلك الحليف صار عقبة،

وأنه من الأفضل البحث عن شيء أحسن مظهراً. ولكن، كيف انتهى بنا المطاف إلى التحدث عن ابن زعيمك المدلل يا أبي؟

يرفع المشلول كتفيه ويخفضهما وكأنه يرد: «وما أدراني أنا، أنت تعرفين كيف». هل يفهم إذن؟ لا. أو أنه لا يفهم طوال الوقت على الأقل. النزيف الدماغي لم يقض نهائياً على كل قدراته على الفهم؛ لقد اختزلها إلى عشرة، أو خمسة بالمئة من الحد الطبيعي. هذا الدماغ المحدود، المفتقر، الذي يعمل مثل كاميرا بطيئة، هو قادر دون شك على تلقي ومعالجة المعلومة التي تلتقطها حواسه لبضع دقائق، وربما ثوان قبل أن تغيم. ولهذا السبب فإن عينيه، وجهه، إيماءاته، مثل حركة الكتفين هذه، توحي بأنه يسمع، بأنه يفهم ما يقال له. نتف قليلة فقط، في تشنجات لا إرادية، في إشراقات خاطفة، ودون مطابقة. لا تبني أوهاماً يا أورانيا. يفهم لثوان ثم ينسى ما فهمه. لن تتواصلي معه. إنك تواصلين الكلام وحيدة، مثلما تفعلين كل يوم منذ أكثر من ثلاثين سنة.

ليست حزينة ولا قانطة. ربما تحول دون ذلك الشمس التي تدخل من النوافذ وتضيء الأشياء بنور شديد الحيوية، ضوء يحيط بالأشياء ويكشف تفاصيلها، واشياً بعيوب، بزوال ألوان، بقِدَمٍ. كم هي بائسة، ومهجورة، وعتيقة الآن حجرة نوم – وبيت – أغوسطين كابرال، رئيس مجلس السيناتورات المتنفذ في زمن آخر.

كيف انتهى بكِ الأمر إلى تذكر رامفيس تروخييو؟ تفتنها على الدوام هذه المسارات الغريبة للذاكرة، الجغرافية التي تتخذها في خدمة محرضات خفية. آه، أجل، لا بد أن تذكرك له علاقة بالخبر الذي قرأته عشية خروجك من الولايات المتحدة في جريدة **النيويورك تايمز**. لقد كان ذلك المقال عن الشقيق الأصغر، عن الجلف والقبيح راداميس. يا للخبر! ويا للنهاية. فقد قام كاتب المقال بتحريات دقيقة. لقد كان راداميس يعيش منذ سنوات في بنما، في ضائقة شديدة، منغمساً في أعمال مشبوهة، لم يكن هناك من يعرف حقيقتها، إلى أن اختفى فجأة. لقد جرى الاختفاء في السنة الماضية، ولم تتوصل محاولات أقربائه والشرطة البنمية إلى العثور على أثر له (بينت عمليات التفتيش في الغرفة التي كان يعيش فيها في مدينة بالبوا أن ممتلكاته الهزيلة ما تزال هناك). إلى أن أعلن أخيراً أحد كارتيلات المخدرات الكولومبية، من بوغوتا، بالفخامة البلاغية التي تميز أثينا القارة الأمريكية، بأن «المواطن الدومينيكاني دون راداميس تروخييو مارتينث، محل إقامته مدينة بالبوا في جمهورية بنما

الشقيقة، أُعدم في مكان ما من الأدغال الكولومبية، بعد التأكد بما لا يدع مجالاً للشك من عدم نزاهته في تنفيذ واجباته». وتوضح **النيويورك تايمز** بأن راداميس الفاشل كان يكسب عيشه كما يبدو، منذ سنوات، بالعمل في خدمة المافيا الكولومبية. وقد كان عمله بائساً دون شك، نظراً للحياة المتواضعة التي كان يعيشها، فهو يعمل كخادم لزعماء المافيا، يستأجر لهم الشقق، ويأخذهم ويعيدهم من الفنادق، والمطارات، والمواخير، أو ربما يخدمهم كوسيط في تبييض الأموال. أتراه حاول اختلاس بعض الدولارات، لكي يحسن ظروف حياته؟ وبما أنه ضعيف العقل وقليل الحيلة فقد اكتشفوه على الفور. أخذوه مخطوفاً إلى أدغال دارين في كولومبيا، حيث هم السادة والمتنفذون. ربما يكونون قد عذبوه بمثل ذلك الحقد الذي عَذّبَ به هو ورامفيس وقتلا، في سنة 59، المشاركين في الغزو في كونستانثا ومايمون وإستيرو أوندو، وفي عام 1961، المتورطين في مأثرة الثلاثين من أيار.

- نهاية عادلة يا أبي - وأبوها الذي كان قد غفا، يفتح عينيه -. من يقتل بالحديد، بالحديد يُقتل. لقد تحقق ذلك في حالة راداميس، إذا كان قد مات هكذا. إذ ليس هناك شيء مؤكد. فالمقال يقول كذلك إن هناك من يؤكدون بأنه كان مخبراً لدى وكالة مكافحة المخدرات الأمريكية، وأنها غيرت ملامح وجهه ووفرت له الحماية للخدمات التي قدمها عن رجال المافيا الكولومبيين. إشاعات، تكهنات. ولكن يا لها من نهاية على كل حال تلك التي وصل إليها أبناء زعيمك والسيدة المهيبة. فرامفيس الجميل تمزق في حادث سيارة، في مدريد. وهو حادث يقول البعض، إنه كان من تدبير الـ CIA وبالاغير لقطع الطريق على الوريث الذي كان يتآمر من مدريد، مستعداً لإنفاق الملايين في سبيل استعادة الاقطاعية العائلية. وراداميس الذي تحول إلى شيطان بائس، جرى اغتياله على يد المافيا الكولومبية لأنه حاول سرقة الأموال القذرة التي كان يساعد في تبييضها، أو أنه تحول إلى عميل لوكالة مكافحة المخدرات الأمريكية. أما أنخيليتا، جلالة أنخيليتا الأولى، والتي كنتُ وصيفتها المرافقة، هل تعرف كيف تعيش؟ إنها الآن في ميامي، وقد مستها حمامة الألوهية. فهي الآن داعية لطائفة «ولادة المسيحية الجديدة». واحدة من آلاف الطوائف الانجليكانية التي تُدفع إلى الجنون، والبلاهة، والقلق، والخوف. هذا ما انتهت إليه ملكة وسيدة هذه البلاد. في بيت نظيف وسيئ الذوق، في هجانة متكلفة، غرينغية وكاريبية،

منقطعة إلى أعمال التبشير. يقال إنه يمكن رؤيتها في مفترقات ديد كنتري، في احياء اللاتينيين والهايتيين، ترتل مزامير وتحث المارة على فتح قلوبهم للرب. ما الذي كان سيقوله عن كل هذا أبو الوطن الجديد الفاضل؟

يعود المشلول إلى رفع كتفيه وخفضهما، ثم يرمش ويستكين. يغلق جفنيه ويتكور، مستعداً لأخذ غفوة.

صحيح، فأنتِ لم تشعري مطلقاً تجاه رامفيس أو راداميس أو أنخيليتا بحقد يمكن مقارنته مع ذاك الذي مازال يبعثه فيك تروخييو والسيدة المهيبة. لأن الأبناء الثلاثة، وبطريقة ما، قد دفعوا بالانحدار أو الموت العنيف ثمن ما يتحملونه من جرائم العائلة. ولم تستطيعي أن تتجنبي بعض العطف تجاه رامفيس. لماذا يا أورانيا؟ ربما بسبب أزماته النفسية، وانهياراته العصبية، ونوبات جنونه، واختلال التوازن ذاك الذي أخفته الأسرة دوماً، وبعد عمليات القتل التي أمر بها في حزيران 1959، اضطر تروخييو إلى إدخاله إلى مستشفى نفسي في بلجيكا. ففي كل أعمال رامفيس، بما في ذلك أشدها قسوة، كان ثمة شيء كاريكاتوري، مخادع، مثير للشفقة. مثلما هي تلك الهدايا الاستعراضية لممثلات هوليود اللواتي كان بورفيريو روبيروسا يضاجعهن مجاناً (إذا لم يجعلهن يدفعن له). أو لطريقته تلك في إحباط المخططات التي كان أبوه يدبرها من أجله. أولم تكن على سبيل المثال فجة تلك الطريقة التي أحبط بها رامفيس ذلك الاحتفال الذي أعده الجنراليسمو ليعوضه عن فشله في أكاديمية فورت ليفينوورث العسكرية؟ لقد جعل مجلس الشيوخ -«هل أنت من قدم مشروع القانون يا أبي؟»- يعينه قائداً لهيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة، وأن يقدم له ذلك المنصب، لدى وصوله، في عرض عسكري في الجادة الرئيسية، أسفل المسلة. كل شيء كان مرتباً، وكانت القوات مصطفة في ذلك الصباح، عندما دخل اليخت أنخيليتا، الذي أرسله الجنراليسمو لاحضاره من ميامي، إلى المرفأ على نهر أوثاما، وذهب تروخييو بنفسه، يرافقه خواكين بالاغير، لاستقباله في المرفأ واقتياده من هناك إلى منصة العرض العسكري. أي مفاجأة، وأي خيبة أمل استولت على الزعيم عندما دخل إلى اليخت واكتشف الحالة المفجعة، والعطالة التي خلّفت فيها رحلة العربدة تلك رامفيس المسكين. لقد تمكن بمشقة من الوقوف على قدميه، ولكنه كان عاجزاً عن النطق بكلمة واحدة. كان لسانه الرخو والمتثاقل يطلق زمجرات بدلاً من الكلمات. وكانت عيناه زائغتين

وزجاجيتين وثيابه ملوثة بالقيء. وأسوأ من حالته كانت حالة أصدقائه والنساء اللواتي يرافقنه. بالاغير يذكر ذلك في مذكراته: شحب لون تروخييو، وارتعش من السخط. وأمر بأن يلغى العرض العسكري وحفل قسم رامفيس كقائد لهيئة الأركان المشتركة. وقبل أن ينصرف، تناول كأساً ورفع نخباً أراده أن يكون صفعة رمزية للأبله (ولكن السكر حال دون أن يدرك ذلك): «نخب العمل، لأنه الشيء الوحيد الذي يجلب الازدهار للجمهورية».

نوبة ضحك هستيري أخرى تجمد أورانيا ويفتح المشلول عينيه مذعوراً.

- لا ترتعب - تتخذ أورانيا مظهر الجدية - لا يمكنني منع نفسي من الضحك عندما أتصور ذلك المشهد. أين كنتَ في تلك اللحظة؟ عندما اكتشف زعيمك ابنه المدلل مخموراً، محاطاً بالعاهرات والأصدقاء السكارى مثله؟ هل كنت على المنصة في الجادة، مرتدياً الفراك، بانتظار وصول القائد الجديد لهيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة؟ ما التفسير الذي قدمه الزعيم؟ هل ألغي العرض العسكري بسبب دوار رهيب أصاب الجنرال رامفيس؟

وتعود إلى الضحك تحت نظرة المشلول العميقة.

- إنها أسرة تستحق الضحك والبكاء، ولا تستحق أخذها على محمل الجد- تدمدم أورانيا- إنك تشعر أحياناً بالخجل منهم جميعاً. وبالخوف وتأنيب الضمير عندما تسمح لنفسك بذلك. أحب أن أعرف ما الذي كنتَ ستفكر فيه حول النهاية الميلودرامية لأبناء الزعيم. أو بتلك القصة الدنيئة للسنوات الأخيرة من حياة دونيا ماريا مارتينث، **السيدة المهيبة**، الرهيبة، المنتقمة، مَنْ كانت تطالب صارخة باقتلاع عيون وسلخ جلود قتلة تروخييو. هل تعرف بأنها قد انتهت ذائبة في تصلب الشرايين؟ وأن تلك الطماعة قد سحبت من وراء ظهر الزعيم ملايين وملايين الدولارات؟ وأنها كانت تملك كل الأرقام السرية للحسابات المشفرة في سويسرا، وأنها مع ذلك أخفتها عن أبنائها؟ وقد كان لديها مبرر كبير دون شك. فهي تخشى أن يسلبوا ملايينها ثم يدفنوها بعد ذلك في ملجأ للمسنين تقضي فيه آخر سنوات حياتها دون أن تزعج صبرهم. فكانت هي، بمساعدة تصليب الشرايين، من انتهت إلى الهزء منهم. لقد كنت مستعدة لتقديم أي شيء مقابل رؤية **السيدة المهيبة**، هناك في مدريد، مثقلة بالنكبات، وهي آخذة بفقدان الذاكرة. ولكنها بقيت تحتفظ، في أعماق بخلها، بما يكفي من الوعي للامتناع عن كشف أرقام الحسابات السويسرية لأبنائها. ولرؤية جهود الأبناء المساكين في

مدريد، في بيت القبيح والجلف راداميس، أو في ميامي، في بيت أنخيليتا قبل تصوفها، لجعل السيدة المهيبة تتذكر أين خربشت تلك الأرقام أو خبأتها. هل تتصور ذلك يا أبي؟ يبحثون، يفتحون، يكسرون، يهشمون بحثاً عن المخبأ. يأخذونها إلى ميامي، يعيدونها إلى مدريد. ولكنهم لم يتوصلوا إلى ذلك قط. لقد ذهبت إلى القبر مع السر! ما رأيك يا أبي! تمكن رامفيس من تبديد بعض الملايين التي أخرجها من البلاد في الشهور التي تلت موت أبيه، لأن الجنراليسمو سعى جاهداً إلى عدم إخراج قرش واحد من البلاد (هل كان ذلك صحيحاً يا ابي؟) لكي يجبر أسرته وأتباعه على الموت هنا، في المواجهة. أما أنخيليتا وراداميس فبقيا في الشارع. وماتت السيدة المهيبة – بفضل تصلب الشرايين – فقيرة أيضاً، في بنما، حيث دفنها خليل حشي، الذي حملها إلى المقبرة في سيارة تكسي. أتراها أوصت بملايين الأسرة إلى المصرفيين السويسريين! إنها أسرة تستحق البكاء أو الضحك، ولكنها لا تستحق بأي حال أن تؤخذ على محمل الجد. أليس صحيحاً يا أبي؟

تفلتُ من جديد ضحكة أخرى تجعل دموعها تسيل. وبينما هي تمسح عينيها، تناضل ضد بداية اكتئاب ينمو في داخلها. المشلول يراقبها وقد اعتاد على حضورها. لم يعد يبدو مهتماً بمنولوجها.

– لا تظنني قد أصبتُ بالهستيريا – تهمس –. لم أصب بذلك بعد يا أبي. فهذا الذي أفعله، في الشرود، ونبش الذكريات، لا أفعله مطلقاً. فهذه هي إجازتي الأولى منذ سنوات طويلة. لستُ أحب الاجازات. عندما كنتُ هنا، في طفولتي، كنتُ أحبها. ولكنني منذ استطعت الذهاب، بفضل الراهبات، إلى جامعة أدريان، لم أعد أحب الاجازات مطلقاً. لقد أمضيت حياتي في الدراسة. في البنك الدولي لم آخذ أي إجازة، وكذلك في مكتب المحاماة في نيويورك. ليس لدي وقت لأقوم بمونولوجات داخلية حول تاريخ الدومينيكان.

صحيح، فحياتكِ في منهاتن منهكة. كل ساعات يومكِ منظمة، ابتداء من الساعة التاسعة، حين تدخلين إلى مكتبك عند تقاطع ماديسو و74 ستريت. وحتى ذلك الحين تكونين قد جريت ثلاثة أرباع الساعة في السنترال بارك إذا كان الطقس جيداً، أو مارستِ الايروبيك في الفيتنز سنتر الذي تشتركين فيه عند الناصية. ويوم عملك هو متوالية من المقابلات، والتقارير، والمناقشات، والاستشارات، والتحريات في الأرشيف، ووجبات العمل في غرفة المكتب

الخلفية أو في مطعم قريب، وفترة عمل مسائية مشغولة بالطريقة نفسها، كثيراً ما تمتد حتى الساعة الثامنة. وإذا ما سمح لك الوقت، فإنك تعودين مشياً على الأقدام. فتحضِّرين سلطة وتفتحين علبة لبن قبل أن تشاهدي الأخبار في التلفزيون، ثم تقرئين قليلاً وتندسين في الفراش، وتكونين متعبة إلى حد أن كلمات الكتاب أو صور الفيديو تبدأ بالتراقص قبل انقضاء عشر دقائق. ودائماً هناك رحلة أو اثنتان في الشهر، ضمن الولايات المتحدة، أو إلى أميركا الجنوبية أو أوربا أو آسيا؛ وهناك في الفترة الأخيرة رحلات إلى أفريقيا أيضاً، حيث تجرأ بعض المستثمرين أخيراً على المجازفة بأموالهم، ولهذا يطلبون استشارات قانونية من مكتب المحاماة. وهذا هو اختصاصك: المظهر القانوني لعمليات تمويل المؤسسات في أي مكان في العالم. وهو اختصاص توجهتِ إليه بعد أن عملتِ سنوات طويلة في الإدارة القانونية للبنك الدولي. ورحلاتك متعبة أكثر من أيام العمل في المكتب في منهاتن. فأنت تقضين خمس أو عشر أو اثنتي عشرة ساعة من الطيران، إلى مكسيكو، أو بانكوك، أو طوكيو، أو روالبندي أو هراري، ثم تنتقلين فوراً لتقديم أو تلقي تقارير، ومناقشة أرقام، وتقييم مشاريع، مع تبدل في المناظر الطبيعية والمناخ، من الحر إلى البرد، من الرطوبة إلى الجفاف، ومن الإنكليزية إلى اليابانية وإلى الإسبانية وإلى الأوردو، وإلى العربية وإلى الهندية، مستفيدة من مترجمين يمكن لأخطائهم أن تؤدي إلى قرارات خاطئة. ولهذا يجب أن تبقى حواسك الخمس متيقظة طوال الوقت، في حالة تركيز تستنفدك، حتى أنك تكادين تعجزي عن كبح التثاؤبات في حفلات الاستقبال التي لا يمكنك تجنبها.

– عندما أحصل على يوم سبت أو أحد لي، أبقى سعيدة في البيت، أقرأ التاريخ الدومينيكاني – تقول ذلك ويبدو لها أن أباها يهز رأسه موافقاً –. وهو تاريخ خاص جداً في الحقيقة. ولكنه يريحني. إنها طريقتي في عدم فقدان الجذور. بالرغم من أنني عشت هناك ضعف عدد السنوات التي عشتها هنا، إلا أنني لم أتحول إلى غرينغية. إنني ما زلت أتكلم كدومينيكانية، أليس كذلك يا أبي؟

أيلمع في عيني العجوز الضيقتين بريق ساخر؟

– حسن، دومينيكانية نسبية، واحدة من هناك. ما الذي يمكن انتظاره من واحدة عاشت أكثر من ثلاثين سنة بين الغرينغيين، وتقضي أسابيع دون أن تتكلم

بالإسبانية. هل تعرف أنني كنت واثقة من أنني لن أراك مرة أخرى؟ بل إنني لم أكن أريد المجيء لحضور دفنك. لقد كان قراراً حاسماً. أعرف أنك تحب أن تعرف سبب كسري ذلك القرار. ولماذا أنا هنا. الحقيقة أنني لا أعرف السبب. لقد كان عملاً تلقائياً. لم أفكر به ملياً. طلبت إجازة لمدة أسبوع وها أنذا هنا. لا بد أنني جئت أبحث عن شيء ما. ربما عنك أنت. أتقصى كيف هي حالتك. كنت أعرف أنك في حالة سيئة، وأنه لم يعد بالإمكان التحدث معك منذ إصابتك بالنزيف الدماغي. هل تحب أن تعرف ما الذي أشعر به؟ وما شعرت به لدى عودتي إلى بيت طفولتي؟ وماذا شعرت حين رأيت الحطام الذي صرتَ إليه؟

يعير أبوها انتباهه من جديد. ينتظر بفضول أن تواصل كلامها. ما الذي تشعرين به يا أورانيا؟ المرارة؟ بعض الكآبة؟ الحزن؟ حقد من الغضب القديم؟ وتفكر: «السيئ هو أنني لا أشعر بشيء على ما أعتقد».

يرن جرس الباب الخارجي. ويظل الصوت يتردد، يتذبذب في الصباح القائظ.

الفصل الثامن

الشعر الذي يفتقده في رأسه ينمو على أذنيه، حيث تنبثق بعدوانية خصلة شديدة السواد، كتعويض فظ عن صلعة «**الدستوري سكران**». أهو أيضاً من أطلق عليه هذا اللقب قبل أن يعمده في قرارة نفسه بلقب «**القذارة الحية**»؟ **المنعم** لا يتذكر ذلك. ربما كان الأمر كذلك. لقد كان مطلق ألقاب جيد منذ شبابه. وكثير من تلك الأسماء المستعارة القاسية التي كان يختم بها الناس، تحولت إلى لحم ضحاياه وحلت محل أسمائهم. هذا ما جرى للسيناتور هنري تشيرينوس، الذي لم يكن هناك أحد في جمهورية الدومينيكان، باستثناء الصحف، يعرفه باسمه، وإنما بلقبه الكاسح وحسب: **الدستوري سكران**. كان معتاداً على مداعبة الشعر الذي يعشعش في أذنيه، ومع أن **الجنراليسمو**، المهووس بالنظافة، قد منعه من عمل ذلك أمامه، إلا أنه يفعله الآن، والأدهى من ذلك أنه يناوب بين حركة القرف هذه وواحدة أخرى: تمليس شعيرات أنفه. لقد كان متوتراً، ومتوتراً جداً. و**المنعم** يعرف سبب توتره: إنه يحمل إليه تقريراً سيئاً حول وضع أعماله التجارية. ولكن السبب في سوء الأمور ليس تشيرينوس وإنما العقوبات التي فرضتها منظمة الدول الأمريكية، والتي راحت تخنق البلاد.

- إذا ما واصلت نكش أنفك وأذنيك فسوف استدعي المساعدين وأقيدك - قال له بانزعاج - لقد منعتك من عمل هذه القذارات هنا. هل أنت سكران؟

طفر **الدستوري سكران** في مقعده، قبالة مكتب **المنعم**. وأبعد يديه عن وجهه.

- لم أشرب قطرة واحدة من الخمر- قال معتذراً باضطراب - سيادتك تعرف أنني لست شريباً نهارياً أيها **الزعيم**، وإنما غسقياً وليلياً فقط.

كان يرتدي بدلة بدت للجنراليسمو نموذجاً للذوق السيئ: لونها ما بين الرصاصي والمائل للخضرة، مع تموجات بريق متلألئة؛ ومثل كل ما يرتديه، تبدو وكأنها قد انحشرت على جسده البدين بلَبّاسة أحذية. وعلى قميصه الأبيض تتراقص بابتذال ربطة عنق مائلة إلى الزرقة عليها لطخات صفراء تبينت نظرة

المنعم الصارمة أنها بقع دهن. وفكر مستاء بأنه قد أحدث تلك البقع وهو يأكل، لأن السيناتور تشيرينوس يأكل مبتلعاً لقماً ضخمة يدسها في فمه وكأنه يخشى أن ينتزع منه جيرانه طبقه، ويمضغ بفم شبه مفتوح يخرجُ رذاذاً من الفضلات متطايراً منه.

كرر:

– أقسم لك أنه لا وجود لقطرة واحدة من الخمر في جسدي. تناولتُ قهوة صافية فقط على الفطور.

ربما كان ما يقوله صحيحاً. فلدى رؤيته يدخل المكتب قبل لحظة، مرجرجاً هيئته الفيلية ومتقدماً ببطء، متلمساً الأرض قبل أن يطأها بقدمه، ظنه سكراناً. ولكن لا؛ لابد أنه اختزن السكرات في بدنه، فحتى في اتزانه ثمة ترنحات وارتعاشات مدمن على الكحول.

– إنك منقوع في الخمر، فأنت تبدو سكراناً حتى دون أن تشرب. – قال وهو يتفحصه من أعلى إلى أسفل.

وسارع تشيرينوس إلى الاعتراف وهو يقوم بحركة مسرحية:

– صحيح. فأنا **شاعر ملعون** أيها الزعيم، مثل بودلير وروبن داريو.

له بشرة رمادية، وغبغب مزدوج، وشعر خفيف ومزيت، وعينان غائرتان وراء جفون منتفخة. أنفه مسطح منذ الحادث، كأنه أنف ملاكم، وفمه الذي بلا شفتين تقريباً يضيف ملمحاً خبيثاً إلى قبحه الفريد. لقد كان قبيحاً بصورة منفرة على الدوام، حتى أن رفاقه ظنوا عند وقوع حادث اصطدام السيارة الذي خرج منه حياً بأعجوبة، قبل عشر سنوات، بأن الجراحة التجميلية ستُحسن مظهره. ولكنها زادته سوءاً.

وبقاؤه موضع ثقة **المنعم**، وأحد أفراد الحلقة الضيقة الحميمة، مثل فيرخيليو ألفاريث بينا، أو باينو بيتشاردو، أو **مخيخ** كابرال (الذي سقط في المحنة الآن) أو خواكين بالاغير، هو دليل على أن **الزعيم**، عندما يختار معاونيه، لا ينقاد لإعجابه أو استيائه الشخصي. فعلى الرغم من القرف الذي سببه له على الدوام مظهر هنري تشيرينوس ووساخته وأساليبه، منذ بداية حكمه، إلا أنه مُنح امتياز تنفيذ تلك المهمات الحساسة التي يأتمن تروخييو عليها أناساً أكفاء، فضلاً عن كونهم موثوقين. لقد كان واحداً من أكثر أعضاء ذلك المنتدى الضيق كفاءة. فهو محام، ومتعمق في شؤون الدستور، وكان منذ شبابه المبكر، إلى جانب

أغوسطين كابرال، المحرر الأول للدستور الذي أصدره تروخييو في بدايات عهده، ولكل التعديلات التي أجريت منذ ذلك الحين على نصوص الدستور. كما أنه صاغ القوانين التنظيمية والتعليمات الأساسية، ووضع تقريباً مجمل القرارات التشريعية التي تبناها مجلس الشيوخ من أجل إضفاء الشرعية على احتياجات النظام. وليس هناك من يضاهيه في القدرة، من خلال خطب برلمانية مثقلة بالعبارات اللاتينية والاقتباسات - بالفرنسية في الغالب -، على إضفاء مسحة القوة القانونية على أشد قرارات السلطة التنفيذية تعسفاً، أو تقديم تفنيد ماحق لكل اقتراح لا يوافق عليه تروخييو. فدماغه المنظم مثل معجم قوانين، يجد على الفور حجة تقنية لإعطاء رؤية قانونية لأي قرار يتخذه تروخييو، سواء أكان حكماً صادراً عن ديوان الحسابات أو المحكمة العليا، أم قانوناً لمجلس الشيوخ. وجزء كبير من شبكة العنكبوت القانونية **للعهد** نسجتها المهارة الشيطانية لهذا «**الثرثار العظيم**» (هكذا دعاه في أحد الأيام، أمام تروخييو، السيناتور كابرال، صديقه وعدوه الحميم ضمن دائرة المقربين).

لكل هذه المزايا، كان البرلماني الأبدي هنري تشيرينوس كل ما يمكن للمرء أن يكونه طوال ثلاثين سنة من **العهد**: نائباً برلمانياً، سيناتوراً، وزير عدل، عضو المحكمة الدستورية، سفيراً مفوضاً وقائماً بالأعمال، وحاكماً للمصرف المركزي، ورئيساً لمعهد الدراسات التروخييوية، وعضو الهيئة المركزية للحزب الدومينيكاني، كما تولى منذ نحو سنتين المنصب الذي يتطلب أعلى قدر من الثقة، وهو منصب المفتش العام لسير العمل في شركات **المنعم**. وفي منصبه هذا، تتبع له وزارات الزراعة والتجارة والمالية. لماذا يسلم **المنعم** مثل هذه المسؤوليات لسكّير معروف؟ لأنه يفهم في التجارة، فضلاً عن كونه قانونياً. فقد قام بعمله على أحسن وجه حين كان حاكماً للمصرف المركزي، ووزيراً للمالية خلال بضعة شهور. ولأن **المنعم** في هذه السنوات الأخيرة، وبسبب كثرة المكايد، يحتاج في هذا المنصب إلى شخص يتمتع بالثقة المطلقة.. شخص يمكن له أن يطلع على الدسائس والنزاعات العائلية. وفي هذا المجال لا يمكن لأحد أن يكون خيراً من كرة الشحم والخمر ذاك.

كيف لم يفقد، وهو الشريب المتمادي، مهارته في الحيل القانونية، وقدرته على العمل، وربما تكون الوحيدة، مع قدرة أنسيلمو باولينو، التي يمكن للمنعم أن يقارنها بقدرته؟ فـ «**القذارة الحية**» قادر على العمل عشر ساعات أو اثنتي عشرة

ساعة دون توقف، وعلى الشرب والسكر بعد ذلك مثل قربة، ثم يكون في اليوم التالي في مكتبه في مجلس الشيوخ، أو في الوزارة أو في القصر الوطني، غضاً ومنتعشاً، يملي على كتبة الآلة الكاتبة تقاريره القانونية، أو يعرض بفصاحته المتدفقة المواضيع السياسية، والقانونية، والاقتصادية، والدستورية. أضف إلى ذلك أنه يكتب قصائد مطرزة[1] وإحتفالية، ومقالات، وكتب تاريخية، وهو أحد أمضى الأقلام التي يستخدمها تروخييو لتقطير سم صفحة «**المحاكمة العامة**» في جريدة **الكاريبي**.

- كيف تسير الأمور؟

- سيئة أيها الزعيم - أخذ السيناتور تشيرينوس نفساً:- وإذا ما بقيت الأحوال على هذا المنوال، فسوف تدخل في مرحلة الاحتضار عما قريب. يؤسفني أن أقول ذلك، ولكن سيادتك لا تدفع لي كي أخدعك. إذا لم تُرفع العقوبات قريباً، فسوف تحل كارثة.

فتح حقيبته المنتفخة وأخرج حزماً من الأوراق والدفاتر الصغيرة، وبادر إلى تقديم تحليل لوضع الشركات الأساسية، بادئاً بمزارع شركة السكر الدومينيكانية، تليها الخطوط الجوية الدومينيكانية، وشركة الاسمنت، وشركات الأخشاب والمناشر، ومكاتب الاستيراد والتصدير والمحلات التجارية. وكانت موسيقى الأسماء والأرقام تهدهد **الجنراليسمو** الذي لم يكن يكاد يسمع: أطلس للتجارة، كاريبيان موتورز، شركة التبغ المغفلة، اتحاد مؤسسات القطن الدومينيكانية، شركة صناعة الشوكولاته، الشركة الدومينيكانية لصناعة الأحذية، شركة توزيع الملح بالجملة، مصنع الزيوت النباتية، مصنع الإسمنت الدومينيكاني، مصنع الأسطوانات الدومينيكاني، مصنع البطاريات الدومينيكاني،مصنع الأكياس والحبال، مصنع ريآد للخردوات، شركة المعدات البحرية، شركة الصناعات الدومينيكانية السويسرية، مؤسسة تصنيع الحليب، مؤسسة آلتاغراثيا لتصنيع الخمر، المؤسسة الوطنية لصناعة الزجاج، المؤسسة الوطنية لصناعة الورق، المطاحن الدومينيكانية، مؤسسة الدهانات الدومينيكانية، مصنع إعادة تصنيع المطاط، كيسكيا موتورز، معمل تكرير الملح، الدومينكانية

---

[1] المطرزات acrosticos: نمط من النظم الشعري، إذا قُرئ الحرف الأول من كل بيت من أبيات القصيدة شكّل اسم الممدوح أو عبارة تتملقه.

للمنسوجات والألبسة، شركة سان رافائيل للتأمين، المؤسسة العقارية، صحيفة الكاريبي. وترك القذارة الحية حتى النهاية المؤسسات التجارية التي تملك فيها أسرة تروخييو مشاركة صغيرة، وقال إنه لا تكاد توجد فيها «حركة إيجابية» أيضاً. ولكنه لم يقل شيئاً لا يعرفه المنعم: فما هو غير مشلول من الشركات بسبب نقص في المواد أو قطع الغيار، يعمل بثُلث أو حتى بعُشر طاقته. لقد حلت الكارثة عملياً، وبأي حال. ولكن الغرينغيين لم يحققوا ما ظنوا أنه سيكون الضربة القاصمة - وتنهد المنعم - وذلك بوقف تموينه بالنفط، وكذلك بقطع غيار السيارات والطائرات. ولكن جوني أبيس غارسيا تدبر الأمر لكي تصل المحروقات من هايتي، باجتياز الحدود تهريباً. لقد كانت زيادة السعر باهظة، ولكن المستهلك لا يدفعها، فالنظام يتحمل هذه الفروقات. ولكن الدولة لن تستطيع تحمل هذا النزيف لوقت طويل. فالحياة الاقتصادية أصابها الركود بسبب التقييد على العملة الصعبة وشلل عمليات التصدير والاستيراد.

- ليس هناك عملياً أية أرباح ولو في شركة واحدة من الشركات أيها الزعيم. لا يوجد إلا نفقات. ولأن الشركات كانت مزدهرة، فإنها استطاعت البقاء على قيد الحياة. ولكن ليس إلى أجل غير نهائي.

زفر بحركة تمثيلية، مثلما يفعل عندما يلقي خطاباته التأبينية، وهي من اختصاصاته الكبرى أيضاً.

- أُذكّر سيادتك بأنه لم يجر تسريح أي عامل أو فلاح أو موظف، بالرغم من أن الحرب الاقتصادية مستمرة منذ أكثر من سنة. فهذه الشركات توفر ستين بالمئة من فرص العمل في البلاد. لاحظ خطورة الوضع. فتروخييو لا يمكنه أن يواصل إعالة ثلثي الأسر الدومينيكانية بينما كل الأعمال مشلولة بسبب الحصار. ولهذا لا بد من...

- لا بد من...

- إما أن تفوضني بتقليص عدد العاملين، بهدف تخفيض النفقات، بانتظار أوقات أفضل...

فقاطعه تروخييو بحزم:

- أتريد انفجاراً يقوم به آلاف العاطلين عن العمل؟ أتريد إضافة مشكلة اجتماعية إلى مشاكلنا؟

- هناك خيار آخر، وهو خيار جرى اللجوء إليه في ظروف استثنائية - ردّ

السيناتور تشيرينوس بابتسامة ميفستوفيلسية - أوليست هذه الظروف هي استثنائية أيضاً؟ حسن إذن. فلتتولَ الدولة قيادة الشركات الاستراتيجية .من أجل ضمان العمالة والنشاط الاقتصادي. فلتؤمم الدولة مثلاً، ثلث الشركات الصناعية ونصف الزراعية والرعوية. ما زالت هناك أرصدة تكفي لذلك في المصرف المركزي.

- وأي لعنة سأكسب من ذلك. - قاطعه تروخييو غاضباً- ماذا سأكسب من انتقال الدولارات من المصرف المركزي إلى حساب باسمي.

- ما ستكسبه ابتداء من الآن هو أن العجز الذي يعنيه وجود ثلاثمئة شركة تعمل بخسارة، لن تتحمله من جيبك الخاص أيها الزعيم. وأكرر لكم، إذا ما استمرت الأمور على هذا المنوال، فإن كل الشركات ستقع في الإفلاس. نصيحتي هذه تقنية. فالطريقة الوحيدة لتجنب تبخر ثروتكم بسبب الحصار الاقتصادي هي في تحويل الخسارة إلى الدولة. فليس هناك من يرضيه أن يحل بكم الإفلاس أيها الزعيم.

داهم تروخييو إحساس بالتعب. كان الحر الذي تسببه الشمس يزداد أكثر فأكثر، ومثل كل الزائرين الذين يأتون إلى مكتبه، كان السيناتور تشيرينوس قد بدأ يتعرق. وبين لحظة وأخرى كان يمسح وجهه بمنديل باهت الزرقة. فهو يتمنى أيضاً أن يركّب الجنراليسمو جهازاً لتكييف الهواء. ولكن تروخييو يكره ذلك الهواء الاصطناعي الذي يسبب الزكام، ذلك الجو الكاذب. ولا يتحمل إلا المروحة، في بعض الأيام المغالية في قيظها. أضف إلى ذلك أنه فخور بكونه الرجل - الذي - لا - يتعرق - مطلقاً.

بقي صامتاً يفكر للحظة، ثم اربد وجهه.

- أنت أيضاً تفكر في أعماق عقلك الخنزير، بأنني أحتكر المزارع والأعمال التجارية سعياً للربح - قال محدثاً نفسه بنبرة متعبة - لا تقاطعني. إذا كنت أنت لم تتوصل إلى معرفتي، بعد كل هذه السنوات الطويلة إلى جانبي، فماذا يمكنني أن أنتظر من البقية. ممن يظنون أنني أهتم بالسلطة من أجل الإثراء.

- أعرفُ جيداً أن الأمر ليس كذلك أيها الزعيم.

- أتريدني أن أشرح لك الأمر للمرة المئة: لو لم تكن هذه الشركات لآل تروخييو، لما وُجدت كل فرص العمل المتوفرة هذه. ولكانت جمهورية الدومينيكان ذلك البلد شبه الأفريقي الذي ألقيته على كاهلي. ألم تلاحظ ذلك بعد.

- لقد لاحظت ذلك تماماً أيها الزعيم.

- هل تسرقني أنت؟

طفر تشيرينوس مرة أخرى في مقعده وتحول لون وجهه الرمادي إلى الأسود. كان يرمش فَزِعاً:

- ماذا تقول أيها الزعيم؟ الله شاهد...

- أعرفُ أنك لا تفعل.- طمأنه تروخييو- ولماذا لا تسرق، على الرغم من قدرتك على الحل والربط؟ هل السبب هو الولاء؟ ربما. ولكن السبب الحقيقي قبل كل شيء هو الخوف. فأنت تعرف أنك إذا ما سرقتني واكتشفتُ ذلك، فإنني سوف أسلمك إلى جوني أبيس، وسيأخذك إلى «الأربعين»، وسيُجلسك على العرش ويُفحمك، قبل أن يلقي بك إلى أسماك القرش. هذه الأمور التي تروق لمخيلة رئيس الاستخبارات العسكرية المحمومة والجهاز الذي شكله. لهذا السبب لاتسرقني. ولهذا السبب لايسرقني كذلك الوكلاء، والمديرون، والمحاسبون، والمهندسون، والبيطريون، ومراقبو العمال، إلى آخره، إلى آخره، في الشركات التي تشرفُ عليها. ولهذا السبب يعملون بدقة وبفعالية، ولهذا السبب ازدهرت الشركات وتضاعفت، وحولت جمهورية الدومينيكان إلى بلد حديث ومزدهر. هل فهمت.

- بالطبع أيها الزعيم - انكمش الدستوري سكران مرة أخرى - معك كامل الحق.

- ولكنك بالمقابل - واصل تروخييو وكأنه لم يسمعه - كنت ستسرق كل ما تستطيعه لو أن العمل الذي تقوم به لأسرة تروخييو هو لآل فيشيني، أو لآل فالديث، أو لآل آرمينتيروس. وأكثر من ذلك بكثير إذا ما كانت الشركات مملوكة للدولة. ففي هذه الحالة ستملأ جيوبك تماماً. هل يفهم الآن دماغك سبب امتلاكي كل هذه الأعمال التجارية والأراضي والمواشي؟

- إنها من أجل خدمة البلاد، أعرف ذلك جيداً يا صاحب الفخامة - أقسم السيناتور تشيرينوس. كان مذعوراً، وكان بإمكان تروخييو أن يلحظ ذلك من القوة التي يشد بها حقيبة الوثائق إلى بطنه، ومن طريقته في التكلم إليه التي تزداد مداهنة - لم أحاول الإيحاء بأي شيء عكس ذلك أيها الزعيم. أعوذ بالله.

- ولكن الصحيح هو أن آل تروخييو ليسوا جميعهم مثلي. - خفف المنعم

التوتر بتكشيرة تشير إلى خيبة الأمل - فليس لدى اخوتي، ولا زوجتي، ولا أولادي مثل هذا الولع بالوطن. إنهم جشعون. وأسوأ ما هنالك هو أنهم يجعلونني أضيع الوقت، في مراقبتهم لكي لا يتجاوزون أوامري.

اتخذ النظرة المحاربة والمباشرة التي يخيف بها الناس. فانكمش القذارة الحية في مقعده.

- آه، أرى أن أحدهم لم ينصع لأوامري. - دمدم الجنراليسمو.

فهز السيناتور هنري تشيرينوس رأسه موافقاً دون أن يجرؤ على الكلام.

- هل حاولوا إخراج عملة صعبة من البلاد من جديد؟ - سأله مبرداً صوته - من فعل ذلك؟ أهي العجوز؟

وعاد الوجه المترهل المغطى بالعرق يهتز موافقاً من جديد، وكأنه يفعل ذلك رغماً عنه. ثم تردد وخفض صوته حتى كاد يُخمده:

- لقد استدعتني جانباً الليلة الماضية، أثناء سهرة الشعر. وقالت إنها تفكر بك، وليس بنفسها أو بأبنائها. من أجل أن تضمن لك شيخوخة هادئة إذا ما حدث شيء. أنا واثق من أنها صادقة أيها الزعيم. إنها تعبدك.

- وماذا تريد.

- إنها تريدُ تحويلاً آخر إلى سويسرا. - كان السيناتور يختنق - مليون واحد فقط هذه المرة.

فقال تروخييو بجفاء:

- آمل ألا تلبي رغبتها، من أجل خيرك.

- لم أفعل ذلك. - تلعثم تشيرينوس وهو ما يزال في القلق الذي يشوه كلماته، وجسده يعاني من رعشة خفيفة، ثم أضاف: - فحيث يأمر قائد لا يأمر جندي. وبالرغم من كل الاحترام الذي تستحقه دونيا ماريا، إلا أن ولائي الأول هو لسيادتك. هذا الوضع حساس جداً بالنسبة لي أيها الزعيم. فبسبب تكرر الرفض، بدأت أفقد صداقة دونيا ماريا. إنها المرة الثانية التي أرفض فيها ما تطلبه مني.

هل تخشى السيدة المهيبة أيضاً من انهيار النظام؟ إنها تلح منذ أربعة أشهر على تشيرينوس من أجل تحويل خمسة ملايين دولار إلى سويسرا؛ وهي تطالب الآن بمليون واحد. إنها تفكر إذن بأنها قد تضطر في أي لحظة إلى الخروج

هاربة، وأنه لا بد لها من امتلاك حسابات متخمة في الخارج، لكي تستمتع بمنفى ذهبي. مثل بيريث خيمينث، أو باتيستا، أو روخاس بينيّا، أو بيرون، أولئك القمامة. يا للعجوز الجشعة. وكأنها لا تملك ما يكفي لضمان مؤخرتها. ليس هناك ما يُشبعها. لقد كانت طماعة منذ شبابها، ومع السنوات ازدادت أكثر فأكثر. هل ستأخذ معها هذه الحسابات إلى العالم الآخر؟ إنه الأمر الوحيد الذي تحدّت فيه على الدوام سلطة زوجها. وفعلت ذلك في هذا الأسبوع مرتين. إنها تتآمر من وراء ظهره لا أكثر ولا أقل. هكذا اشترت، دون أن يعلم تروخييو، ذلك البيت في إسبانيا، بعد زيارتهما الرسمية لفرانكو عام 1954. وهكذا راحت تفتح وتغلق حسابات سرية في سويسرا وفي نيويورك، والتي علم هو بها أخيراً، بالصدفة أحياناً. لم يكن يهتم بذلك كثيراً من قبل، وكان يكتفي بتوجيه لعنتين إليها، ثم يهز كتفيه بعد ذلك حيال نزوة زوجته العجوز منقطعة الحيض، والتي يتوجب عليه احترامها لأنها زوجته الشرعية. أما الآن، فالوضع مختلف. لقد أصدر أوامر حاسمة بمنع أي دومينيكاني، بمن في ذلك أسرة تروخييو، من إخراج بيزو واحد من البلاد ما دامت العقوبات قائمة. لن يسمح بحدوث سباق فئران لمحاولة الهروب من السفينة التي سينتهي بها الأمر إلى الغرق فعلاً إذا ما سعى كل بحارتها، بدءاً من الضباط والقبطان، إلى الهرب. اللعنة، لا. فهنا يجب أن يبقى الأقارب، والأصدقاء، والأعداء، مع كل ممتلكاتهم، لخوض المعركة أو لترك عظامهم في ساحة الشرف. مثلما يفعل المارينز، يا للعنة. يا للعجوز النذلة المحطمة! كم كان من الأفضل تطليقها والزواج من إحدى النساء الرائعات اللواتي مررن بين ذراعيه؛ مثل الجميلة والمنقادة لينا لوفاتون التي ضحى بها كذلك من أجل هذه البلاد الجاحدة. يجب عليه أن يوبخ السيدة المهيبة هذا المساء ويذكرها بأن رافائيل ليونيداس تروخييو مولينا ليس باتيستا، ولا الخنزير بيريث خيمينث، ولا الرعديد روخاس بينيّا، ولا الجنرال بيرون المصمغ. فهو لن يقضي سنواته الأخيرة كرجل دولة متقاعد في الخارج. سيعيش حتى اللحظة الأخيرة في هذه البلاد التي لم تعد، بفضله، مجرد قبيلة، مجرد شرذمة، مجرد كاريكاتير، وتحولت إلى جمهورية.

انتبه إلى أن الدستوري سكران ما زال يرتجف. لقد تشكل بعض الزبد في فمه. وكانت عيناه، وراء كتلتي شحم جفونه، تتفتحان وتنغلقان بهستيرية.

– هناك شيء آخر إذن، ما هو؟

- لقد أخبرتك في الأسبوع الماضي بأننا استطعنا الحيلولة دون أن يجمدوا الدفعة المستحقة من شركة اللويدز اللندنية مقابل كمية السكر المبيعة لبريطانية العظمى والبلدان المنخفضة. مبلغ زهيد. حوالى سبعة ملايين دولار، أربعة منها من نصيب شركاتك، والبقية لمعاصر قصب آل فيشيني ومصنع سكر رومانا. ووفق تعليماتكم، طلبتُ من شركة لويدز أن تحول المبلغ إلى المصرف المركزي. وصباح اليوم أخبروني من الشركة بأنهم قد تلقوا أمراً معاكساً.

- ممن؟

- من الجنرال رامفيس أيها **الزعيم**. لقد أبرق إليهم طالباً تحويل مبلغ الدين كله إلى باريس.

- وهل اللويدز اللندنية مملوءة بآكلي البراز الذين يطيعون أوامر معاكسة من رامفيس؟

كان **الجنراليسمو** يتكلم ببطء، باذلاً جهده كيلا ينفجر. هذه الحماقة التافهة ستأخذ الكثير من وقته. أضف إلى ذلك أنه يشعر بالألم من انكشاف عيوب أسرته أمام الغرباء، حتى ولو كانوا محط ثقته.

- لم ينفذوا بعد طلب الجنرال رامفيس أيها **الزعيم**. إنهم حائرون، ولهذا اتصلوا بي. وقد أكدت لهم بأنه يجب إرسال المبلغ إلى المصرف المركزي. ولكن، بما أن الجنرال رامفيس يتمتع بصلاحيات ممنوحة من سيادتك، وقد سحب في مناسبات أخرى أرصدة، فسيكون من المناسب إطلاع اللويدز على وجود سوء تفاهم. من أجل الحفاظ على المظاهر أيها **الزعيم**.

- اتصل به وقل له أن يعتذر من اللويدز. اليوم بالذات.

تململ تشيرينوس في مقعده بقلق. وقال متلعثماً:

- ما دمت سيادتك تأمرني بذلك، فسوف أفعل. ولكن اسمح لي برجاء أيها **الزعيم**. من صديقك القديم. من أكثر خادميك ولاء. لقد أكسبتني عداوة دونيا ماريا. فلا تحولني كذلك إلى عدو لابنكم البكر.

الضيق الذي يشعر به كان جلياً إلى حد دفع تروخييو إلى الابتسام.

- اتصل به، لا تخشَ شيئاً. فأنا لن أموت قريباً. سأعيش عشر سنوات أخرى، لكي أنجز مهمتي. هذا هو الوقت الذي أحتاجه. وأنت ستبقى معي حتى اليوم الأخير. لأنك أحد أفضل معاونيّ، بالرغم من قبحك وسكرك وقذارتك- توقف عن الكلام، وبينما هو ينظر إلى القذارة الحية بالحنان الذي ينظر به

متسول إلى كلبه الأجرب، أضاف شيئاً غير مألوف خروجه من فمه:- ليت أحد اخوتي أو أبنائي يساوي ما تساويه يا هنري.

لم يعرف السيناتور المزنوق كيف يرد. ثم تلعثم وهو يخفض رأسه:

- ما قلته يعوضني عن كل أرقي وسهري.

وواصل تروخييو:

- لقد كنتَ محظوظاً بعدم زواجك، وبعدم امتلاكك أسرة. لا بد أنك ظننت في مرات كثيرة أن عدم إنجاب ذرية هو نكبة. يا للبلاهة! لقد كان خطأ حياتي هو أسرتي. اخوتي، زوجتي، أبنائي. هل رأيت مصائب مثل هذه؟ لا أفق لهم أبعد من الخمر والمال والمضاجعة. هل هناك واحد بينهم قادر على مواصلة مهمتي؟ أليس من المخجل أن يكون رامفيس ورادامیس في هذه اللحظات في باريس يلعبان البولو بدل أن يكونا هنا، إلى جانبي؟

كان تشيرينوس يصغي وهو يغضي عينيه، جامداً دون حراك، وجهه رصين، متضامن، دون أن ينطق بكلمة، خائفاً دون شك من تعريض مستقبله للشبهات إذا ما تفوه برأي ضد ابني الزعيم أو اخوته. وكان مستغرباً استسلام **الزعيم** إلى تأملات بتلك المرارة: فهو لا يتكلم مطلقاً عن أسرته حتى إلى المقربين منه، وخصوصاً بمثل تلك الكلمات القاسية.

- الأمر الذي أصدرته ما زال سارياً - قال مبدلاً نبرة صوته مع تبديل الموضوع في الوقت نفسه - لا أحد، وخصوصاً أي واحد من آل تروخييو، يمكنه إخراج أموال من البلاد طالما بقيت العقوبات قائمة.

- مفهوم أيها **الزعيم**. والحقيقة أنهم لن يستطيعوا حتى لو أرادوا ذلك. اللهم إلا إذا حملوا دولاراتهم في حقائب يدوية. فليس هناك تبادل تحويلات مع الخارج. العمليات المالية وصلت إلى نقطة الموات. السياحة اختفت. الاحتياطيات تتناقص يومياً. هل تستبعد سيادتك خطة تولي الدولة مسؤولية الشركات؟ حتى تلك التي في أسوأ حال؟

- سنرى - تراجع تروخييو قليلاً- اترك لي اقتراحك، سأدرسه. ماذا لديك أيضاً، على أن يكون مستعجلاً؟

استشار السيناتور دفتر ملاحظاته، مقرباً إياه من عينيه. واتخذ مظهراً تراجيكوميدياً.

- ثمة وضع شاذ هناك في الولايات المتحدة. ماذا نفعل بالأصدقاء

المزعومين؟ أعضاء الكونغرس، السياسيين، اللوبيين الذين يتلقون مكافآت منا لكي يدافعوا عن بلادنا. لقد واصل مانويل ألفونسو الدفع لهم إلى أن أصابه المرض. ومنذ ذلك الحين توقف الدفع. وقد قام بعضهم بالمطالبة خفية.

- من الذي طلب وقفها؟

- لا أحد أيها **الزعيم**. إنه مجرد سؤال. فأرصدة العملة الصعبة المخصصة لهذا البند، في نيويورك، آخذة بالنضوب أيضاً. لم يكن بالإمكان تعويضها، بسبب هذه الظروف. إنها عدة ملايين في الشهر. هل ستبقى سخياً مع أولئك الأمريكيين العاجزين عن مساعدتنا في رفع العقوبات؟

- لقد كنت أعرف على الدوام إنهم مجرد علق - قام الجنراليسمو بإيماءة ازدراء - ولكنهم في الوقت نفسه أملنا الوحيد. فإذا ما تغير الوضع في الولايات المتحدة، يمكنهم أن يشعروا بنفوذهم وتأثيرهم، وقد ينهضون ويخففون من العقوبات. ويمكن لهم أن يسعوا على المدى القريب إلى جعل واشنطن تدفع لنا على الأقل ثمن السكر الذي تلقته.

لم يكن يبدو على تشيرينوس أنه يأمل بذلك. رفع رأسه بكدر.

- حتى لو وافقت الولايات المتحدة على دفع ثمن ما تلقته، فستكون الفائدة ضئيلة أيها **الزعيم**. ما الذي يعنيه مبلغ اثنين وعشرين مليون دولار؟ إنها عملة صعبة لتوفير وسائل الإنتاج الأساسية ولاستيراد الاحتياجات الضرورية لبضعة أسابيع. ولكن إذا قررت سيادتك ذلك، فسوف أبعث إلى القنصلين ميركادو ومواليس ليجددا الدفع لأولئك الطفيليين. وبالمناسبة أيها **الزعيم**. يمكن أن يجري تجميد الأرصدة في نيويورك. هذا إذا ما نجح مشروع أولئك الأعضاء الثلاثة في الحزب الديمقراطي الأمريكي لتجميد حسابات الدومينيكانيين غير المقيمين في الولايات المتحدة. أعرف أن الأرصدة موجودة في مصرفي تشيس منهاتن وكيميكال بنك كحسابات سرية. ولكن، ماذا لو لم يحترم هذان المصرفان الأسرار المصرفية؟ إنني أسمح لنفسي بأن أقترح عليك نقل تلك الحسابات إلى بلدان مضمونة. مثل كندا أو سويسرا.

أحس **الجنراليسمو** بخواء في معدته. لم يكن الغضب هو الذي يسبب له الحموضة، وإنما خيبة الأمل. فهو لم يضيع الوقت طوال حياته قط في لعق الجراح، ولكنه يحس بخيبة الأمل مما يحدث له مع الولايات المتحدة، البلاد التي منحتها بلاده على الدوام صوتها في الأمم المتحدة مهما كانت القضية، ثم انقلبت

الآن عليه. ما الذي استفاده من استقبال كل أمريكي يطأ أرض الجزيرة ومنحه أوسمه؟ دمدم:

- من الصعب فهم الغرينغيين. لا أكاد أصدق أنهم يتصرفون معي على هذا النحو.

- لم أكن أثق بهؤلاء الأفظاظ مطلقاً- قال **القذارة الحية** كأنه الصدى- إنهم متشابهون جميعهم. بل لا يمكن القول إن إيزنهاور هو سبب كل هذا الحصار. فكيندي يعادينا بالطريقة نفسها.

استعاد تروخييو اتزانه -«إلى العمل، اللعنة»- وبدّل موضوع الحديث مرة أخرى قائلاً:

- لدى أبيس غارسيا خطتان جاهزتان لإخراج المطران النذل ريللي من مخبئه بين أذيال تنانير الراهبات. لديه اقتراحان. إما إبعاده أو جعل الشعب يشنقه لتأديب الكهنة المتآمرين. أي الخطتين تروقك أكثر؟

- ولا واحدة أيها الزعيم - استعاد السيناتور تشيرينون ثقته بنفسه - سيادتك تعرف رأيي. لا بد من تهدئة هذا الخلاف. فالكنيسة التي تحمل ألفي سنة على كاهلها، لم يهزمها أحد. وانظر سيادتك ما جرى لبيرون، لأنه واجهها.

واعترف تروخييو:

- هذا ما قاله لي بيرون نفسه، وكان جالساً حيث تجلس أنت. هل هذه نصيحة؟ أتريدني أن أُنزل سروالي لهؤلاء الأنذال؟

- أن تُفسدهم بالمنح الكنسية أيها الزعيم - أوضح **الدستوري سكران** - أو أن تعمد في أسوأ الحالات إلى تخويفهم، ولكن دون الوصول إلى أعمال لا يمكن إصلاحها، وترك الأبواب مفتوحة للمصالحة. أما خطة جوني أبيس فستكون انتحاراً، لأن كيندي سيرسل إلينا المارينز على الفور. هذا هو رأيي. سيادتك ستتخذ القرار، وسيكون صائباً. وسأدافع عنه بقلمي وكلمتي. كما هي العادة.

الفلتات الشاعرية التي ينزع إليها **القذارة الحية** كانت تُمتع **المنعم**. لقد توصل هذا الأخير إلى انتزاعه من حالة الخمود التي بدأت تسيطر عليه.

- أعرف ذلك - ابتسم له - أنت مخلص ولهذا السبب أقدرك. قل لي بصراحة، كم تملك في الخارج تحسباً لاضطرارك إلى الهروب من هنا بين ليلة وضحاها؟

وعاد السيناتور إلى الارتعاش للمرة الثالثة، كما لو أن كرسيه قد تحول إلى بغل جامح.

- قليل جداً أيها الزعيم. حسن، أعني نسبياً.

- كم؟ - ألح تروخييو بمودة - وأين؟

- حوالي أربعمئة الف دولار - اعترف بسرعة وهو يخفض رأسه - في حسابين منفصلين. في بنما. وقد فتحتهما قبل فرض العقوبات بالطبع.

- مجرد قمامة - وبخه تروخييو - كان يمكنك أن توفر أكثر من هذا بعد كل المناصب التي شغلتها.

- أنا لستُ مقتصداً أيها الزعيم. ثم إن سيادتك تعرف، فأنا لم أعبأ بالمال قط. وقد كان لدي على الدوام ما يكفي لكي أعيش.

- أنت تعني «لكي تشرب».

- لكي ألبس جيداً، وآكل جيداً وأشتري الكتب التي تروقني - قال السيناتور وهو ينظر إلى الزخارف المنقوشة ومصباح المكتب الكريستالي - والحمد لله أنني أنجزت أعمالاً مهمة على الدوام وأنا إلى جانبك. هل علي أن أعيد ذلك المبلغ إلى الوطن؟ سأفعل ذلك اليوم بالذات إذا ما أمرتني.

- دعه هناك. وإذا ما احتجتُ في منفاي إلى مساعدة، فسوف تساعدني.

ضحك بمزاج رائق. ولكن، بينما هو يضحك، عادت إليه فجأة ذكرى تلك الفتاة الوجلة في بيت كاوبا، إنها شاهد غير مريح، شاهد اتهام أفسد حماسه. أكان من الأفضل لو أنه أطلق عليها رصاصة، أو أهداها إلى الحراس لكي يضربوا عليها قرعة أو يتناوبوا عليها. ذكرى وجهها الأبله الذي رآه وهو يتألم تصل إلى أعماق روحه.

- من هو الأكثر حيطة؟ - قال موارياً تشوشه - من الذي أخرج أموالاً أكثر إلى الخارج؟ باينو بيتشاردو؟ أم ألفاريث بينا؟ أم مخيخ كابرال؟ أم موديستو دياث؟ أم بالاغير؟ من منهم جمع ثروة أكبر؟ لأن أياً منكم لم يصدق بأنني لن أخرج من هنا إلا إلى المقبرة.

- لا أعرف أيها الزعيم. ولكن إذا ما سمحت لي، فإنني أشك في أن يكون لدى أي واحد منهم أموالاً كثيرة في الخارج. فليس هناك من فكر يوماً بأنه يمكن للنظام أن ينتهي، ويمكن لنا أن نجد أنفسنا متعجلين للهرب. ومن الذي يمكن له أن يفكر بأن الأرض قد تتوقف يوماً عن الدوران حول الشمس؟

- أنت - ردّ تروخييو بتهكم - ولهذا السبب أخرجتَ أموالك القليلة إلى بنما، مقدراً أنني لن أكون أبدياً، وأنه يمكن لإحدى المؤامرات أن تنجح. لقد كشفت نفسك بنفسك أيها الغبي.

احتج تشيرينوس محتقناً:

- سأعيد مدخراتي إلى الوطن هذا المساء بالذات. وسأعرض عليك استمارات المصرف المركزي التي تبين إدخال تلك النقود. إنها مدخرات موجودة في بنما منذ زمن. المهمات الدبلوماسية كانت تتيح لي توفير بعض النقود. لكي تكون تحت تصرفي بعض العملة الصعبة في الرحلات التي أقوم بها في خدمتك أيها الزعيم. فأنا لم أبالغ قط في نفقات التمثيل في الخارج.

- لقد ارتعبت، إنك تفكر بأنه قد يحدث لك ما حدث لمخيخ - واصل تروخييو مبتسماً- إنني أمزح معك. ها قد نسيتُ السر الذي اعترفتَ لي به. هيا، تعال هنا، أخبرني ببعض الأقاويل الشائعة قبل أن تنصرف. إشاعات المخادع، وليس السياسة.

ابتسم القذارة الحية مطمئناً. ولكنه ما إن بدأ بالحديث عن أن الطرفة الشائعة في مدينة تروخييو حالياً، هي الضرب الذي وجهه القنصل الألماني لزوجته، معتقداً بأنها تخونه، حتى سها المنعم عنه. كم من الأموال سحب من البلاد معاونوه المقربون؟ فإذا كان الدستوري سكران قد فعل ذلك، فلا بد أن يكون الجميع قد فعلوه أيضاً. أتكون أربعمئة ألف فقط تلك الدولارات التي يملكها كاحتياط؟ لا بد أنه يملك أكثر. لا بد أن يكون المبلغ أكبر بالتأكيد. وجميعهم، في أشد أركان أرواحهم صداً، حسبوا كذلك أن النظام سيسقط. ياه، قمامة. لقد قدسوه طوال ثلاثين سنة، صفقوا له، ألّهوه، ولكنهم عند أول تبدل في الرياح سيستلون خناجرهم.

سأل فجأة:

- من الذي ابتدع شعار الحزب الدومينيكاني مستخدماً الحروف الأولى من اسمي؟ استقامة، حرية، عمل، أخلاق. أهو أنت أم مخيخ؟

- خادمك أيها الزعيم - هتف السيناتور تشيرينوس بفخر - كان ذلك في الذكرى العاشرة. وقد تأصل الشعار، فهو ما يزال حاضراً بعد عشرين سنة في كل شوارع وساحات البلاد. وفي الغالبية الساحقة من البيوت.

فقال تروخييو:

– يجب أن يكون في ضمائر وذاكرة الدومينيكانيين. فهذه الكلمات الأربع تلخص كل ما أعطيتهم إياه.

وفي هذه اللحظة، مثل ضربة هراوة على الرأس، فاجأه الشك. اليقين. لقد حدث ذلك. ودون أن يعير اهتماماً لعبارات المديح للعهد التي انغمس فيها تشيرينون، خفض رأسه مواراة، وكأنه يريد التركيز على فكرة، ودقق بصره، وتفحص بجزع. تراخت عظامه. إنها هناك: اللطخة القاتمة تمتد عند فتحة سرواله وتغطي جزءاً من ساقه اليسرى. لا بد أنها حديثة، فهو ما يزال مبللاً، بل إن مثانته مازالت تسيل حتى هذه اللحظة. لم يشعر بذلك، لم يكن يشعر به. هزته عصفة غضب. يمكنه أن يتحكم بالرجال ويروضهم، وأن يجعل ثلاثة ملايين دومينيكاني يجثون على ركبهم، ولكنه عاجز عن التحكم بعضلة مثانته.

– لا يمكنني مواصلة الاستماع إلى الإشاعات، إنني أفتقر إلى الوقت – قال بأسف دون أن يرفع بصره – اذهب ورتب مسألة اللويدز، حتى لا يحوّلوا المال إلى رامفيس. غداً في الموعد نفسه. وداعاً.

– وداعاً أيها الزعيم. إذا ما سمحت لي، فسوف أراك هذا المساء في الجادة.

ما إن شعر بأن الدستوري سكران قد أغلق الباب، حتى استدعى سينفوروسو وأمره بإحضار بدلة جديدة، رمادية أيضاً، وغيار من الملابس الداخلية. نهض واقفاً ومضى بسرعة، مصطدماً بأريكة، ليدخل إلى الحمام. كان يشعر بالدوار من القرف. خلع البنطال، السروال الداخلي والقميص الداخلي الملوثة بالتبول اللاإرادي. لم يكن قميصه ملوثاً، ولكنه خلعه أيضاً وجلس على البيديه. غسل الموضع بالصابون بدقة. وبينما هو يجفف نفسه، لعن مرة أخرى ألعاب جسده الخبيثة. لقد كان يخوض معركة ضد أعداء متعددين، ولا يمكنه أن ينشغل عنها في كل لحظة بسبب هذا السيلان اللعين. رش بودرة على أعضاء الحياء وما بين ساقيه، وجلس على مقعد المرحاض بانتظار مجيء سينفوروسو.

تصريف الأعمال مع القذارة الحية خلف لديه شيئاً من القلق. لقد كان ما قاله له صحيحاً: فعلى العكس من اخوته الأوغاد، ومن السيدة المهيبة مصاصة الدماء التي لا ترتوي، ومن أولاده الطفيليين المصاصين، لم يكن هو يهتم كثيراً بالمال. إنه يستخدمه في خدمة السلطة. فدون المال ما كان بإمكانه أن يشق الطريق في البداية، لأنه ولد في أسرة شديدة التواضع من سان كريستوبال، ولهذا كان عليه في فتوته أن يتدبر بأي شكل ما لا بد منه من أجل أن يلبس

بصورة لائقة. وفي ما بعد، أفاده المال في أن يكون أكثر فعالية في إزالة العوائق، وفي شراء، أو تملق، أو رشوة من يحتاج إليهم من أجل معاقبة من يعرقلون عمله. وعلى العكس من زوجته ماريا، التي لم تكن تحلم، منذ أن توصلت إلى فكرة العمل في غسل ملابس الحرس المحلي عندما كانا عاشقين، إلا بكنز المال، كان هو يحب المال من أجل توزيعه.

فلو لم يكن كذلك، هل كان سيقدم كل تلك الهدايا إلى الشعب، كل تلك العطايا الباهظة في 24 تشرين الأول من كل عام لكي يحتفل الدومينيكانيون بعيد ميلاد الزعيم؟ كم من الملايين أنفقها خلال هذه السنوات في أكياس السكاكر، والشوكولاته، والدمى، والفواكه، والفساتين، والبناطيل، والأحذية، والأساور، والعقود، والمرطبات، والبلوزات، والاسطوانات، والسترات، ومشابك الشعر، والمجلات، وعلى المواكب غير المتناهية التي تقترب من القصر في يوم ميلاد الزعيم؟ وكم دفع أكثر من ذلك بكثير من الهدايا على من يكون اشبينهم أو عرابهم في حفلات التعميد الجماعية، في كنيسة القصر، حيث يُصبح منذ ثلاثة عقود، وبمعدل مرة أو مرتين كل أسبوع، عراباً لمئة طفل حديثي الولادة على الأقل؟ ملايين ملايين البيزوات. إنه استثمار مجز بالطبع. وهي فكرة خطرت له في سنته الأولى في الحكم، بفضل معرفته للسيكولوجيا الدومينيكانية. فالارتباط بعلاقةٍ معمودية مع فلاح، مع عامل، مع حرَفي، مع تاجر، يعني ضمان ولاء ذلك الرجل البائس، أو تلك المرأة البائسة، ومن يعانقهم بعد التعميد ويهدي إليهم ألفي بيزو. ألفان في مراحل الرخاء. ومع ازدياد قائمة الأبناء بالعماد إلى عشرين، خمسين، مئة، مئتين في الأسبوع، راحت الهدايا تتقلص - وذلك بسبب صرخات احتجاج دونيا ماريا من جهة، وبسبب انحدار الاقتصاد الدومينيكاني من جهة أخرى، منذ **مهرجان سلام وأخوة العالم الحر** في العام 1955-، فخُفضت إلى ألف وخمسمئة بيزو، ثم إلى ألف، فإلى خمسمئة، ثم مئتين، ثم إلى مئة بيزو لكل ابن بالعماد. **القذارة الحية** يلح الآن على إلغاء حفلات التعميد الجماعي أو على جعل الهدايا رمزية، تقتصر على عشرة بيزوات لكل ابن بالعماد، إلى أن تنتهي العقوبات. اللعنة على اليانكيين!

لقد أسس شركات وقام بأعمال تجارية لكي يوفر العمل ويدفع تقدم هذه البلاد، ولكي تكون لديه موارد ويستطيع أن يوزع الهدايا ذات اليمين وذات الشمال، ويرى الدومينيكانيين سعداء.

أولم يكن عظيماً كذلك مع أصدقائه، ومعاونيه وخدمه مثلما كان بيترونيو في رواية كوفاديس؟ لقد دفنهم بالأموال، مقدماً إليهم مبالغ طائلة كهدايا في أعياد ميلادهم، في زفافهم، عن إنجابهم أبناء، أو -بعد قيامهم بمهمات ناجحة، أو لكي يثبت لهم بكل بساطة أنه يعرف كيف يكافئ الولاء. لقد أهدى إليهم أموالاً، بيوتاً، أراضٍ، أسهماً، وجعل منهم شركاء في مزارعه وشركاته، وخلق لهم أعمالاً تجارية لكي يكسبوا مبالغ محترمة ولا ينهبوا الدولة.

سمع طرقات خافتة على الباب. أنه سينفوروسو، بالبدلة والملابس الداخلية. قدمها إليه وهو يخفض عينيه. إنه يعمل إلى جانبه منذ أكثر من عشرين عاماً؛ فبعد أن كان حاجبه في الجيش، رفّعه إلى كبير خدم ونقله إلى القصر. لم يكن يخشى أي شيء من سينفوروسو. فهو أبكم، أصم وأعمى بالنسبة لكل ما يتعلق بتروخييو، ولديه ما يكفي من حاسة الشم ليعرف أن أدنى سوء ائتمان على بعض الموضوعات الحميمة، مثل التبول اللاإرادي، سيحرمه من كل ما يملكه - بيت، مزرعة صغيرة مع مواش، سيارة، أسرة كبيرة العدد - وربما يكلفه حياته أيضاً. أما البدلة والملابس الداخلية المتسخة المغطاة بكيس، فلن تلفت انتباه أحد، لأن المنعم معتاد على استبدال ملابسه عدة مرات في اليوم وهو في مكتبه.

ارتدى ملابسه بينما كان سينفوروسو- المقطب، ذو الشعر الحليق، والمتزين بصورة لا تشوبها شائبة بزيه المؤلف من بنطال أسود، وقميص أبيض، وسترة بيضاء بأزرار مذهبة - يلتقط الملابس المبعثرة على الأرض.

- ماذا يتوجب علي أن أفعل بهذين المطرانين الإرهابيين يا سينفوروسو؟ - سأله بينما هو يزرر البنطال - هل أطردهما من البلاد؟ هل أرسلهما إلى السجن؟

- اقتلهما أيها الزعيم - أجاب سينفوروسو دون تردد- الناس يكرهونهما، وإذا لم تفعل سيادتك ذلك، سيفعله الشعب. فليس هناك من يغفر لذلك اليانكي وذلك الإسباني أنهما جاءا إلى هذه البلاد ليعضا اليد التي يأكلان منها.

الجنراليسمو لم يعد يستمع إليه. تذكر بأنه عليه أن يوبخ بوبو رومان. فهذا الصباح، وبعد أن استقبل جوني أبيس ووزيري العلاقات الخارجية والداخلية، كان عليه أن يذهب إلى قاعدة سان إيسيدرو الجوية ليجتمع مع قادة سلاح الطيران. وهناك وجد مشهداً قلب أحشاءه: فعند مدخل القاعدة بالضبط، على بعد أمتار قليلة من مركز الحراسة، وتحت علم وشعار الجمهورية، هناك أنبوب

تتدفق منه مياه سوداء شكلت بركة موحلة على حافة الطريق. أمر بوقف السيارة. نزل واقترب. كان أنبوب تصريف سائل كثيف ونتن- لقد اضطر إلى تغطية أنفه بالمنديل - وقد اجتذبت المياه الآسنة بالطبع سحابة من الذباب والبعوض. وكانت تلك المياه تواصل التدفق، مشوهة محيط المكان، ومسممة هواء وأرض أول حامية دومينيكانية. أحس بالحنق، وبحمم بركانية تصعد في جسده. كبح الحركة الأولى التي نوى القيام بها، وهي العودة إلى القاعدة وتوجيه اللعنات إلى القادة الموجودين، وسؤالهم إذا ما كانت هذه هي الصورة التي يريدون تقديمها عن القوات الجوية: مؤسسة غارقة بمياه نتنة وهوام. ولكنه قرر على الفور بأنه يجب التوجه بالتوبيخ إلى الرأس. وجعل بوبو رومان شخصياً يبتلع قليلاً من البراز السائل الذي يفلته ذلك المصرف. قرر الاتصال به فوراً. ولكنه عندما رجع إلى مكتبه نسي الأمر. هل بدأت الذاكرة تخونه مثلما هي عضلة المثانة؟ اللعنة. الشيئان اللذان تجاوبا معه على أحسن وجه على امتداد حياته الطويلة، يصيبهما السقم الآن، وهو في السبعين.

رجع إلى طاولة مكتبه لابساً ثيابه ومتزيناً، ورفع الهاتف الذي يصله آلياً بقيادة القوات المسلحة. ولم يتأخر في سماع صوت الجنرال رومان:

- نعم، ألو؟ أهذا سيادتك يا صاحب الفخامة؟

- تعال إلى الجادة مساء اليوم - قال له بجفاء على سبيل التحية.

- بالطبع أيها الزعيم - ذُعر صوت الجنرال رومان - ألا تفضل أن أحضر إليك الآن في القصر؟ هل حدث شيء؟

- ستعرف ما الذي حدث - قال ببطء متخيلاً عصبية زوج ابنة أخيه ميريا وهو يلحظ الجفاء الذي يكلمه به - هل من جديد؟

- كل شيء طبيعي يا صاحب الفخامة - تلعثم الجنرال رومان - كنت أتلقى التقرير الروتيني من المناطق. ولكن إذا أردت سيادتك...

- في الجادة - قاطعة وأغلق الهاتف.

أبهجه تصور فرقعة التساؤلات، والافتراضات، والمخاوف، والشكوك، التي أودعها في راس ذلك النذل الذي هو وزير القوات المسلحة. ما الذي قالوه عني للزعيم؟ أتراني سقطت في المحنة؟ أتراني تخلفت عن إنجاز أمر أصدره إليّ؟ سيعيش في الجحيم حتى المساء.

ولكن هذه الفكرة لم تشغله إلا لثوانٍ، إذ عادت ثانية إلى ذاكرته ذكرى تتكيد

تلك الفتاة. غضبٌ، حزنٌ، حنيّن، اختلطت كلها في روحه، وأبقته في غم شامل. وعندئذ خطر له: «لا بد من دواء من جنس الداء». لا بد من وجه أنثى جميلة، تذوب لذة بين ذراعيه، وتشكره على المتعة التي وفرها لها. ألن يمحو مثل هذا الأمر وجه تلك البلهاء المذهولة؟ بلى: يجب أن يذهب هذه الليلة إلى سان كريستوبال، إلى بيت كاوبا، ليغسل الإهانة على السرير نفسه وبالأسلحة نفسها. هذا القرار - ولمس فتحة سرواله على سبيل التعزيم - رفع معنوياته وشجعه على مواصلة برنامج اليوم.

الفصل التاسع

- ماذا عرفتَ عن سيغوندو؟- سأل أنطونيو دي لا ماتا.

فرد أنطونيو إمبرت دون أن يلتفت، وهو يستند إلى المقود:

- لقد رأيته أمس، إنهم يسمحون لي الآن بزيارته كل أسبوع. زيارة قصيرة، نصف ساعة. وفي بعض الأحيان يتوحم ابن العاهرة مدير سجن لافكتوريا على قطع الزيارة بعد خمس عشرة دقيقة. من أجل الإزعاج.

- وكيف حاله؟

كيف يمكن أن تكون حال شخص صدّق وعداً بالعفو العام، فغادر بويرتو ريكو، حيث حقق وضعاً جيداً بالعمل لأسرة فيري، في مدينة بونسي، ورجع إلى بلاده ليكتشف أنهم ينتظرونه ليحاكموه على جريمة مزعومة ضد نقابيّ اقتُرفت في بويرتو بلاتا منذ قرون، والحكم عليه بالسجن ثلاثين سنة؟ كيف يمكن أن يشعر رجل، إذا كان قد قَتَلَ حقاً فقد فعل ذلك من أجل النظام، فجعله تروخييو مقابل ذلك يتعفن في سجنه منذ خمس سنوات؟

ولكنه لم يرد عليه بهذا الكلام، لأن إمبرت يعرف أن أنطونيو دي لاماتا لم يوجه إليه السؤال لأنه مهتم بأخيه سيغوندو، وإنما لتحطيم ذلك الانتظار غير النهائي. هز كتفيه:

- سيغوندو رجل شجاع. وحتى لو كان في حالة سيئة، فإنه لا يُظهر ذلك. بل إنه يملك في بعض الأحيان ترف رفع معنوياتي.

- لا أظنك قلت له شيئاً عن هذا الذي نحن فيه.

- لا بالطبع. بدافع الحذر من جهة، ولكي لا يبني أوهاماً. فماذا لو أخفقنا؟

- لن نخفق - تدخل الملازم غارثيا غيريرو من المقعد الخلفي - التيس سيأتي.

هل سيأتي؟ نظر توني إمبرت إلى ساعته. مازالت إمكانية مجيئه قائمة، يجب عدم اليأس. وهو لا يفقد الصبر أبداً، منذ سنوات طويلة. في شبابه كان يفقد الصبر لسوء الحظ ويتهور، وقد قاده ذلك إلى عمل أشياء يندم عليها بكل

خلايا جسده. مثل تلك البرقية التي أرسلها في عام 1949، وقد أفقده الغضب عقله، أثناء الإنزال المعادي لتروخييو بقيادة هوراسيو خوليو أورنيس على شاطئ لوبيرون، في مقاطعة بويرتو بلاتا التي كان حاكماً عليها. «إذا ما أمرت أيها الزعيم فإنني سأحرق بويرو بلاتا عن بكرة أبيها.» إنها الجملة التي سببت له أكبر ندم في حياته. رآها منشورة في كل الصحف، لأن الجنراليسمو أراد أن يعرف جميع الدومينيكانيين مدى ولاء حاكم المقاطعة الشاب وتعصبه لتروخييو.

لماذا اختار هوراسيو خوليو أورنيس، وفيلكس كوردوبا بونيتشي، وتوليو هوستيليو أرفيلو، وغوغو هينريكيث، وميغيلوتشو فيليو، وسلفادور رييس فالديث، وفيديريكو هوراثيو والآخرون مقاطعة بويرتو بلاتا في ذلك التاسع عشر من حزيران 1949؟ لقد كانت حملتهم إخفاقاً مدوياً. فإحدى الطائرتين الغازيتين لم تستطع الوصول ورجعت إلى جزيرة كوزوميل. أما طائرة الكاتالينا التي كان فيها هوراسيو خوليو أورنيس ورفاقه، فتمكنت من الهبوط على سطح الماء على ضفة لوبيرون الموحلة. ولكن قبل أن يتمكن أفراد الحملة من النزول إلى البر، قصفهم موقع لخفر السواحل ومزقهم. ثم تمكنت دوريات الجيش من القبض على الغزاة خلال ساعات قليلة. وقد أفاد ذلك في إخراج واحدة من تلك المهازل التي يحبها تروخييو. إذ أنه أصدر عفواً عمن ألقي القبض عليهم، بمن فيهم هوراسيو خوليو أورنيس، وفي استعراض لسطوته وشهامته، سمح لهم بالخروج إلى المنفى من جديد. ولكنه في الوقت الذي قام به بتلك اللفتة الكريمة تجاه الخارج، عزل أنطونيو إمبرت، حاكم مقاطعة بويرتو بلاتا، وأخاه الميجر سيغوندو إمبرت، القائد العسكري للموقع، وسجنهما ونكل بهما، بينما كان يقود في الوقت نفسه حملة قمع لا رحمة فيها ضد متواطئين مزعومين جرى اعتقالهم وتعذيبهم، وإعدام الكثيرين منهم سراً. وفكر إمبرت: «متواطئون لم يكونوا متواطئين. لقد ظن من قاموا بالإنزال بأن الجميع سينتفضون عندما يرونهم ينزلون. لم يكن لهم في الواقع أحد في الداخل.» كم من الأبرياء دفعوا ثمن ذلك الإخفاق.

كم من الأبرياء سيدفعون الثمن إذا ما أخفقت عملية هذه الليلة؟ أنطونيو إمبرت لم يكن متفائلاً مثل آماديتو أو سلفادور إستريّا سعد الله اللذين منذ أن علما من أنطونيو دي لاماثا بأن الجنرال خوسيه رينيه رومان، قائد القوات المسلحة، مشارك في المؤامرة، اقتنعا بأنه ما إن يتم قتل تروخييو حتى يسير كل شيء بسرعة، فالعسكريون سوف ينصاعون لأوامر رومان، فيلقون القبض على

أخوة التيس، ويقتلون جوني أبيس وأعوان تروخييو المتحمسين، ويقيمون مجلساً مدنياً-عسكرياً. وسينزل الشعب إلى الشوارع ليقتل المخبرين، سعيداً بحصوله على الحرية. هل ستجري الأمور على هذا النحو؟ إن خيبات الأمل، منذ المكيدة الحمقاء التي سقط فيها أخوه سيغوندو، تحوّل أنطونيو إمبرت إلى شخص شديد الحساسية تجاه التسرع في الحماس. إنه يريد رؤية جثة تروخييو عند قدميه؛ وما سوى ذلك لا يهمه كثيراً. فالشيء الأساسي هو تخليص البلاد من هذا الرجل. وبإزاحة هذا العائق، حتى لو لم تجر الأمور على ما يرتجى فوراً، فإن باباً سيُفتح. وهذا يبرر عملية الليلة، حتى لو أنهم لن يخرجوا أحياء.

لا. لم يقل طوني كلمة واحدة حول هذه المؤامرة لأخيه سيغوندو خلال زيارته الأسبوعية له في سجن لافيكتوريا. كانا يتحدثان عن الأسرة، عن البيسبول، عن الملاكمة، وكانت لدى سيغوندو الحماسة ليروي له طرائف عن روتين الحياة في السجن، ولكنهما كانا يتجنبان الموضوع المهم الوحيد. وفي الزيارة الأخيرة، همس له أنطونيو وهو يودعه: «الأحوال ستتغير يا سيغوندو». اللبيب تكفيه كلمات قليلة. أتراه أدرك المقصود؟ ومثل أنطونيو، كان سيغوندو قد تقلب من نصير متحمس لتروخييو إلى معارض له، ثم إلى متآمر ضده، وكان قد توصل منذ زمن إلى أن الطريقة الوحيدة لوضع حد للطغيان هي في القضاء على الطاغية؛ وكل ما سوى ذلك لن يكون مجدياً. يجب تصفية الشخص الذي تلتقي في يده كل خيوط تلك الشبكة العنكبوتية الغامضة.

قال آماديتو متخيلاً:

- ما الذي كان سيحدث لو أن تلك القنبلة انفجرت في جادة مكسيمو غوميث، في موعد خروج التيس للمشي؟

فردّ إمبرت:

- كان التروخييويون المقربون سيتطايرون مثل ألعاب نارية في السماء

ضحك الملازم:

- وكنتُ أنا سأكون أحد من يطيرون، إذا ما كنتُ ضمن الحراسة.

وقال طوني:

- كنتُ سأوصي عندئذ على إكليل ورود ضخم لجنازتك.

- يا لها من خطة - علق إستريّا سعد الله - جعل التيس يطير مع كل مرافقيه. خطة قاسية عديمة الرحمة!

فقال إمبرت:

- حسن، كنتُ أعرف أنك لن تكون هناك في تلك الحفلة. أما أنت يا آماديتو فلم أكن أعرفك في ذلك الحين. أما الآن، فإنني سأعيد التفكير في مثل تلك العملية قبل الإقدام عليها.

- لقد طمأنتني. - شكره الملازم.

على امتداد أكثر من ساعة أمضوها على طريق سان كريستوبال، حاولوا أكثر من مرة تبادل الحديث أو المزاح مثلما فعلوا الآن، ولكن هذه المبادرات لا تلبث أن تنكسف ويعود كل واحد منهم إلى الانغلاق على قلقه أو آماله أو ذكرياته. في إحدى اللحظات، أشعل أنطونيو دي لاماثا المذياع، ولكن ما إن سُمع صوت المذيع المُحلى في إذاعة صوت التروبيكو يعلن عن برنامج مخصص للروحانيات، حتى أطفأه.

أجل، في تلك الخطة الفاشلة لقتل التيس قبل سنتين ونصف، كان أنطونيو إمبرت مستعداً لأن ينسف، مع تروخييو، عدداً كبيراً من الضباط المرافقين الذين يحرسونه كل مساء في مسيرته من بيت دونيا خوليا، **الأم السّامية**، على امتداد شارع مكسيمو غوميث والجادة، حتى المسلة. أولم يكن أولئك الذين يمشون إلى جانبه هم الملوثون أكثر من سواهم بالدم والقذارة؟ إنها خدمة جيدة للبلاد أن يتم القضاء على حفنة من الأذناب في الوقت نفسه الذي تجري فيه تصفية الطاغية.

لقد أعد هو وحده محاولة الاغتيال تلك، دون أن يخبر بذلك صديقه المفضل سلفادور إستريّا سعد الله. فعلى الرغم من كون التوركو مناهضاً لتروخييو، إلا أن طوني كان يخشى أن يرفض صديقه ذلك بسبب تدينه. وضع الخطة وحسب كل شيء في عقله، وكرس للخطة كل الموارد التي في متناول يده، مقتنعاً بأنه كلما كان عدد المشاركين أقل، تكون احتمالات النجاح أكبر. وفي المرحلة الأخيرة من التحضير، ضم إلى مشروعه شابين مما سيدعى في ما بعد حركة 14 حزيران؛ وكانت في ذلك الحين جماعة سرية مؤلفة من مهنيين وطلاب شباب، يحاولون تنظيم أنفسهم للعمل ضد الطغيان، دون أن يعرفوا كيف سيفعلون ذلك.

كانت الخطة بسيطة وعملية. استغلال ذلك الانضباط المهووس الذي ينجز به تروخييو روتينه اليومي، وبالتحديد في هذه الحالة، مسيره المسائي عبر شارع مكسيمو غوميث والجادة. درس الموقع بدقة، وذرع ذهاباً وإياباً تلك الجادة التي

تتلاصق فيها بيوت وجوه النظام، السابقين والحاليين. فهناك بيت هيكتور تروخييو (الملقب نيغرو)، الرئيس السابق الألعوبة في يد أخيه خلال فترتين رئاسيتين. والمنزل الوردي الذي تقيم فيه ماما خوليو، **الأم السامية**، التي يزورها الزعيم كل مساء قبل أن يبدأ مسيرته. وبيت لويس رافائيل تروخييو مولينا، الملقب نيني، والمهووس بمصارعات الديكة. وبيت الجنرال أرتورو إسبايات، الملقب مدية. وبيت خواكين بالاغير، الرئيس الألعوبة الحالي، والمجاور لمقر القاصد الرسولي. وقصر انسيلمو باولينو القديم الذي صار الآن أحد بيوت رامفيس تروخييو. ومنزل ابنة **التيس**، أنخيليتا الجميلة وزوجها «بيتشيتو»، الكولونيل لويس خوسيه ليون إستيفيث. وبيت آل كاشيراس ترونكوسو، وبيت أسرة من أكبر الأثرياء: آل فيشيني. ويتاخم شارع مكسيمو غوميث ملعب بيسبول بناه تروخييو لأبنائه قبالة مقر إقامته في قصر راداميس، والعقار حيث كان يقوم منزل الجنرال لودوفينو فيرنانديث الذي أمر **التيس** بقتله. وبين كل بيت وآخر هناك أرض خلاء تغطيها أعشاب برية ومقاسم مقفرة، مسيجة بحاجز من الشباك السلكية المطلية باللون الأخضر، ينتصب عند حافة الشارع. وعلى الرصيف الأيمن، حيث يمشي الموكب دائماً، هناك قطع أرض مسيجة بمثل حواجز الأسلاك تلك التي تفحصها إمبرت ودرسها لساعات طويلة.

اختار مقطع السياج الذي يبدأ عند بيت نيني تروخييو. بحجة تجديد جزء من الأسلاك من مصنع إنتاج الخلائط الجاهزة، والذي كان مديره (ويملكه باكو مارتينيث، شقيق **السيدة المهيبة**)، فاشترى بضع عشرات من ذلك السياج الشبكي مع دعائمه من الأنابيب التي توضع كل خمسة عشر متراً لإبقاء السياج مشدوداً. وتحقق بنفسه من أن تكون أنابيب الدعائم مفرغة وأن يكون بالإمكان ملؤها بشحنات من الديناميت. وبما أن مصنع الخلائط الجاهزة يملك محجرين في محيط مدينة تروخييو يستخرج منهما المواد الخام، فقد كان من السهل عليه في زياراته المتتالية إلى المحجرين أن يختلس قوالب من الديناميت ويخبئها في مكتبه الذي كان يأتي إليه قبل الجميع ويغادره بعد خروج آخر الموظفين.

عندما صار كل شيء جاهزاً، تكلم عن خطته إلى لويس غوميث بيريث وإيفان تافاريث كاستيانوس. وهما طالبان جامعيان أكثر شباباً منه، أحدهما يدرس المحاماة والآخر الهندسة، ويشكلان خليته نفسها في الجماعات السرية المناهضة لتروخييو؛ فبعد أن راقبهما لأسابيع طويلة، توصل إلى أنهما جديّان،

وجديران بالثقة، ومتلهفان إلى الانتقال إلى الممارسة العملية. وقد وافق كلاهما بحماس. وقرروا ألا يقولوا كلمة واحدة لرفاقهم الذين يجتمعون معهم في أماكن مختلفة كل مرة، في اجتماعات تضم ثمانية أو عشرة أشخاص لمناقشة أفضل الطرق لتعبئة الشعب ضد الطغيان.

ومع لويس وإيفان، وقد تبين له أنهما أفضل مما كان يتصوره، ملأ الأنابيب بشحنات الديناميت، ووضعوا لها الصواعق، بعد أن اختبروها بجهاز تحكم عن بعد. وبعد أن تأكدوا من التوقيت بدقة، وذلك بإجراء تجربة في الأرض الخلاء الملحقة بالمصنع، بعد خروج العمال والموظفين، لحساب الوقت الذي يتطلبه منهم هدم جزء من السياج الموجود ونصب الجديد مكانه، واستبدال الأنابيب القديمة بتلك المحشوة بالديناميت. أقل من خمس ساعات. وكان كل شيء جاهزاً في 12 حزيران. وقرروا التنفيذ في يوم 15، بعد عودة تروخييو من جولة في منطقة ثيباو. وحصلوا على الشاحنة التي ستهدم السياج عند الفجر، ليجدوا بذلك ذريعة لاستبداله بالسياج الملغوم، وهم بأفرهولات عمال البلدية الزرقاء. وحددوا، على بعد خمسين خطوة، النقطتين اللتين سيكون إمبرت في النقطة اليمنى منهما، ولويس وإيفان في النقطة اليسرى للضغط على جهازي التحكم بفارق ضئيل بين الأول والثاني، فالأول من أجل قتل تروخييو في اللحظة التي يمر فيها بجانب الأنابيب، والثاني للإجهاز عليه.

ولكن، في عشية اليوم الموعود، أي في 14 حزيران 1959، وقع في جبال كونستانثا ذلك الهبوط المفاجئ لطائرة آتية من كوبا، مطلية بألوان وشعارات شركة الطيران الدومينيكانية، وفيها مقاتلون مناهضون لتروخييو، وهو الغزو الذي تلته عمليات الإنزال في شواطئ مايمون وإستيرو أوندو بعد أسبوع من ذلك. مجيء تلك القوة الصغيرة التي كان معها القائد الكوبي الملتحي ديليو غوميث أوتشوا، جعل القشعريرة تسري في النخاع الشوكي للنظام. محاولة غير معقولة، وبلا تنسيق. فالجماعات السرية لم تكن لديها أية معلومات حول ما يجري الإعداد له في كوبا. لقد كان دعم فيدل كاسترو للثورة ضد تروخييو هو الموضوع الأكثر إلحاحاً في الاجتماعات منذ إسقاط باتيستا، قبل ذلك بستة شهور. وكان هناك اعتماد على هذه المساعدة الكوبية في كل الخطط التي تحاك وتُفرط، ولدى كل من يجمعون بنادق صيد ومسدسات، وربما بندقية قديمة ما. ولكن لم يكن هناك بين من يعرفهم إمبرت من له علاقة بكوبا أو لديه أدنى فكرة

عن أنه في 14 حزيران سيصل عشرات الثوريين، وأنهم بعد القضاء على حراس مطار كونستانثا القليلين، سينتشرون في الجبال المحيطة بالمدينة، لمجرد أن يجري اصطيادهم كالأرانب في الأيام التالية، ويُقتلوا دون محاكمة أو ينقلوا إلى مدينة تروخييو، حيث جرى اغتيالهم جميعهم تقريباً تحت إشراف رامفيس (ولكن لم يجر قتل الكوبي غوميث أوتشوا وابنه بالتبني بيدريتو ميرابال، اللذين أعادهما النظام، في نزوة مسرحية أخرى، إلى فيدل كاسترو بعد بعض الوقت).

ولم يكن بإمكان أحد كذلك أن يتصور حجم القمع الذي أطلقته الحكومة على أثر ذلك الإنزال. وأنه بدل أن يخف في الأسابيع والشهور التالية راح يتفاقم. فكان المخبرون يقبضون على أي شخص يشتبهون به ويأخذونه إلى الاستخبارات العسكرية، حيث يخضعونه للتعذيب - إخصائه، تمزيق مسمعيه وفقء عينيه، إجلاسه على العرش - لكي يقدم أسماءً. كانت سجون «لافيكتوريا» و«الأربعين» و«التاسع» تغص بشبان من الجنسين: طلاب، مهنيون، موظفون، كثيرون منهم أبناء وأقرباء رجال في الحكومة. وقد كانت مفاجأة تروخييو عظيمة: أيكون ممكناً أن يتآمر ضده أبناء، وأحفاد وأقرباء أناس استفادوا من النظام أكثر من الجميع؟ لم تأخذه بهم أية رحمة أو اعتبار، على الرغم من ألقاب أسرهم، ووجوههم البيضاء، وملابس الطبقة الوسطى التي يرتدونها.

وقع لويس غوميث بيريث وإيفان تافاريث كاستييانوس في قبضة مخبري جهاز الاستخبارات العسكرية في صباح اليوم المقرر لعملية الاغتيال. فأدرك أنطونيو إمبرت بواقعيته المعهودة بأنه لا يملك أدنى إمكانية لطلب اللجوء: فكل السفارات كانت مطوقة بحواجز شرطة بالزي الرسمي، وبجنود ومخبرين. وقدر أنه يمكن للويس وإيفان، أو لأي واحد من أفراد الجماعات السرية، أن ينطق اسمه تحت التعذيب، فيأتون للبحث عنه. وعندئذ عرف ما يتوجب عليه عمله، مثلما يعرف ذلك في هذه الليلة: سيواجه المخبرين بالرصاص. وسيحاول نقل أكثر من واحد منهم إلى العالم الآخر، قبل أن يخترقه رصاصهم. فهو لن يسمح لهم بأن يخلعوا أظفاره بكماشة، ولا أن يقطعوا لسانه أو أن يجلسوه على الكرسي الكهربائي. أن يقتلوه، أجل؛ أما أن يعذبوه، فلا وألف لا.

ووجد ذرائع لكي يرسل زوجته غوارينا، وابنته ليسلي، اللتين لا تعرفان شيئاً، إلى مزرعة لبعض الأقارب في لارومانا، وجلس ينتظر وهو يحمل كأس روم في يده. كان مسدسه في جيبه محشواً وبلا أمان. ولكن لم يظهر أي مخبر في ذلك

اليوم، ولا في اليوم التالي، ولا في الذي تلاه، سواء في بيته أو في مكتبه في مصنع الخلائط الجاهزة الذي واصل الذهاب إليه بانتظام بكل برود الأعصاب الذي يستطيعه. لويس وإيفان لم يشيا به، ولا الأشخاص الذين تردد عليهم في الجماعات السرية. وبأعجوبة نجا من حملة قمع كانت تضرب مذنبين وأبرياء، وتملأ السجون، وترعب للمرة الأولى خلال تسع وعشرين سنة من عمر النظام، عائلات الطبقة الوسطى التي كانت تشكل تقليدياً ركيزة تروخييو، ومنها خرج القسم الأكبر من معتقلي ما سمي حركة 14 حزيران، تيمناً بتلك الغزوة المحبطة. وكان ابن عم طوني، رامون إمبرت راينيري – الملقب مونتشو–، أحد قادة الحركة.

لماذا نجا؟ بفضل شجاعة لويس وإيفان دون شك – وهما ما يزالان، بعد سنتين من ذلك، في زنازين سجن لافكتوريا – ودون شك كذلك بفضل شابات وشبان آخرين من حركة 14 حزيران نسوا ذكر اسمه. ربما كانوا يعتبرونه مجرد فضولي، وليس نشطاً. لأن طوني إمبرت، وبسبب خجله، نادراً ما كان يفتح فمه في تلك الاجتماعات التي أخذه إليها أول مرة ابن عمه مونتشو؛ بل كان يكتفي بالاستماع وإبداء رأيه بكلمة مقتضبة. وكان مستحيلاً من جهة أخرى، أن يكون ضمن قوائم المشبوهين لدى المخابرات العسكرية، اللهم إلا باعتباره أخا الميجر سيغوندو إمبرت. فقد كانت صحيفة خدمته نظيفة. وأمضى حياته في العمل في خدمة النظام – كمفتش عام للسكك الحديد، وحاكم لمقاطعة بويرتو بلاتا، ونائب المراقب العام لليانصيب الوطني، ومدير مكتب إصدار بطاقات الهويات الشخصية – وهو الآن مدير «الخلائط الجاهزة»، المصنع الذي يملكه صهر تروخييو. فلماذا يشتبهون به؟

وبحذر شديد، في الأيام التي تلت 14 حزيران، صار يبقى في المصنع ليلاً، فأخرج شحنات الديناميت وأعادها إلى المحجرين، في الوقت الذي كان يفكر فيه بكيف ومع من سينفذ الخطة القادمة للقضاء على تروخييو. لقد اعترف بكل ما حدث (وبكل ما لم يكتمل حدوثه) لصديق روحه، التوركو سلفادور إستريّا سعد الله. فأنبه هذا لأنه لم يضمه إلى مؤامرة شارع مكسيمو غوميث. وكان سلفادور قد توصل إلى النتيجة نفسها: لا يمكن لشيء أن يتغير ما دام تروخييو حياً. بدأا بتقليب عمليات الاغتيال المحتملة، ولكن دون أن يتفوها بشيء أمام آماديتو، ثالث الثلاثي: فقد كانا يريان أنه من الصعب أن يكون هناك مرافق عسكري يرغب في قتل المنعم.

وبعد وقت غير طويل وقع ذلك الحدث الصدمة في حياة آماديتو العسكرية، عندما كان لا بد له، لكي يحصل على ترقية، من أن يقتل سجيناً (هو شقيق خطيبته السابقة، كما يعتقد)، وانضم إلى الزمرة. عما قريب سيكتمل مرور سنتين على ذلك الإنزال في كونستانثا ومايمون وإستيرو أوندو. لقد انقضت، إذا أردنا الدقة، سنة وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً. نظر أنطونيو إمبرت إلى ساعته. لن يأتي.

كم من الأمور حدثت في جمهورية الدومينيكان، وفي العالم، وفي حياته الخاصة. أمور كثيرة. المداهمات الواسعة في كانون الثاني 1960، والتي سقط فيها عدد كبير من شباب وشابات حركة 14 حزيران، منهم الشقيقات ميرابال وأزواجهن. القطيعة بين تروخييو وشريكته القديمة، الكنيسة الكاثوليكية، منذ رسالة المطارنة الأسقفية المنددة بالدكتاتورية، في كانون الثاني 1960. محاولة اغتيال رئيس فينزويلا بيتانكور في حزيران 1960، التي حركت عدداً كبيراً من البلدان ضد تروخييو، بما فيها الولايات المتحدة، حليفته الكبرى المعهودة، والتي صوتت في مؤتمر كوستاريكا في 6 آب 1960 مؤيدة فرض العقوبات. وفي 25 تشرين الثاني 1960 – وأحس إمبرت في صدره بتلك الوخزة التي لا يستطيع تجنبها كلما تذكر ذلك اليوم الكئيب –، اغتيال الشقيقات الثلاث، مينيرفا، وباتريا، وماريا تيريسا ميرابال، والسائق الذي كان يقود سيارتهن، في «لاكومبري»، في أعالي سلسلة الجبال الجنوبية، أثناء عودتهن من زيارة زوجي مينيرفا وماريا تيريسا المحبوسين في قلعة بويرتو بلاتا.

جمهورية الدومينيكان بأسرها علمت بتلك المجزرة بالطريقة السريعة والغامضة التي تنتقل بها الأخبار من فم إلى فم ومن بيت إلى بيت، وتصل في ساعات قليلة إلى أقصى الأماكن النائية، بالرغم من عدم ظهور سطر واحد في الصحافة، وفي أحيان كثيرة تتلون تلك الأخبار التي تتناقلها الترددات البشرية، أو تتقزم، أو تتضخم في مسيرتها حتى تتحول إلى أساطير، وخرافات، وقصص خيالية لا علاقة لها تقريباً بما حدث. إنه يتذكر تلك الليلة على الكورنيش، ليس بعيداً عن المكان الذي هم فيه الآن، بعد انقضاء ستة شهور، ينتظرون التيس – لكي يثأروا لهن أيضاً – كانوا جالسين على المصطبة الحجرية، مثلما يفعلون كل ليلة – هو، وسلفادور وآماديتو، وكان معهم في تلك المرة أنطونيو دي لاماثا أيضاً – ليستمتعوا بالبرودة ويتبادلوا الحديث بعيداً عن الأعين المترصدة. ما جرى

للشقيقات ميرابال جعل أسنان الأربعة تصطك، وسبب لهم الغثيان بينما هم يعلقون حول موت أولئك الأخوات الثلاث العظيمات، هناك في أعالي سلسلة الجبال، في حادث سيارة مزعوم.

سُمع صوت أحدهم يقول:

- إنهم يقتلون آباءنا، واخوتنا، وأصدقاءنا. وهاهم يقتلون نساءنا أيضاً. بينما نحن مستسلمون ننتظر دورنا.

- لسنا مستسلمين يا طوني. - ردّ أنطونيو دي لاماثا. وكان قد جاء من ريستاوراثيون؛ وهو من حمل إليهم خبر موت الأخوات ميرابال الذي التقطه في الطريق - تروخييو سيدفع ثمن كل ذلك. الأمور بدأت تتقدم. ولكن، لا بد من عمل ذلك بإتقان.

في تلك الفترة كان يجري الإعداد لقتل تروخييو في موكا، خلال زيارة سيقوم بها إلى منطقة آل دي لاماثا في سياق جولات بدأ القيام بها في أنحاء البلاد منذ إدانة منظمة الدول الأمريكية وفرض العقوبات الاقتصادية. ستنفجر قنبلة في كنيسة قلب يسوع المقدس الكبرى، وسينهمر وابل من رصاص البنادق من الشرفات والأفاريز وبرج الساعة على تروخييو، بينما هو يتكلم على المنصة المقامة في الفناء، أمام الناس المتجمهرين حول تمثال سان خوان برسكو المغطى بأزهار الثالوث. وقد استطلع إمبرت نفسه الكنيسة وتطوع ليكمن في برج الساعة، المكان الأكثر خطورة ومجازفة.

- طوني كان يعرف الأخوات ميرابال - أوضح التوركو لأنطونيو - ولهذا غضب هكذا.

كان يعرفهن، مع أنه لا يستطيع القول إنهن كن صديقاته. كان يعرف الأخوات الثلاث، وزوجي مينيرفا وباتريا، مانولو تافاريس خوستو ولياندرو غوثمان، لقد التقى بهم صدفة في اجتماعات تلك الجماعات التي اتخذت من شخصية ترينيتاريا دوارتي التاريخية قدوة لها، ونظمت حركة 14 حزيران. وكانت الأخوات الثلاث يقدن تلك المنظمة واسعة الانتشار والمتحمسة، إنما ضعيفة التنظيم والفعالية، والتي كان القمع يفككها. لقد أثرت الأخوات الثلاث فيه لرسوخ قناعتهن والجرأة التي يلقين فيها بأنفسهن في ذلك الصراع غير المتكافئ وغير المضمون؛ وخصوصاً مينيرفا ميرابال. وهو ما يحدث لكل من يلتقون بها، ويسمعونها تعرض آراءها، تناقش، تقدم اقتراحات وتتخذ قرارات. ومع أن طوني

إمبرت لم يكن قد فكر في ذلك، إلا أنه قال بعد عملية الاغتيال، إنه لم يخطر بباله قط، قبل التعرف على مينيرفا ميرابال، أنه يمكن لامرأة أن تنغمس في شؤون رجولية مثل الإعداد لثورة، وجمع الأسلحة، والمتفجرات، والكوكتيل مولوتوف، والسكاكين، والحراب وتخزينها، والتكلم عن الاغتيالات، والاستراتيجية والتكتيك، والقول ببرود أعصاب إنه، في حالة الوقوع في يد الاستخبارات العسكرية، يتوجب على المناضلين ابتلاع سمّ كيلا يتعرضوا لخطر الوشاية برفاقهم تحت التعذيب.

كانت مينيرفا تتكلم في هذه الأمور وفي أفضل الطرق للقيام بالدعاية السرية، أو لتجنيد الطلاب في الجامعة، وكان الجميع يستمعون إليها. بسبب حدة ذكائها والوضوح الذي تطرح به أفكارها. كانت قناعاتها الراسخة وفصاحتها المتدفقة تضفي على كلماتها قوة مُعْدِية. وكانت فوق ذلك باهرة الجمال، بالسواد الفاحم لشعرها وعينيها، بنعومة تقاطيعها، بأنفها وفمها الدقيقين، وبياض أسنانها الذي يتضاد مع سمرة بشرتها المائلة إلى الزرقة. لقد كانت باهرة الجمال، أجل. فيها شيء أنثوي متسلط، نعومة، تغنج تلقائي في حركات جسدها وفي ابتساماتها، على الرغم من تقشف ملابسها التي كانت تظهر بها في تلك الاجتماعات. وطوني لا يتذكر أنه رآها متبرجة أو مطلية بأصبغة زينة. أجل، لقد كانت باهرة الجمال، ولكن - فكر - ما كان يمكن لأحد من الحاضرين أن يتجرأ على النطق بإحدى تلك المغازلات المتداولة، أو التوجه إليها بإحدى تلك الظرافات أو المداعبات التي كانت تُعتبر طبيعية، عادية - إجبارية - بين الدومينيكانيين، وخصوصاً إذا كانوا شباباً توحدهم الأخوة الزخمة التي توفرها المثل العليا، والأوهام، والمجازفات والمخاطر المشتركة. كان هناك في مظهر مينيرفا ميرابال المهيب ما يمنع الرجال من التعامل معها بالثقة والطلاقة التي يسمحون لأنفسهم بالتعامل بها مع النساء الأخريات.

كانت في ذلك الحين قد تحولت إلى أسطورة في العالم الضيق للنضال السري المناهض لتروخييو. ما هي الأشياء الصحيحة بين ما كان يقال عنها، وما هي المبالغات، وما هي الاختلاقات؟ لم يكن هناك من يتجرأ على السؤال عن ذلك، حتى لا يتلقى تلك النظرة العميقة المزدرية، وأحد تلك الردود القاطعة التي تسبب الخرس أحياناً للمتكلم. يقال إنها تجرأت في مراهقتها على صدّ تروخييو شخصياً برفضها الرقص معه، وإن أباها عُزل بسبب ذلك من منصب عمدة

مدينة أوخو دي أغوا وأُرسل إلى السجن. ويلمّح آخرون إلى أن الأمر لم يقتصر على الصدّ، وإنما وجهت إليه صفعة لأنه داعبها أثناء الرقص وقال لها عبارة بذيئة، وهو احتمال يستبعده كثيرون («ما كان لها في مثل هذه الحالة أن تكون حية، لأنه كان سيقتلها بنفسه أو يأمر بقتلها هناك بالذات»)، ولكن أنطونيو إمبرت لا يستبعده. فمنذ المرة الأولى التي رآها وسمعها فيها، لم يراوده الشك ثانية واحدة في الاقتناع بأن تلك الصفعة، إذا لم تكن صحيحة، فإنها ممكنة الحدوث. إذ يكفي رؤية مينيرفا ميرابال والاستماع إليها لدقائق (وهي تتحدث مثلاً بطبيعية جليدية حول ضرورة إعداد المناضلين نفسياً لتحمل التعذيب) لمعرفة أنها قادرة على صفع تروخييو نفسه إذا ما أساء احترامها. لقد اعتُقلت مرتين على الأقل، وتُحكى قصص عن جسارتها في سجن الأربعين أولاً، ثم في لافيكتوريا بعد ذلك، حيث أضربت عن الطعام، وتحملت الحبس الانفرادي على الخبز والماء المدود، وحيث عذبوها كما يقال بوحشية. ولكنها لم تكن تتحدث مطلقاً عن تجربتها في السجن، ولا عن التعذيب، ولا عن المحنة التي تعيش فيها أسرتها المحاصرة، والمحرومة من ممتلكاتها الضئيلة، تحت أمر بالإقامة الجبرية في بيتها، مذ عُرف أنها مناهضة لتروخييو. لقد سمحت الديكتاتورية لمينيرفا بدراسة الحقوق، لمجرد أن تحرمها - في انتقام مدروس - من الحصول بعد انتهاء دراستها على تصريح مزاولة المهنة، أي الحكم عليها بعدم العمل، وحرمانها من القدرة على كسب قوتها، أو لإشعارها بالإحباط وهي في ذروة الشباب، بعد خمس سنوات من الدراسة المهدورة. ولكن أياً من ذلك لم يسبب لها المرارة؛ فقد واصلت، دون كلل، تشجيع الجميع، مثل محرك يمهد - كما قال إمبرت مرات كثيرة - لهذه البلاد الشابة، الجميلة، المتحمسة، المثالية التي ستصير إليها في أحد الأيام جمهورية الدومينيكان.

أحس بالخجل من امتلاء عينيه بالدموع. أشعل سيجارة وأخذ منها عدة أنفاس، مطلقاً الدخان باتجاه البحر الذي يتلألأ عليه ضوء القمر متلاعباً. لم يكن ثمة هواء الآن. وبين حين وآخر تظهر مصابيح سيارة من بعيد، آتية من مدينة تروخييو. يعتدل الأربعة في المقعد، يمطون رقابهم، يصغون إلى الظلمة، متوترين، ولكنهم يكتشفون في كل مرة، عن بعد عشرين أو ثلاثين متراً، أنها ليست الشفروليه ويعودون للاسترخاء في مقاعدهم، خائبي الأمل.

أفضل من يستطيع كبح عواطفه هو إمبرت. لقد كان صموتاً على الدوام،

ولكنه في السنوات الأخيرة، منذ أن سيطرت عليه فكرة قتل تروخييو، وراحت تتغذى، مثل دودة وحيدة، على طاقته كلها، ازدادت قلة كلامه حدة. لم يكن له أصدقاء كثر في يوم من الأيام؛ ولم تعرف حياته في الشهور الأخيرة مفردات سوى مكتبه في شركة الخلائط الجاهزة، وبيته، والاجتماعات اليومية مع إستريّا سعد الله والملازم غارثيا غيريرو. أما الاجتماعات السرية فتوقفت عملياً بعد موت الأخوات ميرابال. لقد حطم القمع حركة 14 حزيران. ومن أفلتوا، لاذوا بالحياة العائلية، في محاولة لعدم لفت الأنظار. وبين حين وآخر كان يثقل عليه السؤال: «لماذا لم يُعتقل؟». كانت الحيرة تسبب له شعوراً بالاستياء، وكأنه قد ارتكب خطيئة، وكما لو أنه مسؤول عن العذاب الكبير الذي يتعرض له من وقعوا في يد جوني أبيس بينما هو ما زال ينعم بالحرية.

إنها حرية نسبية جداً في الحقيقة. فمنذ وعى نمط النظام الذي يعيش فيه، والحكومة التي خدمها من شبابه ومازال يخدمها - فما الذي يفعله سوى إدارة أحد مصانع العصابة؟ - بدأ يشعر أنه أسير. ربما كان ذلك ليتحرر من الشعور بأن كل خطواته محسوبة، وكل مساراته وتحركاته مخطط لها، حتى استحوذت فكرة قتل تروخييو بقوة على وعيه. خيبة الأمل من النظام جاءت، في حالته، بالتدريج، وكانت طويلة وسرية، وسابقة على النزاعات السياسية لأخيه سيغوندو، وكان شخصاً أكثر منه ولاء لتروخييو. ومن الذي لم يكن كذلك من المحيطين به قبل عشرين أو خمس وعشرين سنة؟ الجميع كانوا يؤمنون بأن التيس هو منقذ الوطن، الذي أنهى حروب الزعماء المحليين، وخطر وقوع غزو هايتي جديد، ووضع حداً للتبعية المذلة للولايات المتحدة - التي كانت تتحكم بالجمارك، وتمنع وجود عملة دومينيكانية، وتؤشر على صحة الميزانية - وحمل بالحسنى أو الإكراه رؤوس البلاد إلى الحكومة، ومقابل كل ذلك، ما أهمية أن يضاجع تروخييو ما يشاء من النساء؟ أو أن يكون قد امتلك كل تلك المصانع والمزارع والمواشي؟ ألا ينمي الثروة الدومينيكانية؟ ألم يزود هذه البلاد بأقوى قوات مسلحة في منطقة الكاريبي؟ لقد قال طوني إمبرت هذه الأمور ودافع عنها طوال عشرين سنة من حياته. وكان هذا هو ما يلوي معدته الآن.

لم يعد يتذكر كيف بدأ ذلك، كيف بدأت أول الشكوك، الظنون، الاختلافات التي قادته إلى التساؤل عما إذا كان صحيحاً حقاً أن كل شيء على ما يرام، أو إذا ما كان وراء هذه الواجهة لبلد يتقدم بالقوة تحت القيادة الصارمة، إنما الملهمة،

لرجل دولة خارج عن المألوف، مشهد محزن لأناس محطمين، مهانين، مخدوعين، وتنصيب لكذبة كبيرة من خلال الدعاية والعنف. قطرات لا تكل راحت، بتواصل سقوطها، تشكل ثقباً في ولائه التروخييوي. وعندما ترك منصب حاكم مقاطعة بويرتو بلاتا، كان قد تخلى في أعماق قلبه عن كونه تروخييوياً، وتوصل إلى القناعة بأن النظام دكتاتوري وفاسد. لم يقل ذلك لأحد، ولا حتى لزوجته غوارينا. وبقي أمام الجميع واحداً من الموالين لتروخييو، وحتى عندما خرج أخوه سيغوندو إلى المنفى في بويرتو ريكو، واصل النظام - كدليل على الشهامة - منح أنطونيو المناصب، بما في ذلك - وأي دليل أكبر على الثقة به - مناصب في شركات آل تروخييو.

كان ذلك هو مصدر استيائه طوال سنوات، التفكير في شيء وعمل ما هو مناقض له يومياً، مما قاده، في أعمق أسرار دماغه، إلى الحكم على تروخييو بالموت، وإقناع نفسه بأنه مادام حياً فإنه، هو ودومينيكانيون كثيرون جداً، سيبقون محكومين بهذا الغم والاستياء من أنفسهم، من الكذب على أنفسهم في كل لحظة وخداع الآخرين، من كونهم اثنين في واحد، كذبة علنية وحقيقة مضمرة محظور الإعراب عنها.

أشعره ذلك القرار بالتحسن؛ رفع معنوياته. ولم تعد حياته ذلك الحياء، تلك الازدواجية، عندما تمكن من العثور على من يتبادل معه مشاعره الحقيقية. بدت صداقته لسلفادور إستريا سعد الله وكأنها هبة من السماء. فأمام التوركو يمكنه أن يتوسع على راحته ضد كل ما يحيط به؛ وبسبب استقامة سعد الله الأخلاقية ونزاهته في محاولة ضبط سلوكه وفق معتقده الديني الذي يؤمن به بإخلاص لم يلحظه طوني في أحد، تحول إلى مثله الأعلى وإلى صديقه المفضل.

بعد وقت قصير من صداقته الوطيدة تلك، بدأ إمبرت بالتردد على الجماعات السرية، بفضل ابن عمه مونتشو. ومع أنه كان يخرج من تلك الاجتماعات بإحساس أن أولئك الشبان والشابات، وعلى الرغم من مجازفتهم بحريتهم، ومستقبلهم، وحياتهم، لا يجدون طريقة فعالة للنضال ضد تروخييو، إلا أن وجوده معهم لساعة أو ساعتين، بعد الوصول إلى بيت مجهول - يتبدل في كل مرة - بألف تنقل ودوران، واتباع مراسلين يتم التعرف عليهم بكلمات سر مختلفة، قدم له مبرراً حيوياً، ونظّف ضميره ووجّه حياته.

وقد ذهلت زوجته غوارينا عندما كشف لها طوني أخيراً، حتى لا تُفاجأ عند

وقوع أي محنة، بأنه لم يعد من الموالين لتروخييو، حتى وإن كانت المظاهر تشير إلى عكس ذلك، وبأنه يعمل في السر ضد الحكومة. لم تحاول ثنيه عن ذلك. لم تسأل عما سيحدث لابنتهما ليسلي إذا ما اعتقلوه وحكموا عليه بالسجن ثلاثين سنة مثلما جرى لأخيه سيغوندو، أو إذا ما حدث ما هو أسوأ من ذلك وقتلوه.

زوجته وابنته لا تعرفان بأمر عملية هذه الليلة؛ تظنانه يلعب الورق في بيت التوركو. ماذا سيحل بهما إذا ما أخفقت هذه العملية؟

- هل أنت واثق من الجنرال رومان؟ - قال ذلك متعجلاً ليجبر نفسه على التفكير في أمر آخر - هل أنت متأكد من أنه من جماعتنا؟ على الرغم من كونه متزوجاً من ابنة أخت تروخييو ومن كونه صهر الجنرال فيرخيليو غارثيا تروخييو، وهما ابنا أخت الزعيم المفضلان؟

فقال أنطونيو دي لاماثا:

- لو لم يكن معنا لكنا جميعنا الآن في الأربعين. إنه معنا، إذا نفذنا شرطه الذي اشترطه: أن يرى الجثة أولاً.

دمدم طوني:

- يصعب تصديق ذلك. ما الذي سيكسبه من ذلك وزير القوات المسلحة؟ بينما يمكن له خسارة كل شيء.

- إنه يكره تروخييو أكثر منك ومني. - ردّ دي لاماثا - وهناك كثيرون من المقربين كذلك. التروخييوية ليست إلا قلعة من ورق. وستنهار.. سترى ذلك. لدى بوبو رومان عسكريون كثيرون مؤيدون؛ وهم ينتظرون أوامره. سيصدرها إليهم، وغداً ستكون هذه البلاد قد أصبحت بلاداً أخرى.

- هذا إذا جاء التيس. - تأفف إستريا سعد الله في المقعد الخلفي.

- سيأتي أيها التوركو، سيأتي. - كرر الملازم مرة أخرة.

عاد أنطونيو إمبرت إلى الغرق في أفكاره. هل ستشرق الحرية صباح الغد على هذه البلاد؟ إنه يتمنى ذلك بكل قواه، ولكنه حتى الآن، قبل لحظات من الحدث، يجد صعوبة في التصديق. كم عدد المشاركين في المؤامرة، فضلاً عن الجنرال رومان؟ لم يشأ الاستفسار عن ذلك قط. إنه يعرف أربعة أو خمسة أشخاص، ولكن المشاركين أكثر بكثير. من الأفضل عدم معرفة ذلك. فقد كان يرى على الدوام وجوب ألا يعرف المتآمرون إلا الحد الأدنى، حتى لا يعرضوا العملية للخطر. لقد استمع باهتمام إلى كل ما كشفه لهم أنطونيو دي لاماثا عن

التعهد الذي قدمه قائد القوات المسلحة بتولي السلطة، إذا ما أعدموا الطاغية. وهكذا، سيتم اعتقال أو قتل أقرباء التيس المقربين والموالين الأساسيين لتروخييو قبل أن تنفلت الأعمال الانتقامية. ولحسن الحظ أن ابني تروخييو، رامفيس وراداميس موجودان في باريس. مع كم من الناس تكلم أنطونيو دي لاماثا؟ فخلال اجتماعات الشهور الأخيرة المتواصلة من أجل ضبط الخطة، كانت تفلت أحياناً من أنطونيو إيحاءات، إشارات، كلمات مقتضبة، تدفع إلى التفكير بوجود أناس كثيرين مشاركين. لقد توخى طوني الحذر إلى حد أنه أطبق في احد الأيام فم سلفادور سعد الله، عندما بدأ هذا الأخير يروي ساخطاً بأنه بينما كان هو وأنطونيو دي لاماثا في اجتماع في بيت الجنرال خوان توماس دياث، اضطرا إلى خوض جدل صاخب مع جماعة من المتواطئين الذين عارضوا قبول إمبرت ضمن صفوفهم. فهم لا يثقون به بسبب ماضيه التروخييوي؛ وقد ذكّر أحدهم بالبرقية الشهيرة التي بعث بها إلى تروخييو عارضاً عليه إحراق بويرتو بلاتا. (وفكر طوني: «ستلاحقني هذه البرقية حتى الموت، وإلى ما بعد الموت».) وقد اعترض التوركو وأنطونيو يومذاك قائلين إنهما مستعدان لوضع أيديهما في النار من أجل طوني، ولكن هذا لم يسمح لسلفادور بمواصلة كلامه:

- لا أريد معرفة ذلك أيها التوركو. فلماذا يتوجب في نهاية المطاف على من لا يعرفونني جيداً أن يثقوا بي؟ ما يقولونه صحيح، فقد عملت طوال حياتي من أجل تروخييو، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

فرد التوركو:

- وما الذي أفعله أنا؟ ما الذي يفعله ثلاثون أو أربعون بالمئة من الدومينيكانيين؟ ألسنا نعمل في الحكومة أو في شركاته؟ واسعو الثراء وحدهم هم الذين يملكون ترف عدم العمل عند تروخييو.

«إنهم لا يستطيعون ذلك أيضاً»، فكر. فالأغنياء، إذا أرادوا أن يبقوا أغنياء، عليهم أن يتحالفوا مع الزعيم، أن يبيعوه حصة من شركاتهم أو أن يشتروا حصة من شركاته ويساهموا بذلك في عظمته وسلطته. وبعينين نصف مغمضتين، يهدل له همس البحر الهادئ، فكر بالنظام الشيطاني الذي تمكن تروخييو من خلقه، والذي يضطر الدومينيكانيون جميعهم، عاجلاً أو آجلاً، إلى المشاركة فيه كمتواطئين. نظام لا يمكن أن ينجو منه إلا المنفيون (وهم لا ينجون دائماً) والموتى. فالجميع في البلاد كانوا أو سيكونون بطريقة أو بأخرى، جزءاً من

النظام. «أسوأ ما يمكن أن يبتلي به الدومينيكاني هو أن يكون ذكياً أو كفؤاً»، هذا ما سمع ألفارو كابرال يقوله في أحد الأيام (وقال في نفسه:«دومينيكاني شديد الذكاء أو الكفاءة») وقد انطبعت الجملة في دماغه: «لأن تروخييو، عاجلاً أو آجلاً، سيستدعيه لخدمة النظام، أو لخدمة شخصه، وعندما يستدعي أحداً، ليس من المسموح له أن يقول لا». لقد كان هو نفسه دليلاً على هذه الحقيقة. إذ لم يخطر له يوماً أن يبدي أدنى معارضة لتعيينه في تلك المناصب. فقد انتزع التيس من البشر، مثلما يقول إستريا سعد الله، الخاصية المقدسة التي منحهم إياها الرب: الاختيار الحر.

وعلى العكس من التوركو، لم يشغل الدين مكانة مركزية في حياة أنطونيو إمبرت قط. فقد كان كاثوليكياً على الطريقة الدومينيكانية، واجتاز كل الطقوس الدينية التي تُعتبر محطات بارزة في حياة الناس – المعمودية، سرّ التثبيت، المناولة الأولى، المدرسة الكاثوليكية، الزواج عن طريق الكنيسة – وسيُجرى له دون شك جناز كاثوليكي مع موعظة القس ومباركته. ولكنه لم يكن قط مؤمناً واعياً، ولا مهتماً بالربط بين ديانته وحياته اليومية، ولم يهتم بالتأكد بما إذا كان سلوكه يتفق مع الوصايا الدينية، مثلما يفعل سلفادور بطريقة تبدو له مرضية.

ولكن ذاك الأمر عن الاختيار الحر أثر فيه. وربما لهذا السبب قرر أن تروخييو يجب أن يموت. لكي يسترد هو والدومينيكانيون على الأقل القدرة على قبول أو رفض العمل الذي يكسب أحدهم من خلاله لقمة عيشه. طوني لم يكن يعرف ما هو ذلك الخيار الحر. ربما يكون قد عرفه في طفولته، ولكنه نسيه. لا بد أنه شيء جميل. ولا بد أنه سيكون لفنجان القهوة أو كأس الروم طعم أفضل، ولا بد أن دخان التبغ، أو السباحة في البحر في يوم حار، أو مشاهدة فيلم في يوم السبت، أو سماع أغنية ميرنغي من المذياع، سيخلف في الجسد والروح إحساساً أكثر سعادة، عندما يمتلك هذا الشيء الذي انتزعه تروخييو من الدومينيكانيين منذ إحدى وثلاثين سنة: الاختيار الحر.

الفصل العاشر

لدى سماع صوت الجرس، بقيت أورانيا وأبوها جامدين يتبادلان النظرات كما لو أنهما قد فوجئا في خطيئة. هناك أصوات في الطابق الأرضي وصرخة مفاجأة. خطوات متعجلة تصعد السلم. يُفتح الباب في الوقت نفسه تقريباً الذي تقرعه فيه طرقات أصابع متلهفة ويطل منه وجه أرعن تتعرف عليه أورانيا في الحال: إنها لوثيندا، ابنة عمتها.

- أورانيا؟ أورانيا؟ - عيناها الواسعتان المتقافزتان تتفحصانها من أعلى إلى أسفل، ومن اسفل إلى أعلى، تفتح ذراعيها وتتجه نحوها وكأنها تريد أن تتأكد من أنها ليست أضغاث أحلام.

- إنني أنا نفسي يا لوثينديتا - وتعانق أورانيا صغرى ابنتي عمتها آديلينا، ابنة عمتها التي في مثل سنها، وزميلتها في المدرسة.

- ولكنني لا أكاد أصدق يا فتاة! أنت هنا؟ تعالي إلي! كيف جرى هذا. لماذا لم تتصلي بي؟ لماذا لم تأت إلى بيتنا؟ أنسيتِ كم كنا نحبك؟ ألم تعودي تتذكرين عمتك آديلينا، ومانوليتا؟ ألا تتذكريني أنا أيتها الجاحدة؟

إنها مذهولة، ممتلئة بالأسئلة والفضول -«رباه، كيف استطعتِ يا ابنة خالي أن تقضي خمساً وثلاثين سنة، إنها خمس وثلاثون، أليس كذلك؟، دون أن تأتي إلى بلادك، ودون أن تري أسرتك»، «لا بد أن لديك الكثير لترويه يا فتاة!»- حتى إنها لا تتيح لها مجالاً للرد على أسئلتها. إنها لم تتغير كثيراً في هذا الميدان. فمنذ صغرها ولوثينديتا المتحمسة، الملفقة، اللعوب، تتكلم مثل ببغاء. ابنة العمة التي كانت لها معها أفضل علاقة. أورانيا تتذكرها وهي بزيها المدرسي، تنورة بيضاء وسترة زرقاء بحرية، وبزيها اليومي العادي، وردي وأزرق: إنها بدينة رشيقة، لها غرة في ناصيتها، وجسور في أسنانها، وابتسامة على طرف شفتيها. وهي اليوم شخصية وافرة اللحم، بشرة وجهها مشدودة وبلا آثار شدّ، ترتدي فستاناً بسيطاً مزهراً. وحليتها الوحيدة: قرطان طويلان مذهبان يلمعان. تقطع

فجأة ملاطفاتها وأسئلتها لأورانيا، لتقترب من المشلول وتقبله من جبهته.

- يا للمفاجأة الرائعة التي قدمتها لكَ ابنتك. لم تكن تنتظر أن تنبعث ابنتك وتأتي لزيارتك. يا للسعادة، أليس كذلك أيها الخال انطونيو؟

تقبّله ثانية من جبهته وتنساه بالاندفاع نفسه. تذهب للجلوس إلى جانب أورانيا، على طرف السرير. تمسك بذراعها، تتأملها، تتفحصها، تعود إلى ملاحقتها بالصرخات والاستفسارات:

- كم تحتفظين برونقك أيتها الفتاة. نحن في السن نفسها، أليس كذلك؟ وتبدين أصغر بعشر سنوات. هذا ليس عدلاً! ربما لأنك لم تتزوجي ولم تنجبي أبناء. ليس هناك ما يدمر المرأة مثل الزوج والذرية. يا للقامة، ويا للبشرة. إنك صبية يا أورانيا!

تأخذ بالتعرف في صوت ابنة عمتها على تلونات، ونبرات، وموسيقى تلك الطفلة التي طالما لعبت معها في باحات مدرسة سانتو دومنغو، والتي كان عليها أن تشرح لها مرات ومرات دروس الهندسة وهندسة المثلثات.

هتفت أخيراً:

- حياة بكاملها دون أن نلتقي يا لوثينديتا، دون أن تعرف إحدانا شيئاً عن الأخرى.

- وكل هذا بسببك أيتها الجاحدة - تقول لها ابنة عمتها موبخة بمودة، ولكن يشتعل في هاتين العينين الآن ذلك السؤال، ذلك السؤال الذي راود دون شك مرات ومرات الأعمام والعمات، وأبناء وبنات العمومة. في تلك السنوات الأولى، بعد سفر أورانيا كابرال المفاجئ، في اواخر أيار عام 1961، إلى مدينة أدريان النائية في ميتشيغان، إلى كلية سيينا العليا العائدة للراهبات الدومينيكيات اللواتي يشرفن على إدارة مدرسة سانتو دومنغو في مدينة تروخييو- لم أفهم سبباً لذلك قط يا أورانيتا. فأنت وأنا كنا صديقتين مقربتين، حميمتين، إضافة إلى القرابة التي تجمع بيننا. ما الذي حدث وجعلك لا تريدين فجأة أن تعرفي أي شيء عنا؟ لا عن أبيك، ولا عن أعمامك، ولا عن بنات وأبناء عمومتك. ولا حتى عني أنا. كتبتُ لك عشرين أو ثلاثين رسالة فلم تردي بسطر واحد. أمضيتُ سنوات وأنا أبعث لك ببطاقات بريدية، وتهنئات بعيد ميلادك. وكذلك فعلت أختي مانوليتا وأمي. ماذا فعلنا لك؟ لماذا غضبتِ إلى حد عدم الكتابة مطلقاً وقضاء خمس وثلاثين سنة دون أن تطأ قدماكِ أرض بلادك؟

- جنون الشباب يا لوثينديتا - تضحك أورانيا وتمسك بيدها- ولكن ها أنت ترين، لقد انقضى كل شيء وها أنا ذا هنا.

- ألستِ شبحاً بالتأكيد؟ - تبتعد ابنة عمتها قليلاً لتنظر إليها، تهز رأسها غير مصدقة - لماذا تأتين هكذا دون أن تخبري مسبقاً؟ كنا سنذهب إلى المطار.

- أردت أن أفاجئكم - تقول أورانيا كاذبة - لقد اتخذتُ القرار فجأة. كان أمراً تلقائياً. وضعتُ بضعة أشياء في الحقيبة وركبت الطائرة.

قالت لوثيندا متخذة وضعاً جدياً:

- لقد كنا متأكدين في الأسرة من أنك لن تعودي ثانية. وكذلك الخال أغوسطين. لقد عانى كثيراً، ويجب أن أخبرك بذلك. كان يقول إنك لا تريدين التكلم معه، لا تردين على هواتفه. كان يائساً، وكان يخبر أمي بذلك باكياً. لم يجد عزاء لمعاملتك له بتلك الطريقة. اعذريني، لا أدري لماذا أقول لك هذا الآن، فأنا لا أريد التدخل في حياتك يا ابنة خالي. دافعي هو الثقة التي كانت بيننا دوماً. حدثيني عن نفسك. إنك تعيشين في نيويورك، أليس كذلك؟ أمورك تمضي على ما يرام، أعرف ذلك. لقد تابعنا خطواتك، إنك أسطورة في الأسرة. أنت تعملين في مكتب محاماة مشهور، أليس صحيحاً؟

- حسن، هناك مكاتب محاماة أخرى أهم من مكتبنا.

- لستُ أستغرب أنك قد تفوقت في الولايات المتحدة - هتفت لوثيندا، وأحست أورانيا برنة حموضة في صوت ابنة عمتها- منذ صغرك كان واضحاً، في ذكائك وانكبابك على الدراسة. لقد كانت تقول ذلك رئيسة الراهبات، الأخت هيلين كلير، والأخت فرانسيس، والأخت سوزان، وقبلهن جميعاً الأخت ماري التي كانت تفاخر بك: أورانيا كابرال، ستكون إينشتاين بتنورة.

تنفجر أورانيا بالضحك. ليس بسبب ما تقوله ابنة خالتها، وإنما للطريقة التي تقوله بها: بطلاقة، بتلذذ، متكلمة بفمها، بعينيها، بيديها وبكل جسدها في وقت واحد، بذلك المرح والمذاق الذي يميز طريقة الكلام الدومينيكانية. وهو ما اكتشفته، بفعل التضاد، منذ خمس وثلاثين سنة، حين وصلت إلى أدريان، في متشيغان، إلى كلية سيينا العليا للراهبات الدومينكان، حيث وجدت نفسها بين عشية وضحاها، محاطة بأناس لا يتكلمون إلا الإنكليزية.

- عندما ذهبتِ دون أن تودعيني، كدت أموت من الغيظ. - تقول ابنة عمتها بحنين إلى تلك الأيام البعيدة - لم يكن هناك من يفهم شيئاً في الأسرة. ما هذا!

أورانيتا تذهب إلى الولايات المتحدة دون أن تقول وداعاً! كنا نأكل الخال بالأسئلة، ولكنه كان يبدو وكأنه مثلنا لا يعرف شيئاً. «الراهبات قدمن لها منحة، ولم يكن بإمكانها إضاعة الفرصة.» ولكن أحداً لم يكن يصدقه.

- لقد كان الأمر كذلك يا لوثينديتا- تقول أورانيا وهي تنظر إلى أبيها الذي كان متجمداً ومتنبهاً مرة أخرى، يستمع إليهما- لقد سنحت لي فرصة الذهاب للدراسة في ميتشيغان ولستُ حمقاء، فانتهزتها.

- أفهم ذلك - تقول ابنة عمتها ثانية - وأعرف أنك تستحقين تلك المنحة. ولكن، لماذا سافرتِ وكأنك هاربة؟ ولماذا قطعتِ علاقتك بأسرتك، بأبيك، ببلادك؟

- لقد كنتُ على الدوام حمقاء بعض الشيء يا لوثينديتا. ولكن، على الرغم من أنني لم أكتب إليكم، إلا أنني كنت أتذكركم كثيراً. وخصوصاً أنت.

كذب. لم تشتاقي إلى أحد، بمن في ذلك لوثيندا، ابنة عمتك وزميلتك، حافظة أسرارك وشريكتك في كل الشقاوات. لقد أردت نسيانها كذلك، مثل مانوليتا، والعمة آديلينا، وأبيك، وهذه المدينة، وهذه البلاد، خلال تلك الشهور الأولى في أدريان البعيدة، في ذلك الحرم الجامعي البديع، بحدائقه المرتبة، وأزهار البيغونيا، التوليب، والمنوليا، والممرات المحفوفة بشجيرات الورد، وأشجار الصنوبر السامقة التي يصل أريجها الزيتي حتى الغرفة التي تقاسمتها في السنة الأولى مع أربع رفيقات، بينهن ألينا، الزنجية من جورجيا، صديقتك الأولى في ذلك العالم الجديد، المختلف جداً عن عالم الأربع عشرة سنة الأولى من حياتك. هل تعرف راهبات الدومينيك في أدريان سبب خروجك «هاربة»، بفضل الأخت ماري، مديرة الدروس في مدرسة سانتو دومنغو؟ لا بد أنهن يعرفن. فلو لم تخبرهن الأخت ماري بالحيثيات لما قدمن لها المنحة الدراسية بتلك الطريقة المتعجلة. لقد كانت الراهبات مثالاً في التكتم، فخلال السنوات الأربع التي أمضتها أورانيا في كلية سينا العليا، لم تشر أي واحدة منهن مجرد إشارة إلى القصة التي تمزق ذاكرتك. ولكنهن في ما عدا ذلك، لم يندمن على سخائهن معها: فقد كنت أول خريجة من هذه الكلية تُقبل في هارفرد، وتُستقبل بالتشريف في أشهر جامعة في العالم. أدريان في ميتشيغان! كم من السنوات مضت دون أن تعودي إلى هناك. من المؤكد أنها لم تعد تلك المدينة الريفية التي يقطنها مزارعون يأوون إلى بيوتهم عند غياب الشمس فتبقى الشوارع خاوية، وأُسر ينتهي أفقها عند هاتيك القريتين

الصغيرتين اللتين تبدوان كتوأمين – كلينتون وتشيلسا- ومتعتها القصوى هي الذهاب إلى منشستر لحضور مهرجان شواء الفراخ. مدينة نظيفة هي أدريان، وهي جميلة في الشتاء بصورة خاصة، عندما يغطي الثلج الشوارع المستقيمة – حيث يمكن التزلج والتزحلق – تحت ذلك القطن الأبيض الذي يصنع منه الأطفال دمى، والذي كنتِ تنتظرين إلى سقوطه من السماء مفتونة، وحيث كنتِ ستموتين من المرارة، وربما من الضجر، لو لم تكرسي كل قواك، وبكل غضب، في الدراسة.

ابنة عمتها لا تتوقف عن الكلام.

– بعد وقت قصير من ذهابك قتلوا تروخييو وجاءت المصائب. أتعرفين بأن المخبرين دخلوا إلى المدرسة؟ وضربوا الراهبات، ملؤوا وجه الأخت هيلين كلير بالرضوض والخدوش، وقتلوا كلب الحراسة الألماني بادولاك. وكادوا أن يحرقوا بيتنا أيضاً بسبب قرابتنا لأبيك. كانوا يقولون إن الخال أغوسطين أرسلك إلى الولايات المتحدة لأنه كان يعرف ما سيحدث.

– حسن، هو أيضاً أراد إبعادي من هنا- قاطعتها أورانيا- فعلى الرغم من أنه كان قد وقع في المحنة، إلا أنه كان يعرف أن المعادين لتروخييو سيحاسبونه كذلك.

– وهذا أيضاً أتفهمه – دمدمت لوثيندا- ولكن ما لا أتفهمه هو انك لم تشئي أن تعرفي شيئاً عنا.

فضحكت أورانيا:

– بما أنك كنتِ طيبة القلب على الدوام، فإنني أراهن بأنك لا تكنين لي أي ضغينة. أليس صحيحاً يا فتاة؟

– لم أكرهك بالطبع – تؤكد ابنة عمتها- لو أنك تعلمين كم توسلت إلى أبي لكي يرسلني معك إلى الولايات المتحدة. إلى جامعة سيينا. وأظن أنني قد توصلت إلى إقناعه، وعندئذ وقعت الكارثة. الجميع بدؤوا يهاجموننا، ويقولون أكاذيب فظيعة عن الأسرة، لمجرد أن أمي هي أخت أحد رجال تروخييو. لم يتذكر أحد أن تروخييو قد عامل أباك في النهاية مثل كلب. لقد كنتِ محظوظة بعدم وجودك هنا في تلك الشهور يا أورانيا. كنا نعيش ميتين من الخوف. لستُ أدري كيف نجا الخال أغوسطين ولم يحرقوا بيته. ولكنهم رجموه بالحجارة عدة مرات.

يقاطعها طرق خفيف على الباب.

- لم أشأ المقاطعة - وأشارت الممرضة إلى المشلول - ولكن، لقد حان الموعد.

تنظر إليها أورانيا دون أن تفهم ما تعنيه. فتوضح لها لوثيندا وهي تلقي بنظرة إلى المبولة:

- من أجل قضاء حاجته. إنه دقيق جداً مثل ساعة. يا له من محظوظ، فأنا أعاني من مشاكل في المعدة، وآكل خوخاً مجففاً. يقولون إن السبب هو الأعصاب. حسن، فلنذهب إلى الصالة إذن.

بينما هما تنزلان السلم، تعاود أورانيا ذكرى تلك الشهور والسنوات في أدريان، ذكرى المكتبة الصارمة، عند خاصرة المصلى والملاصقة لقاعة الطعام، حيث كانت تقضى معظم الوقت، عندما لا تكون في الدروس أو الحلقات. تدرس، تقرأ، تسود دفاتر، تجرب، تلخص كتباً، بتلك الطريقة الدقيقة، المكثفة، المركزة، التي طالما قدّرها فيها الأساتذة، وأعجبت بها بعض زميلاتها، وأثارت غضب أخريات. لم تكن الرغبة في التعلم، في الفوز، هي التي تعزلك في المكتبة، وإنما الرغبة في فقدانك الوعي، في تسممك، وضياعك في تلك المواد - علمية أو أدبية، لا فرق - كيلا تفكري، وكي تُبعدي عنك الذكريات الدومينيكانية.

- ولكنك بثياب الرياضة - انتبهت لوثيندا عندما أصبحتا في الصالة، بجانب النافذة المطلة على الحديقة - لا تقولي لي إنك قمتِ بتمارين ايروبيك هذا الصباح.

- خرجت للجري على الكورنيش. ولدى العودة إلى الفندق، قادتني قدماي إلى هنا، هكذا مثلما أنا. منذ جئت، قبل ثلاثة أيام، وأنا مترددة بالمجيء أو عدم المجيء. وبما إذا كان مجيئي سيشكل مفاجأة له. ولكنه لم يتعرف علي.

- بل تعرف عليك جيداً - تقاطع ابنة عمتها ساقيها وتُخرج من حقيبتها علبة سجائر وولاعة - إنه عاجز عن الكلام، ولكنه يعرف من يدخل، ويفهم كل شيء. أنا ومانوليتا نأتي لرؤيته كل يوم تقريباً. أمي لا تستطيع المجيء، منذ انكسر حوضها. إذا تخلفنا عن المجيء يوماً، يعبس في وجهنا في اليوم التالي.

تمعن النظر في أورانيا بطريقة تدفع هذه الأخيرة إلى التفكير: «ستوجه إلي سلسلة أخرى من التأنيب». ألا يحزنك أن أباك يمضي سنواته الأخيرة مهجوراً، بين يدي ممرضة، لا تزوره إلا ابنتا أخته؟ أليس من واجبك البقاء إلى جانبه، ومنحه الحنان؟ أتظنين أنك بإرسال مبلغ شهري تنجزين واجبك؟ كل هذا يبدو في عيني لوثيندا المتقافزتين. ولكنها لا تتجرأ على قوله. تعرض سيجارة على أورانيا، وحين ترفضها تهتف بها:

– أنت لا تدخنين بالطبع. أتخيل ذلك، فأنت تعيشين في الولايات المتحدة. إنكم تعيشون هناك حملة محمومة ضد التدخين.

– أجل، إنها حملة محمومة حقيقية – تعترف أورانيا – لقد حظروا التدخين أيضاً في مكتب المحاماة. لا يهمني ذلك، فأنا لم أدخن قط.

فتضحك لوثينديتا:

– الفتاة الكاملة. اسمعي يا امرأة، بيني وبينك، ألم تكن لديك أية رذيلة؟ ألم تقومي يوماً بإحدى تلك الحماقات التي يقع فيها الجميع؟

– هناك بعضها – تضحك أورانيا – ولكن لا يمكن روايتها.

بينما هي تتبادل الحديث مع ابنة عمتها، كانت تتفحص الصالة. الأثاث هو نفسه، يكشف عن ذلك قِدمه واهتراؤه؛ فإحدى قوائم الأريكة مكسورة وقد استعيض عنها بدِعمة خشبية تسندها؛ وقماش التنجيد منسل الخيوط، فيه ثقوب، وقد فقد لونه الذي تتذكر أورانيا أنه كان أحمر شاحباً، أحمر بلون ثفل النبيذ. وأسوأ من الأثاث كانت حالة الجدران: هناك بقع من الرطوبة في كل مكان، وتطل في أماكن عديدة أجزاء من الحائط المكشوف. أما الستائر فقد اختفت، ومازالت هناك العوارض الخشبية والحلقات التي كانت تعلق بها.

تطلق ابنة عمتها سحابة من الدخان:

– إنك متأثرة للبؤس الذي صار إليه بيتك. بيتنا صار مثله يا أورانيا. لقد انهارت الأسرة بعد موت تروخييو، هذه هي الحقيقة. فقد طردوا أبي من مصنع التبغ ولم يجد بعد ذلك عملاً على الإطلاق. لأنه صهر أبيك، لهذا السبب فقط. ولكن الخال عانى مما هو أسوأ. لقد حققوا معه، واتهموه بكل أنواع الاتهامات، وفتحوا له محاكمة. وهو الذي وقع في المحنة عند تروخييو. لم يستطيعوا أن يثبتوا ضده أي شيء، ولكن حياته انهارت أيضاً. لحسن الحظ أن أوضاعك جيدة وتستطيعين مساعدته. فليس هناك من يستطيع ذلك في الأسرة. الجميع في حالة مدقعة. يا للخال أغوسطين المسكين! لم يكن مثل كثيرين ممن أثروا. لقد حل به الإفلاس لأنه كان محترماً.

أورانيا تستمع إليها باهتمام، وعيناها تشجعان لوثيندا على مواصلة الكلام، ولكن عقلها في متشيغان، في كلية سيينا، يستعيد تلك السنوات الأربع من الدراسة المهووسة والمُنقذة. الرسائل الوحيدة التي تتلقاها وترد عليها هي التي تصلها من الراهبة الأخت ماري. إنها رسائل حانية، متكتمة، لا تأتي على ذكر تلك

الحادثة مطلقاً، مع أنها ما كانت ستغضب لو أن الأخت ماري ذكرت ذلك - فهي الوحيدة التي اعترفت لها أورانيا بما جرى، والتي خطر لها الحل الملهم بإخراجها من هناك وإرسالها إلى أدريان، ومن هددت السيناتور كابرال لكي يوافق على سفرها - هل كانت سترتاح لو أنها فضفضت عن نفسها بين حين وآخر في رسالة إلى الأخت ماري حول ذلك الشبح الذي لم يتح لها لحظة من الهدنة؟

كانت الأخت ماري تحدثها في رسائلها عن المدرسة، وعن الأحداث الكبرى، عن شهور الاضطرابات التي تلت اغتيال تروخييو، وعن مغادرة رامفيس وكل أسرته البلاد، وعن تبدل الحكومات، وعن العنف في الشوارع، عن الفوضى، وتسألها باهتمام عن دروسها. وتهنئها على منجزاتها الأكاديمية.

تنظر إليها لوثيندا وكأنها تعريها:

- وكيف لم تتزوجي يا فتاة؟ لا أظنه نقصاً في الفرص. فأنت ما تزالين في حالة جيدة. أعذريني، ولكنك تعرفين كم نحن فضوليات معشر الدومينيكانيات.

هزت أورانيا كتفيها:

- الحقيقة أنني لا أعرف السبب. ربما بسبب ضيق الوقت يا ابنة عمتي. لقد كنتُ مشغولة جداً على الدوام؛ أولاً في الدراسة، وبعد ذلك في العمل. وقد اعتدت على العيش وحيدة ولم أعد قادرة على تقاسم حياتي مع رجل.

تسمع نفسها تتكلم ولا تصدق ما تقوله. أما لوثيندا بالمقابل، فلا تضع تلك الكلمات موضع الشك. وتقول محزونة:

- أحسنت صنعاً يا فتاة. وما الذي جنيته أنا من الزواج؟ فقد هجرني عديم الحياء بيدرو مع طفلتين. ذهب في أحد الأيام ولم يعد يبعث لي فلساً واحداً. وكان علي أن أربي طفلتين بالعمل في أشد الأمور إثارة للضجر، تأجير بيوت، بيع أزهار، إعطاء دروس للسائقين، وهم وقحون جداً، لا يمكنك تصور ذلك. وبما أنني لم أواصل تعليمي، فقد كانت تلك هي الأعمال الوحيدة التي أجدها. من مثلك يا ابنة خالي. لديك مهنة وتكسبين عيشك في عاصمة العالم من عمل مشوق. من الأفضل ألا تتزوجي. ولكن، لديك مغامراتك، أليس كذلك؟

تشعر أورانيا بنيران في خديها، وابتسامتها تجعل لوثيندا تفلت ضحكة:

- احم، احم، كيف صار لونك. لديك عشيق! أخبريني. أهو غني؟ مظهره جذاب؟ أهو غرينغو أم لاتيني؟

فتختلق أورانيا:

- رجل بصدغين فضيين، متميز جداً. متزوج وله أبناء. نلتقي في عطلة نهاية الأسبوع، إذا لم أكن مسافرة. علاقة لطيفة ودون التزامات.

- كم أحسدك يا فتاة - تصفق لوثيندا - هذا هو حلمي. عجوز غني ومتميز. يجب علي أن أذهب للبحث عنه في نيويورك، فالمسنون هنا جميعهم مصائب: شديدو البدانة.

عندما كانت في أدريان، لم يكن بإمكانها الامتناع أحياناً عن الذهاب إلى بعض الحفلات، أو الخروج في رحلة مع الفتيان والفتيات، فتتظاهر عندئذ بأنها تتبادل المغازلة مع ابن مزارعين يحدثها عن الخيول أو عن رحلات جريئة لتسلق الجبال المغطاة بالثلج في الشتاء، ولكنها تعود مستنفدة إلى سكن الطالبات بسبب كل ما كان عليها أن تتصنعه خلال تلك المشاوير الممتعة التي كانت تبحث عن ذرائع لتتجنبها. وقد توصلت إلى امتلاك قائمة من الاعتذارات: امتحانات، عمل، زيارة، إحساس بالكدر، ضيق المهلة المتبقية لتسليم حلقة البحث. أما خلال سنواتها في هارفرد فلا تذكر أنها ذهبت إلى حفلة أو إلى البارات أو أنها رقصت مرة واحدة.

- وزواج أختي مانوليتا كان مشؤوماً أيضاً. ليس لأن زوجها زير نساء مثلما هو زوجي. فزوجها بليد (حسن، اسمه إستيبان) لا يستطيع قتل ذبابة. ولكنه لا ينفع في شيء، يطردونه من أي عمل يجده. إنه يعمل الآن في أحد تلك الفنادق التي شيدوها للسياح في بونتا كاناس. يكسب أجراً بائساً وأختي لا تكاد تراه سوى مرة أو مرتين في الشهر. هل هذا زواج؟

قاطعتها أورانيا:

- هل تتذكرين روساليا بيردومو؟

- روساليا بيردومو؟ - تبحث لوثيندا وهي تغمض عينيها - الحقيقة أنني لا... آه، بالطبع! روساليا، من وقعت لها المشكلة مع رامفيس تروخييو؟ لم يرها أحد بعد ذلك اليوم قط. لا بد أنهم أرسلوها إلى الخارج.

قبول أورانيا في جامعة هارفرد كان حدثاً جرى الاحتفال به في كلية سيينا. ولم تكن قبل قبولها هناك قد انتبهت إلى السمعة الكبيرة التي تتمتع بها تلك الجامعة في الولايات المتحدة، ولا إلى الاحترام الذي يشار به إلى من تخرَّج، أو تعلَّم، أو درَّس هناك. وقد حدث ذلك بأكثر الطرق طبيعية؛ ولو أنها خططت مسبقاً لذلك لما كان أشد سهولة مما جرى. كانت في السنة الأخيرة. وبعد أن

هنأتها مديرة سبر الميول على دراستها، سألتها عن مخططاتها المهنية، فأجابتها أورانيا: «أحب المحاماة». «إنها مهنة يمكن كسب كثير من المال فيها» ردت عليها الدكتورة دوروثي ساليسون. ولكن أورانيا قالت «محاماة» لأنها الكلمة الأولى التي وردت على لسانها، وكان يمكن لها أن تقول الطب أو الاقتصاد أو البيولوجيا. لم تفكري قبل ذلك مطلقاً بمستقبلك يا أورانيا؛ كنتِ تعيشين مشلولة مع الماضي إلى حد لم يخطر لك معه أن تفكري بما هو أمامك. تفحصت الدكتورة ساليسون معها عدة خيارات وانتقت أربع جامعات مشهورة: يال، نوتردام، شيكاغو، ستانفورد. وبعد يوم أو يومين من ملء الاستمارات، استدعتها الدكتورة ساليسون: «ولماذا لا تتقدمي إلى هارفرد أيضاً؟ لن تخسري شيئاً». مازالت أورانيا تتذكر رحلاتها من أجل إجراء المقابلات، والليالي التي كانت تقضيها في سكن الأديرة بتدبير من الراهبات الدومينكان. وسعادة الدكتورة ساليسون، والراهبات، وزملائها في الدفعة عندما بدأت تصل ردود الجامعات، بما فيها جامعة هارفرد، بقبولها. وأعدوا لها حفلة كان عليها أن ترقص فيها.

سنواتها الأربع في أدريان أتاحت لها أن تعيش، وهو أمر كانت تظن أنها لن تستطيعه أبداً. ولهذا فإنها تحتفظ بالامتنان تجاه أولئك الراهبات. ومع ذلك، فإن أدريان في ذاكرتها هي مرحلة غائمة، غير واضحة، حيث الشيء الوحيد الواضح هو الساعات اللانهائية في المكتبة التي كانت تعمل فيها لكي لا تفكر.

أما كامبرج، في ماساشوستس، فكانت شيئاً آخر. هناك بدأت تعيش من جديد، وبدأت تكتشف أن الحياة تستحق أن تعاش، وأن الدراسة ليست علاجاً وحسب، وإنما هي متعة أيضاً، وأنها التسلية الأكثر إمتاعاً. كم كانت تستمتع بالدروس، بالمحاضرات، بحلقات الدرس! كانت مثقلة بوفرة الاحتمالات (ففضلاً عن الحقوق، اتبعت كمستمعة دورة في التاريخ الأمريكي اللاتيني، وحلقة دراسية حول الكاريبي، ودورة حول التاريخ الاجتماعي الدومينيكاني)، وكانت تفتقر إلى ساعات كل يوم وإلى أسابيع كل شهر لتفعل كل ما ترغب فيه.

سنوات عمل كثير، وليس عملاً ثقافياً وحسب. ففي السنة الثانية في هارفرد، أخبرها أبوها في واحدة من تلك الرسائل التي لم ترد عليها قط، أنه نظراً لسوء الأحوال، فإنه يجد نفسه مضطراً إلى حسم مئتي دولار من الخمسمئة التي يرسلها إليها كل شهر. فواصلت دراستها بعد ذلك بفضل القرض الطلابي الذي حصلت عليه. ولكنها من أجل مواجهة متطلباتها الحياتية

البسيطة. عملت في ساعات فراغها بائعة في سوبر ماركت، ونادلة في محل بيتزا في بوسطن، وموزعة أدوية، و - العمل الأقل إزعاجاً - مرافقة وقارئة لمشلول مليونير من أصل بولوني، السيد ميلفين ماكوفسكي. فما بين الخامسة والثامنة ليلاً، في بيته الفيكتوري ذي الأسوار الكبيرة في ماساشوستس أفينو، كانت تقرأ له روايات ضخمة من القرن التاسع عشر (**الحرب والسلام**، **موبي ديك**، **البيت الأسود**، **باميلا**)، وبعد ثلاثة شهور من تلك القراءات، عرض عليها بصورة مفاجئة الزواج.

- وهو مشلول؟ - تفتح لوثيندا عينيها باستغراب.

- وفي السبعين. - تحدد أورانيا - وثري جداً. عرض علي الزواج، أجل. لكي أرافقه وأقرأ له فحسب.

- يا لك من حمقاء يا ابنة خالي. استنكرت لوثينديتا - كان بإمكانك أن ترثيه وتصبحي مليونيرة.

- معك حق، لقد كان صفقة رابحة.

- ولكنك كنت شابة مثالية. تعتقدين بأن الفتاة يجب أن تتزوج عن حب - ابنة عمتها تسهل عليها التوضيحات - وكأن الحب يدوم. أنا أيضاً أضعت فرصة للزواج من طبيب متلحف بالمال. كان يموت بي. ولكنه كان قاتم البشرة وقيل إنه من أم هايتية. لم أكن متحاملة أو عنصرية، ولكن، ماذا لو ارتد ابني قفزة إلى الوراء وجاء مُفحماً؟

لقد أحبت الدراسة كثيراً، وأحست بالسعادة في هارفرد حتى انها فكرت بالتدريس، بالحصول على الدكتوراه. ولكنها لم تكن تملك الموارد اللازمة لذلك. فأبوها في وضع يزداد صعوبة، وقد أوقف وهي في السنة الثالثة الإرسالية الشهرية المختزلة، فصارت بحاجة إلى البدء بكسب النقود وتلقيها بأسرع ما يمكن لكي تدفع القرض الجامعي وتغطي نفقات حياتها. كانت شهرة كلية الحقوق في جامعة هارفرد هائلة؛ وعندما بدأت بإرسال الطلبات، دعوها إلى عدة مقابلات. وحسمت أمرها للعمل في البنك الدولي. أحزنها الانتقال؛ ففي تلك السنوات في كامبرج أصيبت بعدوى «الادمان السعيد»: قراءة وجمع كتب حول عهد **تروخييو**.

كانت هناك في الصالون الخرب صورة أخرى لحفلة تخرجها - ذلك الصباح ذو الشمس الساطعة التي تشعل الفناء المزين بالمظلات، وبالملابس الأنيقة،

وبالقلنسوات، وعباءات الأساتذة والخريجين متنوعة الألوان - صورة مماثلة لتلك التي في غرفة السيناتور كابرال. كيف حصل عليها؟ لم ترسلها هي إليه بكل تأكيد. آه، الأخت ماري. هذه الصورة أرسلتها هي إلى مدرسة سانتو دومنغو. ذلك أن أورانيا واصلت مراسلة الأخت ماري حتى وفاة تلك الراهبة الطيبة. تلك الروح المحسنة واصلت إطلاع السيناتور كابرال على سير حياة أورانيا. إنها تتذكرها مستندة إلى شرفة مبنى المدرسة المتجه نحو الجنوب الشرقي، وهي تنظر إلى البحر، في الطابق العلوي، المحظور على التلميذات، وحيث تعيش الراهبات؛ شبحها الضامر يتضاءل من بعيد في ذلك الفناء حيث كلبا الحراسة الألمانيان - بادولاك وبروتس - يتمشيان ما بين ملعبي التنس وكرة الطائرة والمسبح.

الجو حار وهي تتعرق. لم تشعر قط بمثل هذا البخار، هذا التنفس البركاني، فأصياف نيويورك الحارة تُواجه بأجواء مكيفات الهواء الباردة. أما هذا الحر فهو مختلف: إنه حر طفولتها. ولم يعرف مسمعاها أيضاً، على الإطلاق، مثل هذه السيمفونية الغريبة من نفير السيارات، والأصوات، والموسيقى، والنباح، والفرامل، التي تدخل من النافذة وتجبرها، هي وابنة عمتها على رفع صوتيهما كثيراً.

- هل صحيح أن جوني أبيس اعتقل أبي عندما قتلوا تروخييو؟

فوجئت ابنة عمتها:

- أولم يخبرك هو؟

- أنا كنت في متشغان آنذاك - ذكّرتها أورانيا.

هزت لوثيندا رأسها موافقة، مرفقة ذلك بابتسامة اعتذار.

- اعتقله طبعاً. لقد أصيب رامفيس وراداميس والتروخييويون بالجنون. بدؤوا يقتلون ويسجنون يميناً ويساراً دون تمييز. ولكنني لا أتذكر الكثير. كنتُ ما أزال طفلة، ولم تكن تهمني السياسة مطلقاً. بما أن الخال أغوسطين كان مُبعداً عن تروخييو، فقد ظنوا أنه مشارك في المؤامرة. لقد حبسوه في ذلك السجن الرهيب، الأربعين، الذي هدمه بالاغير، وأقيمت مكانه الآن كنيسة. ذهبت أمي لمقابلة بالاغير، للتوسل إليه. وقد أبقوه عدة أيام، ريثما تأكدوا من أنه لم يشارك في المؤامرة. وبعد ذلك قدم له الرئيس بالاغير منصباً بائساً، يبدو وكأنه سخرية: ضابط السجل المدني في الدائرة الثالثة.

- هل روى لكم كيف عاملوه في الأربعين؟

تطلق لوثيندا سحابة دخان تنشر غمامة في البيت للحظة.

- ربما يكون قد أخبر أبوي، أما أنا ومانوليتا فلا، لأننا كنا صغيرتين جداً. لقد آلم الخال أغوسطين أن يفكروا في أنه يمكن له أن يخون تروخييو. لقد سمعته طوال سنوات وهو يشكو السماء من الجور الذي اقترفته.

- اقترفته ضد أوفى خدم تروخييو - قالت أورانيا ساخرة - هو الذي كان قادراً على ارتكاب الفظائع في سبيل تروخييو، يصير مشبوها بالتواطؤ في قتله. يا للجور، حقاً!

تصمت حين ترى الاستنكار في وجه ابنة عمتها.

- هذا الكلام عن الفظائع لا أدري لماذا تقولينه- دمدمت مذهولة - ربما أخطأ خالي في كونه تروخييوياً. فهم يقولون الآن إنه كان دكتاتوراً ومثل هذه الأمور. أبوك خدمه بطيب نية. وبالرغم من أنه شغل مناصب رفيعة جداً، إلا أنه لم يستغلها. أتراه فعل ذلك؟ إنه يقضي آخر سنوات حياته فقيراً مثل كلب؛ لولاك لكان في ملجأ للمسنين.

تحاول لوثيندا أن تكبح الاستياء الذي هيمن عليها. تأخذ نفساً أخيراً من سيجارتها، وحين لا تجد أين تطفئها - لا وجود لمنافض في الصالة المشعثة -، تلقي بها من النافذة إلى الحديقة الذاوية.

- أعرفُ جيداً أن أبي لم يخدم تروخييو لمنفعة - لا تستطيع أورانيا تجنب النبرة الساخرة - ولا أرى في هذا سبباً مُخَفِفاً. بل هو عامل مشدِّد.

تنظر إليها ابنة عمتها دون أن تفهم. وتوضح أورانيا:

- لا بد له، وقد فعل كل ذلك حباً به، من أن يشعر بالإهانة من عدم ثقة رامفيس وأبيس غارسيا والآخرين به. من ارتيابهم به، هو الذي كاد اليأس أن يصيبه بالجنون عندما أدار له تروخييو ظهره.

- حسن، ربما يكون قد أخطأ - تكرر ابنة عمتها، طالبة منها بعينيها تغيير الموضوع - لا بد من الاعتراف على الأقل بأنه كان محترماً. وهو لم يجنِ ثروة مثلما فعل كثيرون، وبقوا يعيشون مرفهين مع كل الحكومات، وخصوصاً مع حكومات بالاغير الثلاث.

- كنتُ أفضل لو أنه خدم تروخييو لمنفعة، من أجل أن يسرق أو ينال سلطة - تقول أورانيا ذلك وهي ترى مرة أخرى البلبلة والاستياء في عيني لوثيندا - من

أجل أي شيء، قبل أن أراه يتباكى لأن تروخييو يرفض مقابلته، ولأن هناك رسائل تشتمه تُنشر في صفحة **المحكمة العامة**.

إنها ذكرى ملحة طالما عذبتها في أدريان وفي متشيغان، ثم رافقتها، وقد خفت بعض الشيء، طوال تلك السنوات في البنك الدولي، في واشنطن العاصمة، وما زالت تداهمها في منهاتن: ذكرى السيناتور أغوسطين كابرال المخذول وهو يتقلب مهووساً في هذه الصالة، متسائلاً عن المكيدة التي دبرها ضده الدستوري سكران، أو المداهن خواكين بالاغير، أو السمج فيرخيليو ألفاريث بينا، أو باينو بيتشاردو، وجعلت **الزعيم** يمحوه من الوجود بين ليلة وضحاها. لماذا الوجود، وأي معنى يمكن أن يكون للوجود في نظر سيناتور ووزير سابق لا يرد **المنعم** على رسائله ولا يسمح له بالحضور إلى مجلس الشيوخ؟ هل ستتكرر معه قصة انسيلمو باولينو؟ هل سيأتي المخبرون في فجر أي يوم لأخذه ودفنه في زنزانة؟ هل ستظهر صحيفتا **لاناسيون والكاريبي** ممتلئتين بأخبار مقرفة عن سرقاته، اختلاساته، خياناته، جرائمه؟

- السقوط في المحنة كان أسوأ بالنسبة إليه من قتل أحب إنسان إليه.

تستمع إليها ابنة عمتها بارتباك متزايد. ثم تقول لها أخيراً:

- أكان هذا هو سبب غضبك يا أورانيا؟ أكانت السياسة هي السبب؟ ولكنني أتذكرك جيداً، فأنت لم تكوني تهتمين بالسياسة. فمثلاً، عندما دخلت هاتيك الفتاتان اللتان لا يعرفهما أحد في منتصف السنة إلى المدرسة. وقيل إنهما مخبرتان ولم يكن هناك من يتكلم في موضوع آخر، كنتِ أنت تملين تلك الأحاديث السياسية وتطبقين أفواهنا.

- لم تهمني السياسة في يوم من الأيام - أكدت أورانيا - معك حق، لماذا التكلم في شؤون مضت عليها ثلاثون سنة.

تظهر المرضة على السلّم. إنها تمسح يديها بخرقة زرقاء. وتقول لهما:

- إنه نظيف ومبودر مثل طفل رضيع. يمكنكما الصعود عندما تشاءان. سأُعد غداء دون أغوسطين. هل أُعد لك الغداء أيضاً يا سيدتي؟

- لا شكراً - تقول أورانيا - سأذهب إلى الفندق، وهكذا انتهز الفرصة لأستحم وأبدل ملابسي.

- هذه الليلة يجب أن تأتي للعشاء معنا في البيت في كل الأحوال. ستبتهج أمي كثيراً. وسأتصل كذلك بمانوليتا، وستفرح. - تبدي لوثيندا تكشيرة حزن -

ستُذهلين يا ابنة خالي. هل تتذكرين كم كان البيت كبيراً وجميلاً؟ لم يبقَ إلا نصفه. بعد موت أبي اضطررنا إلى بيع الحديقة ومعها الكراج وغرف الخدم. ما علينا، يكفي حماقات. حين رأيتُك عادت إلى ذاكرتي سنوات الطفولة. كنا سعداء، أليس كذلك؟ لم يكن يخطر ببالنا أن كل شيء سيتغير، وأن البقرات العجاف ستأتي. حسن، سأذهب، وإلا ستبقى أمي دون غداء. ستأتين للعشاء معنا، أليس كذلك؟ ألن تختفي خمساً وثلاثين سنة أخرى؟ آه، أنت تتذكرين البيت، في شارع سنتياغو، على بعد مئة كوادرا من هنا.

- أتذكره جيداً - تنهض أورانيا واقفة وتعانق ابنة عمتها - هذا الحي لم يتغير فيه شيء.

ترافق لوثيندا حتى الباب الخارجي وتودعها بعناق آخر وبقبلة على الخدين. وحين تراها تبتعد بفستانها المزهر عبر شارع يغلي بشمس ويرد فيه نباح عال على قوقأة دجاج، يهيمن عليها الغم. ما الذي تفعلينه هنا؟ ما الذي جئت تبحثين عنه في سانتو دومنغو، في هذا البيت؟ هل ستذهبين للعشاء مع لوثيندا ومانوليتا والعمة آديلينا؟ لا بد أن المسكينة قد تحولت إلى مستحاثة، مثلما هو أبوها.

تصعد السلم ببطء، مؤخرة اللقاء. وتشعر بالراحة حين تجده نائماً. متكوراً على نفسه في مقعده، عيناه مقطبتان وفمه مفتوح؛ وصدره الضامر يعلو ويهبط بصورة إيقاعية. تتفحصة، تتكهنه. لقد اعتقلوه هو أيضاً عند مصرع تروخييو. ظنوا أنه أحد التروخييوين الذين تآمروا مع أنطونيو دي لاماثا، ومع الجنرال خوان توماس دياث وأخيه موديستو، وأنطونيو إمبرت ورفاقه. أي رعب وأي استياء أحسستَ بهما يا أبي. لقد علمت هي بأن أباها قد وقع في تلك الحبائل أيضاً، علمت بذلك بعد سنوات طويلة، في إشارة عابرة، في مقال مكرس لأحداث الدومينيكان عام 1961. ولكنها لم تعرف التفاصيل مطلقاً. فهي لا تتذكر أن السيناتور كابرال قد أشار إلى ذلك في تلك الرسائل التي لم تكن ترد عليها. «أن يتخيل أحد، ولو لثانية واحدة، بأنك فكرت بقتل تروخييو، هو أمر سبب لك دون شك ألماً أشبه بالوقوع في المحنة دون معرفة السبب». هل استجوبه جوني أبيس شخصياً؟ أم رامفيس؟ أم بيتشيتو ليون استيفيث؟ هل أجلسوه على العرش؟ أكان أبوها مرتبطاً بطريقة ما بالمتآمرين؟ صحيح أنه بذل جهوداً تفوق طاقة البشر ليستعيد رضا تروخييو عليه، ولكن أي إثبات في كل هذا؟ فمتآمرون

كثيرون كانوا يلحسون تروخييو حتى اللحظة التي سبقت قتله. ربما يكون أغوسطين كابرال، وهو الصديق المقرب من موديستو ديات، قد علم بأمر الخطة. ألم يكن الرئيس بالاغير نفسه على علم بها كما يقول البعض؟ فإذا كان رئيس الجمهورية ووزير القوات المسلحة نفسه على علم بالعملية، لماذا لا يكون أبوها كذلك؟ المتآمرون كانوا يعلمون بأن **الزعيم** قد أمر بمحنة السيناتور كابرال منذ ما قبل أسابيع؛ ولا غرابة في أن يفكروا به كحليف محتمل.

يطلق أبوها بين الفينة والفينة شخيراً ناعماً. عندما تتوقف ذبابة على وجهه، يهشها بحركة من رأسه، دون أن يستيقظ. كيف علمتِ بأنهم قد قتلوه؟ في الثلاثين من أيار 1961 كنتِ في أدريان. وكانت قد بدأت تنفض النعاس، التعب الذي يبقيها معزولة عن العالم وعن نفسها، في حالة من الذهول، عندما دخلت الراهبة المسؤولة عن مسكن الطالبات إلى الغرفة التي تتقاسمها أورانيا مع أربع رفيقات أخريات وأرتها عنوان الجريدة التي تحملها في يدها: «مصرع تروخييو». وقالت لها: «إنني أعيرك الجريدة». ما الذي شعرتِ به؟ تقسم أنها لم تشعر بشيء، وبأن الخبر انزلق عنها دون أن يجرح وعيها، مثل كل ما كانت تسمعه وتراه في ما حولها. ربما أنها لم تقرأ الخبر، واكتفت بالعنوان. ولكنها تتذكر بالمقابل، بعد أيام أو أسابيع، ما جاء في رسالة من الأخت ماري من تفاصيل حول تلك الجريمة، حول جريمة مداهمة المخبرين للمدرسة من أجل اعتقال المطران ريللي، وحول الفوضى والقلق الذي تعيشهما البلاد. ولكن لم يكن بإمكان تلك الرسالة من الأخت ماري أيضاً أن تُخرجها من عدم مبالاتها العميقة حول شؤون الدومينيكان والدومينيكانيين، والتي لم تخرجها منها بعد سنوات إلا تلك الدورة الدراسية عن تاريخ منطقة الأنتيل في جامعة هارفرد.

وقرارك بالمجيء إلى سانتو دومنغو، وبزيارة أبيك، هل يعني أنكِ قد شفيتِ؟ لا. لقد شعرتِ بالسعادة، بالتأثر، حين التقيتِ بلوثيندا، صديقتك المقربة، ورفيقتك في جولات شرب الفرموت وفي أمسيات الذهاب إلى سينما أولمبيا و إيليتيه، وإلى الشاطئ أو الكونتري كلوب، لا بد أنك أشفقتِ على حياتها التي تبدو فقيرة وآمالها المعدومة في أن تتحسن. لم تسعدك، ولم تؤثر بك، ولم تحزنك. بل أضجرتك بتلك العواطف وذلك التحسر الذي يسبب لك الكثير من الاشمئزاز.

«إنك جبل جليدي. أنت لا تبدين دومينيكانية حقاً. أنا أبدو دومينيكانياً أكثر منك.» ما هذا! إنها تتذكر الآن ستيفن دونكان، زميلها في البنك الدولي. أكان

ذلك في العام 1985 أم 1986؟ في ذلك الحين تقريباً. وكان ذلك في تلك الليلة في تايبه، بينما هما يتناولان العشاء معاً، في ذلك الفندق الكبير الذي له شكل باغودا هوليودية حيث كانا يقيمان، وكانت المدينة تبدو من نوافذه مثل ملاءة فسيحة من حباحب مضيئة. وللمرة الثالثة أو الرابعة أو العاشرة، عرض عليها ستيف الزواج، وردت عليه أورانيا بصورة أكثر حسماً مما في مرات أخرى: «لا». وعندئذ رأت باستغراب وجه ستيف الأشقر ينقلب. لم تستطع منع نفسها من الضحك.

- تبدو وكأنك ستنفجر بالبكاء يا ستيف. هل كل ذلك حباً بي؟ أم أنك شربت ويسكي أكثر مما يجب؟

لم يبتسم ستيف. بقي ينظر إليها لبعض الوقت، دون أن يرد، وقال تلك الجملة: «إنك جبل جليدي. أنت لا تبدين دومينيكانية. أنا أبدو دومينيكانياً أكثر منك». ما هذا، ما هذا، لقد وقع الأشقر في هواك يا أورانيا. ما الذي سيجري له؟ إنه شخص عظيم، خريج اقتصاد من جامعة شيكاغو، اهتمامه بالعالم الثالث يصل إلى حد الاهتمام بمشاكل التنمية، والاهتمام بلغاته ونسائه. وقد انتهى به المطاف إلى الزواج من باكستانية، موظفة في البنك، في قسم الاتصالات.

أكنتِ جبل جليد يا أورانيا؟ مع الرجال فقط. وليس معهم جميعاً. مع أولئك الذين تشي نظراتهم، حركاتهم، إيماءاتهم، نبرة صوتهم، بالخطر. عندما تحدسين، في أدمغتهم أو غرائزهم، بنية مغازلتك، بإقامة علاقة معك. أجل، مثل هؤلاء الرجال تجعلينهم يشعرون ببرودة قطبية تعرفين كيف تنشرينها من حولك، مثل تلك الرائحة النتنة التي يُبعد بها الظربان أعداءه عنه. وهي مهارة أتقنتِها بالبراعة نفسها التي توصلتِ إلى امتلاكها في كل ما نويتِ عليه: الدراسة، العمل، الحياة المستقلة. «كل شيء باستثناء أن تكوني سعيدة» وهل كان بإمكانك أن تكوني سعيدة باستخدام إرادتك، وانضباطك، والتوصل إلى الانتصار على الرفض الذي لا يمكن الانتصار عليه، القرف الذي يبعثه فيك الرجال الذين تستيقظ فيهم الشهوة؟ ربما. كان بإمكانك اتباع علاج ما، اللجوء إلى طبيب نفسي، إلى محلل نفساني. فهؤلاء لديهم علاج لكل شيء، بما في ذلك القرف من الرجل. ولكنك لم ترغبي يوماً في الشفاء. بل على العكس، فإنتِ لم تعتبري ذلك حالة مرضية، وإنما ملمحاً من شخصيتك، مثل ذكائك، ووحدتك، وشغفك بالعمل المتقن.

عينا أبيها مفتوحتان وهو ينظر إليها بشيء من الذعر.

- لقد تذكرتُ ستيف، إنه كندي كان يعمل في البنك الدولي - تقول بصوت خافت وهي تتفحصه - ولأنني لم أوافق على الزواج منه، قال لي إنني جبل جليد. اتهام يمكن له أن يثير غضب أي دومينيكانية. فنحن مشهورات بأننا ملتهبات، وأننا لا نُجارى في الحب. أما أنا فكسبت شهرة معاكسة: متصنعة، غير مبالية، باردة. ما رأيك يا أبي؟ الآن بالذات اضطررتُ إلى اختلاق عشيق لا وجود له أمام ابنة عمتي لوثيندا حتى لا تسيء الظن بي.

تصمت لأنها تلاحظ أن المشلول المتكور في المقعد يبدو مرعوباً. لم يعد يهش الذباب الذي يتمشى مطمئناً على وجهه.

- وهذا موضوع كنت أرغبُ في أن نتحدث فيه يا أبي. النساء، الجنس. هل كانت لديك مغامرات بعد وفاة أمي؟ أنا لم ألاحظ شيئاً في يوم من الأيام. لا يبدو عليك أنك زير نساء. هل كانت السلطة تستغرقك إلى حد لا تفتقد معه الجنس؟ هذا وارد، حتى في هذه البلاد الحارة. فهذه هي حالة رئيسنا المؤبد دون خواكين بالاغير، أليس كذلك؟ إنه عازب وهو في التسعين. كتبَ قصائد حب وهناك إشاعات عن وجود ابنة سرية له. أما أنا فكان لدي على الدوام انطباع بأن الجنس لم يكن يهمه على الإطلاق، وأن السلطة قد وفرت له ما يوفره الفراش لآخرين. هل كنتَ أنت هكذا يا أبي؟ هل دعاك تروخييو إلى ليالي مجونه في بيت كاوبا؟ ما الذي كان يحدث هناك؟ وهل كان **الزعيم** يتسلى، مثل رامفيس، بإذلال أصدقائه مجبراً إياهم على حلاقة سيقانهم، وانتزاع شعر وجوههم، وطلاء أنفسهم بالأصبغة مثل مومسات عجائز؟ هل كان يقوم بمثل هذه الظرافات؟ هل فعلها معكَ؟

شحب لون السيناتور كابرال إلى حد فكرت معه أورانيا: «إنه يدخل في غيبوبة». ولكي يهدأ، ابتعدت عنه. ذهبت إلى النافذة وأطلت منها. إنها تشعر بقوة الشمس في رأسها، في بشرة وجهها المحمومة. إنها تتعرق. يجب عليكِ أن ترجعي إلى الفندق، وتملئي حوض الاستحمام بالرغوة، وتستحمي طويلاً في ماء بارد. أو أن تنزلي للغطس في مسبح البورسلين، وبعد ذلك تتذوقي مائدة الأطعمة المحلية التي يقدمها مطعم فندق خاراغوا. سيكون هناك بازيلاء مع الرز ولحم الخنزير. ولكنك لا ترغبين في ذلك. إنك تفضلين الذهاب إلى المطار، والصعود إلى أول طائرة متوجهة إلى نيويورك لتعودي إلى حياتك في مكتب

المحاماة المشحون بالعمل على الدوام، وإلى شقتك عند تقاطع ماديسون مع الشارع 73.

تعود إلى الجلوس على السرير. يغمض أبوها عينيه. أهو نائم أم يتظاهر بالنوم بسبب الخوف الذي تبعثه فيه؟ إنك تجعلين المشلول المسكين يمر بلحظات عصيبة. أهذا هو ما تريدينه؟ إرعابه، تكبيده ساعات من الذعر؟ هل تشعرين بالتحسن الآن؟ لقد سيطر عليها التعب، ولأن عينيها أُغمضتا، نهضت واقفة.

تذهب بصورة آلية نحو خزانة الملابس الضخمة المصنوعة من خشب قاتم التي تشغل أحد جدران الغرفة بكامله. إنها شبه خاوية. على خطافات من الأسلاك تُعلق بدلة من قماش رصاصي، مائلة إلى الصفرة مثل قشرة بصل، وعدة قمصان مغسولة ولكنها دون كي؛ قميصان منها تنقصهما بعض الأزرار. أهذا ما تبقى من ملابس رئيس مجلس الشيوخ أغوسطين كابرال؟ لقد كان رجلاً متأنقاً. كان يهتم بشخصه وملبسه، مثلما يرغب الزعيم. ماذا جرى لبدلات السموكينغ، والفراك، والبدلات القاتمة من الجوخ الانكليزي، والبيضاء ذات الخيوط الحساسة؟ لقد سرقها شيئاً فشيئاً الخدم والممرضات والأقارب المعوزون.

صار التعب أقوى من إرادتها على البقاء مستيقظة. ترتمي على السرير وتغمض عينيها. وقبل أن تغفو تتوصل إلى التفكير بأن لهذا السرير رائحة رجل عجوز، رائحة أحلام وكوابيس هرمة جداً.

الفصل الحادي عشر

- لدي سؤال يا صاحب الفخامة - قال سيمون جيتلمان بوجهه المحمر من كؤوس الشمبانيا والنبيذ، أو ربما بسبب التأثر - بين كل الإجراءات التي اتخذتها لمنح العظمة لهذه البلاد، أي إجراء كان أصعبها عليك؟

كان يتكلم إسبانية رائعة، بلكنة خفيفة جداً، لا تشبه في شيء تلك اللغة المليئة بالأخطاء والنبرات الجافية التي يتكلمها كثيرون من الغرينغيين الذين مروا في مكاتب وصالونات القصر الوطني. كم تحسنت إسبانية سيمون منذ العام 1921، عندما كان تروخييو ملازماً شاباً في الحرس الوطني، حين قُبل في مدرسة الضباط في هاينا وكان جندي المارينز هذا هو مدربه، وقد كان يتلعثم آنذاك بلغة بربرية، خليط من الكلمات النابية. لقد صاغ جيتلمان السؤال بصوت عالٍ توقفت معه الأحاديث والتفت عشرون رأساً - فضولياً، باسماً، وقوراً - نحو المنعم بانتظار جوابه.

- يمكنني أن أجيبك يا سيمون - اتخذ تروخييو الصوت المتجرجر والأجوف الذي يستخدمه في المناسبات المهيبة. وثبت نظره على الثريا الكريستال ذات المصابيح الموزعة على شكل زهرة، وأضاف: - إنه يوم 2 تشرين الأول 1937، في داخابون.

حدث تبادل سريع للنظرات بين حضور مأدبة الغداء التي يقيمها تروخييو على شرف سيمون ودورثي جيتلمان، بعد الحفلة التي تم فيها منح المارينز السابق وسام الجدارة خوان بابلو دوارتي. وقد انكسر صوت جيتلمان وهو يقدم الشكر. أما الآن فإنه يحاول أن يخمن الحدث الذي يعنيه فخامته.

- آه، أجل! الهايتيون! - كفه التي هوت على الطاولة زعزعت الكريستال الفاخر للأكواب، والأطباق، والكؤوس والزجاجات - إنه اليوم الذي قررتَ فيه فخامتك حل مشكلة الغزو الهايتي حلاً حاسماً.

الجميع كانوا يشربون كؤوساً من النبيذ، ولكن الجنراليسمو وحده كان يشرب

الماء. لقد كان جدياً، مستغرقاً في ذكرياته. ازداد الصمت زخماً. رفع الجنراليسمو يديه بحركة طقوسية، مسرحية، وعرضهما على المدعوين:

- لقد لطختُ نفسي بالدم من أجل هذه البلاد - أكد متهجياً - حتى لا يستعمرنا الزنوج مرة أخرى. لقد كانوا بعشرات الآلاف في كل مكان. لولا ما فعلته لما كانت جمهورية الدومينيكان موجودة اليوم. ولكانت الجزيرة كلها قد تحولت إلى هايتي، مثلما كان الحال عام 1840. ولكانت حفنة البيض المتبقين على قيد الحياة تعمل في خدمة الزنوج. لقد كان ذلك هو أصعب قرار اتخذته خلال ثلاثين سنة من الحكم يا سيمون.

- تنفيذاً لأوامر سيادتك جبنا منطقة الحدود من أقصاها إلى أقصاها - وانحنى النائب الشاب هنري تشيرينوس فوق خريطة هائلة مفتوحة فوق مكتب الرئيس وأشار: - إذا ما استمر الأمر على هذا المنوال، فلن يكون ثمة مستقبل لكيسكيّا[1] يا صاحب الفخامة.

- الوضع أخطر مما أعلموك به يا صاحب الفخامة - وداعبت سبابة النائب الشاب أغوسطين كابرال الدقيقة خط الحدود الأحمر المنقط الذي ينزل متعرجاً من داخابون إلى بيدرناليس - هناك آلافُ الآلاف مستقرون في المزارع والحقول والدساكر. لقد حلوا محل اليد العاملة الدومينيكانية.

- إنهم يشتغلون مجاناً، دون تقاضي أجر، يعملون مقابل الطعام فقط. وبما أنه لا يوجد طعام في هايتي، فإن قليلاً من الرز والبازيلاء يكفيهم ويزيد. إنهم أرخص من الحمير والكلاب.

أومأ تشيرينوس وأعطى الكلمة لصديقه وزميله.

- لا جدوى من إقناع الملاكين وأصحاب المزارع يا صاحب الفخامة - قال كابرال - إنهم يردون وهم يلمسون جيوبهم: «وما أهمية كونهم هايتيين ما داموا قاطعي قصب جيدين في موسم الحصاد، ولا يتقاضون إلا أجراً ضئيلاً؟ لن أعمل ضد مصالحي من أجل الوطنية».

صمت ونظر إلى النائب تشيرينوس فأخذ هذا بدوره الكلام:

- على امتداد داخابون، إلياس بينيا، اندبيندنثيا، وبيدرناليس، بدلاً من الإسبانية لا تُسمع هناك إلا الزمجرات الأفريقية للغة **الكريولي**.

---

[1] كيسكيا Quisqueya: الجزيرة التي تضم دولتي الدومينيكان وهايتي.

نظر إلى أغوسطين كابرال وواصل هذا:

- الطواطم، والمقدسات، والشعوذات الأفريقية تجتث الديانة الكاثوليكية، التي تميزنا، مثلما تجتث اللغة والعرق من هويتنا الوطنية.

وانتهى النائب الشاب تشيرينوس قائلاً:

- لقد رأينا أساقفة يبكون من اليأس يا صاحب الفخامة. فالهمجية ما قبل المسيحية تسيطر على بلاد دييغو كولومبس، وخوان بابلو دوارتي، وتروخييو. صار للسحرة الهايتيين نفوذ أوسع من الرهبان. وللمداوين المشعوذين نفوذ أوسع من الصيادلة والأطباء.

- أولم يكن الجيش يفعل شيئاً؟ - سأل سيمون جيتلمان وشرب رشفة من النبيذ. وسارع نادل يرتدي الزي الأبيض إلى ملء كأسه من جديد.

- أنت تعرف يا سيمون بأن الجيش يفعل ما يأمره به القائد - كان المنعم والمارينز السابق وحدهما يتكلمان. بينما الآخرون يستمعون ورؤسهم تتحرك متنقلة من أحدهما إلى الآخر. وتابع تروخييو - كانت الغنغرينا قد تقدمت عالياً جداً. فمناطق مونتكريستو، وسنتياغو، وسان خوان، وأثوا، كانت تتغل بالهايتيين. كان الوباء ينتشر دون أن يفعل أحد شيئاً. بانتظار رجل دولة صاحب رؤيا، ويد لا تعرف الارتعاش.

- تصور هيدرا برؤوس لا حصر لها يا صاحب الفخامة - راح النائب الشاب تشيرينوس يتدفق شاعرية مع إيماءاته البهلوانية - هذه اليد العاملة تسلب العمل من الدومينيكاني الذي اضطر، من أجل العيش، إلى بيع مزرعته وأرضه. ومن يشتري منه تلك الأراضي؟ الهايتي المغتني بالطبع.

- هذا هو رأس هيدرا الثاني يا صاحب الفخامة - يؤكد النائب الشاب كابرال - ينتزعون العمل من المواطن، ويستولون على سيادتنا قطعة فقطعة.

- ويستولون كذلك على النساء - شدد الشاب هنري تشيرينوس على صوته مطلقاً نَفَسه العابق برائحة الخمر: وأطل لسانه الأحمر مثل أفعى من بين شفتيه - فليس هناك ما يجتذب اللحم الأسود مثل اللحم الأبيض. لقد صار هتك الدومينيكانيات على يد الهايتيين هو الخبز اليومي.

- ولا تتكلم عن السرقات، عن السطو على الممتلكات - ألح الشاب أغوسطين كابرال - فعصابات الأشرار تجتاز نهر ماساكري وكأنه ليس ثمة جمارك، أو مراكز مراقبة، أو دوريات. الحدود مثل مصفاة. العصابات تجتاح القرى والمزارع

مثل سحب من الجراد. ثم تسوق بعد ذلك المواشي إلى هايتي وتأخذ كل ما تجده صالحاً للأكل أو اللبس أو الزينة. تلك المنطقة لم تعد لنا يا صاحب الفخامة. لقد فقدنا فيها لغتنا وديانتنا وعرقنا. إنها الآن جزء من الهمجية الهايتية.

دوروثي جيتلمان لا تكاد تتكلم الإسبانية، ولا بد أنها أحست بالضجر من ذلك الحوار حول أمر حدث قبل خمس وعشرين سنة، ولكنها كانت تهز رأسها بكل جدية بين وقت وآخر، وهي تنظر إلى **الجنراليسمو** وإلى زوجها وكأنها لا تضيع كلمة مما يقولانه. لقد أجلسوها ما بين الرئيس الدمية خواكين بالاغير، ووزير القوات المسلحة الجنرال خوسيه رينه رومان. إنها مسنة ضئيلة، هشة، سوية، تبدو وكأنها قد استعادت شبابها بفستانها الصيفي ذي اللون الوردي. بل إنها أفلتت بعض الدموع أيضاً، خلال حفل تقليد الوسام، عندما قال **الجنراليسمو** إن الشعب الدومينيكاني لن ينسى التضامن الذي يقدمه إليه الزوجان جيتلمان في هذه الظروف العصيبة، حيث حكومات كثيرة توجه إليه خناجرها.

– لقد كنتُ أعرف بما يجري – أكد تروخييو – ولكنني أردت التأكد تماماً بحيث لا يبقى مجال للشك. بل إنني لم أتخذ قراراً نهائياً حتى عندما تلقيت تقريراً من **الدستوري سكران** ومن **مخيخ** اللذين أرسلتهما للتحقق على أرض الواقع. قررت الذهاب بنفسي إلى الحدود. وذرعتها على صهوة جواد، برفقة المتطوعين من الحرس الجامعي. وبعيني هاتين رأيتهم: لقد كانوا يغزوننا من جديد، مثلما فعلوا في 1822. ولكن بصورة سلمية هذه المرة. هل يمكنني عندئذ أن أسمح ببقاء الهايتيين في بلادي خمساً وعشرين سنة أخرى؟

– لا يمكن لأي وطني أن يسمح بذلك. – هتف السيناتور هنري تشيرينوس وهو يرفع كأسه – وخصوصاً **الجنراليسمو** تروخييو. فلنشرب نخب فخامته!

واصل تروخييو الكلام وكأنه لم يسمعه:

– هل يمكنني أن أسمح، مثلما جرى خلال الاثنتين والعشرين سنة من الاحتلال تلك، بأن يقتل الزنوج ويغتصبون ويذبحون الدومينيكانيين حتى في الكنائس؟

ونظراً لإخفاق النخب الذي دعا إليه، لهث **الدستوري سكران**، وشرب رشفة من النبيذ وأصغى مستمعاً.

– على امتداد تلك الجولة على الحدود، مع الحرس الجامعي، زبدة الشباب وصفوتهم، رحت أمعن الفكر في الماضي – واصل الجنراليسمو بتفخيم متزايد –

تذكرت الذبح في كنيسة موكا. الحريق في سنتياغو. المسيرة نحو هايتي التي قام بها ديسالينس وكريستوبال مع تسعمئة من أعيان موكا، والذين ماتوا في الطريق أو تم توزيعهم كعبيد ما بين العسكريين الهايتيين.

- لقد قدمنا التقرير منذ أكثر من أسبوعين والزعيم لم يفعل شيئاً. - قال بقلق النائب الشاب تشيرينوس - هل تظنه سيتخذ قراراً يا مخيخ؟

- لستُ أنا من سيسأله عن ذلك. - رد عليه النائب الشاب كابرال - الزعيم سيتصرف. إنه يعرف أن الوضع خطير.

كلاهما رافق تروخييو في الجولة على الخيول على امتداد الحدود، مع نحو مئة متطوع من الحرس الجامعي، وكانا قد رجعا للتو وهما يلهثان أكثر من حصانيهما إلى مدينة داخابون الحدودية. وكانا يفضلان إراحة عظامهما المضعضعة بسبب طول الوقت الذي أمضياه على الخيل، ولكن فخامته أقام حفل استقبال لوجهاء مجتمع داخابون، وهما لا يستطيعان رفض طلب له. وقد كانا هناك، مختنقين بالحر في قميصيهما بياقتيهما القاسيتين وسترتيهما الطويلتين، في مبنى البلدية المزين، حيث تروخييو المنتعش، كما لو أنه لم يتنقل على صهوة الحصان منذ الفجر، يرتدي بدلة عسكرية زرقاء ورمادية لا تشوبها شائبة، موشحاً بالأوسمة والشرائط، يتنقل بين مختلف الجماعات متلقياً عبارات الولاء، وهو يحمل كأساً من كونياك كارلوس الأول في يده اليمنى. وفي هذه الأثناء، لمحَ ضابطاً شاباً بجزمة مغبرة، يقتحم الصالون المزين.

- لقد دخلت تلك الحفلة الرسمية وأنت تتعرق وترتدي ثياب الميدان - والتفت المنعم بنظرة جفاء نحو وزير القوات المسلحة - يا للقرف الذي أحسستُ به.

- كنتُ آتياً لأقدم تقريراً إلى قائد فوجي يا صاحب الفخامة - واختلط الأمر على الجنرال رومان، بعد فترة صمت، سعت ذاكرته خلالها إلى تحديد ذلك الحدث القديم - لقد توغلت عصابة من الهايتيين الأشرار في الليل إلى البلاد بصورة سرية. وهاجمت في فجر هذا اليوم ثلاث مزارع في كابوتييو وبارولي، واقتادت كل المواشي. كما خلفت ثلاثة قتلى.

- لقد قامرتَ بمستقبلك العسكري بظهورك بتلك الهيئة أمامي - وبخه الجنراليسمو، بسخط ذي مفعول رجعي - حسن. هذه هي القطرة التي جعلت الكأس يطفح. فليأت وزير الحربية، ووزير الحكومة وكل العسكريين الحاضرين. وليبتعد الآخرون من فضلكم.

كان قد رفع صوته الصائت بحدة هستيرية، مثلما كان يفعل من قبل، عندما كان يوجه الإيعازات في الثكنة. وقد أُطيع أمره في الحال، وسط دمدمات كأنها أزيز زنابير. شكل العسكريون دائرة متكاتفة من حوله؛ وتراجع السيدات والسادة نحو الجدران، تاركين فسحة فارغة في منتصف الصالون تنتشر فيها أشرطة ملونة وأزهار ورقية وأعلام دومينيكانية صغيرة. وأصدر الرئيس تروخييو الأمر دفعة واحدة:

- ابتداء من منتصف الليل، تبدأ قوات الجيش والشرطة بإبادة لا ترو فيها لكل شخص من الجنسية الهايتية يتواجد بصورة غير شرعية على الأراضي الدومينيكانية، باستثناء العاملين في مصانع السكر- وبعد أن جلا حنجرته، مر على دائرة الضباط بنظرة رمادية - هل الأمر واضح؟

اهتزت الرؤوس مؤكدة، بعضها بملامح الذهول، وأخرى ببريق سعادة وحشية في حدقاتها. ودقوا كعوب أحذيتهم العسكرية وهم ينصرفون.

- يا قائد فوج داخابون: ضع في الزنزانة، على الخبز والماء، الضابط الذي دخل هنا بذلك المظهر المقرف. فلتتواصل الحفلة. ابتهجوا!

كان التقدير يختلط بالحنين في ملامح وجه سيمون جيتلمان.

- لم يتردد فخامته يوماً عندما تحين ساعة العمل - قال المارينز السابق متوجهاً إلى المائدة بأسرها - لقد نلتُ شرف تدريبه في مدرسة هاينا العسكرية. ومنذ اللحظة الأولى عرفت أنه سيصل بعيداً. ولكنني لم أكن أتصور أنه سيصل إلى هذا المدى.

ضحك وترددت ضحكات كصدى لضحكته.

- لم ترتعشا مطلقاً- كرر تروخييو وهو يعرض يديه- لأنني لم أُصدر الأمر بالقتل إلا عندما كان لا مفر منه من أجل مصلحة البلاد.

- لقد قرأت في مكان ما يا صاحب الفخامة بأنك أمرت الجنود باستخدام مناجل الماتشيتي، وبألا يطلقوا الرصاص - سأل سيمون جيتلمان - أكان ذلك من أجل الاقتصاد في الذخائر؟

- بل لتجميل الأمور، وتجنب ردود الفعل الدولية. - صحح له تروخييو مبتسماً - فباستخدام مناجل الماتشيتي وحدها يمكن للعملية أن تبدو كحركة عفوية قام بها الفلاحون دون تدخل من جانب الحكومة. فنحن الدومينيكانيين مسرفون، لم نعتد الاقتصاد في شيء، وخصوصاً في الذخائر.

جميع من على المائدة احتفلوا بكلامه ضاحكين، بمن فيهم سيمون جيتلمان، ولكنه عاد إلى الهجوم.

- هل صحيحة قصة البقدونس يا صاحب الفخامة؟ هل صحيح أنه للتمييز بين الدومينيكانيين والهايتيين كان يُطلب من الزنوج أن يقولوا «بقدونس»؟ وأن من لا يلفظونها جيداً تُقطع رؤوسهم؟

- لقد سمعت بهذه النادرة.- هز تروخييو كتفيه - إنها تقولات تشاع.

أخفض رأسه كما لو أن فكرة عميقة تطلبت منه فجأة جهداً كبيراً من التركيز. لم يحدث ما يخشاه؛ أبقى نظره مصوباً بحدة، ولم تلمح عيناه عند فتحة البنطال أو ما بين ساقيه تلك البقعة الكاشفة. وجه ابتسامة ودية إلى المارينز السابق، وقال متهكماً:

- مثل تلك التقولات التي تشاع عن عدد الموتى. اسأل من هم جالسون إلى هذه المائدة وستسمع أشد الأرقام تنوعاً. فأنت مثلاً أيها السيناتور، كم كان عدد القتلى؟

انتصب وجه هنري تشيرينوس القاتم، منتفخاً بالسعادة لأنه أول من يوجه إليه الزعيم السؤال.

- من الصعب معرفة ذلك. - أومأ مثلما يفعل وهو يلقي الخطابات - هناك مبالغات كثيرة. ما بين خمسة وثمانية آلاف على أبعد تقدير.

- أيها الجنرال أريدوندو، أنت كنت تقطع أعناقاً في اندبندنثيا في تلك الأيام. كم كان عددهم؟

- حوالي عشرين ألفاً يا صاحب الفخامة.- رد الجنرال أريدوندو البدين الذي يبدو سجيناً داخل بدلته العسكرية - ففي منطقة اندبندنثيا وحدها كان هناك عدة آلاف. السيناتور قلل العدد. لقد كنتُ هناك. إنهم عشرون ألفاً على الأقل.

- وكم واحداً قتلت أنت بنفسك؟ - قال الجنراليسمو مازحاً وجابت المائدة موجة أخرى من الضحك، جعلت الكراسي تئن وكؤوس الكريستال تغرد.

- هذا الذي قلته عن التقولات هو الحقيقة الصافية يا صاحب الفخامة- نفر الضابط البدين، وتحولت ابتسامته إلى تكشيرة - إنهم يلقون الآن كل المسؤولية علينا. زيف، كل هذا زيف! فالجيش نفذ أوامركم. بدأنا بفصل غير الشرعيين عن الآخرين. ولكن الشعب لم يتركنا نفعل ذلك. فقد انطلق الجميع إلى اصطياد الهايتيين. وكان الفلاحون والتجار والموظفون يكشفون عن مخابئهم، فيشنقونهم

ويقتلونهم بالعصي. وكانوا يحرقونهم أحياناً. وكان على الجيش أن يتدخل في أماكن كثيرة لوقف تلك التجاوزات. لقد كان هناك غضب عليهم، لأنهم لصوص ونهابون.

- أيها الرئيس بالاغير، أنت كنتَ أحد المفاوضين مع الهايتيين بعد الأحداث - واصل تروخييو تحقيقه - كم كان العدد؟

هيئة رئيس الجمهورية المضمحلة، الضئيلة، التي يبتلع المقعد نصفها، قرّبت رأسها اللطيف. وبعد أن تفحص الحضور من وراء نظارة قصر البصر، خرج صوته الناعم وحسن النبرات الذي كان يلقي به الشعر في المسابقات الشعرية، ويحتفي بتتويج آنسة جمهورية الدومينيكان (التي كان فيها على الدوام شاعر المملكة)، ويخطب في الحشود في جولات تروخييو السياسية، أو يعرض سياسات الحكومة أمام الجمعية الوطنية.

- لم يُعرف الرقم الدقيق قط يا صاحب الفخامة. - يتكلم ببطء، بمظهر محترف - التقدير الحذر يدور ما بين عشرة وخمسة عشر ألفاً. في تلك المفاوضات مع حكومة هايتي، اتفقنا على رقم رمزي: 2750؛ وبهذه الطريقة، ونظرياً، تتلقى كل أسرة متضررة مئة بيزو من مبلغ الـ 275000 الذي دفعته حكومة فخامتكم نقداً، كلفتة حُسن نية وفي سبيل الوئام الهايتي الدومينيكاني. ولكن الأمور، كما تتذكرون حضراتكم، لم تجر على هذا النحو.

صمتَ، مع بوادر ابتسامة في وجهه المدور، مضيقاً عينيه الفاتحتين وراء النظارة السميكة.

- ولماذا لم تصل التعويضات إلى الأُسر؟ - سأل سيمون جيتلمان.

- لأن رئيس هايتي، ستنيو فينسنت، والذي كان محتالاً، احتفظ بالمال لنفسه.- أطلق تروخييو قهقهة - ألم ندفع سوى 275000؟ لقد اتفقنا حسب ما أتذكر على 750000 دولار لكي يتوقفوا عن الاحتجاج.

- بالفعل يا صاحب الفخامة - ردّ الدكتور بالاغير على الفور بالإلقاء المتقن والهدوء نفسه - تم الاتفاق على 750000 بيزو، على أن يُدفع مبلغ 275000 فوراً. أما نصف المليون المتبقي فيدفع في دفعات سنوية بمعدل مئة ألف، خلال خمس سنوات متتالية. ومع ذلك، وأنا أتذكر الأمر جيداً، فقد كنتُ وزيراً للعلاقات الخارجية بالوكالة في ذلك الحين، وقد فرضت، أنا ودون أنسيلمو باولينو الذي ساعدني في تلك المفاوضات، بنداً في الاتفاق تبقى الدفعات بموجبه مرهونة

بتقديم شهادات إثبات وفاة الـ 2750 ضحية المعترف بهم، أمام محكمة دولية، خلال الأسبوعين الأولين من شهر تشرين الأول 1937. لم تنفذ هايتي هذا البند، وأُعفيت جمهورية الدومينيكان بالتالي من دفع المبلغ المتبقي. أما المبلغ الأول فدفعه فخامته من أملاكه الخاصة، أي أن الدولة الدومينيكانية لم تتكلف فلساً واحداً.

– مبلغ زهيد في سبيل إنهاء مشكلة كان يمكن لها أن تؤدي إلى تقويض كياننا – قال تروخييو، ثم أضاف بجدية – صحيح أن بعض الأبرياء قد ماتوا. ولكن استعدنا نحن الدومينيكانيين سيادتنا. ومنذ ذلك الحين صارت علاقاتنا ممتازة مع هايتي والحمد لله.

مسح شفتيه وشرب رشفة ماء. كانوا قد بدؤوا بتقديم القهوة والليكور. ولم يكن يشرب القهوة، كما أنه لا يشرب الكحول مطلقاً على الغداء، اللهم إلا إذا كان في سان كريستوبال، في مزرعة فونداثيون أو في بيته في كاوبا، محاطاً بأتباعه المقربين. ومع الصور التي راحت تعيدها ذاكرته لتلك الأسابيع الدامية من تشرين الأول 1937، عندما كانت تصل إلى مكتبه أخبار الظلال المرعبة التي اتخذتها، على الحدود وفي البلاد بأسرها، عمليات اصطياد الهايتيين، بدأت تتسلل مهربة ومختلطة بتلك الصور، الصورة البغيضة، الخرقاء، البليدة لتلك الفتاة التي رأت مذلته. فأحس بالغيظ.

– أين هو السيناتور أغوسطين كابرال، مخيخ الشهير؟ – قال سيمون جيتلمان ذلك وأشار إلى الدستوري سكران: – أرى هنا السيناتور تشيرينون ولا أرى رفيقه الدائم. ماذا جرى له؟

استمر الصمت ثواني طويلة. كان المدعوون يرفعون فناجين القهوة إلى أفواههم، يشربون رشفة وينظرون إلى شرشف الطاولة، إلى الأزهار المنسقة، إلى أواني الكريستال، إلى ثريا السقف.

– لم يعد سيناتوراً ولن تطأ قدماه هذا القصر – أصدر الجنراليسمو حكمه بالبطء الذي تتميز به غضباته الباردة – سيبقى حياً، ولكنه في ما يتعلق بهذا النظام، لم يعد موجوداً.

شرب المارينز السابق المرتبك كأس الكونياك في جرعة واحدة. لا بد أنه قد بلغ الثمانين، هكذا قدر الجنراليسمو. ولكنه يحتفظ بجسد عظيم: فشعره القليل مقصوص على مستوى جلدة الرأس، وهو يحتفظ بقامة منتصبة وسوية، دون

قطرة شحم أو جلد مترهل عند العنق، نشيط في إيماءاته وحركاته. أما شبكة التجعيدات العنكبوتية التي تحيط بجفونه وتمتد على وجهه المتمرس فتشي بحياته الطويلة. كشَّر الزعيم راغباً في تغيير الموضوع. وقال سيمون:

- كيف كان شعور فخامتك عندما أصدرت الأمر بإبادة تلك الآلاف من الهايتيين غير الشرعيين؟

- عليك أن تسأل رئيسك السابق ترومان عن شعوره عندما أصدر الأمر بإلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناغازاكي. وهكذا ستعرف كيف كان شعوري تلك الليلة في داخابون.

احتفى الجميع بتهرب الجنراليسمو. وانقشع التوتر الذي أثاره المارينز السابق بذكره أغوسطين كابرال. وكان تروخييو هو الذي غيّر موضوع الحديث الآن:

- منذ شهر تعرضت الولايات المتحدة إلى هزيمة في خليج الخنازير. فالشيوعي فيدل كاسترو ألقى القبض على مئات من رجال الحملة. ماذا ستكون نتائج ذلك على منطقة الكاريبي يا سيمون؟

- حملة الوطنيين الكوبيين تلك تعرضت لخيانة الرئيس كيندي - دمدم مغموماً - لقد أُرسلوا إلى المسلخ. فالبيت الأبيض منع الغطاء الجوي والدعم المدفعي اللذين وعد بهما. فراح الشيوعيون يتدربون بهم على إصابة الهدف. ولكن، اسمح لي أن أقول يا صاحب الفخامة، أنه يسعدني حدوث ذلك. سيكون درساً نافعاً لكيندي الذي تضم حكومته متسللين من الـ fellow travellers. كيف يقال ذلك بالإسبانية؟ آه، أجل «رفاق رحلة». قد يهتم الآن بالتخلص منهم. فالبيت الأبيض لا يريد إخفاقاً آخر مثل خليج الخنازير. وهذا يُبعد خطر إرسال المارينز إلى جمهورية الدومينيكان.

ولدى قول هذه الكلمات الأخيرة تأثر المارينز السابق وبذل جهداً ملحوظاً للحفاظ على تماسكه. فوجئ تروخييو: أكان صديقه القديم على وشك البكاء حيال فكرة إنزال يقوم به رفاقه في السلاح من أجل إسقاط النظام الدومينيكاني؟

- أعذر ضعفي يا صاحب الفخامة. - دمدم سيمون جيتلمان مستعيداً تماسكه - سيادتك تعرف أنني أحب هذه البلاد كما لو أنها بلادي.

فقال تروخييو:

- هذه البلاد هي بلادك يا سيمون.

- يمكن لواشنطن، بتأثير من اليساريين، أن ترسل المارينز للقتال ضد حكومة هي الأكثر صداقة للولايات المتحدة، إنه أمر شيطاني. ولهذا السبب أُنفق وقتي وأموالي في محاولة لفتح عيون مواطنيّ. ولهذا السبب جئت أنا ودوروثي إلى مدينة تروخييو، لكي نقاتل إلى جانب الدومينيكانيين، إذا ما أُنزل المارينز.

دوت عاصفة من التصفيق تحية للمارينز السابق جعلت الأطباق والكؤوس وأدوات المائدة تتراقص. وابتسمت دوروثي وهي تحني رأسها موافقة زوجها ومتضامنة معه.

- صوتك يا سيد جيتلمان هو صوت أمريكا الحقيقي.- تحمس الدستوري سكران وهو يطلق رشة من اللعاب، وأضاف: - نخب هذا الصديق، هذا الرجل الشريف. نخب سيمون جيتلمان أيها السادة!

- لحظة واحدة. - فتت صوت تروخييو النابيّ جو الحماسة إلى ألف قطعة. نظر إليه المدعوون مرتبكين، وبقي تشيرينون متجمداً بكأسه المرفوعة عالياً - نخب صديقينا وشقيقينا دوروثي وسيمون جيتلمان!

الزوجان المثقلان بهذه الحفاوة راحا يشكران الحضور بالابتسامات والانحناءات.

- لن يرسل كيندي إلينا المارينز يا سيمون. - قال الجنراليسمو عندما انطفأ صدى النخب - لا اظنه أحمق إلى هذا الحد. ولكنه إذا ما فعل ذلك، فسوف تعاني الولايات المتحدة من خليج خنازير ثانية. لدينا قوات مسلحة أكثر حداثة من قوات ذلك الملتحي، وهنا، وأنا في المقدمة، سنقاتل حتى آخر دومينيكاني.

أغمض عينيه متسائلاً عما إذا كانت ذاكرته ستسعفه بتذكر ذلك الاستشهاد بدقة. أجل، ها هو كاملاً، يأتي إليه من تلك الذكرى الاحتفالية، من الاحتفالات بالذكرى التاسعة والعشرين لانتخابه أول مرة. كرر الاستشهاد، والجميع يستمعون بصمت توقيري:

- «مهما كانت المفاجآت التي يخبئها لنا المستقبل، فإننا متأكدون من أنه يمكن للعالم أن يرى تروخييو ميتاً، ولكنه لن يراه فاراً مثل باتيستا، ولا هارباً مثل بيريث خيمينث، ولا جالساً وراء قضبان محكمة مثل روخاس بينيّا. فرجل الدولة الدومينيكاني من نوعية أخلاقية أخرى ومن سلالة أخرى.»

فتح عينيه ومرّ بنظرة راضية على مدعويه الذين، وبعد أن استمعوا إلى الفقرة الاستشهادية باستغراق، راحوا يومئون مؤكدين.

- من الذي كتبَ الفقرة التي قلتُها للتو؟ - سألهم **المنعم**.

تفحصوا بعضهم بعضاً، بحثوا بفضول، بحذر، بذعر. وأخيراً توالت النظرات إلى الوجه اللطيف، المدور، المثقل بالتواضع، للكاتب الدقيق الذي أُلقيت على كاهله المسؤولية الأولى في الجمهورية منذ أن جعل تروخييو أخاه نيغرو يستقيل من الرئاسة على أمل تفادي عقوبات منظمة البلدان الأمريكية.

- تذهلني ذاكرة فخامتكم. - غمغم خواكين بالاغير، متباهياً بتذلله المفرط، وكأنه منسحق بالشرف الذي أولاه إياه - يشرفني أن تتذكر سيادتك خطابي المتواضع الذي ألقيته في الثالث من آب الفائت.

ومن وراء رموشه، لاحظ الجنراليسمو كيف كانت وجوه فيرخيليو ألفاريث بينا، و**القذارة الحية**، وباينو بيتشاردو والجنرالات تمتقع حسداً. إنهم يتألمون. يفكرون بأن الشاعر التافه، الغامض، البروفسور والحقوقي المائع قد كسب بعض النقاط في المنافسة الأبدية التي يعيشونها لكسب عطف **الزعيم**، فقد حظي بالاعتراف، والذكر، والاختيار، والتميز عن الآخرين. أحس بالشفقة على هؤلاء الأتباع المجتهدين، الذين جعلهم يعيشون منذ ثلاثين سنة في قلق مؤبد.

- ليست مجرد عبارة تقال يا سيمون. - قال مؤكداً - فتروخيو ليس واحداً من أولئك الحكام الذين يتخلون عن السلطة عندما يئز الرصاص. أنا تعلمت ما هو الشرف عندما كنتُ إلى جانبك، بين جنود المارينز. هناك عرفت كيف يكون الرجل شريفاً على الدوام. وعرفت أن الرجال الشرفاء لا يهربون. بل يقاتلون، وإذا كان لا بد من الموت، فإنهم يموتون وهم يقاتلون. لن يتمكن كينيدي، ولا منظمة الدول الأمريكية، ولا الزنجي المقرف والمخنث بيتانكور، ولا الشيوعي فيدل كاسترو، من جعل تروخييو يهرب من البلاد التي تدين له بكل ما هي عليه.

بدأ **الدستوري سكران** التصفيق، ولكن عندما ارتفعت أيدٍ كثيرة لمحاكاته، قطعت نظرة تروخييو التصفيق بجفاء.

- أتعرف ما هو الفرق بين أولئك الجبناء وبيني يا سيمون؟ - واصل وهو ينظر إلى عيني مدربه القديم - الفرق هو أنني تلقيت تدريبي مع مشاة بحرية الولايات المتحدة الأمريكية. لم أنسَ ذلك قط. أنت علمتني إياه، في هاينا وفي سان بيدرو دي ماكوريس. هل تتذكر؟ فنحن رجال الدفعة الأولى من تلك الشرطة الوطنية الدومينيكانية (PND) فولاذيون. لقد كان الحاسدون يقولون إن (PND) تعني «الزنوج البؤساء الدومينيكانيين». ولكن الحقيقة هي أن تلك الدفعة غيّرت

هذه البلاد، خلقتها. أنا لا أُفاجأ بما تفعله أنت من أجل هذه البلاد. لأنك جندي مارينز حقيقي. رجل وفي. رجل يموت دون أن يحني رأسه، يموت ناظراً إلى الشمس، مثل الخيول العربية. وعلى الرغم من سوء سلوك بلادك يا سيمون، فأنني لا أحمل لها الضغينة. لأني مدين للمارينز بما أنا عليه.

– ستندم الولايات المتحدة يوماً لجحودها تجاه شريكها وصديقها في الكاريبي.

شرب تروخييو رشفة من الماء. تجددت المحادثات. وراح الندل يقدمون فناجين أخرى من القهوة، ومزيداً من الكونياك والمشروبات الأخرى، وسيجاراً. وسمع **الجنراليسمو** سيمون جيتلمان من جديد:

– كيف ستنتهي هذه المشكلة مع المطران ريللي يا صاحب الفخامة؟

أومأ باستخفاف:

– ليست هناك أي مشكلة يا سيمون. هذا المطران وقف إلى جانب أعدائنا. وبما أن الشعب هاج سخطاً، فقد ذُعر المطران وهرب ليختبئ بين راهبات مدرسة سانتو دومنغو. أما ما يفعله بين كل أولئك الراهبات، فهذا شأنه الخاص. لقد وضعنا حراسة للحيلولة دون أن يشنقه الشعب.

– سيكون من الجيد حل هذه المسألة قريباً –ألح المارينز السابق – فهناك كاثوليكيون كثيرون في الولايات المتحدة غير مطلعين، يصدقون تصريحات ريللي بأنه مهدد، وأنه اضطر إلى الالتجاء بسبب حملات التخويف ومثل هذه الأمور.

– لا أهمية لذلك يا سيمون. كل شيء سيُحل وستعود العلاقة مع الكنيسة عظيمة مثلما كانت. ولا تنس أن حكومتي كانت مليئة تماماً بالكاثوليكيين على الدوام، وأن البابا بيوس الثاني عشر قلدني الوسام البابوي «صليب القديس غريغوريو الكبير» – ثم غير الموضوع بصورة فظة – هل أخذك بيتان لزيارة «صوت الدومينيكان»؟

– بالطبع – أجاب سيمون جيتلمان؛ وهزت دوروثي رأسها مع ابتسامة عريضة.

ذلك المركز الترفيهي الذي يملكه أخوه خوسيه أريسميندي تروخييو، الملقب بيتان، بدأ قبل عشرين سنة مضت كمحطة إذاعة صغيرة. وراحت إذاعة «صوت يوان» تنمو إلى أن تحولت إلى مجمع هائل باسم «صوت الدومينيكان»، تملك أول محطة تلفزيون، وأكبر محطة إذاعة، وأفضل كباريه ومسرح استعراضي في

الجزيرة (وبيتان يصر على أنه الأول في كل منطقة الكاريبي، ولكن الجنراليسمو يعرف أنه لم يستطع انتزاع الصولجان من ملهى تروبيكانا في هافانا). كان الزوجان جيتلمان مبهورين من روعة المنشآت؛ لقد جال بهما بيتان نفسه على المحل، وجعلهما يشاهدان عرضاً تدريبياً لفرقة الباليه المكسيكية سيُقدم هذه الليلة في الكباريه. ليس سيئاً بيتان هذا إذا ما استُحث؛ وعندما يحتاجه يستطيع الاعتماد عليه وعلى جيشه الخاص المزركش «حباحب سلسلة الجبال». ولكنه، مثل أخوته الآخرين، سبب له أضراراً أكثر من المنافع، فبسببه، بسبب ذلك الشجار السخيف، اضطر إلى التدخل، من أجل الحفاظ على مبدأ السلطة، والقضاء على ذلك المارد العظيم - رفيقه في مدرسة الضباط في هاينا، قبل كل شيء - الجنرال فاثكيث ريفيرا. أحد أفضل الضباط - إنه مارينز، يا للعنة - وخادم وفي على الدوام. ولكن الأسرة، حتى ولو كانت أسرة طفيليين، غير نافعين، حمقى، وشياطين تعساء، هي فوق الصداقة والمصلحة السياسية: هذه إحدى الوصايا المقدسة في ميثاق شرفه. ودون أن يتوقف الجنراليسمو عن متابعة خيط أفكاره، كان يستمع إلى سيمون جيتلمان وهو يشير إلى المفاجأة التي أحس بها حين رأى صور نجوم السينما والتمثيل والإذاعة في كل أميركا الذين جاؤوا إلى «صوت الدومينيكان». بيتان يحتفظ بتلك الصور منشورة على جدران مكتبه: فريق لوس بانتشوس، وليبرتاد لاماركي، وبيدرو بارغاس، وإيما سوماك، وبيدرو إنفانتي، وسيليا كروز، وتونيا السوداء، وأولغا غيلوت، وماريا لويسا لاندين، وبوبي كابو، وتينتان ورفيقه مارثيلو. ابتسم تروخييو: ما لا يعرفه سيمون هو أن بيتان، إضافة إلى بعث المرح في الليل الدومينيكاني بالفنانات اللواتي يأتي بهن، فإنه يريد مضاجعتهن، مثلما يضاجع جميع الفتيات العازبات والمتزوجات في إمبراطوريته الصغيرة في بوناو. والجنراليسمو يسمح له بعمل ذلك هناك، شريطة ألا يتجاوزها إلى مدينة تروخييو. ولكن العصفور الأحمق بيتان كان يقوم بإزعاجته في العاصمة أحياناً، مقتنعاً بأن الفنانات اللواتي يتم التعاقد معهن لتقديم العروض في «صوت الدومينيكان» مجبرات على النوم معه إذا اشتهى ذلك. وقد توصل إلى غرضه في بعض الأحيان؛ وفي أحيان أخرى وقعت فضائح، وكان عليه هو - وهو دوماً - أن يطفئ الحريق بتقديم هدايا باهظة للفنانات اللواتي لحقت بهن الإهانة على يد الأبله الأزعر بيتان الذي ليس لديه أسلوب للتعامل مع السيدات. فإيما سوماك على سبيل المثال، هي أميرة من

أميرات الإنكا، ولكنها تحمل جواز سفر أمريكيا. وقد دفعت وقاحة بيتان معها سفير الولايات المتحدة نفسه إلى التدخل. فاضطر المنعم إلى التعويض عن أميرة الإنكا وهو يقطر مرارة، بإجبار أخيه على تقديم الاعتذار إليها. تنَهّد المنعم. فالوقت الذي أضاعه في سُدّ الثقوب التي تُحدثها خلال المسيرة زمرة الأقارب، كان يكفيه لبناء بلد ثانٍ.

أجل، فالفظاعة التي لا يمكن له أن يغفرها أبداً بين كل الفظاعات التي اقترفها بيتان، هي تلك المشاجرة السخيفة مع رئيس أركان الجيش. لقد كان المارد فاثكيث ريفيرا صديقاً جيداً لتروخييو منذ تدربا معاً في هاينا؛ وكان يتمتع بقوة غير عادية ينميها بممارسة كل أنواع الرياضات. وكان واحداً من العسكريين الذين ساهموا في تحويل حلم تروخييو إلى واقع: تحويل الجيش الذي ولد من تلك الشرطة الوطنية الصغيرة إلى قوات محترفة، منضبطة، وفاعلة، مثل القوات الأمريكية لا أكثر ولا أقل، وإنما بصورة مصغرة. وفي تلك الأثناء جاءت المشاجرة السخيفة. كان بيتان يحمل رتبة كولونيل ويخدم في قيادة هيئة أركان الجيش. ورفض وهو مخمور تنفيذ أحد الأوامر وعندما وبخه الجنرال فاثكيث ريفيرا، شتمه بيتان. عندئذ نزع المارد رتبه، وأشار له نحو الفناء داعياً إياه إلى حل المشكلة بالقبضات، وتناسي الرتب والمقامات. وكان ذاك هو أقسى ضرب مبرح يتلقاه بيتان في حياته، دفع به ثمن كل الضرب الذي وجهه إلى الناس البائسين. فاضطر تروخييو آسفاً إلى عزل صديقه، لقناعته بأن شرف الأسرة يتطلب منه ذلك، وأرسله إلى أوروبا في مهمة رمزية. بعد سنة من ذلك، أعلمه جهاز الاستخبارات بخطط للتمرد: فالجنرال الحانق يقوم بزيارة الحاميات، ويجتمع مع مرؤوسيه السابقين، ويخبئ أسلحة في مزرعته في ثيباو. أمر باعتقاله وحبسه في السجن العسكري عند مصب نهر نيغوا، وبعد زمن من ذلك، حُكم عليه بالإعدام - سراً - في محكمة عسكرية. ومن أجل اقتياده إلى المشنقة، اضطر قائد السجن إلى الاستعانة باثني عشر مجرماً يقضون هناك أحكاماً على جرائم عادية. ولكي لا يبقى شهود على نهاية الجنرال فاثكيث ريفيرا الهائلة تلك، أمر تروخييو بإعدام الاثني عشر مجرماً رمياً بالرصاص. وعلى الرغم من مضي وقت طويل، فإنه يشعر أحياناً، مثلما هو الآن، بحنين إلى رفيق سنوات البطولة ذاك الذي اضطر إلى التضحية به بسبب حماقات بيتان.

كان سيمون جيتلمان يوضح أن اللجان التي أسسها في الولايات المتحدة قد

بدأت بجمع التبرعات لعملية ضخمة: ففي اليوم نفسه سيُنشر، كإعلان مدفوع، على صفحة كاملة في **النيويورك تايمز**، **والواشنطن بوست**، **والتايم**، **ولوس أنجلوس تايم** وفي كل المنشورات التي تهاجم تروخييو وتؤيد عقوبات منظمة الدول الأمريكية بياناً من أجل إعادة العلاقات مع النظام الدومينيكاني.

لماذا سأل سيمون جيتلمان عن أغوسطين كابرال؟ بذل جهده لكبح الغضب الذي سيطر عليه فور تذكره **مخيخ**. لا يمكن أن تكون ثمة نوايا خبيثة. فإذا كان هناك من يقدر تروخييو ويحترمه فإنه هذا المارينز السابق، الذي يكرس نفسه جسداً وروحاً للدفاع عن نظامه. لا بد أن الاسم أفلت منه في توارد للخواطر، عندما رأى **الدستوري سكران** وتذكر أن تشيرنيوس وكابرال كانا صديقين لا ينفصلان – هذا لمن هو غير مطلع على خفايا النظام –. أجل، لقد كانا كذلك. لقد كلفهما تروخييو في مرات كثيرة بمهمات مشتركة. مثلما جرى عام 1937، حين عينهما مديراً عاماً للإحصاء، ومديراً عاماً للهجرة، وأرسلهما للقيام بجولة على الحدود مع هايتي، لكي يطلعاه على تسلل الهايتيين. ولكن صداقة هذا الثنائي كانت نسبية على الدوام: فهي تنتهي عندما يكونان منغمسين في لعبة التودد إلى **الزعيم** أو نيل رضاه. لقد كان ذلك يمتع تروخييو – التكهن بالمناورات المفاجئة، والطعنات السرية، والمكايد الفارغة التي يدبرها كل منهما ضد الآخر، **القذارة الحية ومخيخ** – ولكن فيرخيليو ألفاريث بينا، وبينو بيتشاردو، وخواكين بالاغير، وفيبيو بونلي، وموديستو دياث، وفيشنتي تولينتينو روخاس، وآخرين من الدائرة المقربة كانوا يفعلون ذلك – من أجل استبعاد الرفيق، التقدم عليه، ليكون كل واحد منهم أقرب ويستحق اهتماماً أكبر من **الزعيم** واستماعاً إليه ومزاحاً معه. وفكر: «مثلما تفعل النساء في الحريم ليكن المفضلات». أما هو، ولكي يبقي على الحيوية الدائمة، ويحول دون أن تعشش العثة، والروتين، يُنزل بهم المحنة على التوالي، وينقلهم من مناصبهم واحداً بعد آخر. وهذا ما فعله بكابرال؛ أبعده، لجعله يعي أن كل ما هو عليه، وكل ما يساويه ويملكه إنما هو مدين به لتروخييو، وأنه دون **المنعم** لا يساوي شيئاً. اختبار جعل كل معاونيه، المقربين والبعيدين، يمرون به. ولكن **مخيخ** أساء الظن باختباره، وأصابه اليأس، مثل أنثى عاشقة طردها الذكر. فأراد إصلاح الأمور قبل الوقت الضروري، وصار مزعجاً. ولهذا سيكون عليه أن يبتلع الكثير من البراز قبل أن يعود إلى الوجود.

أيكون كابرال، وهو يعرف أن تروخييو سيمنح وساماً لجندي المارينز القديم، قد طلب من هذا الأخير أن يتدخل من أجله؟ أيكون هذا هو السبب الذي جعل رجل المارينز السابق يفلت بطريقة عاصفة اسم شخص يعرف كل دومينيكاني يقرأ «**المحكمة العامة**» أنه قد فقد عطف النظام؟ حسن، ربما أن سيمون جيتلمان لا يقرأ صحيفة **الكاريبي**.

تجمد الدم في عروقه: فالبول يخرج منه. إنه يشعر به، بدا له أنه يرى السائل الأصفر يسيل من مثانته، يخرج دون طلب الإذن من ذلك الصمام غير النافع، من تلك البروستات الميتة، العاجزة عن وقفه، يخرج نحو قناة الإحليل، ويسيل بمرح فيها ويخرج بحثاً عن الهواء والضوء، عبر سرواله الداخلي، وفتحة بنطاله، وما بين ساقيه. أحس بالدوار. أغمض عينيه بضع ثوان، يهزه السخط والعجز. ولسوء الحظ أنه بدلاً من أن يكون فيرخيليو ألفاريث بينا إلى جانبه، هنالك دوروثي جيتلمان إلى يمينه وزوجها سيمون إلى يساره، وهما لا يستطيعان مساعدته. أما فيرخيليو فيمكنه ذلك. إنه رئيس الحزب الدومينيكاني، ولكن، ومنذ أن شخّص الدكتور بويغفيرت الذي أُحضر من برشلونة سراً، إلتهاب البروستات اللعين، صارت وظيفته المهمة حقاً في الواقع هي التصرف بسرعة عندما تقع مثل هذه الحالات من السلس البولي، بسكب كأس ماء أو نبيذ على المنعم ثم الانهماك بعد ذلك في طلب المعذرة ألف مرة عن رعونته، أو بالوقوف مثل حاجز أمام بنطاله المدنس إذا ما حدث ذلك على منصة أو في مسيرة. ولكن حمقى البروتوكول أجلسوا فيرخيليو على بعد أربعة كراس عنه. لا يمكن لأحد أن يساعده. سيعاني من الإذلال الرهيب عندما ينهض ويلحظ الزوجان جيتلمان وبعض المدعوين بأنه قد بال في بنطاله دون أن ينتبه، مثل المسنين. كان الغضب يمنعه من الحركة، من التظاهر بأنه سيشرب ويسكب على نفسه الكأس أو الإبريق الذي أمامه.

وببطء شديد، وبينما هو ينظر فيما حوله بمظهر الساهي، راح يمد يده اليمنى نحو الكأس المملوءة بالماء. وببطء أشد، قرّبها منه، حتى صارت عند حافة المائدة، بحيث يمكن لأدنى حركة أن تقلبها. وتذكر فجأة أن ابنته الأولى زهرة الذهب التي أنجبها من زوجته الأولى آمينتا ليديسما، تلك الابنة المجنونة التي لها جسد أنثى وروح ذكر، والتي تبدل أزواجها مثلما تبدل أحذيتها، اعتادت أن تبول في فراشها إلى أن أصبحت في سن المدرسة. وجد الشجاعة لينظر مرة

أخرى متجسساً إلى بنطاله. وبدلاً من المشهد المُخجل، من البقعة التي ينتظرها، تأكد - فنظره ما يزال ثاقباً، مثل ذاكرته - من أن فتحة سرواله وما بين ساقيه ناشفان. ناشفان تماماً. لقد كان انطباعاً مخادعاً، إنها حركة الخوف، والرعب من «عمل الماء» مثلما يقولون عن النساء الماخضات. غمرته السعادة، التفاؤل. فاليوم الذي بدأ بمزاج معكر ونُذر كالحة أخذ يتجمل، مثل منظر الشاطئ عندما تشرق عليه الشمس بعد وابل من المطر.

نهض واقفاً وحذا الجميع حذوه، كجنود يستجيبون لصوت الآمر. وبينما هو ينحني لمساعدة دوروثي جيتلمان على النهوض، قرر، بكل ما في روحه من قوة: «هذه الليلة سأذهب إلى البيت كاوبا، وسأجعل أنثى تصرخ مثلما كنت أفعل قبل عشرين سنة». وأحس بأن خصيتيه تدخلان في حالة غليان وبأن عضوه آخذ بالتصلب.

الفصل الثاني عشر

فكر سلفادور إستريّا سعد الله بأنه لن يتعرف على لبنان قط وضايقته هذه الفكرة. فمنذ طفولته وهو يحلم بين حين وآخر بأنه سيذهب في أحد الأيام لزيارة جبل لبنان، إلى تلك المدينة، أو ربما القرية، المدعوة بسكنتا التي ينحدر منها سعد الله والتي أُبعد منها ذوو أمه في أواخر القرن الماضي لكونهم كاثوليكاً. وقد ترعرع سلفادور وهو يسمع من أمه باولينا عن مغامرات ومحن آل سعد الله الذين كانوا تجاراً مزدهرين هناك في لبنان؛ وكيف فقدوا كل شيء، والنكبات التي تعرض لها السيد إبراهيم سعد الله وأسرته وهم يهربون من ملاحقات الأغلبية المسلمة للأقلية المسيحية. جابوا نصف العالم محافظين على إيمانهم بالمسيح والصليب، إلى أن استقروا في هايتي، ثم في جمهورية الدومينيكان بعد ذلك. وضربوا جذورهم في مدينة سنتياغو دي لوس كابابيروس، واشتغلوا بالدأب والنزاهة اللذين عرفت بهما الأسرة، وحققوا الازدهار والاحترام في الأرض التي اتخذوها موطناً. ومع أن سلفادور لم يكن يلتقي إلا قليلاً بأقربائه من جهة أمه، إلا أنه كان مفتوناً بقصص ماما باولينا، وكان يشعر على الدوام بالانتماء إلى آل سعد الله. ولهذا كان يحلم بزيارة بسكنتا السحرية تلك التي لم يجدها يوماً في خرائط الشرق الأوسط. لماذا راوده اليقين بأنه لن يتمكن من أن يطأ بلاد اجداده قط؟

- أظن أنني غفوت. - سمع أنطونيو دي لاماثا يقول من المقعد الأمامي. ورآه يفرك عينيه.

- لقد نام الجميع. - ردّ سلفادور - لا تقلق، فأنا أراقب السيارات التي تأتي من مدينة تروخييو.

- وأنا أيضاً. - قال الملازم آماديتو غارثيا غيريرو الجالس إلى جانبه - يبدو لي أنني أغفو لأني لا أحرك عضله واحدة، وأمسح كل شيء من ذهني. إنها طريقة للاسترخاء تعلمتها في الجيش.

- أأنت متأكد من أنه سيأتي يا آماديتو؟ - استفزه من وراء المقود أنطونيو

إمبرت. وانتبه التوركو إلى نبرته المؤنبة. يا للظلم! كما لو أن آماديتو هو المذنب في إلغاء تروخييو لرحلته إلى سان كريستوبال.

- أجل يا طوني - ألح الملازم بتأكيد متعصب - سيأتي.

التوركو لم يعد متأكداً تماماً من ذلك؛ لقد مضى عليهما ساعة وربع الساعة بالانتظار. لا بد أنهم ضيعوا يوماً آخر في الحماس، والجزع، والأمل. لقد كان سلفادور، بسنوات عمره الاثنتين والأربعين، أحد أكبر الرجال سناً بين السبعة الذين يكمنون في ثلاث سيارات بانتظار تروخييو على الطريق إلى سان كريستوبال. لم يكن يشعر بأنه عجوز، ولا بأي حال. فقوته ما زالت غير عادية مثلما كان وهو في الثلاثين، عندما كان يقال في مزرعة لوس ألماثيغوس إن التوركو قادر على قتل جحش بلكمة خلف الأذن. لقد كانت قوة عضلاته أسطورية. ويعرف ذلك من لبسوا قفازات الملاكمة لينافسوه على حلبة إصلاحية سنتياغو، حيث تم التوصل إلى نتائج باهرة بين الفتيان المنحرفين والمتشردين، بفضل جهوده في تحبيبهم بالرياضة. فمن هناك ظهر «كيد ديناميتا» الذي كسب القفاز الذهبي وصار ملاكماً معروفاً في منطقة الكاريبي كلها.

كان سلفادور يحب آل سعد الله ويشعر بالاعتزاز بدمائه العربية اللبنانية، ولكن آل سعد الله لم يكونوا راغبين في ولادته؛ فقد عارضوا أمه باولينا بشدة عندما أخبرتهم بأنها تحب بيرو إستريا، وهو خلاسي وعسكري وسياسي، وهي ثلاثة أمور - وابتسم التوركو - بعثت القشعريرة في آل سعد الله. ولكن رفض الأسرة دفعَ بيرو إستريا إلى خطف ماما باولينا، وأخذها إلى موكا، وهناك اقتاد الكاهن بالمسدس إلى الكنيسة وأجبره على تزويجهما. ومع مرور الزمن تصالح آل سعد الله وآل استريّا. وعندما توفيت ماما باولينا عام 1936، كان عدد الأخوة إستريّا سعد الله الذين أنجبتهم عشرة. وتدبر الجنرال بيرو إستريا أمر إنجاب سبعة أبناء من زواجه الثاني، وهكذا كان لدى التوركو سبعة عشر أخاً شرعياً. ما الذي سيحدث لهم جميعاً إذا ما أخفقت عملية هذه الليلة؟ ما الذي سيحدث خصوصاً لأخيه غوارو الذي لا يعرف شيئاً عن كل هذا؟ فقد كان أخوه الجنرال غواريونيكس إستريّا سعد الله فيما مضى قائداً لمساعدي تروخييو العسكريين، وهو يقود الآن الفرقة الثانية في لابيغا. إذا ما أخفقت المؤامرة، فإن الانتقام سيكون شرساً. ولماذا ستُخفق؟ لقد أُعدت بكل دقة. فما أن يعلمه قائده، الجنرال خوسيه رينه رومان، بأن تروخييو قد مات، وبأن مجلساً مدنياً-عسكرياً قد

تشكل، حتى يضع أخوه غواريونيكس كل قوات الشمال العسكرية تحت تصرف النظام الجديد. هل سيحدث ذلك؟ ويعود اليأس للهيمنة على سلفادور، بسبب طول الانتظار.

صلى وهو يغمض عينيه، ودون أن يحرك شفتيه. إنه يفعل ذلك عدة مرات في اليوم، بصوت عالٍ عندما يستيقظ وقبل أن ينام، وبصمت، مثلما فعل الآن، في بقية المرات. إنه يردد صلوات أبانا الذي في السماء، ويا قديسة مريم، ولكنه يردد كذلك صلوات يرتجلها حسب الظروف. لقد اعتاد منذ شبابه المبكر على إطلاع الرب على مشاكله الكبيرة والصغيرة، وعلى أن يأتمنه على أسراره ويطلب منه النصح. لقد تضرع إليه ليجعل تروخييو يأتي، ويتيح لهم بنعمته الواسعة أن يقتلوا جلاد الدومينيكانيين، هذا الوحش الذي ينقض بضراوة على كنيسة يسوع ورعاتها. لقد كان التوركو إلى ما قبل وقت قريب يشعر بالبلبلة كلما دار الحديث عن إعدام تروخييو، ولكنه مذ تلقى الإشارة، صار يمكنه التكلم إلى الرب عن المستبد بضمير مطمئن. لقد كانت الإشارة هي تلك الجملة التي قرأها عند القاصد الرسولي لقداسته.

بفضل الأب فورتين، الكاهن الكندي المقيم في سنتياغو، توصل سلفادور إلى تلك المحادثة مع المونسنيور لينو زانيني، وبفضل تلك المحادثة هو موجود هنا اليوم. لقد كان الأب سيبريانو فورتين مرشده الروحي لسنوات طويلة. وكانا يتبادلان مرة أو مرتين في الشهر أحاديث مطولة يفتح له التوركو خلالها قلبه وضميره؛ ويستمع إليه الكاهن، ويجيب على تساؤلاته، ويعرض عليه شكوكه الخاصة. وبطريقة غير محسوسة راحت الشؤون السياسية تفرض نفسها على الشؤون الشخصية في تلك المحادثات. لماذا تدعم كنيسة يسوع نظاماً ملطخاً بالدم؟ وكيف يمكن للكنيسة أن تحمي بسلطتها الأخلاقية حاكماً يقترف جرائم لا تغتفر؟

ويتذكر التوركو ضيق الأب فورتين. فالتفسيرات التي كان يغامر بعرضها لم تكن تقنعه هو نفسه: أعط الرب ما هو للرب، وقيصراً ما هو لقيصر. وهل هناك مثل هذا الفصل لدى تروخييو أيها الأب فورتين؟ ألا يذهب إلى القداس، ألا يتلقى المباركة والقربان الرباني؟ أليست هناك قداديس، وصلوات، ومباركات لكل أعمال الحكومة؟ ألا يبارك المطارنة والأساقفة يومياً أعمال النظام الطاغية؟ وفي أي حال ستترك الكنيسة مؤمنيها وهي تتماهى بهذه الحال مع تروخييو؟

ومنذ شبابه المبكر تأكد سلفادور من صعوبة إخضاع الحياة اليومية لمتطلبات الدين، بل استحالة ذلك أحياناً. فعلى الرغم من رسوخ مبادئه ومعتقداته، إلا أنها لم تحل بينه وبين حفلات الشرب والنساء. وهو لم يندم كثيراً لإنجابه ابنين طبيعيين قبل زواجه من امرأته الحالية أورانيا ميسيس. إنها سقطات تبعث فيه الخجل، وقد حاول التكفير عنها، وإن لم يتوصل إلى إرضاء ضميره. أجل، فمن الصعب عدم إغضاب يسوع في الحياة اليومية. وهو نفسه، البائس الفاني، الموسوم بالخطيئة الأصلية، دليل وشاهد على ضعف الإنسان الفطري. ولكن كيف يمكن أن تخطئ الكنيسة التي تستلهم الرب وترضى بدعم ظالم لا يعرف الرحمة؟

وبقي على تلك الحال إلى أن وقعت المعجزة قبل ستة عشر شهراً – لن ينسى ذلك اليوم قط – يوم الأحد 25 كانون الثاني 1960. قوس قزح في السماء الدومينيكانية. في يوم 21 من الشهر نفسه كان عيد الشفيعة، سيدتنا عذراء آلتاغراثيا، وكانت قد وقعت كذلك أشرس عملية ملاحقة لمناضلي حركة 14 حزيران. كانت كنيسة آلتاغراثيا مزدحمة في ذلك الصباح المشمس في سنتياغو. وفجأة، من المنصة، وبصوت راسخ، بدأ الأب سيبريانو فورتين القراءة – وكان كهنة يسوع يفعلون الشيء نفسه في كل الكنائس الدومينيكانية –، قراءة تلك الرسالة الأسقفية التي هزت الجمهورية كلها. لقد كانت إعصاراً أشد دراماتيكية حتى من إعصار سان زينون الشهير ذاك الذي ضرب عاصمة البلاد في عام 1930، مع بدء عهد تروخييو.

ابتسم سلفادور إستريّا سعد الله في عتمة السيارة وهو مستغرق في ذكريات ذلك اليوم السعيد. حين كان يسمع من الأب فورتين بإسبانيته ذات اللكنة الفرنسية الخفيفة، كل جملة من تلك الرسالة الأسقفية التي أثارت جنون **الوحش**، وبدت له كما لو أنها ردّ على شكوكه وغمه. إنه يعرف جيداً ذلك النص – فبعد أن سمعه، قرأه مطبوعاً كمنشور سري يوزع في كل مكان – بل يكاد يحفظه عن ظهر قلب. «ظل من الحزن» يطغى على احتفالات العذراء شفيعة الدومينيكان. «لا يمكننا البقاء صامتين حيال الحزن العميق الذي يُكدر عدداً كبيراً من البيوت الدومينيكانية» هذا ما قاله الأساقفة في رسالتهم. وأنهم يريدون مثل القديس بطرس «البكاء مع من يبكون». ويتذكرون أن «جذر وأصل كل الحقوق هو الكرامة المصانة للذات الإنسانية». واستشهاد من بيوس الثاني عشر يذكّر بـ «ملايين البشر الذين مازالوا يعيشون في ظل الجور والطغيان»،

ممن ليس لديهم «أي شيء مضمون: لا البيت، ولا الممتلكات، ولا الحرية، ولا الكرامة».

كل جملة كانت تُسّرع قلب سلفادور. «من هو صاحب الحق بالحياة سوى الرب وحده، واهب الحياة؟» ويؤكد الأساقفة على أنه من هذا «الحق الأساسي» تنبثق الحقوق الأخرى: الحق بتكوين أسرة، الحق بالعمل، بالتجارة، بالهجرة (أليس في ذلك إدانة لهذا النظام المشين الذي يطالب بتصريح بوليسي لكل خروج إلى خارج البلاد؟)، الحق بالسمعة الطيبة وعدم التعرض للافتراء «تحت حجج باطلة أو وشايات مجهولة المصدر» «لأسباب دنيئة وخسيسة». وتؤكد الرسالة الأسقفية على أن «البشر جميعاً لهم الحق بحرية الضمير، والصحافة، والجمعيات الحرة...». ويرفع الأساقفة الصلوات «في لحظات الشدة والقلق هذه» ليعم «الوئام والسلام» وتُقر في البلاد «حقوق التعايش الإنساني المقدسة».

لقد تأثر سلفادور جداً إلى حد أنه لم يستطع، لدى الخروج من الكنيسة، أن يناقش مضمون الرسالة الأسقفية مع زوجته أو مع أصدقائه المجتمعين عند باب الكنيسة، يتهامسون بذهول، بحماس، أو بخوف حول ما سمعوه للتو. لم يكن ثمة خطأ ممكن: فالرسالة مصدرة باسم رئيس الأساقفة ريكاردو بيتيني وتحمل توقيع مطارنة البلاد الخمسة.

تلعثم باعتذار سريع، وابتعد عن أسرته، ورجع مثل مُنَوّم إلى الكنيسة. اتجه نحو حجرة الهيكل. كان الأب فورتين يخلع بدلة القداس. ابتسم له: «أأنت فخور الآن بكنيستك يا سلفادور؟». لم تخرج منه الكلمات. عانق القس مطولاً. أجل، لقد وقفت كنيسة يسوع أخيراً إلى جانب الضحايا. وتلعثم قائلاً:

– سيكون القمع رهيباً أيها الأب فورتين.

وقد كان كذلك. ولكن مهارة النظام الشيطانية في المكايد جعلت الانتقام يتركز على المطرانين الأجنبيين، متجاهلة المولودين على الأرض الدومينيكانية. كان المونسنيور توماس ف. ريللي، من سان خوان دي لامغوانا، وهو أمريكي شمالي، والمونسنيور فرانثيسكو بانال، أسقف لابيغا، وهو إسباني، هدفاً لتلك الحملة الدنيئة.

في الأسابيع التي تلت بهجة 25 كانون الثاني 1960، طرح سلفادور على نفسه لأول مرة ضرورة قتل تروخييو. كانت الفكرة في أول الأمر ترعبه، لأنه على الكاثوليكي أن يحترم الوصية الخامسة. ومع ذلك، صارت الفكرة تلح عليه أكثر

فأكثر كلما قرأ في جريدة **الكاريبي** أو **لاناسيون**، أو سمع من صوت الدومينيكان الهجمات على المونسنيور بانال والمونسنيور ريللي: عميلي القوى الأجنبية، من باعا نفسيهما للشيوعية، للإستعمار، الخائنين، الثعبانين. يا للمنسنيور بانال المسكين! يتهمون هذا الأسقف بأنه أجنبي وهو الذي أمضى ثلاثين سنة في عمله الرسولي في لابيغا، حيث كان محبوباً من الطرواديين والصوريين على السواء. وقد جاءت التشويهات والاهانات التي يحيكها جوني أبيس - ومن سواه يستطيع نسج مثل تلك **الافتراءات** الشيطانية؟ - والتي كان التوركو يعلم بها من خلال الأب فورتين والتواصل البشري، لتقضي على وساوسه. وكانت القطرة التي جعلت كأسه يطفح هي المهزلة التمثيلية التي دُبرت ضد المونسنيور بانال، في كنيسة لابيغا، حيث كان المطران يؤدي قداس الساعة الثانية عشرة. وفي الكنيسة المزدحمة بالرعية، وبينما المونسنيور يقرأ من الإنجيل. اقتحمت المكان عصبة من المومسات المتبرجات وشبه العاريات، وأمام ذهول المؤمنين، اقترين من المنصة وهن يشتمن ويوبخن المطران المسن، ويتهمنه بأنه أنجب منهن أبناء وبأنه فاسد شرير. وقد استولت إحداهن على الميكروفون، وصاحت: «اعترف بالأبناء الذين حبلّنا بهم ولا تتسبب في موتهم جوعاً». وعندما استفاق بعض الحاضرين من ذهولهم وحاولوا إخراج العاهرات من الكنيسة وحماية المطران الذي كان ينظر غير مصدق ما يراه، اقتحم المخبرون المكان، نحو عشرين قاطع طريق مسلحين بالهراوى والسلاسل، وانهالوا دون رحمة على الرعية. يا للمطرانين المسكينين! لقد طرزوا بيتيهما بالشتائم. وفي سان خوان دي لاماغوانا، نسفوا شاحنة المونسنيور ريللي الصغيرة التي يتنقل بها في أبرشيته، وراحوا يقصفون بيته كل ليلة بحيوانات ميتة، ومياه آسنة، وفئران حية، حتى أجبروه على اللجوء إلى مدرسة سانتو دومنغو في مدينة تروخييو. أما المونسنيور الصامد بانال فمازال يقاوم في لابيغا، متحملاً التهديد والتشهير والشتائم. إنه عجوز مجبول من طينة الشهداء.

في أحد تلك الأيام مثُل التوركو في بيت الأب فورتين بذلك الوجه الغليظ والكبير المتحول.

- ماذا جرى يا سلفادور؟

- سأقتل تروخييو يا أبتاه. وأريد أن أعرف إذا ما كنتُ سأحكم على نفسي باللعنة - انكسر صوته-: لم يعد كل هذا محتملاً. ما يفعلونه بالمطارنة، بالكنائس، وهذه الحملة المقززة في التلفزيون، في الإذاعات والصحف. يجب

وضع حد لكل هذا، بقطع رأس هيدرا. هل سأحكم على نفسي باللعنة؟

هدأه الأب فورتين. قدم له قهوة مصنوعة للتو، وأخرجه للقيام بجولة طويلة في شوارع سنتياغو المشجرة بالغار. وبعد أسبوع من ذلك أخبره بأن القاصد الرسولي مونسنيور لينو زانيني، سيستقبله على انفراد في مدينة تروخييو. مثُل التوركو خائفاً في مقر القاصد الرسولي المهيب، في شارع مكسيمو غومث. وقد بث ذلك الحبر الكنسي الطمأنينة منذ اللحظة الأولى في نفس هذا المارد الخائف المحشور في قميصه ذي الياقة وربطة العنق التي وضعها لاجتماعه مع ممثل البابا.

كم كان أنيقاً ومحدثاً لبقاً ذلك المونسنيور زانيني! إنه أمير حقيقي دون شك. كان سلفادور قد سمع قصصاً كثيرة عن القاصد الرسولي وكان يشعر بالتعاطف نحوه، لأن تروخييو يكرهه كما يقال. أيكون صحيحاً ما يقال عن أن بيرون قد غادر هذه البلاد التي التجأ إليها قبل ستة شهور، حين علم بوصول قاصد رسولي جديد ممثل لقداسة البابا؟ الجميع يقولون ذلك. يقولون إنه هرع إلى القصر الوطني: «خذ حذرك يا صاحب الفخامة. مع الكنيسة لا يمكن اللعب. تذكر ما جرى لي. فأنا لم يُسقطني العسكريون، وإنما القسس. وهذا القاصد الرسولي الذي بعثت به الفاتيكان هو مثل ذاك الذي بعثوا به إليّ عندما بدأت مشاكلي مع ذوي المسوح. خذ حذرك منه!». وجمع الدكتاتور الأرجنتيني السابق حقائبه وهرب إلى إسبانيا.

بعد ذلك اللقاء صار التوركو مستعداً لتصديق كل شيء جيد يقال عن المونسنيور زانيني. لقد أدخله القاصد الرسولي إلى مكتبه، قدم له شراباً مرطباً، وشجعه على البوح بكل ما في داخله بتعليقاته اللطيفة التي يقولها بإسبانية ذات موسيقى إيطالية كان لها تأثير ملائكي على سلفادور. واستمع إليه يقول إنه لم يعد بالإمكان تحمل ما يجري، وإن ما يفعله النظام بالكنيسة، وبالمطارنة، يسبب له الجنون. وبعد توقف طويل، أمسك بيد القاصد الرسوي ذات الخواتم:

- سأقتل تروخييو أيها المونسنيور. هل هناك مغفرة لروحي؟

انقطع صوته. بقي خافضاً عينيه، يتنفس بجزع. وأخيراً، أحس بيد المونسنيور زانيني الأبوية على ظهره، رفع عينيه، وكان القاصد الرسولي يحمل كتاب القديس توما الأكويني في يده. وكان وجهه البشوش يبتسم له ابتسامة ماكرة. وكان أحد أصابعه يشير إلى فقرة، في الصفحة المفتوحة. انحنى سلفادور

وقرأ: «والرب ينظر بعين الرضا إلى تصفية **الوحش** جسدياً إذا كان في ذلك خلاص الشعب».

خرج من مقر القاصد الرسولي في حالة من الوجوم. سار طويلاً في جادة جورج واشنطن، على شاطئ البحر، وكان يشعر بطمأنينة روحية لم يشعر بها منذ وقت طويل. سيقتل **الوحش**، والرب وكنيسته سيغفران له، فتلوثه بالدم سيغسل الدم الذي جعله **الوحش** يسيل في وطنه.

ولكن، هل سيأتي؟ كان يشعر بالتوتر الرهيب الذي فرضه الانتظار على رفاقه. ليس هناك بينهم من يفتح فمه، ولا من يتحرك. إنه يسمعهم يتنفسون: أنطونيو إمبرت متشبثاً بمقود السيارة، بهدوء، وهو يستنشق جرعات طويلة من الهواء؛ وبسرعة، وبطريقة مترصدة، كان أنطونيو دي لاماثا لا يرفع بصره عن الطريق؛ وإلى جانبه، تسمع أنفاس آماديتو المنتظمة والعميقة، ووجهه متوجه كذلك نحو مدينة تروخييو. لا بد أن رفاقه الثلاثة يحملون أسلحتهم في أيديهم، مثله. يحس التوركو بمقبض مسدسه السميث آند ويزون 38 الذي اشتراه منذ زمن من محل صديق له في سنتياغو. ويحمل آماديتو، إضافة إلى مسدس 45، بندقية M-1 - من المساهمة المختزلة التي قدمها اليانكيون للمؤامرة - مثل بندقية أنطونيو، وهي إحدى البندقيتين البراونيغ عيار 12، اللتين جرى قص سبطانيتهما في مشغل الإسباني ميغيل آنخل بيسيو، صديق أنطونيو دي لاماثا، كانتا محشوتين بالطلقات الخاصة التي أعدها صديق حميم آخر لأنطونيو، وهو إسباني أيضاً، وضابط مدفعية سابق، يدعى مانويل دي أوفين فيلبو، وقد سلمه الطلقات وهو يؤكد أن كل واحدة منها تحتوي شحنة قاتلة تكفي لتفتيت فيل. عسى أن يكون ذلك صحيحاً. وقد كان سلفادور هو من اقترح أن تبقى البندقيتان المقدمتان من الـ CIA في يدي الملازم غارثيا غيريرو وأنطونيو دي لاماثا، وأن يشغل هذان المقعدين اليمينيين في السيارة. فهما أفضل راميين ويتوجب عليهما البدء بإطلاق النار وعن قرب. وقد وافق الجميع على ذلك. هل سيأتي، هل سيأتي؟

امتنان سلفادور إستريا سعد الله وتقديره للمنسنيور زانيني إزدادا عندما عرف، بعد أسابيع قليلة من تلك المحادثة في مقر القاصد الرسولي، أن راهبات أخوية الإحسان قررن نقل جيزيل، أخته الراهبة - الأخت باولينا - من سنتياغو إلى بويرتوريكو. اخته المدللة جيزيل، والمحببة لسلفادور. والتي ازدادت محبتها في قلبه منذ احتضنت الحياة الدينية. في اليوم الذي نذرت نفسها للرهبنة

واختارت اسم ماما باولينا، لتصبح «الأخت باولينا»، تحدرت على خدي التوركو دموع كبيرة. وكلما أتيح له قضاء لحظات مع الأخت باولينا، كان يشعر بعدوى الانعتاق، والانتعاش، والروحانية تنتقل إليه من خلال الوقار والسعادة التي تنضح بها أخته المحبوبة، والهدوء الواثق الذي تعيش به حياتها المكرسة للرب. أيكون الأب فورتين قد أخبر القاصد الرسولي بمدى خوفه مما يمكن أن يحدث لأخته الراهبة إذا ما اكتشف النظام أنه يتآمر؟ لم يخطر بباله قط أن يكون نقل الأخت باولينا إلى بويرتو ريكو مجرد مصادفة. بل هو قرار حكيم وكريم من كنيسة يسوع لإبعاد شابة طاهرة وبريئة عن متناول يد الوحش، وعن إمكانية أن يتخذ منها جلادو جوني أبيس طعماً له. فقد كانت تلك هي إحدى أشد عادات النظام استثارة لسلفادور: التنكيل بأقارب أولئك الذين يريدون معاقبتهم، بآبائهم، بأبنائهم، باخوتهم، بمصادرة ما يملكون، بسجنهم، بطردهم من عملهم. وإذا ما أخفقت هذه العملية، فالانتقام من أخواته واخوته سيكون حتمياً. ولن يُستثنى من ذلك حتى أبوه الجنرال بيرو إستريّا، الصديق المقرب من المنعم، والذي يكرمه بمآدب يقيمها له في مزرعته في لاس لافاس. كل هذا فكر فيه أكثر من مرة. وكان قد اتخذ القرار. وقد أحس بالراحة حين علم أن يد الإجرام لن تطال الأخت باولينا في ديرها في بويرتو ريكو. لقد كانت ترسل له بين الحين والآخر رسالة قصيرة بخطها الواضح والسوي، ممتلئة بالمحبة والظرافة.

على الرغم من شدة تدين سلفادور، إلا أنه لم يفكر يوماً بالإقدام على ما أقدمت عليه أخته جيزيل: ارتداء مسوح الرهبنة. لقد كان خياراً يقدره ويحسده، ولكنه ليس بالاختيار الذي خصّه به الرب. فما كان بإمكانه التقيد بتلك النُذر، وخصوصاً الطهارة. فقد خلقه الرب دنيوياً، غير قادر على كبح تلك الغرائز التي يتوجب على رهبان المسيح أن يقمعوها لكي يتمكنوا من إنجاز مهمتهم. فقد أغرم على الدوام بالنساء – وحتى الآن، وهو يعيش حياة زوجية وفية، تتخللها سقطات متباعدة يبقى ضميره بعدها معذباً لوقت طويل –، فحضور فتاة سمراء، ذات خصر نحيل وردفين بارزين، وفم حسي، وعينين مشعتين – وهو نمط الجمال الدومينيكاني اللاذع في النظرة، في المشية، في الكلام، في حركة اليدين – تجعل سلفادور يتبلبل، ويلتهب بالتخيلات والشهوة.

إنها إغواءات يتمكن من مقاومتها عادة. كم من المرات سخر منه أصدقاؤه، وخصوصاً أنطونيو دي لاماثا الذي تحول بعد مقتل أخيه تافيتو إلى مدمن

مجون، لأنه يرفض مرافقتهم في غزواتهم إلى المواخير، أو زياراتهم إلى بيوتٍ تؤمن القوادات لهم فيها فتيات عذراوات لفض بكاراتهن. صحيح أنه رضخ لهم في بعض المرات. ولكن المرارة كانت تلاحقه لأيام طويلة بعد ذلك. ومنذ بعض الوقت صار يحمّل تروخييو وزر تلك السقطات. فالوحش هو المذنب في دفع دومينيكانيين كثيرين إلى البحث عن العاهرات، والسكر، وانحلالات أخرى ليخمدوا الغيظ الذي يسببه لهم العيش دون بصيص من الحرية والكرامة، في بلاد لا تساوي الحياة البشرية فيها شيئاً. لقد كان تروخييو أحد أكثر حلفاء الشيطان فعالية.

- هذا هو! - زمجر أنطونيو دي لاماثا.

وردد آماديتو وطوني إمبرت:

- إنه هو! إنه هو!

- هيا انطلق، يا للعنة!

كان أنطونيو إمبرت قد فعل ذلك، وسيارة الشفروليه التي كانت تقف متوجهة نحو مدينة تروخييو، بدأت تدور محدثة صريراً بعجلاتها - فكّر سلفادور في فيلم بوليسي - وتنطلق باتجاه سان كريستوبال، حيث كانت سيارة تروخييو تبتعد على الطريق المقفر. أكانت هي؟ سلفادور لم يرها، ولكن رفاقه يبدون متأكدين من أنها يجب أن تكون هي، يجب أن تكون. قلبه يضرب صدره. أنزل أنطونيو وآماديتو زجاج نافذتيهما. وكلما كان إمبرت، المنحني على المقود مثل فارس يقفز بجواده، يزيد من سرعة السيارة، كانت الريح تشتد إلى حد يكاد سلفادور معه أن يعجز عن إبقاء عينيه مفتوحتين. حمى عينيه بيده الفارغة - فالأخرى كانت تمسك بالسلاح - وشيئاً فشيئاً راحت تقصر المسافة التي تفصلهم عن الأنوار الحمراء. صرخ:

- هل أنت متأكد من أنها شفروليه التيس يا آماديتو؟

- أكيد، أكيد - صرخ الملازم - لقد تعرفت على السائق، إنه ثاكرياس دي لا كروث. ألم أقل لكم إنه سيأتي؟

- أسرع، أسرع - كرر أنطونيو دي لاماثا للمرة الثالثة أو الرابعة. وكان قد أخرج رأسه وسبطانة البندقية القصيرة خارج السيارة.

- لقد كنتَ على حق يا آماديتو - سُمع صوت سلفادور يصرخ - ها قد جاء ومن دون حراسة، مثلما قلت.

كان الملازم يمسك بندقيته بكلتا يديه. وإلى جواره، مديراً له ظهره، وإصبعه على الزناد، يسند عقب بندقية الـM1 بكتفه، كان سلفادور يصلي: «أحمدك يا ربي باسم أبنائك الدومينيكانيين».

كانت شفروليه أنطونيو دي لاماثا من موديل بيسكاين تطير فوق الطريق، مقلصة المسافة عن الشفروليه موديل بيلآير الزرقاء التي كان آماديتو غارثيا غيريرو قد وصفها لهم مرات عديدة. تمكن التوركو من رؤية اللوحة الرسمية البيضاء وعليها الرقم الأسود 0-1823، وستائر القماش على نوافذها. إنها هي، أجل، إنها السيارة التي يستخدمها الزعيم للذهاب إلى بيت كاوبا، في سان كريستوبال. داهم سلفادور كابوس عابر وهو في هذه الشفروليه بيسكاين التي يقودها طوني إمبرت: كانوا يمضون مثلما هم الآن، تحت سماء مرصعة بقمر ونجوم، وفجأة بدأت سرعة هذه السيارة الجديدة، المجهزة للمطاردة تتناقص، بدأت تتباطأ، إلى أن توقفت أخيراً وسط لعناتهم جميعاً.

ولكن الشفروليه تواصل سرعتها – لا بد أنها تنطلق بسرعة تزيد على مئة في الساعة – والسيارة التي في الأمام صارت تظهر واضحة في وهج نور المصباحين العاليين اللذين أشعلهما إمبرت. لقد كان سلفادور يعرف هذه السيارة بالتفصيل منذ أن اتبعوا مبادرة الملازم غارثيا غيريرو واتفقوا على نصب الكمين لتروخييو أثناء رحلته الأسبوعية إلى سان كريستوبال. وكان جلياً أن النجاح في العملية يعتمد على وجود سيارة سريعة. وكان أنطونيو دي لاماثا مولعاً بالسيارات. ولم تستغرب شركة «سانتو دومنغو موتورز» أن يأتيها شخص يعمل على الحدود مع هايتي ويجتاز مئات الكيلومترات كل أسبوع، راغباً في اقتناء سيارة خاصة. نصحوه بالشفروليه بيسكاين وطلبوها من الولايات المتحدة. وقد وصلت السيارة إلى مدينة تروخييو منذ ثلاثة أشهر. وتذكر سلفادور اليوم الذي ركبوا فيها لتجربتها وكيف ضحكوا وهم يقرؤون التعليمات التي تقول إن هذه السيارة مماثلة تماماً لتلك التي تستخدمها الشرطة الأمريكية لمطاردة المجرمين. مزودة بمكيف هواء، وجهاز نقل حركة أوتوماتيكي، مكابح هيدروليكية، ومحرك 350 حصان بثمانية سيلندرات. بلغت كلفتها سبعة آلاف دولار وقد علق أنطونيو: «ليس ثمة أموال استُثمرت في عمل أفضل من هذا». جربوها في محيط مدينة موكا، وتأكدوا من أن كُتيب التعليمات لا يبالغ: فهي قادرة على الوصول إلى سرعة مئة وستين كيلومتراً في الساعة.

- حاذر يا طوني - سُمع من يقول بعد مطب لا بد أنه بعج واقية إحدى العجلات، ولكن أنطونيو وآماديتو لم يهتما بذلك؛ وكان سلاحاهما ورأساهما ما يزالان خارجاً، ينتظران أن يتجاوز إمبرت سيارة تروخييو. كانوا على بعد أقل من عشرين متراً منها، وكان عصف الهواء خانقاً، ولم يكن سلفادور يرفع بصره عن ستارة النافذة الخلفية. عليهم أن يطلقوا النار في العماء، وأن يغطوا المقعد كله بالرصاص. طلب من الله ألا يكون **التيس** قد أحضر معه إحدى عاثرات الحظ اللواتي يأتي بهن إلى بيته في كاوبا.

تقدمت الشفروليه بيلاير بضعة أمتار، وكأنها قد انتبهت فجأة إلى أنهم يطاردونها، أو أنها فعلت ذلك بدافع الغريزة الرياضية في عدم السماح لأحد بتجاوزها.

- أسرع، أسرع - صاح أنطونيو دي لاماثا آمراً - بسرعة أكبر، يا للعنة!

وفي ثوان قليلة استعادت الشفروليه بيسكاين المسافة السابقة وواصلت السرعة. والآخرون؟ لماذا لم يظهر بيدرو ليفيو وهواسكار تيخيدا؟ إنهما ينتظران في سيارة الأولدزموبيل - وهي أيضاً لأنطونيو دي لاماثا -، على بعد حوالي كيلومترين فقط، وكان عليهما أن يعترضا سيارة تروخييو. هل نسي إمبرت إطفاء وإشعال النور ثلاث مرات متتالية؟ ولم يظهر كذلك فيفي باستوريثا في سيارة سلفادور الميركوري العتيقة، التي تكمن على بعد كيلومترين آخرين من الأولدزموبيل. لا بد أنهم قد قطعوا كيلومترين، أو ثلاثة، أو أربعة كيلومترات أو أكثر. أين هم؟

- لقد نسيت الإشارات يا طوني - صرخ التوركو - لقد تجاوزنا بيدرو ليفيو وفيفي.

أصبحوا على بعد حوالي ثمانية أمتار من سيارة تروخييو، وكان طوني يطلب منها فسح الطريق للتجاوز بتبديل الأنوار وإطلاق المنبه.

- اقترب منها أكثر - زمجر أنطونيو دي لاماثا.

تقدموا بعض الشيء أكثر، دون أن تبتعد الشفروليه بلاير عن منتصف الطريق، غير مبالية بإشارات طوني. أين هي الأولدزموبيل اللعينة التي فيها ليفيو وهواسكار؟ وأين هي سيارته الميركوري التي فيها فيفي باستوريثا؟ وأخيراً ابتعدت سيارة تروخييو نحو اليمين. لقد تركت لهم مجالاً كافياً.

- التصق بها، التصق بها أكثر- تضرع أنطونيو دي لاماثا بهستيرية.

زاد طوني إمبرت السرعة وخلال ثوان قليلة كانوا على مستوى الشفروليه بيلاير. كانت الستارة الجانبية مسدلة كذلك، فلم يتمكن سلفادور من رؤية تروخييو أيضاً، ولكنه رأى بوضوح في المقابل، في النافذة الأمامية، الوجه المقطب والعابس لسائق تروخييو الشهير ثاكارياس دي لا كروث، في الوقت الذي أحس فيه كما لو أن طبلتي أذنيه تتمزقان من دوي رشتي الرصاص اللتين أطلقتا من أنطونيو ومن داخل السيارة الأخرى في وقت واحد. كانت السيارتان متقاربتين إلى حد أنه لدى تحطم زجاج النافذة الخلفية في السيارة الأخرى، تطاير فتات الزجاج ووصل إليهم وأحس سلفادور بوخزات خفيفة في وجهه. واستطاع، كما في هلوسة، أن يرى ثاكارياس يقوم بحركة غريبة من رأسه، وبعد ثانية من ذلك، كان هو أيضاً يطلق النار من فوق كتف آماديتو.

لم يستمر ذلك إلا ثوان قليلة، إذ أن فرملة مفاجئة - خرش أذنيه صرير العجلات - جعلت سيارة تروخييو تتخلف عنهم. أدار رأسه، ومن خلال الزجاج الخلفي رأى الشفروليه بيلاير تتمايل وكأنها ستنقلب قبل أن تتوقف تماماً. لم تقم بالدوران، لم تحاول الهرب.

- توقف، توقف! - زمجر أنطونيو دي لاماثا - تراجع القهقرى، يا للعنة!

لقد كان طوني يعرف ما عليه عمله. فقد كبح الفرامل بقوة، في الوقت نفسه تقريباً الذي فعلت فيه ذلك سيارة تروخييو المثقوبة بالرصاص، ولكنه رفع قدمه عن المكابح عندما أخذت السيارة الأخرى تتمايل في اهتزازات عنيفة وأوشكت أن تنقلب، وعاد إلى كبح الفرامل ثانية حتى أوقف الشفروليه بيسكاين. ودون أن يضيع ثانية واحدة، ناور، ودار في مكانه - لم تكن هناك أي سيارة قادمة - إلى أن أصبحت السيارة في الاتجاه المعاكس، وانطلق الآن للقاء سيارة تروخييو المتوقفة هناك بعبثية وكأنها تنتظرهم، بمصابيحها المضاءة، على بعد أقل من مئة متر. وعندما اجتاز نصف هذه المسافة، انطفأت مصابيح السيارة المتوقفة، ولكن التوركو بقي يراها: إنها ما تزال هناك، مضاءة بأنوار طوني إمبرت العالية.

- أخفضوا رؤوسكم، انحنوا - قال آماديتو - إنهم يطلقون علينا.

زجاج النافذة التي إلى يساره تفتت. وأحس سلفادور بإبر في وجهه وعنقه، واندفع إلى الأمام بفعل كبح الفرامل. صرّت الشفروليه بيسكاين، وتمايلت، واصطفت على جانب الطريق تماماً قبل أن تتوقف. أطفأ إمبرت الأنوار. وخيم الظلام على كل شيء. سمع سلفادور إطلاق نار في ما حوله. في أي لحظة قفز

هو وآماديتو، وطوني، وأنطونيو إلى الشارع؟ الأربعة كانوا خارجاً، محتمين وراء واقيات العجلات والأبواب المفتوحة، وكانوا يطلقون النار بالاتجاه الذي كانت فيه، الذي يجب أن تكون فيه، سيارة تروخييو. من الذي يطلق النار عليهم؟ هل هناك أحد مع التيس باستثناء السائق؟ لأنه ليس هناك من شك، إنهم يطلقون النار عليهم، فالرصاص يلعلع من حولهم، إنه يرن عندما يثقب صفائح الشفروليه، كما أنه جرح أحد أصدقائهم.

– توركو، آماديتو.. غطيانا – أمرهما أنطونيو دي لاماثا – هلم بنا لنجهز عليه يا طوني.

وفي الوقت نفسه تقريباً – كانت عيناه قد بدأتا بتمييز الحواف والظلال في البريق الخافت المائل للزرقة – رأى الشبحين المنحنيين يركضان باتجاه سيارة تروخييو.

– لا تطلق النار أيها التوركو – قال آماديتو وهو يضع ركبته على الأرض ويصوب ببندقيته – يمكن لنا أن نصيبهما. ابق متيقظاً. قد يحاول الهرب من هنا.

بعد خمس، ثمان، عشر ثوان، ساد صمت مطبق. وكما في لعبة خيال ظل، رأى سلفادور على الطريق إلى يمينه، سيارتين تمران بأقصى سرعة باتجاه مدينة تروخييو. بعد لحظة من ذلك، سُمع من جديد دوي رصاص بندقية ومسدس. استمر ثواني قليلة. وعندئذ ملأ صوت أنطونيو دي لاماثا الليل صارخاً:

– إنه ميت!

انطلق هو وآماديتو راكضين. وبعد ثوان توقف سلفادور وراح يمد رأسه فوق كتفي طوني إمبرت وأنطونيو اللذين كان أحدهما يشعل ولاعة والآخر عود ثقاب، ويتفحصان الجسد المضمخ بالدم، مرتدياً بدلة ذات لون أخضر زيتوني، وجهه مهشم، ويقبع على الأرض المرصوفة وسط بركة من الدم. **الوحش** ميتاً. لم يُتح له الوقت ليشكر السماء، فقد سمع أصوات ركض وأحس بالتأكيد بأنه يسمع إطلاق نار، هناك، وراء سيارة تروخييو. ودون تروٍ، رفع مسدسه وأطلق النار، مقتنعاً بأنهم مخبرون، أو مساعدون عسكريون هرعوا لنجدة **الزعيم**. ومن مكان قريب، سمع صوت بيدرو ليفيو ثيدينيو يئن، وقد أصابته رصاصاته. بدا له كما لو أن الأرض تنشق، وكما لو أن الشيطان يخرج له منها ساخراً منه.

الفصل الثالث عشر

- ألا تريدين حقاً قليلاً من فطيرة الذرة - تلح عليها العمة آديلينا بحنان - تشجعي. لقد كنتِ تطلبين مني أن أصنع لك فطيرة ذرة كلما أتيتِ في طفولتك إلى البيت،. ألم تعودي تحبينها؟

- إنني أحبها بالطبع يا عمتي - تحتج أورانيا - ولكنني لم آكل في حياتي مثلما أكلتُ الآن، لن أستطيع النوم.

فتستسلم العمة آديلينا:

- حسن، فلنتركها هنا، فقد تشتهينها بعد قليل.

صوتها الواثق وصفاء ذهنها يتناقضان مع الحطام الذي هي عليه: منكمشة، شبه صلعاء - فبين خصل الشعر البيضاء تظهر أجزاء من جلدة الرأس منزوعة الشعر- وجهها مقطب في ألف تجعيدة، وطقم أسنان اصطناعية يتحرك في فمها حين تأكل أو تتكلم. إنها بقايا امرأة، شبه ضائعة في الكرسي الهزاز الذي أجلستها عليه ابنتاها لوثيندا ومانوليتا، ومعهما ماريانيتا والخادمة الهايتية، بعد أن أنزلنها محمولة من الطابق العلوي. لقد أصرت العمة على تناول العشاء في غرفة الطعام مع ابنة أخيها أغوسطين التي عادت للظهور فجأة بعد كل تلك السنوات. هل العمة أكبر أم أصغر سناً من أبيها؟ أورانيا لا تتذكر ذلك. إنها تتكلم بحماس وهناك في عينيها الغائرتين ومضات ذكاء. وتفكر أورانيا: «ما كان بإمكاني التعرف عليها قط». وما كان بإمكانها التعرف كذلك على لوثيندا، وأقل منها على مانوليتا التي رأتها للمرة الأخيرة حين كانت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها وهي الآن سيدة تميل إلى الهرم، في وجهها وعنقها تجاعيد، ولها شعر سيئ الصباغة بلون أسود مائل إلى الزرقة شديد الغرابة. لا بد أن عمر ابنتها ماريانيتا حوالي عشرين سنة: وهي نحيلة، شاحبة جداً، شعرها مقصوص من أصله تقريباً ولها عينان حزينتان. لا تتوقف عن تأمل أورانيتا بافتتان. ما الذي سمعته عنها حفيدة عمتها؟

- لا أكاد أصدق أنكِ أنت، وأنكِ هنا- تصوب إليها العمة آديلينا عينيها- لم أتصور مطلقاً أنني سأراكِ من جديد.

- ها أنت ترين يا عمتي، إنني هنا. وكم أنا سعيدة بذلك.

- وأنا أيضاً سعيدة يا بنيتي. ولا بد أن سعادة أغوسطين أكبر. لقد اعتاد أخي على فكرة أنه لن يراكِ أبداً.

- لست أدري يا عمتي - تقوّم أورنيا دفاعها، تتوجس التأنيب والأسئلة الفضولية - لقد أمضيتُ النهار كله معه ولم يبدُ لي في أي لحظة أنه تعرف عليّ.

ويأتي رد فعل ابنتي عمتها في وقت واحد:

- لقد تعرف عليك بالطبع يا أورانيتا - تؤكد لها لوثيندا.

- قد لا تلاحظين ذلك لأنه غير قادر على الكلام. - تؤيدها مانوليتا - ولكنه يفهم كل شيء، فدماغه سليم تماماً.

وتقول العمة آديلينا ضاحكة:

- مازال مخيخاً.

- نحن نعرف ذلك لأننا نراه كل يوم. - تعيد لوثيندا التأكيد - لقد تعرفَ عليكِ، وقد أسعدته بمجيئك.

- أرجو ذلك يا ابنة عمتي.

يمتد صمت طويل، وتتقاطع نظرات حول الطاولة العتيقة في غرفة الطعام الضيقة، حيث توجد خزانة زجاجية تتعرف عليها أورانيا بصورة غامضة، ولوحات دينية على الجدران ذات اللون الأخضر الباهت. إنها لا تجد شيئاً مألوفاً هنا أيضاً. فبيت العمين آديلينا وآنيبال الذي تحتفظ به في ذاكرتها، حين كانت تأتي لتلعب مع مانوليتا ولوثيندا، هو بيت فسيح، جيد الإضاءة، أنيق وحسن التهوية، أما هذا البيت فهو كهف مزدحم بأثاث يبعث على الكآبة.

- كسر حوضي أبعدني عن أغوسطين إلى الأبد. - تهز العمة قبضتها الضئيلة ذات الأصابع المشوهة بداء المفاصل - قبل ذلك كنتُ أقضي ساعات معه. وكنا نتبادل أحاديث مطولة. لم أكن بحاجة لأن أسمعه يتكلم لأعرف ما الذي يريد قوله. يا لأخي المسكين! كنتُ أود لو أستطيع إحضاره إلى هنا. ولكن، أين سأضعه في جحر الفئران هذا؟

إنها تتكلم بغضب.

- لقد كان موت تروخييو بداية النهاية للأسرة - تزفر لوثينديتا. وعندئذ بالذات تشعر بالخوف - اعذريني يا ابنة خالي. أنت تكرهين تروخييو، أليس كذلك؟

- لقد بدأ الأمر قبل ذلك - تصحح لها العمة آديلينا وتهتم أورانيا بما تقوله.

- متى بدأ يا جدتي؟ - تسالها بصوت خافت ماريانيتا ابنة لوثيندا الكبرى.

- بالرسالة التي نُشرت في «**المحكمة العامة**»، قبل شهور من مقتل تروخييو - تُصدر العمة آديلينا حكمها بينما عيناها تثقبان الفراغ - في شهر كانون الثاني أو شباط من عام 61. نحن من أطلعنا أباك على الخبر، في الصباح الباكر. وكان زوجي آنيبال هو أول من قرأه.

- رسالة في صفحة «**المحكمة العامة**»؟- تبحث أورانيا وتبحث في ذاكرتها- آه، أجل.

- لا أظن الأمر مهماً، أعتقد أنها مجرد حماقة لن تلبث أن تتوضح.- قال له زوج أخته في الهاتف، وكان صوته مضطرباً، محتداً، له رنة زائفة إلى حد فوجئ معه السيناتور أغوسطين كابرال: ما الذي جرى لآنيبال؟- ألم تقرأ جريدة **الكاريبي**؟

- لقد أحضروها لي للتو، لم افتحها بعد.

يسمع سعلة عصبية.

- حسن، ثمة رسالة فيها يا مخيخ. - حاول صهره أن يبدو ساخراً ومرحاً - حماقات. يجب عليك أن توضحها بأسرع ما يمكن.

- شكراً لاتصالك بي - قال له السيناتور كابرال مودعاً - قبلاتي إلى آديلينا وإلى الصغيرتين. سأمر لزيارتكم.

ثلاثون سنة في ذرى السلطة السياسية جعلت من أغوسطين كابرال خبيراً في أنواع المفاجآت - مصايد، كمائن، مكايد، خيانات - ولهذا لم يفقد أعصابه حين علم بأن هناك رسالة ضده في صفحة «**المحكمة العامة**»، أكثر زوايا جريدة **الكاريبي** لفتاً لاهتمام القراء وإثارة للخوف، ذلك أنها تُغذى من **القصر الوطني** وتشكل البارومتر لسياسة البلاد. كانت تلك هي المرة الأولى التي يظهر فيها اسمه في الصفحة الجهنمية؛ لقد اكتوى سيناتورات، وحكام مقاطعات، وموظفون آخرون بتلك النار؛ أما هو فلم يعانِ منها حتى الآن. رجع إلى غرفة الطعام. وكانت ابنته، بزيها المدرسي، تتناول الفطور المؤلف من: منغو - وهو موز

مهروس مع الزبد – وجبن محمص. قبّلها من شعرها (: «مرحباً بابا»)، جلس قبالتها، وبينما الخادمة تسكب له القهوة، فتح الجريدة المطوية عند ركن الطاولة ببطء، دون نزق. قلّب الصفحات حتى وصل إلى «**المحكمة العامة**».

السيد رئيس التحرير:

أكتب إليك بدافع المواطنية، محتجاً على الإهانة التي تلحق بالمواطنين الدومينيكانيين وبحرية التعبير غير المحدودة التي تكفلها حكومة الجنراليسمو تروخييو لهذه الجمهورية. وما أعنيه بقولي هذا هو ما لم يُشر إليه حتى الآن في صفحات جريدتكم الغراء والمقروءة، مع أنه معروف للجميع، واقع أن السيناتور أغوسطين كابرال، الملقب مخيخ (وما هو مبرر هذه التسمية؟) قد أُقيل من رئاسة مجلس الشيوخ بعد أن ثبت عليه سلوك غير سوي في وزارة الأشغال العامة التي كان يشغلها حتى وقت قريب. ومن المعروف أيضاً، بالنظر إلى هوس هذا النظام في شؤون النزاهة واستخدام الأموال العامة، أن لجنة تحقيق في سوء الإدارة والاختلاس الواضحين – تشكيل لجان غير شرعية، وشراء مواد منسقة بتقدير أسعارها بأقل من قيمتها الحقيقية، وتضخم وهمي في الميزانيات التي وضعها السيناتور المذكور خلال ممارسته لعمله الوزاري – قد عُينت للتحقيق في التهم الموجهة إليه.

أليس من حق الشعب التروخييوي أن يطلّع على هذه الوقائع الخطيرة؟

مع فائق الاحترام،

المهندس تيليسفورو هيدالغو ساينو

شارع دوارتي، الرقم 171

مدينة تروخييو.

– سأذهب طيراناً يا بابا.– سمع السيناتور كابرال الصوت، ودون أن يبدي أي ملمح يشي بهدوئه الظاهري، أبعد الجريدة عن وجهه لكي يقبل الطفلة – لن أستطيع الرجوع في حافلة المدرسة. سأبقى للعب كرة الطائرة. وسآتي مع صديقاتي مشياً على الأقدام.

– انتبهي عند اجتياز تقاطعات الطرق يا أورنيتا.

شرب عصير البرتقال وتناول فنجاناً من القهوة الساخنة المصنوعة للتو، دون تسرع، ولكنه لم يتذوق المنغو، ولا الجبن المحمص مع العسل. قرأ رسالة «**المحكمة العامة**» كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً. لا شك أن كاتبها هو **الدستوري سكران**، كاتب الأحابيل المنمقة، ولكنه فعل ذلك بأمر من **الزعيم**؛ فليس هناك من يتجرأ على كتابة، ناهيك عن نشر، مثل هذه الرسالة دون موافقة تروخييو نفسه. متى رآه

آخر مرة؟ أول أمس، خلال جولة المشي. ولم يستدعه الزعيم للمشي إلى جانبه، لأنه كان يتحدث طوال الوقت مع الجنرال رومان والجنرال إسبايّات، ، ولكنه حياه بالمراعاة المعهودة. أم أنه لم يفعل ذلك؟ شحذ ذاكرته. هل لمح أي جفاء في تلك النظرة الثابتة، المخيفة، والتي تبدو كما لو أنها تهتك المظاهر وتصل إلى روح من تتفحصه؟ هل أبدى بعض الجفاء وهو يرد على تحيته؟ هل قطب جبينه؟ لا، إنه لا يتذكر حدوث شيء غير طبيعي.

سألته الطاهية إذا ما كان سيأتي للغداء. لا، لن يعود حتى العشاء. وعندما سمع صوت سيارة رئاسة مجلس الشيوخ تصل إلى باب بيته، نظر إلى ساعته: إنها الثامنة تماماً. لقد اكتشف بفضل تروخييو أن الوقت من ذهب. ومثل كثيرين غيره، تبنى منذ شبابه هواجس **الزعيم**: الترتيب، الدقة، الانضباط، الكمال. وقد قال السيناتور أغوسطين كابرال ذلك في إحدى خطبه: «بفضل فخامة **المنعم**، اكتشفنا نحن الدومينيكانيين روائع الدقة». خرج باتجاه الشارع وهو ما يزال يرتدي سترته: «لو أنهم أقالوني لما جاءت سيارة رئاسة المجلس لأخذي». فتح له باب السيارة مرافقه، الملازم الجوي هومبيرتو آرينال الذي لم يُخفِ قط ارتباطه بالاستخبارات العسكرية. ها هي السيارة الرسمية ووراء مقودها السائق تيودوسيو. وها هو مرافقه. ليس هناك ما يدعو إلى القلق.

- ألم يعرف مطلقاً سبب وقوعه في المحنة. - سألت أورانيا مستغربة.

- لم يعرف ذلك معرفة يقينية على الإطلاق. - أوضحت العمة آديلينا - لقد كانت هناك افتراضات كثيرة وحسب. سنوات وسنوات أمضاها أغوسطين وهو يتساءل عما فعله وجعل تروخييو يغضب منه هكذا، بين عشية وضحاها. ولماذا يتحول رجلٌ خدمه طوال حياته إلى موبوء.

أورانيا تراقب عدم التصديق الذي تستمع به ماريانيتا.

- يبدو لك هذا الكلام وكأنه عن كوكب آخر، أليس كذلك يا ابنة الأخت[1]؟ تتورد الصبية خجلاً.

- الأمر يبدو غير قابل للتصديق أيتها الخالة. مثلما في فيلم أورسون ويلز «**المحاكمة**»، الذي عرضوه في النادي السينمائي. فهم يحاكمون أنطوني بيركينز ويعدمونه دون أن يعرف السبب.

---

[1] ماريانيتا ليست ابنة أختها في الواقع، وإنما هي ابنة لوثيندا، ابنة عمتها، ولكنها تدعوها كذلك تحبباً.

مانوليتا التي تهوّي بكلتا يديها منذ بعض الوقت؛ تتوقف عن عمل ذلك لتشارك في الحديث:

- يقال إنه وقع في المحنة لأن هناك من أقنع تروخييو بأن المطارنة امتنعوا عن إعلانه منعماً على الكنيسة الكاثوليكية بسبب الخال أغوسطين.

- لقد قالوا ألف سبب - هتفت العمة آديلينا - وكان الشك هو أسوأ عذاباته. وبدأت الأسرة تنحدر دون أن يدري أحد ما هي التهمة التي يوجهونها إلى أغوسطين، وما الذي فعله أو لم يفعله.

لم يكن هناك أي سيناتور في مقر المجلس عندما دخل أغوسطين كابرال في الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة، مثلما يفعل كل يوم. الحراس حيوه بالتحية العسكرية المناسبة لمنصبه، والحجاب والموظفون الذين التقاهم في الممرات وهو في طريقه إلى مكتبه وجهوا إليه تحية الصباح بالتدفق المعهود. ولكن القلق كان بادياً على وجهي سكرتيرته إيسابيل ومساعده المحامي الشاب باريس غويكو.

- من مات؟ - قال لهما مازحاً، ثم أضاف: - هل أقلقتكما الرسالة المنشورة في «**المحكمة العامة**»؟ هلموا لنستوضح هذا التشهير الآن بالذات. اتصلي بمدير تحرير جريدة **الكاريبي** يا إيسابيليتا. اتصلي به في بيته، فبانتشيتو لا يذهب إلى الجريدة قبل منتصف النهار.

جلس إلى مكتبه، ألقى نظرة على أكوام الوثائق، على المراسلات، على برنامج عمل اليوم الذي أعده مساعده باريس. «الزعيم هو من أملى تلك الرسالة.» انزلقت أفعى في عموده الفقري. أهي واحدة من تلك التمثيليات التي تمتع الجنراليسمو؟ وهل لديه الحماس، ونحن في ذروة التوتر مع الكنيسة والمواجهة مع الولايات المتحدة ومنظمة الدول الأمريكية، على المداعبات التي اعتاد عليها في الماضي، عندما كان يشعر أنه كلي القدرة وغير معرض للتهديد؟ هل الأزمنة مناسبة لألعاب السيرك؟

- على الهاتف يا دون أغوسطين.

رفع السماعة وانتظر بضع ثوان قبل أن يتكلم.

- هل أيقظتك يا بانتشيتو؟

- ماذا تقول يا مخيخ - كان صوت الصحفي طبيعي - أنا أستيقظ باكراً، مثل ديك مخصي. وأنام وإحدى عيني مفتوحة. تحسباً للمفاجآت. ماذا لديك؟

- حسن، مثلما تتصور، إنني أتصل بك من أجل الرسالة المنشورة صباح اليوم

فـي «**المحكمة العامـة**» - تتحنـح السيناتور كـابرال - هـل يمكنـك إطلاعـي على شيء بشأنها؟

وجاء الجواب بالنبرة المستخفة والمرحة نفسها، كما لو أن المسألة كلها مجرد تفاهة.

- لقد جاءت الرسالة مع توصية يا مخيخ. أنا لا أنشـر شيئاً دون أن أتحـرى عنه. صدقني أن نشرها لم يسعدني كثيراً، للصداقة التي تربطنا.

«أجل، أجل، بالطبع»، دمدم. يجب عليه ألا يفقد أعصابه لحظة واحدة.

- أنـوي الـرد علـى تلـك الافـتراءات - قـال بنعومـة - فأنـا لـم أُعـزل مـن أي منصب. إنني أكلمك من رئاسة مجلس الشيوخ. ولجنة التحقيق المزعومة تلك عن إدارتي لوزارة الأشغال العامة، ما هي إلا تلفيقة أخرى.

- أرسـل لـي ردك بأسـرع مـا يمكـن - رد عليه بانتشيتو - سأفعـل مـا بوسـعي لنشره، هذا أقل ما يمكن. أنت تعـرف مدى معزتك عنـدي. سأكون فـي الجريـدة منذ الساعة الرابعة. قبلاتي إلى الصغيرة أورانيا. تحياتي يا أغوسطين.

بعد أن أغلق الهاتف، خامره الشك. هل أحسـن صنعاً بالاتصال بمدير جريدة **الكاريبي**؟ ألـم تكن حركـة زائفـة تكشـف عـن ذعـره؟ ومـا الـذي يستطيع مديـر الجريدة أن يقوله له: إنه يتلقى الرسائل التي ستنشـر فـي «**المحكمة العامة**» من القصـر الوطنـي مباشـرة وينشـرها دون طـرح أيـة أسـئلة. نظـر إلـى سـاعته: إنـها التاسعة إلا ربعاً. مازال لديه متسع من الوقت؛ فاجتماع المكتب الإداري للمجلس ينعقد فـي التاسعة والنصف. أملى التصحيحات على إيسابيل بالطريقة الصارمة والواضحة التي يحرر بها كتاباته. رسالة مقتضبة، جافة، وصاعقة: فهو مـا يـزال رئيس مجلس الشيوخ وليس هناك من حقق فـي إدارتـه الدقيقـة لـوزارة الأشـغال العامـة التـي ائتمنـه عليـها النظـام بقيـادة هـذا الدومينيكـاني العظيـم، **فخامـة الجنراليمسو رافائيل ليونيداس تروخييو، المنعم وأبو الوطن الجديد**.

عندمـا انتهت إيسـابيل من طباعـة مـا أمـلاه عليها، دخـل بـاريس غويكـو إلـى المكتب.

- لقد أُلغي اجتماع المكتب الإداري للمجلس، أيها السيد الرئيس.

كان شاباً فتياً، ولا يعرف المداراة: فبدا فمه نصف مفتوح ووجهه شاحباً.

- أُلغي الاجتماع دون استشـارتي؟ من الذي ألغاه؟

- نائب رئيس المجلس يا دون أغوسطين. لقد أخبرني هو نفسه بذلك للتو.

فكّر بما سمعه. هل هي مسألة أخرى، لا علاقة لها برسالة المحكمة العامة؟ وكان باريس المغموم يقف منتظراً بجانب المكتب.

- هل الدكتور كينتانيّا في مكتبه؟ - وبما أن مساعده هز رأسه بالإيجاب، فقد نهض السيناتور كابرال - قل له إنني ذاهب إليه.

- من المستحيل ألا تتذكري ذلك يا أورانيتا - أنبتها عمتها آديليتا - كان عمرك أربع عشرة سنة آنذاك. وكان ذلك أخطر ما تعرضت له الأسرة، أخطر حتى من الحادث الذي ماتت فيه أمك. ألا تتذكرين شيئاً من ذلك؟

كانوا قد شربوا قهوة، وشراباً ساخناً. تذوقت أورانيا قليلاً من فطيرة الذرة. وكانوا يتبادلون الحديث حول طاولة غرفة الطعام، على الضوء الذاوي للمصباح العمودي الصغير. وكانت الخادم الهايتية، الصامتة مثل هرة، قد رفعت الأطباق عن المائدة.

- إنني أتذكر الغم الذي أحس به أبي بالطبع يا عمتي - أوضحت أورانيا - لقد غامت في ذهني التفاصيل، والحوادث اليومية. لقد كان يحاول أن يخفي عني ذلك في البدء. «هناك مشاكل يا أورانيتا، ولكنها ستُحل.» ولكنني لم أتصور أن حياتي ستنقلب منذ ذلك الحين تماماً وتتخذ منحى آخر.

تحس بنظرات عمتها وابنتي عمتها وابنة مانوليتا تحرقها. وتقول لوثيندا ما يفكرن به:

- لقد جلب لك ذلك شيئاً من الفائدة يا أورانيتا. وإلا لما كنتِ حيث أنت. أما نحن بالمقابل، فكان ذلك كارثة بالنسبة لنا.

- وبالنسبة إلى أخي المسكين أكثر من الجميع. - تقول لها العمة آديلينا بنبرة اتهامية - لقد طعنوه بخنجر وتركوه ينزف طوال ثلاثين سنة أخرى.

تصرخ ببغاء من فوق رأس أورانيا، وتفزعها. لم تكن قد انتبهت حتى الآن إلى وجود الحيوان، إنه منكمش على نفسه، يحرك من جهة إلى أخرى أسطوانته الخشبية التي يقف عليها داخل قفص ضخم ذي قضبان زرقاء. فتنفجر عمتها وابنتي عمتها والحفيدة في الضحك.

- إنه شمشون - تقدمه إليها مانوليتا -. لقد غضب لأننا أيقظناه. إنه محب للنوم.

وبفضل الببغاء تراخى الجو المشحون.

- أنا واثقة من أنني إذا ما فهمت ما يقوله، فسوف أطّلع على أسرار كثيرة -

تقول أورانيا مازحة وهي تشير إلى **شمشون**.

لم يكن السيناتور أغوسطين كابرال في وضع يشجعه على الابتسام. إنه يرد بانحناءة عابسة على التحية المداهنة التي يوجهها إليه الدكتور خواكين كينتانيّا، نائب رئيس مجلس الشيوخ، بعد أن دخل إلى مكتبه وتوجه إليه سائلاً دون مقدمات:

- لماذا ألغيت اجتماع المكتب الإداري للمجلس؟ أليست هذه من صلاحيات الرئيس؟ إنني أطالب بتفسير.

يوافق على ذلك السيناتور كينتانيّا بهز رأسه الغليظ، الذي بلون الكاكاو، عدة مرات، بينما شفتاه تحاولان تهدئته باسبانية إيقاعية، شبه موسيقية:

- بالطبع يا مخيخ. لا تغضب هكذا، فكل شيء له مبرراته باستثناء الموت.

إنه رجل بدين وستيني، جفونه متورمة وفمه لزج، محشور في بدلة زرقاء وربطة عنق مرقشة بنجوم فضية تلمع. يبتسم بعناد، ويراه أغوسطين كابرال وهو يخلع نظارته، ويغمز بعينيه، ويلقي نظرة سريعة بقرنيتيه شديدتي البياض، ثم يخطو نحوه، ويمسك به من ذراعه ويقتاده بينما هو يقول بصوت عالٍ:

- فلنجلس هنا، سنكون أكثر راحة.

ولكنه لا يقتاده نحو مقاعد مكتبه التي لها قوائم نمور ثقيلة، وإنما إلى شرفة مواربة الأبواب. يجبره على الخروج معه، بحيث يمكنهما التحدث في الهواء الطلق، قبالة هدير البحر، وبعيداً عن تنصتات لا تكتم السر. هناك شمس قوية؛ والصباح المشرق يعج بأصوات محركات وأبواق سيارات تأتي من الكورنيش مختلطة بأصوات الباعة الجوالين.

تلعثم كابرال:

- أي لعنة تجري يا مونو؟

كينتانا الذي يواصل إمساكه من ذراعه يبدو الآن أكثر جدية. ويلمح في نظرته إحساساً مشوشاً هو خليط من التضامن والشفقة.

- أنت تعرف جيداً ما يجري يا مخيخ، فلا تكن بليداً. ألم تلاحظ بأنهم منذ ثلاثة أو أربعة أيام لم يعدوا يسمونك بـ «السيد المبجل» في الصحف، وأنهم أنزلوا مقامك إلى «السيد»؟ - يهمس المونو كينتانا في أذنه - ألم تقرأ **الكاريبي** هذا الصباح؟ هذا هو ما يحدث.

ولأول مرة منذ قرأ الرسالة في «**المحكمة العامة**»، أحس أغوسطين كابرال

بالخوف. أجل: فأمس أو أول أمس قال أحدهم مازحاً في الكنتري كلوب، بأنهم قد حرموه في صفحة المجتمع في جريدة **لاناسيون** من تسمية «السيد المبجل» وهو أمر ينذر بالشؤم: فالجنراليسمو يستمتع جداً بهذه التحذيرات. الأمر جدي إذن. إنها عاصفة. عليه أن يستفيد من كل خبرته ودهائه حتى لا تبتلعه.

- هل جاء أمر إلغاء اجتماع المكتب الإداري من **القصر**؟ - قال ذلك هامساً، وانحنى نائب الرئيس ليلصق أذنه بفم كابرال.

- ومن أين سيأتي إذن؟ وهناك المزيد. لقد تم وقف جميع اللجان التي لك مشاركة فيها. وتقول التعليمات: «إلى أن يستقر وضع رئاسة مجلس الشيوخ».

أصابه البكم. لقد تحقق الأمر. ها هو يتحقق ذلك الكابوس الذي يأتيه بين حين وآخر ليثقل على انتصاراته، على صعوده، على منجزاته السياسية: لقد أفسدوا علاقته مع **الزعيم**.

- من الذي أرسل التعليمات إليك يا مونو؟

انقبض وجه كينتانا ممتلئ الخدين وبدا عليه القلق، وفهم كابرال أخيراً من أين جاءت معلومات المونو. هل سيقول له نائب رئيس المجلس إنه لا يرتكب مثل هذا الجحود؟ وقرر أن يقول فجأة:

- إنه هنري تشيرينوس - وعاد إلى الإمساك بذراعه - آسف يا مخيخ. لا أظن أنني أستطيع عمل الكثير، ولكن إذا كان بإمكاني عمل شيء، فاعتمد عليّ.

- هل أخبرك تشيرينوس بِمَ يتهمونني؟

- اكتفى بإخباري بالأوامر وبالتململ مطولاً: «لا أعرف شيئاً. لستُ سوى رسول متواضع لنقل قرارات عليا».

وتقول العمة آديلينا متذكرة:

- لقد كان أبوك مرتاباً على الدوام بأن من دبر له المكيدة هو تشيرينوس، **الدستوري سكران**.

- هذا الخلاسي القذر هو أحد أكثر المستفيدين - تقاطعها لوثيندا - فقد انتقل من سريرِ ومائدة تروخييو ليتحول إلى وزير وسفير لدى بلاغير. أترين كيف هي هذه البلاد يا أورانيا؟

- إنني أتذكره جيداً، وقد رأيته في واشنطن منذ سنوات، كسفير.- تقول أورانيا - كان يأتي كثيراً إلى بيتنا عندما كنتُ صغيرة. كان يبدو صديقاً حميماً لأبي.

- وكان يبدو صديقاً لآنيبال ولي - تضيف العمة آديلينا - كان يأتي هنا بممالقاته، ويلقي لنا أشعاره. وكان دائم الاستشهاد بالكتب، متباهياً بأنه متقف. لقد دعانا إلى الكنتري كلوب في أحد الأيام. لم أستطع أن أصدق أنه خان رفيق عمره. حسن. هكذا هي السياسة، إنها شق الطريق بين الجثث.

- لقد كان الخال أغوسطين شديد الاستقامة، وبالغ الطيبة، ولهذا السبب تكالبوا عليه.

وتنتظر لوثينديتا أن تؤيدها، وأن تحتج أيضاً على ذلك السلوك المشين. ولكن أورانيا لم تكن لديها القوة للتكلف والمجاملة. فاكتفت بالاستماع إليها بمظهر آسف.

- أما زوجي، لتنعم روحه بالسلام، فقد تصرف بشهامة، وقدم كل دعمه لأبيك.- وتطلق العمة آديلينا ضحكة ساخرة - يا له من دونكيخوتي! لقد أدى به ذلك إلى فقدان منصبه في شركة التبغ، ولم يجد بعدها عملاً قط.

ينفجر الببغاء شمشون مرة أخرى بسيل صراخ وصخب يبدو أنه شتائم. فتوبخه لوثيندا «اخرس أيها النؤوم».

- لحسن الحظ أننا لم نفقد طيب المزاج يا بنات.- تهتف مانوليتا.

- ابحثي لي عن السيناتور هنري تشيرينوس وأخبريه أنني اريد رؤيته فوراً يا إيسابيل.- يأمر السيناتور كابرال سكرتيرته وهو يدخل إلى مكتبه، ثم يتوجه إلى مساعده الدكتور غويكو:- يبدو أنه طباخ هذه المكيدة.

يجلس إلى مكتبه، ويتأهب لمراجعة برنامج عمل اليوم مرة أخرى، ولكنه يعي وضعه. هل هناك مغزى لتوقيعه الرسائل، والقرارات، والمذكرات، والملاحظات كرئيس لمجلس شيوخ الجمهورية؟ إن بقاءه في هذا المنصب موضع شك. والأسوأ من ذلك إظهار أعراض اليأس أمام مرؤوسيه. لا بد من وجه بشوش لمواجهة الطقس الرديء. يتناول ملفاً ويبدأ بقراءة الورقة الأولى عندما ينتبه إلى أن مساعده باريس ما يزال يقف أمامه. ترتجف يداه:

- سيدي الرئيس، أريد أن أقول لك - تلعثم، محطماً من الانفعال: - مهما حدث، سأكون إلى جانبك. في كل شيء. إنني أعرف كم أنا مدين لك ايها الدكتور كابرال.

- شكراً يا غويكو. أنت ما زلت جديداً على هذا العالم وسترى أشياء أسوأ. لا تقلق. سنجتاز هذه العاصفة. والآن، إلى العمل.

دخلت إيسابيل إلى المكتب وهي تقول:

- السيناتور تشيرينوس ينتظرك في مكتبه سيدي الرئيس لقد ردّ هو نفسه. أتعرف ماذا قال لي؟ «أبواب بيتي مفتوحة ليلاً ونهاراً لصديقي العظيم السيناتور كابرال.»

لدى خروجه من مبنى مجلس الشيوخ، قدم له الحرس التحية العسكرية المعهودة. ومازالت هناك سيارته السوداء الجنائزية. ولكن مرافقه الشخصي، الملازم هومبيرتو آرينال، كان قد تلاشى. فتح له السائق تيودوسيو الباب.

- إلى بيت السيناتور هنري تشيرينوس.

هز السائق رأسه دون أن يفتح فمه. وفي ما بعد، بينما السيارة تنطلق في جادة ميّا، بمحاذاة المدينة الاستعمارية القديمة، أعلمه السائق وهو ينظر إليه من خلال المرآة العاكسة:

- هناك سيارة «خنفسة» فيها مخبرون تلاحقنا منذ خروجنا من مجلس الشيوخ.

يلتفت كابرال لينظر، وعلى بعد خمسة عشر أو عشرين متراً يلمح واحدة من سيارات الفولكسفاغن السوداء المعروفة التي يستخدمها جهاز الاستخبارات. ولكنه لا يتمكن في ضوء الصباح المبهر من تمييز عدد المخبرين الذين بداخلها. «الآن يحرسني جماعة الاستخبارات العسكرية بدلاً من مرافقي.» وبينما السيارة تتوغل في الأزقة الضيقة والمزدحمة بالناس، وبين بيوت من طابق واحد أو طابقين، في المدينة القديمة، يقول لنفسه إن المسألة أخطر مما كان يفترضه. فإذا كان جوني أبيس قد أرسل من يلاحقه، فربما يكون قد اتُخذ قرار اعتقاله. إنها قصة انسيلمو باولينو تتكرر بحذافيرها. وهو ما كان يخشاه على الدوام. صار دماغه مثل كور حداد متأجج. ما الذي فعله؟ ما الذي قاله؟ بماذا أخطأ؟ من زار مؤخراً؟ إنهم يعاملونه كعدو للنظام. هو، هو عدو للنظام!

توقفت السيارة عند ناصية تقاطع شارع سالومي أورينيا مع شارع دوارتي، ونزل تيودوسيو ليفتح له الباب. وقفت «الخنفسة» على بعد أمتار قليلة، ولكن لم ينزل منها أي مخبر. راودته رغبة في الاقتراب منهم وسؤالهم عن سبب ملاحقتهم لرئيس مجلس الشيوخ، ولكنه كبح نفسه: ما فائدة هذه النزوة مع شياطين بائسين ينفذون الأوامر؟

البيت القديم المؤلف من طابقين، بشرفاته الاستعمارية ونوافذه ذات الشباك المعدنية، يشبه صاحبه السيناتور هنري تشيرينوس؛ فالزمن، والهرم، والإهمال،

قد أتلفته، وأفقدته تناظره؛ فهو يتسع بإفراط في منتصف ارتفاعه، كما لو أن كرشاً قد نما له وأوشك على الانفجار. لا بد أنه كان في الزمن الغابر بيتاً نبيلاً ومتيناً؛ ولكنه الآن قذر، مهجور، ويبدو موشكاً على الانهيار. هناك لطخات وبقع ضخمة تشوه الجدران، وتتدلى من السقوف شباك العنكبوت. ما كاد يطرق الباب حتى فُتح له. صعد سلّماً كئيباً يئن، له حاجز متسخ، وعند مستديرة السلّم الأولى. فتح له كبير الخدم باباً زجاجاً يئز: تعرف على المكتبة الغنية، والستائر المخملية السميكة، والرفوف العالية الممتلئة بالكتب، والسجادة الوثيرة باهتة الألوان، واللوحات البيضوية والخيوط الفضية لشباك العناكب التي تكشفها رماح ضوء الشمس وهي تنفذ من الفتحات الضيقة. الغرفة تعبق برائحة شيخوخة، بخلائط عتيقة، ويسودها حرّ جهنمي. بقي ينتظر تشيرينوس واقفاً. المرات التي حضر فيها إلى هنا، منذ سنوات، كانت من أجل اجتماعات، اتفاقيات، مفاوضات، مؤامرات في خدمة الزعيم.

– أهلاً وسهلاً بك في بيتك يا مخيخ. هل أقدم لك كأساً من نبيذ شيريش؟ أتريده حلواً أم مزاً؟ أنصحك بالخفيف المعتق في الجبال. إنه مثلج.

كان بالبيجاماً متلفعاً بروب حمام فاخر أخضر اللون، له حاشية من الحرير، يُبرز استدارة جسمه، وفي جيبه منديل مزهو، وينتعل بابوجاً من المخمل مشوهاً بنتوء عظام قدميه، ابتسم له السيناتور تشيرينوس. ومن خلال الشعر الخفيف المشعث وغمص وجهه المتورم، بشفتيه وجفونه المزرقة، مع أثر لعاب جاف عند طرف الفم، اكتشف السيناتور كابرال أنه لم يغتسل بعد. سمح له بالتربيت على ظهره واقتياده إلى المقاعد المعتقة التي تغطي مساندها براقع، دون أن يرد على حفاوة صاحب البيت.

– إننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل يا هنري. ولقد قمنا معاً بأعمال كثيرة. أعمال جيدة وبعضها سيئ. ليس هناك شخصان في النظام ارتبطا معاً مثلي ومثلك. ما الذي جرى؟ لماذا بدأت السماء تهوي على رأسي منذ هذا الصباح؟

اضطر إلى السكوت لأن كبير الخدم دخل في تلك اللحظة، وهو خلاسي عجوز وأعور، لا يقل قبحاً وإهمالاً لمظهره عن سيد البيت، وكان يحمل إبريقاً من الكريستال أُفرغ فيه نبيذ شيريش، وكأسين. ترك كل شيء على الطاولة الصغيرة وخرج يعرج.

– لستُ أدري – ضرب الدستوري سكران صدره – لن تصدقني. سوف تظن

أنني تآمرت، ودبرت، وأثرت ما جرى لك. أقسم لك بذكرى أمي، وهي أقدس ما في هذا البيت، بأنني لا أعرف. لقد ذهلتُ حين علمت بالأمر مساء أمس. انتظر، انتظر، فلنشرب نخباً. نخب حلّ هذه الورطة بأسرع ما يمكن يا مخيخ!

كان يتكلم بحيوية وانفعال، بقلبه في يده وبالحساسية المحلاة لأبطال الروايات الإذاعية التي كانت تستوردها شركة HIZ من شركة CMQ في هافانا قبل الثورة الكاستروية. ولكن أغوسطين كابرال كان يعرفه: إنه مهرج من المستوى العالي. يمكن أن يكون ما يقوله صحيحاً أو زائفاً، وليس لديه طريقة للتحري عن ذلك. شرب رشفة من النبيذ، بقرف، لأنه لا يشرب كحولاً في الصباح مطلقاً. وكان تشيرينوس يمسد شعيرات أنفه.

- أمس، وبينما كنتُ أصرّف الأمور مع **الزعيم**، أمرني فجأة بإعطاء تعليمات إلى المونو كينتانيّا، باعتباره نائب رئيس مجلس الشيوخ، ليلغي كل الاجتماعات إلى أن يتم شغل منصب رئاسة المجلس الشاغر. - واصل مرافعته - وفكرت بوقوع حادث لك، أو سكتة قلبية، لا أدري. «ماذا جرى لمخيخ أيها **الزعيم**؟» فرد عليّ: «هذا ما أريد معرفته»، وكان يتكلم بذلك الجفاء الذي يجمد العظام «لم يعد واحداً منا، لقد انتقل إلى صفوف العدو.» ولم أستطع أن أوجه المزيد من الأسئلة؟ كانت نبرة صوته حاسمة. وصرفني لأنفذ المهمة. وصباح اليوم قرأت كالجميع الرسالة في **المحكمة العامة**. وأقسم لك مرة أخرى بذكرى أمي الطاهرة: هذا هو كل ما أعرفه.

- هل كتبت أنت رسالة **المحكمة العامة**؟

- أنا أكتب بقشتالية سليمة. - غضب الدستوري سكران - فالجاهل الذي كتبها اقترف ثلاثة أخطاء نحوية. لقد وضعتُ خطاً تحتها.

- من كتبها إذن؟

وجه إليه السيناتور تشيرينوس نظرة مشفقة من خلال إطاري عينيه الشحميين:

- وما أهمية ذلك يا مخيخ؟ أنت أحد الرجال الأذكياء في هذه البلاد، لا تتظاهر بالحماقة معي، فأنا أعرفك منذ صباك. الشيء الوحيد المهم هو أنك أغضبت **الزعيم** لسبب ما. كلِّمه، اعتذر، قدم له تفسيرات، اسعَ للاصلاح. استعد ثقته بك.

تناول إبريق الكريستال وأعاد ملء كأسه وشربه. كان صخب الشارع أخف

مما هو عليه في مجلس الشيوخ. إما بسبب سماكة جدران البناء الكولونيالي أو لأن شوارع المركز الضيقة تجعل السيارات تتجنبها.

- عمَ أعتذر يا هنري؟ ما الذي فعلته؟ ألا أكرس نهاري وليلي للزعيم؟

- لا تقل هذا لي. أقنعه هو. أنا أعرف ذلك جيداً. لا تيأس. فأنت تعرفه. إنه رجل شهم في أعماقه، ومنصف. ولو لم يكن شكاكاً لما استمر في الحكم واحدة وثلاثين سنة. لا بد أن هناك خطأ، سوء تفاهم. ويجب توضيح الأمر. اطلب مقابلته. إنه يحسن الاستماع.

كان يتكلم وهو يهز يده، مبتهجاً بكل كلمة تقذفها شفتاه الرماديتان. وبدا وهو جالس أكثر بدانة مما يبدو عليه حين يكون واقفاً: كان كرشه الضخم قد فتح الروب وهو ينبض بانبساط وانقباض إيقاعي. وتخيل كابرال تلك الأمعاء المنهمكة طوال عدة ساعات من اليوم في المهمة الشاقة لازدراد وإذابة لقم الطعام التي يبتلعها ذلك الفم النهم. ندم لوجوده هناك. وهل يمكن للدستوري سكران أن يساعده؟ فإذا لم يكن هو من دبر الأمر، فإنه يحتفل به في دخيلته على أنه انتصار عظيم على من كان على الدوام خصمة، بالرغم من كل المظاهر.

- بينما أنا اقلب الأمر، وأقدح زناد الفكر - أضاف تشيرينوس بنبرة تآمرية - توصلت إلى التفكير بأنه ربما يكون السبب هو خيبة الأمل التي أحدثها لدى الزعيم رفض المطارنة إعلانه منعماً على الكنيسة الكاثوليكية. وقد كنتَ أنت ضمن لجنة التفاوض التي أخفقت في ذلك.

- لقد كنا ثلاثة يا هنري! فقد كان معي في اللجنة بالاغير، وباينو بيتشاردو باعتباره وزيراً للداخلية والأديان. وتلك الاتصالات جرت قبل عدة شهور، بعد وقت قصير من الرسالة الأسقفية. فلماذا أتحمل وحدي مسؤولية كل ذلك؟

- لا أعرف يا مخيخ. فالأمر يبدو أشبه بسحب شعرة من وسط الشعر بالفعل. أنا أيضاً لا أجد مبرراً لوقوعك في المحنة. وذلك بصراحة، لصداقتنا المتواصلة منذ سنوات طويلة.

- لقد كنا أكثر من صديقين. فقد كنا معاً وراء الزعيم في كل القرارات التي حوّلت هذه البلاد. إننا تاريخ حي. لقد تبادلنا الحركات المحرمة، والضرب تحت الحزام، وحاك كل منا بالمكائد ليحصل على مزايا أكثر من الآخر. ولكن التصفية التامة كانت تبدو مستبعدة. فهذا أمر آخر. يمكن لي أن أنتهي إلى الدمار، إلى فقدان الهيبة، إلى السجن. وكل ذلك دون أن أعرف السبب! إذا كنت أنت من

رتب كل ذلك فإنني أهنئك. إنها ضربة بارعة يا هنري!

كان قد نهض واقفاً. وكان يتكلم بهدوء، بطريقة موضوعية، وتعليمية تقريباً. ونهض تشيرنيوس أيضاً، مستنداً إلى أحد ذراعي المقعد لرفع جسده الضخم. كانا قريبين جداً، يكاد أحدهما أن يلمس الآخر. رأى كابرال لوحة على الجدار، ما بين خزائن الكتب، تضم عبارة لطاغور: «الكتاب المفتوح هو عقل يتكلم؛ والمغلق هو صديق ينتظر؛ والمنسي، هو روح تسامح؛ والممزق، قلب يبكي». وفكر:«هناك تكلّف في كل ما يفعله، ويلمسه، ويقوله، ويشعر به»».

- الصراحة تقابل بصراحة - قرّب تشيرنيوس وجهه وأحس أغوسطين كابرال بالبلبلة من النَفَس الذي يرافق كلماته. - قبل عشر سنوات، أو خمس سنوات، ما كنتُ لأتردد في حبك أي دسيسة لأزيحك من الطريق يا أغوسطين. مثلما كنتَ أنت مستعداً لتفعل ضدي. أما الآن؟ لماذا؟ هل هناك تصفية حساب بيننا؟ لا. لم نعد في حالة منافسة يا مخيخ، وأنت تعرف ذلك جيداً مثلي. كم بقي من الأوكسجين لهذا المحتضر؟ وللمرة الأخيرة أقول لك إنه لا علاقة لي بما جرى لك. وأنا أنتظر وآمل أن تتمكن من حلّ المسألة. هناك أزمنة صعبة آتية ومن المناسب للنظام أن يحتضنك في صفوفه، للصمود في مواجهة الهجمات.

هز السيناتور كابرال رأسه موافقاً. وربت تشيرنيوس على ظهره.

- إذا ما ذهبتُ إلى المخبرين الذين ينتظرونني خارجاً، وأخبرتهم بما قلته عن أن النظام يختنق، وأنه محتضر، فإنك ستتحول إلى رفيق لي في المحنة - تمتم على سبيل الوداع.

ضحك فم صاحب البيت القاتم:

- لن تفعل ذلك. فأنت لست مثلي. إنك رجل شهم.

- ماذا جرى له؟ - تسأل أورانيا - أما يزال حياً؟

تطلق العمة آديلينا ضحكة، ويرد الببغاء شمشون الذي كان يبدو نائماً، بسلسلة أخرى من الصرخات. وعندما يصمت، تلتقط أورانيا صرير الكرسي الهزاز الذي تشغله مانوليتا.

- العشبة الضارة لا تموت - توضح العمة - إنه لا يزال في جحره في المدينة الاستعمارية، عند تقاطع سالومي أورينا مع دوارتي. لقد رأته لوثينديتا قبل وقت قصير، بعكاز وخف بيتي، يتمشى في حديقة اندبندنثيا.

- وكان بعض الصبية يركضون وراءه ويصرخون: «البعبع، البعبع!» - وتضحك

لوثيندا - إنه أقبح وأقرف مما كان عليه من قبل. يجب أن يكون قد تجاوز التسعين، أليس كذلك؟

هل انقضى الوقت المناسب لما بعد الأكل وصار بإمكانها أن تودعهن وتنصرف؟ فأورانيا لم تشعر بالراحة طوال الليل. بل كانت أقرب إلى التوتر، منتظرة تهجماً عليها. هؤلاء هن قريباتها الوحيدات اللواتي تبقين لها، وهي تشعر بأنها بعيدة عنهن بعد النجوم. لقد بدأت تثير حفيظتها عينا ماريانيتا الصغيرة المسمرتين عليها.

- لقد كانت تلك الأيام رهيبة على الأسرة - تعود العمة آديلينا إلى الهجوم.

وتقول لوثينديتا:

- أنا ما زلت أتذكر أبي والخال أغوسطين وهما يتبادلان الوشوشات في الصالة. وكان أبوكِ يقول: «ولكن، رباه! ما الذي يمكن أن أكون قد فعلته وجعلت الزعيم يسيء معاملتي بهذه الطريقة؟».

يُسكتها كلب ينبح بنزق صاخب في مكان قريب؛ ويرد عليه كلبان، ثم خمسة كلاب آخرى. ومن كوة إضاءة في أعلى الغرفة، تلمح أورانيا القمر: إنه مستدير وأصفر، بديع. لا وجود في نيويورك لأقمار مثل هذا.

- وكان أكثر ما يبعث فيه المرارة هو مستقبلكِ أنتِ إذا ما حدث له شيء - نظرةُ العمة آديلينا مشحونة بالتأنيب - وعندما حجزوا على حساباته المصرفية أدرك أنه ليس ثمة مخرج.

- الحسابات المصرفية! - تؤكد أورانيا - كانت تلك هي المرة الأولى التي كلمني فيها أبي عن مشاكله.

كانت قد نامت ودخل أبوها إلى الغرفة دون أن يطرق الباب. جلس على طرف السرير. وكان بالقميص، ووجهه شاحب جداً، وبدا لها شديد النحول، وأكثر هشاشة وهرماً. وكان يتلعثم مع كل كلمة يقولها.

- الأمور تسوء يا بنيتي. يجب أن تكوني مستعدة لأي شيء. لقد أخفيت عنك حتى الآن خطورة الوضع. ولكن، اليوم بالذات.. حسن، لا بد أن تكوني قد سمعتِ شيئاً في المدرسة.

هزت الطفلة رأسها مؤكدة برصانه. لم تكن تشعر بالقلق، فثقتها به كانت بلا حدود. كيف يمكن أن يقع شيء سيئ لرجل مهم؟

- أجل يا بابا، لقد خرجت رسائل ضدك في «**المحكمة العامة**»، تتهمك

بجنايات. لن يصدق أحد ذلك، يا لها من حماقات. فالجميع يعرفون أنك غير قادر على اقتراف مثل تلك الشرور.

احتضنها أبوها من فوق الدثار.

لقد كانت المسألة أكثر جدية من افتراءات الصحيفة أيتها البنية الصغيرة. فقد عزلوه من رئاسة مجلس الشيوخ. وهناك لجنة من الكونغرس تتحقق مما إذا كان ثمة إساءة تصرف أو تلاعب في الأموال العامة خلال إدارته الوزارية. ومنذ أيام تتعقبه «خنفسات» الاستخبارات العسكرية؛ والآن بالذات هناك واحدة منها عند باب البيت، وفيها ثلاثة مخبرين. وفي الأسبوع الماضي تلقى تبليغات بطرده من معهد الدراسات التوخييوية، ومن الكنتري كلوب، ومن الحزب الدومينيكاني، ومساء هذا اليوم، حين ذهب لسحب نقود من المصرف، جاءت الضربة القاصمة. فقد أخبره المدير، وهو صديقه خوسيفو هيريديا، بأن قد تم تجميد حسابيه المصرفيين مادام تحقيق لجنة الكونغرس مستمراً.

– يمكن لأي شيء أن يحدث يا بنيتي. مصادرة البيت، وطردنا إلى الشارع. وحتى السجن. لا أريد إخافتك. قد لا يحدث أي شيء. ولكن، يجب أن تكوني مستعدة. وأن تمتلكي الشجاعة.

كانت تستمع إليه مذهولة؛ ليس بسبب ما يقوله، وإنما بسبب خمود صوته، والخذلان الذي في ملامحه، والرعب الذي في عينيه.

– سأصلي للسيدة العذراء – خطر لها أن تقول – وشفيعتنا عذراء آلتاغراثيا ستساعدنا. لماذا لا تكلم الزعيم؟ لقد أحبك على الدوام. فليصدر أمراً، ويتم إصلاح كل شيء.

– طلبت مقابلته فلم يرد علي يا أورانيا. أذهب إلى القصر الوطني فلا يكاد الموظفون والمساعدون يحيونني. ولم يوافق الرئيس بالاغير على مقابلتي كذلك، ولا وزير الداخلية؛ أجل، باينو بيتشاردو رفض مقابلتي. إنني ميت في الحياة يا بنيتي. ربما كنتِ على صواب ولم يبق لنا سوى تسليم أمرنا إلى العذراء.

انكسر صُوته. ولكن عندما نهضت الطفلة لتعانقه، استعاد سيطرته على نفسه وابتسم لها:

– لا بد لكِ من أن تعرفي كل هذا يا أورانيا. إذا ما حدث لي شيء، اذهبي إلى بيت عمتك. فالعمان آنيبال وآديلينا سيرعيانك. ربما يكون الأمر مجرد اختبار. لقد فعل الزعيم في بعض الأحيان مثل هذه الأمور، لكي يختبر معاونيه.

- اتهموه بإساءة التصرف بالموارد. - تنهدت العمة آديلينا - وهو الذي لم يكن يملك شيئاً سوى ذلك البيت في غاثكو. لم تكن لديه مزارع، ولا شركات، ولا استثمارات. اللهم إلا تلك المدخرات الصغيرة، الخمسة والعشرون ألف دولار التي راح يرسلها إليكِ شيئاً فشيئاً، أثناء دراستكِ هناك. إنه أشد السياسيين نزاهة وأكثر الآباء طيبة في العالم يا أورانيا. وإذا كنتِ تسمحين لهذه العمة العجوز والبلهاء بأن تتدخل في حياتك، فإنني أقول لك إنك لم تتصرفي معه كما يجب. أعرف أنك تعيلينه وتدفعين أجور الممرضة. ولكن، هل تعرفين كم جعلتِه يتألم بعدم ردكِ على رسائله، وعدم اقترابك من الهاتف كلما اتصل بك؟ مرات ومرات رأيته أنا وآنيبال يبكي من أجلك، هنا بالذات. والآن، وبعد أن مر زمن طويل، هل يمكنني أن أعرف لماذا فعلتِ ذلك أيتها الفتاة؟

تفكر أورانيا وهي تقاوم النظرة الموبخة التي توجهها إليها العجوز المنكمشة مثل خطاف على كرسيّها. وتقول أخيراً

- لأنه لم يكن أباً طيباً مثلما تظنين أيتها العمة آديلينا.

طلب السيناتور كابرال النزول من سيارة التاكسي عند المستشفى الدولي، على بعد أربع كوادرات من مقر جهاز الاستخبارات الواقع أيضاً في جادة المكسيك. عندما أراد أن يعطي العنوان للسائق أحس بحكة غريبة، إحساس من الخجل والحياء، وبدلاً من أن يقول له إنه ذاهب إلى مقر الاستخبارات العسكرية، ذكر اسم المستشفى. مشى الكوادرات الأربع دون إسراع؛ ربما كانت اقطاعيات جوني أبيس هي المكان الوحيد الذي لم تطأه قدماه حتى الآن من مؤسسات النظام المهمة. كانت «الخنفسة» وفيها المخبرون تلاحقه دون مداراة، بحركة كاميرا بطيئة، ملتصقة بالرصيف، وكان بإمكانه أن يلمح حركات رؤوس المارة وإيماءاتهم المذعورة وهم يرون تلك الفولكسفاغن المعروفة. تذكر أنه دافع في لجنة الميزانية في مجلس الشيوخ عن البند المخصص لشراء المئة «خنفساء» التي يجوب بها الآن مخبرو جوني أبيس أرجاء البلاد بحثاً عن أعداء النظام.

في البناء الباهت والضئيل، سمح له الحراس الذين يرتدون الملابس العسكرية والمدنية والمسلحون برشاشات، ويحرسون المدخل من وراء أسلاك وأكياس رمل، بالدخول دون أن يفتشوه ودون أن يطلبوا منه وثائقه. وفي الداخل كان ينتظره أحد معاوني الكولونيل أبيس: المدعو ثيسر بايث. وهو شخص قوي، أكل الجدري وجهه، له شعر طويل أشقر مائل إلى الحمرة، مدّ له يداً متعرقة

وقاده عبر ممرات ضيقة فيها رجال يحملون مسدسات في أغمدتها المعلقة بالكتف أو تتراقص تحت الإبط، وهم يدخنون، أو يتناقشون، أو يضحكون في حجرات ضيقة يملؤها الدخان، وحيث توجد لوحات تعلق عليها مذكرات وتعليمات. المكان يعبق برائحة العرق، والبول، والأقدام. فُتح أحد الأبواب. وهناك كان رئيس الاستخبارات العسكرية. أذهله العري المتقشف للمكتب، فالجدران بلا لوحات أو ملصقات، باستثناء تلك الصورة التي يوليها الكولونيل ظهره، صورة للمنعم بالزي الرسمي: قبعة ثلاثية الرؤوس، وصدر مترع بالميداليات. كان أبيس غارسيا بالملابس المدنية، بقميص صيفي ذي أكمام قصيرة وسيجارة تطلق الدخان في فمه. وكان يحمل في يده المنديل الأحمر الذي رآه كابرال مرات كثيرة.

- صباح الخير أيها السيناتور - ومدّ له يداً طرية، شبه أنثوية - اجلس. ليس لدينا وسائل راحة هنا، اعذرنا.

- أشكر موافقتك على مقابلتي أيها الكولونيل. أنت أول شخص يوافق على ذلك. لم يردّ **الزعيم**، ولا الرئيس بالاغير، ولا أي واحد من الوزراء على طلباتي للقاء بهم.

الهيئة الضئيلة، ذات الكرش، المشوهة بعض الشيء، أومأت برأسها موافقة. وكان كابرال يرى فوق الغبغب المزدوج، فم الكولونيل الدقيق وخديه الممتلئين، وعينيه العميقتين والمائيتين تتحركان باضطراب. أيكون قاسياً مثلما يشاع عنه؟

- لا أحد يرغب في انتقال العدوى إليه يا سيد كابرال. - قال جوني أبيس ببرود، وخطر للسيناتور بأنه إذا ما تمكنت الأفاعي من التكلم فسيكون لها مثل هذا الصوت الصافر- فالوقوع في المحنة مرضٌ معدٍ. بماذا يمكنني أن أخدمك.

- أن تخبرني بالتهمة التي توجهها إلي أيها الكولونيل. - توقف لحظة ليلتقط أنفاسه ويبدو أكثر وقاراً قبل أن يضيف:- ضميري مرتاح. فمنذ العشرين من عمري وأنا أكرس حياتي لتروخييو والبلاد. هناك خطأ ما، أقسم لك.

أسكته الكولونيل بحركة متثاقلة من يده التي تحمل المنديل الأحمر. أطفأ السيجارة في منفضة من الصفيح:

- لا تضيع وقتك في تقديم تفسيرات لي يا دكتور كابرال. فالسياسة ليست ميدان عملي، أنا أهتم بالأمن. وإذا كان **الزعيم** يرفض مقابلتك فلأنه منزعج منك، أكتب إليه.

- لقد فعلت ذلك أيها الكولونيل. ولست أعرف إذا ما كانت رسائلي قد

سُلمت إليه. لقد حملتها بنفسي إلى القصر.

توتر وجه جوني أبيس المنتفخ:

– لا يمكن لأحد أن يحجب رسالة موجهة إلى **الزعيم** أيها السيناتور. لا بد أنه قرأها، وإذا كنتَ مخلصاً فإنه سيردُ عليها – توقف وقفة طويلة، وهو ينظر إليه طوال الوقت بعينيه غير المستقرتين، ثم أضاف بشيء من التحدي:– أرى أن استخدامي مناديل من هذا اللون يلفت انتباهك. أتدري لماذا أفعل ذلك؟ إنها إحدى تعاليم طائفة «الروزكروز». الأحمر هو اللون الذي يناسبني. أنتَ لا تؤمن بمعتقدات جماعة «الروزكروز»، وهي تبدو لك شعوذات، وشيئاً بدائياً.

– لا أعرف شيئاً عن ديانة «الروزكروز» أيها الكولونيل. وليست لدي آراء في هذا الصدد.

– لم يعد لدي الآن وقت، ولكنني في شبابي قرأتُ الكثير عن «الروزكروزية». وتعلمتُ أشياء كثيرة. لقد تعلمت على سبيل المثال قراءة مشاعر الناس. ومشاعرُكَ في هذه اللحظة هي مشاعر شخص يكاد يموت خوفاً.

– إنني أموت خوفاً – ردّ كابرال على الفور – فمنذ عدة أيام ورجالك يلاحقونني دون هوادة. أخبرني على الأقل إذا ما كنتم ستعتقلونني.

فقال جوني أبيس بخفة، وكأنه ليس للأمر أية أهمية:

– هذا لا يتعلق بي. إذا ما أمروني، فسوف أفعل ذلك. الحراسة هي لمنعك من طلب اللجوء. إذا ما حاولت ذلك سيعتقلك رجالي.

– أنا أطلب اللجوء؟ ولكن، أيها الكولونيل. أطلب اللجوء كعدو للنظام؟ ولكنني أنا النظام منذ حوالي ثلاثين سنة.

– تطلب اللجوء حيث يقبع صديقك هنري دياربورن، رئيس البعثة الدبلوماسية الأمريكية الذي تركه لنا اليانكيون هنا. – واصل الكولونيل أبيس كلامه ساخراً.

أخرست المفاجأة أغوسطين كابرال. ما الذي يعنيه؟

– أتقول إن قنصل الولايات المتحدة هو صديقي؟– قال متلعثماً– أنا لم أرَ السيد دياربورن سوى مرتين أو ثلاث مرات في حياتي.

– إنه عدونا مثلما تعرف. – واصل أبيس غارسيا – لقد تركه اليانكيون هنا، عندما وافقت منظمة البلدان الأمريكية على فرض العقوبات علينا، لكي يواصل التآمر ضد **الزعيم**. فكل المؤامرات منذ سنة تمر من مكتب دياربورن. ومع ذلك،

فقد ذهبت وأنت رئيس لمجلس الشيوخ إلى حفل كوكتيل في بيته قبل وقت قريب. ألا تتذكر؟

راح ذهول أغوسطين كابرال يزداد. أهذا هو السبب؟ ألأنه حضر حفل الكوكتيل ذاك في منزل القائم بالأعمال الذي تركته الولايات المتحدة عندما أغلقت سفارتها؟

- **الزعيم** هو الذي أصدر لنا الأمر بحضور ذلك الكوكتيل، لي وللوزير باينو بيتشاردو - قال موضحاً- لكي نسبر مخططات حكومته. هل تنفيذي ذلك الأمر هو السبب في وقوعي في المحنة؟ لقد قدمتُ تقريراً خطياً عن ذلك اللقاء.

هز الكولونيل أبيس غارسيا كتفيه المتهدلين بحركة دمية في مسرح للعرائس. وقال بنبرة ساخرة:

- انسَ تعليقي إذن، ما دام ذلك تنفيذاً لأوامر **الزعيم**.

كان سلوكه يشي بنفاد صبر، ولكن كابرال لم يودعه. فالوهم الأرعن يوحي له بأن هذه المحادثة قد تعطي ثمرة ما.

- أنتَ وأنا لم نكن أصدقاء في يوم من الأيام أيها الكولونيل. - قال ذلك وهو يبذل جهده ليتكلم بنبرة طبيعية.

- أنا لا أستطيع إقامة صداقات. - ردّ عليه أبيس غارسيا - لأن ذلك يضر بعملي. فأصدقائي وأعدائي هم أصدقاء وأعداء النظام.

- دعني أكمل من فضلك. - واصل أغوسطين كابرال - ولكنني كنت أحترم على الدوام وأعترف بالخدمات الاستثنائية التي تقدمها للبلاد. وإذا ما وقعت بيننا بعض الخلافات...

بدا أن الكولونيل قد رفع إحدى يديه ليجعله يصمت، ولكنه فعل ذلك ليشعل سيجارة أخرى. مج السيجارة بشراهة وأطلق الدخان بتمهل من فمه وأنفه. واعترف قائلاً:

- لقد وقعت بيننا بعض الخلافات بالطبع. فقد كنتَ أحد أكثر المعارضين لأطروحتي بأنه نظراً لخيانة الأمريكيين لنا، يتوجب علينا التقارب مع الروس والبلدان الشرقية. وكنتَ أنت، مع بالاغير ومانويل ألفونسو، تحاولون إقناع **الزعيم** بأن المصالحة مع اليانكيين ممكنة. أما زلت مؤمناً بتلك البلاهة؟

أهذا هو السبب؟ أيكون أبيس غارسيا هو من طعنه من الخلف؟ هل وافق **الزعيم** على هذه الحماقة؟ أتراه أبعده لكي يقرّب النظام من الشيوعية؟ لا جدوى

من مواصلة التذلل أمام متخصص في التعذيب والاغتيالات يتجرأ الآن، بسبب الأزمة، على الاعتقاد بأنه استراتيجي سياسي.

- ما زلت أعتقد بأنه ليس أمامنا خيار آخر أيها الكولونيل - أكد بحزم - فما تقترحه أنت، واعذرني لصراحتي، ليس سوى وهم. فلن يقبل الاتحاد السوفييتي ولا الدول الدائرة في فلكه التقارب مطلقاً مع جمهورية الدومينيكان التي تُعتبر معقل مناهضة للشيوعية في القارة. ولن تقبل الولايات المتحدة بذلك أيضاً. أتريد ثماني سنوات أخرى من الاحتلال الأمريكي؟ يجب علينا أن نتوصل إلى تفاهم ما مع واشنطن وإلا ستكون نهاية النظام.

ترك الكولونيل رماد سيجارته يسقط على الأرض. كان يأخذ أنفاساً متلاحقة، كما لو أنه يخشى أن ينتزعوا منه السيجارة، ويمسح جبهته بين حين وآخر بمنديله الذي يبدو مثل شعلة لهب.

- المؤسف أن صديقك هنري دياربورن لا يفكر هكذا - هز كتفيه من جديد مثل مهرج رخيص - مازال يحاول تمويل انقلاب ضد **الزعيم**. ولكن هذه المناقشة غير مجدية. آمل أن يتوضح وضعك لكي نرفع المراقبة عنك. وشكراً لزيارتك أيها السيناتور.

لم يمد له يده. اكتفى بانحناءة خفيفة بوجهه ذي الخدين المنتفخين وشبه الذائب في هالة من الدخان مع خلفية تتمثل بتلك الصورة الفوتوغرافية للزعيم ببدلة المراسم الكبرى. وعندئذ تذكر السيناتور عبارة أورتيغا آي غاسيت المدونة في مفكرته التي يحملها دوماً في جيبه.

بدا على الببغاء شمشون أنه قد تجمد من الكلمات التي نطقت بها أورانيا؛ فقد توقف صامتاً وساكناً مثل العمة آديلينا التي توقفت عن التهوية وفتحت فمها. وكانت لوثيندا ومانوليتا تنظران إليها مذهولتين. بينما كانت الصغيرة ماريانيتا ترمش دون توقف. أما أورانيا فقد خطرت لها الفكرة السخيفة بأن ذلك القمر البديع الذي يطل من النافذة يصادق على ما قالته.

- لست أدري كيف تقولين مثل هذا الكلام عن أبيك - جاء رد فعل عمتها آديلينا - لم أعرف خلال حياتي الطويلة من ضحى من أجل ابنته أكثر من أخي المسكين. هل كنتِ تتكلمين بجد حين قلتِ إنه «أب سيئ»؟ لقد كنتِ معبودته. وكنتِ عذابه. فهو لم يشأ أن يسبب لك الألم، ولهذا لم يتزوج ثانية بعد وفاة أمك، بالرغم من ترمله وهو شاب. وبفضلِ مَنْ حالفك الحظ بالدراسة في

الولايات المتحدة؟ ألم ينفق كل ما كان يملكه؟ هل يمكن القول عن هذا الرجل إنه أب سيئ؟

يجب ألا تردي يا أورانيا. فما ذنب هذه العجوز التي تقضي سنواتها، أو شهورها، أو أسابيعها الأخيرة عاجزة عن الحركة ومغمومة على شيء مضى عليه زمن طويل؟ لا تردي عليها. وافقي على ما تشاء، تظاهري بالرضا. قدمي اعتذاراً، ثم ودعيها وانسيها إلى الأبد. ولكنها قالت بهدوء، ودون أي ميل إلى الخصام:

– لم يقدم تلك التضحيات من أجلي يا عمتي. لقد أراد أن يشتريني. أراد أن ينظف ضميره الخبيث. وكان يعرف أن كل ذلك بلا جدوى، وأنه مهما فعل سيبقى يشعر طوال حياته بأنه الرجل المنحط والدنيء الذي كانه.

عند خروجه من مكاتب جهاز الاستخبارات عند تقاطع جادتي المكسيك والثلاثين من آذار، بدا له أن شرطيي الحراسة وجهوا إليه نظرة مشفقة، بل إن واحداً منهم، وبينما هو يصوب عينيه نحوه، داعب متعمداً بندقيته الرشاشة التي يحملها مائلة على ظهره. أحس بالاختناق مع دوار خفيف. هل عبارة أورتيغا آي غاسيت في مفكرة جيبه؟ إنها مناسبة تماماً، ونبوئية. أرخى ربطة عنقه وخلع السترة. مرت عدة سيارات تكسي ولكنه لم يوقف أياً منها. أيذهب إلى بيته؟ أيذهب لكي يشعر بأنه محبوس في قفص، يشحذ ذهنه مفكراً بينما هو ينزل من غرفة النوم إلى المكتب أو يصعد من جديد إلى غرفة النوم ماراً بالصالة، متسائلاً ألف مرة عما جرى؟ لماذا صار هو هذا الأرنب الذي يطارده صيادون غير مرئيين؟ لقد انتزعوا منه مكتبه في مجلس الشيوخ والسيارة الرسمية، وبطاقة الكونتري كلوب الذي كان بإمكانه أن يلجأ إليه ليتناول مشروباً مرطباً وهو يرى، من البار، منظر تلك الحدائق المعتنى بها ولاعبي الغولف البعيدين. أو يذهب إلى أحد الأصدقاء، ولكن.. هل بقي له أحد منهم؟ فكل من اتصل بهم لاحظ في الهاتف أنهم مرعوبون، متحفظون، عدائيون: فرغبته في رؤيتهم تلحق بهم الأذى. سار دون وجهة وهو يحمل السترة مطوية تحت ذراعه. أيمكن أن يكون السبب هو حفل الكوكتيل ذاك في بيت القنصل هنري دياربورن؟ مستحيل. ففي اجتماع لمجلس الوزراء قرر **الزعيم** أن يحضر الكوكتيل هو وباينو بيتشاردو «من أجل استطلاع الوضع». كيف يمكن له أن يعاقبه بسبب الطاعة؟ ألا يكون باينو بيتشاردو قد أوعز لتروخييو بأنه أبدى في ذلك الكوكتيل كثيراً من المودة تجاه الغرينغو؟ لا، لا، لا. لا يمكن لمثل هذا الأمر التافه أن يجعل **الزعيم** يدوس شخصاً خدمه بولاء، وبنزاهة أكثر من الجميع.

كان يمضي تائهاً، يبدل الاتجاه كلما اجتاز عدة كتل من الأبنية. وكان يتعرق من الحر. إنها المرة الأولى التي يتسكع فيها منذ سنوات طويلة في شوارع مدينة تروخييو. المدينة التي رآها تكبر وتتحول من القرية الصغيرة المخربة والمدمرة التي خلّفها إعصار سان ثينون عام 1930 إلى الحاضرة الحديثة والجميلة والمزدهرة التي صارت إليها الآن، بشوارع مرصوفة، ونور كهربائي، وجادات عريضة تمخرها سيارات من آخر طراز.

عندما نظر إلى ساعته كانت الخامسة والربع مساء. إنه يمشي منذ ساعتين وأحس بأنه يموت من العطش. كان في شارع كاسيميرو دي مايو، مابين شارعي باستور وثيرفانتس، على بعد أمتار قليلة من بار التوريّ. دخل، وجلس إلى أول طاولة. طلب بيرة الرئيس باردة جداً. لم يكن هناك تكييف هواء وإنما مراوح، وقد كانت جيدة مع الظل. كانت المسيرة الطويلة قد هدأته. ماذا سيحل به؟ وبأورانيا؟ ماذا سيحل بالطفلة إذا ما أدخلوه السجن، أو إذا ما أمر **الزعيم**، في نوبة نزق، بقتله؟ هل ستكون أخته آديلينا في ظروف تمكنها من تربيتها لتصبح أماً؟ أجل، فأخته امرأة طيبة وكريمة. وستكون أورانيا مثل ابنة أخرى لها، مع ابنتيها لوثينديتا ومانوليتا.

تذوق البيرة بمتعة بينما هو يراجع دفتر ملاحظاته بحثاً عن عبارة أورتيغا آي غاسيت. البرودة السائلة أشعرته بإحساس مريح وهي تنزلق في جوفه. يجب عدم فقدان الأمل. يمكن للكابوس أن ينقشع. ألم يحدث ذلك في بعض الأحيان؟ لقد أرسل ثلاث رسائل إلى **الزعيم**. رسائل صريحة، مؤثرة، مظهراً له فيها روحه. وطالباً منه الصفح عن الخطأ الذي يمكن له أن يكون قد ارتكبه، مقسماً أنه مستعد لعمل أي شيء من أجل إصلاح الخطأ والرجوع عنه، إذا ما كان قد أخطأ بحقه في لحظة سهو أو دون وعي. وذكّره بالسنوات الطويلة من الانكباب، وبنزاهته المطلقة، والدليل على ذلك هو أنه الآن، وبعد تجميد حسابيه في **مصرف الاحتياط** - حوالي مئتي ألف بيزو، هي مدخراته طوال الحياة - قد صار في الشارع، لا يكاد يملك سوى البيت الذي يسكنه في غايكوي. (لم يخف عنه سوى الخمسة والعشرين ألف دولار المودعة في كيميكال بنك في نيويورك والتي يحتفظ بها للطوارئ.) تروخييو رجل شهم، أجل. يمكن له أن يكون قاسياً عندما تتطلب البلاد ذلك. ولكنه كريم وعظيم أيضاً مثل بتيرونيو في رواية «**كوفاديس؟**» التي يستشهد بها على الدوام. لا بد أنه سيستدعيه في أي لحظة

إلى القصر الوطني أو إلى مقر إقامته في قصر راداميس. وسيكون ثمة تفسير مسرحي، من تلك التفسيرات التي تروق للزعيم. كل شيء سيتضح. سيقول له إن تروخييو بالنسبة إليه ليس **الزعيم**، ورجل الدولة، ومؤسس **الجمهورية فحسب**، وإنما هو النموذج البشري، والأب. ويكون الكابوس قد انتهى. ويدب النشاط من جديد في حياته السابقة، كما في فنون السحر. يجد الآن عبارة أورتيغا آي غاسيت، في زاوية إحدى الصفحات، مكتوبة بحروف دقيقة جداً: «لا شيء مما كانه الإنسان أو مما هو عليه أو سيكونه، قد كانه أو هو عليه أو سيكون عليه إلى الأبد، وإنما **توصل إليه** في يوم طيب، **ولن يعود ما كانه** في يوم طيب آخر». إنه، هو نفسه، مثال حي على عدم استقرار الوجود الذي تشير إليه هذه الفلسفة.

على أحد جدران بار التوريّ يوجد ملصق يعلن أنه ابتداء من السابعة ليلاً سيكون هناك عزف على البيانو يقدمه المايسترو إنريكيّو سانتشيث. كانت هناك طاولتان مشغولتان، على كل واحدة منهما عاشقان يتهامسان ويتبادلان نظرات رومنطيقية. «يتهمونني أنا بالخيانة» هو، من تخلى في سبيل تروخييو عن المتع، عن اللهو، عن المال، عن الحب، عن النساء. هناك من ترك على أحد الكراسي المجاورة نسخة من **لاناسيون**. تناول الجريدة وقلب صفحاتها ليشغل يديه بشيء ما. وفي الصفحة الثالثة، هناك مربع بارز يعلن أن السفير اللامع والمحترم دون مانويل ألفونسو قد رجع من الخارج، حيث سافر لأسباب صحية. مانويل ألفونسو! ليس هناك من هو قادر على الوصول مباشرة إلى **الزعيم** أكثر منه؛ وهذا الأخير يميزه ويعهد إليه بأكثر شؤونه حميمية، ابتداء من ملابسه وعطوره وحتى مغامراته الغرامية. ومانويل صديق له، وهو يدين له بخدمات. يمكن له أن يكون الشخص المطلوب.

دفع وخرج. لم تكن «الخنفساء» موجودة. هل أفلت من ملاحقتهم دون أن ينتبه، أم أنهم أوقفوا الملاحقة؟ ونما في صدره إحساس بالامتنان، وأملٌ مفرح.

الفصل الرابع عشر

دخل المنعم إلى مكتب الدكتور خواكين ببالاغير في الساعة الخامسة، مثلما يفعل كل يوم من الاثنين إلى الجمعة، منذ أن جعل أخاه هيكتور تروخييو (نيغرو) يستقيل، قبل تسعة أشهر، في الثالث من آب 1960، في مسعى لتفادي عقوبات منظمة الدول الأمريكية، وعين بدلاً منه في منصب رئاسة الجمهورية الشاعر والحقوقي الأنيس والمُجِدّ الذي نهض واقفاً وتقدم منه ليحييه:

- مساء الخير يا صاحب الفخامة.

بعد الغداء مع الزوجين جيتلمان، استراح الجنراليسمو نصف ساعة، واستبدل ملابسه - كان يرتدي بدلة فاخرة من الكتان الأبيض - وصرّف بعض الأعمال الروتينية مع سكرتيريه الأربعة إلى ما قبل حوالى خمس دقائق. لقد جاء بوجه محتقن ودخل في الموضوع مباشرة دون أن يواري غضبه:

- هل سمحتَ قبل نحو أسبوعين بخروج ابنة أغوسطين كابرال إلى خارج البلاد؟

عينا الدكتور بالاغير الضيئل حسيرتا البصر رمشتا وراء النظارة السميكة.

- بالفعل يا صاحب الفخامة. أورانيتا كابرال، أجل. الراهبات الدومينيكان قدمن لها منحة دراسية في جامعتهن في ميتشيغان. وكان لا بد للصغيرة من السفر بأسرع وقت، من أجل إجراء بعض الاختبارات. لقد شرحت لي ذلك مديرة المدرسة واهتم بالموضوع كبير الأساقفة ريكاردو بيتيني. وفكرت بأنه يمكن لهذه اللفتة الصغيرة أن تمد لنا جسوراً مع المراتب الكنسية. لقد شرحتُ لكم كل ذلك في مذكرة يا صاحب الفخامة.

كان الرجل الضئيل يتكلم بالعذوبة اللطيفة المعهودة مع ابتسامة يفتر عنها وجهه المدور، وينطق الكلمات بدقة ممثل في تمثيليات إذاعية أو برفسور في الصوتيات. تفحصه تروخييو محاولاً التوغل في تعبيره، في شكل فمه، في عينيه المتهربتين، في أدنى إشارة أو في إيحاء ما. وعلى الرغم من ارتيابه

الشديد، لم يلمح شيئاً. طبعاً، فالرئيس الدمية هو سياسي محنك لا يسمح لحركاته بأن تخونه.

- متى أرسلت لي المذكرة؟

- منذ حوالى أسبوعين يا صاحب الفخامة. بعد توسط الأسقف بيتيني. وأقول لك فيها، بما أن سفر الطفلة مستعجل، فإنني سأمنحها الإذن ما لم يكن لدى سيادتك أي اعتراض. وبما أنني لم أتلق رداً منك، فقد تصرفت. وكانت لديها تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة.

جلس **المنعم** قبالة منضدة بالاغير وأومأ إليه أن يجلس أيضاً. في هذا المكتب في الطابق الثاني من القصر الوطني يشعر بأنه على ما يرام؛ فهو مكتب فسيح، جيد التهوية، بسيط، فيه خزائن مترعة بالكتب، أرضه وجدرانه لامعة، ومنضدته مرتبة على الدوام. لا يمكن القول إن الرئيس الدمية هو رجل أنيق (كيف سيكون كذلك بهذه الهيئة المحفورة والمحشوة التي لم تجعل منه رجلاً قصيراً وحسب، وإنما قزماً تقريباً؟)، ولكنه ينتقي ملابسه بالدقة التي يتكلم بها، وهو يحترم البرتوكول، كما أنه منكب على العمل لا يكل ولا يعترف بأيام العطل ولا بساعات الدوام. لاحظَ أنه مذعور؛ فقد أنتبه إلى أنه ربما ارتكب خطأ فادحاً بمنحه ذلك التصريح لابنة مخيخ.

- لم أرَ تلك المذكرة إلا منذ نصف ساعة.- قال محذراً - يمكن أن تكون قد ضاعت. ولكنني مستغرب. فأوراقي مرتبة جيداً على الدوام. ولم يرَ المذكرة أي واحد من سكرتيريّ حتى الآن. وهكذا فإن أحد أصدقاء مخيخ أبعد المذكرة عن الأوراق مخافة أن أرفض منح التصريح.

أبدى الدكتور بالاغير تعبيراً متضرعاً. كان قد قرّب جسمه وفتح ذلك الفم الذي تخرج منه عبارات ناعمة موزونة وزغردات لطيفة عندما يلقي أشعاراً، وتخرج منه عندما يلقي خطبه الحماسية أصوات عالية، بل وغاضبة أحياناً.

- سأقوم بتحقيق معمق لمعرفة من الذي حمل المذكرة إلى مكتبكم ولمن سلّمها. سأقوم بذلك سريعاً دون شك. كان علي أن أكلم سيادتك شخصياً. أرجوك أن تعذرني على هذه الزلة.- يداه الصغيرتان السمينتان، بأظفارهما القصيرة، انفتحتا وأنطبقتا بحزن - لقد فكرتُ في الحقيقة بأن هذه المسألة ليست مهمة. فقد أشرت إلينا سيادتك في مجلس الوزراء بأن وضع مخيخ لا يشمل أسرته.

أسكته بحركة من رأسه، وقال بجفاء:

- المهم هو أن هناك من أخفى هذه المذكرة عني طوال أسبوعين. هناك في السكرتاريا خائن أو غبي. وأرجو أن يكون خائناً، لأن الأغبياء أشد ضرراً.

تنهد بشيء من الإنهاك، وتذكر الدكتور إنريكي ليتغو ثيارا: هل كان يريد قتله حقاً، أم أنه ألح دون قصد؟ إنه يرى البحر من نافذتي المكتب؛ وهناك غيوم ذات كروش كبيرة بيضاء تحجب الشمس، وقد بدا سطح البحر هائجاً مائجاً في المساء الرمادي. هناك أمواج كبيرة تضرب الشاطئ الصخري المتصدع. وبالرغم من أنه ولد في سان كريستوبال، بعيداً عن البحر، إلا أن رؤية الأمواج المزبدة والسطح السائل الذي يضيع في الأفق هو مشهده المفضل. دمدم مستاء:

- لقد قدمت لها الراهبات المنحة لأنهن يعرفن أن مخيخ قد وقع في المحنة. ولأنهن يعتقدن بأنه سيعمل الآن في خدمة العدو.

- أؤكد لك أن لا يا صاحب الفخامة. - ولاحظ الجنراليسمو أن بالاغير يتردد في انتقاء الكلمات - فالأم ماريا، أعني سِستر ماري، ومديرة مدرسة سانتو دومنغو لا تنظران بعين الرضا إلى أغوسطين. يبدو أن علاقته بالطفلة لم تكن على ما يرام، وأن الصغيرة كانت تعاني في البيت. والراهبات يردن مساعدتها هي، وليس مساعدته. لقد أكدن لي أنها فتاة استثنائية ولديها موهبة التعلم. لقد تسرعتُ بتوقيع التصريح، متأسف. فعلتُ ذلك في محاولة لترطيب العلاقات مع الكنيسة وحسب. فهذا الخلاف يبدو لي خطيراً يا صاحب الفخامة. وأنت تعرف رأيي في هذا الشأن.

أسكته من جديد بإيماءة لا تكاد تُلحظ. أيكون مخيخ قد تورط في الخيانة؟ أيكون إحساسه بالتهميش، بالهجران، دون مناصب، ودون موارد مالية، وغرقه في القلق قد دفعه إلى صفوف العدو؟ عسى ألا يكون ذاك قد حدث؛ فهو معاون قديم، قدم خدمات جيدة في الماضي وربما بإمكانه تقديم خدمات أخرى في المستقبل.

- هل رأيت مخيخ؟

- لا يا صاحب الفخامة. إنني أتبع تعليماتك بعدم الرد على اتصالاته. لقد كتب إلي الرسالتين اللتين تعرفهما سيادتك. وأنا أعرف من خلال آنيبال، صهره، ذاك الذي في شركة التبغ، أنه متأثر وحزين جداً. وأنه «على حافة الانتحار» كما قال لي.

هل كان إخضاع خادم كفء مثل كابرال لاختبار مثل هذا في هذه اللحظات الصعبة التي يمر بها النظام، عملاً ينم عن الاستخفاف؟ ربما.

- يكفي إضاعة للوقت بمسألة أغوسطين كابرال - قال - لدينا الكنيسة والولايات المتحدة. فلنبدأ من هنا. ماذا سيجري مع المطران ريللي؟ إلى متى سيبقى بين راهبات مدرسة سانتو دومنغو، يلعب لعبة الشهيد؟

- لقد تحدثتُ مطولاً مع الأسقف ومع القاصد الرسولي في هذا الشأن. ألححت عليهما بوجوب مغادرة المونسنيور ريللي مدرسة سانتو دومنغو، لأن وجوده هناك صار أمراً غير محتمل. وأظن أنني أقنعتهما. إنهما يطلبان ضمانات بسلامة المطران، وأن تتوقف الحملة في جريدتي **لاناسيون والكاريبي** وفي صوت الدومينيكان. وأن يتمكن من العودة إلى أبرشيته في سان خوان دي لاماغوانا.

- ألا يريدان كذلك أن تتنازل له عن منصبك في رئاسة الجمهورية.- سأل المنعم. فمجرد ذكر اسمي ريللي وبانال كان يجعل دمه يغلي. وماذا إذا ما كان رئيس الاستخبارات العسكرية على حق؟ وأنه لا بد من فقء ذلك الدمل مرة واحدة؟ -: لقد اقترح عليّ أبيس غارسيا أن نحشر ريللي وبانال في طائرة ونعيدهما إلى بلديهما. أي أن نطردهما كشخصين غير مرغوب بهما. وهو ما يفعله الآن فيدل كاسترو في كوبا بالرهبان والراهبات الإسبان.

لم يقل رئيس الجمهورية كلمة واحدة ولم يومئ بأي حركة. بقي ينتظر دون حراك.

- أو أن نسمح للشعب بمعاقبة هذين الخائنين - واصل المنعم بعد وقفة قصيرة - فالناس متلهفون لعمل ذلك. لقد رأيت ذلك بنفسي خلال جولاتي في الأيام الأخيرة. ففي سان خوان دي لاماغوانا، وفي لابيغا يكاد كبح الناس لا يكون ممكناً.

وافق الدكتور بالاغير على أنه لو أتيحت الفرصة للشعب، لشنقهما. فالشعب ساخط على هذين الأرجوانيين، الجاحدين وناكري جميل من قدم للكنيسة الكاثوليكية أكثر من كل حكومات الجمهورية منذ العام 1844. ولكن **الجنراليسمو** أكثر حكمة وواقعية من أن يتبع نصائح رئيس الاستخبارات العسكرية الطائشة وغير السياسية، والتي سيأتي تطبيقها بنتائج مشؤومة على الأمة. كان يتكلم دون تعجل، وبايقاع منتظم يصبح هدهدة عندما يُضاف إلى بلاغته الناصعة.

قاطعه تروخييو:

- أنت أكثر شخص يكرة أبيس غارسيا ضمن النظام. لماذا؟

وكان رد الدكتور بالاغير على طرف شفتيه:

- الكولونيل تقني ماهر في شؤون الأمن ويقدم خدمة جيدة للدولة. ولكن أحكامه السياسية مخيفة عموماً. ومع كل الاحترام والتقدير الذي أكنه لفخامتكم، فإنني أسمح لنفسي بتشيجعك على التخلي عن تلك الأفكار. فطرد ريللي وبانال، والأسوأ من ذلك قتلهما، سيأتينا بغزو عسكري جديد. وستكون نهاية **عصر تروخييو**.

بما أن نبرته كانت ناعمة وودودة، وموسيقى كلماته لطيفة جداً، فقد بدا أن الأمور التي يقولها الدكتور خواكين بالاغير لا تتمتع بصلابة الرأي ولا بالصرامة التي يسمح الرجل الضئيل لنفسة أحياناً، مثلما هو الحال الآن، بالتكلم يها مع الزعيم. أتراه يتجاوز حدوده؟ أتراه قد استسلم، مثل مخيخ، إلى بلاهة الاعتقاد بأنه في مأمن، وأنه صار يحتاج مثل مخيخ إلى حمام يعيده إلى الواقع؟ إنه شخص مثير للفضول خواكين بالاغير هذا. فهو إلى جانبه منذ العام 1930، عندما أرسل شرطيين لاستدعائه من فندق سانتو دومنغو الصغير، حيث كان يقيم وأخذه إلى بيته لمدة شهر، لكي يساعده في حملته الانتخابية الأولى التي كان فيها حليفاً عابراً لزعيم منطقة ثيباو المعروف إستريّا أورينيا، والذي كان الشاب بالاغير من أنصاره المتحمسين. وكانت دعوة إلى الغداء ومحادثة استمرت نصف ساعة كافيتين لأن يتحول الشاعر والبروفسور والمحامي ذو الأربعة وعشرين عاماً، والمولود في قرية نافاريت النائية، إلى مناصر تروخييوي غير مشروط، وإلى خادم كفء ومتكتم في كل المهمات الدبلوماسية والإدارية والسياسية التي كلفه بها. وعلى الرغم من وجوده طوال ثلاثين سنة إلى جانبه، فإن هذا الشخص المغمور الذي عمّده تروخييو في إحدى الفترات بلقب **الظل**، ما يزال في الحقيقة شيئاً غامضاً بالنسبة إليه هو الذي يفاخر بامتلاك حاسة شمّ نفاذة في التعرف على الرجال. ولكن إحدى أفكاره الصائبة عنه هي أنه رجل يفتقر إلى الطموح الشخصي. فعلى العكس من أفراد الفريق المقرب الآخرين، والذين يمكنه قراءة شهيتهم مثل كتاب مفتوح في سلوكهم، ومبادراتهم، وتملقاتهم، كان خواكين بالاغير يوحي إليه على الدوام بأنه لا يتطلع إلا إلى ما يتنازل هو بتقديمه إليه. ففي المناصب الدبلوماسية في إسبانيا، وفرنسا،

وكولومبيا، وهندوراس، والمكسيك، أو في وزارات التربية والرئاسة والعلاقات الخارجية، كان يبدو له طافحاً، ومثقلاً بتلك المهمات التي تتجاوز أحلامه ورغباته، وأنه لهذا السبب بالذات يبذل جهوده بإقدام لإنجازها على أفضل وجه. ولكن – وخطر فجأة للمنعم – بفضل هذه المسكنة، بقي هذا الخادم والمستشار الحقوقي في الذروة على الدوام، دون أن يمر، بسبب تفاهته، بفترات محنة مثل الآخرين. ولهذا هو الآن رئيس جمهورية ألعوبة. فعندما حاول في العام 1957 تعيين نائب رئيس من القائمة التي يتصدرها أخوه نيغرو تروخييو، اختار الحزب الدومينيكاني، تنفيذاً لأوامره، السفير في إسبانيا رافائيل بونللي. ولكن **الجنراليسمو** قرر فجأة استبدال ذلك الأرستقراطي بالتافه بالاغير، بحجة حاسمة: «هذا الأخير يفتقر إلى الطموح». ولكن بفضل افتقاره إلى الطموح، صار هذا المثقف ذو الأساليب الرقيقة والخطابات البليغة رئيساً للأمة ويسمح لنفسه الآن بإلقاء الكلام جزافاً ضد رئيس جهاز الاستخبارات. لا بد من إذلاله بعض الشيء يوماً.

كان بالاغير يحتفظ بالهدوء والصمت، دون أن يتجرأ على مقاطعة تأملات **المنعم**، منتظراً أن يتنازل ويتوجه إليه بالكلام. وقد فعل ذلك أخيراً، ولكن دون العودة إلى موضوع الكنيسة:

– لقد تعاملتُ معك على الدوام دون رفع الكلفة، أليس كذلك؟ أنت الوحيد بين معاوني الذي لم أرفع معه الكلفة. ألم يلفت ذلك انتباهك؟

اصطبغ الوجه المدور بالحمرة وتلعثم بخجل:

– بالفعل يا صاحب الفخامة. لقد فكرتُ على الدوام بأنك لم ترفع الكلفة معي لأنك لا تثق بي مثلما تثق بزملائي الآخرين.

– لم أنتبه إلى ذلك إلا في هذه اللحظة بالذات – أضاف تروخييو متفاجئاً– وانتبهتُ كذلك إلى أنك لا تناديني أبداً بلقب **الزعيم**، مثلما يفعل الآخرون. فأنت ما تزال غامضاً جداً بالنسبة لي، على الرغم من كل هذه السنوات إلى جانبي. فأنا لم أستطع قط اكتشاف نقاط ضعفك الإنسانية يا دكتور بالاغير.

فابتسم الرئيس:

– إنني مليء بنقاط الضعف يا صاحب الفخامة. ولكنني أرى في عبارتك تأنيباً وليس مديحاً.

لم يكن **الجنراليسمو** يمزح. قاطع ساقيه وأنزلهما ثانية دون أن يرفع عن

بالاغير نظرته النفاذة. مرّ بيده على شاربه الذبابي وعلى شفتيه الجافتين. إنه يتفحصه بإلحاح.

– هناك شيء غير إنساني فيكَ – قال محدثاً نفسه، كما لو أن المستهدف بكلامه ليس موجوداً – ليست لديك الرغبات الطبيعية التي لدى البشر. فأنت حسب علمي لا تميل إلى النساء، ولا إلى الصبيان. وتعيش حياة أكثر عفة من ذلك القاصد الرسولي المقيم في شارع مكسيمو غوميث. ولم يكتشف أبيس غارثيا أن لك عشيقة أو خطيبة أو أي علاقة غرامية. وأنت لا تهتم كذلك بالمال. فليس لديك مدخرات تقريباً؛ وباستثناء البيت الذي تعيش فيه، ليس لديك أية أملاك، أو أسهم، أو استثمارات، هنا في البلاد على الأقل. ولم تدخل في المكائد والحروب الشرسة التي يدمي معاونيّ بعضهم بعضاً فيها، بالرغم من أنهم جميعهم يكيدون لك. ولم أضطر إلى أن أفرض عليك المناصب الوزارية، أو السفارات، أو نيابة الرئاسة أو حتى رئاسة الجمهورية التي تشغلها. وإذا ما أخرجتك من هنا وأرسلتك إلى منصب صغير في مقاطعة نائية مثل مونتكريستي أو أثوا، فإنك ستذهب وأنت راضٍ وسعيد. إنك لا تشرب، ولا تدخن، ولا تأكل، ولا تجري وراء التنانير، ولا وراء المال أو السلطة. هل أنت هكذا؟ أم أن هذا السلوك هو استراتيجية لها هدف سري؟

عاد وجه الدكتور بالاغير الحليق إلى الاحمرار. ولم يتردد صوته الخافت في التأكيد:

– منذ أن تعرفتُ على فخامتك، في ذلك الصباح من نيسان عام 1930، صار همي الوحيد هو خدمتك. فمنذ تلك اللحظة عرفتُ بأنني في خدمتي لتروخييو، أخدم بلادي. وقد أغنى ذلك حياتي أكثر مما يمكن أن تفعله النساء أو المال أو السلطة. لن أجد أبداً الكلمات لأشكر فخامتك على سماحك لي بالعمل إلى جانبك.

ياه، إنها التملقات المعهودة التي يمكن لأي تروخييوي أقل ثقافة أن يقولها. لقد خطر له للحظة أن ذلك الشخص الضئيل والمسالم سيفتح له قلبه، مثلما في الاعتراف، ويكشف له عن خطاياه، عن مخاوفه، عن أحقاده، عن أحلامه. ربما ليست له أي حياة سرية، وأن حياته هي تلك التي يعرفها الجميع: موظف زاهد ودؤوب، مثابر وبلا مخيلة، يقولب أفكار الزعيم في كلمات جميلة عبر خطابات، ونداءات، ورسائل، واتفاقيات، وشعارات حماسية، ومفاوضات دبلوماسية؛ وشاعر ينظم المطرزات والمدائح في جمال المرأة الدومينيكانية ومناظر كيسكايا، ويوشي

بـها عيـد الزهـور، والمناسـبات الكـبرى، ومسـابقات ملكـة جمـال جمهوريـة الدومينيكان والأعياد الوطنية. إنه رجل بلا نور خاص، مثل القمـر، يضيئه كوكب شمسي هو تروخييو.

- أعرفُ ذلك، فقد كنتَ رفيقاً جيداً - يؤكد **المنعم** - أجل، منـذ ذلـك الصبـاح من عام 1930. وقد أرسلتُ في طلبك يومذاك بناء على نصيحة زوجتي في ذلـك الحين، بينبينيدا. إنها قريبتك، أليس كذلك؟

- ابنة عمي يا صاحب الفخامة. لقد حسمت تلك الدعوة إلى الغداء حياتي. دعوتني سيادتك لمرافقتك في جولتك الانتخابية. ومنحتنـي الشرف بطلبك منـي أن أقدمك فـي الاجتماعـات الشعبية فـي سـان بيـدرو دي مـاكوريس، عاصمـة مقاطعـة لارومانا. وكـانت تلك هـي بدايتي كخطيـب سياسي. ومنـذ ذلـك الحـين اتخذت حيـاتي اتجاهـاً آخـر. فقبـل ذلـك اليـوم كـان ميلـي الطبيعـي هـو الأدب والتعليم والمحاكم. ولكن السياسة نالت الأسبقية بفضل سيادتك.

طرق سكرتير الباب طالباً الإذن بالدخول. استشاره بالاغير بنظرته وسمح له **الجنراليسمو** بإدخاله. كان السكرتير - بدلة متقنة، شـارب رفيـع، شعر متماسك بمادة صمغية - يحمل مذكرة موقعة من خمسمئة وستة وسبعين من أهـالي سـان خـوان دي لاماغوانـا البـارزين «لمنـع عـودة ذلـك الحَـبر المدعـو مونسـنيور ريللـي، المطـران الخـائن». وهنـاك وفد برئاسـة عمـدة المدينـة والرئيـس المحلـي للحـزب الدومينيكاني يريد تسليم المذكرة للرئيس. هل سيستقبل الوفد؟ واستشار بعينيـه مجدداً وهز **المنعم** رأسه موافقاً. فقال بالاغير للسكرتير:

- فليتكرم أعضاء الوفد بالانتظار. سأستقبل هؤلاء السـادة عندمـا أنتهي من تصريف الأمور مع صاحب الفخامة.

أيكون بـالاغير كاثوليكياً جداً مثلمـا يقـال؟ يجـري تـداول مـا لا حصـر لـه مـن النكـات حـول عزوبيته والوضعيـة الورعـة والتأملية التـي يتخذهـا فـي القداديـس والصلـوات والمواكـب الدينيـة؛ وقـد رآه هـو نفسـه يدنـو لتنـاول القربـان بيديـن مضمومتين وعينين خاشعتين. وعندمـا بنـى البيـت الـذي يعيش فـيه مـع شـقيقاته فـي شارع مكسيمو غومـث، بجـوار مقـر القـاصد الرسـولي، أمـر تروخييـو **القذارة الحية** بكتابـة رسـالة لصفحـة «المحكمـة العامـة» يسـخر فـيها مـن هـذا التجـاور ويتسـاءل عـن العلاقـات التـي سـتربط الدكتـور الضئيـل ومبعـوث قداسـة البابـا. وبسـبب سـمعة تقـواه وتدينـه، وعلاقاتـه الجيـدة مـن رجـال الديـن، كلفـه تروخييـو

برسم سياسة النظام في علاقته بالكنيسة الكاثوليكية. وقد قام بذلك على أحسن وجه؛ فكانت الكنيسة حليفاً راسخاً، إلى أن حلّ يوم الأحد 25 كانون الثاني 1960، عندما قُرئت في الكنائس رسالة أولئك الأنذال الأسقفية. فالتوافق بين جمهورية الدومينيكان والفاتيكان الذي فاوض عليه بالاغير ووقعه تروخييو في روما عام 1954، شكّل سنداً هائلاً للنظام وصورته في العالم الكاثوليكي. ولا بد أن الشاعر والمستشار الحقوقي قد تألم كثيراً لهذه المواجهة المتواصلة منذ سنة ونصف بين الحكومة وذوي المسوح. أيكون شديد التدين؟ لقد دافع على الدوام عن ضرورة محافظة النظام على علاقة جيدة مع الأساقفة والقسس والفاتيكان متعللاً بأسباب برغماتية وسياسية، وليست دينية: فتأييد الكنيسة الكاثوليكية يضفي الشرعية على ممارسات النظام أمام الشعب الدومينيكاني. ويجب ألا يحدث لتروخييو ما حدث لبيرون الذي راح نظامه يتقوض عندما بدأت الكنيسة هجومها عليه. أيكون على حق؟ هل يمكن لمعاداة هؤلاء الخصيان ذوي المسوح أن تقضي على تروخييو؟ قبل أن يحدث ذلك سيكون بانال وويللي قد ذهبا لتسمين أسماك القرش عند الصخرة المطلة على البحر.

– سأقول لك شيئاً يرضيك أيها الرئيس.- قال تروخييو فجأة – أنا لا أجد متسعاً من الوقت لقراءة التفاهات التي يكتبها المثقفون. الأشعار، الروايات. فشؤون الدولة تستغرق الوقت كله. فأنا لم أقرأ شيئاً من كتابات ماريرو آريستي على الرغم من أنه عمل سنوات طويلة معي. لم أقرأ روايته «*Over*» ولا أي مقال من مقالاته التي كتبها عني، ولا كتابه «**تاريخ الدومينيكان**». كما أنني لم أقرأ مئات الكتب التي أهداها إليّ الشعراء والمسرحيون والروائيون. وحتى حماقات زوجتي لم أقرأها. لا وقت لدي لهذه الأمور، ولا لرؤية الأفلام، أو الذهاب إلى الباليه أو إلى مصارعات الديوك. ثم إنني لم أثق يوماً بالفنانين. إنهم مترهلون، ليس لديهم إحساس بالشرف، ميالون إلى الخيانة وشديدو الخنوع. وأنا لم أقرأ كذلك أشعارك ولا أبحاثك. وقد تصفحت فقط كتابك عن دوارتي «**مسيح الحرية**» الذي أرسلته إليّ مع إهداء لطيف. ولكن هناك استثناء. إنه خطاب لك، منذ سبع سنوات. الخطاب الذي ألقيتَه في مسرح الفنون الجميلة، عندما جرى ضمك إلى أكاديمية اللغة. هل تتذكره؟

ازدادت حمرة وتأجج الرجل الضئيل أكثر فأكثر. كان يشع ضوءاً حماسياً، وبابتهاج لا يوصف، تلعثم وهو يخفض جفونه:

- «**الرب وتروخييو: تفسير واقعي**».

- لقد أعدتُ قراءة ذلك الخطاب مرات عديدة. - رن صوت **المنعم** السلس - وأنا أحفظ مقاطع منه عن ظهر قلب، مثل الشعر.

لماذا يكشف عن هذا الأمر للرئيس الدمية؟ إنه ضعف لم يستسلم له في يوم من الأيام. يمكن لبالاغير أن يتبجح بذلك ويشعر بأنه مهم. والأحوال لا تسمح بالتخلص من معاونٍ ثانٍ خلال هذا الوقت القصير. ولكنه اطمأن وهو يتذكر أنه ربما كانت أفضل مزايا هذا الرجل الضئيل ليست معرفته ما هو مناسب وحسب، وإنما قبل كل شيء في تجاهله ما هو غير مناسب. وهو لن يكرر ما سمعه حتى لا يكتسب عداوات قاتلة بين الندماء الآخرين. لقد هزه خطاب بالاغير ذاك من الأعماق، وحمله إلى التساؤل مرات ومرات إذا ما كان يعبر عن حقيقة عميقة، عن إحدى تلك الأحكام الإلهية عميقة الغور التي تَسِمُ قدر شعبٍ من الشعوب. في تلك الليلة، ولدى سماعه الفقرات الأولى التي كان عضو الأكاديمية الجديد المحشور بقامته الضئيلة في بدلة التشريفات يقرؤها من فوق منصة مسرح الفنون الجميلة، لم يوله **المنعم** كبير اهتمام. (هو أيضاً كان يرتدي بدلة التشريفات مثل كل الحضور من الذكور، أما السيدات فكن يرتدين فساتين طويلة، وكان بريق المجوهرات والألماس يتلألأ في كل الجهات.) لقد كان ذلك الخطاب أشبه بتلخيص لتاريخ الدومينيكان منذ مجيء كريستوف كولومبس إلى جزيرة هيسبانيولا[1]. وبدأ اهتمامه بما يسمعه يزداد عندما بدأت تطل من كلمات المحاضر المهذبة ونثره الأنيق، رؤية وأطروحة: فجمهورية الدومينيكان استمرت في الوجود طوال أكثر من أربعة قرون - أربعمئة وثمان وثلاثين سنة - تعرضت خلالها لمحن كثيرة - القراصنة، الغزوات الهايتية، محاولات الضم والإلحاق، مذبحة البيض وتشتيتهم (لم يبق في البلاد سوى ستين ألفاً عند الاستقلال عن هايتي) - وقد بقيت الدومينيكان على قيد الحياة بفضل العناية الإلهية. وكانت مهمة بقاء البلاد موكلة آنذاك إلى الخالق مباشرة. وابتداء من عام 1930 حلّ رافائيل ليونيداس تروخييو مولينا محل الرب في هذه المهمة الشاقة.

- «إرادة متمرسة وحازمة دعمت مسيرة جمهورية الدومينيكان لإكمال

---

[1] هيسبانيولا هي التسمية التي أطلقها كولومبس على الجزيرة التي تضم اليوم جمهورية الدومينيكان وهايتي، وكانت أول أرض في العالم الجديد يصلها المستكشف في رحلته الأولى.

مصائرها، إنها وصاية ونعمة قوتين خارقتين»،-رتل تروخييو بعينين مغمضتين- «الرب وتروخييو. هذا هو باختصار تفسير ذلك، أولاً بقاء البلاد على قيد الحياة، وبعد ذلك الازدهار الحالي للحياة الدومينيكانية.»

فتح عينيه قليلاً وتنهد بكآبة. وكان بالاغير يستمع إليه منتشياً، متضائلاً بالامتنان.

- أما زلتَ تؤمن بأن الرب قد سلمني المهمة؟ وبأنه حمّلني مسؤولية إنقاذ هذه البلاد؟- سأل بمزيج غير واضح من السخرية واللهفة.

- أكثر مما كنتُ عليه في ذلك الوقت يا صاحب الفخامة.- رد الصوت الناعم والواضح - ما كان بمقدور تروخييو أن ينجز هذه المهمة التي تفوق طاقة البشر دون دعم متعالٍ. لقد كنتَ سيادتك، بالنسبة لهذه البلاد، أداة من **الكائن الأعلى**.

فابتسم تروخييو:

- من المؤسف أن هؤلاء المطارنة الأنذال لم يعرفوا ذلك. فإذا كانت نظريتك صحيحة، فإنني آمل من الرب أن يحاسبهم على عمى بصيرتهم.

لم يكن بالاغير هو أول من نسب الألوهية إلى أعمال تروخييو. فالمنعم يتذكر أن بروفيسور القانون، المحامي والسياسي دون خاثينتو ب. بينادو (الذي نصّبه رئيساً دمية في العام 1938، عندما جرت احتجاجات دولية، بسبب مجزرة الهايتيين، ضد إعادة انتخابه للمرة الثالثة) علق على باب بيته إعلاناً مضيئاً كبيراً يقول: «**الله وتروخييو**». ومنذ ذلك الحين، تألقت شعارات مماثلة على بيوت كثيرة في العاصمة والمدن الداخلية. لا، لم تكن الجملة بحد ذاتها؛ وإنما الحجج التي تبرر ذلك الترابط هي التي فاجأت تروخييو كحقيقة ساحقة. لم يكن سهلاً عليه الإحساس بثقل يد خارقة للطبيعة على كاهله. لقد كان خطاب بالاغير، الذي تعاد طباعته كل سنة، مادة قراءة إجبارية في المدارس ونصاً أساسياً في «**كراس الثقافة المدنية**» المخصص لتربية تلاميذ المدارس والطلاب الجامعيين على العقيدة التروخييوية، والذي حرره ثلاثي اختاره بنفسه: بالاغير، ومخيخ كابرال، والقذارة الحية.

- كثيراً ما فكرتُ في نظريتك هذه يا دكتور بالاغير - قال معترفاً - هل كان قراراً إلهياً؟ ولماذا أنا بالذات؟ لماذا اختياري أنا؟

بلل الدكتور بالاغير شفتيه بطرف لسانه قبل أن يجيب:

– أحكام الذات الإلهية حتمية لا مفر منها – قال بمداهنة – ولا بد أنها أخذت بعين الاعتبار الشروط القيادية الاستثنائية التي تتمتع بها سيادتك، وقدرتك على العمل، وقبل كل ذلك حبك لهذه البلاد.

لماذا يضيع الوقت في هذه البلاهات؟ هناك قضايا مستعجلة. ولكن يا للغرابة، إنه يشعر بالحاجة إلى إطالة هذه المحادثة الغيبية، التأملية، الشخصية. ولماذا مع بالاغير؟ إنه من شاطره أقل قدر من الحميمية بين دائرة معاونيه. فهو لم يدعُه قط إلى حفلات العشاء الخاصة التي يقيمها في سان كريستوبال، في بيت كاوبا، حيث يسيل الخمر وتُقترف التجاوزات في بعض الأحيان. ربما لأنه الوحيد، ضمن عصبة المثقفين والمتأدبين، الذي لم يخب أمله حتى الآن. وبسبب سمعتة بأنه ذكي (مع أن هالة من القذارة تحيط بالرئيس حسب قول أبيس غارسيا).

– لقد كان رأيي بالمثقفين والمتأدبين سيئاً على الدوام- يعود إلى الكلام- ففي السلم الاجتماعي، وحسب ترتيب الجدارة، يحتل العسكريون المقام الأول. فهم يؤدون الواجب، وقلما يتآمرون، ولا يضيعون الوقت. وبعدهم يأتي الفلاحون، في منشآت تكرير السكر وفي أكواخ القرى، ففي مصانع السكر تجد ناس هذه البلاد الأصحاء، الشغيلين، والشرفاء. وبعد ذلك الموظفون، فالمقاولون، فالتجار. أما المتأدبون والمثقفون فهم الأخيرون، بل إنهم وراء رجال الدين. أنت حالة استثنائية يا دكتور بالاغير. أما الآخرون! فهم زمرة من الأوغاد. إنهم من تلقوا أكبر قدر من المنافع، ومن ألحقوا أكبر الأذى بالنظام الذي أطعمهم وألبسهم وملأهم بالتشريفات. خذ مثلاً أولئك الذين قدموا من إسبانيا، مثل خوسيه ألمونيا أو خيسوس دي غاليندیث. لقد قدمنا لهم الملاذ والعمل. فتحولوا من التزلف والتسول إلى الافتراء وكتابة النذالات. وما قولك بشأن أوسوريو ليثاراثو، الأعرج الكولومبي الذي أحضرته أنت؟ جاء ليكتب سيرة حياتي، ليرفعني إلى السحاب، وليعيش هنا مثل ملك، ورجع إلى كولومبيا بجيوب مملوءة ليتحول إلى مناهض لتروخييو.

ميزة أخرى من مزايا بالاغير هي معرفته متى يتوجب عليه عدم الكلام، متى عليه أن يتحول إلى أبو هول يمكن للجنراليسمو أن يسمح لنفسه بمثل هذه الفضفضة أمامه. صمتَ تروخييو. أنصتَ، محاولاً أن يلتقط صوت ذلك السطح المعدني ذي الخطوط الزبدية المتوازية الذي كان يراه من خلال النافذتين. ولكنه لم يتمكن من سماع هدير البحر الذي تطغى عليه أصوات محركات السيارات.

- هل تعتقد بأن رامون ماريرو آريستي قد خان؟- سأل بصورة مباغتة، معيداً ذلك الحاضر الصامت إلى المشاركة في الحوار- وأنه أعطى لذلك الغرينغو من **النيويورك تايمز** معلومات لكي يهاجمنا؟

لم يكن الدكتور بالاغير يسمح قط بأن تفاجئه أسئلة تروخييو المباغتة، الخطيرة والمورِطة، والتي كانت تحشر آخرين في الزاوية. فقد كان لديه مهرب من هذه الأسئلة:

- لقد أقسم هو نفسه بأنه لم يفعل ذلك يا صاحب الفخامة. كانت الدموع تفيض من عينيه وهو جالس حيث تجلس سيادتك، ويقسم لي بأمه وبكل القديسين بأنه لم يكن من قدم المعلومات للصحفي تيد سولك.

وجاء رد فعل تروخييو بحركة نزقة:

- وهل كنت تريد من ماريرو أن يأتي هنا ليعترف لك بأنه باع نفسه؟ إنني أسألك عن رأيك. هل خان أم لا؟

وكان بالاغير يعرف بأنه لا بد له من إلقاء نفسه في الماء حين لا يعود أمامه مفر: وهي ميزة أخرى يعترف له بها **المنعم**.

- مع كل ألم روحي، للتقدير الثقافي والشخصي الذي أشعر به تجاه رامون، إلا أنني أظن أنه هو من قدم المعلومات إلى تيد سولك- قال ذلك بصوت خافت جداً، لا يكاد يُسمع - فقد كانت الأدلة ساحقة يا صاحب الفخامة.

وكان هو نفسه قد توصل إلى هذه النتيجة أيضاً. وبالرغم من أنه خلال ثلاثين سنة في الحكم - وقبل ذلك، عندما كان حارساً بلدياً؛ بل وقبل، عندما كان مراقب عمال في مصانع السكر - اعتاد على عدم إضاعة الوقت في النظر إلى الوراء والتحسر أو تهنئة النفس على القرارات المتخذة، إلا أن ما حدث مع رامون ماريرو آريستي، ذلك «**الجاهل العبقري**» كما أسماه ماكس إينريكيث أورينيا، والذي كان يشعر نحوه بتقدير حقيقي، ذلك الكاتب والمؤرخ الذي سربله بالتشريف والمال والمناصب - كاتب ومدير في جريدة **لاناسيون**، ووزير للعمل - ودفع من جيبه الخاص تكاليف طباعة المجلدات الثلاثة لمؤلفه «**تاريخ جمهورية الدومينيكان**»، يعود أحياناً إلى ذاكرته، مخلفاً في فمه طعماً من الرماد.

إذا ما كان قد دسّ يديه في النار يوماً، فإنما فعل ذلك من أجل مؤلف الرواية الدومينيكانية الأوسع انتشاراً في البلاد والخارج - رواية «*Over*»، حول معمل السكر في رومانا-، بل إنها تُرجمت إلى الإنكليزية. لقد كان تروخييوياً

صلباً؛ وقد أثبت ذلك عند إدارته لجريدة **لاناسيون**، بدفاعه عن تروخييو وعن النظام بأفكار واضحة وأسلوب محنك. وكان وزير عمل ممتاز، استطاع إقامة علاقة جيدة مع النقابيين وأرباب العمل. ولهذا، عندما أعلن الصحفي تيد سولك، من **النيويورك تايمز**، أنه سيأتي ليكتب عدة مقالات عن البلاد، كلَّف ماريرو آريستي بمرافقته. فسافر معه في كل أنحاء البلاد، وأمّن له المقابلات التي طلبها، بما في ذلك مقابلة مع تروخييو. وعندما رجع تيد سولك إلى الولايات المتحدة، رافقه ماريرو آريستي حتى ميامي. ولم يكن **الجنراليسمو** يتوقع أن تكون مقالات **النيويورك تايمز** امتداحاً لنظامه. ولكنه لم يتوقع كذلك أن تكون مكرسة للحديث عن فساد «الأسرة التروخييوية»، ولا أن يعرض تيد سولك بمثل تلك الدقة معلومات، وتواريخ، وأسماء، وأرقاماً حول ممتلكات أسرة تروخييو، والصفقات التي حظي بها الأقارب والأصدقاء والأعوان. لا يمكن إلا لماريرو أن يخبره عن كل ذلك. وكان واثقاً من أن وزير عمله لن يعود إلى مدينة تروخييو ثانية. ولكنه فوجئ به يبعث من ميامي رسالة إلى الصحيفة النيويوركية يكذِّب فيها أقوال تيد سولك، بل وصلت به الجرأة إلى أبعد من ذلك بعودته إلى جمهورية الدومينيكان. حضر إلى القصر الوطني. وبكى قائلاً إنه بريء؛ وإن الصحفي اليانكي غافل مراقبته، وتحادث سراً مع الخصوم. وكانت تلك إحدى المرات القليلة التي فقد فيها تروخييو أعصابه. ولقرفه من تباكيه، وجه إليه صفعة جعلته يتعثر ويخرس. تراجع مذعوراً. شتمه وأسماه الخائن. وعندما قتله قائد المساعدين العسكريين، أمر جوني أبيس بأن يجد حلاً لمشكلة الجثة. وفي 17 تموز 1959 انزلق وزير العمل وسائقه في هاوية في سلسلة الجبال الوسطى، بينما كانا ذاهبين إلى كونستانثا. أُقيمت له جنازة رائعة، وفي المقبرة تحدث السيناتور هنري تشيرنيوس مُبرزاً أعمال المرحوم السياسية، بينما أطرى الدكتور بالاغير على منجزاته الأدبية.

- لقد آلمني موته على الرغم من خيانته.- قال تروخييو بصدق- لقد كان شاباً، لم يكد يتجاوز السادسة والأربعين، وكان بإمكانه أن يعطي الكثير مما لديه.

- أحكام الذات الإلهية حتمية ولا مفر منها-كرر رئيس الجمهورية ذلك دون ذرة واحدة من السخرية.

- لقد ابتعدنا عن موضوعاتنا. - تنبه تروخييو - هل ترى بأن هناك إمكانية لإصلاح الأمور مع الكنيسة؟

- بصورة فورية، لا، يا صاحب الفخامة. فالخلاف قد تعمق. ولكي أكون صريحاً معك، فإنني أخشى أن الأمور ستمضي من سيئ إلى أسوأ ما لم تأمر سيادتك الكولونيل أبيس بأن تخفف **لاناسيون** وإذاعة الكاريبي من الحملات على المطرانين. لقد تلقيت اليوم بالذات شكوى رسمية من القاصد الرسولي وكبير الأساقفة بيتيني على السخرية التي نُشرت يوم أمس عن المونسنيور بانال. هل قرأتها سيادتك؟

كانت القصاصة على مكتبه، وقرأها للمنعم بوقار. افتتاحية إذاعة الكاريبي التي أعادت نشرها جريدة **لاناسيون** تؤكد أن المونسنيور بانال، مطران لابيغا، «المعروف سابقاً باسم ليوبولدو دي أوبريكي»، كان هارباً من إسبانيا وملاحقاً من قبل الانتربول. وتتهمه بأنه «ملأ مقر الأبرشية في لابيغا بالمترهبات قبل أن ينهمك في تخيلاته الإرهابية» أما الآن، «وبما أنه يخشى من العقاب الشعبي العادل، فإنه يختبئ وراء المترهبات والنساء غير السويات اللواتي يدير معهن كما يبدو تجارة جنسية واسعة».

ضحك الجنراليسمو بشهية. يا للأمور التي تخطر لأبيس غارسيا! فلا بد أن المرة الأخيرة التي انتصب فيها عضو ذلك الراهب الإسباني المسن كانت قبل عشرين أو ثلاثين سنة؛ واتهامه بمضاجعة مترهبات لابيغا هو أمر شديد التفاؤل: لأن أكثر ما يقدر عليه هو مداعبة صبيان الخدمة في الكنيسة، مثلما يفعل كل القسس الشبقين والمخنثين. ثم علق مبتسماً:

- الكولونيل يبالغ أحياناً.

- لقد تلقيتُ كذلك شكوى رسمية أخرى من القاصد الرسولي ومجلس الكهنة - واصل بلاغير بكل جدية- إنها شكوى من الحملة التي شنتها في 17 أيار الصحافة والإذاعة ضد رهبان دير سان كارلوس بوروميو يا صاحب الفخامة.

رفع حافظة أوراق زرقاء فيها قصاصات ذات عناوين تلفت الانتباه. «القسس الفرنسيسكان-الكابتشيون الارهابيون» يصنعون ويخزنون قنابل محلية الصنع في تلك الكنيسة. وقد اكتشف ذلك الجيران بعد الانفجار العرضي لإحدى تلك القنابل. وتطالب صحيفتا **لاناسيون** و**الكاريبي** قوى الأمن العام باحتلال وكر الإرهاب.

مرّ تروخييو بنظره على القصاصات.

- ليس لدى أولئك الرهبان الجرأة على صنع القنابل. إنهم يهاجمون بالصلوات على أبعد تقدير.

- أنا أعرف رئيس ذلك الدير يا صاحب الفخامة. الأب ألونصو دي بالميرا رجل قديس، يكرس كل جهده في مهمته الرسولية، وهو يلقى احترام الحكومة. إنه عاجز تماماً عن القيام بعمل تمردي.

توقف وقفة قصيرة، ثم واصل بنبرة الصوت الحميمة التي يتكلم بها في محادثة بعد الطعام، عارضاً حجة سمعها **الجنراليسمو** مرات كثيرة من أغوسطين كابرال. فمن أجل إعادة مدّ الجسور مع المقامات الكنسية والفاتيكان والقسس - وهم في غالبيتهم ما زالوا يتعاطفون مع النظام خوفاً من الشيوعية الملحدة - لا بد من وقف، أو على الأقل تهدئة حملة القدح والاتهامات اليومية هذه التي تتيح للأعداء تقديم النظام على أنه معاد للكاثوليكية. وبكياسته المعهودة التي لا تشوبها شائبة، عرض الدكتور بالاغير على **الجنراليسمو** احتجاجاً من وزارة الخارجية الأمريكية على المضايقات التي تتعرض لها راهبات مدرسة سانتو دومنغو. وقد ردّ هو نفسه موضحاً بأن الحراسة البوليسية تحمي الراهبات من أعمال عدائية. ولكن ما جاء عن المضايقات كان صحيحاً في الواقع. فرجال الكولونيل أبيس غارسيا، على سبيل المثال، يبثون طوال الليل من مكبرات صوت موجهة إلى المدرسة أغنيات الميرنغي التروخييوية الرائجة، بحيث لا يمكن للراهبات النوم. وهو ما كانوا يفعلونه من قبل أمام منزل المونسنيور ريللي في سان خوان دي لاماغوانا، وما يفعلونه حتى الآن بالمنسنيور بانال في لابيغا. ما زال بالإمكان التوصل إلى مصالحة مع الكنيسة. ولكن هذه الحملة تقود الأزمة إلى القطيعة النهائية.

هز تروخييو كتفيه:

- كلّم الروزكروزي وأقنعه. إنه هو آكل الكهنة؛ وهو واثق من أن الوقت قد فات لتهدئة الكنيسة. وأن القسس يريدون رؤيتي منفياً أو معتقلاً أو ميتاً.

- أؤكد لك أن الأمر ليس كذلك يا صاحب الفخامة.

لم يوله **المنعم** اهتماماً. فقد كان يستمع إلى الرئيس الدمية، دون أن يقول شيئاً، ناظراً إليه بعينيه المنقبتين اللتين تشوشان وترعبان. لقد كان من عادة الدكتور الضئيل الصمود لوقت أطول أمام ذلك التفتيش الخفي، ولكنه الآن، وبعد نحو دقيقتين من خضوعه للتعرية بتلك النظرة المتمادية، أخذ يبدي ضيقه:

صارت عيناه تنفتحان وتنغلقان دون توقف وراء عدستي نظارته السميكتين.

- هل تؤمن بالرب؟ - سأله تروخييو بشيء من اللهفة: وكان يثقبه بعينيه الباردتين، مطالباً إياه بجواب صريح - هل تؤمن بوجود حياة أخرى بعد الموت؟ بوجود الجنة للأخيار والجحيم للأشرار؟ هل تؤمن بكل هذا؟

بدا له أن هيئة خواكين بالاغير تزداد تضاؤلاً، مفحمةً بتلك الأسئلة. وأن صورته التي وراء ظهر الرئيس تتضخم في إطارها المذهب (وهي صورة بملابس الاتيكيت مع قبعة ثلاثية الرؤوس مزينة بالريش، والوشاح الرئاسي ثلاثي الألوان فوق صدره إلى جانب الوسام الذي يتفاخر به أكثر من سواه، وسام صليب كارلوس الثالث الإسباني). راحت كل من يدي الرئيس الألعوبة تفرك الأخرى بينما هو يقول، مثل من يفشي سراً:

- يراودني الشك في بعض الأحيان يا صاحب الفخامة. ولكنني توصلت منذ سنوات إلى هذه النتيجة: ليس ثمة خيار. لا بد من الإيمان. فليس من الممكن لأحدنا أن يكون ملحداً. على الأقل في عالم مثل عالمنا. وخصوصاً إذا كان لدى المرء ميل للخدمة العامة والعمل في السياسة.

فألح عليه تروخييو وهو يتململ في مقعده:

- لك سمعة واسعة بأنك متدين ورع. بل إنني سمعت بأنك لم تتزوج، وليس لك عشيقة، ولا تشرب، ولا تمارس التجارة، لأنك نذرت نفسك للرهبنة سراً. وأنك قسيس علماني.

نفى الرئيس الضئيل ذلك بحركة من رأسه: لا صحة لأي شيء من هذا كله. فهو لم ولن ينذر نفسه؛ وعلى العكس من بعض زملائه في المدرسة العامة، الذين كانوا يعذبون أنفسهم متسائلين عما إذا كانوا ممن اختارهم الرب لخدمته كرعاة للرعية الكاثوليكية، كان هو يعرف أن ميله ليس إلى الرهبنة، وإنما إلى العمل الثقافي والممارسة السياسية. الدين يقدم له نظاماً روحياً، وتعاليم أخلاقية يواجه بها الحياة. وهو يتشكك أحياناً بوجود ما هو فوق مادي، بالرب، ولكنه لا يشك على الإطلاق بالوظيفة الثابتة للكاثوليكية كأداة كبحٍ اجتماعي للأهواء والشهوات غير المتوازنة لدى الوحش البشري. وأنها تشكل في جمهورية الدومينيكان قوة بناءة للهوية القومية، مثلما هي اللغة الإسبانية. فمن دون الإيمان الكاثوليكي، ستسقط البلاد في التجزئة والهمجية. أما فيما يتعلق بالإيمان، فهو يمارس وصفة القديس إغناسيو دي ليولا، في مؤلفه «تمرينات

روحية»: قداديس، صلوات، اعترافات، مناولات. وهذا التكرار المنهجي للشكليات الدينية يأخذ بخلق المضمون، ويملأ الفراغ - في لحظة معينة - بحضور الرب.

صمت بالاغير وخفض عينيه، كما لو أنه خجل من كشفه للجنراليسمو عن غياهب روحه، وترتيباته الشخصية مع الرب.

قال تروخييو:

- لو كانت لدي شكوك لما تمكنت قط من جعل هذا الميت ينهض. لو أنني انتظرت ظهور إشارة ما من السماء قبل أن أبدأ العمل. لقد كان علي أن أثق بنفسي، ولا أحد سوى نفسي، عندما كان الأمر يتعلق باتخاذ قرارات الحياة أو الموت. ولا بد أنني أخطأت في بعض المرات بالطبع.

حدس المنعم، من تعبيرات وجه بالاغير، أن هذا يتساءل عما وعمن يتكلم. ولم يقل له إن ما ورد إلى ذهنه هو وجه الدكتور إنريكي ليتغو ثيارا. أول طبيب أمراض بولية استشاره - بناء على نصيحة مخيخ كابرال الذي قال عنه إنه نابغة-، عندما لاحظ أنه يجد صعوبة في التبول. ففي بداية الخمسينيات، وبعد أن أجرى له الدكتور ماريانو عملية جراحية لعلّة في المثانة، أكد له بأنه لن يعاني من أية مضايقات إلى الأبد. ولكن، سرعان ما بدأت تلك المضايقات عند التبول. وبعد عدة تحليلات وملامسة شرجية مزعجة، أبدى الدكتور ليتغو ثيارا وجهاً كوجه عاهرة أو قندلفت مداهن، وتقيأ كلمات هذيانية غير مفهومة ليحطم معنوياته («تصلب إحليلي عِجاني»، «تخطيط إحليلي»، «بروستاتيس عنقودية») ثم صاغ ذلك التشخيص الذي سيكلفه غالياً:

- يجب أن تفوض أمرك إلى الله يا صاحب الفخامة. فالتهاب البروستات سرطاني.

حاسته السادسة أعلمته بأنه يبالغ أو يكذب. وقد اقتنع بذلك عندما ألح طبيب البولية على إجراء عملية جراحية فورية. فالمخاطر كثيرة إذا لم تُستأصل البروستات، ويمكن للداء أن ينتقل، ويمكن للمبضع والعلاج الكيماوي أن يطيلا الحياة بضع سنوات. إنه يبالغ ويكذب، إما لأنه طبيب غير بارع أو لأنه عدو. ثم تأكد تماماً من أنه يسعى إلى تقريب موت أبي الوطن الجديد عندما أحضر من برشلونة طبيباً علامة، هو الدكتور أنطونيو بويغفيرت الذي نفى وجود السرطان؛ وأكد أن نمو تلك الغدة اللعينة، بسبب التقدم في السن، يمكن علاجه بالأدوية وهو لا يهدد حياة الجنراليسمو. وعملية استئصال البروستات ليست ضرورية.

وفي ذلك الصباح بالذات أصدر تروخييو الأمر وتولى المساعد العسكري الملازم خوسيه أوليفا محو أثر ليتغو ثيارا الوقح في ميناء سانتو دومنغو مع سُمّه وعلمه الخبيث. وبالمناسبة! الرئيس الدمية لم يوقع حتى الآن ترقية بينيا ريفيرا إلى رتبة نقيب. لقد انحدر من الوجود الإلهي إلى حضيض دفع ثمن خدمات أحد أمهر القتلة الذين جندهم أبيس غارسيا.

- إنني أنسى - قال وهو يومئ بحركة استياء من رأسه- فأنت لم توقع بعد قرار ترفيع الملازم بينيا ريفيرا إلى رتبة نقيب لمزاياه الاستثنائية. لقد أرسلتُ إليك الملف منذ أسبوع، وعليه موافقتي.

تمرمر وجه الرئيس بالاغير المدور وانقبض فمه؛ وتشنجت يداه. ولكنه تمالك نفسه وعاد إلى اتخاذ الوضع الهادئ المعهود.

- لم أوقعه لأنني رأيت أنه من المناسب مناقشة هذه الترقية مع سيادتك يا صاحب الفخامة.

- لا مبرر للمناقشات - قاطعه الجنراليسمو بجفاء - أنت تلقيت التعليمات. ألم تكن واضحة؟

- كانت واضحة بالطبع يا صاحب الفخامة. أرجوك أن تستمع إلي. وإذا لم تناسبك مبرراتي، فسوف أوقع ترقية الملازم بينيا ريفيرا فوراً. ها هو القرار هنا، جاهز للتوقيع. ولكن نظراً لحساسية الموضوع، رأيتُ أنه من الأفضل مناقشته شخصياً.

إنه يعرف جيداً المسوغات التي سيعرضها عليه بالاغير، وقد بدأ يغضب. هل يظن هذا التافه بأنني قد هرمت كثيراً أو تعبت، ليتجرأ على عصيان أحد أوامري؟ دارى استياءه وأصغى إليه، دون أن يقاطعه. كان بالاغير يجترح معجزات بلاغية حتى يبدو ما يقوله، بفضل الكلمات الناعمة والنبرة شديدة التهذب، أقل تهوراً. فمع كل ما في العالم من احترام يسمح لنفسه بنصح فخامته بأن يعيد النظر بقرار ترقية شخص، ولمزاياه الاستثنائية فوق ذلك، مثل الملازم فيكتور اليثينيو بينيا ريفيرا. فسجله سلبي جداً، يغص بممارسات مستنكرة - ربما دون وجه حق - وهذه الترقية سيستخدمها الأعداء، وخصوصاً في الولايات المتحدة، على أنها مكافأة لمقتل الأخوات مينيرفا وباتريا وماريا تيريسا ميرابال. وبالرغم من أن العدالة قد أقرت بأن الأخوات الثلاث وسائقهن قد ماتوا في حادث سير، إلا أنهم يعرضون القضية في الخارج على أنها اغتيال سياسي، نفذه

الملازم بينيا ريفيرا، قائد الاستخبارات العسكرية في مدينة سانتياغو لدى وقوع المأساة. ويسمح الرئيس لنفسه بالتذكير بالفضيحة التي أثارها الأعداء عندما أصدر، بناء على أوامر فخامته، في السابع من شباط من السنة الحالية، مرسوماً رئاسياً تم التنازل فيه للملازم بينيا ريفيرا عن مزرعة مساحتها أربعة هكتارات وبيت صادرتهما الدولة من باتريا ميرابال وزوجها لنشاطاتهما التآمرية. وتلك الضجة لم تهدأ بعد. فاللجان المشكلة في الولايات المتحدة ما زالت تثير اضطرابات واسعة وهي تعرض منح أراضي باتريا ميرابال وبيتها للملازم بينيا ريفيرا على أنه ثمن الجريمة. ويحث الدكتور بالاغير فخامته على ألا يعطي ذريعة جديدة للأعداء ليرددوا أنه يتبنى القتلة والجلادين. مع أن فخامته يتذكر دون شك، ويسمح الدكتور بالاغير لنفسه بالإشارة، إلى أن اسم معاون الكولونيل أبيس غارسيا، لم يرتبط في حملات المنفيين الافترائية بشأن موت الأخوات ميرابال وحسب، وإنما كذلك بحادث موت ماريرو آريستي وباختفاءات مزعومة أخرى. وفي هذه الظروف، يبدو من التهور مكافأة الملازم بهذه الطريقة العلنية. لماذا لا يتم ذلك بطريقة متكتمة، بمكافأة مالية، أو بمنصب دبلوماسي في بلد بعيد؟

وعندما صمت، فرك يديه من جديد. كان يرمش بقلق، مستشفاً أن حججه الدقيقة لن تنفع، وخائفاً من التوبيخ. كبح تروخييو الغضب الذي يتأجج في داخله، وقال ببرود:

- أنت محظوظ أيها الرئيس بالاغير لأنك تهتم بأفضل ما في السياسة: القوانين، الاصلاحات، المفاوضات الدبلوماسية، والتحولات الاجتماعية. هكذا مارستَ السياسة طوال إحدى وثلاثين سنة. لقد كان من نصيبك الجانب اللطيف والمبهج من الحكم. إنني أحسدك! كم كان يسعدني أن أكون رجل دولة، مصلحاً وحسب. ولكن للحكم وجهه القذر، ومن دونه سيكون مستحيلاً عمل ما تفعله حضرتك. ماذا عن حفظ النظام؟ والهدوء؟ والأمن؟ لقد حاولتُ أن أبعدك عن الاهتمام بهذه الأمور غير المستحبة. ولكن، لا تقل لي إنكَ لا تعرف كيف يتم التوصل إلى الأمن. بكم من التضحيات وكم من الدماء. عليك أن تشكرني لأني أسمحُ لك بالنظر إلى الجانب الآخر، والانهماك في الأمور الطيبة، بينما أنا، وأبيس غارسيا، والملازم بينيا ريفيرا وآخرون نحافظ على الهدوء في البلاد، لكي تتمكن أنت من كتابة قصائدك وخطاباتك. إنني واثق من أن ذكاءك الحاد يفهمني تماماً.

هز خواكين بالاغير رأسه موافقاً. وكان شاحباً.

- لن نتكلم أكثر في أمور غير مستحبة - انتهى **الجنراليسمو** - وقع ترقية الملازم بينيا ريفيرا، ولتنشر غداً في الجريدة الرسمية، وابعث إليه تهنئة بخط يدك.

- هذا ما سأفعله يا صاحب الفخامة.

وضع تروخييو يده على وجهه لأنه ظن بأن تثاؤباً سيفاجئه. ولكنه كان شعوراً زائفاً. في هذه الليلة، وبينما هو يستنشق من خلال نوافذ بيت كاَويا المفتوحة عبير الأشجار والنباتات، ويتأمل آلاف النجوم في السماء السوداء كالفحم، سيداعب جسد صبية عارية، حانية، خائفة بعض الشيء، وسيفعل ذلك بتأنق بيترونيو، **فيصل الأناقة**، وسيشعر بتنامي التهيج بين ساقيه، بينما هو يرشف الرحيق الدافئ من عضوها. سيتوصل إلى انتصاب طويل وصلب، مثل تلك التي كان يتوصل إليها في الزمن الغابر. وسيجعل الصبية تئن وتستمتع، وسيستمتع هو أيضاً، وهكذا سيمحو الذكرى الخبيثة التي خلفتها لديه تلك العجفاء البليدة.

- لقد راجعتُ قائمة المعتقلين الذين ستُفرج الحكومة عنهم.- قال بنبرة أكثر حيادية- باستثناء ذلك الأستاذ من مونتيكريستي، المدعو هومبرتو ميلينديث، ليس لدي اي اعتراض. تصرف. ادعُ أسرهم إلى القصر الوطني، يوم الخميس بعد الظهر. وليجتمعوا هناك مع المفرج عنهم.

- سأبدأ بالإجراءات فوراً يا صاحب الفخامة.

نهض **الجنراليسمو** واقفاً وأشار إلى الرئيس الألعوبة الذي أراد محاكاته، بأن يبقى جالساً. فهو لن يغادر. وإنما يريد تحريك ساقيه المنملتين. مشى عدة خطوات قبالة المكتب محدثاً نفسه:

- هل سيهدئ هذا العفو الجديد عن المعتقلين من غضب اليانكيين علينا. أشك في ذلك. فالقنصل الأمريكي هنري ديابورن مازال يشجع المؤامرات. هناك مؤامرة أخرى على الطريق كما يقول أبيس. حتى أن خوان توماس ديات مشارك فيها.

الصمت الذي سمعه وراء ظهره - لقد سمعه، مثل حضور ثقيل ولزج - فاجأه. التفت في الحال لينظر إلى الرئيس الدمية: إنه هناك، دون حراك، يتأمله بملامح ورعة. لم يطمئن. فهذه الحاسة الاستشفافية لم تخذله أبداً. أيمكن لهذا الكائن البشري المكروسكوبي، لهذا القزم، أن يعرف شيئاً؟

- هل سمعتَ عن هذه المؤامرة الجديدة؟

رآه ينفي بحركة نشطة من رأسه.

- لو كنتُ أعرفُ شيئاً لقدمت تقريراً فورياً عنه إلى أبيس غارسيا يا صاحب الفخامة. مثلما فعلتُ على الدوام كلما بلغتني أية إشاعات انقلابية.

خطا خطوتين أو ثلاث خطوات أخرى أمام المكتب، دون أن ينطق بكلمة. غير ممكن، فإذا كان هناك بين كل رجال النظام من هو عاجز عن رؤية نفسه متورطاً في مؤامرة، فإنه الرئيس الحذر. لأنه يعرف بأنه لا وجود له دون تروخييو، وأن المنعم هو النسغ الذي يمده بالحياة، وأنه من دونه سيذبل في السياسة إلى الأبد.

توقف أمام إحدى النافذتين الكبيرتين. وتأمل البحر طويلاً بصمت. كانت الغيوم قد حجبت الشمس، وكانت سماكة السماء والهواء ملونة بلون فضي؛ والمياه الزرقاء القاتمة تنعكس مفتتة. كان هناك زورق يمخر الخليج، باتجاه مصب نهر أوزاما؛ إنه زورق صيد، أنهى عمل اليوم وهو راجع ليرسو. إنه يخلف وراءه أثراً من الزبد، ومع أنه لا يستطيع من هذه المسافة رؤية النوارس، إلا أنه تخيلها تزعق وتضرب بأجنحتها دون توقف. استبق بسعادة مسيرة الساعة والنصف التي يمشيها يومياً، بعد أن يسلم على أمه، عبر شارع مكسيمو غومث والجادة، مستنشقاً هواء البحر المالح، تهدهد له الأمواج. ولن ينسى أن يشد أذن قائد القوات المسلحة بسبب أنبوب الصرف المكسور عند بوابة القاعدة الجوية. وليجعل بوبو رومان يدس أنفه في ذلك المستنقع النتن، لعله بعد ذلك لا يجد نفسه مطلقاً أمام مشهد بمثل تلك القذارة أمام إحدى الحاميات.

خرج من مكتب الرئيس خواكين بالاغير دون كلمة وداع.

الفصل الخامس عشر

- إذا كنا نحن معاً على هذه الحال، فكيف سيكون حال فيفي باستوريثا، وهو هناك وحيد. - قال هواسكار تيخيدا وهو يستند إلى مقود الأولدزموبيل 98 الثقيلة السوداء ذات الأربعة أبواب، المتوقفة عند الكيلومتر سبعة على طريق سان كريستوبال.

- أي براز نفعله هنا. - قال بيدرو ليفيو ثيدينيو بغضب - إنها العاشرة إلا ربعاً. لن يأتي!

ضغط على البندقية نصف الأوتوماتيكية M-1 التي يضعها على ساقيه وكأنه يريد سحقها. كان بيدرو ليفيو ميالاً إلى الغضب، وقد أدى به سوء طبعه إلى إفساد مسيرته العسكرية التي طرد منها وهو برتبة نقيب. عندما حدث ذلك كان قد أدرك أنه لن يتقدم في سلّم الترقيات مطلقاً بسبب حالات الهياج التي يجود بها طبعه. خرج من الجيش محزوناً. فقد تخرج بدرجة امتياز من الأكاديمية العسكرية الأمريكية التي درس فيها. ولكن هذا المزاج الذي يدفعه إلى التأجج عندما يدعوه أحدهم بالزنجي ويبدأ بتوجيه اللكمات لأتفه الأسباب، أوقف ترفيعه في الجيش، على الرغم من صحيفة خدمته الممتازة. طردوه من الخدمة لأنه أشهر مسدسه في وجه جنرال وبخه بسبب مبالغته في التعامل بزمالة مع جنود الفرقة على الرغم من كونه ضابطاً. ولكن من يعرفونه، مثل رفيقه في الانتظار، المهندس هواسكار تيخيدا بيمينتيل، يعرفون أنه وراء هذا العنف الخارجي، يخبئ رجلاً طيب المشاعر، قادراً - وقد رأى زميله ذلك - على البكاء لمقتل الأخوات ميرابال، اللواتي لم يكن يعرفهن.

حاول هواسكار تيخيدا أن يمازحه:

- الانتظار قاتل أيضاً أيها الزنجي.

- زنجية هي العاهرة التي أنجبتك.

حاول تيخيدا بيمينتيل أن يضحك، ولكن رد فعل رفيقه المحتد أحزنه. ليس هناك من علاج لبيدرو ليفيو.

- اعذرني.- سمعه يعتذر بعد لحظة- أعصابي محطمة بسبب هذا الانتظار اللعين.

- إننا في الوضع نفسه أيها الزنجي. يا للعنة، ها أنا أقول لك زنجي من جديد. هل ستشتم أمي مرة أخرى؟

- هذه المرة لا.- وانتهى الأمر ببيدرو ليفيو إلى الضحك.

- لماذا تغضب من كلمة زنجي؟ إننا نقول لك ذلك بمحبة يا رجل.

- أعرف يا هواسكار. ولكن عندما كان الضباط وتلاميذ الضباط في الأكاديمية في الولايات المتحدة يقولون لي nigger، لم يكونوا يقولونها تحبباً، وإنما بعنصرية. وكان لا بد من إجبارهم بالقوة على احترامي.

تمر بعض السيارات على الطريق متوجهة إلى الغرب، إلى سان كريستوبال، أو إلى الشرق، نحو مدينة تروخييو، ولكن ليس بينها الشفروليه بيلآير التي يستخدمها تروخييو، تتبعها الشفروليه بيسكاين التي يملكها أنطونيو دي لاماثا. لقد كانت التعليمات بسيطة: ما أن تريا السيارتين قادمتين، وتتعرفان عليهما من الإشارة التي سيوجهها طوني إمبرت - الإشارة هي إطفاء وإشعال المصابيح ثلاث مرات - حتى تتقدمان بالأولدزموبيل الثقيلة السوداء لقطع الطريق على التيس. ويباشران، هو ببندقيته نصف الأوتوماتيكية M-1 التي أعطاه أنطونيو من أجلها عدة طلقات خاصة، وهواسكار بمسدسه السميث آند ويزن 9 ملمتر موديل 39 المحشو بتسع رصاصات، بإطلاق رصاص غزير من الأمام مثلما سيفعل من الخلف إمبرت وآماديتو وأنطونيو والتوركو. لن يتمكن من تجاوزهما؛ ولكن إذا ما تجاوزهما، فهناك على مسافة كيلومترين إلى الغرب، ينتظر فيفي باستوريثا وراء مقود سيارة الميركوري التي يملكها إستريا سعد الله، وسينقض عليه مغلقاً أمامه الطريق مرة أخرى.

- هل تعرف زوجتك بأمر عملية الليلة يا بيدرو ليفيو؟ - سأله هواسكار.

- إنها تظن أني أشاهد فيلماً في بيت خوان توماس دياث. إنها حبلى و...

رأى سيارة تمر بسرعة كبيرة تتبعها على بعد عشرة أمتار سيارة أخرى بدت له، في الظلام، أنها الشفروليه بيسكاين التي يملكها أنطونيو دي لاماثا.

- أليسوا هم يا هواسكار؟ - حاول اختراق الظلام.

- هل رأيت إطفاء وإشعال المصابيح؟- صرخ تيخيدا بيمينتيل بانفعال - هل رأيته؟

- لا لم يُعطوا الإشارة. ولكنهم هم.

- ماذا نفعل أيها الزنجي؟

- انطلق، انطلق!

صار قلب بيدرو ليفيو يخفق باحتدام لا يكاد يسمح له بالتكلم. أدار هواسكار الأولدزموبيل دورة كاملة. كانت الأضواء الحمراء للسيارتين تبتعدان أكثر فأكثر، وعما قريب ستختفيان من مجال الرؤية.

- إنهم هم يا هواسكار، لا بد أنهم هم. لماذا لم يُعطونا الإشارة.

كانت الأنوار الحمراء قد اختفت: ولم يعد أمامهما سوى مخروط ضوء مصباحي الأولدزموبيل والليل القاتم: فالغيوم غطت القمر للتو. وفكر بيدرو ليفيو - وبندقيته نصف الأوتوماتيكية مستندة إلى النافذة - بزوجته أولغا. ماذا سيكون رد فعلها عندما تعلم أن زوجها هو أحد من قتلوا تروخييو؟ أولغا ديسبراديل هي زوجته الثانية. وهما متفهمان على أحسن حال، لأن أولغا- على عكس زوجته الأولى التي كانت حياته المنزلية معها جحيماً - تتمتع بصبر لانهائي تجاه انفجارات غضبه، وهي تتجنب أثناء تلك النوبات معارضته أو مناقشته؛ كما أنها تدير البيت بعناية ونظافة تبعث فيه السعادة. لا بد أن مفاجأتها ستكون عظيمة. فهي تظن أنه لا يهتم بالسياسة، على الرغم من صداقته الحميمة في هذه الأزمنة الأخيرة مع أنطونيو دي لاماثا، والجنرال خوان توماس دياث، والمهندس هواسكار تيخيدا، وهم مناهضون بارزون لتروخييو. إلى ما قبل شهور قليلة، كان يعتصم بصمت أبي الهول كلما تكلم أصدقاؤه في السياسة، ولم يكن هناك من يستطيع انتزاع رأيه في شيء. لم يكن يرغب في فقدان منصبه في إدارة مصنع البطاريات الدومينيكاني الذي تملكه عائلة تروخييو. وقد كان وضعه جيداً إلى أن بدأت الأعمال، بسبب العقوبات الاقتصادية، تنقلب رأساً على عقب.

لقد كانت أولغا مطلعة بكل تأكيد على أن بيدرو ليفيو يحقد على النظام. لأن زوجته الأولى، وهي تروخييوية مسعورة وصديقة حميمة للجنراليسمو الذي عينها حاكمة لمقاطعة سان كريستوبال، قد استفادت من ذلك النفوذ لتحصل على حكم قضائي بحرمان بيدرو ليفيو من زيارة ابنته آدانيلا بعد أن أوكلت حضانتها إلى زوجته السابقة. ربما ستفكر أولغا غداً بأنه قد أدخل نفسه في هذه المؤامرة انتقاماً من ذلك الظلم. لا، لم يكن ذاك هو سبب وجوده هنا، حاملاً بندقيته نصف الوتوماتيكية M-1 الجاهزة، وراكضاً في أثر تروخييو. فالسبب - وأولغا لن تفهم ذلك - هو اغتيال الأخوات ميرابال.

- أليس هذا صوت إطلاق نار يا بيدرو ليفيو؟

- بلى، بلى. إنهم هم، ياللعنة! أسرع يا هواسكار.

أذناه تستطيعان تمييز أصوات الرصاص. فتلك التي سمعاها تمزق سكون الليل، هي عدة رشقات - إنها أصوات بندقيتي أنطونيو وآماديتو، ومسدس التوركو، وربما مسدس إمبرت أيضاً - شيء ملأ بالحماس معنوياته التي أضناها الانتظار. كانت الأولدزموبيل تطير الآن على الشارع. أخرج بيدرو ليفيو رأسه من النافذة، ولم يتمكن من رؤية شفروليه التيس ولا مطارديه. ولكنه تعرّف في أحد منعطفات الطريق بالمقابل على سيارة إستريا سعد الله الميركوري، وبعد ثانية من ذلك، تعرّف أيضاً على وجه فيفي باستوريثا الضامر الذي كشفته مصابيح الأولدزموبيل.

- لقد تجاوزوا فيفي أيضاً - قال هواسكار تيخيدا - لقد نسوا الإشارة مرة أخرى. يالهم من حمقى!

على بعد أقل من مئة متر من ذلك ظهرت شفروليه تروخييو. متوقفة على الجهة اليمنى من الطريق، ومصابيحها مضاءة. «ها هو هناك!»، «إنه هو!» صرخ بيدرو ليفيو وهواسكار في اللحظة التي دوت فيها أصوات رصاص مسدس، وبندقية، ورشاش. أطفأ هواسكار الأنوار، وأوقف السيارة فجأة على بعد أقل من عشرة أمتار من الشفروليه. بيدرو ليفيو الذي كان يفتح باب الأولدزموبيل، اندفع بقوة إلى الشارع قبل أن يطلق النار. أحس بأن جسده كله قد أصيب بكشوط ورضوض، وتمكن من سماع صرخة ابتهاج يطلقها أنطونيو دي لاماثا- «لن يأكل هذا النذل مزيداً من الفراخ» أو شيئاً من هذا القبيل -، وسمع أصوات وصرخات التوركو، وتوني إمبرت، وآماديتو، فانطلق يعدو نحوهم دون وعي، ولكنه ما أن نهض، وخطا خطوتين أو ثلاثاً حتى سمع صوت طلقات جديدة، قريبة جداً. أوقفته حرقة مفاجئة وأوقعته أرضاً وهو يشد على أعلى معدته.

- لا تطلقوا النار، يا للعنة، إننا نحن. - صرخ هواسكار تيخيدا.

- إنني جريح. - أنَّ، ثم قال متلهفاً بصوت يخرج من حلقه: هل مات التيس؟

- لقد شبع موتاً أيها الزنجي.- قال هواسكار تيخيدا بجانبه:- انظر إليه!

أحس بيدرو ليفيو بأن قواه تفارقه. كان جالساً على الطريق المرصوف، بين طلقات فارغة وشظايا زجاج. سمع هواسكار تيخيدا يقول إنه سيذهب لإحضار فيفي باستوريثا، وأحس بانطلاق الأولدزموبيل. كان يشعر بابتهاج أصدقائه وصراخهم، ولكنه كان يحس بالدوار، وبالعجز عن مشاركتهم الحوار؛ ولا يكاد يفهم ما يقولونه، لأن كل اهتمامه كان منصباً الآن على الحريق الذي في معدته.

هناك حرقة في ذراعه أيضاً. هل تلقى رصاصتين؟ رجعت الأولدزموبيل. تعرَّف على صرخات فيفي باستوريثا: «يا للهول، يا للهول، الله كبير، يا للهول».

- فلنحشره في صندوق السيارة. - أمرهم أنطونيو دي لاماثا الذي يتكلم بهدوء كبير - يجب أن نأخذ الجثة إلى بوبو، لكي يبدأ بوضع الخطة موضع التنفيذ.

إنه يحس بأن يده رطبة. هذه المادة اللزجة لا يمكن لها إلا أن تكون دماً. أهو دمه أم دم التيس؟ الإسفلت مبلل. وبما أن المطر لم يهطل، فلا بد أنه دم أيضاً. مرّ أحدهم بيده على كتفه وسأله كيف حالك. كان الصوت محزوناً. تعرَّف فيه على صوت سلفادور استريّا سعد الله.

- أظن أنها رصاصة في المعدة - وبدلاً من الكلمات خرجت منه غرغرات حلقية.

لمح أشباح أصدقائه يحملون حزمة ويلقون بها في صندوق شفروليه أنطونيو. إنه تروخييو، يا للروعة! لقد تمكنوا منه. لم يشعر بالسعادة؛ وإنما أحس بالراحة.

- أين هو السائق؟ ألم يرَ أحدٌ ثاكارياس؟

- إنه ميت أيضاً، هناك في الظلام. - قال طوني إمبرت - لا تضيع الوقت في البحث عنه يا آماديتو. يجب أن نرجع. المهم الآن هو حمل هذه الجثة إلى بوبو رومان.

- بيدرو ليفيو جريح. - صرخ سلفادور إستريّا سعد الله.

كانوا قد أغلقوا صندوق الشفروليه، وفيه الجثة. أشباح بلا وجوه تحيط به، تربت عليه، تسأله كيف حالك يا بيدرو ليفيو. هل سيطلقون عليه رصاصة الرحمة؟ لقد اتفقوا على ذلك بالإجماع. لن يهجروا أحد رفاقهم جريحاً ليقع في أيدي المخبرين ويُخضعه جوني أبيس للتعذيب والإذلال. تذكر تلك المحادثة في الحديقة الممتلئة بأشجار المانجا، والفلامبويان، والثمار في بيت الجنرال خوان توماس دياث وزوجته تشانا، والتي شارك فيها لويس إميامـا تيو أيضاً. لقد اتفقوا جميعهم: رفض الموت البطيء بأي حال. إذا أخفقت العملية وأصيب أحدهم بجرح بليغ، ستكون هناك طلقة رحمة. هل سيموت؟ هل سيُجهزون عليه؟

- احملوه إلى السيارة. - أمر أنطونيو دي لاماثا - وفي بيت خوان توماس سنستدعي له طبيباً.

أشباح أصدقائه منهمكة، إنهم يُبعدون سيارة التيس خارج الطريق. إنه يسمعهم يلهثون. وفيفي باستوريثا يصفر: «لقد تحولت السيارة إلى مصفاة!».

عندما حمله أصدقاؤه ليضعوه في الشفروليه بلآير، اشتد الألم إلى حد فقد

معه الوعي. ولكن لثوان قصيرة فقط، لأنهم كانوا ما يزالون متوقفين عندما استرد وعيه. كان في المقعد الخلفي، وكان سلفادور قد أدخل ذراعه وراء كتفيه وأسنده إلى صدره كوسادة. وتعرَّف وراء المقود على طوني إمبرت، وإلى جانبه أنطونيو دي لاماثا. كيف حالك يا بيدرو ليفيو؟ رغبَ في أن يقول لهم: «إنني أفضل حالاً مع هذا العصفور الميت»، ولكنه أصدر دمدمة وحسب.

- يبدو أن حالة الزنجي سيئة. - غمغم إمبرت.

هذا يعني أن أصدقاءه يدعونه الزنجي عندما لا يكون حاضراً. وما أهمية ذلك. إنهم أصدقاؤه. ولم يخطر ببال أي واحد منهم أن يطلق عليه رصاصة الرحمة. جميعهم رأوا أنه من الطبيعي أن يحملوه إلى السيارة، وهم سيأخذونه الآن إلى بيت تشانا وخوان توماس دياث. الحرقة في المعدة والذراع تضاءلت. إنه يشعر بالضعف ولا يحاول التكلم. ولكنه صاحٍ، يفهم كل ما يقولونه. يبدو أن طوني وأنطونيو والتوركو مصابون بجراح أيضاً، وإن لم تكن جراحاً خطيرة. لقد أحدثت ملامسة الطلقات جراحاً سطحية لأنطونيو وسلفادور، الأول في جبهته، والثاني في رأسه. إنهما يحملان منديلين في يديهما ويمسحان الجراح. أما طوني فقد أصابه غلاف رصاصة فارغة في ثديه الأيسر وهو يقول إن الدم يلوث قميصه وبنطاله.

تعرف على مبنى اليانصيب الوطني. هل اتخذوا طريق سانتشيث القديم لكي يرجعوا إلى المدينة من مكان أقل ارتياداً؟ لا، لم يكن هذا هو السبب. فطوني إمبرت يريد المرور على بيت صديقه خوليتو سينيور الذي يسكن في جادة أنخيليتا، ليتصل من هناك هاتفياً بالجنرال دياث ويُخبره بأنهم يحملون الجثة إلى بوبو رومان وذلك بالجملة المشفرة المتفق عليها: «الفراخ جاهزة لإدخالها الفرن يا خوان توماس». توقفوا أمام بيت مظلم، ونزل طوني. لم يكن هناك أحد في محيط المكان. وسمع بيدور ليفيو كلاماً يقوله أنطونيو: فسيارته الشفروليه المسكينة ثُقبت بعشرات الرصاصات وأحد إطاراتها أُفرغ من الهواء. لقد أحس بيدرو ليفيو بذلك، فقد كانت السيارة تُصدر صريراً مريعاً وقرقعة يتردد صداها في معدته.

رجع إمبرت: ليس هناك أحد في بيت خوليتو سينيور. من الأفضل أن يتوجهوا مباشرة إلى حيث خوان توماس. انطلقوا من جديد، ببطء شديد، فالسيارة تتمايل صاهلة، متجنبة الجادات والشوارع المطروقة.

مال سلفادور نحوه:

- كيف حالك يا بيدرو ليفيو؟

«جيد أيها التوركو، جيد»، وشدّ على ذراعه.

- بقي قليل لنصل إلى حيث خوان توماس، وهناك سيراك طبيب.

كم هو محزن ألا يجد القوة ليقول لأصدقائه ألا يقلقوا، وأنه سعيد لمقتل التيس. لقد ثأروا للشقيقات ميرابال، وللمسكين روفينو دي لاكروث، السائق الذي أخذهن إلى سجن قلعة بويرتو بلاتا لزيارة أزواجهن المعتقلين، والذي أمر تروخييو بقتله أيضاً لكي تكون مهزلة الحادث محتملة أكثر. عملية الاغتيال تلك هزت أعمق أعماق بيدرو ليفيو ودفعته، منذ 25 تشرين الثاني 1960، إلى الإنضمام للمؤامرة التي يدبرها صديقه أنطونيو دي لاماثا. لم يكن يعرف الشقيقات ميرابال إلا من خلال ما سمعه عنهن. ولكن مأساة أولئك الفتيات أذهلته، مثلما حدث لدومينيكانيين كثيرين. إنهم يقتلون الآن نساء مسالمات كذلك، دون أن يفعل أحدٌ شيئاً! هل وصلنا إلى هذا الدرك من المهانة في جمهورية الدومينيكان؟ يا للعنة! لم يعد هناك من لديه خصيات في هذه البلاد! وبينما هو يسمع أنطونيو إمبرت يتكلم بذلك الانفعال - لأنه، هو نفسه، لا يجد القدرة على التعبير عن مشاعره على الدوام - عن مينيرفا ميرابال، انفجر أمام أصدقائه في ذلك البكاء، وهي المرة الوحيدة التي بكى فيها بعد بلوغه سن النضوج. أجل، ما زال هناك رجال بخصيات في جمهورية الدومينيكان. والدليل هو هذه الجثة التي تترجرج في صندوق السيارة.

- إنني أموت. - صرخ - لا تدعوني أموت!

- ها قد وصلنا أيها الزنجي. - هدأه أنطونيو دي لاماثا - الآن سنعالجك.

بذل جهداً للحفاظ على وعيه. وبعد قليل تعرّف على تقاطع شارع مكسيمو غوميث مع جادة بوليفار. وقال إمبرت:

- هل رأيتم هذه السيارة الرسمية. ألم يكن الجنرال رومان؟

- بوبو رومان ينتظر الآن في بيته. - رد أنطونيو دي لاماثا - لقد قال أمياما وخوان توماس إنه لن يخرج هذه الليلة.

بعد قرن من الزمان على ذلك توقفت السيارة. وفهمَ، من خلال حوارات أصدقائه، أنهم عند المدخل الخلفي لبيت الجنرال ديات. كان أحدهم يفتح المزلاج. تمكنوا من الدخول إلى الفناء، والتوقف قبالة الكراج. وعلى ضوء مصابيح الشارع الخافت وأنوار النوافذ، تعرف على الحديقة الملأى بالأشجار

والأزهار التي تعتني بها تشانا جيداً، والتي جاء إليها في أيام آحاد كثيرة، وحيداً أو برفقة أولغا، لحضور ولائم غداء مأكولات كريولية لذيذة يُعدّها الجنرال لأصدقائه. كان يشعر في الوقت نفسه بأنه هو وليس هو، وبأنه ليس سوى مراقب، لا علاقة له بتلك التحركات. في مساء هذا اليوم، عندما عرفَ أن العملية ستتم الليلة، وودّعَ زوجته مختلقاً أنه سيأتي إلى هذا البيت لمشاهدة فيلم سينمائي، دست أولغا بيزو واحداً في جيبه طالبة منه أن يأتيها بمثلجات بطعم الشوكولاتة والفانيليا. مسكينة أولغا! الحمل يجعلها تتوحم. أيمكن أن يؤدي تأثرها إلى إسقاط الجنين؟ لا، رباه. فالوليدة ستكون الأنثى التي تشكل ثنائياً مع ابنه لويس مارينانو ذي السنتين. لقد نزل التوركو وإمبرت وأنطونيو من السيارة. إنه وحيد، ممدد على مقعد الشفروليه، في شبه ظلمة. فكر في أنه لا يمكن لشيء أو لأحد أن ينقذه من الموت، وأنه سيموت دون أن يعرف من كسب مباراة البيسبول التي يلعبها هذه الليلة فريق شركته، شركة بطاريات هيركوليس، مع فريق شركة الطيران الدومينيكانية، على ملعب بيسبول شركة البيرة الوطنية الدومينيكانية.

تعالى جدال عنيف في الفناء. كان إستريّا سعد الله يوبخ فيفي وهواسكار وآماديتو الذين وصلوا للتو في الأولدزموبيل، لأنهم تركوا سيارة التوركو الميركوري على الطريق. «حمقى، أنذال. ألا تدركون ما فعلتموه؟ لقد وشيتم بي! عليكم أن ترجعوا الآن فوراً لإحضار سيارة الميركوري». موقف غريب: إحساسه بأنه موجود وغير موجود. فيفي وهواسكار وآماديتو يهدؤون التوركو: كانوا مذهولين في تعجلهم ولم يتذكر أي واحد منهم الميركوري. ولكن ما أهمية ذلك. فالجنرال رومان سيتولى السلطة هذه الليلة بالذات. ليس هناك ما يخافونه. البلاد ستخرج إلى الشوارع لتهتف بحياة من أعدموا الطاغية.

هل نسوا السيارة؟ وارتفع صوت أنطونيو دي لاماثا المتسلط ليفرض النظام. لن يرجع أحد إلى الطريق العام، لأن المكان سيكون قد امتلأ بالمخبرين. أهم شيء الآن هو العثور على بوبو رومان وعرض الجثة عليه، مثلما كان يطالب. ولكن هناك مشكلة: فقد مرّ خوان توماس دياث ولويس أمياما على بيته للتو - بيدرو ليفيو يعرف ذلك البيت، إنه على الناصية التالية - وقالت لهم زوجته ميريا إن بوبو قد خرج مع الجنرال إسباييّات «لأن شيئاً على ما يبدو قد حدث للزعيم». طمأنهم أنطونيو دي لاماثا: «لا تقلقوا. لقد ذهب لويس أمياما، وخوان توماس، وموديستو دياث للبحث عن بيبين، أخي بوبو. وهو سيساعدنا في معرفة مكانه».

أجل، لقد نسوه. سيموت في هذه السيارة المثقبة، قريباً من جثة تروخييو. داهمته واحدة من نوبات الغضب تلك التي كانت نكبة حياته. ولكنها خمدت على الفور. وأي لعنة سيفيدك الغضب في هذه اللحظة أيها الأبله؟

فتح عينيه قليلاً لأن مصباحاً كشافاً أوْ مصباحاً يدوياً قوياً سُلّط على وجهه. تعرف على وجه صهر خوان توماس ديات، طبيب الأسنان بينبنِيدو غارسيا، وعلى وجه آماديتو، ووجه.. أهو «لينتو»؟ أجل، إنه «لينتو»، الطبيب.. الدكتور مارثيلينو بيليث سانتانا. كانوا ينحنون فوقه، يلمسونه، يرفعون قميصه. سألوه شيئاً لم يفهمه. أراد أن يقول لهم إن الألم قد خف، وأن يستفسر عن عدد ثقوب الرصاص في جسمه. لكن صوته لم يخرج. أبقى عينيه مفتوحتين كي يعرفوا أنه ما يزال حياً.

- يجب أخذه إلى المستشفى. - أكد الدكتور بيليث سانتانا- إنه ينزف.

كانت أسنان الدكتور تصطك وكأنه يكاد يموت برداً. لم يكونا صديقين حميمين إلى حد يجعل «لينتو» يرتعش بهذه الطريقة من أجله. إنه يرتعش لأنه علم بأنهم قد قتلوا الزعيم.

- هناك نزيف داخلي. - وكان صوته يرتعش أيضاً - هناك على الأقل رصاصة بالقرب من القلب. يجب إجراء جراحة فورية له.

إنهم يتناقشون. لم يعد يهمه أن يموت. إنه يشعر بالسعادة على الرغم من كل شيء. الله سيغفر له بكل تأكيد. لأنه سيفارق أولغا ويتركها وحدها ببطنها المنتفخ بحمل ستة شهور، وسيترك كذلك ابنه لويس ماريانيتو. الله يعلم أنه ما كان سيكسب أي شيء خاص من موت تروخييو. بل على العكس؛ فقد كان يتمتع بامتياز، لأنه يدير إحدى شركاته. دخوله في هذه العملية سيعرض للخطر عمله وأمن أسرته. الله يتفهم ذلك وسيغفر له.

أحس بتشنج شديد في بطنه وصرخ. فتوسل إليه هواسكار تيخيدا: «اهدأ، اهدأ أيها الزنجي». رغب في أن يقول له «الزنجية هي أمك»، ولكنه لم يستطع. أخرجوه من الشفروليه. وكان على مقربة منه وجه بينبنيدو - صهر خوان توماس، زوج ابنته ماريانيلا- ووجه الدكتور بيليث سانتانا: ما زالت أسنانه تصطك. وتعرف كذلك على وجه ميريتو، سائق الجنرال خوان توماس، ووجه آماديتو الذي صار يعرج. وبحذر شديد وضعوه في سيارة خوان توماس الأوبل المتوقفة إلى جوار الشفروليه. رأى بيدرو ليفيو الثمر: كان يلمع في سماء خلت الآن من الغيوم، ولكنه بين أشجار المانجا وشجيرات زهرة الثالوث.

- سنذهب إلى المستشفى الدولي يا بيدرو ليفيو.- قال الدكتور بيليث سانتانا - تحمّل، تحمّل قليلاً.

كان اهتمامه يتضاءل أكثر فأكثر بما يجري. إنه في سيارة الأوبل، يقودها السائق ميريتو، وبيّنبنيدو يجلس في المقعد الأمامي، أما في المقعد الخلفي، إلى جانبه، فيجلس الدكتور بيليث سانتانا (لينتو). وكان لينتو يشممه شيئاً له رائحة أثير قوية. «إنها رائحة الكرنفالات.» وكان الطبيب وطبيب الأسنان يشجعانه: «ها قد وصلنا يا بيدرو ليفيو». ولكنه لم يكن يهتم كذلك بما يقولانه، ولا بالمسألة التي تهمهما كثيراً كما يبدو «أين اختفى الجنرال رومان؟». «إذا هو لم يظهر، فكل شيء سينهار.» وبدلاً من أن تتلقى أولغا مثلجات الشوكولاته والفانيليا، ستتلقى خبر أن زوجها يخضع لعملية جراحية في المستشفى الدولي على بعد ثلاث كوادرات من القصر، بعد أن أعدم قاتل الأخوات ميرابال. المسافة قريبة بين بيت خوان توماس والمستشفى. لماذا تأخروا كثيراً في الوصول؟

وأخيراً توقفت الأوبل. ونزل طبيب الأسنان بيّنبنيدو والدكتور بيليث سانتانا. رآهما يطرقان الباب حيث كان يلمع ضوء نيون: «**قسم الإسعاف**». ظهرت ممرضة تضع قلنسوة بيضاء.. ثم ظهرت نقالة. عندما حمله بيّنبنيدو غارسيا وبيليث سانتانا من مقعد السيارة أحس بألم شديد جداً: «إنكم تقتلونني، اللعنة!» رمش بعينيه مبهوراً من بياض الممر. صعدوا به في مصعد. إنه الآن في غرفة نظيفة، معلق فيها رسم للسيدة العذراء. كان بيّنبنيدو وبيليث غارسيا قد اختفيا؛ وقامت ممرضتان بتعريته بينما كان رجل شاب، له شارب رفيع، يربت على وجهه:

- أنا الدكتور خوسيه خواكين بوييو. كيف تشعر؟

- جيد، جيد. - تلعثم سعيداً بخروج صوته - هل حالتي خطرة؟

وقال له الدكتور بوييو:

- سأعطيك شيئاً من أجل الألم. ريثما نجهزك للعملية. يجب انتزاع الرصاصة من العمق.

ومن فوق كتف الطبيب ظهر وجهٌ معروف، له جبهة عريضة وعينان واسعتان نفاذتان: إنه الدكتور أرتورو داميرون ريكارت، مالك ومدير قسم الجراحة في المستشفى الدولي. ولكنه بدلاً من أن يكون باسماً وهادئاً كما هي عادته، لاحظ أنه مضطرب. أيكون بينبنيدو ولينتو قد أخبراه؟

بادر إلى القول له:

- هذه الحقنة لتجهيزك يا بيدرو ليفيو. لا تخف، ستكون على مايرام. هل تريد الاتصال ببيتك؟

- الاتصال بأولغا لا. إنها حامل، لا أريد إخافتها. من الأفضل الاتصال بماري، أخت زوجتي.

صار صوته يخرج بثبات أكثر. أعطاه رقم هاتف ماري ديسبرادل. الحبوب التي جعلوه يبتلعها، والحقنة، وزجاجات مضاد الالتهاب التي أفرغتها الممرضات على ذراعه وبطنه، جعلته أحسن حالاً. لم يعد يشعر بالإغماء. وضع الدكتور داميرون ريكارت سماعة الهاتف في يده. «نعم، نعم؟».

- أنا بيدرو ليفيو يا ماري. إنني في المستشفى الدولي. حادث. لا تخبري أولغا بأي شيء، لا تخيفيها. سيُجرون لي عملية جراحية.

- يا إلهي، يا إلهي! سآتي إليك يا بيدرو ليفيو.

كان الأطباء يفحصونه، يحركونه، وهو لا يشعر بأيديهم. داهمه صفاء عظيم. قال لنفسه إنه مهما كان داميرون ريكارت صديقاً فإنه لا يستطيع الامتناع عن إخبار الاستخبارات العسكرية بوصول رجل مجروح بالرصاص إلى قسم الإسعاف، مثلما هو مفروض على كل المستشفيات والعيادات أن تفعل تحت طائلة ذهاب كل الأطباء والممرضات إلى السجن. ولهذا سيصل رجال الاستخبارات العسكرية عما قريب للقيام بالتحريات. ولكن لا. لا بد أن خوان توماس، وأنطونيو، وسلفادور قد عرضوا الجثة على بوبو، ولا بد أن يكون بوبو رومان قد استنفر الثكنات العسكرية وأعلن عن تشكيل المجلس المدني-العسكري. وربما يكون العسكريون الموالون لبوبو قد بدؤوا في هذه اللحظات باعتقال وتصفية أبيس غارسيا وعصابته من القتلة، وبزج أخوة تروخييو في السجن. ولا بد أن الشعب قد خرج إلى الشوارع، بدعوة من الإذاعات التي ستكون قد أعلنت عن موت الطاغية. لا بد أن المدينة القديمة، وحديقة الاستقلال، وشارع الكونت، ومحيط القصر الوطني تعيش الآن كرنفالاً حقيقياً احتفالاً بالحرية. «كم هو محزن أن يكون المرء على طاولة العمليات بدلاً من أن يشارك في الرقص يا بيدرو ليفيو.»

وعندئذ رأى وجه زوجته الباكي والمذعور: «ما هذا يا حبي، ماذا جرى لك، ماذا فعلوا بك». وبينما هو يعانقها ويقبلها محاولاً تهدئتها («إنه حادث يا حبي، لا تخافي، سيُجرون لي عملية جراحية») تعرف على شقيقي زوجته: ماري ولويس ديسبرادل براتشي. وهذا الأخير طبيب، وكان يوجه أسئلة إلى الدكتور

داميرون ريكارت عن العملية الجراحية. «لماذا فعلت هذا يا بيدرو ليفيو؟». «لكي يعيش أبناؤنا أحراراً يا حبيبتي.» كانت تأكله بالأسئلة دون أن تتوقف عن البكاء. «رباه، الدم يغطي كل جسمك.» وفي إطلاق لسيل انفعالاته المكبوحة، أمسك بذراعي زوجته، وهتف وهو ينظر إلى عينيها:

- إنه ميت يا أولغا! ميت! ميت!

كان ذلك كما في الأفلام، عندما تتجمد الصورة وتخرج من الزمان. راودته رغبة في الضحك وهو يرى ريبة أولغا، وشقيقيها، والممرضات والأطباء الذين ينظرون إليه.

- اصمت يا بيدرو ليفيو.- دمدم الدكتور داميرون ريكارت.

التفت الجميع نحو الباب، لأن جلبة خطوات سُمعت في الممر. أناس يضربون كعوبهم دون أن يولوا اهتماماً للافتات «هدوء» المعلقة على الجدران. فُتح الباب. وعلى الفور تعرف بيدرو ليفيو، بين أشباح العسكريين، على الوجه المترهل، والغبغب المزدوج، والذقن المقسومة والعينين المحاطتين بوجنتين ناتئتين في وجه الكولونيل جوني أبيس غارسيا.

- طابت ليلتكم. - قال هذا وهو ينظر إلى بيدرو، ويتوجه بالكلام إلى الجميع - اخرجوا من فضلكم. من هو الدكتور داميرون ريكارت؟ ابق هنا يا دكتور.

- إنه زوجي. - قالت أولغا باكية وهي تعانق بيدرو ليفيو - أريد أن أبقى معه.

- أخرجوها. - أمر أبيس غارسيا دون أن ينظر إليها.

كان قد دخل مزيدٌ من الرجال إلى الغرفة. مخبرون يحملون المسدسات على خصورهم وعسكريون يحملون رشاشات سان كريستوبال معلقة على أكتافهم. وبينما هو ينظر بعينيه المغمضتين قليلاً، رآهم يقتادون أولغا الباكية خارجاً («لا تؤذوها، إنها حبلى»)، ويُخرجون معها ماري، ورأى شقيق زوجته يتبعهما دون حاجة إلى دفعه بالقوة. كان ينظر إليهم بفضول وبشيء من القرف. تعرف على الجنرال فيلكس هيرميدا والكولونيل فيغيروا كاريون الذي عرفه عندما كان في الجيش، وهو الآن الذراع اليمنى لأبيس غارسيا في جهاز الاستخبارات العسكرية كما يقال.

- كيف حاله؟ - سأل أبيس غارسيا الطبيب بصوت رنان وبطيء.

- حالته خطرة أيها الكولونيل. - ردّ الدكتور داميرون ريكارت - لا بد أن الرصاصة قريبة من القلب، فوق المعدة. لقد أعطيناه أدوية لوقف النزيف والتمكن من إجراء جراحة له.

كثيرون كانوا يحملون في أيديهم سجائر، وقد امتلأت الحجرة بالدخان. يا للرغبة التي يشعر بها في التدخين، في أخذ أنفاس من سجائر سالم المنعنعة ذات الطعم المبردِ، والتي كان يدخنها هوإسكار تيخيدا، وتقدمها إليه على الدوام تشانا ديات في بيتها.

كان فوقه تماماً وجه أبيس غارسيا المترهل، وعيناه بجفونهما المتهدلة، مثل سلحفاة. وسمعه يقول بنعومة:

- ما الذي جرى لك؟

- لا أدري. - وندم على ما قاله، فليس هناك إجابة أشد غباء. ولكن لم يخطر له أي شيء آخر.

- من الذي أطلق عليك هذه الرصاصات؟ - ألح أبيس غارسيا دون أن يهتاج.

بقي بيدرو ليفيو صامتاً. من غير المعقول أنهم لم يفكروا طوال الشهور الماضية، بينما هم يعدّون العدة لإعدام تروخييو، في وضعٍ مثل هذا الذي هو فيه الآن. لم يفكروا في وسيلة، في مهرب للتخلص من الاستجواب. «يا لهم من أغبياء!».

- إنه حادث. - وندم ثانية لاختلاقة مثل هذه الحماقة.

لم يفقد أبيس غارسيا صبره. خيم صمت شائك. أحس بيدرو ليفيو بالنظرات الثقيلة، المعادية، التي يوجهها إليه الرجال المحيطون به. كانت أعقاب السجائر تتوهج عندما يرفعونها إلى أفواههم.

وقال رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية بالنبرة السابقة نفسها:

- حدثني عن هذا الحادث.

- أطلقوا علي النار وأنا خارج من أحد البارات، أطلقوا النار من سيارة. لا أعرف من هم.

- من أي بار كنتَ خارجاً؟

- بار الربيو، في شارع بالو هينكادو، عند حديقة الاستقلال.

وخلال دقائق قليلة تأكد المخبرون من أنه يكذب. وماذا لو أن أصدقاءه، بعدم إنجازهم اتفاق طلقة الرحمة لمن يصاب بجراح، قد قدموا إليه جميلاً بغيضاً؟

- أين الزعيم. - سأل أبيس غارسيا. وكان بعض الانفعال قد تسرب إلى استجوابه.

- لا أعرف.- وبدأت حنجرته تنغلق، وراح يفقد قواه مرة أخرى.

- أهو على قيد الحياة؟ - سأل قائد الاستخبارات العسكرية. ثم كرر: أين هو؟

ومع أنه أحس بالدوار من جديد وبمقدمات غيبوبة أخرى، إلا أن بيدرو ليفيو أدرك أن رئيس الاستخبارات العسكرية يغلي بالقلق تحت مظهره الهادئ. فيده التي يحمل بها السيجارة إلى فمه كانت ترتعش باضطراب، بحثاً عن شفتيه.

- آمل أن يكون في الجحيم، إذا كان هناك من جحيم. - سمع نفسه يقول - لقد بعثنا به إلى هناك.

وجهُ أبيس غارسيا المحتجب قليلاً بالدخان لم يتبدل في هذه المرة أيضاً، ولكنه فتح فمه كما لو أنه يفتقد الهواء. ازداد الصمت حدة. فليفقد قواه، وليغب عن الوعي دفعة واحدة.

- من؟- سأل بنعومة شديدة- من الذي أرسله إلى الجحيم؟

لم يجبه بيدرو ليفيو. كان ينظر إلى عينيه وحدق هو في عينيه أيضاً، متذكراً طفولته في هيغوي، حين كانوا يلعبون في المدرسة من يرمش أولاً. ارتفعت يد الكولونيل، تناولت السيجارة المشتعلة من فمه، ودون أن يبدل ملامحه، أطفأها في وجهه، بالقرب من عينه اليسرى. لم يصرخ بيدرو ليفيو، ولم يئِّن. أطبق جفونه. كان الحرق لاذعاً؛ وانبعثت رائحة لحم محروق. وعندما فتح عينيه، كان أبيس غارسيا ما يزال هناك. لقد بدأ التعذيب.

- إذا لم تُنَفَذ مثل هذه الأعمال بإتقان، فمن الأفضل عدم الإقدام عليها- سمعه يقول - أتعرف من هو ثاكرياس دي لا كروث؟ إنه سائق الزعيم. لقد تحدثتُ معه للتو في مستشفى ماريون. إنه في حالة أسوأ من حالتك. مدروز بالرصاص من رأسه إلى قدميه. ولكنه حي. ها أنت ترى، لم تَضبط معكم. لقد تخوزقتم. ولكنك لن تموت أيضاً. ستعيش، وستروي لي كل ما جرى. من كان معك على الطريق العام؟

كان بيدرو ليفيو يغرق، يطفو، ويمكن له أن يبدأ التقيؤ في اي لحظة. ألم يقل طوني إمبرت وأنطونيو إن ثاكرياس كان ميتاً أيضاً؟ هل يكذب أبيس غارسيا عليه لكي يعترف له بالأسماء؟ يا لهم من حمقى. كان عليهم أن يتأكدوا من أن سائق التيس قد مات أيضاً.

- لقد قال إمبرت إن ثاكرياس قد شبع موتاً.- اعترض بيدرو ليفيو. غريب أن يكون المرء هو نفسه وشخصاً آخر في الوقت نفسه.

انحنى وجه رئيس الاستخبارات العسكرية. يمكنه أن يشعر بأنفاسه المشحونة بالتبغ. عيناه قاتمتان مع حواشٍ صفراء. تمنى لو كانت لديه القوة ليعض هذين الخدين المترهلين. لكي يبصقهما على الأقل.

- إنك مخطئ، فهو جريح فقط. - قال أبيس غارسيا - ومن هو إمبرت؟

- أنطونيو إمبرت.- أوضح هو والجزع يلتهمه - هل خدعني إذن؟ اللعنة، اللعنة.

سمع وقع خطوات، حركة أجساد، والتف الحضور حول سريره. كان الدخان يحجب الوجوه. أحس باختناق، كما لو أنهم يدوسون على صدره.

- ومن كان مع أنطونيو إمبرت. - قال له أبيس غارسيا في أذنه. اقشعر بدنه حين فكر بأنه سيطفئ السيجارة هذه المرة في عينه ويجعله أعور - هل إمبرت هو الآمر؟ أهو من نظم العملية؟

- لا، لا وجود لآمرين. - تلعثم خائفاً ألا تتيح له قواه إكمال الجملة - ولو كان ثمة آمر، فسيكون أنطونيو.

- أنطونيو ماذا؟

- أنطونيو دي لاماثا. - أوضح - لو كان ثمة آمر لكان هو الآمر بالطبع. ولكن لا وجود لقادة.

ساد صمت آخر طويل. هل أعطوه بينتوتال الصوديوم، ولهذا يثرثر بهذا الشكل؟ ولكن المرء يغفو بالبينتوتال، أما هو فصاحٍ، ومتيقظ جداً، لديه رغبة في التكلم، في أن يُخرج من أعماقه هذه الأسرار التي تعض على أحشائه. سيواصل الإجابة عما يسألونه عنه، اللعنة. كانت هناك همسات، وخطوات تنزلق على البلاط. أتراهم يذهبون؟ باب يفتح ويغلق.

- وأين هما إمبرت وأنطونيو دي لاماثا؟ - وأطلق رئيس الاستخبارات العسكرية نفثة من الدخان وبدا لبيدرو ليفيو أنها تدخل في حنجرته وأنفه وتنزل حتى أحشائه.

- إنهما يبحثان عن بوبو، وأين تريدهما أن يكونا. - أيكون لديه من القوة ما يكفي لإكمال الجملة؟ كان ذهول أبيس غارسيا والجنرال فيلكس هيرميدا والكولونيل فيغيروا كاريون كبيراً جداً إلى حد دفعه إلى بذل جهد خارق ليوضح لهم ما لا يفهمونه:- فهو لن يحرك إصبعاً ما لم يرَ جثة التيس.

لقد فتحوا أعينهم بشدة، وكانوا يتفحصونه بارتياب ورعب.

- بوبو رومان؟ - الآن فقد أبيس غارسيا الطمأنينة فعلاً.

- الجنرال رومان فيرنانديث؟ - كرر فيغيروا كاريون.

- قائد القوات المسلحة؟- صرخ الجنرال فيلكس هيرميدا شاحباً.

لم يستغرب بيدرو ليفيو أن تهوي تلك اليد مرة أخرى وتطفئ السيجارة

المشتعلة في فمه. أحس بطعم لاذع، طعم تبغ ورماد في لسانه. لم يجد لديه القوة لبصق تلك البقايا النتنة والحارقة التي تخدش لثته وسقف حلقه.

- لقد غاب عن الوعي أيها الكولونيل.- سمع الدكتور داميرون ريكارت يدمدم - إذا لم نجر له العملية سيموت.

- من سيموت هو أنت إذا لم تنعشه.- ردّ أبيس غارسيا بغضب أصم - أجر له نقل دم، أي شيء، ولكن يجب أن يستيقظ. هذا الشخص يجب أن يتكلم. أنعشه وإلا فإنني سأُفرغ في جسدك كل رصاصات هذا المسدس.

بما أنهم يتكلمون هكذا، فإنه لم يمت. أيكونون قد عثروا على بوبو رومان؟ هل عرضوا عليه الجثة؟ لو أن الثورة بدأت لما كان أبيس غارسيا ولا فيلكس هيرميدا وفيغيروا كاريون يحيطون بسريره. لأنهم سيكونون مسجونين أو ميتين، مثل إخوة تروخييو وأبناء اخوته. حاول دون جدوى أن يطلب منهم أن يفسروا له لماذا ليسوا مسجونين أو ميتين. لم تعد معدته تؤلمه؛ وإنما كان يشعر بحرقة في جفونه وفي فمه، بسبب حروق السجائر. إنهم يحقنونه بإبرة، ويشممونه قطعة قطن لها رائحة منعنعة، مثل سجائر **سالم**. اكتشف وجود زجاجة سيروم إلى جوار سريره. إنه يسمعهم وهم يظنون أنه لا يسمع.

- أيكون صحيحاً؟ - يبدو على فيغيروا كاريون الخوف أكثر من المفاجأة- أيكون وزير القوات المسلحة متورطاً في هذا الأمر؟ مستحيل يا جوني.

وصحح له أبيس غارسيا:

- مفاجئ، غير معقول، لا تفسير له. ولكنه ليس مستحيلاً.

- لماذا؟ ومن أجل أي شيء؟ - رفع الجنرال فيلكس هيرميدا نبرة صوته - إنه مدين للزعيم بكل ما يملك. أظن أن هذا النذل يذكر أسماء لكي يبلبلنا.

تلوى بيدرو ليفيو محاولاً النهوض، لكي يعرفوا أنه ليس غائباً عن الوعي، وليس ميتاً، وأن ما قاله هو الحقيقة.

وقال فيغيروا كاريون:

- لم تعد تفكر يا فيلكس الآن بأنها مجرد مسرحية من **الزعيم** ليعرف من هم الموالون ومن هم غير الموالين.

- لا، لم أعد أظن ذلك. - اعترف الجنرال هيرميدا مغموماً- إذا كان أبناء العاهرة هؤلاء قد قتلوه، فأية أمور ستحدث هنا.

لمس الكولونيل أبيس غارسيا جبهته:

- الآن فهمتُ لماذا دعاني رومان للاجتماع به في القيادة العامة للجيش. إنه متورط في هذا الأمر بالطبع! فهو يريد وضع الأشخاص الذين يثق بهم **الزعيم** تحت قبضته، ليعتقلهم قبل القيام بالانقلاب. لو أنني ذهبت إليه. لكنت الآن ميتاً.

- لا أستطيع تصديق ذلك، اللعنة.- كرر الجنرال فيلكس هيرميدا.

- أرسل دوريات من الاستخبارات العسكرية لإغلاق جسر راداميس.- أمر أبيس غارسيا - وامنع أي شخص من الحكومة، وخصوصاً أقرباء تروخييو، من اجتياز نهر أوزمان أو الاقتراب من ثكنة 18 كانون الأول.

راح الجنرال فيلكس هيرميدا يحدث نفسه مبهوتاً:

- وزير القوات المسلحة الجنرال خوسيه رينيه رومان، زوج ميريا تروخييو. لم أعد أفهم شيئاً، يا للعنة!

فقال له أبيس غارسيا:

- صدق ذلك، طالما لم يُثبت أنه بريء. أسرع لتحذر اخوة الزعيم. وليجتمعوا في **القصر الوطني**. لا تذكر اسم بوبو الآن. قل لهم إن هناك شائعات عن محاولة اغتيال. اذهب طيراناً! كيف حال هذا الشخص؟ هل يمكنني استجوابه؟

- إنه يموت أيها الكولونيل.- أكد الدكتور داميرون ريكارت - واجبي كطبيب...

- واجبك هو أن تخرس، إذا كنت لا تريد أن تُعامل كمتواطئ. - ورأى بيدرو ليفيو مرة أخرى، وجه رئيس الاستخبارات العسكرية قريباً منه جداً. وفكر: «أنا لا أحتضر. لقد كذب عليه الطبيب حتى لا يواصل إطفاء السجائر في وجهي.»

- الجنرال رومان هو من أمر بقتل **الزعيم**، - وأحس مرة أخرى بأنفاس الكولونيل اللاذعة في أنفه وفمه. - هل هذا صحيح؟

وسمع بيدرو ليفيو نفسه يصرخ:

- إنهم يبحثون عنه ليعرضوا عليه الجثة. إنه هكذا: يريد أن يرى لكي يصدق. وكذلك الحقيبة.

استنفده الجهد الذي بذله. خشي أن يكون المخبرون منهمكين في هذه اللحظة بالذات بإطفاء السجائر في وجه أولغا. مسكينة، يا للأسف. ستفقد الجنين، وستلعن اللحظة التي تزوجت فيها من النقيب السابق بيدرو ليفيو ثيدينيو.

- أية حقيبة؟ - سأل رئيس الاستخبارات العسكرية.

- حقيبة تروخييو. - ردّ في الحال، ناطقاً بصورة جيدة - حقيبة يغطيها الدم من الخارج وممتلئة بالبيزوات والدولارات في الداخل.

- وعليها الحروف الأولى من اسمه؟ - ألح الكولونيل - الحروف الأولى ر. ل. ت. م. من المعدن؟

لم يستطع الرد، كانت الذاكرة تخونه. لقد وجدها طوني وأنطونيو في السيارة، فتحوها وقالوا إنها مملوءة بالبيزوات الدومينيكانية والدولارات. آلاف الآلاف. لاحظ غمّ رئيس الاستخبارات العسكرية. آه، يا ابن العاهرة، الحقيبة أقنعتك بأن الأمر صحيح، وبأنهم قد قتلوه.

- من يشارك في هذا الأمر أيضاً؟ - سأل أبيس غارسيا - أعطني أسماء. لكي تنزل إلى غرفة العمليات ويُخرجون الرصاصة منك. من أيضاً؟

- هل عثروا على بوبو؟- سأل هو منفعلاً، ومتلعثماً- هل أروه الجثة؟ وهل وجدوا بالاغير أيضاً؟

وتراخى فك الكولونيل أبيس غارسيا مرة أخرى. إنه يراه، فمه مفتوح من المفاجأة والتوجس. وأحس بأنه يكسب عليه الجولة بطريقة ما.

- بالاغير؟- تهجى الكلمة حرفاً حرفاً- رئيس الجمهورية؟

وأوضح بيدرو ليفيو وهو يصارع الغثيان:

- سيكون عضواً في المجلس المدني-العسكري. أنا كنت ضد ذلك. يقولون إنه ضروري من أجل طمأنة منظمة الدول الأمريكية.

لم يتح له الغثيان هذه المرة فرصة لإمالة رأسه والتقيوء خارج السرير. شيء دافئ ولزج سال على عنقه ولوث صدره. ورأى رئيسَ الاستخبارات العسكرية يبتعد مشمئزاً. كان يشعر بمغص حاد وببرودة في عظامه. لم يعد باستطاعته الكلام. وبعد لحظة كان وجه الكولونيل مرة أخرى فوقه، مشوهاً بالجزع. كان ينظر إليه وكأنه يريد أن يثقب جمجمته لكي يستقصي كل الحقيقة.

- خواكين بالاغير أيضاً؟

لم يستطع مقاومة نظرته إلا لثوان قصيرة. أغمض عينيه، يريد أن ينام. أو أن يموت، ليس مهماً. وسمع مرتين أو ثلاث مرات السؤال: «بالاغير؟ بالاغير أيضاً». لم يرد ولم يفتح عينيه. ولم يفعل ذلك أيضاً عندما جعله الحرق في صوان أذنه اليمنى ينكمش. لقد أطفأ الكولونيل السيجارة وهو الآن يدورها ويسحقها في صوان أذنه. لم يصرخ، لم يتحرك. هكذا انتهى بك الأمر يا بيدرو ليفيو، متحولاً إلى

منفضة سجائر لرئيس الاستخبارات العسكرية، يا للعنة. التيس قد مات. نم أنت. مت. ومن أعماق الهوة التي يسقط فيها، بقي يسمع أبيس غارسيا: «لا بد لمتدين مثل بالاغير من أن يكون متآمراً مع القسس. إنها مؤامرة من رجال الدين، بدعم من الغرينغيين». كانت هناك فترات صمت طويلة، تقطعها الدمدمات، وفي بعض الأحيان أيضاً توسلات الدكتور داميرون ريكارت: إذا لم يعالجوا المصاب، فسوف يموت. وكان بيدرو ليفيو يفكر: «ولكن ما أريده هو الموت».

ركضٌ، خطوات متعجلة، صفقة باب. لقد امتلأت الغرفة من جديد، وبين القادمين الجدد، كان هناك الكولونيل فيغيروا كاريون ثانية:

- لقد عثرنا على جسر أسنان إصطناعية على الطريق، بالقرب من شفروليه فخامته. طبيب أسنانه يفحصه الآن، الدكتور فيرناندو كامينو ثيرتيرو. لقد أيقظته بنفسي. سيقدم لنا تقريره خلال نصف ساعة. لقد بدا له للوهلة الأولى أنه جسر أسنان الزعيم.

كان صوته كئيباً. وكذلك الصمت الذي يستمع به الآخرون.

- ألم تجدوا شيئاً آخر؟- يتكلم أبيس غارسيا وهو يعض على ما ينطق به.

فقال فيغيروا كاريون:

- مسدس أوتوماتيكي، عيار 45. سيحتاج التعرف على سجله بضع ساعات. وهناك سيارة مهجورة على بعد حوالى مئتي متر من موقع العملية. إنها من نوع ميركوري.

وقال بيدرو ليفيو لنفسه إن سلفادور كان مصيباً عندما غضب من فيفي باستوريثا لأنه ترك الميركوري على الطريق. سيحددون من هو المالك وبعد قليل سيكون المخبرون قد بدؤوا بإطفاء السجائر في جسد التوركو.

- هل اعترفَ بشيء آخر؟

فصفر أبيس غارسيا:

- بالاغير، لا أقل. هل تلاحظ؟ قائد القوات المسلحة ورئيس الجمهورية. وتكلم عن مجلس مدني-عسكري، يشركون فيه بالاغير من أجل طمأنة منظمة الدول الأمريكية.

وأطلق الكولونيل فيغيروا كاريون «اللعنة!» مرة أخرى.

-إنها خدعة، من أجل حرف اهتمامنا. ذِكر أسماء شخصيات مهمة، وتوريط الجميع.

فقال الكولونيل أبيس غارسيا:

- قد تكون كذلك، سنرى. ولكن هناك شيئاً مؤكداً. ثمة أناس كثيرون متورطون في هذه العملية، خونة على مستوى عالٍ. والقسس بالطبع. يجب إخراج المطران ريللي من مدرسة سانتو دومنغو. بالحسنى أو بالإكراه.

- هل نأخذه إلى «الأربعين»؟

- سيذهبون هناك للبحث عنه. من الأفضل أخذه إلى قاعدة سان إيسيدرو. ولكن انتظر، الأمر حساس، لا بد من التشاور بشأنه مع أخوة الزعيم. إذا كان هناك شخص لا يمكن له أن يكون متورطاً في المؤامرة، فهو الجنرال فيرخيليو غارسيا تروخييو. اذهب وأخبره، شخصياً.

أحس بيدرو ليفيو بخطوات الكولونيل فيغيروا كاريون تبتعد. أتراه بقي وحيداً مع رئيس الاستخبارات العسكرية؟ هل سيطفئ مزيداً من السجائر في جسده؟ ولكن ليس هذا هو ما يعذبه الآن. وإنما إدراكه أن الأمور، وعلى الرغم من قتلهم الزعيم، لم تجر مثلما هو مخطط لها. لماذا لم يتسلم بوبو السلطة مع جنوده؟ وما الذي يفعله أبيس غارسيا مطلقاً الأوامر بأن يعتقل المخبرون المطران ريللي؟ أما زال هذا المسخ الدموي يصدر الأوامر؟ إنه فوقه طوال الوقت؛ صحيح أنه لا يراه، ولكن ها هي ذي تلك الأنفاس المشحونة التي يتلقاها أنفه وفمه. وسمعه يقول:

- بضعة أسماء أخرى وأتركك تستريح.

- إنه لا يسمعك ولا يراك أيها الكولونيل.- توسل إليه الدكتور داميرون ريكارت - لقد دخل في غيبوبة.

فقال له أبيس غارسيا:

- أجرِ له العملية إذن. أريده حياً، اسمع ذلك جيداً. فحياة هذا الشخص مقابل حياتك.

سمع بيدرو ليفيو الطبيب يتنهد قائلاً:

- لا يمكنك انتزاع كل هذه الحيوات مني. فليس لي سوى حياة واحدة أيها الكولونيل.

الفصل السادس عشر

- مانويل ألفونسو؟- ترفع العمة آديلينا يدها إلى أذنها، كما لو أنها لم تسمع، ولكن أورانيا تعرف أن العجوز تتمتع بحاسة سمع ممتازة وأنها تستتر، ريثما تستفيق من المفاجأة. وكذلك لوثيندا ومانوليتا تنظران إليها بعيون مفتوحة. وماريانيتا وحدها هي التي لا يبدو عليها التأثر.

- أجل، هو نفسه، مانويل ألفونسو. - تكرر أورانيا - له اسم أحد الفاتحين الإسبان. ألم تتعرفي عليه أيتها العمة؟

- رأيتُه في إحدى المرات.- تؤكد العجوز مذهولة وغاضبة - وما علاقته بالفظائع التي قلتِها عن أغوسطين؟

وتتذكر مانوليتا:

- لقد كان **البلاي بوي** الذي يؤمن النساء لتروخييو. أليس كذلك يا أماه؟

«**بلاي بوي، بلاي بوي**» يصرخ شمشون. ولكن ابنة الأخت الطويلة والنحيلة وحدها هي التي تضحك هذه المرة.

- لقد كان شاباً وسيماً، أشبه بأدونيس.- تقول أورانيا- ولكن ذلك قبل السرطان.

كان أكثر الدومينيكانيين وسامة بين أبناء جيله، ولكن نصف الإله ذاك الذي تجبر أناقته ووسامته الفتيات على الالتفات إليه، كان قد تحول، خلال الأسابيع أو ربما الشهور التي لم يره فيها أغوسطين كابرال، إلى شبحٍ لما كان عليه. لم يصدق السيناتور عينيه. لا بد أنه قد فقد عشرة أو خمسة عشر كيلوغراماً من وزنه؛ فهو نحيل، أعجف، تحيط دائرتان زرقاوان عميقتان بعينيه اللتين كانتا على الدوام متكبرتين وباسمتين - نظرة مستمتع بالحياة وابتسامة ظافر - وهما الآن خاليتان من الحياة. كان السيناتور قد سمع عن الورم الصغير تحت اللسان الذي اكتشفه بالمصادفة طبيب الأسنان عندما ذهب مانويل، وهو ما يزال سفيراً في واشنطن، لإجراء عملية التنظيف

السنوية لأسنانه. لقد تأثر تروخييو، كما يقال، بالخبر وكأنهم قد اكتشفوا ورماً في أحد أبنائه، وبقي مرابطاً قرب الهاتف بينما كانوا يُجرون له العملية الجراحية في «مايو كلينك» في الولايات المتحدة.

- ألف معذرة لمجيئي لإزعاج القادم الجديد يا مانويل - نهض كابرال واقفاً حين رآه يدخل الصالون الذي ينتظره فيه.

- عزيزي أغوسطين، يا للسعادة. - عانقه مانويل ألفونسو - هل تفهمني؟ لقد اضطروا إلى انتزاع قطعة من لساني. ولكن مع قليل من العلاج سأتمكن من التكلم بصورة طبيعية. هل تتمكن من فهمي؟

- أفهمك تماماً يا مانويل. لا ألاحظ شيئاً غريباً في صوتك، أؤكد لك.

لم يكن ما يقوله صحيحاً. فالسفير يتكلم كما لو أنه يمضغ أحجاراً، أو أن في فمه شكيمة، أو كأنه متلعثم. وكان يبدو في تكشيرات وجهه الجهد الذي يتكلفه للنطق بكل جملة.

- تفضل بالجلوس يا أغوسطين. أتريد قهوة؟ أم كأساً من الخمر؟

- لا شيء، شكراً. لن آخذ كثيراً من وقتك. وأطلب منك المعذرة مرة أخرى لأني أزعجتك وأنت ناقه من عملية جراحية. إنني في وضع صعب يا مانويل.

صمت خجلاً. ووضع مانويل ألفونسو يداً صديقة على ركبته.

- أتصور ذلك يا **مخيخ**. القرية الصغيرة جحيم كبير: لقد وصلتني الأقاويل إلى الولايات المتحدة. علمت أنك قد عُزلت من رئاسة مجلس الشيوخ وأنهم يحققون في إدارتك في الوزارة.

لقد جعل المرض والمعاناة وجه إله الجمال الدومينيكاني يبدو كأنه قد كبر عدة سنوات. ذلك الوجه ذو الأسنان الدقيقة والناصعة الذي لفت انتباه **الجنراليسمو** تروخييو في زيارته الأولى إلى الولايات المتحدة، وبفضله حدث تحول مفاجئ في حياة مانويل ألفونسو مثل ذاك الذي أصاب «بياض الثلج» عندما لمستها العصا السحرية. ولكنه ما يزال رجلاً أنيقاً، يرتدي ملابسه مثل عارض الأزياء الذي كانه في شبابه وهو مهاجر دومينيكاني في نيويورك: خف من جلد الغزال، بنطال من القطيفة الرقيقة بلون القشدة، قميص حرير إيطالي ومنديل مبهرج حول العنق. وفي إصبعه الخنصر يلمع خاتم من الذهب. وكان حليقاً، معطراً، مسرحاً بعناية.

- كم أنا شاكر لك لأنك استقبلتني يا مانويل- استعاد أغوسطين كابرال

رصانته: فقد كان يزدري على الدوام الرجال الذين يرثون لحالهم مستثيرين الشفقة- أنت الوحيد الذي استقبلني. لقد صرتُ موبوءاً. لا أحد يريد مقابلتي.

- أنا لا أنسى الخدمات التي أتلقاها يا أغوسطين. وقد كنتَ كريماً معي على الدوام، ودعمتَ في مجلس الشيوخ كل تعييناتي. لقد قدمتَ لي ألف جميل. سأفعل ما أستطيعه. ما هي التهم الموجهة ضدك؟

- لا أعرف يا مانويل. لو كنت أعرف لاستطعت الدفاع عن نفسي. لم يقل أحد حتى ما هو الخطأ الذي ارتكبته.

- أجل، كثيراً، جميعنا كانت قلوبنا تخفق عندما يقترب.- تعترف العمة آديلينا بجزع - ولكن أي علاقة يمكن أن تكون بينه وبين ما قلتِه عن أغوسطين.

جف حلق أورانيا وشربت رشفات من الماء. لماذا تصرين على الحديث في هذا الأمر؟ لماذا؟

- لأن مانويل ألفونسو كان الوحيد بين أصدقائه الذي حاول مساعدة أبي. وأنتِ لا تعرفين ذلك يا عمتي. ولا أنتما يا ابنتي عمتي.

الثلاث ينظرن إليها وكأنهن يعتقدن أنها مختلة بعض الشيء.

- لا، لم أكن أعرف ذلك. - تدمدم العمة آديلينا - هل حاول مساعدته عندما وقع في المحنة؟ أأنت متأكدة؟

- متأكدة تماماً مثلما أنا متأكدة من أن أبي لم يخبرك أنتِ والعم آنيبال بالمساعي التي بذلها مانويل ألفونسو لإخراجه من الورطة.

تصمت، لأن الخادمة الهايتية دخلت إلى المطبخ. وسألت بإسبانية غير سليمة وموسيقية عما إذا كن بحاجة إليها أم أنها تستطيع الذهاب للنوم. فتصرفها لوثيندا بحركة من يدها: هيا، انصرفي.

- ومن هو مانويل ألفونسو أيتها الخالة أورانيا؟ - يستفهم صوت ماريانا الصغيرة.

- لقد كان شخصية بكل معنى الكلمة يا ابنة الأخت. وسيم المظهر ومن أسرة بارزة. ذهب إلى نيويورك ليعيش حياته، وانتهى به الأمر للعمل كعارض ملابس لدى محلات الخياطة والمخازن الفاخرة، وصار يظهر في إعلانات الشوارع، بفم مفتوح في دعاية **كولجيت**، معجون الأسنان الذي ينعش الأسنان وينظفها ويمنحها البريق. وعلم تروخييو في إحدى رحلاته إلى الولايات

المتحدة بأن إله الجمال ذاك الذي يظهر في الإعلانات هو فتى دومينيكاني. فاستدعاه وتبناه. وجعل منه شخصية مشهورة. وصار مترجمه، لأنه كان يتكلم الإنكليزية باتقان؛ ومعلمه في شؤون البروتوكول والاتكيت، لأنه كان محترفاً في الأناقة؛ وأوكل إليه مهمة بالغة الأهمية، بجعله من ينتقي له بدلاته، وربطات عنقه، وأحذيته، وجواربه، والخياطين النيويوركيين الذين يصنعون ملابسه. وكان مانويل ألفونسو يطلعه أولاً بأول على آخر صيحات الموضة الرجالية. ويساعده في تصميم بدلاته، إنه المسؤول عن أناقة **الزعيم**.

وقاطعتها مانوليتا:

– وكان ينتقي له النساء بصورة خاصة. أليس كذلك يا أماه؟

فتصفعها القبضة النزقة:

– وما علاقة كل هذا بأخي أغوسطين.

وتواصل أورانيا إخبار الفتاة الصغرى:

– النساء كن آخر اهتماماته. فهن لا يشغلن اهتمام تروخييو، لأنه يملكهن جميعهن. أما البدلات والزينات بالمقابل، فكانت تهمه كثيراً. وكان مانويل ألفونسو يُشعره بأنه جيد الذوق، متأنق، وسيم. مثل بيترووينو في رواية **كوفاديس** الذي يستشهد به دوماً.

– لم أرَ **الزعيم** بعد يا أغوسطين. لدي لقاء معه هذا المساء في بيته، في قصر راداميس. سأستفسر عن وضعك، أعدك بذلك.

تركه يتكلم دون أن يقاطعه، مكتفياً بإيماءات الموافقة والانتظار، في حين كانت معنويات السيناتور منهارة، وصوته غارق في المرارة أو الغم. أخبره بما يجري، وما قاله وفعله وفكر فيه منذ أن ظهرت، قبل عشرة أيام، أول رسالة ضده في «المحكمة العامة». أخرج كل ما في نفسه أمام هذا الرجل المحترم، والأول الذي يبدي له التعاطف منذ ذلك اليوم المشؤوم، وراح يروي له التفاصيل الحميمة من حياته التي كرسها منذ العشرين من عمره لخدمة أعظم رجل في تاريخ الدومينيكان. هل من العدالة أن يرفض **الزعيم** الاستماع إلى رجلٍ يعيش بفضله ومن أجله منذ ثلاثين سنة؟ إنه مستعد للاعتراف بأخطائه، إذا كان قد اقترفها. ولإجراء فحص لضميره. ولدفع ثمن الأخطاء، إذا وجدت. ولكن، فليتكرم **الزعيم** بمنحه خمس دقائق من وقته على الأقل.

ربت مانويل ألفونسو على ركبته مجدداً. كان بيته في حي أرويو هوندو الجديد فسيحاً، محاطاً بحديقة. وكان أثاثه وديكوره ينمان عن ذوق رفيع. والزعيم الذي لم يكن يخطئ في اكتشاف الإمكانيات الخفية لدى الرجال - وهي قدرة كانت تفتن أغوسطين كابرال على الدوام -، سرعان ما سبر إمكانيات عارض الأزياء القديم. فمانويل ألفونسو قادر على التحرك بطلاقة في دنيا الدبلوماسية، بفضل لطفه وموهبته في التعامل مع الناس والحصول على منافع للنظام. وقد حقق ذلك في كل مهماته الدبلوماسية، وخصوصاً مهمته الأخيرة في واشنطن، في أشد المراحل صعوبة، عندما تحول تروخييو من طفل اليانكيين المدلل إلى عقبة أمامهم، يتعرض لهجمات الصحافة وبرلمانيين أمريكيين كثيرين.

رفع السفير يده إلى وجهه في حركة ألم، وقال معتذراً:

- بين حين وآخر أشعر بوخزة الألم. آمل أن يكون الجرَّاح قد قال لي الحقيقة. إنهم قد اكتشفوا الداء في وقت مبكر. وإن نجاح العلاج مضمون حتى تسعين بالمئة. ولماذا سيكذب عليّ؟ الأمريكيون صريحون. ليست لديهم مثل كياستنا، ولا يزينون الخبر السيئ.

صمت، لأن تكشيرة أخرى قلصت وجهه الذي أصابه الأذى. ولكنه استعاد وضعه السابق في الحال، وأبدى الاهتمام، وفلسف الأمر:

- أعرف شعورك يا مخيخ، وأعرف ما تعانيه. لقد جرى لي مثل ذلك مرتين خلال أكثر من عشرين سنة من صداقتي مع الزعيم. لم يصل الأمر إلى الحدود التي وصل إليها معك، ولكن وقع جفاء تجاهي من قبله، فتور لم أكن أستطيع تفسيره. إنني أتذكر قلقي، والوحدة التي أحسست بها، والشعور بأنني فقدت البوصلة. ولكن كل شيء اتضح، وعاد الزعيم يشرفني بثقته. لا بد أنها مكيدة من حاسد لا يغفر لك مواهبك يا أغوسطين. ولكنك تعرف أن الزعيم رجل منصف. سأحدثه هذا المساء، ثق بي.

نهض كابرال متأثراً. فما يزال هناك أشخاص محترمون في جمهورية الدومينيكان. وقال له وهو يشدّ على يده بقوة:

- سأبقى في بيتي طوال اليوم يا مانويل. لا تنس أن تقول له إنني مستعد لكل شيء من أجل استعادة ثقته.

وتقول أورانيا:

- لقد كنتُ أفكر فيه كممثل من هوليود، مثل تيرون باور أو ايرول فلين. ولكنني أُصبت بخيبة أمل عندما رأيته في تلك الليلة. فهو لم يكن الشخص نفسه. كانوا قد استأصلوا نصف حنجرته. وكان يمكن له أن يبدو أي شيء إلا أن يكون دونجواناً.

كانت عمتها آديلينا، وابنتا عمتها، والحفيدة الشابة يستمعن إليها بصمت، متبادلات النظرات فيما بينهن. وحتى الببغاء شمشون كان يبدو مهتماً، فهو لم يقاطعها منذ بعض الوقت بكلماته.

- هل أنت أورانيا؟ ابنة أغوسطين؟ كم كبرتِ وصرتِ جميلة أيتها الصغيرة. إنني أعرفك مذ كنتِ بالأقمطة. تعالي هنا، دعيني أقبلك.

- كان يتكلم ماضغاً الكلمات، ويبدو كأنه مصاب بضعف عقلي. عاملني بمودة كبيرة. ولم أستطع أن أصدق أن تلك النفاية البشرية هي مانويل ألفونسو.

- يجب أن أكلم أباك. - قال لها وهو يخطو إلى الداخل - ولكن، كم أصبحتِ جميلة. ستحطمين قلوباً كثيرة في الحياة. هل أغوسطين موجود؟ هيا، استدعيه.

- كان قد تحدث مع تروخييو وجاء مباشرة من قصر راداميس إلى البيت، ليقدم كشفاً بمساعيه. لم يستطع أبي أن يصدق ذلك. وكان يردد: الوحيد الذي لم يُدر لي ظهره، الوحيد الذي يمد إلي يده.

- ألا تكونين قد حلمتِ بمساعي مانويل ألفونسو هذه؟ لأن أغوسطين كان سيهرع ليخبرني أنا وآنيبال بها.

فتدخل مانوليتا:

- دعيها تكمل، لا تقاطعيها هكذا يا أماه.

- في تلك الليلة نذرتُ نذراً لشفيعتنا عذراء آلتاغراثيا إذا ما ساعد أبي في الخروج من محنته. أتدرون ما هو النذر؟

فتضحك ابنة عمتها لوثيندا:

- أن تدخلي الدير؟

وتضحك أورانيا:

- أن أحافظ على طهارتي مدى الحياة.

تضحك ابنتا عمتها والحفيدة أيضاً، ولكنهن لا يضحكن برغبة، وإنما

لموازاة ضيقهن. وتبقى العمة آديلينا جدية، دون أن ترفع عينيها عنها ودون أن تخفي جزعها: ثم ماذا يا أورانيا، ثم ماذا.

- كم كبرت الطفلة وكم صارت جميلة. - يكرر مانويل ألفونسو وهو يهوي على المقعد، قبالة أغوسطين كابرال - إنها تذكرني بأمها. العينان الفاترتان نفساهما، وجسد زوجتك الدقيق والرشيق نفسه يا مخيخ.

يشكره هذا الأخير بابتسامة. لقد أدخل السفيرَ إلى مكتبه بدل أن يستقبله في الصالون، ليحول بذلك دون أن تسمعه الطفلة أو الخادمات. يشكره مجدداً لأنه أزعج نفسه وجاء إليه بدل أن يستدعيه. السيناتور يتكلم بتدفق، وهو يشعر بأن قلبه يكاد يخرج من صدره مع كل كلمة. هل تمكن من التحدث مع **الزعيم**؟

- بالطبع يا أغوسطين. لقد وعدتك بذلك وفعلته. تحدثنا عنك حوالي ساعة من الوقت. لن يكون الأمر سهلاً. ولكن، يجب ألا تفقد الأمل. هذا هو الأساسي.

كان يرتدي بدلة قاتمة، متقنة التفصيل، وقميصاً بياقة منشاة، وربطة عنق زرقاء فيها لطخات بيضاء ومثبتة بحبة لؤلؤ. ويطل عُرف منديل حريري أبيض من جيب سترته العلوي، وبما أنه رفع بنطاله عندما جلس لكي لا يتأثر خط الكي، فقد ظهر جوربه الأزرق، دون أي تجعيدة. وكان حذاؤه يلمع.

- إنه متضايق منك جداً يا مخيخ. - يبدو أن جرح العملية يؤلمه، لأنه يقوم بين حين وآخر بالتواءات غريبة بشفتيه، ويسمع أغوسطين كابرال صرير أسنانه - لا وجود لمسألة محددة، وإنما مسائل كثيرة، راحت تتراكم خلال الشهور الأخيرة. **والزعيم** حساس بصورة استثنائية. لا يفلت منه شيء، يلتقط أدنى التبدلات في الأشخاص. يقول إنه منذ أن بدأت هذه الأزمة، منذ الرسالة الأسقفية، ومنذ المشاكل مع منظمة الدول الأمريكية التي أطلقها القرد بيتانكور والفأر مونيوث مارين، بدأتَ تفتر. ولم تُبدِ الالتزام الذي كان يأمله منك.

هز السيناتور رأسه موافقاً: إذا كان **الزعيم** قد لاحظ ذلك، فربما يكون صحيحاً. ليس هناك ما هو متعمد بكل تأكيد، وأقل من ذلك أن يكون السبب هو نقص في التقدير أو الولاء. إنه أمر غير واعٍ، بسبب الإرهاق، والتوتر الرهيب في هذه السنة الأخيرة، بتأثير المؤامرة القارية ضد تروخييو، مؤامرة الشيوعيين وفيدل كاسترو، والقسس، وواشنطن، ووزارة الخارجية الأمريكية.

وفيغيرس، ومونيوث مارين، وبيتانكور، والعقوبات الاقتصادية، ونذالات المنفسيين. أجل، أجل، من المحتمل أن يكون – دون أن يشعر– قد تضاءل مردوده في العمل، في الحزب، في مجلس الشيوخ.

– الزعيم لا يقبل التهاون ولا الضعف يا أغوسطين. يريدنا جميعنا أن نكون مثله. لا نكل، مثل الصخور، مثل الحديد. أنت تعرف.

– وهو محق في ذلك. – وضرب أغوسطين كابرال منضدته الصغيرة – فلأنه هكذا، تمكن من صنع هذه البلاد. لقد بقي فوق صهوة الجواد على الدوام يا مانويل، مثلما قال في حملة عام 1940. معه حق بأن يطالبنا بأن نجاريه. لقد خيبتُ أمله دون أن أنتبه إلى ذلك. ربما لأنني لم أتمكن من إقناع المطارنة بتسميته «المنعم على الكنيسة»؟ لقد كان يريد هذا التعويض، بعد الرسالة الأسقفية الآثمة. وكنتُ مع بالاغير وباباينو بيتشاردو ضمن اللجنة. أظن أن ذلك الإخفاق هو السبب؟

نفى السفير بحركة من رأسه:

– إنه حساس جداً. وحتى لو كان هذا هو ما يضايقه، إلا أنه لم يخبرني بذلك. ربما كان واحداً من الأسباب. يجب أن تتفهمه. فمنذ ثلاثين سنة وهو يتعرض للخيانة من قبل الناس الذين يساعدهم أكثر من سواهم. فكيف لا يتأثر رجلٌ يطعنه أفضل أصدقائه من الخلف؟

وتقول أورانيا بعد فترة صمت:

– ما زلتُ أتذكر عطره. ومنذ ذلك الحين، لست أكذب عليكن، كلما كان على مقربة مني رجل معطر بكثرة، أرى مانويل ألفونسو من جديد. وأعود لسماع تلك الغرغرة التي كان يتكلمها في المرتين اللتين تشرفت فيهما بمرافقته المحببة.

تجعد يدُها اليمنى شرشفَ الطاولة. أما عمتها وابنتا عمتها والحفيدة اللواتي أذهلتهن عدوانيتها وسخريتها، فيترددن قلقات. وتقول مانوليتا:

– إذا كان الحديث في هذه القصة يضايقك، فلتتوقفي يا ابنة خالي.

فترد أورانيا:

– إنه يزعجني، يسبب لي التقيؤ. يملأني بالحقد والقرف. لم أخبر أحداً بهذا الأمر على الإطلاق. وربما سأشعر بالتحسن إذا ما تخلصت منه دفعة واحدة. ومَنْ هو أفضل من الأسرة لأروي له ذلك.

- ما رأيكَ أنتَ يا مانويل؟ أتظن أن الزعيم سيمنحني فرصة أخرى؟

- لماذا لا نتناول كاساً من الويسكي يا مخيخ.- هتف السفير متجنباً الإجابة على سؤاله. ورفع يديه قاطعاً الطريق على المعاتبة - أعرفُ أنه يجب عليَّ ألا أشرب، فالأطباء منعوني من تناول الكحول. ياه! هل تستحق الحياة أن تعاش مع الحرمان من الأشياء الجيدة؟ والويسكي الفاخر هو واحد منها.

- اعذرني، لم أقدم لك شيئاً حتى الآن. بالطبع، وسأشرب أنا كأساً أيضاً. فلننزل إلى الصالون. لا بد أن أورانيتا قد نامت.

ولكنها لم تكن قد ذهبت إلى الفراش بعد. كانت قد انتهت من تناول العشاء للتو، ونهضت عندما رأتهما ينزلان السلّم.

- لقد كنتِ طفلة في المرة الأخيرة التي رأيتُكِ فيها. - أطرى عليها مانويل ألفونسو مبتسماً- وأنتِ الآن آنسة باهرة الجمال. أما أنتَ فلم تلحظ التبدل الذي طرأ عليها يا أغوسطين.

- تصبح على خير يا بابا. - قبلت أورانيا أباها، وأرادت أن تمد يدها لتصافح الزائر، ولكنه قرّب لها خده. فقبلته قبلة خفيفة وقد توردت من الحياء - تصبح على خير أيها السيد.

- ناديني مانويل. - وقبلها هو من جبهتها.

يومئ كابرال إلى كبير الخدم والخادمة بأنه يمكنهما الانصراف، ويُحضر هو نفسه زجاجة الويسكي والكأسين وسطل الثلج. يسكب كأساً لصديقه وأخرى له، مع الثلج أيضاً.

- بصحتك يا مانويل.

- بصحتك يا أغوسطين.

يتلمظ السفير باستمتاع وهو يغمض عينيه. ويهتف: «آه، كم هو لطيف». ولكنه يجد صعوبة في ابتلاع السائل، فقد تشنج وجهه من الألم.

- لم أكن سكيراً في يوم من الأيام، ولم أفقد التحكم بأفعالي مطلقاً. - يقول - ولكنني عرفتُ على الدوام كيف أستمتع بالحياة. حتى عندما كنتُ أتساءل إن كنتُ سأجد ما آكله في اليوم التالي، كنت أعرف كيف أستخلص أكبر قدر من المتعة من الأشياء الصغيرة: الخمر الجيد، التبغ الجيد، المناظر الطبيعية، طبق طعام جيد الطهو، أنثى يتلوى خصرها بظرافة.

يضحك بحنين، ويحاكيه كابرال دون رغبة. كيف يعيده إلى الحديث في

الأمر الوحيد الذي يهمه؟ اللباقة تدفعه إلى كبح تلهفه. لم يشرب كأساً من الخمر منذ أيام طويلة، والرشفتان أو الثلاث التي تناولها بلبلته. ومع ذلك، وبعد أن ملأ كأس مانويل ألفونسو مجدداً، ملأ كأسه أيضاً.

يقول محاولاً التودد إليه:

– لا يمكن لأحد أن يتصور أنك مررت بأوقات حرجة يا مانويل. فأنا أتذكرك أنيقاً، عظيماً، مبذراً على الدوام، تبادر إلى دفع كل الحسابات.

يهز عارض الأزياء السابق رأسه راضياً وهو يحرك كأسه. ضوء الثريا ينعكس على وجهه مباشرة وعندئذ فقط يلمح كابرال الندبة المتعرجة التي تحيط بحنجرته. مثل هذا التقطيع هو أمر قاس بالنسبة إلى شخص شديد الزهو بوجهه وجسمه.

– أنا أعرف ما هو الجوع يا مخيخ. عندما كنتُ شاباً في نيويورك، وصل بي الأمر إلى حد النوم في الشارع، مثل متشرد. وفي أيام كثيرة لم أجد ما آكله سوى طبق من حساء الشعيرية أو قطعة من الخبز. ومن يدري ما الذي كان سيؤول إليه مصيري لولا تروخييو. ومع أنني كنتُ محط إعجاب النساء على الدوام، إلا أنني لم أستطع أن أجمع ثروة منهن مثل صديقنا الطيب بورفيريو روبيروسا. وربما كان الاحتمال الأكبر هو أن أتحول إلى عاهر متسكع في شوارع بويري.

يشرب ما بقي في كأسه دفعة واحدة. فيملأها له السيناتور.

– إنني مدين له بكل شيء. بكل ما أملكه، وكل ما توصلت إليه. – يتأمل مكعبات الثلج وهو يخفض رأسه – لقد مشيتُ برفقة وزراء ورؤساء أقوى البلدان، ودُعيت إلى البيت الأبيض، ولعبت البوكر مع الرئيس ترومان، وذهبت إلى حفلات آل روكفلر. واستأصلوا لي الورم في مايو كلينيك، أفضل مستشفى في العالم، وعلى يد أفضل جرّاح في الولايات المتحدة. ومن دفع تكاليف العملية؟ الزعيم بالطبع. أتفهم يا أغوسطين؟ إنني مدين إلى تروخييو، مثلما هي بلادنا مدينة له بكل شيء.

ندم أغوسطين كابرال على كل مرة، في الجلسات الحميمة في الكانتري كلوب، أو في الكونغرس، أو في مزرعة نائية، ضمن جماعة من الأصدقاء الحميمين (كان يظن أنهم حميمون)، احتفى فيها بالنكات المتداولة عن فتى إعلان كولجيت السابق، الذي يدين بمناصبه الدبلوماسية الرفيعة ومنصبه

كمستشار لتروخييو، إلى الصابون والتالك والعطور التي يوصي بها لفخامته، ولذوقه الجيد في اختيار ربطات العنق، والبدلات، والقمصان، والبيجامات، والأحذية التي يلبسها الزعيم.

- وأنا أيضاً أدين له بكل ما أنا عليه وكل ما فعلته يا مانويل. - قال مؤكداً

- إنني أفهمك جيداً. ولهذا السبب أنا مستعد لكل شيء من أجل استعادة صداقته.

نظر إليه مانويل ألفونسو، وقرّب رأسه منه. لم يقل شيئاً لوقت لا بأس به، ولكنه واصل تفحصه، وكأنه يروز مدى جدية كلماته بالمليمتر.

- فلنبدأ العمل إذن يا مخيخ!

وتقول أورانيا:

- لقد كان ثاني رجل يغازلني بعد رامفيس تروخييو. قال إنني جميلة، وإنني أشبه أمي، وإن عيني جميلتان. كنتُ قد ذهبت حتى ذلك الحين إلى حفلات مع فتيان، ورقصتُ معهم. حوالي خمس أو ست مرات. ولكن أياً منهم لم يكلمني بتلك الطريقة قط. لأن مغازلة رامفيس في المهرجان كانت موجهة إلى طفلة. وأول من غازلني كامرأة هو عمي مانويل ألفونسو.

لقد قالت كل هذا بسرعة، وبغضب أصم، ولم تسألها أي واحدة من قريباتها شيئاً. وكان الصمت في المطبخ يشبه ذاك الذي يسبق الرعد في عواصف الصيف الصاخبة. وكانت صفارة سفينة تجرح الليل في البعيد. أما شمشون فيتنقل بعصبية على حمالته الخشبية وهو ينفش ريشه.

- بدا لي عجوزاً، وكانت تُضحكني طريقته المرضرضة في التكلم، وسببت لي ندبة عنقه الخوف. - تلوي أورانيا يديها - ما الذي يمكن لمغازلة أن تفعله بي في تلك اللحظات. ولكنني، في ما بعد، سأتذكر كثيراً تلك الورود التي رماني بها.

تصمت ثانية، مستنفدة. وتُعلّق لوثيندا - «كان عمرك آنذاك أربع عشرة سنة، أليس كذلك؟» - فيبدو تعليقها لأورانيا غبياً. لوثيندا تعرف جيداً أنهما في السن نفسها. أربع عشرة سنة، يا للسن الكاذبة. كانتا قد تجاوزتا مرحلة الطفولة، ولكنهما لم تبلغا مبلغ الآنسات بعد. وتهمس:

- قبل ثلاثة أو أربعة شهور كانت قد جاءتني العادة للمرة الأولى. يبدو أنها جاءتني متقدمة.

- لقد خطرت لي الفكرة للتو، خطرت لي لدى الدخول. - يقول السفير وهو يمد يده ويسكب كأساً أخرى من الويسكي؛ ويسكب أيضاً لرب البيت - إنني هكذا على الدوام: أهتم بالزعيم أولاً، وبعد ذلك بنفسي. لقد شحب لونك يا أغوسطين. هل أنا مخطئ؟ لم أقل شيئاً بعد، انس الأمر. أنا نسيته. في صحتك يا مخيخ!

يشرب السيناتور كابرال رشفة طويلة. الويسكي يجرح حنجرته ويصبغ عينيه بالحمرة. أهناك ديك يصيح في مثل هذه الساعة؟

- المسألة هي، المسألة هي... - يردد دون أن يدري ماذا يُضيف.

- فلننسَ الأمر. وآمل ألا تكون قد استأت يا مخيخ. انسَ! فلننس الأمر!

نهض مانويل ألفونسو واقفاً. يتمشى بين أثاث الصالون المرتب والنظيف، إنما تنقصه اللمسة الأنثوية لربة بيت فعالة. والسيد كابرال يفكر - كم من المرات فكر في ذلك خلال هذه السنوات؟ - كم أساء صنعاً ببقائه وحيداً بعد موت زوجته. كان عليه أن يتزوج، وأن ينجب أبناءً آخرين، وربما ما كانت ستقع له هذه المحنة. لماذا لم يفعل ذلك؟ أمن أجل أورانيتا، مثلما يقول للجميع؟ لا. من أجل أن يكرس مزيداً من الوقت للزعيم، ويتفرغ له ليلاً ونهاراً، ويثبت له أنه ليس هناك شيء أو أحد أهم منه في حياة أغوسطين كابرال.

- لا تأخذ الأمر باستياء. - يبذل جهداً هائلاً لكي يبدو هادئاً - كل ما هنالك أنني مضطرب. إنه أمر لم أكن أتوقعه يا مانويل.

- تظنها طفلة، لم تلاحظ أنها أصبحت امرأة. - ويجعل مانويل ألفونسو مكعبات الثلج تتصادم في كأسه - إنها فتاة جميلة. كنتُ سأشعر بالفخر لو كانت لي ابنة مثلها.

- بالطبع. - ثم يضيف مضطرباً:- لقد كانت على الدوام الأولى في صفها.

- أتعرف أمراً يا مخيخ؟ لو أنها ابنتي لما ترددت لحظة واحدة. ليس من أجل نيل ثقته، وليس لأثبت له بأنني مستعد لأي تضحية من أجله. وإنما ببساطة لأنه ليس هناك ما يرضيني ويسعدني أكثر من جعل الزعيم يُمتع ابنتي ويستمتع هو بها. لستُ أبالغ يا أغوسطين. تروخييو هو أحد تلك الاستثناءات في التاريخ. الاسكندر الأكبر، نابليون، بوليفار: إنه من هذه

السلالة. قوى الطبيعة، أدوات الرب، صانعي الشعوب. إنه واحد منهم يا مخيخ. وقد حظينا بامتياز أن نكون إلى جانبه، وأن نراه يعمل، وأن نشاركه العمل. هذا شيء لا يُقدر بثمن.

انهى كأسه ورفع أغوسطين كابرال كأسه إلى فمه أيضاً، ولكنه لم يكد يبلل شفتيه. وبالرغم من أن الدوار قد فارقه، إلا أنه بدأ يشعر الآن بانقلاب معدته. قد يبدأ التقيؤ في أي لحظة.

- إنها ما تزال طفلة. - قال متلعثماً.

- هذا أفضل! - هتف السفير - فالزعيم سينظر بتقدير أكبر إلى اللفتة. سيدرك أنه أخطأ، وأنه حكم عليك بصورة متسرعة، وسمح للنزق أن يقوده أو أصغى لما يقوله أعداؤك. لا تفكر بنفسك فقط يا أغوسطين. لا تكن أنانياً. فكر بابنتك. ما الذي سيحدث لها إذا ما خسرتَ كل شيء وانتهى بك الأمر إلى السجن متهماً بسوء التصرف والاحتيال؟

- أتظنني لم أفكر بذلك يا مانويل؟

رفع السفير كتفيه، وكرر:

- لقد خطر لي الأمر للتو بعد أن رأيتُ كم صارت جميلة. الزعيم يقدر الجمال. وإذا ما قلتُ له: «مخيخ يريد أن يقدم، كدليل على المحبة والولاء، ابنته الجميلة، والتي ما تزال آنسة» فلن يرفضها. إنني أعرفه. إنه شهم، ولديه إحساس مرهف بالشرف. سيشعر بأنك قد لمست قلبه. سيستدعيك. سيعيد إليك ما انتزعه منك. وسيكون مستقبل أورانيتا مؤمناً. فكر بها يا أغوسطين، وأزح عنك الأحكام المسبقة القديمة. لا تكن أنانياً.

تناول الزجاجة من جديد وسكب دفقات من الويسكي في كأسه وفي كأس كابرال. وألقى بيده مكعبات الثلج في الكأسين.

- لقد خطرت لي الفكرة عندما رأيتُ كم أصبحت جميلة. - رتل للمرة الرابعة أو الخامسة، أهي حنجرته التي تضايقه، تجننه؟ يحرك رأسه ويداعب الندبة برؤوس أصابعه - إذا كان الأمر يزعجك، فاعتبر أنني لم أقل شيئاً.

- قلتِ خسيس وخبيث. - تنفجر فجأة العمة آديلينا - هذا ما قلتِه عن أبيك الميت في الحياة، والذي ينتظر نهايته. عن أخي، عن أكثر إنسان أحببته واحترمته. لن أسمح لك بالخروج من هذا البيت قبل أن تفسري لي سبب هذه الشتائم يا أورانيا.

- قلتُ خسيس وخبيث لأنه لا وجود لكلمات أقوى. - أوضحت أورانيا بتمهل - ولو كانت هناك كلمات أقوى لقلتها. لقد كانت له أسبابه بكل تأكيد. دواعيه المخففة، مبرراته. ولكنني لم أسامحه ولن أسامحه.

- ولماذا تساعدينه إذا كنتِ تكرهينه إلى هذا الحد؟ - ترتعش العجوز من السخط؛ إنها شاحبة جداً، كما لو أنها ستفقد الوعي - لماذا تدفعين أجور الممرضة، وثمن الطعام؟ دعيه يمت إذن.

- أُفضل أن يعيش هكذا، ميتاً في الحياة، متألماً. - كانت تتكلم بهدوء شديد، وهي تخفض عينيها - لهذا السبب أساعده يا عمتي.

- ولكن، ولكن، ما الذي فعله لك لتكرهيه هكذا، ولتقولي مثل هذه الفظائع؟ - ترفع لوثيندا ذراعيها دون أن تولي اهتماماً لما تسمعه - فليتبارك الرب!

- سيفاجئك ما سأقوله لك يا مخيخ. - يهتف مانويل ألفونسو بدراماتيكية - عندما أرى فاتنة، أنثى حقيقية، واحدة من أولئك اللواتي يفتلن رأسك، فإنني لا أفكر في نفسي. وإنما أفكر في **الزعيم**. أجل، أجل، أفكر فيه. هل سيروقه ضمها بين ذراعيه، ممارسة الحب معها؟ هذا أمر لم أخبر به أحداً. ولا حتى **الزعيم** نفسه. ولكنه يعرف ذلك. لقد كان الأول في نظري دوماً، حتى في هذه الأمور. مع العلم أنني مولع جداً بالنساء يا أغوسطين ولا تظن أنني ضحيت بتقديم إناث فاتنات إليه من أجل التملق، أو من أجل الحصول على منح أو صفقات. هذا ما يظنه الدنيئون، الخنازير. أتعرف لماذا أفعل ذلك؟ بدافع الحب، بدافع الشفقة، بدافع البر. أنت يمكنك أن تفهم ذلك يا مخيخ. أنت وأنا نعرف ما كانت عليه حياته. إنه يعمل منذ الفجر حتى منتصف الليل، طوال سبعة أيام في الأسبوع، واثني عشر شهراً في السنة. دون راحة على الإطلاق. يهتم بالشؤون الكبيرة والصغيرة. ويتخذ في كل لحظة قرارات تتعلق بها حياة ثلاثة ملايين دومينيكاني وموتهم. لكي يُدخلنا في القرن العشرين. ويكون عليه أن يأخذ حيطته من الحاقدين، من الرديئين، ومن جحود ناكري جميل كثيرين. ألا يستحق مثل هذا الرجل أن يلهو بين حين وآخر؟ أن يستمتع بضع دقائق بأنثى؟ إنها واحدة من تعويضات الحياة يا أغوسطين. ولهذا السبب أشعر بالفخر لأنني حقاً مثلما يقول عني بعض الأفاعي: قواد الزعيم. وأنا كذلك بكل فخر يا مخيخ!

رفع الكأس الخالية من الويسكي إلى شفتيه وأدخل في فمه أحد مكعبات الثلج. بقي صامتاً لبعض الوقت، يمص، يركز، مستنفداً من تلك المناجاة. وكان كابرال يتفحصه، وهو صامت أيضاً، مداعباً كأسه المملوءة بالويسكي.

- لقد انتهت الزجاجة وليس لدي واحدة أخرى. - قال معتذراً - خذ كأسي، لم أعد أستطيع شرب المزيد.

هز السفير رأسه ومدّ إليه كأسه الفارغة، فسكب فيها السيناتور بقايا كأسه. ثم دمدم:

- لقد أثر في ما قلته يا مانويل. ولكنني لم أُفاجأ. فما تشعر به أنت، هذا التقدير، وهذا الامتنان، هو ما شعرت به أنا أيضاً على الدوام تجاه الزعيم. ولهذا السبب تؤلمني هذه الحالة كثيراً.

وضع السفير يده على كتفه.

- ستتم تسوية وضعك يا أغوسطين. سأكلمه. أنا أعرف كيف أقول له الأمور. سأشرح له الأمر. لن أقول له إن هذه فكرتي، وإنما هي فكرتك. سأقول له إنها مبادرة من أغوسطين كابرال. الوفي في كل الظروف، حتى وهو في المحنة، وفي المهانة. وأنت تعرف كيف هو الزعيم. إنه مغرم بمثل هذه اللفتات. قد يكون عمره سنوات كثيرة، وقد تكون صحته قد تصدعت. ولكنه لا يخضع لتحديات الحب أبداً. سأرتب كل شيء، وبأقصى قدر من التكتم. لا تقلق. ستستعيد منصبك، ومن أداروا لك ظهورهم سيقفون بالدور أمام هذا الباب عما قريب. والآن، يجب أن أذهب. شكراً على الويسكي. في بيتي لا يسمحون لي بتناول قطرة واحدة من الخمر. كم كان ممتعاً أن أحس في حنجرتي بهذه الدغدغة الحارقة قليلاً والمرة قليلاً. وداعاً يا مخيخ. دعك من الغم. دع الأمر علي. واهتم أنت بتهيئة أورانيتا. دون دخول في التفاصيل. لا حاجة إلى ذلك. فالزعيم سيتولى تلك الأمور. لا يمكنك أن تتصور الرقة، والحنان، وحسن المعشر الذي يتصرف به في مثل هذه الأحوال. سيسعدها، وسيكافئها، وسيكون مستقبلها مؤمناً. لقد فعل ذلك على الدوام. فما بالك بمخلوقة بمثل هذه العذوبة وهذا الجمال.

توجه نحو الباب مترنحاً، وغادر البيت صافقاً الباب صفقة خفيفة. ومن الصالة، حيث مازال وكأسه الفارغة في يده، سمع أغوسطين كابرال صوت محرك السيارة وهي تغادر. كان يشعر بالإنهاك، بفقدان غير محدود للإرادة.

لم يجد قط من القوة ما يكفيه للنهوض، لصعود درجات السلّم، خلع ملابسه، الذهاب إلى الحمام، تنظيف اسنانه، الاستلقاء في الفراش، وإطفاء النور.

- أتحاولين القول إن مانويل ألفونسو اقترح على أبيكِ أن ...؟ - ولا تستطيع العمة آديلينا إنهاء عبارتها، فالغضب يخنقها، ولا تجد الكلمات التي تخفف مما تريد قوله وتجعله مقبولاً. ولكي تنهي كلامها بطريقة ما، تهدد بقبضتها شمشون الذي لم يفتح منقاره بشيء: - اخرس أيها الحيوان القذر!

فتقول أورانيا:

- لستُ أحاول. وإنما أخبرك بما جرى. إذا كنت لا تريدين الاستماع فإنني سأصمت وأنصرف.

تفتح العمة آديلينا فمها، ولكنها لا تتمكن من قول شيء.

ثم إن أورانيا نفسها لم تكن تعرف تفاصيل المحادثة التي جرت بين مانويل ألفونسو وأبيها في تلك الليلة التي لم يصعد فيها السيناتور لينام لأول مرة في حياته. بقي نائماً في الصالون، بملابسه، وعند قدميه زجاجة ويسكي وكأس فارغتان. فاجأها المشهد الذي وجدته في صباح اليوم التالي، عندما نزلت لتتناول الفطور من أجل الذهاب إلى المدرسة. لم يكن أبوها سكيراً، وهو ينتقد على الدوام السكارى واللاهين. لقد سكر يأساً، لأنه متهم، يعاني الملاحقة، والتحقيق، والإقالة، مع تجميد حساباته، لذنب لم يقترفه. انفجرت بالبكاء وهي تعانق أباها المطروح على أريكة الصالون. وعندما فتح عينيه ورآها بجانبه، باكية، قبلها مرات كثيرة: «لا تبكِ يا قلبي. سنخرج من هذه المحنة، سترين، لن نسمح للهزيمة بأن تسيطر علينا». نهض، رتب ملابسه، رافق ابنته لتناول الفطور. وبينما هو يداعب شعرها ويقول لها ألا تقول شيئاً في المدرسة، راح يتأملها بنظرة غريبة.

وتتخيل أورانيا:

- لا بد أنه كان متشككاً، يريد التراجع. يفكر باللجوء. ولكن، لم يكن بإمكانه الدخول إلى أي سفارة. إذ لم تعد هناك ممثليات أمريكية لاتينية منذ فرض العقوبات. والمخبرون يحومون، ويحرسون أبواب السفارات المتبقية. لا بد أنه أمضى يوماً رهيباً وهو يصارع ضد هواجسه. وفي مساء ذلك اليوم، عندما رجعتُ من المدرسة، كان قد حسم أمر خطوته.

العمة آديلينا لا تحتج. وإنما تنظر إليها فقط، من أعماق محجري عينيها

الغائرين، بتأنيب يختلط بالرعب، وبعدم تصديق آخذ بالاضمحلال رغم جهودها. أما لوثيندا ومانوليتا فتحولتا إلى تمثالين.

كان قد استحم وارتدى ملابسه بالدقة المعهودة: ولم يبق فيه أي أثر من الليلة المنحوسة. ولكنه لم يكن قد تذوق لقمة واحدة من الطعام، وكانت الشكوك والمرارة تنعكس في شحوبه الذي كشحوب الجثث، وفي الزرقة المحيطة بعينيه وبريق نظرته الهلعة.

- أأنت مريض يا بابا؟ لماذا أنت شاحب هكذا؟

- يجب أن نتكلم يا أورانيتا. تعالي، فلنصعد إلى حجرتك. لا أريد أن يسمعنا الخدم.

وفكرت الطفلة: «سيدخلونه السجن. سيقول لي إنه علي الذهاب إلى بيت العمين آنيبال وآديلينا.»

دخلا إلى الحجرة، ألقت أورانيا حزمة الكتب على طاولة دراستها وجلست على حافة السرير («كان يغطيه شرشف أزرق مزين بحيوانات والت ديزني») ومضى أبوها ليستند إلى النافذة. ابتسم لها:

- أنت أكثر من أحبه في هذه الدنيا. وأفضل ما أملكه. فأنت الشيء الوحيد الذي تبقى لي في هذه الحياة بعد وفاة أمك. ألا تلاحظين ذلك يا ابنتي؟

- بالطبع يا بابا. - أجابت هي - ما هو الأمر الفظيع الجديد الذي حلّ بك؟ هل سيُدخلونك السجن؟

نفى هو برأسه:

- لا، لا. بل هناك احتمال بأن يتم إصلاح كل شيء.

توقف قليلاً، عاجزاً عن المتابعة. وكانت يداه وشفتاه ترتعش. ونظرت هي إليه مستغربة. ولكن هذا خبر عظيم. أهناك احتمال بأن تتوقف عن مهاجمته الإذاعة والصحف؟ وأن يعود رئيساً لمجلس الشيوخ؟ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا هذا الوجه يا بابا، ولماذا أنت مكتئب وحزين.

- لأنهم يطلبون مني تضحية يا ابنتي. - غمغم - أريدك أن تعرفي شيئاً. أنا لن أفعل أي شيء، أي شيء على الإطلاق، وأدخلي هذا في رأسك، لا يكون من أجل مصلحتك. أقسمي أنك لن تنسي ما أقوله لك.

بدأت أورانيتا تتململ. عمَ يتكلم؟ لماذا لا يقول ما يريد قوله دفعة واحدة؟

- بالطبع يا بابا. - تقول أخيراً، بإيماءة متعبة - ولكن ما الذي حدث، ولماذا كل هذا اللف والدوران.

يسقط أبوها إلى جانبها على السرير، يمسك كتفيها، يسندها إلى صدره، ويقبل شعرها.

- هناك حفلة وقد دعاكِ إليها **الزعيم**.- يُبقي شفتيه مشدودتين إلى جبهة الطفلة - الحفلة في بيته في سان كريستوبال، في مزرعة فونداثيون.

تتخلص أورانيا من ذراعيه.

- هناك حفلة؟ وتروخييو دعانا إليها؟ ولكن، هذا يعني يا أبي أن كل شيء قد عاد على ما يرام. أليس كذلك؟

هز السيناتور كابرال كتفيه.

- لست أدري يا أورانيتا. **الزعيم** شخص لا يمكن معرفة ما يريده. وليس من السهل التنبؤ بنواياه. لم يدعُنا كلينا. وإنما أنت فقط.

- أنا؟

- سيأخذك مانويل ألفونسو. وهو سيعيدك أيضاً. لا أدري لماذا دعاكِ أنت ولم يدعُني أنا. إنها لفتة أولية دون شك، وطريقة ليجعلني أعرف أنني لم أفقد كل شيء. هذا على الأقل ما يتنبأ به مانويل.

- كم كان يشعر بالضيق. - تقول أورانيا وهي تلاحظ أن العمة آديلينا بدأت تغفو، ولم تعد تشاجرها بتلك النظرة التي خسفت الأمان - كان يرتبك، كان يتناقض. يرتعش خوفاً من أن لا أصدق أكاذيبه.

- ويمكن أن يكون مانويل ألفونسو قد خدعه أيضاً... - تبدأ العمة آديلينا بقول ذلك، ولكن الجملة تنقطع. تقوم بحركة ندم، معتذرة بيديها ورأسها.

- إذا كنتِ غير راغبة في الذهاب فلا تذهبي يا أورانيتا. - عصر أغوسطين كابرال يديه كما لو أنه يشعر بالبرد في ذلك الغروب الحار الذي يتحول إلى ليل - سأتصل الآن بمانويل ألفونسو وأقول له إنك تشعرين بالتوعك، وأطلب منه أن يعتذر لك من **الزعيم**. لستِ مضطرة إلى الذهاب يا ابنتي.

لم تعرف بماذا ترد. لماذا عليها هي أن تتخذ ذلك القرار؟

- لستُ أدري يا بابا. - تتردد مشوشة - يبدو لي الأمر غريباً. لماذا

يدعوني أنا وحدي؟ وما الذي سأفعله هناك في حفلة رجالٍ مسنين؟ أم أن هناك فتيات في مثل عمري مدعوات أيضاً؟

الجوزة الصغيرة تعلو وتهبط في عنق السيناتور كابرال النحيل. عيناه تتهربان من عيني أورانيا.

– بما أنه دعاك أنتِ فلا بد أن تكون هناك فتيات أخريات. – قال متلعثماً

– وهذا يعني أنه لم يعد يعتبرك طفلة، وإنما آنسة.

– ولكنه لا يعرفني، لقد رآني من بعيد فقط وسط أناس كثيرين. كيف له أن يتذكرني يا بابا.

– لا بد أنهم حدثوه عنك يا أورانيتا. – يتملص أبوها – أكرر لك بأنك لستِ مضطرة إلى الذهاب. إذا أردتِ سأتصل بمانويل ألفونسو لأقول له إنك متوعكة.

– حسن، لستُ أدري يا بابا. إذا أنت أردت فسوف أذهب، وإن لم تشأ فلن أذهب. ما أريده هو مساعدتك. ألن يغضب إذا ما رفضتُ دعوته؟

وتجرأت مانوليتا على سؤالها:

– ألم تلاحظي شيئاً؟

ولا شيء يا أورانيا. لقد كنتِ طفلة، وكونك طفلة يعني أنك بريئة تماماً في بعض الأمور المتعلقة بالشهوة، والغرائز، والسلطة، وبكل التجاوزات والبهيمية التي تعنيها هذه الأمور مجتمعة في بلاد تقولبت على يد تروخييو. لقد بدا لها كل شيء، وهي الفطنة، معداً على عجل. فأين رأت دعوة إلى حفلة توجه في اليوم ذاته، دون إعطاء المدعوة وقتاً لتهيئ نفسها؟ ولكنها كانت طفلة طبيعية وسليمة – وهو آخر يوم ستكونين فيه كذلك يا أورانيا –، مولعة بالجديد، وفجأة تأتيها هذه الحفلة في سان كريستوبال، في مزرعة **الجنراليسمو** الشهيرة، المزرعة التي تخرج منها جميع الخيول والأبقار التي تكسب كل المسابقات، لا يمكن لكل ذلك ألا يثيرها، يستدعي فضولها، مفكرة بما سترويه لصديقاتها في مدرسة سانتو دومنغو، والحسد الذي ستشعر به زميلاتها اللواتي ضايقنها في هذه الأيام الأخيرة بحديثهن عن الفظاعات التي تقال ضد السيناتور أغوسطين كابرال في الصحف والإذاعات. ولماذا ترتاب في أمر يلقى موافقة أبيها؟ بل إن تلك الدعوة توحي لها بأنها العارض الأول للتعويض، ولفتة لجعل أبيها يعرف أن العذاب قد انتهى.

لم ترتب بأي شيء. وكامرأة صغيرة في مرحلة التفتح، راحت تهتم بأمور أكثر خفة. ماذا ستلبس يا بابا؟ وأي حذاء؟ مؤسف أن الوقت متأخر، وإلا لكانت استدعت مصففة الشعر التي سرحت شعرها وزينتها في الشهر الماضي عندما كانت وصيفة ملكة جمال سانتو دومنغو. لقد كانت تلك هي كل همومها منذ اللحظة التي قررت فيها هي وأبوها عدم إغضاب **الزعيم**. والذهاب إلى الحفلة. سيأتي دون مانويل ألفونسو ليأخذها في الساعة الثامنة ليلاً. لم يعد لديها متسع من الوقت لانجاز واجباتها المدرسية.

- هل قال لكَ السيد ألفونسو إلى أي ساعة سابقى هناك؟

- حسن، إلى أن يبدأ الناس بالانصراف. - يقول السيناتور كابرال، وهو يعصر يديه - وإذا أردتِ الخروج قبل ذلك، لأنك تشعرين بالتعب أو بأي شيء، فقولي ذلك لمانويل ألفونسو وهو سيعيدك فوراً.

الفصل السابع عشر

عندما حمل الدكتور بيليث سانتانا وبينبنيدو غارسيا - صهر الجنرال خوان توماس دياث - بيدرو ليفيو ثيدينيا إلى المستشفى الدولي في الشاحنة الصغيرة، كان الثلاثي الذي لا يفترق - آماديتو، وأنطونيو إمبرت والتوركو إستريّا سعد الله - قد قرروا أنه لم يعد ثمة معنى لمواصلة الانتظار هناك إلى أن يجد الجنرال دياث ولويس أمياما وأنطونيو دي لاماثا، الجنرال خوسيه رينه رومان. ورأوا أنه من الأفضل لهم البحث عن طبيب يعالج جراحهم، وأن يستبدلوا ملابسهم الملوثة ويبحثوا عن ملجأ، إلى أن تتضح الأمور. ولكن، إلى أي طبيب موثوق يمكنهم اللجوء في مثل هذه الساعة؟ كان الوقت قد اقترب من منتصف الليل.

- ابن خالي مانويل - قال إمبرت - مانويل دوران باريراس. يعيش قريباً من هنا وعيادته بجوار بيته. وهو شخص موثوق.

كان وجه طوني مكفهراً، مما أثار استغراب آماديتو. وفي السيارة التي حملهم بها سلفادور إلى بيت الدكتور دوران باريراس - وكان الصمت يخيم على المدينة والشوارع خالية من حركة المرور، لأن الخبر لم ينتشر بعد - سأله:

- لماذا تبدي هذا الوجه المأتمي؟

فرد إمبرت متفاجئاً:

- لأن كل هذه العملية ذهبت أدراج الرياح.

نظر إليه التوركو والملازم. فأضاف من بين أسنانه:

- أيبدو لكما طبيعياً ألا يظهر بوبو رومان. هناك تفسيران فقط. إما أنهم اكتشفوا أمره واعتقلوه، أو أنه خائف. وفي كلا الحالتين نحن ضائعون.

- ولكننا قتلنا تروخييو يا طوني! - شجعه آماديتو - وليس هناك من هو قادر على بعثه حياً.

فقال إمبرت:

- لا تظنني نادماً. والحقيقة أنني لم أبنِ أوهاماً حول الانقلاب، والمجلس

المدني-العسكري، وأحلام أنطونيو دي لاماثا تلك. لقد كنتُ أرى على الدوام أننا مجرد فريق انتحاري.

فقال آماديتو مازحاً:

- كان عليك أن تخبرني مسبقاً يا أخي. لكي أكتب وصيتي.

أوصلهما التوركو إلى حيث الدكتور دوران باريراس وذهب إلى بيته: بما أن المخبرين سيكتشفون عما قريب سيارته المهجورة على الطريق العام، فإنه يريد أن يحذر زوجته وابنيه، وأن يأخذ بعض النقود والملابس. كان الدكتور دوران باريراس نائماً. خرج بالروب البيتي متمطياً. وقد ارتخى فكه عندما أوضح له إمبرت سبب تلوثهما بالوحل ونزفهما، وعما ينتظرانه منه. نظر إليهما مذهولاً لثوانٍ، بوجهه الكبير بارز العظام، ذي الذقن النامية، والذي شوهته الحيرة. وكان بمقدور إمبرت أن يرى تفاحة آدم تصعد وتهبط في عنق الطبيب الذي كان يفرك عينيه بين لحظة وأخرى كما لو أنه يخشى أن يكون ما يراه أشباحاً. وأخيراً استجاب للموقف:

- لا بد أولاً من معالجتكما. فلنذهب إلى العيادة.

كان أسوأهما حالاً هو آماديتو. ذلك أن رصاصة كانت قد اخترقت كعبه؛ وكان ثقبا دخول وخروج الرصاصة ظاهرين مع فتات من العظم يطل من الجرح. وكان الورم يشوه قدمه وجزءاً من كاحله.

- لستُ أدري كيف تستطيع البقاء واقفاً بمثل هذه الإصابة. - علق الدكتور بينما هو يعقم له الجرح.

فرد الملازم:

- الآن فقط انتبهت إلى أنه يؤلمني.

فمع السعادة بما حدث، لم يكد يهتم بقدمه. ولكن الألم موجود هناك الآن ترافقه دغدغة حارقة تصعد حتى الركبة. ضمد الطبيب الجرح، وحقنه بإبرة وقدم إليه قارورة أقراص لكي يأخذ واحداً منها كل أربع ساعات.

- هل لديك مكان تذهب إليه؟ - سأله إمبرت، بينما الطبيب يعالجه.

وفكر آماديتو على الفور بخالته ميكا. إنها واحدة من خالاته الإحدى عشرة، وأكثرهن تدليلاً له منذ طفولته. والخالة العجوز تعيش وحدها، في بيت خشبي تملأه أصص الأزهار، في جادة سان مارتين، غير بعيد عن حديقة الاستقلال.

فحذره طوني:

- أول مكان سيبحثون فيه عنا هو بيوت الأقارب. من الأفضل أن تذهب إلى صديق موثوق.

- كل أصدقائي عسكريون يا أخي. من التروخييويين المتحمسين.

يرى إمبرت قلقاً ومتشائماً ولا يفهم ذلك. فبوبو رومان سوف يظهر وسيبدأ بتنفيذ الخطة، إنه واثق من ذلك. أو أن النظام في كل الأحوال، سيبدأ بالانهيار بعد موت تروخييو، مثل قلعة من ورق.

وتدخل الدكتور دوران باريراس:

- أظن أنني أستطيع مساعدتك يا فتى. الميكانيكي الذي يصلح سيارتي يملك مزرعة صغيرة ويريد تأجيرها. عند الموقع الذي يتسع فيه نهر أوزما. هل أكلمه؟

فعل ذلك وكان الأمر سهلاً بصورة مفاجئة. الميكانيكي الذي يدعى أنطونيو سانتشيث (تونيو) وبالرغم من تأخر الوقت، جاء إلى البيت فور اتصال الدكتور به. أخبروه بالحقيقة، فصاح «يا للروعة، هذه الليلة سوف أسكر!». وقال إنه يتشرف بوضع مزرعته تحت تصرفهم. وأنه سيوصله إلى هناك بسيارته الجيب، وسيؤمن له الطعام.

فتوجه آماديتو إلى الدكتور دوران باريراس:

- كيف يمكنني أن أرد لك هذا الجميل أيها الطبيب؟

- بالاعتناء بنفسك أيها الشاب. - ومدّ له الطبيب يده وهو ينظر إليه بإشفاق، ثم أضاف:- لا أتمنى أن أكون في جلدك إذا ما أمسكوا بك.

- لن يحدث ذلك أبداً أيها الدكتور.

كان قد فقد كل الرصاص الذي لديه، ولكن إمبرت كان يملك مؤونة جيدة. فأهدى إليه حفنة من الذخيرة. عبأ الملازم مسدسه الـ 45 ثم أكد على سبيل الوداع:

- هكذا أشعر بأنني في آمان أكثر.

- آمل أن ألتقي بك قريباً يا آماديتو. - عانقه طوني - لقد كانت صداقتك أحد أطيب الأمور التي جرت لي.

بينما كانا يمضيان نحو اتساع نهر أوزما في سيارة تونيو سانتشيث الجيب، كانت المدينة قد تبدلت. فقد عبرت سيارتا «خنفساء» فيهما مخبرون، وبينما هما يجتازان جسر راداميس، رأيا وصول شاحنة مملوءة بالحراس الذين راحوا يقفزون منها ونصبوا حاجزاً.

فقال آماديتو:

- لقد عرفوا بأن **التيس** قد مات. أتمنى أن أرى كيف صارت وجوههم الآن وقد أصبحوا بلا زعيمهم.

وعلق الميكانيكي:

- لن يصدق أحد ذلك إلى أن يروا الجثة ويشموها. كم ستتغير هذه البلاد دون تروخييو!

كانت المزرعة بناء غير متقن، في وسط عقار من عشر دونمات دون زرع. وكان المسكن شبه خاو: سرير ضيق، وبعض الكراسي المخلعة، ودمجانة ماء مقطر. ووعده تونيو سانتشيث: «غداً سآتيك بشيء من الطعام. لا تقلق. لا أحد يأتي هنا».

لم يكن في البيت نور كهربائي. خلع آماديتو حذاءه واستلقى على السرير بملابسه. وراح صوت سيارة تونيو سانتشيث الجيب يخفت إلى أن تلاشى. كان متعباً ويشعر بألم في كعبه وكاحله، ولكنه أحس بسكينة كبيرة. فبموت تروخييو انزاح همٌّ ثقيل عن كاهله. فتأنيب الضمير الذي يقرض روحه منذ وجد نفسه مضطراً إلى قتل ذلك الرجل المسكين - رباه! أهو شقيق لويسا خيل! - إنه الآن واثق من نفسه، ويشعر بأنه انعتق. سيعود مثلما كان في السابق، شاباً ينظر في المرآة دون أن يشعر بالقرف من الوجه الذي يراه منعكساً عليها. آه، يا للعنة، لو أنه يستطيع أن يقضي كذلك على أبيس غارسيا والميجر فيغيروا كاريون، لما عاد يهمه شيء. وسيموت عندئذ مطمئناً. تكور على نفسه، وبدّل وضعه عدة مرات باحثاً عن النوم، ولكنه لم يتوصل إليه. وسمع في الظلام جلبة خفيفة وركض جرذان متواصلاً. وعند الفجر، كان الانفعال والألم قد خفّا واستطاع اقتناص الغفوة، نام عدة ساعات. واستيقظ منتفضاً. لقد جاءه كابوس، ولكنه لا يتذكر موضوعه.

أمضى ساعات النهار الجديد وهو يراقب من خلال النوافذ مجيء سيارة الجيب. لم يكن هناك أي شيء يؤكل في ذلك الكوخ، ولكنه لم يكن يشعر بالجوع. وجرعات الماء المقطر التي كان يشربها بين وقت وآخر ألهت معدته. ولكن الوحدة والبعد وانعدام الأخبار كانت تعذبه. لو كان هناك مذياع على الأقل! قاوم رغبته في الخروج ماشياً إلى مكان مأهول بحثاً عن جريدة. تحمّل الجزع يا فتى، فقريباً سيأتي تونيو سانتشيث.

وقد جاء في اليوم الثالث. حضر في ظهيرة يوم الثاني من حزيران، وهو اليوم الذي كان فيه آماديتو شبه ميت من الجوع ويائساً من افتقاد الأخبار، وأكمل فيه اثنتين وثلاثين سنة من عمره. لم يعد تونيو ذلك الرجل المتدفق والواثق من نفسه الذي كان عليه عندما جاء به إلى المزرعة. فقد بدا شاحباً، ينهشه القلق، ذقنه غير حليقة، ويتكلم متلعثماً. قدم له حافظة سوائل فيها قهوة ساخنة وبعض سندويشات السجق والجبن، فالتهمها آماديتو بينما هو يستمع إلى الأخبار السيئة. صورته منشورة في كل الصحف وهم يعرضونها كل لحظة في التلفزيون، مع صور الجنرال خوان توماس دياث، وأنطونيو دي لاماثا، وإستريّا سعد الله، وفيفي باستوريثا، وبيدرو ليفيو ثيدينيو، وأنطونيو إمبرت، وهواسكار تيخيدا، ولويس أمياما. فقد وشى بهم بيدرو ليفيو المعتقل. وهم يقدمون مبالغ كبيرة من المال لمن يقدم معلومات عنهم. وهناك مطاردة غاشمة ضد كل مشبوه بمناهضة التروخييوية. لقد جرى اعتقال الدكتور دوران باريراس في اليوم السابق؛ وتونيو يفكر بأن الأمر سينتهي بالدكتور، عند إخضاعه للتعذيب، إلى الوشاية به. ومن الخطر الشديد أن يبقى آماديتو هناك.

فقال له الملازم:

- لن أبقى هنا حتى ولو كان مخبأ آمناً يا تونيو. فليقتلوني قبل أن أمضي ثلاثة أيام أخرى في هذه الوحدة.

- وإلى أين ستذهب؟

فكر بابن خالته مكسيمو ميسيس الذي يملك أرضاً على طريق دوارتي. ولكن تونيو أفقده الحماس: كل الطرق العامة تغص بالدوريات وهم يفتشون السيارات. لن يتمكن من الوصول إلى مزرعة ابن خالته دون أن يتعرفوا عليه.

- لا يمكنك تصور الوضع - قال تونيو سانتشيث مهتاجاً - هناك مئات المعتقلين. إنهم يبحثون عنكم كالمجانين.

فقال آماديتو:

- فليذهبوا إلى الجحيم. فليقتلوني. التيس قد مات ولن يستطيعوا بعثه حياً. أما أنت فلا تقلق يا أخي. لقد فعلتَ الكثير من أجلي. هل يمكنك أن تُخرجني من هنا حتى الطريق العام؟ سأعود إلى العاصمة ماشياً.

- إنني خائف، ولكن ليس إلى الحد الذي أتخلى فيه عنك على الطريق، فأنا لستُ ابن عاهرة إلى هذا الحد. - قال تونيو أكثر هدوءاً، وربت على ظهره - هلم

بنا، سأوصلك. إذا ما أمسكوا بنا، فسأقول إنك قد هددتني بمسدسك، أوكي؟

وَضَعَ آماديتو في الجزء الخلفي من سيارة الجيب، تحت قطعة خيش، ووضع فوقها حزمة حبال وبعض صفائح البنزين التي كانت تهتز فوق الملازم المتكور على نفسه. سبب له ذلك الوضع تشنجات وفاقم من إحساسه بالألم في قدمه؛ وفي كل مطب في الطريق كان يتلقى ضربات على كتفيه، على ظهره، وعلى رأسه. ولكنه لم يغفل لحظة واحدة عن مسدسه الـ 45؛ كان يحمله في يده اليمنى، وقد أنزل مسمار الآمان. لن يسمح لهم بأن يأخذوه حياً مهما حدث. لم يكن يشعر بالخوف. والحقيقة أنه لم يكن يمني نفسه بآمال كبيرة في الخروج من هذه الواقعة. ولكن ما أهمية ذلك. فهو لم يشعر بمثل هذه الطمأنينة منذ تلك الليلة المشؤومة مع جوني أبيس.

وسمع تونيو سانتشيث المذعور يقول له:

– إننا نقترب من جسر راداميس. لا تتحرك، لا تُحدث صوتاً. هناك دورية.

توقفت سيارة الجيب. سَمِعَ أصواتاً، خطوات، ثم سمع بعد هنيهة صرخة ودودة: «أهذا أنت يا تونيو». «ما الأخبار يا صديقي». وسمحوا له بمواصلة المسير دون تفتيش السيارة. وكانا في منتصف الجسر عندما سمعَ تونيو سانتشيث يقول له من جديد:

– لقد كان النقيب صديقي، إنه النحيل راسبوتين، يا للحظ! مازالت خصيتاي تتدليان مثل ربطة عنق يا آماديتو. أين تريد النزول؟

– في جادة سان مارتين.

بعد قليل توقفت الجيب. وقال له تونيو:

– لا أرى مخبرين في أي مكان، انتهز الفرصة. وليكن الله معك يا فتى.

تخلص الملازم من قطعة الخيش ومن صفائح البنزين وقفز إلى الرصيف. كانت تمر بعض السيارات، ولكنه لم ير مشاة، باستثناء رجل يحمل عكازاً ويبتعد مولياً إليه ظهره.

– فليكافئك الرب يا تونيو.

– وليكن بعونك. – كرر تونيو سانتشيث وهو ينطلق.

بيت الخالة ميكا – وهو من الخشب بالكامل، ومؤلف من طابق واحد، وله سور دون حديقة، ولكنه محاط بأصص أزهار على النوافذ – كان على بعد عشرين متراً، قطعها آماديتو بخطوات واسعة وهو يعرج، ودون أن يخبئ

المسدس. ما إن طرق الباب حتى فُتح. لم يكن لدى الخالة ميكا وقت للشعور بالمفاجأة، لأن الملازم دخل قافزاً، مبعداً إياها من أمامه ومغلقاً الباب وراءه.

- لا أعرف ماذا أفعل، أين أختبئ أيتها الخالة ميكا. سأبقى ليوم أو يومين، ريثما أجد مكاناً آمناً.

راحت الخالة تقبله وتعانقه بحنانها المعهود. ولم تكن تبدو خائفة مثلما خشي آماديتو.

- لا بد أنهم رأوك يا بني. كيف خطر لك أن تأتي في وضح النهار. جيراني تروخييون ضاريون. إنك مغطى بالدم. وما هذه الأضمدة؟ هل جرحوك؟

رصد آماديتو الشارع من وراء ستارة النافذة. لم يكن هناك أحد على الأرصفة. وكانت الأبواب والنوافذ في الجهة الأخرى من الشارع مغلقة.

- منذ أن أذاعوا الخبر وأنا أصلي إلى القديس بيدرو كلافير من أجلك، إنه قديس صاحب معجزات. - وكانت خالته تمسك وجهه بين يديها - عندما ظهرتَ في التلفزيون وفي جريدة الكاريبي، جاءت جارات كثيرات يسألنني، ويستفسرن. عسى ألا يكن قد رأينك. يا لمظهرك يا بني. هل تريد شيئاً؟

- أجل يا خالتي. - ضحك وهو يداعب شعرها الأبيض - أريد أن أستحم وأن آكل شيئاً. إنني أموت جوعاً.

- أجل، واليوم هو عيد ميلادك! - تذكرت الخالة ميكا، وعانقته من جديد.

إنها عجوز ضئيلة ونشيطة، ذات ملامح صارمة وعينين عميقتين وطيبتين. جعلته يخلع بنطاله وقميصه لتنظفهما، وبينما آماديتو يستحم - وكانت تلك متعة إلهية - سخنت له كل ما لديها من بقايا الطعام في المطبخ. خرج الملازم بالسروال والقميص الداخليين ووجد على الطاولة مأدبة: مقال خضراء، وسجق مقلي، وأرز، وشرائح دجاج مقلية. أكل بشهية وهو يستمع إلى قصص خالتة ميكا عن القلق الذي سببه في الأسرة معرفة أنه أحد الذين قتلوا تروخييو. لقد ذهب المخبرون إلى بيوت ثلاث من أخواتها، وسألوا عنه. أما هنا فلم يأتِ أحد بعد.

- إذا لم يكن يهمك، فسوف أنام قليلاً يا خالتي. منذ أيام وأنا لا أكاد أغفو من الضجر. إنني أشعر بالسعادة لوجودي معكِ هنا.

أخذته إلى غرفة نومها وجعلته يستلقي في سريرها، تحت رسم للقديس بيدرو كلافير، قديسها المفضل. وأنزلت الستائر لتُظلم الغرفة وقالت له إنها ستغسل ملابسه وتكويها ريثما ينام قيلولته. «وسنفكر في أثناء ذلك أين

سنخبئك يا آماديتو». ثم قبلته مرات كثيرة من جبهته ورأسه: «وأنا التي كنتُ أظنك تروخييوياً جداً يا بني». غفا على الفور. وحلم بأن التوركو سعد الله وأنطونيو إمبرت يناديانه بإلحاح: «آماديتو، آماديتو!». يريدان إخباره بشيء مهم ولكنه لم يكن يفهم إيماءاتهما ولا كلماتهما. بدا له أنه لم يكد يغمض عينيه عندما أحس بأن هناك من يهزه. وكانت هناك خالته ميكا، شاحبة وخائفة جداً إلى حدٍ أحس معه بالشفقة عليها، وبتأنيب الضمير لأنه ورطها في هذا الأمر.

- إنهم هناك، إنهم هناك - كانت تقول بصوت مختنق وهي ترسم إشارة الصليب - توجد عشر أو اثنتا عشرة سيارة «خنفساء» والكثير من المخبرين يا بني.

لقد كان صاحياً تماماً الآن ويعرف تماماً ما عليه عمله. أجبر العجوز على الانبطاح على الأرض وراء السرير، عند الجدار، وتحت رسم القديس بيدرو كلافير. وأمرها:

- لا تتحركي، لا تنهضي من أجل أي شيء في الدنيا. أحبك جداً يا خالتي ميكا.

كان يحمل المسدس 45 في يده. وكان حافياً، لا يرتدي سوى السروال والقميص الداخليين العسكريين بلونهما الخاكي. تسلل ملتصقاً بالجدار حتى الباب الرئيسي. نظر من خلال ألواح الخشب دون أن يُرى. كان مساء ذا سماء غائمة، وكان هناك من يعزف لحن بوليرو من بعيد. كانت تغطي المشهد عدة سيارات فولكسفاغن سوداء من تلك التي تستخدمها المخابرات العسكرية. وكان هناك عشرون مخبراً على الأقل مسلحون ببنادق رشاشة ومسدسات، يطوقون البيت. ثلاثة أفراد كانوا يقفون أمام الباب. طرقه أحدهم بقبضته جاعلاً أخشابه تهتز. وصرخ بصوت من حلقه:

- نعرف أنك في الداخل يا غارسيا غيريرو! اخرج وذراعاك إلى أعلى إذا كنت لا تريد أن تموت مثل كلب!

«لن أموت مثل كلب»، غمغم. وفي الوقت الذي فَتَحَ فيه الباب بيده اليسرى، أطلق النار بيده اليمنى. تمكن من إفراغ مخزن مسدسه، ورأى من كان يطلب منه الاستسلام يسقط وهو يخور بعد إصابته في منتصف صدره. ولكن سقوطه مصاباً بما لا يحصى من طلقات الرشاشات والمسدسات، منعه من أن يرى أنه فضلاً عن قتل أحد المخبرين، تمكن من جرح اثنين آخرين قبل أن يموت. لم يرَ

كيف جرى ربط جثته – مثلما يربط الصيادون الغزلان الميتة فـي رحـلات الصيـد فـي سلسلة الجبال الوسطى – على سطح إحدى سيارات الفولكسفاغن، وهكذا كان رجال جوني أبيس الذين في «الخنفساء» يمسكون به من كاحليه ومعصميه، ويعرضونه على الناظرين فـي حديقـة الاستقلال، بينمـا كـان مخبرون آخـرون يدخلون إلى البيت، ويجدون الخالة ميكا أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، حيث تركها هو، ويقتادونها وهـم يدفعونـها ويبصقـون عليـها إلـى مقـر الاسـتخبارات العسكرية، فـي الوقت الذي بدأت شـرذمة مـن الجشـعين، أمـام عيـون الشـرطة الساخرة وغير المبالية، بسلب محتويات البيت، سارقين كل ما لم يسرقه المخبرون من قبل، وبعد نهب البيت، وتكسيره، وانتزاع أخشـابه، أضرموا فـيه النـار أخيراً، ولم يبق منه عند الغروب إلا رماد وأنقاض متفحمة.

الفصل الثامن عشر

عندما أدخل أحد المساعدين العسكريين لويس رودريغيث، سائق مانويل ألفونسو، إلى المكتب، نهض **الجنراليسمو** ليستقبله، وهو ما لا يفعله مع أهم الشخصيات.

سأله بلهفة:

– كيف حال السفير؟

– بين بين أيها الزعيم – وأبدى السائق وجهاً يناسب الظرف وهو يلمس حنجرته: – يشعر بآلام شديدة مرة أخرى. صباح هذا اليوم أرسلني لإحضار الطبيب، لكي يعطيه حقنة مهدئة.

يا لمانويل المسكين. هذا ليس عدلاً، يا للعنة. شخص كرس كل حياته للعناية بجسده، ليكون جميلاً، أنيقاً، وليقاوم قانون الطبيعة اللعين الذي يفرض القبح على كل شيء، يتعرض لمثل هذا العقاب، وفي المكان الذي يسبب له أكبر قدر من الإذلال: في ذلك الوجه الذي كان ينبض بالحياة، والوسامة، والعافية. من الأفضل له لو أنه بقي ميتاً على طاولة العمليات. عندما رآه لدى عودته إلى **مدينة تروخييو**، بعد العملية الجراحية في «مايو كلينيك»، تضمخت عينا **المنعم** بالدمع. يا للدمار الذي صار إليه. وكان لا يكاد يفهم ما يقوله بعد أن استأصلوا نصف لسانه.

– انقل إليه تحياتي – قال الجنراليسمو ذلك متفحصاً مظهر لويس رودريغيث: بدلة قاتمة، قميص أبيض، ربطة عنق زرقاء، حذاء لامع: إنه أفضل الزنوج زينة في جمهورية الدومينيكان – ما لديك من أخبار؟

– أخبار جيدة جداً أيها **الزعيم** – ولمعت عينا لويس رودريغيث – لقد عثرتُ على الفتاة، لم أجد أية مشكلة. عندما تشاء سيادتك.

– هل أنت واثق من أنها هي نفسها؟

الوجه الأسود الضخم ذو الندوب والشارب، أومأ مؤكداً عدة مرات.

- متأكد تماماً. إنها من قدمت لك الزهور يوم الاثنين باسم شبيبة سان كريستوبال. اسمها يولاندا إستيريل. سبع عشرة سنة. وها هي صورتها.

إنها صورة بطاقة مدرسية، ولكن تروخييو تعرف على العينين الناعستين، والفم ذي الشفتين الممتلئتين، والشعر المنفلت الذي يكنس كتفيها. كانت الفتاة قد مرت في استعراض المدارس، حاملة صورة كبيرة للجنراليسمو، أمام المنصة المقامة في حديقة سان كريستوبال المركزية، ثم صعدت بعد ذلك إلى المنصة لتقدم إليه باقة ورد وأورطنسيا ملفوفة بورق سيلوفان. تذكر الجسد الممتلئ، والتكورات النامية، والنهدين الصغيرين الطليقين بوضوح تحت البلوزة، والمؤخرة البارزة. فأحس بدغدغة في خصيتيه بعثت الحماسة في روحه.

- خذها إلى بيت كاوبا، في حوالي الساعة العاشرة - قال وهو يكبح تلك التخيلات التي تجعله يضيع الوقت - تحياتي المحبة إلى مانويل. وليعتنِ بنفسه.

- أجل أيها **الزعيم**، وهو يبلغك تحياته. سآخذ الفتاة قبل العاشرة بقليل.

انصرف وهو ينحني باحترام. اتصل **الجنراليسمو** بواحد من أجهزة الهاتف الستة التي على مكتبه المطلي باللك، بمفرزة الحراسة في بيت كاوبا، لكي تعطر بينيتا سيبولبيدا الغرف برائحة اليانسون وتملأها بالأزهار الغضة (إنه احتياط غير ضروري، لأن مدبرة المنزل، التي تعرف أنه قد يأتي في أي لحظة، تحافظ على بيت كاوبا لامعاً على الدوام، ولكنه لم يتوانَ مرة واحدة عن إخبارها مسبقاً.) أمر المساعدين العسكريين بأن يجهزوا الشفروليه وأن يستدعوا سائقه وياوره وحارسه الشخصي ثاكرياس دي لا كروث، لأنه سيذهب هذه الليلة بعد مشوار المسير إلى سان كريستوبال.

الترقب يثير حماسته. ألا تكون ابنة مديرة المدرسة في سان كريستوبال، تلك التي ألقت أمامه قبل عشر سنوات قصيدة لسالومي أورينيا، خلال زيارة سياسية أخرى لمدينة مولده، واستثارته جداً بإبطيها منتوفي الشعر اللذين كانت تعرضهما وهي تلقي الشعر، فغادر الحفل الرسمي المقام على شرفه منذ بدايته لكي يأخذ ابنة مدينة سان كريستوبال تلك إلى بيت كاوبا؟ تيرينثيا إستيريل؟ أجل، هكذا كان اسمها. أحس بهبة استثارة أخرى وهو يتخيل أن يولاندا هي ابنة أو أخت تلك المعلمة. كان يمضي مسرعاً، مجتازاً الحدائق ما بين القصر الوطني وقصر راداميس، وهو لا يكاد يسمع شروحات الضابط المرافق الذي يحرسه: عدة اتصالات من وزير القوات المسلحة، الجنرال رومان فيرنانديث، واضعاً

نفسه تحت تصرفه، إذا ما كان فخامته يريد رؤيته قبل مشوار المسير. آه، إنه خائف منذ الاتصال الهاتفي معه هذا الصباح. وسيكون خوفه أكبر عندما يغطيه باللعنات، ويريه بركة المياه الآسنة.

دخل مثل خذروف إلى غُرَفِه في قصر راداميس. كان ينتظره الزي الأخضر الزيتوني الذي هو لباسه اليومي، موضوعاً على السرير. إن سينفوروسو لمتنبئ حقاً. فهو لم يخبره بأنه سيذهب إلى سان كريستوبال، ولكن الخادم العجوز جهز له الملابس التي يذهب بها دوماً إلى مزرعة فونداثيون. لماذا يرتدي هذا الزي اليومي للذهاب إلى بيت كاويا؟ إنه لا يعرف السبب. إنه الولع بالطقوس، بتكرار الحركات والأعمال، الذي يميل إليه منذ شبابه. النُذر مواتية: ليست هناك على السروال الداخلي ولا على البنطال لطخة من البول. وقد تلاشى الانزعاج الذي سببه له بالاغير حين تجرأ على الممانعة في ترقية الملازم فيكتور آليثانو بينيا ريفيرا. إنه يشعر بالتفاؤل بهذا التنميل في خصيتيه والأمل بامتلاك ابنة أو أخت تيرينشيا طيبة الذكر تلك بين ذراعيه. أتكون عذراء؟ لن يمر في هذه المرة بالتجربة الكريهة التي جرت له مع تلك الهيكل العظمي.

سيمتعه قضاء الساعة التالية في استنشاق الهواء المالح، متلقياً النسيم البحري ومشاهد تحطم الأمواج على جادة الكورنيش. رياضة المشي ستساعده في محو قسم كبير من الطعم السيئ الذي أحس به في فترة ما بعد الظهر، وهو أمر نادراً ما يحدث له: فهو لم يكن يميل قط إلى الغم أو التفاهة.

بينما هو يخرج، جاءت إحدى الخادمات لتقول له إن السيدة ماريا تريد أن تنقل إليه رسالة من ابنه الشاب رامفيس الذي اتصل بها من باريس. «في ما بعد، في ما بعد، ليس لدي وقت.» فمحادثة مع زوجته العجوز القميئة ستفسد عليه مزاجه الرائق.

اجتاز ثانية حدائق قصر راداميس بخطوات نشطة، متلهفاً للوصول إلى شاطئ البحر. ولكنه قبل ذلك، وكما في كل يوم، مرّ على بيت أمه في جادة مكسيمو غومث. وعند بوابة منزل دونيا خوليا الضخم ذي اللون الوردي، كان ينتظره نحو عشرين شخصاً سيرافقونه، وهم المحظوظون - لأنهم يواكبونه عند كل غروب - الذين يحسدهم ويكرههم من لم يحظوا بذلك الشرف. ومن بين الضباط والمدنيين المجتمعين في حدائق منزل **الأم السامية** والذين انقسموا إلى صفين ليفسحوا له الطريق قائلين: «طاب مساؤك أيها **الزعيم**»، «طاب مساؤك

أيها **الزعيم**»، تعرف على المدية إسبايات، والجنرال خوسيه رينيه رومان - كم هما قلقتان عينا الجنرال الأبله المسكين! - والكولونيل جوني أبيس غارسيا، والسيناتور هنري تشيرينوس، وصهره الكولونيل ليون إستيفيث، وصديقه المجاور له موديستو دياث، والسيناتور خيرمياس كينتانيا الذي حل للتو محل أغوسطين كابرال في رئاسة مجلس الشيوخ، ومدير جريدة **الكاريبي** دون بانتشيتو، والضائع بينهم جميعاً، الرئيس الضئيل بالاغير. لم يصافح أياً منهم. صعد إلى الطابق الأول، حيث تجلس السيدة خوليا على كرسيها الهزاز في ساعة الغروب. وهناك كانت العجوز، غارقة في كرسيها. ضئيلة، قزمة، تنظر بثبات إلى اللعبة النارية للشمس وهي تغطس في الأفق، محاطة بغيوم مصطبغة بالحمرة. ابتعدت السيدات والخادمات اللواتي يحطن بأمه. انحنى، وقبّل خدي دونيا خوليا الجلديين وداعب شعرها بحنان.

- أنت تحبين الغروب كثيراً، أليس كذلك يا عجوزي؟

هزت رأسها مبتسمة له بعينين غائرتين، ولكنهما رشيقتان، ولمس الخطاف الصغير الذي هو يدها خده. هل تتعرف عليه؟ عمر السيدة آلتاغراثيا خوليا مولينا ست وتسعون سنة، ولا بد أن ذاكرتها هي ماء صابون تذوب عليه الذكريات. ولكن غريزةً ما تقول لها إن هذا الرجل الذي يأتي لزيارتها كل مساء في موعد دقيق، هو كائن عزيز. لقد كانت طيبة على الدوام هذه الابنة غير الشرعية لهايتيين مهاجرين إلى سان كريستوبال، وقد ورث هو وأخوته تقاطيع وجهها، وهو أمر كان يخجل على الدوام منه على الرغم من حبه لها. ومع ذلك، فإنه حين يرى في ملعب سباق الخيل، أو في الكنتري كلوب، أو في مسرح الفنون الجميلة كل الأسر الأرستقراطية الدومينيكانية تقدم له ولاءها، يفكر ساخراً: «إنهم يلحسون الأرض أمام متحدر من عبيد». وما ذنب **الأم السامية** إذا كانت تسري في عروقها دماء زنجية؟ فدونيا خوليا لم تعش إلا لزوجها، ذلك السكير الوسيم وزير النساء، دون خوسيه تروخييو بالديث، ولأبنائها، ناسية نفسها وواضعة إياها في المكان الأخير من كل أمر. لقد أذهلته على الدوام هذه المرأة الضئيلة التي لم تطلب منه قط نقوداً، ولا ملابس، ولا رحلات، ولا أملاكاً. لا شيء مطلقاً. وكان يضطر إلى إعطائها كل شيء بالقوة. وكان يمكن لدونيا خوليا بزهدها الفطري أن تواصل العيش في البيت المتواضع حيث ولد **الجنراليسمو** وأمضى طفولته في سان كريستوبال، أو في أحد أكواخ أسلافها

الهايتيين الميتين جوعاً. الشيء الوحيد الذي كانت تطلبه منه دونيا خوليا في حياتها هو الشفقة على بيتان، ونيغرو، وبيبي، وآنيبال. هؤلاء الاخوة الأغبياء والأوغاد، كلما ارتكبوا إساءات، وعلى أنخيليتا ورامفيس وراداميس الذين يختبؤون منذ طفولتهم وراء الجدة لتهدئة غضب أبيهم. ومن أجل دونيا خوليا كان تروخييو يسامحهم. أتراها تعرف أن هناك مئات الشوارع والحدائق والمدارس في الجمهورية تحمل اسم **خوليا مولينا أرملة تروخييو**؟ وعلى الرغم مما تتلقاه من تملق وحفاوة، إلا أنها ما تزال تلك المرأة المتحفظة وغير المرئية التي يتذكرها تروخييو في طفولته.

إنه يبقى في بعض الأحيان وقتاً طويلاً إلى جوار أمه، يحدثها عن أحداث النهار، حتى عندما لا تكون قادرة على فهمه. أما اليوم، فقد اكتفى بقول بعض العبارات الرقيقة لها ثم رجع إلى شارع مكسيمو غوميث، متلهفاً لاستنشاق عبير البحر.

ما إن خرج إلى الجادة الفسيحة – وعادت باقة المدنيين والضباط تنفتح أمامه من جديد – حتى انطلق يمشي. كان يلمح البحر الكاريبي على بعد ثماني كوادرات إلى أسفل، مشتعلاً بذهب ونيران الغسق. وأحس بموجة أخرى من النشوة. كان يمشي إلى يمين الجادة، يتبعه الندماء منتشرين على شكل مروحة في جماعات تحتل الشارع والأرصفة. في هذه الساعة تتوقف حركة المرور في شارع مكسيمو غوميث وفي الجادة، مع أن جوني أبيس، وبناء على أوامر **الزعيم**، قد حوّل الحراسة في الشوارع الجانبية إلى شبه سرية. فقد كانت تلك التقاطعات المزدحمة بالحراس والمخبرين تبعث في **الجنراليسمو** نوعاً من رهاب الأماكن المغلقة. لم يكن هناك من يجتاز حاجز المساعدين العسكريين الذين يمشون على بعد متر عن **الزعيم**. والجميع ينتظرون أن يومئ إلى من يمكنه الاقتراب. وبعد أن مشى نصف كوادرا، مستنشقاً رائحة الحدائق، التفت وبحث عن رأس موديستو دياث شبه الأصلع وأومأ إليه. حدث التباس طفيف، ذلك أن السيناتور المُشحم هنري تشيرنيوس الذي كان يمشي إلى جانب موديستو دياث، ظن أنه المختار وأسرع نحو **الجنراليسمو**. ولكنه قوطع وأعيد إلى الجمهرة. لقد كان المسير على إيقاع خطوات تروخييو يكلف موديستو، وفير اللحم، جهداً كبيراً، ويجعله يتعرق بغزارة. كان يحمل المنديل في يده، ويمسح به بين حين وآخر جبهته ورقبته ووجنتيه المنتفختين.

- طاب مساؤك أيها **الزعيم**.

- عليك أن تلتزم نظام حمية - نصحه تروخييو - لم تكد تبلغ الخمسين وتُطلق اللهاث. تعلم مني، سبعون ربيعاً وما أزال في أفضل مظهر.

- زوجتي تقول لي ذلك كل يوم أيها **الزعيم**. إنها تُعدّ لي حساء دجاج وسلطة خضار. ولكن ليس لي إرادة على ذلك. يمكنني التخلي عن كل شيء إلا عن المائدة الجيدة.

كانت بدانته تكاد لا تسمح له بمجاراته. لقد كان موديستو يشبه أخاه خوان توماس ديات بوجهه العريض ذي الأنف الأفطس، وشفتيه الغليظتين، وببشرة لا شبهة في أصولها العرقية القديمة، ولكنه كان أكثر ذكاء من أخيه ومن معظم الدومينيكانيين الذين يعرفهم تروخييو. لقد كان رئيساً للحزب الدومينيكاني، وعضواً في الكونغرس، ووزيراً، ولكن **الجنراليسمو** لم يسمح له بالبقاء طويلاً في الحكومة، والسبب في ذلك تحديداً هو وضوحه الذهني في عرض وتحليل وحل أية مشكلة، إذ بدا له ذلك خطيراً، ويمكن له أن يحمله على التكبر ثم على الخيانة.

- ما هي المؤامرة التي ينشغل خوان توماس بتدبيرها الآن؟ - وجه إليه السؤال مباشرة وعاد ينظر إليه - لا بد أنك مطلع على سلوك أخيك وصهرك على ما أعتقد.

ابتسم موديستو وكأنه يحتفل بمزحة:

- خوان توماس؟ ما بين مزارعه وصفقاته، والويسكي وعروض السينما في حديقة بيته، أشك في أن تبقى لديه لحظة فراغ للتآمر.

- إنه يتآمر مع الدبلوماسي اليانكي هنري دياربورن - أكد تروخييو كما لو أنه لم يسمعه - فليترك هذه الحماقات، لأنه مر بوقت عصيب مرة ويمكن له أن يمر بأسوأ منه.

- أخي ليس أبله إلى حد التورط في مؤامرات ضد سيادتكم أيها الزعيم. ولكنني سأقول له ذلك على أي حال.

يا للروعة: نسيم البحر يهوّي رئتيه، بينما هو يسمع صخب الأمواج تتحطم على الصخور وعلى حاجز الكورنيش الاسمنتي. همّ موديستو ديات بالانصراف، ولكن **المنعم** أوقفه:

- انتظر، لم أنته بعد. أم أنك لم تعد تتحمل المزيد؟

- إنني مستعد لأن ألقي بنفسي إلى الجحيم من أجلك.

كافأه تروخييو بابتسامة. لقد أحس على الدوام بالتعاطف تجاه موديستو الذي كان متمعناً، عادلاً، بشوشاً، غير منافق، فضلاً عن كونه ذكياً. ولكن ذكاءه لم يكن مُستَغَلاً وتحت السيطرة مثلما هو ذكاء مخيخ أو الدستوري سكران أو بالاغير. فقد كان في ذكاء موديستو شيء من الجموح والاستقلالية يمكن لهما أن يؤديا به إلى المشاغبة إذا ما امتلك سلطة كبيرة. لقد كان موديستو وخوان توماس من سان كريستوبال أيضاً، وقد عرفهما منذ شبابهما، وإضافة إلى إعطائهما المناصب، كان قد استخدم موديستو في مناسبات كثيرة كمستشار. وقد أخضعه لاختبارات قاسية جداً، خرج منها بنجاح. أول تلك الاختبارات كان في أواخر الأربعينيات، بعد زيارته لمهرجان الماشية الذي نظمه موديستو دياث لثيران السلالات الجيدة والأبقار الحلوبة في فيبيا ميبا. ويا للمفاجأة: فالمزرعة غير الكبيرة كانت بالغة النظافة والحداثة والازدهار مثل مزرعة فونداثيون. ولكن ما جرح حساسيته أكثر من الزرائب المرتبة والأبقار الحلوبة الفاخرة، هو الانشراح المتعجرف الذي يعرض به موديستو مزرعته عليه وعلى المدعوين الآخرين. وقد بعث إليه في اليوم التالي **القذارة الحية** مع شيك بعشرة آلاف بيزو من أجل إنجاز عملية بيع وشراء المزرعة. ودون أي تردد حيال اضطراره إلى بيع حبة عينه تلك بثمن بخس (فبقرة واحدة تساوي أكثر من ذلك الثمن)، وقّع موديستو العقد وأرسل ملاحظة مكتوبة إلى تروخييو يشكره فيها لأن «فخامته يعتبر مؤسستي الزراعية-الرعوية الصغيرة جديرة بأن تُستغل بيده الخبيرة». وبعد أن دقق في ما إذا كانت تلك الكلمات تتضمن سخرية تستوجب العقاب، قرر **المنعم** أن لا. وبعد خمس سنوات من ذلك، كان موديستو دياث قد أقام مزرعة مواشٍ أخرى كبيرة وبديعة، في منطقة نائية من مقاطعة لاإستريّا. أيظن أنه سيكون بمأمن في تلك المنطقة البعيدة؟ فكر تروخييو بذلك وهو يموت من الضحك، وأرسل إليه مخيخ كابرال ومعه شيك آخر بقيمة عشرة آلاف بيزو ليقول له إنه يثق ثقة مطلقة بموهبته الزراعية-الرعوية، وإنه يشتري منه المزرعة على العماء دون أن يراها. وقد وقّع موديستو وثائق نقل الملكية، وتقبل المبلغ الرمزي، وشكر **الجنراليسمو** في رسالة مؤثرة أخرى. ولكي يكافئه تروخييو على انصياعه، أهدى إليه بعد بعض الوقت الوكالة الحصرية باستيراد غسالات وخلاطات كهربائية، فعوض شقيق الجنرال خوان توماس دياث بذلك عن تلك الخسائر.

- وهذه المشكلة مع القسس آكلي البراز. - تأفف تروخييو - هل لها حلّ أم لا؟

- لها حلّ بكل تأكيد أيها الزعيم. - كان موديستو يمشي ولسانه خارج فمه؛ وكانت صلعته تتعرق إضافة إلى تعرق جبهته ورقبته - ولكن، إذا سمحت لي، فإن المشاكل مع الكنيسة ليست هي المهمة. فهي ستنتهي تلقائياً إذا ما تم حلّ المشكلة الأساسية: أعني الغرينغيين. لأن كل شيء مرتبط بهؤلاء.

- لن يكون ثمة حلّ إذن. لأن كينيدي يريد رأسي. وبما أنه ليست لدي نية بتقديمه إليه، فسوف تكون هناك حرب عما قريب.

- الأمريكيون لا يخشون سيادتك، وإنما هم يخشون فيدل كاسترو أيها الزعيم. وخصوصاً بعد إخفاقهم في خليج الخنازير. فما يثير ذعرهم الآن أكثر من أي وقت آخر هو انتشار الشيوعية في أميركا اللاتينية. وهذا هو الوقت المناسب لنثبت لهم أن أفضل من يقف في وجه الحمر في المنطقة هو سيادتك، وليس بيتانكور ولا فيغيريس.

- لقد أتيح لهم ما يكفي من الوقت ليلحظوا ذلك يا موديستو.

- يجب علينا أن نفتح عيونهم أيها الزعيم. فالأمريكيون بطيئو الفهم أحياناً. ولا يكفي أن نهاجم بيتانكور وفيغيريس ومونيوث مارين. الأكثر فعالية من ذلك هو تقديم مساعدة سرية إلى الشيوعيين الفنزويليين والكوستاريكيين، وإلى الاستقلاليين البويرتوريكيين. وعندما يرى كينيدي أن رجال حرب العصابات بدؤوا يثيرون الشغب في تلك البلدان، ويقارن ذلك مع الهدوء المستتب هنا، سوف يفهم.

- سنتحدث في هذا الشأن. - قاطعه الجنراليسمو بصورة مفاجئة.

سماع موديستو يتكلم في الأمور السابقة كان له وقع سيئ عليه. لا يريد أية أفكار قاتمة. إنه يريد الحفاظ على حسن قابليته التي بدأ بها المشي. فرض على نفسه التفكير بصبية اللافتة والأزهار. «رباه، قدم لي هذه النعمة. إنني بحاجة إلى مجامعة يولاندا إستيريل كما يجب هذه الليلة. لكي أعرف أنني لستُ ميتاً. وأنني لستُ عجوزاً. وأنه يمكنني مواصلة الحلول محلك في مهمة السير قدماً ببلد الأنذال الشيطاني هذا. لا يهمني الآن القسس ولا الأمريكيون، ولا المتآمرون، ولا المنفيون. أنا قادر وحدي على كنس كل هذه القمامة. ولكنني أحتاج إلى مساعدتك لكي أضاجع هذه البنت. لا تكن دنيئاً. ولا تكن بخيلاً معي.

أعطني القدرة، امنحني إياها.» تنهد يراوده شك كريه بأن ذاك الذي يتضرع إليه، إذا كان موجوداً، فإنه يراقبه ساخراً من أعماق الزرقة القاتمة التي بدأت تطل منها أولى النجوم.

المشي في شارع مكسيمو غوميث يفور بالذكريات. فالبيوت التي يتجاوزها هي رموز لأشخاص وأحداث بارزة من سنوات حكمه الواحدة والثلاثين. بيت رامفيس، في العقار الذي كان يقوم فيه بيت أنسيلمو باولينو، من كان ذراعه اليمنى طوال عشر سنوات، إلى أن صادر في عام 1955 كل ممتلكاته، وبعد أن أودعه السجن لبعض الوقت، أرسله إلى سويسرا مع شيك بسبعة ملايين دولار تعويضاً لخدماته. وقبالة بيت أنخيليتا وبيتشو ليون إستيفث، كان يقوم فيما مضى بيت الجنرال لودوفينو فيرناندث، البهيمة الخدوم الذي أراق الكثير من الدماء في سبيل النظام، ثم اضطر إلى قتله لأن هناك من شكا إليه من طموحاته السياسية. وبمحاذاة قصر راداميس توجد حدائق سفارة الولايات المتحدة التي كانت بيتاً صديقاً طوال أكثر من ثمانية وعشرين عاماً، وتحولت الآن إلى وكر أفاعٍ. وهناك أيضاً ملعب البيسبول الذي أمر ببنائه لكي يلهو فيه رامفيس وراداميس بلعب البيسبول. وهناك أيضاً، مثل توأمين، بيت بالاغير ومقر القاصد الرسولي، وهو مكان آخر تحول إلى البرودة والجحود والدناءة. وإلى الأمام يوجد منزل الجنرال إسبايّات المهيب، رئيس مخابراته السابق، وبعده نزولاً، هناك بيت الجنرال رودريغيث مينديث، صديق رامفيس في العربدة والتهتك. ثم يلي ذلك سفارتا الأرجنتين والمكسيك، المقفرتان حالياً، وبيت أخيه نيغرو. وأخيراً منزل آل فيشيني، أصحاب مزارع قصب سكر مليونيريون، بمسطحات أعشابه الفسيحة وممراته المحفوفة بالزهور، والذي يمشي بمحاذاته الآن.

ما إن اجتاز الجادة العريضة ليمشي على الكورنيش الملاصق للبحر، باتجاه المسلة، حتى أحس برذاذ الزبد. استند إلى الحافة، واستمع وهو يغمض عينيه إلى زعيق النوارس وخفق أجنحتها. وملأ الهواء رئتيه. إنه حمام تطهيري يعيد إليه قواه. ولكن يجب عليه ألا يسهو؛ فما زال أمامه عمل.

- استدع جوني أبيس.

كان الجنرالسمو يمشي بخطوة نشطة، باتجاه ذلك النصب الاسمنتي الذي هو تقليد لمسلة واشنطن، عندما انفصل رئيس الاستخبارات عن جمهرة المدنيين

والعسكريين، وجاء إلى جواره بهيئته غير الأنيقة والمترهلة. وراح جوني أبيس، على الرغم من بدانته، يماشيه دون ضيق.

- ماذا جرى مع خوان توماس؟ - سأله دون أن ينظر إليه.

فرد رئيس الاستخبارات العسكرية:

- ليس هناك ما يستحق الذكر يا صاحب الفخامة. كان اليوم في مزرعته في موكا مع أنطونيو دي لاماثا. أحضرا عجلاً. ووقع شجار عائلي بين الجنرال خوان توماس وزوجته تشانا، لأنها ترى أن تقطيع العجل وتتبيله يتطلب منها جهداً كبيراً.

أسكته تروخييو:

- هل التقى بالاغير مع خوان توماس في هذه الأيام الأخيرة؟

بما أن أبيس غارسيا تأخر في الرد، فقد أعاد النظر إليه. عندئذ نفى الكولونيل برأسه.

- لا يا صاحب الفخامة. حسب علمي لم يلتقيا منذ زمن. لماذا تسألني؟

- لا شيء محدداً - هز **الجنراليسمو** كتفيه - ولكنني الآن، حين كنتُ في المكتب، وعندما ذكرتُ مؤامرة خوان توماس، لاحظتُ شيئاً غريباً. أحسستُ بشيء غريب. لستُ أدري ما هو، ولكنه شيء ما. ألا يوجد في تقاريرك ما يسمح بالشك بالرئيس بالاغير؟

- لا شيء يا صاحب الفخامة. أنت تعلم أنني أضعه تحت المراقبة طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم. فهو لا يخطو خطوة واحدة. ولا يستقبل أحداً، ولا يُجري أي اتصال هاتفي إلا ونعلم به.

هز تروخييو رأسه. ليس هناك مبرر لعدم الثقة بالرئيس الدمية: يمكن أن تكون تلك الاختلاجة خاطئة. ويبدو أن هذه المؤامرة ليست جدية. أيكون آنطونيو دي لاماثا أحد المتآمرين؟ حاقد آخر يطفئ إحباطه بالويسكي وولائم الطعام. سيلتهمون الليلة عجلاً متبلاً. وماذا لو أنه انقضّ فجأة على بيت خوان توماس في غاثكوي؟ «طابت ليلتكم أيها السادة. هل يضايقكم أن تشاطروني هذا الشواء؟ له رائحة طيبة! لقد وصلت الرائحة إلى القصر وهي التي قادتني إلى هنا.» هل سيبدو الرعب على وجوههم أم السعادة؟ هل سيظنون أن زيارته هي إعادة اعتبار إلى خوان توماس؟ لا، هذه الليلة إلى سان كريستوبال لجعل يولاندا إستيريل تصرخ من اللذة، ولكي يشعر غداً بأنه معافى وشاب.

- لماذا سمحتَ لابنة كابرال بالسفر إلى الولايات المتحدة قبل أسبوعين؟

لقد فاجأ هذه المرة الكولونيل أبيس غارسيا. رآه يمر بيده على خديه المنتفخين، دون أن يدري بم يرد.

- ابنة السيناتور أغوسطين كابرال؟ تلعثم محاولاً كسب الوقت.

- أورانيا كابرال، ابنة مخيخ. راهبات مدرسة سانتو دومنغو أرسلنها في منحة إلى الولايات المتحدة. لماذا تركتها تغادر البلاد دون أن تستشيرني؟

- متأسف يا صاحب الفخامة. - هتف وهو يخفض رأسه - لقد كانت تعليماتك تقضي بملاحقة السيناتور واعتقاله إذا ما حاول اللجوء. ولم يخطر لي أن الفتاة، وقد كانت في ليلة سابقة في بيت كاوبا، ولديها تصريح مغادرة موقّع من الرئيس بالاغير... الحقيقة أنني لم أفكر حتى بمناقشة الأمر، وظننت أنه غير مهم.

- هذه الأمور يجب أن تخطر لك. - وبخه تروخييو - أريد أن تحقق مع العاملين في السكريتاريا لدي. هناك من أخفى عني مذكرة مُرسلة من بالاغير حول سفر الفتاة. أريد أن أعرف من هو ولماذا فعل ذلك.

- فوراً يا صاحب الفخامة. وأرجوك أن تغفر لي هذه الهفوة. لن يحدث مثل ذلك بعد اليوم.

صرفه تروخييو قائلاً:

- هذا ما أنتظره.

حياه الكولونيل تحية عسكرية (تثير الرغبة في الضحك) ورجع إلى حيث الندماء. مشى حوالى كوادرتين مفكراً، دون أن يستدعي أحداً. لقد نفذ أبيس غارسيا جزئياً فقط تعليماته برفع الحراسات والمخبرين. إنه لا يرى عند التقاطعات موانع الأسلاك والحواجز، ولا سيارات الفولكسفاغن الصغيرة، ولا رجال شرطة بالزي العسكري يحملون البنادق الرشاشة. ولكنه يلمح بين حين وآخر في الشوارع الجانبية المؤدية إلى الجادة سيارة «خنفساء» سوداء بعيدة، تظهر من نوافذها رؤوس المخبرين، أو يرى مدنيين لهم وجوه أوغاد، يستندون إلى أعمدة النور، مع انتفاخ تحت الإبط حيث يخبؤون المسدسات. لم تُقطع حركة المرور في جادة جورج واشنطن. وقد كان يطل أناس من الشاحنات والسيارات ملوحين له: «يحيا الزعيم!». وكان يشكرهم بحركة من يده وهو مستغرق في المشي الذي منح جسده دفئاً لذيذاً وشيئاً من التعب في ساقيه. لم يكن هناك

متنزهون بالغون في الجادة، وإنما أطفال ذوو أسمال، من ماسحي أحذية، وبائعي شكولاته وسجائر، ينظرون إليه وهم فاغرو الأفواه. ولدى مروره يداعبهم بحركة حانية أو يلقي إليهم قطعاً نقدية (فهو يحمل على الدوام الكثير من القطع النقدية في جيوبه). بعد قليل استدعى القذارة الحية.

اقترب السيناتور تشيرينوس لاهثاً مثل كلب صيد. كان يتعرق أكثر من موديستو دياث. أحس بالتحسن. فالدستوري سكران أصغر منه سناً وها هي مسيرة قصيرة تقوضه. وبدلاً من أن يرد على «طاب مساؤك أيها الزعيم»، سأله:

- هل اتصلت برامفيس؟ هل أوضح الموقف لشركة اللويدز اللندنية؟

- كلمته مرتين. - كان السيناتور تشيرينوس يجرجر ساقيه كثيراً، بينما نعل ومقدمة حذائه المشوه يصطدم ببلاطات الرصيف المخلخلة بفعل جذور أشجار النخيل واللوز - لقد أوضحتُ له المسألة، وكررت عليه أوامركم. حسن، يمكنك أن تتصور. ولكنه تقبل مبرراتي في النهاية. وعدني بإرسال الرسالة إلى اللويدز لتوضيح سوء التفاهم والتأكيد على تحويل المبلغ إلى المصرف المركزي.

- وهل فعل ذلك؟ - قاطعه تروخييو بجفاء.

- لهذا السبب اتصلت به مرة ثانية أيها الزعيم. يريد عرض برقيته على مترجم ليراجعها، كي لا تصل رسالته إلى اللويدز وفيها أخطاء، لأن إنكليزيته ليست متقنة. سيبعث البرقية دون تأخير. وقد قال لي إنه متأسف لما حدث.

هل يظن رامفيس أنه صار عجوزاً جداً لا يتوجب عليه أن يطيعه؟ ما كان ليتأخر في السابق عن تنفيذ أمر يُصدره إليه متعللاً بحجة واهية.

- اتصل به مرة أخرى. - أمره بانزعاج - فإذا لم يحل هذه المسألة مع اللويدز سيكون عليه أن يتواجه معي.

- على الفور أيها الزعيم. ولا تقلق، فقد تفهم رامفيس الموقف.

صرف تشيرينوس وقرر وضع حد لمسيره وحيداً، حتى لا يخيب أمل الآخرين الذين يأملون بتبادل بضع كلمات معه. انتظر تلك الضفيرة البشرية ودخل في وسطها ما بين فيرخيليو ألفاريث بينا ووزير الداخلية والأديان باينو بيتشاردو. وكان بين الجماعة كذلك المدية إسبايّات، وقائد الشرطة، ومدير جريدة الكاريبي ورئيس مجلس الشيوخ الجديد خيرمياس كينتانيّا، فهنأه بالمنصب وتمنى له النجاح. توهج صاحب الترقية الجديدة من السعادة وهو يفرغ نفسه في عبارات

الشكر. وبينما هو يمشي بالخطوة المسرعة نفسها، متقدماً نحو الشرق على الجانب المتاخم للبحر، طلب منهم بصوت عال:

- هيا أيها السادة، أخبروني بآخر النكات المتداولة المناهضة لتروخييو.

احتفت موجة من الضحك بفكرته، وبعد لحظة من ذلك كانوا جميعهم يلغطون مثل ببغاوات. وكان يهز رأسه ويبتسم متظاهراً بأنه يستمع إليهم. كان في بعض اللحظات ينظر خفية إلى الوجه المكدر للجنرال خوسيه رينيه رومان. فوزير القوات المسلحة لم يكن قادراً على إخفاء غمه: بماذا سيوبخه الزعيم؟ قريباً ستعرف ذلك أيها الأبله. تنقل من جماعة إلى أخرى حتى لا يشعر أحد بأنه مهمل، واجتاز حدائق فندق خاراغوا المعتنى بها، حيث كانت تصل إلى مسمعيه أنغام الأوركسترا التي تهدد موعد الكوكتيل، وبعد كوادرا واحدة، مرّ قبالة شرفات مقر الحزب الدومينيكاني. فخرج الموظفون والعاملون والناس الذين كانوا هناك لطلب الهبات مصفقين له. ولدى الوصول إلى المسلة، نظر إلى ساعته: ساعة وثلاث دقائق. لقد بدأ الظلام يخيم. لم تعد النوارس تحلق؛ فقد آوت إلى مخابئها على الشاطئ. كانت تلمع بعض النجوم، ولكن سحباً مُكرِشة حجبت القمر. وعند أسفل المسلة كانت تنتظره الكاديلاك آخر موديل التي دشنها في الأسبوع الفائت. ودّعهم بصورة جماعية («طابت ليلتكم أيها السادة، وشكراً لمرافقتكم»)، وفي الوقت نفسه، أومأ إلى الجنرال خوسيه رينيه رومان، دون أن ينظر إليه، مشيراً بضيق إلى باب السيارة الذي كان يفتحه السائق ذو الزي الرسمي:

- أنت تعال معي.

سارع الجنرال رومان - وهو يضرب كعبه بنشاط ويرفع يده إلى حافة قبعته - لتنفيذ الأمر. دخل إلى السيارة وجلس في أقصى المقعد معتدلاً تماماً وواضعاً القبعة فوق ركبتيه.

- إلى سان إيسيدرو، إلى القاعدة.

بينما السيارة الرسمية تتقدم نحو مركز المدينة لكي تنتقل إلى الضفة الشرقية لنهر أوزاما عبر جسر راداميس، راح يتأمل المشهد، كما لو كان وحيداً لم يتجرأ الجنرال رومان على التوجه إليه بالكلام، منتظراً وابل التوبيخ. وقد بدأت النذر بعد أن اجتازوا حوالي ثلاثة أميال من العشرة أميال التي تفصل بين المسلة والقاعدة الجوية.

- كم صار عمرك؟ - سأله دون أن يلتفت لينظر إليه.

- لقد أكملت ستاً وخمسين سنة أيها الزعيم.

كان رومان - الذي يسميه الجميع بوبو - رجلاً طويلاً، قوياً ورياضياً، شعره مقصوص على مستوى الجلد تقريباً. وبفضل التمارين الرياضية كان يحتفظ ببنية جسدية ممتازة، دون أي أثر للشحوم. وكان يرد عليه بصوت خافت، وبمذلة، في محاولة لتهدئته.

- وكم سنة منها أمضيت في الجيش؟ - واصل تروخييو وهو ينظر إلى الخارج، وكأنه يستجوب شخصاً غائباً.

- إحدى وثلاثون سنة أيها الزعيم، منذ تخرجي.

ترك بضع ثوان تمضي دون أن يقول شيئاً. وأخيراً التفت نحو قائد القوات المسلحة، بنظرة ازدراء غير متناهية يبعثها فيه على الدوام. لم يكن بإمكانه رؤية عينيه في الظلام الذي تنامى بسرعة، ولكنه كان واثقاً من أن بوبو رومان يرمش أو أنه يُبقي عينيه نصف مغمضتين، مثل الأطفال عندما يستيقظون في الليل ويراقبون الظلام بخوف.

- أولم تتعلم خلال هذه السنوات الطويلة بأن القائد مسؤول عن مرؤوسيه؟ وأنه مسؤول عن أخطاء هؤلاء؟

- أعرف ذلك جيداً أيها الزعيم. إذا ما أوضحت لي الأمر، فربما أستطيع تقديم تفسير لكم.

- سترى ما هو الأمر. - قال تروخييو بذلك الهدوء الظاهري الذي يخشاه معاونوه أكثر من صراخه - هل تستحم وتغتسل بالصابون كل يوم؟

- بالطبع أيها الزعيم. - حاول الجنرال رومان أن يفلت ضحكة، ولكنه كتمها لأن الجنراليسمو بقي محتفظاً بجديته.

- هذا ما آمل به، من أجل ميريا. أرى أنه من الجيد أن تستحم وتغتسل بالصابون كل يوم، وأن ترتدي بدلة مكوية جيداً، ويكون حذاؤك لامعاً. فكونك قائد القوات المسلحة يفرض عليك أن تكون قدوة للضباط والجنود الدومينيكانيين في النظافة والمظهر الجيد. أليس كذلك؟

- أجل، بالطبع أيها الزعيم. - قال الجنرال بمذلة، وأضاف: - أتوسل إليك ن تخبرني بم أخطأت. لكي أصلح الخطأ، لكي أعدل سلوكي. لا أريد أن أخيب لك.

- المظهر هو مرآة الروح. - تفلسف تروخييو - فإذا كان هناك شخص كريه الرائحة، ومخاطه يسيل، لا يمكن إئتمانه على النظافة العامة. ألا ترى ذلك؟

- أجل، بالطبع أيها الزعيم.

- والشيء نفسه ينطبق على المؤسسات. فأي احترام يمكن للمؤسسات أن تحصل عليه إذا كانت لا تهتم حتى بمظهرها؟

اختار الجنرال رومان الصمت. فقد راح الجنراليسمو يتأجج غضباً ولم يتوقف عن توبيخه طوال الخمس عشرة دقيقة التي تطلبها الوصول إلى قاعدة سان إيسيدرو الجوية. ذكّر رومان بمقدار أسفه لأن ابنة أخته ماريانا بلغت من الجنون حد الزواج من ضابط تافه مثله، وبأنه ما يزال كذلك، على الرغم من الترقيات التي حصل عليها، بفضل رابطة النسب التي ربطته بالمنعم، حتى وصل إلى ذروة السلّم العسكري. وبدلاً من أن تكون هذه الميزات دافعاً له، فإنها جعلته ينام على أمجاده، مخيباً أمل تروخييو فيه مرة وألف مرة. ولم يكتف بكونه النكرة العسكرية مثلما هي حاله، بل أدخل نفسه في تربية المواشي، وكأن إدارة الأراضي والأبقار الحلوب لا تحتاج إلى دماغ. وماذا كانت النتيجة؟ الغرق في الديون، ليكون عاراً على الأسرة. فقبل ثمانية عشر يوماً دفع هو شخصياً من ماله الخاص ديوناً بقيمة أربعمئة ألف بيزو متوجبة على رومان للمصرف الزراعي، لكي يجنبه بيع مزرعته عند الكيلومتر الرابع عشر على طريق دوران بالمزاد العلني. وبالرغم من كل ذلك، فإنه لا يبذل أي مجهود ليتخلص من غبائه.

بقي الجنرال خوسيه رينيه رومان فيرنانديث صامتاً ودون حراك بينما التوبيخ والشتائم تنهال عليه. ولم يكن تروخييو يتلعثم؛ فالغضب يجعله ينطق بدقة، كما لو أن كل كلمة، وكل حرف، يصبح بهذه الطريقة أشد وخزاً. وكان السائق يقود السيارة بسرعة كبيرة دون أن ينحرف مليمتراً واحداً عن منتصف الطريق المقفر.

- توقف. - أمره تروخييو قبل قليل من أول موقع حراسة على قاعدة سان إيسيدرو الجوية الفسيحة والمسيجة.

نزل قافزاً، وبالرغم من الظلام، استطاع أن يحدد على الفور بركة المياه الآسنة الكبيرة. كانت القذارة السائلة ما تزال تتدفق من الانبوب المكسور، وإضافة إلى الطين والنتانة، كانت قد ملأت الجو أسراب بعوض هرعت لتزعجه.

- أهم حامية عسكرية في الجمهورية. - قال تروخييو بتمهل، وهو لا يكاد

يكبح موجة الغضب الجديدة – أيبدو لك جيداً أن يستقبل الزائر هذا البراز من القمامة والطين والروائح الكريهة والهوام عند مدخل أهم قاعدة جوية في منطقة الكاريبي بأسرها؟

قرفص رومان. وراح يتفحص، وينهض، وينحني من جديد، ولم يتردد في تلويث يديه وهو يتلمس أنبوب الصرف بحثاً عن الثقب. بدا عليه الاطمئنان حين اكتشف سبب غضب الزعيم. أكان الأبله يخشى من شيء أكثر خطورة؟

– إنه أمر مخجل بالطبع. – قال محاولاً أن يبدي سخطاً أكبر مما يشعر به – سأتخذ كل الاحتياطات لكي يتم إصلاح العطل فوراً يا صاحب الفخامة. وسأعاقب المسؤولين من الرأس وحتى الذيل.

– بدءاً من قائد القاعدة فيرخيليو غارسيا تروخييو. – زمجر المنعم – أنت المسؤول الأول، وهو الثاني. وآمل أن تتجرأ على فرض أقسى العقوبات بحقه، حتى ولو كان ابن أختي وشقيق زوجتك. إذا لم تتجرأ على ذلك، فسأكون أنا من سيفرض العقوبة المناسبة عليكما معاً. لن أسمح لك ولا لفيرخيليو ولا لأي جنرال تافه بأن يخرب ما أنجزته. ستبقى القوات المسلحة هي المؤسسة النموذجية التي صنعتها حتى لو اضطرني ذلك إلى أدخالك أنت و فيرخيليو وكل ذوي الزي العسكري التافهين إلى السجن طوال ما تبقى من حياتكم.

اتخذ الجنرال رومان وضع التأهب وضرب كعبيه ببعضهما:

– حاضر يا صاحب الفخامة. لن يتكرر هذا. أقسم لك.

ولكن تروخييو كان قد دار على عقبيه، ودخل إلى السيارة.

– يا لبؤسك إذا بقي أثر لما أراه عندما أعود من هنا. يا جندي البراز!

ثم التفت إلى السائق: «هيا بنا». وانطلق مخلفاً وزير القوات المسلحة في الموحلة. ما كاد يترك رومان، هيئةً مؤثرة تتخبط في الوحل، حتى تلاشى تعكر مزاجه. أفلتت ضحكة. هناك أمر قد تأكد منه الآن: سيحرك بوبو الأرض والسماء، وسيطلق اللعنات الضرورية لكي يتم إصلاح العطل. إذا كانت هذه الأمور تحدث وهو ما يزال حياً، فما الذي لن يحدث عندما لا يعود بإمكانه أن يحول شخصياً دون أن تقوض الخراقة والتهاون والحماقة ما بذل جهوداً في بنائه؟ هل ستعود عندئذ الفوضى والبؤس، التخلف والعزلة، مثلما كان الحال عام 1930؟ آه، لو أن رامفيس، الابن المحبب، قادر على إكمال مسيرته. ولكن ليس لديه أي اهتمام بالسياسة أو البلاد؛ لا يهمه سوى الخمر والبولو والنساء. يا

للعنة! الجنرال رامفيس تروخييو، رئيس هيئة أركان القوات المسلحة لجمهورية الدومينيكان، يلعب البولو ويضاجع راقصات الليدو في باريس، بينما أبوه يصارع وحده هنا ضد الكنيسة، والولايات المتحدة، والمتآمرين، والمغفلين من أمثال بوبو رومان. هز رأسه محاولاً التخلص من هذه الأفكار المريرة. فبعد نصف ساعة سيكون في سان كريستوبال، في المكان المحبب الهادئ في مزرعة فونداثيون، محاطاً بحقولٍ واسطبلات مزدهرة، تتخللها الأيائك الجميلة. ونهر نيغوا العريض الذي يلمح جريانه البطئ في الوادي من خلال قمم أشجار المهاغوني والنخيل، ومن فوق شجرة الأناكاهويتا الضخمة في بيت الرابية. سيشعر بالتحسن حين يستيقظ هناك في الصباح ليداعب جسد يولاندا إستريل بينما هو يتأمل المشهد الهادئ والنظيف. إنها وصفة بيترونيو والملك سليمان: فرج طازج لإعادة الشباب إلى محنك عمره سبعون ربيعاً.

كان السائق ثاكارياس دي لا كروث قد أخرج من الكراج في قصر راداميس سيارة الشفروليه بيلاير موديل 1957، ذات اللون الأزرق الفاتح، والأربعة أبواب، التي يذهب فيها دوماً إلى سان كريستوبال. وكان هناك مساعد عسكري ينتظره بالحقيبة المملوءة بالملفات التي سيدرسها غداً في بيت كاوبا ومئة وعشرة آلاف بيزو نقداً لنفقات المزرعة الطارئة جداً. منذ عشرين سنة لم يتنقل، ولو لبضع ساعات، دون هذه الحقيبة ذات اللون البني التي نُقشت عليها الحروف الأولى من اسمه، وفيها بضعة آلاف من الدولارات أو البيزوات للهدايا والنفقات الطارئة. أشار إلى المساعد العسكري بأن يضع الحقيبة في المقعد الأمامي؛ وطلب من ثاكرياس الأسمر الطويل والمربوع الذي يرافقه منذ ثلاثة عقود - وكان حاجبه في الجيش - أن ينزل فوراً. فقد صارت الساعة التاسعة. وقد تأخر الوقت.

صعد إلى غُرَفِه لينظف نفسه، وما أن دخل الحمام حتى انتبه إلى لطخة البول. من فتحة البنطال إلى ما بين الساقين. أحس بأنه يرتعش من قدميه إلى رأسه: يا للعنة، الآن بالذات! طلب من سينفوروسو بدلة أخرى من اللون الأخضر الزيتوني وملابس داخلية جديدة، وأضاع خمس عشرة دقيقة على البيديه والمغسلة وهو يغسل بالصابون خصيتيه وعضوه، ووجهه وإبطيه، ثم مسح جسده بالمراهم والعطور قبل أن يرتدي ملابسه. المذنب هو آكل البراز بوبو الذي تسبب له بتلك النوبة من تعكر المزاج. غرق مجدداً في حالة من الكآبة. وبدا له أن ما حدث هو نذير شؤم لما سيفعله في سان كريستوبال. وبينما هو يرتدي ملابسه

قدم إليه سينفوروسو البرقية: «مسألة اللويدز حُلّت. تكلمتُ مع الأشخاص المعنيين. الإرسالية ستُحول مباشرة إلى المصرف المركزي. تحياتي ومحبتي. رامفيس». ابنه يشعر بالخجل: ولهذا فإنه يرسل إليه برقية بدلاً من الاتصال به هاتفياً.

- لقد تأخر الوقت قليلاً يا ثاكرياس. - قال - يجب أن تسرع.

- مفهوم أيها الزعيم.

سوى وراء ظهره وسائد المقعد وأغمض عينيه متأهباً للاسترخاء خلال الساعة وعشر دقائق التي تستغرقها الرحلة إلى سان كريستوبال. كانا يتقدمان باتجاه الجنوب الغربي، نحو جادة جورج واشنطن ثم الطريق العام، عندما فتح عينيه:

- هل تتذكر بيت موني يا ثاكرياس؟

- أليس هناك، في شارع وينثيسلاو ألفاريث، حيث كان يسكن ماريرو أريستي؟

- فلنذهب إلى هناك.

لقد كانت ومضة إلهام. فقد رأى فجأة وجه موني المثلث الذي بلون القرفة، وشعرها الملفوف، وخبث عينيها اللوزيتين المملوءتين بالنجوم، وتقاطيع جسدها المتماسكة، ونهديها المترفعين، وإليتيها الصلبين، ووركها الحسي، وأحس مرة أخرى بالدغدغة اللذيذة في خصيتيه. وكان رأس عضوه الآخذ بالاستيقاظ يصطدم بالبنطال. موني. ولم لا. لقد كانت فتاة جميلة ورقيقة، لم تخيب ظنه قط، منذ تلك المرة في كينيغوا، عندما أحضرها أبوها بنفسه إلى الحفلة التي أقامها على شرفه الأمريكيون في لايوكيرا: «انظر المفاجأة التي جئتك بها أيها الزعيم». والبيت الذي تعيش فيه في الحي الجديد، في نهاية شارع المكسيك، أهداها إياه هو نفسه في يوم زواجها من شاب من أسرة جيدة. وعندما يطلبها، في أوقات متباعدة، يأخذها إلى أحد أجنحة السويت في فندق السفير أو فندق خاراغوا التي أعدها مانويل ألفونسو لمثل هذه المناسبات. لقد هيجته فكرة مضاجعة موني في بيتها بالذات. سيرسلان الزوج ليتناول شيئاً من البيرة في مقهى الرينكون بوني، على حساب تروخييو - وضحك - أو ليتبادل الحديث لبعض الوقت مع السائق ثاكرياس.

كان الشارع مظلماً ومقفراً، ولكن كان هناك نور في الطابق الأول من البيت.

«اطرق الباب». رأى السائق يجتاز حاجز المدخل ويقرع الجرس. تأخروا في فتح الباب. ولا بد أن خادمة قد خرجت أخيراً، وقد تبادل ثاكرياس الكلام معها بصوت خافت. أبقته على الباب ينتظر. يا للجميلة موني! لقد كان أبوها قائداً جيداً للحزب الدومينيكاني في ثيباو وأحضرها هو نفسه إلى تلك الحفلة، في لفتة لطيفة. لقد مضى على ذلك عدة سنوات، والحقيقة أنه في كل مرة ضاجع فيها هذه المرأة أحس بالسعادة. فُتح الباب من جديد، وعلى بريق الضوء المنبعث من الداخل، رأى شبح موني. وداهمته موجة أخرى من الاستثارة. بعد أن تكلمت قليلاً مع ثاكرياس، تقدمت نحو السيارة. ولم يستطع في العتمة أن يميز ما الذي كانت ترتديه. فتحت باب السيارة لتدخل واستقبلها مقبلاً يدها:

- لم تتوقعي هذه الزيارة يا فاتنتي.

- ياه، يا للشرف. كيف حالك، كيف حالك أيها الزعيم.

استبقى تروخييو يدها بين يديه. ولدى إحساسه بقربها منه، ملامسته إياها، وشم عبيرها، شعر بأنه سيد كل القوى.

- كنتُ ذاهباً إلى سان كريستوبال، لكنني تذكرتك فجأة.

- كم يشرفني ذلك أيها الزعيم. - كررت وقد تحولت إلى بحر من الاضطراب - لو أنني علمت لكنت هيأت نفسي لاستقبالك.

- أنت جميلة دوماً، كيفما تكونين - جذبها إليه، وبينما يداه تداعبان نهديها وساقيها، قبّلها. أحس ببداية انتصاب صالحته مع الدنيا ومع الحياة. وكانت موني تتيح له مداعبتها وتقبله، مكرهة. بقي ثاكرياس خارج السيارة، وكان يحمل في يده البندقية الرشاشة. ما هذا؟ هناك في موني شيء من العصبية غير المعهودة.

- هل زوجك في البيت؟

- أجل - ردت بصوت خافت - كنا نتأهب للعشاء.

فقال تروخييو:

- فليذهب لتناول بعض البيرة. وفي أثناء ذلك سأقوم بالدوران حول المبنى. سأرجع خلال خمس دقائق.

- المسألة... - تلعثمت ، وأحس الجنراليسمو أنها تتصلب. ترددت، ثم همست أخيراً بصوت لا يكاد يُسمع - إنني في الدورة أيها الزعيم.

تلاشت كل الإثارة على الفور.

– الحيض؟ قال بخيبة أمل.

– أعذرني أيها الزعيم – تلعثمت – بعد غد سأكون على ما يرام.

أقفلتها مستاءً وتنهد بعمق.

– حسن، سآتي لرؤيتك. وداعاً – أخرج رأسه من فتحة الباب الذي نزلت منه موني – هيا بنا يا ثاكرياس!

بعد ذلك بقليل سأل ثاكرياس دي لا كروث عما إذا كان قد ضاجع امرأة حائضاً من قبل.

– مطلقاً أيها الزعيم. – استنكر السائق مبدياً قرفه – يقولون إن ذلك يسبب العدوى بالسفلس.

– إنه قذر قبل كل شيء. – تحسر تروخييو. وماذا إذا ما شاء التوافق المشؤوم أن تكون يولاندا إستريل اليوم في دورتها الشهرية أيضاً؟

كانا قد اتخذا طريق سان كريستوبال، ورأى إلى يمينه سوق الماشية ومطعم البوني يغص بالأزواج الذين يأكلون ويشربون. أليس غريباً أن تبدي موني كل ذلك التحفظ والفزع؟ إنها تكون نظيفة في العادة، ورهن إشارته على الدوام. هل وجود زوجها هو الذي جعلها هكذا؟ أتراها اختلقت قصة الحيض لكي يتركها؟ وأحس وهو ساه أن سيارة تطلق لهم نفيرها. وانها تسير وأنوارها العالية مضاءة.

– يا لهؤلاء السكارى... – علق ثاكرياس دي لا كروث.

في تلك اللحظة خطر لتروخييو بأن من في السيارة الأخرى قد لا يكون سكراناً، واستدار بحثاً عن المسدس الموضوع على المقعد، ولكنه لم يتوصل إلى تناوله، إذ سمع في الوقت نفسه دوي بندقية طيرت طلقاتها زجاج النافذة الخلفية وانتزعت قطعة من كتفه وذراعه الأيسر.

الفصل التاسع عشر

عندما رأى أنطونيو دي لاماثا الوجوه التي رجع بها الجنرال خوان توماس دياث، وأخوه موديستو، ولويس أميانا، عرف قبل أن يفتحوا أفواههم، بأن بحثهم عن الجنرال رومان كان دون جدوى.

- لا أستطيع تصديق ذلك. - دمدم لويس أميانا وهو يعض شفتيه النحيلتين

- يبدو أن بوبو يتهرب منا. ليس هناك من أثر له.

لقد جالوا على كل الأماكن التي يمكن له أن يكون فيها، بما في ذلك مقر هيئة الأركان، ومعسكر حامية 18 كانون الأول؛ ولكن لويس أميانا وبيبين رومان، شقيق بوبو الأصغر، طُردا من هناك بصورة فظة من قبل الحراس: شريكهم لا يستطيع، أو أنه لا يريد، رؤيتهم.

- أملي الأخير هو أن يكون قد بدأ بتنفيذ الخطة لحسابه الخاص. - توهم موديستو دياث دون قناعة كبيرة - أرجو أن يقوم بتعبئة الحاميات، وإقناع القادة العسكريين. ولكننا الآن في ورطة على كل حال.

كانوا يبادلون الحديث واقفين، في صالون الجنرال خوان توماس دياث. وجاءتهم زوجته الشابة تشانا بكؤوس ليمونادة مع الثلج.

قال الجنرال خوان توماس دياث:

- يجب أن نختبئ ريثما نعرف إذا ما كان بإمكاننا الاعتماد على بوبو.

كان أنطونيو دي لاماثا قد بقي صامتاً، وأحس بموجة غضب تجتاح جسده، فصرخ حانقاً:

- نختبئ؟ الجبناء هم الذين يختبؤون. لقد أنجزنا عملنا يا خوان توماس. ارتد بدلتك أيها الجنرال، وأعرنا بدلات عسكرية لنا ولنذهب إلى القصر. ومن هناك ندعو الشعب إلى الثورة.

- أتريدنا أن نستولى نحن الأربعة على القصر؟ - حاول لويس أميانا أن يعيده إلى جادة الصواب - هل جننت يا أنطونيو؟

فأصرّ هذا الأخير:

- ليس هناك أحد الآن إلا الحراس. يجب أن نستبق رد فعل التروخييويين. فلندعُ الشعب باستخدام وحدة الارتباط بكل محطات الإذاعة في البلاد. وسيخرج الشعب إلى الشارع. وينتهي الأمر بالجيش إلى دعمنا.

ملامح التشكك التي بدت على خوان توماس، وأمياما، وموديستو دياث أثارت حنقه أكثر. وبعد لحظات قليلة انضم إليهم سلفادور إستريّا سعد الله الذي كان قد أوصل أنطونيو إمبرت وآماديتو إلى بيت الطبيب، والدكتور بيليث سانتانا الذي كان قد رافق بيدرو ليفيو ثيدينيو إلى المستشفى الدولي. وقد أذهلهما اختفاء بوبو رومان. ورأيا كذلك أن فكرة أنطونيو بالتسلل إلى القصر الوطني متنكرين بزي ضباط هو مجازفة غير مجدية، وانتحار. كما عارض الجميع بحماسة الفكرة الجديدة التي اقترحها أنطونيو: حمل جثة تروخييو إلى حديقة الاستقلال وتعليقها هناك لكي يرى أهالي العاصمة كيف كانت نهايته. فأثار رفض رفاقه واحدة من نوبات الغضب المحتدة تلك كانت تسيطر على دي ماثا في الأزمنة الأخيرة. جبناء وخونة! ليسوا على مستوى ما فعلوه بتخليص الوطن من الوحش! ولكنه عندما رأى تشانا دياث تدخل الغرفة والذعر يشع من عينيها، أدرك أنه قد مضى بعيداً. فدمدم ببعض الاعتذارات من أصدقائه وصمت. لكنه كان يشعر في داخله بغثيانات الاستياء.

- جميعنا متوترون يا أنطونيو. - ربت لويس أمياما على ظهره - المهم الآن أن نجد مكاناً آمناً. إلى أن يظهر بوبو. ونرى ماذا سيكون رد فعل الشعب عندما يعلم بأن تروخييو قد مات.

وبشحوب كبير هز أنطونيو دي لاماثا رأسه موافقاً. أجل، فربما كان أمياما الذي عمل طويلاً لضم عسكريين ومسؤولين من النظام إلى المؤامرة، على حق في نهاية المطاف.

قرر لويس أمياما وموديستو دياث أن يذهب كل منهما بمفرده؛ لاعتقادهما بأنهما سيجدان فرصة أكبر بعدم لفت الأنظار وهما متفرقان. وأقنع أنطونيو كلاً من خوان توماس والتوركو سعد الله بالبقاء معاً. قلّبوا الاحتمالات - الأقارب والأصدقاء - واستبعدوها؛ فكل تلك البيوت ستخضع لتفتيش الشرطة. وكان من قدم اسماً مقبولاً هو الدكتور بيليث سانتانا:

- روبيرت ريد كابرال. إنه صديقي. وهو بعيد عن السياسة تماماً. يعيش للطب وحسب. ولن يرفض استقبالنا.

أخذهم في سيارته. ولم يكن الجنرال دياث ولا التوركو يعرفانه شخصياً؛ أما أنطونيو دي لاماثا فكان صديقاً لأخي روبيرت الأكبر دونالد ريد كابرال، الذي يعمل في واشنطن ونيويورك لصالح المؤامرة. كانت مفاجأة الطبيب الشاب الذي أتوا قرابة منتصف الليل لإيقاظه كبيرة جداً. لم يكن يعرف شيئاً عن المؤامرة؛ بل إنه لم يكن يعلم بأن أخاه دونالد يتعاون مع الأمريكيين. ومع ذلك، وما إن استعاد لونه والقدرة على النطق، حتى سارع إلى إدخالهم إلى بيته الصغير المؤلف من طابقين على الطراز الموريسكي، وهو بيت ضيق جداً بحيث يبدو وكأنه خارج من إحدى حكايات الساحرات. كان شاباً أمرد، له عينان تفيضان طيبة، يبذل جهوداً تفوق طاقة البشر ليخفي قلقه. عرفهم على زوجته «ليخيا»، وهي حبلى منذ عدة شهور. وقد تعاملت الزوجة مع غزو أولئك الغرباء بلطف، ودون كثير من الذعر. أرتهم ابنهما ذا السنتين من العمر، والذي وضعا فراشه في أحد أركان المطبخ.

اقتاد الزوجان الشابان المتآمرين إلى حجرة ضيقة في الطابق الثاني تُستخدم كمستودع للمؤن والمهملات. لم يكن فيها تهوية تقريباً وكان الحر لا يطاق، بسبب انخفاض السقف. ولم تكن تتسع لهم إلا وهم جالسون وأرجلهم مطوية، وإذا ما نهضوا يتوجب عليهم أن يبقوا منحنين حتى لا تصطدم رؤوسهم بعوارض السقف. ولكنهم في تلك الليلة الأولى لم يكادوا يلاحظون ضيق المكان والحر؛ فقد أمضوا الليل وهم يتحدثون بأصوات خافتة، محاولين التكهن بما جرى لبوبو رومان: لماذا اختفى عندما صار كل شيء يعتمد عليه؟ وتذكر الجنرال دياث حديثه مع بوبو يوم 24 أيار، في عيد ميلاد هذا الأخير، في مزرعته عند الكيلومتر الرابع عشر. لقد أكد له وللويس أمياما بأنه قد جهز كل شيء لتحريك القوات المسلحة فوراً عندما يعرضون عليه الجثة.

بقي مارثيلينو بيليث سانتانا معهم على سبيل التضامن، إذ لم يكن هناك مبرر لاختبائه. وفي صباح اليوم التالي خرج بحثاً عن أخبار. ورجع قبيل انتصاف النهار ممتقعاً. ليس هناك أي تمرد عسكري. بل على العكس، هناك تحركات محمومة لسيارات «خنفساء» جهاز الاستخبارات العسكرية، وسيارات الجيب والشاحنات العسكرية. الدوريات تفتش كل الأحياء. وتقول الإشاعات إن مئات الرجال والنساء، الشيوخ والأطفال، أخرجوا من بيوتهم بالقوة ونقلوا إلى سجون «لافيكتوريا» و «التاسع» و«والأربعين». كما ان هناك مداهمات في المدن الداخلية ضد المشبوهين بمناهضة التروخييوية. وقد روى زميل من لابيغا

للدكتور بيليث سانتانا أن كل أسرة دي لاماثا ، بدءاً بأبي أنطونيو، دون بيشتي، وكل أخوته وأخواتة، وأبناء وبنات أخوته، وأبناء وبنات عمومته قد اعتقلوا في موكا. والمدينة الآن أشبه بمدينة محتلة من قبل الشرطة والمخبرين. وبيت خوان توماس، وبيت أخيه موديستو، وبيتُ إمبرت وسلفادور محاصرة بحواجز من الأسلاك وحراس مسلحين.

لم يعلق أنطونيو بأي شيء. ولم يكن هناك ما يفاجئه. فقد كان يعلم بأنه إذا ما أخفقت المؤامرة، فإن رد فعل النظام سيكون وحشياً بصورة لا سابق لها. انقبض قلبه وهو يتصور أباه دون بيشتي، وأخوته يتعرضون للتنكيل والتعذيب على يد أبيس غارسيا. وفي حوالي الساعة الواحدة ظهرت في الشارع سيارتا فولكسفاغن سوداوان ممتلئتان بالمخبرين، فهرعت زوجة ريد كابرال - وكان هو قد ذهب إلى عيادته، حتى لا يوقظ شكوك الجيران - لتهمس لهم بأن رجالاً يرتدون الملابس المدنية ومسلحين بالرشاشات يفتشون بيتاً مجاوراً. فانفجر أنطونيو بالشتائم (ولكن بصوت خافت):

- كان عليكم أن تسمعوا كلامي أيها الجبناء. ألم يكن من الأفضل الموت ونحن نقاتل في القصر بدل أن نموت في هذا الجحر؟

تناقشوا طوال النهار وتبادلوا التأنيب مرة بعد أخرى. وفي واحدة من تلك المشادات، انفجر بيليث سانتانا. فأمسك بقميص الجنرال خوان توماس دياث متهماً إياه بتوريطه مجاناً في مؤامرة فاشلة، وسخيفة، لم يأخذوا فيها بالحسبان احتمال هروب المتآمرين. هل أنت مدرك ما سيحل بكم الآن؟ وتدخل التوركو إسترِيّا سعد الله ليفصل بينهما، وليحول دون أن يتبادلا الضرب. وكان أنطونيو يكبح رغبته في التقيؤ.

في الليلة الثانية كانوا مستنفدين من الجدال والشتائم، فناموا بعضهم فوق بعض، وكل واحد منهم يستخدم الآخر كوسادة، وكانوا يقطرون عرقاً، شبه مختنقين في الجو الحار.

في اليوم الثالث، عندما أحضر الدكتور بيليث سانتانا جريدة **الكاريبي** إلى المخبأ ورأوا صورهم تحت العنوان الكبير: «القتلة المطلوبون في قضية مصرع تروخييو»، وتحتها صورة الجنرال بوبو رومان فيرنانديث يعانق رامفيس في جنازة الجنراليسمو، عرفوا أنهم ضائعون. وأنه لن يكون ثمة مجلس عسكري- مدني. فقد رجع رامفيس ورادامیس، والبلاد كلها تبكي الدكتاتور.

– لقد خاننا بوبو. – كان الجنرال خوان توماس دياث يبدو مختنقاً. كان قد خلع حذاءه، وكانت قدماه متورمتين جداً، وهو يلهث.

– يجب أن نخرج من هنا. – قال أنطونيو دي لاماثا – لا يمكننا أن نسبب مزيداً من الأذى لهذه الأسرة. إذا ما اكتشفونا فسوف يقتلونهم معنا أيضاً.

– معك حق. – أيده التوركو – لن يكون ذلك عدلاً. فلنخرج من هنا.

وإلى أين سيذهبون؟ أمضوا يوم الثاني من حزيران بطوله وهم يدرسون خططاً محتملة للهروب. وقبيل منتصف النهار بقليل توقفت سيارتا خنفساء وفيهما مخبرون أمام البيت المقابل، ودخل إليه ستة رجال مسلحون بعد أن فتحوا الباب بالقوة. وحين حذرتهم ليخيا، استعدوا وجهزوا مسدساتهم. ولكن المخبرين انصرفوا وهم يجرون شاباً وضعوا القيود في يديه. وكان أفضل الاقتراحات هو الذي طرحه أنطونيو: الحصول على سيارة أو شاحنة صغيرة ومحاولة الوصول إلى ريستاوراثيون حيث يعرف أناساً كثيرين في مزارع الصنوبر والبن التي يملكها هناك، وفي مناشر تروخييو التي يشرف على إدارتها. كما أنها قريبة جداً من الحدود، ولن يكون من الصعب عليهم الانتقال إلى هايتي. ولكن، كيف يحصلون على السيارة؟ وممن سيطلبونها؟ وفي تلك الليلة لم يغمضوا عيونهم كذلك، يعذبهم الغم، والإرهاق، واليأس، والشكوك. وعند منتصف الليل، صعد صاحب البيت إلى العلّية والدموع في عينيه:

– لقد فتشوا ثلاثة بيوت في هذا الشارع. – قال لهم متضرعاً – ويمكن أن يفتشوا بيتي في أي لحظة. لا يهمني أن أموت. ولكن، ماذا عن زوجتي وابني الصغير؟ وماذا عن الطفل الذي ستنجبه؟

أقسموا له إنهم سيغادرون في اليوم التالي، مهما كانت الظروف. وهذا ما فعلوه عند غروب يوم 4 حزيران. قرر سلفادور إستريّا سعد الله أن يغادر وحيداً. لم يكن يعرف إلى أين سيذهب، ولكنه كان يفكر بأن لديه احتمالات للهرب وهو وحيد أكثر من مرافقته لخوان توماس وأنطونيو اللذين كان اسماهما وصورتاهما تظهر في التلفزيون والصحف أكثر منه. وكان التوركو هو أول من غادر، في الساعة السادسة إلا عشر دقائق، عندما بدأ الظلام يخيم. ومن خلال ستائر حجرة نوم الزوجين ريد كابرال، رآه أنطونيو دي لاماثا يمشي مسرعاً حتى الناصية. وهناك رفع يديه مومئاً لسيارة تكسي. أحس أنطونيو بالأسى: فقد كان التوركو صديق روحه ولم يتوصلا إلى المصالحة التامة منذ تلك المشاجرة اللعينة. ولن تكون لديهما فرصة أخرى.

قرر الدكتور مارثيلينو بيليث سانتانا البقاء لبعض الوقت مع زميله وصديقه الدكتور ريد كابرال، الذي كان يبدو عليه الضيق. حلق أنطونيو شاربه ووضع قبعة قديمة وجدها في العلّية وأنزلها حتى أذنيه. أما خوان توماس دياث بالمقابل، فلم يبذل أي جهد للتنكر. وعانق كلاهما الدكتور بيليث سانتانا.

- دون أحقاد؟

- دون أحقاد، وحظاً طيباً.

وعندما شكرا ليخا ريد كابرال على ضيافتها، انفجرت في البكاء وأشارت إليهما وهي ترسم شارة الصليب قائلة: «فليحفظكما الله».

مشيا ثماني كوادرات، في شوارع مقفرة، وأيديهما في جيوبهما، تشد على المسدسات، حتى وصلا بيت صهر لأنطونيو دي لاماثا يدعى تونيتو موتا. وكان يملك شاحنة فورد صغيرة؛ ربما يعيرهما إياها أو يوافق على السماح لهما بسرقتها. ولكن تونيتو لم يكن في البيت، ولم تكن الشاحنة في الكراج. والخادم الذي فتح لهما الباب تعرف فوراً على دي لاماثا: «سيد أنطونيو! أنت هنا!». أبدى وجهاً فزعاً، وابتعد أنطونيو والجنرال مسرعين لأنهما أدركا أنه سيتصل بالشرطة فوراً. لم يعودا يعرفان أي لعنة يفعلان.

- أتريد أن أخبرك بشيء يا خوان توماس؟

- ماذا يا أنطونيو؟

- إنني سعيد لمغادرتي ذلك الجحر. ذلك الحر، وذلك الغبار الذي يدخل في الأنف ولا يسمح بالتنفس. والخروج من ذلك المكان المزعج. كم هو جميل أن تكون في الهواء الطلق، وتشعر بأن رئتيك تتنظفان.

- لم يبق لك إلا أن تقول لي: «هيا بنا لتناول بعض البيرة الباردة للاحتفال بروعة الحياة». أي جرأة لديك أيها الأبله!

ضحك الاثنان ضحكات زخمة عابرة. وفي شارع باستور، حاولا خلال وقت لا بأس به إيقاف سيارة تكسي. ولكن سيارات الأجرة التي تمر كانت كلها مشغولة.

- يؤسفني أنني لم أكن معكم هناك على الطريق. - قال الجنرال دياث فجأة وكأنه يتذكر شيئاً مهماً - ولم أشارك معكم في إطلاق النار على التيس. اللعنة وألف لعنة!

- كما لو أنك كنت معنا يا خوان توماس. واسأل إذا شئت جوني أبيس،

ونيغرو، وبيتان، ورامفيس وسترى. فأنت في نظرهم كنت معنا على الطريق تلقم الزعيم رصاصاً. لا تقلق. فإحدى الرصاصات أطلقتُها عليه باسمك.

وأخيراً توقفت سيارة تكسي. ركبا، وعندما لاحظ السائق الأسمر البدين والشائب الذي يرتدي قميصاً قصير الأكمام، ترددهما في إخباره بوجهتهما، التفت نحوهما. وفي عينيه رأى أنطونيو دي لاماتا أنه قد تعرف عليهما. فأمره:

- إلى سان مارتين.

هز السائق الأسمر رأسه دون أن يفتح فمه. وبعد قليل دمدم قائلاً إن وقود سيارته آخذ بالنفاد؛ وعليه أن يملأ الخزان. عبر من شارع 30 آذار، حيث حركة المرور أشد كثافة، وتوقف في محطة وقود تكساكو عند تقاطع شارع سان مارتين مع تيرادينتيس. نزل من السيارة ليفتح الخزان. وكان أنطونيو وخوان توماس يمسكان الآن مسدسيهما. خلع دي لاماتا حذاءه الأيمن وحرك كعبه، وأخرج منه مظروفاً صغيراً من ورق السوليفان خبأه في جيبه. وبما أن خوان توماس كان ينظر إليه مستغرباً، فقد أوضح له:

- إنه استريكنين. حصلت عليه في موكا متذرعاً بأنني أريد تسميم كلب مسعور.

هز الجنرال السمين كتفيه باستخفاف، وأراه مسدسه:

- ليس هناك إسترينكين أفضل من هذا يا أخي. السمّ للكلاب والنساء، فلا تزعجني بهذه الحماقات. ثم إن من يرغب في الانتحار، يفعل ذلك بالسيانور وليس بالإسترينكين أيها الأبله.

ضحكا من جديد، تلك الضحكة القاسية والحزينة نفسها.

- هل رأيت ذلك الشخص الذي وراء صندوق المحاسبة؟ - أشار له أنطونيو دي لاماتا إلى الكوة - مع من تظنه يتصل بالهاتف؟

- ربما يتصل بزوجته ليسألها كيف حال فرجها.

وعاد أنطونيو دي لاماتا يضحك، ولكنها ضحكة حقيقية في هذه المرة، في قهقهة طويلة وصريحة.

- ما الذي يضحكك أيها المغفل.

- ألا يبدو لك الأمر مضحكاً؟ - قال أنطونيو وقد تحول إلى الجدية - كلانا في هذه السيارة. ولكن أي لعنة نفعل هنا؟ إننا لا نعرف إلى أين سنذهب.

أمرا السائق بالرجوع إلى الحي الاستعماري القديم. لقد خطرت فكرة

لأنطونيو. وعندما أصبحا في مركز المدينة القديم، أمرا سائق التكسي بالدخول في شارع إسبايات، من جهة بيليني. هناك يسكن المحامي خينيروسو فيرناندث الذي يعرفانه. ويتذكر أنطونيو بأنه, سمعه يتكلم بعبارات مقذعة ضد تروخييو؛ وربما بإمكانه أن يؤمن لهما سيارة. اقترب المحامي من الباب، ولكنه لم يُدخلهما إلى البيت. وعندما استعاد السيطرة على نفسه من وقع المفاجأة - كان ينظر إليهما برعب وهو يرمش - لم يجد ما يقوله إلا تأنيبهما بغيظ:

- أأنتما مجنونان؟ كيف يخطر لكما بأن تورطاني بهذه الصورة! أنتما لا تعرفان من دخل هناك، إلى البيت المقابل، قبل لحظة؟ إنه **الدستوري سكران**! ألم تفكرا قبل أن تفعلا بي هذا؟ انصرفا، انصرفا، فأنا لدي أسرة. بأعز ما لديكما، انصرفا! أنا لستُ أحداً، لا أحد.

صفق الباب في وجهيهما. رجعا إلى سيارة التاكسي. كان السائق الأسمر العجوز ما يزال جالساً بوداعة وراء المقود، دون أن ينظر إليهما. غمغم قائلاً:

- والآن، إلى أين؟

- إلى حديقة الاستقلال - أشار عليه أنطونيو لمجرد أن يقول شيئاً.

بعد ثوان من انطلاقهم - كانت أنوار الشوارع قد أضيئت، وبدأ الناس بالخروج إلى الشارع للاستمتاع بالبرودة - نبههما السائق:

- ها هي «الخنافس» وراءنا. إنني متأسف حقاً أيها السادة.

أحس أنطونيو بالراحة. فهذا التجوال المضحك دون وجهة محددة سينتهي أخيراً. فمن الأفضل أن ينتهي بهما الأمر إلى إطلاق الرصاص بدل أن يبقيا متجولين مثل أحمقين. التفتا. كانت هناك سيارتا فولكسفاغن خضراوان تلحقان بهم على بعد حوالي عشرة أمتار.

- لستُ راغباً في الموت أيها السادة - توسل إليهما سائق التاكسي وهو يرسم إشارة الصليب - من أجل العذراء أيها السادة!

فقال له أنطونيو:

- حسن، امض باتجاه الحديقة كيفما اتفق واتركنا عند ناصية محل الخردوات.

كانت حركة السير مزدحمة. وقد ناور السائق وتمكن من شق طريقه ما بين شاحنة وحافلة تتعلق جماعة من الركاب على بابها. كبح الفرامل فجأة، على بعد أمتار قليلة من الواجهة الزجاجية الكبيرة لمحلات ريد للخردوات. وحين قفز

أنطونيو من التاكسي وهو يحمل المسدس في يده، انتبه إلى أن أنوار الحديقة قد أخذت تضاء، كما لو أنها ترحب بهما. كان هناك ماسحو أحذية، وباعة متجولون، ولاعبو ثلاث ورقات، ومتشردون ومتسولون ملتصقون بالجدران. كان الجو يعبق برائحة أزهار ومقالي. التفت ليستعجل خوان توماس الذي لم يكن قادراً، بسبب البدانة والتعب من مجاراته في الركض. وعندئذ دوى الرصاص وراءه. وارتفع صراخ صاخب في ما حوله؛ كان الناس يتراكضون بين السيارات، والسيارات تصعد إلى الأرصفة. وسمع أنطونيو أصواتاً هستيرية: «استسلما أيها النذلان!». «إنكما محاصران، عليكما اللعنة!» وعندما رأى خوان توماس يتوقف مستنفداً، توقف هو أيضاً إلى جانبه وبدأ يطلق النار. كان يطلق دون تصويب، لأن المخبرين والحراس كانوا متمترسين وراء سيارات الفولكسفاغن المتوقفة مثل متاريس في الشارع، معرقلة حركة المرور. رأى خوان توماس يخر على ركبتيه، ورآه يرفع المسدس إلى فمه، ولكنه لم يتمكن من إطلاق النار لأن عدة رصاصات أجهزت عليه. وكان قد أصيب هو نفسه برصاصات كثيرة، ولكنه لم يكن ميتاً «لستُ ميتاً، يا للعنة، لست ميتاً.» كان قد أطلق كل ما في مخزن مسدسه من رصاص، وحاول وهو على الأرض أن يمد يده إلى جيبه ليبتلع السم. ولكن يده اللعينة لم تستجب له. لا حاجة لذلك يا أنطونيو. إنه يرى النجوم اللامعة في الليل الذي بدأ للتو، ويرى وجه أخيه تافيتو الباسم، ويشعر بأنه قد عاد شاباً من جديد.

الفصل العشرون

عندما انطلقت ليموزين الزعيم مخلفة الجنرال خوسيه رينيه رومان في بركة الوحل النتنة، كان يرتجف من رأسه حتى قدميه، مثل الجنود الذين رآهم يموتون بالملاريا في داخابون، الحامية الحدودية ما بين هايتي والدومينيكان، في بداية حياته العسكرية. منذ سنوات وتروخييو يقسو في معاملته، ويُشعره ضمن الأسرة وأمام الغرباء بقلة الاحترام التي يستحقها، ويدعوه بالأحمق بأي ذريعة. ولكنه لم يبلغ مطلقاً من قبل في احتقاره واستفزازه الحد الذي بلغه هذه الليلة.

انتظر إلى أن يخف ارتعاشه قبل أن يتوجه إلى قاعدة سان إيسيدرو الجوية. ارتعب ضابط الحرس حين رأى قائد القوات المسلحة بالذات يبرز له فجأة ماشياً على قدمية ومبللاً في الليل. الجنرال فيرخيليو غارثيا تروخييو، قائد قاعدة سان إيسيدرو وصهر رامون - الشقيق التوأم لزوجته ميريا- لم يكن موجوداً، ولكن وزير القوات المسلحة جمع كل الضباط ووبخهم: مجرور الصرف المكسور الذي أخرج الزعيم عن طوره يجب أن يتم إصلاحه فوراً تحت طائلة العقوبات الصارمة. الزعيم سيأتي للتفتيش وجميعهم يعرفون أنه لا يتسامح فيما يتعلق بالنظافة. أمر بإحضار سيارة جيب مع سائقها لكي يرجع إلى بيته؛ ولم يبدل ثيابه أو يغتسل قبل أن ينصرف.

وبينما هو في الجيب، متوجهاً إلى مدينة تروخييو، قال لنفسه إن سبب تلك لرعشة التي تنتابه في الحقيقة ليس شتائم الزعيم وإنما التوتر، منذ الاتصال الهاتفي الذي علم من خلاله أن المنعم غاضب. وعلى امتداد النهار قال لنفسه ألف مرة إنه من المستحيل، من المستحيل على الإطلاق، أن يكون قد علم بأمر المؤامرة المنسوجة عن طريق صديقه لويس إميامـا أو صديقه الحميم الجنرال خوان توماس ديات. لو أنه على علم بالمؤامرة لما تكلم معه بالهاتف؛ وإنما كان أمر باعتقاله وكان الآن في «الأربعين» أو في «التاسع». ومع ذلك، فإن دودة الشك لم تُتح له تناول لقمة من الطعام عند الغداء. أخيراً، وبالرغم من اللحظات العصيبة، فإنه من المريح أن يكون سبب الشتائم هو مجرور مكسور وليس

دسيسة. لقد تجمدت عظامه لمجرد التفكير بأنه يمكن لتروخييو أن يكون قد عرف بأنه أحد المتآمرين.

يمكن اتهامه بأشياء كثيرة، إلا أن يكون جباناً. فمنذ كان تلميذ ضابط، وفي كل مصائره، أظهر جرأة جسدية وتصرف في مواجهة الأخطار بجسارة أكسبته سمعة الفحولة بين زملائه ومرؤوسيه. وقد كان جيداً على الدوام في الصراع بالقفازات أو القبضات العارية. ولم يسمح مطلقاً لأحد بأن يسيء احترامه. ولكنه مثل ضباط كثيرين، ومثل دومينيكانيين كثيرين، كانت شجاعته وإحساسه بالشرف ينخسفان أمام تروخييو ويسيطر عليه شلل في الدماغ والعضلات، ووداعة واحترام خانع. لقد تساءل في مرات كثيرة عن السبب الذي يجعل حضور الزعيم – صوته النايي وثبات نظرته – يؤدي إلى تلاشيه معنوياً.

ولأن الجنرال رومان كان يعرف هيمنة تروخييو على شخصيته، فقد ردّ على الفور، عندما حدثه لويس أمياما قبل خمسة شهور عن مؤامرة للقضاء على هذا النظام:

– اختطافه؟ يا للحماقة! لا يمكن لشيء أن يتغير ما دام حياً. لا بد من قتله.

كانا في مزرعة الموز التي يملكها لويس أمياما في غوايوبين، في مقاطعة مونتكريستي، يريان من الشرفة المشمسة جريان نهر ياكي. أخبره صديقه بأنه يقوم هو وخوان توماس بتدبير العملية ليحولا دون أن يُغرق النظامُ البلادَ بالكامل مما يؤدي إلى ثورة شيوعية على النمط الكوبي. وأن الخطة جدية وتحظى بدعم الولايات المتحدة. فهنري ديباربورن وجون بانفيلد وبوب وويـن من البعثة الأمريكية، قدموا دعمهم الرسمي وكلفوا مسؤول الـ CIA في مدينة تروخييو، لورينثو د. بيري («أهو صاحب سوبر ماركت وينميز؟» «أجل، إنه هو نفسه»)، بأن يؤمن لهم المال والأسلحة والمتفجرات. فالولايات المتحدة قلقة من شطط تروخييو منذ محاولة اغتيال الرئيس الفنزويلي رومولو بيتانكور، وتريد التخلص منه، وأن تتأكد في الوقت نفسه من أنه لن يحل محله فيدل كاسترو آخر. ولهذا ستدعم جماعة جدية، ومناهضة بوضوح للشيوعية، تشكل مجلساً مدنياً– عسكرياً يدعو بعد ستة شهور إلى انتخابات عامة. وأمياما وخوان توماس دياث والأمريكيون متفقون: أن يكون بوبو رومان هو رئيس المجلس. فمن أفضل منه للحصول على تأييد الحاميات والتوصل إلى انتقال منظم إلى الديمقراطية؟

– أتقول اختطافه وإجباره على الاستقالة؟ – قال بوبو مستنكراً – لقد

أخطأتم في البلاد وفي الشخص يا صاحبي. يبدو أنكم لا تعرفونه. لن يسمح لكم باعتقاله حياً. ولن تحصلوا منه على الاستقالة مطلقاً. لا بد من قتله.

كان سائق سيارة الجيب، وهو برتبة رقيب، يقودها بصمت، بينما رومان يأخذ أنفاساً عميقة من اللوكي سترايك، سجائره المفضلة. لماذا وافق على الانضمام إلى المؤامرة؟ فهو، على العكس من خوان توماس الذي وقع في المحنة وأُبعد من الجيش، يملك كل السلطة. وقد وصل إلى أعلى منصب يمكن لعسكري أن يطمح إليه، ومع أنه لم يُوَفَّق في الأعمال التجارية، إلا أن مزارعه بقيت تحت سيطرته، وقد تلاشى خطر مصادرتها بدفع مبلغ الأربعمئة ألف بيزو إلى المصرف الزراعي. الزعيم لم يدفع تلك الديون حباً به، وإنما بسبب ذلك الشعور المتعجرف بأنه يجب على أسرته ألا تثير انطباعاً سيئاً على الإطلاق، وأن تبقى صورة آل تروخييو وأنسبائهم نظيفة على الدوام. ولم تكن الشهوة إلى السلطة، ولا الأمل بأن يرى نفسه رئيساً مؤقتاً لجمهورية الدومينيكان - مع احتمال كبير بأن يصبح بعد ذلك الرئيس المنتخب - هو ما دفعه إلى إعطاء موافقته على المؤامرة. وإنما دافعه هو الحقد المتراكم من الاهانات الكثيرة التي جعله تروخييو ضحية لها منذ زواجه من ميريا الذي حوّله إلى فرد من الأسرة العصابة ذات الامتيازات التي لا يمكن المس بها. ولهذا السبب منحه الزعيم الترقيات قبل آخرين، وعينه في مناصب مهمة، وقدم إليه بين حين وآخر تلك الهدايا النقدية أو المنح التي أتاحت له أن يعيش في مستوى الحياة العالي الذي هو عليه. ولكنها منح وامتيازات كان عليه أن يدفع ثمنها إهانات وسوء معاملة. وفكر: «وهذا هو أهم شيء».

فكلما أهانه الزعيم خلال خمسة الشهور والنصف الأخيرة، كان الجنرال رومان يقول لنفسه، مثلما يقول الآن بينما سيارة الجيب تجتاز جسر راداميس، إنه سيشعر عما قريب بأنه رجل كامل الرجولة، له حياته الخاصة، وليس إنساناً عاجزاً مثلما يحاول تروخييو أن يُشعره. ومع أن لويس أمياما وخوان توماس لا يلحظان ذلك. إلا أنه شارك في المؤامرة لكي يُثبت للزعيم بأنه ليس تافهاً مثلما يظنه.

لقد كانت شروطه محددة تماماً. فهو لن يحرك إصبعاً واحدة ما لم ترَ عيناه تروخييو ميتاً. وعندئذ فقط سيسارع إلى تحريك القوات واعتقال أخوة تروخييو والضباط والمدنيين المشاركين في النظام، وعلى رأسهم جوني أبيس غارسيا. واشترط كذلك ألا يذكر لويس أميانا أو الجنرال دياث لأحد - ولا حتى لقائد فريق التنفيذ أنطونيو دي لاماثا - أنه مشارك في المؤامرة. ولن تكون هناك

رسائل خطية ولا مكالمات هاتفية، وإنما أحاديث مباشرة فقط. وسيمضي هو، بحذر، في تعيين ضباط موثوقين في المناصب الحساسة، بحيث تستجيب الحاميات له بصوت واحد عندما تحين اللحظة الموعودة.

وقد فعل ذلك عندما عَيَّنَ في قيادة حامية سنتياغو دي لوس كابابيروس، وهي الثانية في البلاد، الجنرال ثيسر آ. أوليفا، رفيقه في الدفعة وصديقه الحميم. كما رتب الأمور ليوصل إلى قيادة اللواء الرابع، ومقره داخابون، الجنرال غارسيا أوربايث، وهو حليف مخلص له. وكان يعتمد من جهة أخرى على الجنرال غواريونيكس إستريا قائد اللواء الثاني المتمركز في لابيغا. لم تكن تربطه صداقة متينة بالجنرال غوارو، وهو تروخييوي متطرف، ولكن بما أنه شقيق التوركو إستريا سعد الله، وهو من فريق التنفيذ، فمن المنطقي أن يتحزب لشقيقه. ولم يُطلع أي واحد من هؤلاء الجنرالات على سره؛ فقد كان ماكراً إلى حد عدم تعريض نفسه للوشاية. ولكنه كان يعتمد، بعد أن تبدأ الأحداث، على أن يلتحقوا به دون تردد.

متى سيقع الحدث؟ قريباً جداً دون شك. ففي يوم عيد ميلاده، في 24 أيار، أي قبل ستة أيام، أكد له لويس إميامـا وخوان توماس ديـاث بأن كل شيء جاهز. وكان خوان توماس أكثر حسماً «في أي لحظة يا بوبو». وقالا له إن الرئيس خواكين بالاغير قد وافق على أن يكون عضواً في المجلس المدني-العسكري الذي سيرأسه هو. طلب منهما مزيداً من التفاصيل، ولكنهما لم يقدماها إليه؛ وكان من قام بالاتصالات مع الرئيس هو الدكتور رافائيل باتيستا بينيا، زوج إنديانا، ابنة عم أنطونيو دي لاماثا وطبيب بالاغير الخاص. فقد استطلع رأي الرئيس الدمية بسؤاله عما إذا كان، في حال اختفاء تروخييو فجأة، «مستعداً للتعاون مع الوطنيين». فكان جوابه موارباً: «بمقتضى الدستور سيكون من الواجب أخذي في الحسبان إذا ما اختفى تروخييو». أهو خبر جيد؟ فهذا الرجل الناعم والخبيث يوحي إلى بوبو رومان بعدم الثقة الغريزية التي يستحقها البيروقراطيون والمثقفون. فقد كان من المستحيل معرفة ما يفكر به؛ وهناك عدو يتوارى وراء لطفه الظاهري وفصاحته. ولكن ما يقوله صديقاه في نهاية المطاف صحيح: فتواطؤ بالاغير معهم يطمئن اليانكيين.

كانت الساعة التاسعة والنصف ليلاً لدى وصوله إلى بيته في حي غاثكوي. صرف سيارة الجيب لتعود إلى قاعدة سان إيسيدرو. وقد ذُعرت زوجته وابنه ألفارو حين رأياه يدخل بتلك الحال. وكان ابنه ملازماً شاباً في الجيش، وقد جاء

لزيارتهما في يوم إجازته. وأوضح الجنرال لهما ما جرى بينما هو يخلع ملابسه. وطلب من ميريا أن تتصل هاتفياً بأخيها وأطلع الجنرال فيرخيليو غارسيا تروخييو على غضب **الزعيم**:

- آسف يا نسيبي، ولكنني مضطر إلى توبيخك. عليك الحضور غداً إلى مكتبي قبل الساعة العاشرة.

- كل هذا من أجل مجرور مكسور، يا للعنة! - هتف فيرخيليو ساخراً - الرجل لا يمكنه تبديل طبعه.

استحم تحت الدوش وفرك جسده بالصابون من رأسه حتى قدميه. وعند خروجه من حوض الحمام قدمت إليه ميريا بيجامة نظيفة وروباً من الحرير. وبقيت معه بينما هو يجفف جسده ويرشه بالكولونيا ويرتدي ملابسه. فعلى العكس مما كان يظنه كثيرون، بدءاً من **الزعيم** نفسه، لم يكن زواجه من ميريا للمصلحة. فقد أحب تلك الفتاة السمراء الخجولة، وجازف بحياته في مغازلتها على الرغم من معارضة تروخييو. وكانا زوجين سعيدين، دون مشاجرات ولا قطيعة خلال أكثر من عشرين سنة عاشاها معاً. وبينما هو يتبادل الحديث مع ميريا وألفارو على المائدة - لم يكن جائعاً، فاكتفى بتناول كأس من الروم مع الثلج - كان يتساءل كيف سيكون رد فعل زوجته. هل ستقف إلى جانب زوجها أم إلى جانب عصابة الأسرة؟ وكان الشك يعذبه. لقد رأى ميريا مرات كثيرة ساخطة للإهانات التي يوجهها إليه **الزعيم**؛ وربما كان ذلك يرجح الكفة لصالحه. ثم من هي الدومينيكانية التي لا تحب أن تتحول إلى السيدة الأولى في البلاد؟

بعد انتهاء العشاء، خرج ابنه ألفارو ليتناول كأساً من البيرة مع بعض الأصدقاء. وصعد هو وميريا إلى حجرة النوم في الطابق الثاني، وأشعلا صوت الدومينيكان. كانوا يبثون برنامج موسيقى راقصة لمغنين وأوركسترا رائجة. لقد كانت المحطة تتعاقد، قبل العقوبات، مع أفضل المغنين الأمريكيين اللاتينيين، ولكن كل إنتاج بيتان التلفزيوني في السنة الأخيرة، وبسبب الأزمة، صار يعتمد على الفنانين المحليين. وبينما هما يسمعان ألحان ميرنغي ودانثون تعزفها أوركسترا الجنراليسمو، بقيادة المايسترو لويس ألبيرتي، علقت ميريا متأسفة ومتمنية أن تنتهي قريباً هذه المشاكل مع الكنيسة. فهناك أجواء سيئة وصديقاتها يتكلمن أثناء لعب الورق عن إشاعات حول ثورة، وعن أن كيندي سيرسل المارينز. فطمأنها بوبو: **الزعيم** سيخرج رابحاً في هذه المرة أيضاً وستعود البلاد إلى

الهدوء والازدهار. ولكن صوته كان زائفاً إلى حد اضطر معه إلى الصمت، متظاهراً بالسعال.

بعد ذلك بقليل سُمع صرير مكابح سيارة ودوى نفير هستيري. قفز الجنرال من السرير وأطل من النافذة. ولمح شبح الجنرال أرتورو إسبايات (المدية) يخرج من السيارة التي وصلت لتوها. وما كاد يرى شحوب وجهه على ضوء مصباح الشارع، حتى طفر قلبه: لقد انتهى.

- ما الذي يجري يا أرتورو؟ - سأل وهو يُخرج رأسه من النافذة.

- شيء خطير جداً. - قال الجنرال إسبايات وهو يقترب - كنتُ مع زوجتي في مطعم البوني، ومرت شفروليه الزعيم. وبعد قليل، سمعتُ إطلاق نار. ذهبتُ لأستطلع الأمر فواجهت تبادلاً لإطلاق النار في منتصف الطريق العام.

- سأنزل، سأنزل. - صرخ بوبو رومان. وراحت ميريا ترتدي روباً بينما هي ترسم إشارة الصليب: «رباه، خالي»، «لا سمح الله، ليتقدس اسم يسوع».

منذ هذه اللحظة وطوال الدقائق والساعات التالية، وهو الوقت الذي حُسم فيه مصيره، ومصير أسرته، ومصير المتآمرين، ومصير جمهورية الدومينيكان بأسرها في نهاية المطاف، كان الجنرال بوبو رومان يعرف على الدوام، وبصفاء كامل، ما يتوجب عليه عمله. فلماذا فعل عكس ذلك بالضبط؟ لقد سأل نفسه هذا السؤال مرات كثيرة خلال الشهور التالية، دون أن يجد الجواب. فقد عرف، بينما هو ينزل السلم، أن العمل الصائب الوحيد، إذا ما كان متعلقاً بالحياة ولا يريد للمؤامرة أن تنتهي إلى الإحباط، هو فتح الباب لرئيس جهاز الاستخبارات العسكرية السابق، وأكثر العسكريين تورطاً في عمليات النظام الاجرامية، ومُنَفِّذ عمليات اختطاف وابتزاز وتعذيب واغتيال لا حصر لها بأوامر من تروخييو، وإفراغ كل رصاصات مسدسه فيه. فسوابق المدية لا تتيح له خياراً آخر سوى الحفاظ على ولاء كلبي لتروخييو والنظام، حتى لا يذهب إلى السجن أو يُقتل.

ومع أنه كان يعرف ذلك جيداً، فقد فتح الباب وأدخل الجنرال إسبايات وزوجته، وقبّل هذه الأخيرة من خدها وطمأنها، ذلك أن ليخيا فيرناندث زوجة إسبايات كانت قد فقدت أعصابها وراحت تتلعثم بعبارات غير متماسكة. وقدم له المدية معلومات محددة: عندما اقترب بسيارته، واجه إطلاق نار كثيف، من مسدسات وبنادق ورشاشات، وعلى وميض الرصاص تعرف على شفروليه الزعيم، وتمكن من رؤية شبح على الطريق يطلق النار، قد يكون تروخييو. لم

يستطع أن يساعده؛ لأنه كان بالملابس المدنية، ودون سلاح، وخشية أن تطال إحدى الرصاصات زوجته ليخيا، جاء إلى هنا. لقد وقع الحادث قبل خمس عشرة دقيقة، أو عشرين دقيقة على أبعد تقدير.

- انتظرني، سأرتدي ملابس. - صَعد رومان الدرج قافزاً، تتبعه ميريا التي كانت تهز يديها ورأسها مثل مجنونة.

- يجب إخبار خالي نيغرو. - صاحت بينما هو يرتدي زيه العسكري اليومي. رآها تركض نحو الهاتف، دون أن تتيح له الوقت ليفتح فمه. ومع أنه عرف بأن عليه أن يمنع ذلك الاتصال، إلا أنه لم يفعل. أمسك سماعة الهاتف ونبّه الجنرال هكتور بينبنيدو تروخييو:

- لقد أعلموني للتو عن احتمال وقوع محاولة لاغتيال فخامته على طريق سان كريستوبال. إنني ذاهب إلى هناك. وسأُطلعك على ما يجري أولاً بأول.

انتهى من ارتداء ملابسه ونزل حاملاً بندقية M-1 في يده، مخزنها محشو وجاهز. وبدلاً من أن يطلق رشة ويقضي على المدية، أبقى على حياته مرة أخرى، وهز رأسه موافقاً عندما نصحه إسبايات، بعينيه الفأريتين اللتين أكلهما القلق، بأن ينبه الأركان العامة ويعطي الأوامر بعدم التحرك. فاتصل الجنرال رومان بثكنة 18 كانون الأول وأصدر أمراً صارماً إلى كل الحاميات بالتزام الثكنات، وأن تُغلق مخارج العاصمة، ونبّه قادة المدن الداخلية إلى أنه سيتصل بهم قريباً بالهاتف أو اللاسلكي، من أجل مسألة بالغة الأهمية. لقد كان يضيع وقتاً لا يمكن استرداده، ولكن لم يكن بإمكانه عدم التصرف على هذه النحو، وهو يفكر بإزالة أي شكوك حول سلوكه من ذهن المدية.

- هيا بنا - قال متوجهاً إلى إسبايات.

- سأُوصل ليخيا إلى البيت. - ردّ عليه - وسألتقي بك على الطريق. الحادث وقع عند الكيلومتر السابع تقريباً.

عندما انطلق بسيارته الخاصة، عرف أن عليه أن يتوجه فوراً إلى منزل الجنرال خوان توماس ديات، على بعد أمتار قليلة من بيته، لكي يتأكد من أن عملية الاغتيال قد أنجزت - وهو متأكد من أن ذلك قد حدث - ويضع خطة الانقلاب العسكري موضع التنفيذ. لم يعد أمامه مهرب؛ فسواء أكان تروخييو ميتاً أو جريحاً، فإنه أحد المتواطئين. ولكنه بدلاً من الذهاب إلى حيث خوان توماس أو أمياما، قاد سيارته نحو جادة جورج واشنطن. وبالقرب من سوق

الماشية رأى الكولونيل ماركوس أنطونيو خورخي مورينو، قائد الحرس الشخصي لتروخييو، يومئ إليه من سيارته، ومعه الجنرال بوبو؟

- إننا قلقون - صرخ مورينو وهو يُخرج رأسه خارج السيارة - فخامته لم يصل إلى سان كريستوبال.

- وقعت محاولة اغتيال - أخبرهما رومان - اتبعاني!

عند الكيلومتر السابع، وعلى أنوار مصابيح سيارة مورينو وبو تعرف على الشفروليه السوداء المثقوبة، وزجاجها المحطم ولطخات الدم على الإسفلت بين الحطام والرصاص الفارغ، وعرف أن عملية الاغتيال قد نجحت. فلا يمكن له إلا أن يكون ميتاً بعد كل هذا الرصاص. وأنه عليه بالتالي أن يُجبر مورينو وبو، وهما تروخييويان متعصبان ويجاهران بذلك، على الاستسلام أو أن يعتقلهما أو يقتلهما قبل أن يأتي إسبايات وعسكريون آخرون، وأن يرجع إلى ثكنة 18 كانون الأول، حيث سيكون في مأمن. ولكنه لم يفعل ذلك أيضاً، بل أبدى ذهوله مثل مورينو وبو، وتفحص معهما محيط المكان، وأبدى سعادته عندما عثر الكولونيل على مسدس ما بين الأعشاب. وبعد لحظات من ذلك جاء المدية، ثم وصلت دوريات وحراس، فأمرهم بمواصلة البحث. وقال إنه سيكون في قيادة الأركان.

وبينما هو الآن في سيارته الرسمية التي يقودها سائقه الرقيب الأول مورونيس، متوجهاً إلى ثكنة 18 كانون الأول، دخن عدة سجائر لوكي سترايك. لا بد أن لويس أمياما وخوان توماس منهمكان في البحث عنه وهما يحملان جثة الزعيم على كاهلهما. من واجبه أن يرسل إليهما إشارة ما. ولكنه بدلاً من أن يفعل ذلك، ولدى وصوله إلى هيئة الأركان، أصدر تعليماته إلى الحراس بمنع أي مدني، كائناً من يكون، من الدخول إلى المكان مهما كان السبب.

وجد الثكنة في حالة غليان غير معهودة في مثل هذه الساعة في الأوقات العادية. وبينما هو يصعد السلم واثباً إلى مقر قيادته ويرد بحركات من رأسه على الضباط الذين يحيونه، سمع من يسأل - «أهي محاولة إنزال قبالة السوق الزراعي والرعوي يا سيدي الجنرال؟» - ولم يتوقف للإجابة.

دخل مهتاجاً، يحس بوجيب قلبه، ومجرد نظرة سريعة على العشرين ضابطاً ذوي الرتب العليا المجتمعين في مكتبه، كانت كافية لأن يعرف أنه على الرغم من الفرص الضائعة، مازالت لديه فرصة لوضع الخطة موضع التنفيذ، فهؤلاء الضباط الذين طرقوا كعوبهم عند رؤيته، وقدموا التحية العسكرية، هم جماعة مصطفاة من

القيادة العليا، ومعظمهم أصدقاء شخصيون، وينتظرون أوامره. وهم يعرفون أو يهجسون بأن فراغاً رهيباً قد حدث، ولأنهم تربوا على تقاليد الانضباط والاعتماد الكامل على الزعيم، فإنهم ينتظرون منه أن يتولى القيادة، وأن يبدي وضوحاً في النوايا. هناك نظرات تخوف وأمل في وجوه الجنرالات فيرناندو آ. سانتشيث، ورادامیس هونغريا، وفاوستو كامانيو، وفيلكس هيرميدا، ووجوه الكولونيلين ريفيرا كويستا وكروثادو بينيا، ووجوه الميجرات ويزن آي ويزن، وباغان مونتاس، وسالدانيا، وسانتشيث بيريث، وفيرنانديث دومينغث، وهيرناندو راميريث. يريدون منه أن يُخرجهم من هذا القلق الذي لا يستطيعون منع أنفسهم من الوقوع فيه. فخطبة حماسية يلقيها عليهم بصوت قائد خصيتاه في موضعهما ويعرف ما الذي يريده، يوضح لهم فيها أن اختفاء تروخييو أو مصرعه، الذي حدث لأسباب لا بد من النظر فيها، يوفر دون ريب في هذه الظروف الحساسة، فرصة جادت بها العناية الإلهية للتغيير في الجمهورية. فلا بد أولاً وقبل كل شيء من تفادي الوقوع في الاضطرابات والفوضى التي تؤدي إلى ثورة شيوعية وما سيتبعها من احتلال أميركي. ولهذا يتوجب عليهم، باعتبارهم وطنيين بالفطرة والمهنة، التصرف بسرعة، فالبلاد وصلت إلى الحضيض، وفُرض عليها الحجر بسبب تعسف نظام قدم في الماضي خدمات لا تثمن، إلا أنه انحدر إلى طغيان يستثير الاستنكار الدولي. ولأنه لا بد من استباق الأحداث برؤية مستقبلية، فإنه يدعوهم للسير معه من أجل ردم الهوة التي بدأت تنفتح. وباعتباره قائد القوات المسلحة، فإنه سيترأس مجلساً مدنياً- عسكرياً يضم شخصيات بارزة، ويتولى ضمان الانتقال إلى الديمقراطية، ويتيح رفع العقوبات المفروضة من جانب الولايات المتحدة، والدعوة إلى انتخابات عامة، تحت إشراف منظمة الدول الأمريكية. وهذا المجلس يحظى برضى واشنطن، وهو يأمل بتعاونهم، باعتبارهم قادة أفضل مؤسسة في البلاد وأحسنها سمعة. وكان يعرف أن كلماته ستُقابل بالتصفيق، وأنه إذا ما بدا تهاون من أحدهم، فإن قناعة الآخرين ستنتهي إلى إقناعه. وعندئذ سيكون من السهل إصدار الأوامر إلى قادة تنفيذيين مثل فاوستو كامانيو وفيلكس هيرميدا ليعتقلا الأخوة تروخييو، ولحبس أبيس غارسيا، والكولونيل فيغيروا كاريون، والنقيب كانديتو توريس، وكلاودوفيو أورتيز، وأميركو دانتي مينيفينو، وثيسر رودريغيث بييتي، وآليثيانو بينيا ريفيرا، وبهذا تتعطل آليه الاستخبارات العسكرية.

مع أنه كان يعرف جيداً ما يتوجب عليه أن يفعله ويقوله في هذه اللحظة، إلا

أنه لم يفعله. فبعد بضع ثوان من التردد، اكتفى بإخبار الضباط، بلغة غائمة، غير واضحة، متلعثمة، أنه نظراً لمحاولة الاغتيال ضد شخص **الجنراليسمو**، يتوجب على القوات المسلحة أن تبقى متماسكة مثل قبضة، وجاهزة للعمل. وكان بمقدوره أن يشعر، وأن يلمس خيبة أمل هؤلاء المرؤسين الذين بدلاً من أن يبث فيهم الثقة، نقل إليهم عدوى تردده. لم يكن هذا هو ما ينتظرونه منه. وليداري مدى بلبلته، اتصل بحاميات المدن الداخلية. بالجنرال ثيسر آ. أوليفا في سنتياغو، والجنرال غارسيا أوربايث في داخابون، والجنرال غوايونكس إستريّا في لابيغا، وكرر عليهم، بالطريقة المترددة نفسها - لسانه لا يكاد يطاوعه، ويتكلم كما لو كان سكراناً - أنه نظراً لاغتيال الزعيم المحتمل، عليهم أن يستنفروا القوات في الثكنات، وألا يقوموا بأي تحرك دون تفويض منه.

- لا تغادروا - أعلن وهو ينهض واقفاً - سوف أدعو فوراً إلى اجتماع على أعلى مستوى.

أمر بالاتصال برئيس الجمهورية، وبرئيس جهاز الاستخبارات العسكرية، وبالرئيس السابق الجنرال هيكتور بينبنيدو تروخييو (نيغرو). سيدعو الثلاثة ويعتقلهم. وإذا كان بالاغير ضمن المشاركين في المؤامرة، فإنه سيساعده في الخطوات التالية. لمح اضطراباً بين الضباط: فهناك تبادل نظرات ووشوشات. أعطوه الهاتف. لقد أخرجوا الدكتور خواكين بالاغير من فراشه:

- آسف لإيقاظك أيها السيد الرئيس. لقد جرت محاولة اغتيال استهدفت فخامته وهو ذاهب إلى سان كريستوبال. وباعتباري وزيراً للقوات المسلحة، فإنني أدعو إلى عقد اجتماع عاجل في ثكنة 18 كانون الأول. أرجوك أن تأتي، وبأسرع ما يمكن.

لم يرد الرئيس بالاغير لوقت طويل، حتى ظن رومان أنه قطع الاتصال. أتكون المفاجأة هي سبب صمته؟ أم السعادة لأنه عرف أن الخطة بدأت تتحقق؟ أم أنه عدم الثقة بهذه المكالمة المفاجئة؟ وأخيراً، سمع الرد، وقد نطق به بالاغير دون أي قدر من التأثر:

- إذا كان قد حدث شيء بمثل هذه الخطورة، فمكاني كرئيس للجمهورية ليس في ثكنة عسكرية، وإنما في **القصر الوطني**. إنني ذاهب إلى هناك وأقترح عليك أن يُعقد الاجتماع في مكتبي. طابت ليلتك.

وقطع الاتصال دون أن يتيح له الوقت للرد.

أما جوني أبيس غارسيا فاستمع إليه باهتمام. وقال إنه سيأتي إلى الاجتماع، ولكن بعد أن يستمع إلى شهادة النقيب ثاكرياس دي لا كروث الذي وصل للتو إلى مستشفى ماريون وهو مصاب بجراحٍ بليغة. وبدا أن نيغرو تروخييو وحده هو الذي قبل الدعوة. «إنني آت إليك في الحال.» أشار إليه وهو غير مستوعب ما يحدث. ولكنه حين لم يصل بعد انقضاء نصف ساعة، عرف الجنرال خوسيه رينيه رومان أنه ليست هناك إمكانية لتنفيذ خطته التي خطرت له في اللحظة الأخيرة. وأن أي واحد من الثلاثة لن يقع في الكمين. وبدأ هو نفسه، بسبب تصرفاته، يغرق في رمال متحركة سيكون من الصعب عليه الهروب منها بعد قليل. اللهم إلا إذا استطاع الاستيلاء على طائرة عسكرية لتنقله إلى هايتي أو ترينيداد أو بويرتو ريكو أو جزر الأنتيل الفرنسية، أو إلى فنزويلا حيث سيستقبلونه بالترحاب.

ابتداء من هذه اللحظة دخل في حالة من السرنمة. فقد انخسف الوقت، أو أنه لم يعد يتقدم إلى الأمام، وإنما صار يدور في تكرار مهووس يُثقل عليه ويثير حفيظته. ولن يخرج من هذه الحالة طوال أربعة الشهور ونصف الشهر المتبقية له في الحياة، إذا كانت حالته تلك تستحق أن تسمى حياة وليس جحيماً أو كابوساً. فحتى الثاني عشر من تشرين الأول 1961 لم يعد لديه أي إحساس واضح بالتسلسل الزمني؛ ولكنه كان يشعر بالمقابل بالأبدية الغامضة التي لم يكن يهتم بها قط. وفي لحظات الصحو المفاجئة التي كانت تداهمه لتذكره بأنه حي، وأن ما هو فيه لم ينته، كان يعذب نفسه بالسخط نفسه: لماذا لم تتصرف كما يجب، وأنت تعرف أن هذا هو ما ينتظرك؟ وكان هذا السؤال يعذبه أكثر من عمليات التعذيب التي واجهها بجرأة كبيرة، ربما لكي يثبت لنفسه بأن تصرفه بكل تلك البلبلة لم يكن بسبب الجبن، في تلك الليلة التي بلا نهاية من يوم 31 أيار 1961.

ولعجزه عن التناغم مع أفعاله، فقد وقع في تناقضات ومبادرات خاطئة. فأمر صهره الجنرال فيرخيليو غارسيا تروخييو بأن يرسل من قاعدة سان إيسيدرو، حيث تتمركز والوحدات المدرعة، أربع دبابات وثلاث سرايا مشاة لتعزيز ثكنة 18 كانون الأول. ولكنه قرر بعد ذلك مباشرة مغادرة هذا الموقع والانتقال إلى القصر. ووجه تعليمات إلى رئيس أركان الجيش، الجنرال الشاب تونتين سانتشيث، بأن يُطلعه أولاً بأولاً على عمليات البحث. وقبل أن يغادر، اتصل بأميركو دانتي مينيرفينو في لافيكتوريا، وأمره بصورة حازمة بأن يصفي في الحال، وبالسرية القصوى، المعتقلين: الميجر سيغوندو إمبرت باريراس،

ورافائيل أغوسطو سانتشيث ساويي، وأن يخفي جثتيهما. ذلك أنه خشي أن يكون أنطونيو إمبرت، عضو فريق التنفيذ، قد نبه أخاه حول مشاركته في المؤامرة. وبما أن أميركو دانتي مينيرفينو كان معتاداً على مثل هذه المهمات، فإنه لم يطلب استفسارات: «فُهم الأمر سيدي الجنرال». وقد بلبل الجنرال تونتين سانتشيث بالقول له أن يخبر دوريات الاستخبارات العسكرية، والجيش، والطيران التي تقوم بالبحث، بوجوب قتل الأشخاص الواردة أسماؤهم في لوائح «المعادين» و «المعارضين» التي سلمهم إياها عند أدنى محاولة للمقاومة. («لا نريد معتقلين يكونون سبباً في إثارة حملات دولية ضد بلادنا».) ولم يعلق مرؤوسه بأي شيء. سأنقل تعليماتك بحذافيرها يا سيدي الجنرال.

ولدى خروجه من الثكنة متوجهاً إلى القصر، أخبره ملازم الحراسة بأن سيارة فيها مدنيان، أحدهما يدعي أنه أخوه رامون (بيبين)، قد جاءت إلى مدخل الثكنة، وطالبا برؤيته. وأنه أجبرهما على الرجوع بناء على تعليماته. فهز رأسه دون أن يقول شيئاً. أخوه مشارك في المؤامرة إذن، ولا بد إذن لبيبين أن يدفع أيضاً ثمن تردده وتململه. وبينما هو غارق في هذا النوع من التنويم، فكر بأن سبب تقاعسه ربما يرجع إلى أنه على الرغم من موت جسد الزعيم، إلا أن روحه، أو نفسه، أو ما يسمى ذلك الشيء، ما زال يستعبده.

وجد في القصر هرجاً ومرجاً وحزناً وأسى. كل أفراد أسرة تروخييو تقريباً كانوا مجتمعين. فبيتان الذي وصل للتو من إقطاعيته في بوناو، كان ينتعل جزمة ركوب الخيل ويعلق بندقية رشاشة على كتفه، ويتمشى من جهة إلى أخرى مثل فارس كاريكاتوري. وكان هيكتور (نيغرو) غارقاً في أريكته، ويفرك ذراعيه وكأنه يشعر بالبرد. أما زوجته ميريا وحماته مريانا فكانتا تواسيان دونيا ماريا، زوجة الزعيم، وكانت شاحبة كالميتة، وعيناها تطلقان ناراً. بينما كانت أنخيليتا الجميلة بالمقابل تبكي وتلوي يديها، دون أن يتمكن زوجها الكولونيل خوسيه ليون إستيفيث (بيتشيتو) المضطرب وهو بالزي العسكري من طمأنتها. أحس بعيون الجميع تصوب إليه: هل من أخبار؟ عانقهم فرداً فرداً: يجري تمشيط المدينة كلها، بيتاً بيتاً، شارعاً شارعاً، وعما قريب... وحينئذ اكتشف أنهم يعرفون أكثر مما يعرفه قائد القوات المسلحة. فقد وقع أحد المتآمرين، وهو الضابط السابق بيدرو ليفيو ثيدينيو، ويقوم أبيس غارسيا باستجوابه في المستشفى الدولي. وكان الكولونيل خوسيه ليون إستيفيث قد أخبر رامفيس وراداميس بما جرى،

وهما يقومان بالإجراءات لاستئجار إحدى طائرات آير فرانس لتنقلهما من باريس. ومنذ هذه اللحظة عرف أيضاً أن السلطة التي يمنحه إياها منصبه، والتي بددها خلال الساعات الأخيرة، قد بدأت تضيع منه؛ فالأوامر لم تعد تصدر من مكتبه، وإنما من مكتب قادة جهاز الاستخبارات العسكرية جوني أبيس غارسيا والكولونيل فيغيروا كاريون، أو من أقارب تروخييو، مثل بيتشيتو أو صهره فيرخيليو. كانت هناك ضغوط غير مرئية تُبعده عن السلطة. ولم يُفاجأ بأن نيغرو تروخييو لم يقدم له أي تفسير لعدم مجيئه إلى الاجتماع الذي دعاه إليه.

ابتعد عن الجماعة، وأسرع إلى حجرة هاتف واتصل بالثكنة. أمر رئيس الأركان بإرسال قوات لتحاصر المستشفى الدولي وتضع الضابط السابق بيدرو ليفيو ثيدينيو تحت الحراسة، وتمنع المخابرات العسكرية من نقله من هناك، باستخدام القوة إذا اقتضى الأمر. فالأسير يجب أن يُنقل إلى ثكنة 18 كانون الأول. وسيذهب هو نفسه لاستجوابه شخصياً. فاكتفى تونتين سانتشيث بوداعه بعد فترة صمت كريهة بالقول: «طابت ليلتك سيدي الجنرال». فقال لنفسه، معذباً، بأن هذه المكالمة ربما كانت أسوأ خطأ ارتكبه هذه الليلة.

كان هناك الآن مزيد من الناس في الصالة التي يتواجد فيها آل تروخييو. والجميع يستمعون بصمت متكدر إلى الكولونيل جوني أبيس غارسيا الذي كان واقفاً ويتكلم بكآبة:

- جسر الأسنان الذي عثرنا عليه على الطريق هو لفخامته. لقد أكد ذلك الدكتور فرناندو كامينو. ولهذا يمكن الافتراض بأنه في حالة خطيرة جداً، إذا لم يكن ميتاً.

- وماذا عن القتلة؟ - قاطعه رومان بتحدٍ - هل تكلم ذلك الشخص المعتقل؟ هل اعترف بأسماء شركائه؟

التفت وجه رئيس الاستخبارات العسكرية الممتلئ نحوه، وأحاطته عيناه الضفدعيتان بنظرة بدت له ساخرة وهو في حالة النزق القصوى التي كان عليها.

- لقد وشى بثلاثة منهم - أوضح جوني أبيس وهو يواصل النظر إليه دون أن يرمش -: أنطونيو إمبرت، ولويس أمياما والجنرال خوان توماس دياث. ويقول إن هذا الأخير هو زعيمهم.

- هل اعتقلتموهم؟

- رجالي يفتشون في كل أنحاء مدينة تروخييو. - أكد جوني أبيس غارسيا -

وهناك شيء آخر. يمكن أن تكون الولايات المتحدة وراء هذا الأمر.

دمدم ببعض كلمات التهنئة للكولونيل أبيس ثم رجع إلى حجرة الهاتف. اتصل ثانية بالجنرال تونتين سانتشيث. يجب على الدوريات أن تعتقل فوراً الجنرال خوان توماس دياث، ولويس أياما، وأنطونيو إمبرت، وأفراد أسرهم «أحياء أو أمواتاً، ليس مهماً، وربما الأفضل أن يكونوا أمواتاً، لأنه يمكن للمخابرات المركزية الأمريكية أن تحاول إخراجهم من البلاد». وعندما أغلق الهاتف، راوده إحساس صائب: فمع هذا التطور الذي تتخذه الأمور، لن يكون متيسراً له حتى اللجوء إلى المنفى. عليه أن يُطلق رصاصة على نفسه.

كان أبيس غارسيا ما يزال يتكلم في الصالون. ولكن ليس عن القتلة؛ وإنما عن الوضع الذي صارت إليه البلاد. وقال مؤكداً:

- لا بد في هذه اللحظات من أن يتولى أحد أفراد أسرة تروخييو رئاسة الجمهورية. يجب على الدكتور بالاغير أن يستقيل ويتخلى عن منصبه للجنرال هكتور بينبنيدو أو الجنرال خوسيه آريسميندي. وهكذا سيعرف الشعب بأن روح وفلسفة وسياسة الزعيم لن تتعرض للانتقاص، وستواصل قيادتها للحياة الدومينيكانية.

ساد صمت قلق. تبادل الحاضرون النظرات. وارتفع صوت بيتان تروخييو الفظ والمعربد مهيمناً على القاعة:

- جوني على صواب. يجب أن يستقيل بالاغير. وأن يتولى الرئاسة أخي نيغرو أو أنا. وهكذا سيعرف الشعب بأن تروخييو لم يمت.

عندئذ لاحق الجنرال رومان نظرات الجميع، واكتشف أن الرئيس الدمية موجود هناك، ضئيلاً ورصيناً كعادته، يستمع من مقعده في الركن كما لو أنه يحاول عدم الازعاج. كان يرتدي ملابسه بالاتقان المعهود ويبدي هدوءاً مطلقاً، وكأن الأمر مجرد إجراء صغير. رسم نصف ابتسامة وتكلم بهدوءٍ سكَّن الجو:

- مثلما تعرفون جيداً، أنا رئيس الجمهورية بقرار من الجنرال يسمو الذي ضبط أعماله دائماً وفق الاجراءات الدستورية. وأنا أشغل هذا المنصب لتسهيل الأمور وليس لتعقيدها. فإذا كانت استقالتي ستحسن الأوضاع، فإنها جاهزة. ولكن اسمحوا لي باقتراح: قبل اتخاذ قرار مثل هذا القرار الخطير الذي يعني انقطاعاً في الشرعية، أليس من الأفضل انتظار مجيء الجنرال رامفيس تروخييو؟ أليس من الواجب استشارة الابن البكر للزعيم، ووريثه الروحي والعسكري والسياسي؟

صوّب نظرة إلى المرأة التي يفرض البروتوكول التروخييوي الصارم على كتبة الأخبار الاجتماعية بأن يدعوها دوماً بلقب السيدة المهيبة. وجاء رد فعل ماريا مارتينيث دي تروخييو مُلزِماً:

- الدكتور بالاغير على صواب. يجب عدم تبديل شيء إلى أن يصل رامفيس.

- وكان وجهها المستدير قد استعاد ألوانه.

وبينما هو يرى رئيس الجمهورية يُغضي عينيه بحياء، خرج الجنرال رومان لبضع ثوان من التيه الذهني الهلامي ليقول لنفسه إن هذا الرجل الضئيل الأعزل الذي يكتب أشعاراً ويبدو شيئاً تافهاً في عالم الفحول المسلحين بالمسدسات والرشاشات، يعرف جيداً - على النقيض منه - ما يريده وما يفعله، وهو لا يفقد رصانته لحظة واحدة. وفي سياق تلك الليلة، أطول ليلة في حياته الممتدة لنصف قرن، اكتشف الجنرال رومان، وسط الفراغ والفوضى اللذين أحدثهما ما جرى للزعيم، أن ذلك الكائن الثانوي الذي ظنه الجميع على الدوام مجرد كاتب، وشخصية تزيينية للنظام، بدأ يكتسب سلطة مفاجئة.

وكما في الأحلام، رأى في الساعات التالية كيف كان يتجمع ويتفرق إلى جماعات ويعود للالتقاء ذلك المؤتمر للأقرباء والأنسباء والقيادات التروخييوية، وفقاً لترابط أجزاء الأحداث التي راحت تملأ فراغات الصورة التركيبية لتتخذ شكلاً متماسكاً. فقبل منتصف الليل أعلنوا أن المسدس الذي عُثر عليه في موقع الاعتداء يعود للجنرال خوان توماس دياث. وعندما أمر رومان بأن يجري تفتيش بيوت كل اخوة هذا الجنرال فضلاً عن بيته، أخبروه بأن دوريات الاستخبارات العسكرية بقيادة فيغيروا كوريون قد باشرت ذلك، وأن موديستو دياث، شقيق خوان توماس، قد سُلِّم إلى الاستخبارات العسكرية من قِبل صديقه الغاليسي تشوتشو مالابونتا بعد أن التجأ إلى بيته، وأنه معتقل الآن في «الأربعين». وبعد خمس عشرة دقيقة من ذلك، اتصل بوبو بابنه ألفارو، وطلب منه أن يأتيه بذخيرة إضافية لبندقيته الـ M-1 (ولم يكن قد نزعها عن كتفه)، مقتنعاً بأنه قد يضطر في أي لحظة للدفاع عن حياته، أو القضاء عليها بيده. وبعد أن تشاور في مكتبه مع أبيس غارسيا والكولونيل لويس خوسيه ليون إستيفيث (بيتشيتو)، حول مسألة المطران ريللي، بادر إلى القول بوجوب إخراج المطران بالقوة، وعلى مسؤوليته الشخصية، من مدرسة سانتو دومنغو، وأيد طرح رئيس الاستخبارات العسكرية بضرورة إعدامه، إذ ليس هناك من شك في تواطؤ الكنيسة في الآلية الإجرامية.

فضرب زوج أنخيليتا تروخييو على مسدسه قائلاً إنه سيكون شرفاً له أن ينفذ الأمر. وقد رجع بعد ساعة سعيداً. فالعملية تمت دون وقوع أحداث تذكر، باستثناء توجيه بعض الضرب إلى عدد من الراهبات وإلى كاهنين منقذين، وهما أمريكيان أيضاً، حاولا حماية المطران. ولم يمت سوى كاهن ألماني، هو حارس المدرسة، وقد عضَّ أحد المخبرين قبل أن يتلقى رصاصة أردته. أما المطران فموجود في مركز الاعتقال لدى القوة الجوية، عند الكيلومتر التاسع على طريق سان إيسيدرو. وقد رفض قائد المركز القومندان رودريغيث مينديث إعدام المطران، ومَنَعَ بيتشيتو ليون إستيفيث من عمل ذلك، متعللاً بأوامر من رئيس الجمهورية.

فسأله رومان بذهول عما إذا كان يعني الرئيس بالاغير. ورد زوج أنخيليتا تروخييو وهو لا يقل عنه ذهولاً:

– يبدو أنه يظن نفسه رئيساً حقيقياً. والغريب ليس تدخل هذا التافه في المسألة، وإنما أن أوامره تُطاع. يجب على رامفيس أن يوقفه عند حده.

فانفجر بوبو رومان:

– لا حاجة إلى انتظار عودة رامفيس. سأصفي الحساب معه الآن بالذات.

توجه بخطوات واسعة إلى مكتب الرئيس، ولكنه أحس بالدوار وهو في الممر. واستطاع بالتلمس أن يصل إلى مقعد منعزل، وانهار عليه. استغرق في النوم فوراً. وعندما استيقظ بعد حوالي ساعتين، تذكر أنه رأى كابوساً قطبياً، حيث كان يرتجف من البرد في سهل يغطيه الثلج، ويرى قطيعاً من الذئاب يتقدم نحوه. نهض قافزاً ومضى بما يشبه الركض إلى مكتب الرئيس بالاغير. وجد الباب مفتوحاً على مصراعيه. دخل وهو مصمم عل جعل ذلك القزم الحشري يدرك مهابته، ولكنه وجد نفسه – مفاجأة أخرى – وجهاً لوجه مع المطران ريللي نفسه. كان المطران شاحباً، عباءته ممزقة، وعلى وجهه آثار سوء المعاملة، ولكنه يحتفظ مع ذلك بوقار مهيب. وكان رئيس الجمهورية يودعه.

– آه، أيها المنسنيور، انظر من لدينا هنا، إنه وزير القوات المسلحة، الجنرال خوسيه رينيه رومان فيرناندث – قام بالتقديم – وهو آتٍ للإعراب لك عن أسف السلطات العسكرية على سوء التفاهم المؤسف. إنني أقدم لك ضمانتي وضمانة قائد الجيش، أليس كذلك أيها الجنرال رومان؟ بالا يعود أحد إلى التعرض بالإزعاج لك أو لأي أسقف أو لراهبات مدرسة سانتو دومنغو. وأنا نفسي سأقدم التوضيحات اللازمة للأخت ويلليمين والأخت هيلين كلير. إننا نعيش لحظات

شديدة الصعوبة، وحضرتك رجل لديه تجربة وتتفهم ذلك. هناك مرؤوسون يفقدون السيطرة على أنفسهم ويتصرفون بتطرف، مثلما حدث هذه الليلة. لن يتكرر ذلك. وأرجوك أن تتصل بي مباشرة لدى أدنى مشكلة.

المطران ريللي الذي كان ينظر إلى كل ذلك كما لو أنه محاط بكائنات مريخية، قام بحركة مبهمة برأسه على سبيل الوداع. وواجه رومان عندئذ الدكتور بالاغير بنزق وهو يلمس بندقيته الرشاشة:

- إنك مدين لي بتفسير يا سيد بالاغير. من أنت لتوجه أوامر معاكسة لأوامري، وتتصل بمركز عسكري، وبضابط مرؤوس، متجاوزاً الرتب؟ أي لعنة تظن نفسك؟

نظر إليه الرجل الضئيل كما لو أنه يسمع سقوط المطر. وبعد أن تأمله للحظة، رسم ابتسامة ودية. ثم أشار إلى كرسي قبالة منضدته ودعاه للجلوس. ولكن بوبو رومان لم يتحرك. كانت الدماء تفور في عروقه مثل مرجل على وشك الانفجار. وصرخ:

- أجب على سؤالي، يا للعنة!

ولم يضطرب الدكتور بالاغير في هذه المرة أيضاً. بل عاتبه بالرقة الأبوية نفسها التي يلقي أو يقرأ بها خطاباته:

- إنك منفعل أيها الجنرال، وهذا أقل ما يمكن حدوثه في هذه الظروف. ولكن عليك أن تبذل جهدك في التماسك. ربما كنا نعيش الآن أخطر لحظة في حياة الجمهورية، ويجب على حضرتك أن تقدم للبلاد مثلاً يُحتذى في الرصانة والهدوء.

تحمّل نظرته الغاضبة - كانت تراود بوبو رغبة في ضربه، ولكن الفضول كان يكبحه في الوقت نفسه -، وبعد أن جلس وراء مكتبه، أضاف:

- اشكرني لأنني حلتُ دون وقوعك في خطأ جسيم أيها الجنرال. فما كان لقتل مطران أن يحل مشاكلك، وإنما كان سيفاقمها. وإذا كنت تنتصح، فاعلم أن الرئيس الذي جئت توجه إليه كلمات نابية مستعد لأن يساعدك. مع أنني أخشى ألا أكون قادراً على تقديم الكثير لك.

لم يلمس رومان سخرية في تلك الكلمات. أتراها تخبئ تهديداً؟ لا، لا يمكن أن تكون كذلك بالنظر إلى نظرات بالاغير اللطيفة. تلاشى غضبه. إنه خائف الآن. وهو يحسد طمأنينة هذا القزم العذب.

- اعلم إذن أنني أمرت بإعدام سيغوندو إمبرت وبابيتو سانتشيث في

لافيكتوريا – زمجر خارجاً عن طوره، دون أن يفكر بما يقوله – لقد كانا مشاركين في المؤامرة أيضاً. وسأفعل الشيء نفسه بكل المتورطين في اغتيال الزعيم.

هز بالاغير رأسه برفق دون أن تتبدل ملامحه ذرة واحدة.

– المصائب الكبيرة تتطلب علاجاً كبيراً – دمدم بغموض. ثم نهض وتوجه نحو باب مكتبه ليغادر منه دون كلمة وداع.

بقي رومان هناك دون أن يدري ما عليه أن يفعل. اختار أن يتوجه إلى مكتبه. وفي الساعة الثانية والنصف فجراً أخذ زوجته ميريا، التي كانت قد تناولت مهدئاً، إلى البيت في غاثكوي. وهناك وجد أخاه بيبين يتناول جرعات من زجاجة ويسكي ذات بطاقة مذهبة ويهزها مثل رايةٍ لجنود الحراسة. بيبين الكسول، اللاهي، الماجن، المزاجي، بيبين اللطيف كان لا يكاد يقوى على الوقوف. فكان عليه أن يحمله إلى غرفة الحمام في الطابق العلوي، بذريعة مساعدته على التقيؤ وغسل وجهه. وما أن أصبحا وحيدين حتى انفجر بيبين بالبكاء. كان ينظر إلى أخيه بحزن لانهائي في عينيه الصغيرتين. وكان هناك خيط مثل نسيج عنكبوت يتدلى من شفتيه. وأخبره بصوت خافت، وهو يكبح نفسه من الصراخ، بأنه أمضى الليل كله مع لويس أمياما وخوان توماس في البحث عنه في المدينة، وأن اليأس دفعهم إلى شتمه. ما الذي جرى يا بوبو؟ لماذا لم تفعل شيئاً؟ لماذا اختبأت؟ ألم تكن هناك خطة؟ فريق التنفيذ أنجز ما عليه القيام به، وأحضروا لك الجثة، مثلما طلبت.

– لماذا لم تنجز ما عليك أنت يا بوبو؟ – كانت الزفرات تهز صدره – ماذا سيحدث لنا الآن؟

– لقد واجهتُ عقبات يا بيبين، فقد ظهر المدية إسبايّات، وكان قد رأى كل شيء. لم يكن ممكناً التصرف. الآن...

– الآن تخوزقنا – زمجر بينين وهو يبتلع مخاطه – جميعنا تخوزقنا: لويس أمياما، وخوان توماس، وانطونيو دي لاماثا، وتوني إمبرت... الجميع. وأنت بصورة خاصة. أنت، ثم أنا من بعدك، لأنني أخوك. إذا كنت تحبني قليلاً فأطلق عليّ رصاصة الآن يا بوبو. أطلق عليّ النار من هذه البندقية الرشاشة الآن، وأنا سكران. قبل أن يفعلوا ذلك هم. أرجوك وأتوسل إليك بأعز ما لديك يا بوبو أن تفعل.

في هذه الأثناء طرق ابنه ألفارو باب الحمام: لقد عثروا على جثة الجنراليسمو في صندوق سيارة متوقفة في بيت الجنرال خوان توماس دياث.

لم يغمض عينيه في تلك الليلة، ولا في الليلة التالية، ولا التي تلتها، وربما لم يعد خلال الشهور الأربعة والنصف التالية إلى معرفة ما كان يعنيه النوم بالنسبة إليه - الاسترخاء، ونسيان نفسه والآخرين، والاستغراق في غيبوبة يعود منها مستعيداً قواه، ومتمتعاً باندفاع أكبر - مع أنه فقد الوعي مرات كثيرة، وأمضى ساعات طويلة، أياماً وليالي، في ذهول أبله، دون تصورات، ودون أفكار، ودون أي شيء سوى الرغبة الملحة بأن يأتيه الموت ليخلصه مما هو فيه. كل شيء كان يختلط ويدور، كما لو أن الزمن قد تحول إلى وشيعة دوارة، حيث يفقد الماقبل، والآن، والمابعد تواليه المنطقي، ويتحول إلى صور عابرة. إنه يتذكر المشهد بوضوح، فلدى وصوله إلى القصر الوطني كانت دونيا ماريا مارتينت دي تروخييو تزمجر أمام جثة الزعيم: « فليجرِ دمُ القتلة حتى آخر قطرة!». ثم يتذكر مشهداً آخر، كما لو أنه يلي ذاك مباشرة، مع أنه ما كان له أن يحدث إلا بعد يوم من ذلك، صورة رامفيس الرشيق، بالزي العسكري، شاحباً، جامد العينين، يميل دون أن ينحني فوق النعش المنقوش، متأملاً وجه الزعيم المكيج، ويدمدم: «أنا لن أكون شهماً ورحيماً مثلك مع الأعداء يا بابا». وبدا له كما لو أن رامفيس لا يكلم أباه، وإنما يكلمه هو. فعانقه بقوة وتأوه في أذنه: «يا للخسارة التي لا تعوض يا رامفيس. لحسن الحظ أنك بقيت لنا». ثم يرى نفسه فوراً ببدلة المراسم العسكرية وبيده بندقيته الـ M-1 التي لا تفارقه، في كنيسة سان كريستوبال المزدحمة، يحضر جناز الزعيم. ويسمع مقتطفات من خطاب الرئيس بالاغير المتعملق - «ها هي مقطوعة برشة رصاص غادرة، السنديانة المتينة التي تحدّت طوال أكثر من ثلاثين سنة كل الصواعق، وخرجت ظافرة من كل العواصف» - وتضمخت عينا رومان بالدموع. كان يستمع إليه وهو إلى جانب رامفيس متحجرٍ ومحاط بحراس يحملون الرشاشات. ويرى نفسه في الوقت ذاته وهو يتأمل (قبل يوم، أم يومين، أم ثلاثة؟) الرتل الطويل لآلاف وآلاف الدومينيكانيين من كل الأعمار والمهن، ومن كل الأجناس والطبقات الاجتماعية، ينتظرون لساعات وساعات، تحت شمسٍ محرقة. لكي يصعدوا درجات القصر، وسط صرخات الألم الهستيرية، والدوار، والعويل، والقرابين وطقوس الحمد. ليقدموا فروض التوقير الأخير إلى الزعيم، إلى الرجل، إلى المنعم. إلى الجنراليسمو، إلى الأب. ويرى نفسه وسط ذلك كله وهو يستمع إلى تقارير معاونيه حول اعتقال المهندس هواسكار تيخيدا وسلفادور إستريّا سعد الله، وحول مقتل أنطونيو دي لاماثا والجنرال خوان توماس دياث في حديقة الاستقلال

عند ناصية شارع بوليفار وهما يقاومان بالرصاص، وموت آمادور غارثيا في الوقت نفسه تقريباً، وعلى مسافة قريبة، بعد أن قاوم أيضاً وقَتَلَ قبل أن يقتلوه، وعن تخريب ونهب الرعاع لبيت خالته التي خبأته. ويتذكر كذلك الاشاعات عن الاختفاء الغامض لصديقه أمياما تيو، وأنطونيو إمبرت - رامفيس يعرض نصف مليون بيزو لمن يساعد في القبض عليه - ومصرع حوالي مئتي دومينيكاني بين مدنيين وعسكريين في مدينة تروخييو، وسنتياغو، ولابيغا، وسان بيدرو دي ماكوريس وعدد من المدن الأخرى، ممن شاركوا في اغتيال تروخييو.

كل ذلك كان مختلطاً في ذهنه، ولكنه مفهوم على الأقل. وقد كانت مفهومة كذلك تلك الذكرى الأخيرة المتماسكة التي ما زالت ذاكرته تحفظها: فعندما انتهت صلاة الجسد الحاضر على تروخييو في كنيسة سان كريستوبال، أمسكه بيتان تروخييو من ذراعه: «تعال معي في سيارتي يا بوبو». وفي سيارة بيتان الكاديلاك عرف - وكان ذلك آخر ما عرفه معرفة يقينية - بأن هذه هي فرصته الأخيرة التالية لفوات الفرص لكي يوفر على نفسه ما سيأتي، وذلك بإفراغ بندقيته الرشاشة على أخي الزعيم وعلى نفسه، لأن تلك الرحلة لن تقوده إلى بيته في غوتكوي. وقد انتهت فعلاً إلى قاعدة سان إيسيدرو، حيث «سيعقد اجتماع للأسرة»، مثلما كذب عليه بيتان دون أن يهتم بالمداراة. وعند مدخل القاعدة الجوية، كان هناك جنرالان بانتظاره هما صهره فيرخيليو غارسيا تروخييو ورئيس أركان الجيش تونتين سانتشيث، فأخبراه بأنه قيد الاعتقال، بتهمة التواطؤ مع قتلة **المنعم إلى الوطن**، وأبي **الوطن الجديد**. وكانا شاحبين جداً ويتفاديان النظر إلى عينيه عندما طلبا منه تسليم سلاحه. فقدم إليهما بكل وداعة بندقية الـ M-1 التي لم ينفصل عنها منذ أربعة أيام.

اقتاداه إلى غرفة فيها طاولة، وآلة كاتبة عتيقة، وحزمة أوراق بيضاء وكرسي. وطلبا منه أن يخلع حزامه وحذاءه ويسلمهما إلى رقيب موجود هناك. ففعل ذلك دون أن يسأل شيئاً. أبقوه وحيداً، وبعد دقائق، دخل صديقا رامفيس المقربين، الكولونيل لويس خوسيه ليون إستيفيث (بيتشيتو) وبيرولو سانتشيث روبيروسا، اللذان طلبا منه دون أن يحيياه، أن يكتب كل ما يعرفه عن المؤامرة، مع ذكر أسماء وكنى المتآمرين. فالجنرال رامفيس - الذي عينه الرئيس بالاغير، بمرسوم سيصادق عليه الكونغرس في تلك الليلة، قائداً لقوات الجمهورية الجوية والبحرية والبرية - لديه معلومات كاملة حول المؤامرة بفضل المعتقلين الذين وشوا جميعهم به.

جلس إلى الآلة الكاتبة، وكتب خلال حوالي ساعتين ما أمروه به. لقد كان طابعاً سيئاً على الآلة الكاتبة، واقترف أخطاء كثيرة، لم يحاول تصحيحها. روى كل شيء، ابتداء من محادثته الأولى مع صديقه لويس أمياما، قبل ستة شهور، وذكر أسماء نحو عشرين شخصاً يعرف أنهم متورطون، ولكنه لم يذكر اسم أخيه بيبين. وأوضح أن دعم الولايات المتحدة للمؤامرة كان عاملاً حاسماً بالنسبة إليه، وأنه لم يوافق على المشاركة في المجلس المدني-العسكري إلا بعد أن علم، من خلال خوان توماس، بأن القنصل هنري دياربورن والقنصل جاك بينيت، ومسؤول الـ CIA في مدينة تروخييو، لورينثو د. بيري (ويمبي)، يريدون أن يكون هو رئيساً للمجلس. وذكر كذبة واحدة فقط: أنه اشترط لكي يشارك بأن يجري اختطاف الجنراليسمو تروخييو وإجباره على الاستقالة، ولكن دون قتله بأي حال من الأحوال. وقد خانه المتآمرون الآخرون، ولم ينفذوا هذا الوعد. أعاد قراءة الأوراق التي كتبها، ثم مهرها بتوقيعه.

بقي وحيداً لوقت طويل، ينتظر بطمأنينة روحية لم يعرفها منذ ليلة 30 أيار. وعندما جاؤوا في طلبه، كان الغروب قد حلّ. كان القادمون جماعة من الضباط غير المعروفين. وضعوا القيود في يديه، وأخرجوه وهو دون حذاء إلى فناء القاعدة الجوية ودفعوا به إلى شاحنة صغيرة مغلقة، نوافذها مطلية، وقد قرأ عليها عبارة: «معهد الوحدة الأمريكية للتربية». فكر بأنهم سيأخذونه إلى «الأربعين». وكان يعرف جيداً ذلك البناء الكئيب في الشارع الأربعين، بالقرب من معمل الاسمنت الدومينيكاني. فقد كان بيتاً يملكه الجنرال خوان توماس ديات، وباعه للدولة كي يحوله جوني أبيس إلى مسرح لأساليبه المُقَطّرة في انتزاع الاعترافات من المعتقلين. وقد كان هو نفسه حاضراً هناك، بعد عملية الغزو الكاستروية في 14 حزيران 1959، عندما أجلسوا أحد المُستَجوَبين، الدكتور تيخادا فلورينتينو، على العرش - وهو عبارة عن مقعد سيارة جيب، وأنابيب، وعصي كهربائية، وقضبان ثيران، ومِخنَقة ذات مقبض خشبي من أجل الضغط على عنق المعتقل في الوقت الذي يتلقى فيه الشحنة الكهربائية - فمات بالصعقة الكهربائية بسبب خطأ خبير الاستخبارات العسكرية الذي أطلق أقصى فولتاج. ولكن لا، لم يأخذوه إلى الأربعين وإنما إلى «التاسع»، على طريق ميبا، وهو منزل قديم كان يملكه بيرولو سانتشيث روبيروسا. وفيه أيضاً عرش، أصغر حجماً وأحدث تصميماً.

لم يكن خائفاً. لم يعد لديه خوف الآن. فالهلع الشديد الذي أبقاه منذ ليلة اغتيال تروخييو مثل «ممسوس» حسبما يقول من أُفرغوا من ذواتهم ومُلِئوا بالأرواح في جلسات السحر، قد تلاشى تماماً. عروه في «التاسع» وأجلسوه على الكرسي المسود، في وسط حجرة دون نوافذ، ينيرها ضوء خافت. أحس بالغثيان من رائحة البراز والبول القوية. كان الكرسي مشوهاً وغير متوازن مع ملحقاته. وكان مثبتاً إلى الأرض ومزوداً بأحزمة لتثبيت الكاحلين والمعصمين والصدر والرأس. ومسندا الذراعين فيه مغطيان بصفائح نحاسية من أجل تسهيل سريان التيار. وهناك حزمة من الأسلاك تخرج من العرش وتصل إلى منضدة حيث يجري التحكم بقوة الفولتاج. وعلى الضوء الخافت، بينما هم يثبتونه إلى الكرسي، رأى ما بين بيتشيتو ليون إستيفيث وسانتشيث روبيروسا، وجه رامفيس المنهوك. كان قد حلق شاربه وخلع نظارته الأبدية من ماركة راي بان. وكان ينظر إليه بالنظرة الزائغة التي رآها فيه عندما كان يقود عمليات تعذيب واغتيال المتبقين على قيد الحياة في كونستانثا ومايمون وإستيرو أوندو في حزيران 1959. لقد كان ينظر إليه دون أن يقول شيئاً بينما أحد المخبرين يقص شعره، وآخر يجثو على ركبتيه ليثبت كاحليه، وثالث يرش عطراً في المكان. صمد الجنرال رومان فيرنانديث لهاتيك العينين.

– أنت أسوأ الجميع يا بوبو. – سمع الصوت المكسور من الألم يقول فجأة – فأنت مدين بكل ما وصلت إليه وكل ما تملكه لبابا. لماذا فعلت ذلك؟

– حباً بالوطن. – سمعَ نفسه يقول.

كان ثمة توقف صامت، ثم تكلم رامفيس مرة أخرى:

– هل بالاغير متواطئ؟

– لا أعرف. لقد أخبرني لويس أمياما بأنهم قد جسوا نبضه، من خلال طبيبه الخاص. ولم يكونوا متأكدين جداً. أميل إلى الاعتقاد بأنه لم يكن مشاركاً.

حرك رامفيس رأسه وأحس بوبو بأنه ينقذف بقوة إعصارية إلى الأمام. بدا كما لو أن الهزة قد هرست كل أعصابه، من دماغه حتى قدميه. كانت الأحزمة والأطواق تعصر عضلاته، ورأى كراتٍ من نار، وإبراً حادة تنغل في مساماته. تحمّل دون أن يصرخ، وكان يزمجر فقط. ومع أنه مع كل شحنة – وكانت تتوالى مع توقفات يرشقونه خلالها بدلاء من الماء لإنعاشه– كان يفقد الوعي ويصاب بالعمى، إلا أنه كان يعود إلى الوعي ثانية. وعندئذ يمتلئ أنفه بعطر الخادمات

ذاك. كان يحاول الحفاظ على شيء من التماسك، على عدم التذلل طالباً الرحمة. وفي ذلك الكابوس الذي لن يخرج منه مطلقاً، كان واثقاً من أمرين: الأول أن جوني أبيس لم يظهر بين جلاديه قط، والثاني هو أن أحدهم، ربما يكون بيتشيتو ليون إستيفيث أو الجنرال تونتين سانتشيث، أخبره بأن أخاه بيبين كان أشد حساسية منه، ذلك أنه تمكن من إطلاق رصاصة في فمه عندما ذهبت الاستخبارات العسكرية بحثاً عنه في بيته عند تقاطع شارع نويل مع شارع خوسيه رييس. وقد تساءل بوبو مرات ومرات عما إذا كان ابناه ألفارو وخوسيه رينيه اللذان لم يحدثهما قط عن المؤامرة، قد تمكنا من قتل نفسيهما.

بين جلسة وأخرى على الكرسي الكهربائي كانوا يسحبونه عارياً إلى زنزانة رطبة، حيث تعيده دلاء من المياه النتنة إلى الحركة. وليمنعوه من النوم ثبتوا رموشه إلى حاجبيه بمادة لاصقة. وعندما كان يدخل في شبه إغفاءة، على الرغم من عينيه المفتوحتين، كانوا يوقظونه بضربه بهروات البيسبول. لقد دسوا في فمه مرات عديدة مواد غير صالحة للأكل؛ أحس في إحدى المرات أنها براز وتقيأ. وفيما بعد، في ذلك الانحدار السريع إلى اللاإنسانية، صار بإمكانه أن يستبقي في معدته كل ما يقدمونه إليه. في الجلسات الكهربائية الأولى كان رامفيس يستجوبه. ويكرر مرات كثيرة السؤال نفسه، ليرى إذا ما كان يناقض أقوله. («هل الرئيس بالاغير متورط؟») فيرد باذلاً جهداً هائلاً لكي يطاوعه لسانه. إلى أن سمع مرة ضحكات، وبعدها صوت رامفيس الذي بلا لون مع شيء من الانوثة: «اخرس يا بوبو. ليس لديك ما تخبرني به. إنني أعرف كل شيء. إنك تدفع الآن ثمن خيانتك لبابا فقط». إنه الصوت المتذبذب نفسه في حفلات التعذيب الدامية بعد الرابع عشر من حزيران 1959، عندما فقد رامفيس وعيه واضطر الزعيم لإرساله إلى مصحة نفسية في بلجيكا.

بعد هذا الحوار الأخير مع رامفيس، لم يعد بإمكانه رؤيته. فقد انتزعوا المادة اللاصقة، منتزعين معها جفنيه، وأعلن له الصوت المخمور والمبتهج: «الآن سيعم الظلام لكي تنام نوماً لذيذاً». وأحس بالإبرة التي تثقب جفونه. ولم يتحرك بينما هم يخيطونها. وفوجيء بأن إقفال عينيه بالخيطان يؤلمه أقل من رعشات العرش. وكان حتى ذلك الحين قد أخفق في محاولتيه للانتحار. في المرة الأولى حين اندفع برأسه، وبكل ما تبقى له من قوة، نحو جدار الزنزانة. ففقد الوعي وتلطخ شعره بالدم قليلاً. والمرة الثانية، كاد أن يتوصل إلى ذلك.

فقد تعلق على القضبان الحديدية - كانوا قد فكوا قيوده لتهيئته لجلسة جديدة على العرش - وكسر المصباح الذي يضيء الزنزانة. وابتلع وهو جاث على أربع كل فتات الزجاج، آملاً بأن ينهي نزيف داخلي حياته. ولكن لدى جهاز الاستخبارات العسكرية طبيبين مقيمين للحيلولة دون موت المعتقلين انتحاراً. وقد أخذوه إلى العيادة، وأجبروه على ابتلاع سائل سبب له التقيؤ. ثم أدخلوا مسباراً لتنظيف أحشائه. لقد أنقذوه لكي يتمكن رامفيس وأصدقاؤه من مواصلة قتله ببطء.

عندما أخصوه، كانت النهاية قد اقتربت. لم يقطعوا خصيتيه بسكين، وإنما بمقص، بينما هو جالس على العرش. كان يسمع ضحكات مستثارة بمبالغة وتعليقات بذيئة، من أشخاص لم يكونوا بالنسبة إليه سوى أصوات وروائح لاذعة... روائح آباط وسجائر رخيصة. لم يمنحهم المتعة بالصراخ. دسوا خصيتيه في فمه. فابتلعهما متلهفاً إلى أن يعجل كل ذلك بموته، وهو أمر لم يكن يخطر بباله أنه سيتمناه إلى هذا الحد.

في إحدى اللحظات تعرف على صوت موديستو دياث، شقيق الجنرال خوان توماس دياث، والذي كان يقال عنه إنه دومينيكاني لا يقل ذكاء عن مخيخ كابرال أو القذارة الحية. هل وضعوه معه في الزنزانة نفسها؟ أيعذبونه مثله؟ وكان صوت موديستو ينضح بالمرارة والاتهام:

- إننا هنا بجريرتك يا بوبو. لماذا خنتنا؟ ألم تكن تعرف أن هذا ما سيحدث لك؟ أعرب عن ندمك لخيانتك أصدقاءك وبلادك.

لم يجد القوة للنطق بأي صوت، ولا لفتح فمه. بعد وقت يمكن له أن يكون ساعات، أو أياماً، أو أسابيع على ذلك، سمع حواراً بين أحد أطباء جهاز الاستخبارات العسكرية ورامفيس تروخييو:

- من المستحيل إطالة حياته يا سيدي الجنرال.

- كم من الوقت بقي له؟ - كان صوت رامفيس دون أدنى شك.

- بضع ساعات، وربما يوم واحد إذا قدمنا له جرعة مضاعفة من السيروم. ولكنه لن يتحمل شحنة كهربائية أخرى وهو في هذه الحالة. لا أكاد أصدق أنه تحمّل طوال أربعة شهور يا سيدي الجنرال.

- ابتعد قليلاً إذن، لن أسمح له بأن يموت موتاً طبيعياً. قف ورائي حتى لا يصيبك غلاف إحدى الطلقات.

وبسعادة كبيرة أحس الجنرال خوسيه رينيه رومان بزخة الرصاص الأخيرة.

الفصل الحادي والعشرون

عندما كانوا قد أمضوا يومين في العلّية الخانقة في البيت الموريسكي الضيق حيث يعيش الدكتور روبيرت ريد كابرال، وكان الدكتور ماثيلينو بيليث سانتانا قد خرج إلى الشارع ليتسقط الأخبار، ثم رجع ليقول لسلفادور إستريّا سعد الله وهو يضع يداً مشفقة على كتفه، إن بيته في شارع المهاتما غاندي قد دُوهم، وإن المخبرين قد أخذوا زوجته وابنيه، قرر إستريا سعد الله أن يسلّم نفسه. كان يتعرق مختنقاً. وأي شيء آخر يمكنه عمله؟ أيسمح لأولئك المتوحشين بأن يقتلوا زوجته وابنيه؟ إنهم يعذبونهم دون شك. ولم يكن الغم يمكِّنه من الصلاة من أجل أسرته. وعندئذ أخبر رفاقه في المخبأ بما يريد عمله. فرد عليه أنطونيو دي لاماثا:

– أتعرف ما الذي يعنيه ذلك أيها التوركو. سيعذبونك وينكلون بك بأشد الطرق همجية قبل أن يقتلوك.

وألح الجنرال خوان توماس دياث:

– وسيواصلون تعذيب أسرتك أمامك إلى أن تعترف عن الجميع.

– لن يجبرني أحد على فتح فمي حتى لو أحرقوني حياً. – أقسم لهم والدموع تملأ عينيه – لن أشي إلا بالوغد بوبو رومان.

طلبوا منه ألا يغادر المخبأ قبلهم ووافق سلفادور على البقاء معهم ليلة أخرى. ولكن تفكيره بأن زوجته وابنيه: لويس الذي في الرابعة عشرة وكارمن إيللي التي لم تبلغ الرابعة بعد، موجودون في زنازين الاستخبارات العسكرية، محاطين بمجرمين ساديين، أبقاه مستيقظاً طوال الليل يلهث، دون قدرة على الصلاة، ودون قدرة على التفكير في أمر آخر. كان عذاب الضمير ينهش قلبه: كيف أمكن لكَ تعريض أسرتك إلى كل هذا؟ وتراجع إلى المستوى الثاني عذاب ضميره الذي كان يشعر به لأنه أطلق النار على بيدرو ليفيو ثيدينيو. يا لبيدرو المسكين! أين هو الآن. وأية فظائع ارتكبوا بحقه.

كان أول من غادر بيت آل ريد كابرال في يوم الرابع من حزيران. ركب سيارة تكسي عند الناصية وأعطى السائق العنوان في شارع سنتياغو، حيث بيت المهندس فيليثيانو سوسا ميسيس، ابن عم زوجته الذي كانت علاقته به جيدة على الدوام. كان يريد الاستفسار منه فقط إذا ما كانت لديه معلومات عن زوجته وطفليه، وعن بقية أفراد أسرته، ولكن ذلك كان مستحيلاً. فقد فتح له الباب فيليثيانو نفسه، وعندما رآه أومأ بحركة كمن يقول: «تراجع أيها الشيطان!» وكأنه يرى الشيطان أمامه. ثم صرخ غاضباً:

- ما الذي تفعله هنا أيها التوركو؟ ألا تعرف أن لدي أسرة؟ أتريدهم أن يقتلوني؟ انصرف! أحلفك بأحب ما لديك، انصرف من هنا!

وأغلق الباب بملامح خوف وقرف تاركاً إياه عاجزاً عن معرفة ما يفعله. رجع إلى سيارة التكسي بحالة من الغم خلخلت عظامه. وعلى الرغم من شدة الحر، كان يشعر بأنه يموت برداً.

سأل السائق بعد أن جلس على المقعد:

- لقد تعرَّفتَ عليّ، أليس كذلك؟

لم يلتفت إليه الرجل الذي كان يعتمر قبعة بيسبول غاطسة حتى حاجبيه، وقال له بهدوء:

- تعرّفتُ عليك مذ صعدتَ إلى السيارة. لا تقلق، فأنت في آمان معي. إنني مناهض لتروخييو أيضاً. وإذا كان لا بد من الهرب، فسنهرب معاً. أين تريد الذهاب؟

فقال له سلفادور:

- إلى كنيسة. لا يهم أي كنيسة تكون.

سيعهد بروحه إلى الرب، وسيعترف للكاهن إن أمكن. وبعد أن يبرئ ضميره، سيطلب من الكاهن أن يتصل بالشرطة. ولكن بعد قليل من توجههما نحو مركز المدينة عبر شوارع تتزايد فيها الظلال، نبهه السائق:

- لقد وشى بك ذلك الشخص أيها السيد. ها هم المخبرون وراءنا.

- توقف - أمره سلفادور - حتى لا يقتلوك معي أيضاً.

رسم إشارة الصليب، ونزل من التكسي وهو يرفع يديه مشيراً بذلك إلى الرجال ذوي الرشاشات والمسدسات الذين في سيارات الفولكسفاغن بأنه لن يقاوم. كبلوه بقيود شدّت على معصميه، وحشروه في مقعد «الخنفساء»

الخلفي؛ وكان المخبران اللذان جلسا ونصفهما فوقه يعبقان برائحة العرق والأقدام. انطلقوا. وبما أنهم اتخذوا طريق سان بيدرو دي ماكوريس فقد خمن بأنهم سيأخذونه إلى «التاسع». ظل صامتاً طوال الطريق، يحاول أن يصلي. ويتألم لأنه غير قادر على ذلك. كان رأسه فوران من قرقرة واضطراب، حيث لا شيء مستقر، ولا وجود لأي فكرة أو صورة: كل شيء ينفجر مثل فقاعات صابون.

وهناك كان البيت الشهير بالفعل، عند الكيلومتر التاسع، محاطاً بسور عالٍ من الإسمنت. اجتازوا حديقة ورأى بيتاً على شكل فيلا قديمة محاطة بأشجار، وأبنية عشوائية على جانبيها. أنزلوه بالدفع من «الخنفساء». اجتاز ممراً معتماً، حيث توجد زنازين فيها جماعات رجال عراة، وأنزلوه على سلّم طويل. أحس بالدوار من رائحة حريفة لاذعة هي خليط براز وقيء ولحم محروق. فكر بالجحيم. وفي نهاية السلم كان الضوء واهناً جداً، واستطاع أن يرى في تلك العتمة صفاً من الزنازين لها أبواب حديدية ونوافذ من قضبان، تغص برؤوس تتزاحم لترى. وفي نهاية السرداب، انتزعوا عنه بنطاله بتمزيقه، وقميصه وسرواله الداخلي، وحذاءه وجوربيه. صار عارياً والقيد في يديه. أحس بباطن قدميه يتبللان بمادة لزجة تغطي كل الأرضية التي من بلاط غير مشذب. وأدخلوه بالدفع أيضاً إلى حجرة أخرى، تكاد تكون مظلمة تماماً. وهناك أجلسوه وقيدوه على كرسي مخلع، مفروش بصفائح معدنية - أحس بقشعريرة - وفيه أحزمة وأطواق معدنية لليدين والقدمين.

لم يحدث أي شيء خلال وقت لا بأس به. كان يحاول أن يصلي. أحد الأشخاص الذين قيدوه، وكان بالسروال الداخلي - لقد بدأت عيناه تخترقان العتمة - راح يعطر الجو، فتعرف هو على ذلك العطر الرخيص المسمى «نايس»، الذي يعلنون عنه في الإذاعات. كان يشعر ببرودة الصفائح المعدنية في فخذيه، في إليتيه، في ظهره، ويتنفس في الوقت ذاته وكأنه يختنق بهذا الجو الساخن. صار يميز وجوه الأشخاص الذين حوله؛ وأشباحهم، وروائحهم، وملامحهم. تعرف على ذلك الوجه المترهل ذي الغبغب المزدوج الذي يتوج جسداً غير متناسق، له كرش بارز. وكان يجلس على مقعد بين شخصين آخرين على مسافة غير بعيدة عنه.

- يا للعار! ابن الجنرال بيرو إستريّا متورط في هذه المسألة - قال أبيس غارسيا - لا وجود للامتنان في دمائك، يا للعنة!

وكان سيرد عليه بأن أسرته لا علاقة لها بما فعله، وأن أباه، وأخوته، وزوجته، وأقل منهم ابنه لويس وابنته الصغيرة كارمن إيللي لا يعرفون شيئاً من هذا، عندما رفعته الشحنة الكهربائية وخبطته بالأحزمة والأطواق التي تثبته. أحس بإبر في مساماته، وتفجر رأسه إلى نيازك صغيرة متوقدة، فبال، وتبرز، وتقيأ كل ما في أحشائه. وجاء دلو ماء ليعيده إلى الوعي. وعلى الفور تعرف على الشبح الآخر الذي إلى يمين أبيس غارسيا: إنه رامفيس تروخييو. أراد أن يشتمه وأن يتوسل إليه في الوقت نفسه ليطلق سراح زوجته ولويس الصغير وكارمن، ولكن حنجرته لم تُصدر أي صوت.

- هل صحيح أن بوبو رومان مشارك في المؤامرة؟ سأله رامفيس بصوت ناشز.

وأعاد إليه دلو آخر من الماء القدرة على النطق.

- أجل، أجل - قال دون أن يتعرف على صوته - ذلك الجبان، ذلك الخائن، أجل. لقد كذب علينا. اقتلني أيها الجنرال تروخييو، ولكن أطلق سراح زوجتي وابنيّ. إنهم أبرياء.

- لن يكون ذلك سهلاً أيها النذل. - رد عليه رامفيس - فقبل ذهابك إلى الجحيم لا بد لك من المرور في المطهر يا ابن العاهرة!

وعادت شحنة أخرى تقذفه إلى الأحزمة - أحس بأن عينيه تقفزان من محجريهما مثل عيني ضفدع - وغاب عن الوعي. وعندما استعاده وجد نفسه على الأرض في زنزانة، عارياً ومكبلاً، وسط بركة موحلة. كان يشعر بالألم في عظامه وعضلاته، ويحس بحرقة لا تُطاق في خصيتيه وشرجه، كما لو أن الموضعين قد سُلخا. لكن غمه الأكبر كان بسبب العطش؛ فحنجرته ولسانه وحلقه تبدو كأنها ورق صنفرة ملتهب. أغمض عينيه وصلى. وقد استطاع عمل ذلك، مع توقفات يصبح ذهنه خلالها شاشة بيضاء؛ ثم يعود لثوان ليركز على الصلاة. صلى لعذراء لاس ميرثيديس، مذكراً إياها بالورع الذي حج به، في شبابه، إلى مقامها في خاراباكوا، حين صعد الرابية المقدسة ليجثو عند قدميها في المصلى المقام تكريماً لها. وطلب منها بتذلل أن تحمي زوجته والصغيرين لويس وكارمن إيللي من فظاعات **الوحش**. ووسط الرعب، أحس بالامتنان، فقد صار قادراً على الصلاة من جديد.

عندما فتح عينيه، تعرف في الجسد العاري المغطى بالرضوض والجراح

والكدمات، المطروح إلى جانبه، على أخيه غواريونيكس. رباه! بأي حال تركوا غوارو المسكين! كانت عينا الجنرال غوارو مفتوحتين تنظران إليه، على الضوء الخافت المتسرب من مصباح الممر عبر نافذة قضبان حديدية. أتراه تعرف عليه؟

- أنا التوركو، أخوك، أنا سلفادور. - قال له وهو يزحف نحوه - هل تسمعني؟ هل تراني يا غوارو؟

حاول لوقت طويل أن يتواصل مع أخيه، ولكنه لم يتوصل إلى ذلك. لقد كان غوارو حياً: كان يتحرك، يئن، يفتح عينيه ويغمضهما. وكان يندفع أحياناً في شطحات ويُصدر أوامر إلى مرؤوسيه: «حرك لي هذه البغلة أيها الرقيب!». لقد أخفوا أمر الخطة عن الجنرال غواريونيكس إستريّا سعد الله لأنهم اعتبروه تروخيبوياً متشدداً. يا لهول مفاجأة المسكين غوارو: أن يجري اعتقاله، وتعذيبه، واستجوابه حول أمر يجهله تماماً. حاول أن يوضح ذلك لرامفيس وجوني أبيس في المرة التالية التي حملوه فيها إلى غرفة التعذيب وأجلسوه على العرش، وكرر ذلك وأقسم عليه مرات كثيرة، ما بين الغيبوبات التي تسببها له الشحنات الكهربائية، وبينما هم يجلدونه بتلك السياط المصنوعة من قضيب الثور، ويسمونها «زب الثور»، وتنتزع قطعاً من جلده. لم يكن يبدو عليهم الاهتمام بمعرفة الحقيقة. أقسمَ لهم بالله بأن غواريونيكس وأخوته الآخرين، وأقل منهم أبوه، لم يشاركوا في المؤامرة، وصرخ بهم بأن ما فعلوه بالجنرال إستريّا سعد الله هو جور فاضح سيُحاسبون عليه في الحياة الأخرى. فلم يستمعوا إليه، لأنهم كانوا يهتمون بتعذيبه أكثر من اهتمامهم باستجوابه. ولم ينتبه إلا بعد وقت غير نهائي - هل انقضت ساعات، أم أيام، أم أسابيع على اعتقاله؟ - إلى أنهم يقدمون له بصورة شبه منتظمة حساء يحتوي قطعاً من درنات اليُكة، وكسرة خبز، وأباريق ماء اعتاد السجانون أن يبصقوا فيها قبل إعطائه إياها. لكنه لم يعد يهتم بأي شيء. فقد صار قادراً على الصلاة. وكان يفعل ذلك في كل لحظات الفراغ والصحو، بل وهو نائم أو غائب عن الوعي أحياناً. ولكن ليس وهم يعذبونه. فقد كان الألم والخوف يشلانه وهو على العرش. وبين حين وآخر كان يأتي أحد أطباء الاستخبارات العسكرية ليفحص قلبه، ويحقنه بحقنة تعيد إليه القوة.

في أحد الأيام، أو إحدى الليالي، إذ كان من المستحيل معرفة الوقت في الزنزانة، أخرجوه وهو عار ومقيد من زنزانته، وصعدوا به السلّم ودفعوه إلى

غرفة مشمسة. بهره النور الأبيض. وأخيراً تعرف على وجه رامفيس تروخييو المتأنق، وإلى يمينه، كان يقف منتصباً على الرغم من سنوات عمره، أبوه الجنرال بيرو إستريّا سعد الله. عندما تعرّف على أبيه المسن، تخضلت عينا سلفادور بالدموع.

ولكن الجنرال بدلاً من أن يتأثر للنفاية التي صار إليها ابنه، زمجر بحنق:

- لا أعترف بك! أنت لستَ ابني! إنك قاتل! خائن! - وكان يلوح بيديه مختنقاً بالغضب - ألا تعرف بكم ندين أنا وأنت وجميعنا لتروخييو؟ أهذا هو الرجل الذي قتلته؟ أعرب عن ندمك أيها الحقير!

اضطر إلى الاستناد على منضدة لأنه بدأ يتهاوى. أخفض عينيه. هل يتصنع العجوز ذلك؟ أتراه يأمل بكسب ودّ رامفيس بهذه الطريقة لكي يتوسل إليه في ما بعد أن ينقذ حياته؟ أم أن حمية أبيه التروخييوية أقوى من عاطفة الأبوة؟ لقد مزقته هذه الشكوك طوال الوقت، اللهم إلا خلال جلسات التعذيب. وكانت هذه الجلسات تتوالى كل يوم، كل يومين، وصارت ترافقها الآن استجوابات طويلة، تبعث على الجنون، يكررون خلالها مرة وألف مرة الأسئلة نفسها، ويطالبونه بالتفاصيل نفسها، ويحاولون جعله يشي بمتآمرين آخرين. لم يصدقوا قط بأنه لا يعرف أكثر من أولئك الذين يعرفونهم، وأن أياً من أفراد أسرته لم يكن متورطاً، وأقل من الجميع غواريونيكس. ولم يكن جوني أبيس ولا رامفيس يظهران في جلسات الاستجواب تلك، بل كان يقوم بها مرؤوسون صاروا مألوفين لديه: الملازم كلودوفيو أورتيز، والمجاز إيليادو راميريث سويرو، والكولونيل رافائيل تروخييو رينوسو، والملازم الأول في الشرطة بيريث ميركادو. وكان يبدو أن بعضهم يستمتعون بالعصي الكهربائية التي يمرون بها على جسده، أو بضربه على رأسه وظهره بهراوى مغلفة بالمطاط، أو بحرقه بالسجائر؛ بينما يبدو على آخرين أنهم يفعلون ذلك باستياء أو بضجر. ودوماً، مع بداية كل جلسة يقوم أحد الشرطيين شبه العراة المسؤولين عن توجيه الشحنات الكهربائية، برش عطر «نايس» في الجو، لكي يغطي على رائحة البراز واللحم المحروق.

في أحد الأيام، أي يوم يمكن له أن يكون؟ أدخلوا إلى زنزانته فيفي باستوريثا، وهواسكار تيخيدا، وموديستو دياث، وبيدو ليفيو ثيدينيو، وتونتي كاثيراس، ابن أخ أنطونيو دي لاماثا، والذي كان مقرراً في الخطة الأصلية أن يقود السيارة التي تولى قيادتها في النهاية أنطونيو إمبرت. كانوا عراة ومقيدين

مثله. لقد كانوا هنا طوال الوقت، في «التاسع»، في زنازين أخرى، وتلقوا المعاملة نفسها من الشحنات الكهربائية والجلد والحرق ووخز الإبر في آذانهم وأظفارهم. وأُخضعوا إلى استجوابات لا نهائية.

ومنهم عرف أن إمبرت ولويس أمياما قد اختفيا، وأن رامفيس في مساعيه اليائسة للعثور عليهما عرض الآن نصف مليون بيزو لمن يساعد في القبض عليهما. وعرف منهم أيضاً أن أنطونيو دي لاماثا والجنرال خوان توماس دياث وآماديتو قد قُتلوا وهم يقاتلون. وبدلاً من العزلة التي كان هو فيها، تمكنوا هم من التحادث مع سجانيهم ومعرفة ما يجري في الخارج. فهواسكار تيخيدا، ومن خلال أحد جلاديه الذي أقام معه علاقة ودودة، عرف بالحوار الذي دار بين رامفيس تروخييو وأبي أنطونيو دي لاماثا. فقد جاء ابن الجنراليسمو ليخبر السيد بيثنتي دي لاماثا في زنزانته بأن ابنه قد مات. فسأله وجيه منطقة موكا العجوز دون أن يرتعش صوته: «هل مات وهو يقاتل؟». فهز رامفيس رأسه بالإيجاب. فرسم دون بيثنتي إشارة الصليب: «حمداً لك يا رب!».

وعندما رأى سلفادور أن بيدرو ليفيو ثيدينيو قد شفي من جرحه أحس بالراحة. ولم يكن الزنجي يكنّ له أدنى قدر من الحقد لأنه أطلق النار عليه في عصبية تلك الليلة. وكان الزنجي بيدرو يقول مازحاً: «ما لن أغفره لكم هو أنكم لم تجهزوا عليّ. لماذا أنقذتم حياتي؟ أمن أجل الوقوع في هذا الذي نحن فيه أيها الحمقى!». وكان حقد الجميع على بوبو رومان كبيراً جداً، ولكن أياً منهم لم يفرح عندما أخبرهم موديستو دياث أنه من زنزانته في الطابق العلوي من هذا البناء نفسه، رأى بوبو عارياً ومكبلاً، جفونه مخيطة، يجرجره أربعة مخبرين إلى غرفة التعذيب. ولم يكن موديستو دياث ولو مجرد ظل للسياسي المتأنق والذكي الذي كانه طوال حياته؛ ففضلاً عن فقدان عدة كيلوغرامات من وزنه، كان جسده كله مغطى بالقروح وتبدو عليه ملامح قنوط لانهائي. وفكر سلفادور: «هكذا يجب أن يكون مظهري أيضاً». فمنذ اعتقاله لم يرَ وجهه في مرآة.

لقد طلبَ مرات كثيرة من مستجوبيه أن يسمحوا له بمقابلة كاهن اعتراف. وأخيراً سألهم السجان الذي يُحضر لهم الطعام من منهم يريد كاهناً. فرفعوا جميعهم أيديهم. ألبسوهم بناطيل وصعدوا بهم على السلّم شبه المنتصب إلى الغرفة التي تعرَّض فيها التوركو للشتم من قبل والده. رؤية الشمس، والإحساس بلسعتها الدافئة، أعادت إلى سلفادور الحماسة. وزاد في إحساسه ذاك تمكنه

من الاعتراف وتناول القربان أمام كاهن، وهو أمر كان يظن أنه لن يستطيع عمله أبداً. وعندما دعاهم الكاهن العسكري، الأب رودريغيث كانيلا، لمرافقته في صلاة لذكرى تروخييو، لم يجئ أحد سوى سلفادور ليصلي معه. بينما بقي رفاقه واقفين متململين.

ومن خلال الأب رودريغيث كانيلا عرف أن اليوم هو 30 آب 1961. هل انقضت ثلاثة شهور فقط! كان يبدو له أن ذلك الكابوس يمتد لقرون. وفي ضيقهم، وضعفهم، وانهيار معنوياتهم، كانوا يتكلمون قليلاً في ما بينهم، وكانت الأحاديث تدور على الدوام حول ما رأوه، وسمعوه، وعاشوه في «التاسع». ومن بين كل شهادات رفاقه في الزنزانة، بقيت محفورة في ذهن سلفادور، مثل وسم لا يُمحى، القصة التي رواها موديستو دياث وهو ينتحب. ففي الأسابيع الأولى كان في زنزانة واحدة مع ميغيل آنخل بايث دياث. ومازال التوركو يتذكر المفاجأة التي أحس بها في يوم 30 أيار، حين كانوا على طريق سان كريستوبال، وظهر لهم ذلك الرجل في سيارته الفولكسفاغن ليؤكد لهم بأن تروخييو سيأتي، وأنه كان يتمشى معه في الجادة، وعرف سلفادور عندئذ بأن هذا الوجيه من صفوة التروخييويين مشارك في المؤامرة أيضاً. لقد عذبه أبيس غارسيا ورامفيس بشراسة، لأنه كان مقرباً من تروخييو، فكانا يحضران جلسات تعذيبه بالكهرباء، والجلد والحرق التي يعرضانه لها، ويأمران أطباء جهاز الاستخبارات العسكرية بإنعاشه لمواصلة التعذيب. وبعد مرور أسبوعين أو ثلاثة، وبدلاً من طبق دقيق الذرة المعفن المعهود، احضروا لهما إلى الزنزانة قدراً فيها قطع لحم. فاختنق ميغيل آنخل بايث وموديستو دياث وهما يأكلان بأيديهما حتى شبعا. فعاد السجان للدخول بعد قليل. وواجه بايث دياث مباشرة قائلاً له إن الجنرال رامفيس تروخييو يريد أن يعرف إذا كان لا يشعر بالقرف من نفسه وهو يأكل لحم ابنه. فشتمه ميغيل آنخل بايث وهو جالس على الأرض: «قل للقذر ابن العاهرة هذا أن يبتلع لسانه المسموم لعله يتسمم». فانفجر السجان في الضحك. ثم غادر ورجع ليعرض عليه من الباب رأساً فتياً يحمله من شعره. وقد مات ميغيل آنخل دياث بعد ساعات من ذلك، بين ذراعي موديستو، بسكتة قلبية.

صورة ميغيل آنخل تلك وهو يتعرف على رأس ابنه البكر ميغيليتو، تسلطت على ذهن سلفادور؛ وصارت تأتيه كوابيس يرى فيها ابنه لويسيتو وابنته كارمن إيللي مقطوعي الرأس. وكانت الصرخات التي يطلقها وهو نائم تُغضب رفاقه.

وعلى العكس من رفاقه الآخرين الذين حاول عدد منهم إنهاء حياتهم، كان سلفادور مصمماً على الصمود حتى النهاية. فقد تصالح مع الرب - وهو يواصل الصلاة نهاراً وليلاً، والكنيسة تحرم الانتحار - كما أن قتل النفس لم يكن بالأمر السهل. لقد حاول هواسكار تيخيدا ذلك باستخدام ربطة عنق سرقها من أحد السجانين (كان يحملها مطوية في جيبه الخلفي). حاول شنق نفسه، ولكنه لم يتمكن من ذلك. وبيدرو ليفيو ثيدينيو أراد جعلهم يقتلونه باستفزاز رامفيس في حجرة التعذيب: «يا ابن العاهرة»، «يا ابن الزنا»، «يا ابن سبعة آباء»، «أمك لاسبانيولا كانت فتاة ماخور قبل أن تصبح عشيقة تروخييو» ووصل إلى حد البصاق عليه. ولكن رامفيس لم يطلق عليه من بندقيته رشة الرصاص التي كان يتلهف بيدرو إليها، بل قال له: «لم يحن الوقت بعد، ابق في غمك. هذا سيأتي في النهاية. أما الآن فعليك مواصلة دفع الثمن».

المرة الثانية التي عرف فيها سلفادور إسترّيا سعد الله تاريخ اليوم الذي هو فيه، كانت في التاسع من تشرين الأول 1961. ففي ذلك اليوم ألبسوه بنطالاً وصعد مرة أخرى الدرج إلى تلك الغرفة حيث أشعة الشمس تجرّح العيون وتُسعد الجلد. وهناك كان رامفيس شاحب الوجه ومتأنقاً ببدلة كجنرال بأربع نجوم، وكان يحمل في يده جريدة **الكاريبي**: 9 تشرين الأول 1961. وقد قرأ سلفادور العنوان الكبير: «رسالة من الجنرال بيرو آ. إسترّيا إلى الجنرال رافائيل ليونيداس تروخييو الابن».

- اقرأ هذه الرسالة التي أرسلها إليّ أبوك - مدّ له رامفيس الجريدة - إنه يتكلم عنك.

تناول سلفادور جريدة **الكاريبي** بمعصميه المتورمين من الأصفاد. ومع أنه كان يشعر بالدوار وبمزيج غير محدد من القرف والحزن، فقد وصل حتى السطر الأخير. الجنرال بيرو يقول عن **التيس** إنه «أعظم الدومينيكانيين» ويفاخر بأنه كان صديقاً له، وحارسه، ومحميه، ويشير إلى سلفادور بنعوت تحقيرية؛ ويتكلم عن «نذالة ابن ضال» وعن «غدر ابني.. الذي خان حاميه» وأسرته. ولكن الفقرة الأخيرة كانت أسوأ من الشتائم: فأبوه يشكر رامفيس تروخييو بتذلل مدو، لأنه قدّم إليه المال لمساعدته على البقاء على قيد الحياة بعد أن صُودرت أملاك الأسرة بسبب مشاركة ابنه في قتل الزعيم.

رجع إلى زنزانته دائخاً من الاستياء والعار. ولم يعد قادراً على رفع رأسه

حتى أمام رفاقه، محاولاً أن يخفي تحطم معنوياته. وكان يفكر: «ليس رامفيس هو الذي قتلني، وإنما أبي». وكان يشعر بالحسد تجاه أنطونيو دي لاماثا. كم يكون المرء محظوظاً بكونه ابن رجل مثل السيد فيثنتي!

عندما نُقل هو ورفاقه الخمسة، بعد أيام قليلة من ذلك التاسع من تشرين الأول القاسي، إلى سجن لافكتوريا – غسلوهم قبل ذلك بخرطوم ماء وأعادوا إليهم الملابس التي كانوا يرتدونها عند اعتقالهم –، كان التوركو قد تحول إلى ميت متجول. ولم تكن حتى إمكانية تلقي زيارات – لمدة نصف ساعة أيام الخميس، – ومعانقة الصغيرين لويس وكارمن إيللي، قادرة على انتزاع الجليد الذي تراكم في قلبه مذ قرأ رسالة الجنرال بيرو إستريّا المنشورة والموجهة إلى رامفيس تروخييو.

توقفت عمليات التعذيب والاستجواب في سجن لافكتوريا. استمروا في النوم على الأرض، ولكن ليس عراة، وإنما بالملابس التي أُرسلت إليهم من بيوتهم. كما فكوا قيودهم. وصار بإمكان أسرهم أن ترسل إليهم الطعام، والمشروبات الغازية وبعض النقود التي كانوا يُفسدون بها السجانين لكي يبيعوهم صحفاً، أو يأتوهم بأخبار معتقلين آخرين، أو ينقلوا رسائلهم إلى الخارج. وقد جاء خطاب الرئيس بالاغير في الأمم المتحدة الذي أدان فيه دكتاتورية تروخييو ووعده بتحول ديمقراطي «ضمن النظام»، ليُنعش الآمال في السجن. بدا الأمر غير قابل للتصديق، ولكن بدأت تظهر معارضة سياسية، وصارت منظمة الاتحاد التمدني وحركة 14 حزيران تعملان علناً. ومما أثار حماسة أصدقائه أن لجاناً تشكلت في الولايات المتحدة وفنزويلا وأماكن أخرى للمطالبة بمحاكمتهم في محكمة مدنية، وبحضور مراقبين دوليين. وكان سلفادور يبذل جهده لمشاطرة الآخرين أوهامهم. لأنه لم يكن يحتفظ بأي وهم. إذ كان قد رأى ذلك التعبير غير المتسامح في وجه رامفيس. فهل سيسمح لهم بالخروج أحراراً؟ غير ممكن على الإطلاق. سينفذ انتقامه بهم حتى النهاية.

حدث انفجار بهجة وفرح في سجن لافكتوريا عندما عُرف أن بيتان ونيغرو تروخييو قد غادرا البلاد. والآن سيغادر رامفيس أيضاً. ولن يجد الرئيس بالاغير عندئذ بداً من إصدار عفو عام. ولكن موديستو دياث بمنطقه المتماسك وطريقته الباردة في تحليل الأمور، أقنعهم بأنه يتوجب في هذا الوقت أكثر من أي وقت آخر أن تتحرك الأسر والمحامون للدفاع عنهم. لأن رامفيس لن يغادر

دون أن يصغي من أعدموا «باباه». وبينما سلفادور يستمع إليه كان يتأمل الحطام الذي صار إليه موديستو: فهو يواصل فقدان كيلوغرامات من وزنه، ووجهه يبدو وجه مسن هرم تملأه الأخاديد. كم فقد هو نفسه من وزنه؟ فالبناطيل والقمصان التي تأتيه بها زوجته صارت واسعة جداً عليه وهو يضطر في كل أسبوع إلى فتح ثقوب جديدة في الحزام.

لقد كان حزيناً على الدوام، ولكنه لم يُحدّث أحداً عن رسالة أبيه المنشورة التي رأى فيها خنجراً ينغرس في ظهره. ومع أن الخطط لم تجر مثلما كانوا ينتظرون، وعلى الرغم من الميتات والآلام الكثيرة، إلا أن عمليتهم ساهمت في تغيير الأحوال. فالأخبار التي تتسرب إلى زنازين لافكتوريا، تتحدث عن اجتماعات سياسية حاشدة، وعن شبان يقطعون رؤوس تماثيل تروخييو وينتزعون اللوحات التذكارية التي تحمل اسمه واسم أسرته، وعن عودة بعض المنفيين. أليست هذه هي بداية نهاية عصر تروخييو؟ ما كان لأي شيء من هذا أن يتحقق لو أنهم لم يقتلوا التيس.

كانت عودة الأخوين تروخييو إلى البلاد أشبه بدوش ماء جليدي بالنسبة للسجناء في لافكتوريا. ودون أن يخفي مدير السجن الميجر أميركو دانتي مينيرفينو سعادته، أخبر في يوم 17 تشرين الثاني كلاً من سلفادور وموديستو دياث، وهواسكار تيخيدا، وبيدرو ليفيو، وفيفي باستوريثا، والشاب تونتي كاثيريس، بأنهم سيُنقلون عند الغروب إلى زنازين الحجز في القصر العدلي، لأنه سيجري في صباح اليوم التالي إعادة تمثيل الجريمة على الطريق البحري. جمعوا ما تبقى لديهم من نقود، وأرسلوا عبر أحد السجانين رسائل مستعجلة إلى ذويهم، أوضحوا فيها بأن شيئاً مريباً يحدث؛ وأن إعادة تمثيل الجريمة ما هو إلا مهزلة، لأن رامفيس مصمم على قتلهم.

وضعوا القيود في أيديهم عند الغروب، وأخرجوا الستة في شاحنة صغيرة سوداء من تلك التي يُطلق عليها سكان العاصمة «عربة الكلاب»، نوافذها مغطاة بالسواد، ويحرسهم ثلاثة حراس مسلحون. تضرع سلفادور إلى الله وهو يغمض عينيه بأن يرعى زوجته وابنيه. وعلى عكس ما كانوا يخشونه، فإنهم لم يأخذوهم إلى وهاد الشاطئ، مكان النظام المفضل لتنفيذ الإعدامات السرية. بل أخذوهم إلى مركز المدينة، إلى الزنازين التي في قصر العدل في لافيريا. أمضوا الليل واقفين، لأن المكان كان ضيقاً ولا يمكنهم الجلوس جيمعهم في وقت واحد.

ففعلوا ذلك بالتناوب، اثنين اثنين. وكان بيدرو ليفيو وفيفي باستوريثا متحمسين؛ فما داموا قد أحضروهم إلى هنا، فإن قصة إعادة تمثيل الجريمة صحيحة. وانتقلت عدوى تفاؤلهم إلى تونتي كاثيريس وهواسكار تيخيدا. أجل، أجل، ولم لا. سيسلمونهم إلى السلطة القضائية ليتولى قضاة مدنيون محاكمتهم. وبقي سلفادور ومودستو دياث صامتين، يواريان شكوكهما.

وبصوت خافت جداً، همس التوركو في أذن صديقه: «هذه هي النهاية، أليس كذلك يا موديستو؟». فهز المحامي رأسه دون أن يقول شيئاً، وشدّ على ذراعه.

جاؤوا قبل شروق الشمس لإخراجهم من الحجز، وجعلوهم يصعدون مرة أخرى إلى «عربة الكلاب». كان هناك انتشار عسكري مذهل في محيط قصر العدل، ورأى سلفادور على ضوء الفجر الغبش أن جميع الجنود يضعون إشارات القوات الجوية. إنهم من قاعدة إيسيدرو، إقطاعية رامفيس وفيرخيليو غارثيا تروخييو. لم يقل شيئاً حتى لا يثير ذعر رفاقه. وحاول في العربة الضيقة أن يتكلم إلى الله، مثلما فعل خلال جزء من الليل، طالباً منه أن يساعده على الموت بكرامة، دون الخزي بمظاهر الجبن، ولكنه لم يستطع التركيز في هذه المرة. فملأه إخفاقه بالغم.

توقفت الشاحنة بعد مسيرة قصيرة. وكانوا على طريق سان كريستوبال. إنه موقع عملية الاغتيال دون ريب. كانت الشمس تصبغ أشجار جوز الهند على حافة الطريق بلون ذهبي، والبحر يخرخر وهو يلطم الوهدة الساحلية. وكان هناك حراس كثيرون في محيط المكان. كانوا يطوقون الطريق وقد قطعوا حركة المرور في الاتجاهين.

سمعَ صوت موديستو دياث يقول:

– ما سبب هذه المهزلة. لقد خرج الابن مهرجاً مثل أبيه.

– ولماذا هي مهزلة. – احتج فيفي باستوريثا – لا تكن متشائماً. إنها عملية إعادة تمثيل. لقد جاء القضاة. ألا ترون.

– إنها تمثيليات التهريج نفسها التي كان الأب يستمتع بها. – أصرّ موديستو وهو يهز رأسه باستياء.

سواء أكانت مهزلة أم لم تكن، فقد استمرت عدة ساعات، إلى أن صارت الشمس في منتصف السماء وبدأت تثقب رؤوسهم. وجعلوهم يمرون واحداً واحداً أمام طاولة ميدانية جرى نصبها في العراء، حيث راح رجلان مدنيان

يوجهان إليهم الأسئلة نفسها التي وُجهت إليهم في «التاسع» وفي «لافكتوريا». وكان طابعو آلات كاتبة يسجلون أقوالهم. ولم يكن هناك سوى ضباط أعوان يتجولون حولهم. ولم يظهر أي من القادة - رامفيس، أبيس غارسيا، بيتشون ليون إستيفيث، بيرولو سانتشيث روبيروسا- طوال تلك الطقوس المملة. ولم يُقدَم إليهم الطعام، باستثناء بعض أكواب المياه الغازية عند الظهيرة. ومع بدء المساء ظهر مدير سجن لافكتوريا البدين، الميجر أميركو دانتي مينيرفينو. كان يقضم شاربه بشيء من العصبية، وكان وجهه أشد شؤماً من المعتاد. وجاء برفقته زنجي ضخم، له أنف ملاكم أفطس، ويعلق بندقية رشاشة على كتفه ومسدساً ما بين جسده وحزامه. جعلوهم يصعدون إلى «عربة الكلاب». وتوجه بيدرو ليفيو إلى مينيرفينو سائلاً:

- إلى أين سنذهب؟

فقال له:

- سترجعون إلى لافكتوريا. لقد جئت لآخذكم بنفسي حتى لا تضلوا الطريق.

وعلق بيدرو ليفيو:

- يا للشرف الكبير.

جلس الميجر وراء المقود وإلى جانبه الزنجي الذي له وجه ملاكم. الحراس الثلاثة الذين يحرسونهم في «عربة الكلاب» كانوا فتياناً يبدو أنهم مجندون حديثاً. وكان التوتر بادياً علي وجوههم، وتُثقل عليهم مسؤولية مرافقة سجناء على هذا القدر من الأهمية. وإضافة إلى القيود التي تكبل أيدي السجناء، ربطوا كواحلهم بحبال رخوة بعض الشيء، تتيح لهم المشي بخطوات قصيرة.

-أي لعنة تعنيه هذه الحبال؟ - قال تونتي كاثيراس محتجاً.

فأومأ له أحد الحراس إلى الميجر، رافعاً إصبعه إلى فمه: «اصمت».

أدرك سلفادور من خلال المسيرة الطويلة أنهم لا يذهبون بهم إلى لافكتوريا، ومن خلال وجوه رفاقه، تبين له أنهم يدركون ذلك أيضاً. كانوا صامتين، بعضهم يغمضون عيونهم وآخرون بحدقات مفتوحة، متوقدة، وكأنها تحاول أن تخترق صفائح الشاحنة المعدنية ليعرفوا أين هم. لم يحاول الصلاة. فقد كان القلق كبيراً إلى حد عدم جدوى المحاولة. الرب سيتفهم ذلك.

عندما توقفت الشاحنة، سمعوا البحر يتلاطم أسفل صخرة شاطئية عالية. فتح الحراس باب العربة. كانوا في خلاء مقفر، أرضه حمراء، فيها أشجار

متباعدة، في مكان يبدو وكأنه رأس بحري. وكانت الشمس ما تزال ساطعة، ولكنها بدأت تميل نزولاً. وقال سلفادور لنفسه إن الموت طريقة للراحة. فما كان يشعر به الآن هو تعب هائل.

طلب دانتي مينيرفينو والزنجي المربوع الذي له وجه ملاكم من الحراس الثلاثة أن يترجلوا من الشاحنة: «توقفوا عندكم». ثم راحا يطلقان النار فوراً. ليس عليهم، وإنما على الجنود الصغار. وسقط الفتيان الثلاثة مثقوبين بالرصاص دون أن يتاح لهم الوقت للدهشة، للفهم، للصراخ.

- ما الذي تفعلانه أيها المجرمان! - زمجر سلفادور - لماذا تطلقان النار على هؤلاء الحراس البائسين أيها القتلة!

- لم نقتلهم نحن، وإنما أنتم. - رد عليه الميجر دانتي مينيرفينو بجدية بينما هو يبدّل مخزن بندقيته الرشاشة؛ واحتفل الزنجي ذو الأنف الأفطس مطلقاً قهقهة عالية - والآن، انزلوا.

راح الستة ينزلون وقد سيطرت عليهم الحيرة، والبلاهة، وكانوا يتعثرون - فالحبال تجبرهم على التقدم بقفزات مضحكة - مصطدمين بجثث الحراس الثلاثة. واقتيدوا إلى شاحنة أخرى مماثلة تماماً كانت متوقفة على بعد أمتار قليلة. وكان هناك رجل واحد بالثياب المدنية بجانبها. وبعد أن حبسوهم في عربة الشاحنة المغلقة، انحشر الثلاثة في المقعد الأمامي، وعاد دانتي مينيرفينو إلى الإمساك بالمقود.

لقد تمكن سلفادور من الصلاة الآن. سمعَ أحد رفاقه ينتحب، ولكن ذلك البكاء لم يلهه. كان يصلي دون صعوبة، مثلما في أفضل أزمنته. صلى من أجل نفسه، ومن أجل أسرته، ومن أجل الحراس الثلاثة الذين قُتلوا للتو، ومن أجل رفاقه الخمسة في العربة، الذين كان أحدهم، في نوبة عصبية، يضرب رأسه بالصفائح الحديدية التي تفصلهم عن السائق وهو يجدف.

لم يدر كم من الوقت استمرت تلك المسيرة، ذلك أنه لم يتوقف عن الصلاة. كان يشعر بالطمأنينة وبعذوبة هائلة وهو يتذكر زوجته وابنيه. وعندما توقفت السيارة وفتحوا لهم الباب، رأى البحر، عند الغروب، والشمس تبتل في سماء زرقاء بلون الحبر.

أنزلوهم بالدفع. كانوا في فناء-حديقة بيت كبير جداً، إلى جوار مسبح. كانت هناك حفنة من أشجار النخيل سعفاتها منتصبة، وعلى مسافة عشرين

متراً تقريباً توجد شرفة عليها أشباح رجال يحملون كؤوساً في أيديهم. تعرّف على رامفيس، وبيتشيتو ليون إستيفيث، وشقيق هذا الأخير ألفونسو، وعلى بيرولو سانتشيث روبيروسا واثنين أو ثلاثة آخرين لا يعرفهم. جاء ألفونسو ليون إستيفيث راكضاً نحوهم دون أن يفلتْ كأس الويسكي. وساعد أميركو دانتي مينيرفينو والزنجي الملاكم على دفعهم نحو أشجار جوز الهند.

- واحد فواحد يا بيتشيتو - أمره رامفيس. وفكر سلفادور: «إنه سكران». لقد سكر ابن التيس ليقيم حفلته الأخيرة.

ثقبوا بالرصاص أولاً بيدرو ليفيو الذي تهاوى فوراً تحت زخة من رصاص مسدس ورشات من بندقية رشاشة انهالت عليه. بعد ذلك اقتادوا إلى أشجار جوز الهند تونتي كاثيراس الذي شتم رامفيس قبل أن يهوي: «منحط، جبان، مخنث!». وبعده موديستو دياث الذي صرخ: «تحيا الجمهورية!»، وبقي يتلوى على الأرض قبل أن يموت.

وبعد ذلك جاء دوره. لم يكن عليهم أن يدفعوه ولا أن يجروه. فقد ذهب بنفسه بالخطوات القصيرة التي يتيحها له الحبل الذي يقيد كاحليه، نحو أشجار جوز الهند، حيث يرقد رفاقه، شاكراً الرب لأنه أتاح له أن يكون معه في لحظاته الأخيرة، وقائلاً لنفسه بكآبة إنه لن يتعرف أبداً على بسكنتا، تلك القرية اللبنانية التي خرج منها آل سعد الله بإيمانهم بحثاً عن الحظ في أراضي الرب هذه.

الفصل الثاني والعشرون

عندما سمع رنين الهاتف، ولم يكن قد خرج من نومه تماماً، أحس الرئيس خواكين بالاغير بأن ثمة شيئاً خطيراً. رفع السماعة وهو يفرك عينيه بيده الطليقة. سمع صوت الجنرال خوسيه رينيه رومان يدعوه لاجتماع على أعلى مستوى في مقر الأركان العامة للجيش. ففكر: «لقد قتلوه». لقد نجحت المؤامرة. استيقظ تماماً. لا يمكنه إضاعة الوقت في التأسي أو فقدان صوابه؛ المشكلة حالياً هي قائد القوات المسلحة. تنحنح، وقال ببطء: «إذا كان قد وقع شيء بمثل هذه الخطورة، فمكاني كرئيس للجمهورية ليس في ثكنة عسكرية، وإنما في **القصر الوطني**. إنني ذاهب إلى هناك. وأقترح عليك أن يُعقد الاجتماع في مكتبي. طابت ليلتك.»

نهض وارتدى ملابسه دون إحداث ضجة، كيلا يوقظ شقيقاته. لقد قتلوا تروخييو، إنه متأكد من ذلك. وقد بدأ تنفيذ انقلاب عسكري بقيادة رومان. ولماذا يستدعيه إلى ثكنة 18 كانون الأول؟ من أجل إجباره على الاستقالة، أو اعتقاله أو مطالبته بتأييد التمرد العسكري. لقد بدا له أخرق، سيء التخطيط. فبدلاً من الاتصال به هاتفياً، كان عليه أن يرسل إليه دورية عسكرية. فرومان، وعلى الرغم من وجوده في قيادة القوات المسلحة، إلا أنه يفتقر إلى السمعة التي تتيح له فرض سلطته على الحاميات العسكرية. حركته ستُمنى بالفشل.

خرج وطلب من مركز الحرس إيقاظ سائقه. وبينما السائق يوصله إلى القصر الوطني عبر جادة مكسيمو غوميث مقفرةً ومظلمة، استبق في تفكيره ما سيحدث في الساعات التالية: مواجهات بين حاميات متمردة وأخرى موالية، وربما تدخل عسكري أمريكي. وستحتاج واشنطن إلى شيء من المظاهر الدستورية لعمل ذلك، ورئيس الجمهورية في مثل هذه اللحظة هو ممثل الشرعية. صحيح أن منصبه كان للمظاهر التزيينية وحسب، ولكنه سيتحول بموت تروخييو إلى منصب فعلي. وعلى سلوكه سيتوقف أمر انتقاله من مجرد

وهم إلى رئيس دولة حقيقي لجمهورية الدومينيكان. فمنذ ولادته في عام 1906. وربما دون أن يدري ذلك، كان ينتظر هذه اللحظة. وها هي تتكرر للمرة الثانية الفرصة الحاسمة في حياته: يجب عليه ألا يفقد الهدوء لحظة واحدة، مهما كانت الأسباب.

وقد تعزز هذا القرار فور دخوله إلى القصر الوطني ورؤيته الفوضى السائدة. كانوا قد ضاعفوا الحراسة، وكان يجوب الممرات والأدراج جنود مسلحون، يبحثون عمن يطلقون عليه النار. وعندما رآه بعض الضباط يمشي دون تعجل نحو مكتبه، بدت عليهم الطمأنينة؛ فربما كان يعرف ما عليه عمله. لم يصل إلى مكتبه. ففي صالة الزيارات المجاورة لمكتب الجنراليسمو، رأى أسرة تروخييو: الزوجة، والابنة، والإخوة، وأبناء وبنات الإخوة. توجه إليهم بمظهر الوقار الذي يتطلبه الموقف. كانت عينا أنخيليتا تفيضان بالدمع ووجهها شاحباً؛ أما وجه أمها دونيا ماريا الفظ والمشدود فكان ينضح بالضغينة، ضغينة ثابتة لا يمكن قياسها.

– ما الذي سيحدث لنا يا دكتور بالاغير؟ – تلعثمت أنخيليتا وهي تمسك بذراعيه.

– لا شيء، لن يحدث لكم أي شيء. – قال لها مشجعاً. ثم عانق كذلك السيدة المهيبة قائلاً:– المهم الآن هو الحفاظ على الهدوء. وتسلحنا بالشجاعة. عسى ألا يُقدّر الله بأن يكون فخامته قد مات.

وكانت نظرة بسيطة كافية لأن يعرف أن هذه القبيلة من الشياطين المساكين قد فقدت البوصلة. فبيتان يهز بندقية رشاشة وهو يدور حول نفسه مثل كلب يريد أن يعض ذيله، وينضح عرقاً ويصرخ بغباوات عن جيشه الخاص المدعو «حباحب سلسلة الجبال». وفي أثناء ذلك كان الرئيس السابق هيكتور بينبنيدو (نيغرو) يبدو كمن أصيب بنوبة بلاهة سحرية: فهو ينظر إلى الفراغ، فمه مليء باللعاب، كما لو أنه يحاول أن يتذكر من هو وأين يوجد. وحتى أكثر إخوة الزعيم تعاسة، أمابلي روميو (بيبي) كان هناك، بملابس أشبه بملابس متسول، يتربع على كرسي وهو فاغر فمه. وكانت أخوات تروخييو، نيفيس لويسا، ومارينا، وخوليتا، وأوفيليا خابونيسا، يجلسن على المقاعد وهن يمسحن عيونهن أو ينظرن إليه، متوسلات المساعدة. وراح يهمس للجميع بكلمات مشجعة. هناك فراغ واضح ولا بد من ملئه بأسرع ما يمكن.

ذهب إلى مكتبه واتصل بالجنرال سانتوس ميليدو مارتي، المفتش العام للقوات المسلحة، وهو الضابط الذي تربطه به أمتن علاقة قديمة بين ضباط المراتب العليا. لم يكن على علم بأي شيء، وأصابه الخبر بالذهول إلى حد أنه لم يستطع أن يقول شيئاً خلال نصف دقيقة سوى «رباه، رباه». طلب منه أن يتصل بالقادة العامين للقوات وقادة الحاميات في كل أنحاء الجمهورية، ويؤكد لهم بأن الاغتيال المحتمل للزعيم لم يبدل شيئاً من التدابير الدستورية وأن يعتمدوا على ثقة رئيس الدولة الذي سيثبتهم في مناصبهم. فودعه الجنرال قائلاً: «سأبدأ العمل فوراً سيدي الرئيس».

أخبروه بأن القاصد الرسولي، ومعه قنصل الولايات المتحدة والقائم بأعمال المملكة المتحدة ينتظرون عند مدخل القصر، وقد منعهم الحراس من الدخول. فأمر بإدخالهم. لم يكن الاغتيال هو سبب مجيئهم، وإنما عملية الاعتقال العنيفة التي تعرض لها المونسنيور ريللي، على يد رجال مسلحين دخلوا إلى مدرسة سانتو دومنغو محطمين الأبواب. وأطلقوا النار في الهواء، وضربوا الراهبات وكذلك رهبان سان خوان دي لامانوانا الافتدائيين الذين يرافقون المطران، وقتلوا كلب حراسة. وقد اقتادوا رجل الدين بخشونة.

وقال له القاصد الرسولي:

– أيها السيد الرئيس، إنني أحملك المسؤولية عن حياة المنسونيور ريللي.

وحذره الدبلوماسي الأمريكي:

– حكومتي لن تتساهل تجاه الاعتداء على حياته. ولستُ بحاجة إلى تذكيركم باهتمام واشنطن بحياة ريللي، وهو مواطن أمريكي.

– تفضلوا بالجلوس من فضلكم – أشار لهم إلى المقاعد التي تحيط بمنضدة مكتبه. رفع الهاتف وطلب أن يتصلوا له بالجنرال فيرخيليو غارسيا تروخييو، قائد قاعدة سان إيسيدرو الجوية. ثم رجع إلى الدبلوماسيين قائلاً:– إنني متأسف أكثر منكم لما حدث، صدقوني. لن أدخر جهداً لوضع حد لهذه البربرية.

بعد قليل من ذلك سَمعَ عبر الهاتف صوت ابن أخت الجنراليسمو. ودون أن يرفع بصره عن الزائرين الثلاثة، قال بتمهل:

– إنني أكلمك باعتباري رئيساً للجمهورية أيها الجنرال. وأنا أتوجه إلى قائد قاعدة سان إيسيدرو وفي الوقت نفسه إلى ابن أخت فخامته المفضل. وسأوفر عليك المقدمات نظراً لخطورة الوضع. ففي تصرف ينم عن انعدام المسؤولية،

قام أحد المرؤوسين، ربما يكون الكولونيل أبيس غارسيا، باعتقال المطران ريللي، وإخراجه بالقوة من مدرسة سانتو دومنغو. أمامي الآن ممثلو الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والفاتيكان. وإذا ما حدث شيء للمنسنيور ريللي، وهو المواطن الأمريكي، فقد تحل نكبة بالبلاد. بما في ذلك احتمال إنزال مشاة البحرية الأمريكية. ولا حاجة بي لأن أقول لك ما الذي سيعنيه ذلك بالنسبة لوطننا. إنني أحثك باسم خالك **الجنراليسمو**، لتحول دون وقوع كارثة تاريخية.

انتظر ردّ فعل الجنرال فيرخيليو غارسيا تروخييو. وكشف له اللهاث العصبي الذي يصله عن تشوشه. ثم سمعه يتلعثم أخيراً:

- لم أكن أنا صاحب الفكرة أيها الدكتور. بل إنهم لم يخبروني بهذه المسألة.

فساعده بالاغير:

- أعرف ذلك جيداً أيها الجنرال تروخييو. فأنت ضابط فطن ومسؤول. ولا يمكن لك أن تقترف مثل هذه الحماقة مطلقاً. هل المونسنيور ريللي موجود في قاعدة سان إيسيدرو؟ أم أنهم نقلوه إلى الأربعين؟

كان هناك صمت طويل، صمت شائك. خشي أن يكون ما هو أسوأ قد حدث.

- هل المونسنيور ريللي على قيد الحياة؟ - قال بالاغير بإلحاح.

- إنه في منشأة ملحقة بقاعدة سان إيسيدرو، على بعد كيلومترين من هنا أيها الدكتور. قائد ذلك المركز، رودريغيث مينديث، لم يسمح بقتله. لقد أبلغني بذلك للتو.

زاد الرئيس من عذوبة صوته:

- أرجوك أن تذهب أنت شخصياً، كمبعوث مني، لإنقاذ المنسنيور. وأن تعتذر منه باسم الحكومة عن الخطأ الذي ارتُكب بحقه. ثم رافق المطران بعد ذلك حتى مكتبي. سليماً معافى. هذا رجاء أتوجه به إليك كصديق. كما أنه أمر من رئيس الجمهورية. ولدي كامل الثقة بك.

تطلع إليه الزائرون الثلاثة مذهولين. نهض واقفاً وتوجه نحوهم. ثم رافقهم حتى الباب. وبينما هو يشدّ على أيديهم، دمدم قائلاً:

- لستُ واثقاً من أنني سوف أُطاع أيها السادة. ولكن ها أنتم ترون، إنني أبذل ما هو في متناول يدي لفرض سلطة العقل.

- ما الذي سيحدث الآن أيها السيد الرئيس؟ - سأله القنصل - هل سيتقبل التروخييويين سلطتك؟

- هذا يعتمد كثيراً على الولايات المتحدة يا صديقي. وبصراحة، أنا لا أعرف. والآن، أرجو معذرتكم أيها السادة.

رجع إلى الصالة حيث أفراد أسرة تروخييو. كان هناك مزيد من الأشخاص. كان الكولونيل أبيس غارسيا يوضح أن أحد القتلة، والمعتقل في المستشفى الدولي، قد اعترف بأسماء ثلاثة متواطئين: الجنرال المتقاعد خوان توماس دياث، وأنطونيو إمبرت ولويس إمياما. هناك كثيرون آخرون دون شك. واكتشف بين المستمعين الجنرال رومان الذاهل؛ وكان يرتدي قميصاً خاكياً مبللاً، ووجهه ينضح عرقاً، ويشد على بندقيته الرشاشة بكلتا يديه. وكانت عيناه تضطربان بجنون حيوان يدرك أنه ضائع لا محال. كان واضحاً أن أموره لم تسر على ما يرام. وكان رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية البدين يؤكد بصوته المتهدج بأنه، بناء على أقوال العسكري السابق بيدرو ليفيو ثيدينيو، ليس للمؤامرة من تشعبات داخل القوات المسلحة. وبينما هو ينظر إليه قال في نفسه إن لحظة المواجهة مع أبيس غارسيا قد أزفت، لأن هذا الرجل يكرهه. أما هو فيحتقره فقط. وفي لحظات مثل هذه لا تكون السطوة - لسوء الحظ - للأفكار، وإنما للمسدسات. فطلب من الرب، الذي يؤمن به أحياناً، أن يقف إلى جانبه.

أطلق الكولونيل أبيس غارسيا هجومه الأول. فنظرا للفراغ الذي أحدثته عملية الاغتيال، يتوجب على بالاغير أن يستقيل لكي يشغل أحد أفراد الأسرة منصب الرئاسة. وأيده بيتان بتهوره وفجاجته: «أجل، فليستقل». وكان هو يستمع صامتاً، يداه متشابكتان على بطنه مثل كاهن وديع. وعندما توجهت الأنظار نحوه، أومأ بخجل، كما لو أنه يعتذر لاضطراره إلى التدخل. وذكَّر بكل تواضع، بأنه يشغل منصب الرئاسة بقرار من **الجنراليسمو**. وسيستقيل فوراً بالطبع، إذا كان في ذلك مصلحة الأمة. ولكنه يسمح لنفسه بالاقتراح، قبل تكسير العرف الدستوري، بأن ينتظروا وصول الجنرال رامفيس. وهل يمكن استبعاد ابن الزعيم البكر في مسألة بمثل هذه الخطورة؟ وثنَّت السيدة المهيبة على كلامه في الحال: لن توافق على أي قرار دون أن يكون ابنها الأكبر حاضراً. وحسب ما أعلنه الكولونيل لويس خوسيه ليون إستيفيث (بيتشيتو)، فإن رامفيس ورادامييس يقومان بالاجراءات في باريس لاستئجار إحدى طائرات آير فرانس. وهكذا أُجِّلت مسألة الاستقالة.

وبينما هو عائد إلى مكتبه، قال لنفسه إن المعركة الحقيقية يجب ألا يخوضها

ضد أخوة تروخييو، تلك العصابة من القتلة الأغبياء، وإنما ضد أبيس غارسيا. فصحيح أنه سادي معتوه، ولكنه يتمتع بذكاء شيطاني. لقد ارتكب أبيس غارسيا زلة للتو بنسيانه رامفيس. وهذا جعل من ماريا مارتينث حليفة له. وسيعرف كيف يوثق هذا التحالف: فجشع السيدة المهيبة سيكون مفيداً في الظروف الحالية. ولكن القضية المستعجلة هي الحيلولة دون وقوع تمرد عسكري. وبينما هو في مكتبه جاءه اتصال الجنرال ميليدو مارتي. وكان قد تحادث مع كل المناطق العسكرية، وأكد له قادتها على ولائهم للحكومة القائمة. ومع ذلك، فإن الجنرال ثيسر آ. أوليفا، قائد منطقة سنتياغو دي لوس كابابيروس، والجنرال غارثيا أوربايث في داخابون، والجنرال غواريونيكس إستريّا في لابيغا، قلقون من اتصالات وزير القوات المسلحة. فهل يعرف السيد الرئيس شيئاً من ذلك؟

– ليس لدي شيء محدد، ولكنني أتخيل ما تتخيله أنت يا صديقي – قال بالاغير للجنرال ميليدو مارتي – سأتصل هاتفياً بهؤلاء القادة لطمأنتهم. رامفيس تروخييو يطير الآن عائداً ليضمن تواصل القيادة العسكرية للبلاد.

واتصل دون إضاعة للوقت بالجنرالات الثلاثة، وأكد لهم بأنهم يتمتعون بثقته. وطلب منهم، باعتباره يتولى كل السلطات الإدارية والسياسية، أن يضمنوا النظام في مناطقهم، وأن يصرّفوا الأمور معه مباشرة، ريثما يصل الجنرال رامفيس. وبينما هو يودع الجنرال غواريونكس إستريا سعد الله على الهاتف، أخبره مرافقوه بأن الجنرال فيرخيليو غارثيا تروخييو في قاعة الانتظار مع المطران ريللي. فأمر بإدخال ابن أخت تروخييو وحده.

– لقد أنقذتَ حضرتك الجمهورية – قال له وهو يعانقه، وهو ما لم يفعله من قبل – فلو نُفذت أوامر أبيس غارسيا وحدث ما لا يمكن إصلاحه، لكان المارينز يقومون الآن بإنزال قواتهم في مدينة تروخييو.

– لم تكن أوامر أبيس غارسيا وحده – ردّ عليه قائد قاعدة سان إيسيدرو. ولاح أنه مضطرب – من أصدر الأمر إلى مسؤول مركز اعتقال القوى الجوية القوموندان رودريغيث مينديث، بإعدام المطران رمياً بالرصاص، هو بيتشيتو ليون إستيفيث. وقد قال إنه قرار صهري. أجل، قرار بوبو شخصياً. لستُ أفهم. لم يستشرني أحد في ذلك. وقد كان رفض رودريغيث مينديث إعدام المطران قبل الاتصال بي أشبه بمعجزة.

كان الجنرال غارثيا تروخييو يعنى ببنيته الجسدية وبمظهره – شارب على

الطريقة المكسيكية، شعر مصفف، بدلة متقنة التفصيل والكي كما لو أنه ذاهب إلى عرض عسكري، فضلاً عن نظارة «راي بان» في جيبه - بالأبهة نفسها التي يفعل بها ذلك ابن خاله رامفيس، والذي كان صديقاً حميماً له. ولكنه جاء الآن ونصف قميصه خارج البنطال، وشعره مشعث، وفي عينيه حيرة وارتياب.

- لا أدري لماذا اتخذ بوبو وبيتشو مثل هذا القرار دون أن يتشاورا معي. إنهما يريدان توريط القوات المسلحة أيها الدكتور.

- الجنرال رومان متأثر جداً لما حدث للجنراليسمو، ولم يعد يتحكم بأعصابه - أوضح له الرئيس - لحسن الحظ أن رامفيس آتٍ في الطريق. فوجوده لا غنى عنه. وباعتباره جنرالاً بأربع نجوم، وابن الزعيم البكر، فإنه المسؤول عن مواصلة سياسة **المنعم** ونهجه.

- ولكن رامفيس ليس سياسياً، إنه يمقت السياسة مثلما تعرف حضرتك أيها الدكتور بالاغير.

- رامفيس رجل ذكي جداً ويحب أباه إلى حد العبادة. ولا يمكنه رفض تولي الدور الذي ينتظره منه الوطن. وسنعمل نحن على إقناعه.

نظر إليه الجنرال غارثيا تروخييو بتعاطف:

- يمكنك أن تعتمد عليّ في كل ما تحتاج إليه أيها السيد الرئيس.

- سيعرف الدومينيكانيون بأنك أنقذت الجمهورية هذه الليلة. - كرر بالاغير بينما هو يرافقه حتى الباب - هناك مسؤولية كبيرة ملقاة على كاهلك أيها الجنرال. فقاعدة سان إيسيدرو هي أهم قاعدة في البلاد. ولهذا، فإن استتباب النظام يعتمد عليك. اتصل بي من أجل أي شيء؛ لقد أمرتُ بأن تُعطى الأولوية لاتصالاتك.

لا بد أن المطران ريللي قد أمضى ساعات من الرعب وهو في أيدي المخبرين. كان ثوبه الكهنوتي ممزقاً وملطخاً، وكانت هناك أخاديد عميقة تغور في وجهه الشاحب، مع تكشيرة رعب ما تزال تُثقل عليه. كان يحافظ على انتصابه وصمته. واستمع بوقار إلى اعتذارات وتوضيحات رئيس الجمهورية، بل إنه بذل جهداً كذلك ليبتسم وهو يشكره على مساعيه للإفراج عنه: «اعذرهم أيها السيد الرئيس، لأنهم لا يعرفون ما يفعلون». وفي هذه الأثناء فُتح الباب، ودخل إلى المكتب الجنرال رومان حاملاً بندقية رشاشة في يده، وهو ينضح عرقاً، وفي عينيه نظرة خوف وغضب بهيمية. وكانت ثانية واحدة كافية ليعرف

الرئيس بأنه إذا لم يكسب المبادرة، فإن ذلك الأهوج سيبدأ بإطلاق النار. «آه، أنظر أيها المونسنيور من لدينا هنا.» وراح يشكر وزير القوات المسلحة باندفاع لمجيئه من أجل تقديم الاعتذار، باسم المؤسسة العسكرية، إلى السيد مطران سان خوان دي لاماغوانا بسبب سوء التفاهم الذي وقع ضحية له. وكان الجنرال المتجمد في وسط المكتب يرمش وقد بدت على وجهه امارات البلاهة. كان هناك غمص في عينيه، كما لو أنه قد استيقظ للتو. ودون أن ينطق بأي كلمة، وبعد أن تردد بضع ثوان، مدّ يده لمصافحة المطران الذي لم يكن أقل بلبلة من الجنرال. ورافق الرئيس المنسنيور ريللي إلى الباب مودعاً.

وعندما رجع إلى منضدة مكتبه، كان بوبو يصرخ: «إنك مدين بتقديم تفسير لي. أي لعنة تظن نفسك يا بالاغير»، وكان يهيء بندقيته ويمر بها أمام وجهه. احتفظ الرئيسُ برباطة جأشه، وبقي ينظر إلى عينيه. كان يشعر بمطر غير مرئي يهطل على وجهه، إنه لعاب الجنرال. أدرك أنه لم يعد بإمكان هذا الأهوج أن يطلق النار. وقد صمت رومان بعد أن أطلق شتائم ولعنات ما بين عبارات غير متماسكة. وبقي واقفاً في مكانه يلهث. فنصحه الرئيس بصوت ناعم ومختلف بأن يتمالك أعصابه. فواجب قائد القوات المسلحة في هذه اللحظات أن يكون قدوة في الاتزان. وقال له إنه على استعداد لمساعدته إذا ما احتاج إليه، على الرغم من شتائمه وتهديداته. فانفجر الجنرال رومان مجدداً في مناجاة شبه هذيانية أعلمه خلالها دون مبرر، بأنه أصدر أمراً بإعدام الميجر سيغوندو إمبرت وبابيتو سانتشيث، المعتقلين في لافكتوريا، لتواطئهم في اغتيال **الزعيم**. لم يشأ مواصلة الاستماع إلى أسرار بهذه الخطورة. فخرج من المكتب دون أن ينطق بكلمة. لم يعد لديه أدنى شك: رومان على علاقة بمقتل **الجنراليسمو**. ولا يمكن تفسير سلوكه غير العقلاني بطريقة أخرى.

رجع إلى الصالون. كانوا قد عثروا على جثة تروخييو في صندوق سيارة، في كراج منزل الجنرال خوان توماس دياث. ولن ينسى الدكتور بالاغير أبداً في سنوات حياته الطويلة، تحلل تلك الوجوه، وبكاء تلك العيون، وتعبيرات اليتم والضياع التي بدت على المدنيين والعسكريين عندما وُضعت الجثة الدامية المدروزة بالرصاص، بوجهها المشوه بطلقة هشمت الذقن، فوق طاولة قاعة الطعام في **القصر**، حيث جرى قبل ساعات من ذلك تكريم سيمون ودوروثي جيتلمان، ثم بدأ خلع الملابس عن الجثة وغسلها لكي يتولى فريق من الأطباء

فحصها وتهيئتها للتسجية. وكان ردّ الفعل الذي أثاره بين جميع الحاضرين هو ردّ فعل الأرملة. فقد تأملت دونيا ماريا مارتينيث الجثمان كالمُنوَّمة، وهي منتصبة تماماً بذلك الحذاء ذي الأرضية العالية الذي تبدو على الدوام وكأنها مرفوعة عليه. كانت عيناها متسعتين ومحمرتين، ولكنها لم تكن تبكي. ثم زمجرت فجأة وهي تلوح بيديها «الثأر! الثأر! يجب قتلهم جميعاً!». سارع الدكتور بالاغير ليمر بذراعه على كتفيها. فتفلتت منه. أحس بها تتنفس بعمق، وتنفخ. كانت ترتعش بصورة اختلاجية، وتردد: «يجب أن يدفعوا الثمن، يجب أن يدفعوا الثمن». فهمس بالاغير في أذنها: «سنقلب الأرض والسماء لعمل ذلك يا دونيا ماريا». وفي هذه اللحظة واتته اختلاجة خافقة: الآن، وفي هذه اللحظة بالذات، عليه أن ينجز ما قرره بشأن **السيدة المهيبة**، وإلا سيكون الوقت قد فات بعد ذلك.

ضغط على ذراعها برفق، وكأنه يريد إبعادها عن المشهد الذي يسبب لها الألم، واقتاد دونيا ماريا مارتينث إلى احد الصالونات المجاورة لقاعة الطعام. وما إن تأكد من أنهما صارا وحيدين حتى أغلق الباب.

- دونيا ماريا، أنت امرأة استثنائية في جَلَدها. - قال لها بمودة - ولهذا أجد الجرأة في هذه اللحظات المؤلمة، لأعكر أحزانك بدافع التقدير والمودة. اجلسي من فضلك.

كان وجه **السيدة المهيبة** ينظر إليه بارتياب. فابتسم لها مبدياً الحزن. من الوقاحة دون شك أن يضايقها بأمور عملية، في الوقت الذي يستغرق روحها إنكسار فظيع. ولكن، ماذا عن المستقبل؟ ألن تكون أمام دونيا ماريا حياة طويلة؟ ومن يدري ما الذي سيحدث بعد هذه الكارثة؟ ولا بد لها بالتالي من اتخاذ بعض الاحتياطات والتفكير بالمستقبل. فجحود الشعوب ونكرانها للجميل أمر ثابت ومؤكد، منذ غدر يهوذا بالمسيح. البلاد ستبكي تروخييو وتهدر ضد قتلته الآن. ولكن هل ستواصل غداً الوفاء لذكرى **الزعيم**؟ وماذا لو انتصر الحقد، هذا الداء الوطني المستحكم؟ إنه لا يريد إضاعة وقتها. وسيتكلم مباشرة في الأمر. لا بد لدونيا ماريا من أن تضمن نفسها، وأن تضع بمنجى من كل الصروف الطارئة الثروات المشروعة المكتسبة بفضل جهود أسرة تروخييو التي قدمت فوق ذلك أفضالاً كثيرة إلى الشعب الدومينيكاني. ويجب عمل ذلك قبل أن تحول التسويات السياسية دون تحقيقه. والدكتور بالاغير يقترح عليها أن تناقش الأمر مع السيناتور هنري تشيرينوس، المكلف بالإشراف على أعمال الأسرة التجارية، وأن

تبحث معه أمر الممتلكات التي يمكن نقلها فوراً إلى خارج البلاد، دون التعرض لخسائر كبيرة. وهو أمر مازال بالإمكان تحقيقه بالتكتم المطلق. فرئيس الجمهورية مخول بصلاحية القيام بعمليات من هذا النوع - تحويل البيزوات الدومينيكانية إلى عملة صعبة في المصرف المركزي على سبيل المثال -، ولكن من يدري ما إذا كان ذلك ممكناً في ما بعد. لقد كان **الجنراليسمو**، وبسبب الوازع الوطني العالي، متشدداً على الدوام بشأن هذه التحويلات. ولكن الحفاظ على تلك السياسة في الظروف الراهنة سيكون، مع الاعتذار للتعبير، مجرد حماقة. إنها نصيحة ودية أوحت بها دواعي الولاء والصداقة.

استمعت إليه **السيدة المهيبة** بصمت، ناظرة إلى عينيه. ثم هزت رأسها أخيراً مصادقة، وقالت واثقة جداً من نفسها:

- لقد كنتُ أعرفُ أنك صديق وفي أيها الدكتور بالاغير.

- آمل أن أتمكن من إثبات ذلك يا دونيا ماريا. وأنا واثق من أنك لن تنظري إلى نصيحتي باستياء.

- إنها نصيحة جيدة، فلا أحد يعرف ما الذي يمكن أن يحدث في هذه البلاد - دمدمت بصوت من بين أسنانها - سأُكلم الدكتور تشيرنيوس غداً بالذات. هل سيتم كل شيء بأقصى التكتم؟

فقال الرئيس مؤكداً وهو يلمس صدره:

- من أجل سمعتي وشرفي يا دونيا ماريا.

رأى أن ثمة ارتياباً يبدل تعبيرات وجه أرملة **الجنراليسمو**. وخمن ما الذي ستطلبه منه:

- أرجوك ألا تتكلم في هذه المسألة حتى مع أبنائي أنفسهم - قالت بصوت خافت جداً، وكأنها تخشى أن يتمكن أبناؤها من سماعها - وهذا لأسباب تحتاج إلى شرح طويل.

- لن أكلم أحداً، بمن في ذلك أبناءك يا دونيا ماريا - طمأنها الرئيس - بالطبع. واسمحي لي أن أكرر لك الإعراب عن تقديري الكبير لشخصيتك يا دونيا ماريا. فلولاك ما كان بمقدور **المنعم** أن يحقق كل ما حققه.

لقد كسب نقطة أخرى في حرب المواقع ضد جوني أبيس غارسيا. لقد كان ردّ دونيا ماريا مارتينث معروفاً مسبقاً: فالجشع لديها كان أقوى من كل أهوائها الأخرى. وقد كانت **السيدة المهيبة** تثير فعلاً في نفس الدكتور بالاغير شيئاً من

الاحترام. فمن أجل بقائها طوال تلك السنوات إلى جوار تروخييو، كعشيقة في أول الأمر، ثم كزوجة بعد ذلك، كان لا بد لـ «لاإسبانيولا» أن تتخلص شيئاً فشيئاً من كل حساسية، ومن كل إحساس - وخصوصاً الشفقة - وأن تلجأ إلى الحسابات.. إلى الحسابات الباردة، وربما كذلك إلى الحقد.

ولكن رد فعل رامفيس بالمقابل شوشه. فبعد ساعتين من وصوله مع راداميس وجماعة من أصدقائه في الطائرة المستأجرة من آير فرانس، إلى قاعدة سان إيسيدرو - كان بالاغير هو أول من عانقه على سلّم الطائرة -، وبعد أن حلق ذقنه وارتدى بدلته كجنرال بأربع نجوم، حضر إلى القصر الوطني ليقدم التكريم لجثمان أبيه. لم يبك، ولم يفتح فمه. كان شاحباً وعلى وجهه المحزون والمزوق تعبير غريب من المفاجأة، من الذهول، من الرفض. كما لو أن تلك الهيئة المسجاة، بملابس الاتيكيت، وصدرها يغص بالأوسمة، في التابوت الباذخ المحاط بشمعدانات، في هذه القاعة المترعة بأكاليل مأتمية، لا يمكن لها ولا يجب عليها أن تكون هناك، وكما لو أن وجودها هناك، يكشف عن خلل في نظام الكون. وقف مطولاً ينظر إلى جثة أبيه. ويقوم بتكشيرات لا يستطيع كبحها، وكأن عضلات وجهه تحاول التمرد على شبكة عنكبوت غير مرئية ملتصقة ببشرته. وسمعه يقول أخيراً: «أنا لن أكون كريماً مثلما كنتَ أنت مع الأعداء». وعندئذ قال له الدكتور بالاغير الذي كان إلى جانبه بملابس حداد صارمة، هامساً في أذنه: «من الضروري أن نتحدث بضع لحظات أيها الجنرال. أعرف أنها لحظة صعبة بالنسبة إليك، ولكن هناك أموراً لا يمكن تأجيلها». استعاد رامفيس السيطرة على نفسه، وهز رأسه موافقاً. ذهبا وحدهما إلى مكتب الرئيس. وفي طريقهما كانا يريان عبر النوافذ الحشود الضخمة والمتزايدة التي ما فتئت تنضم إليها جماعات من الرجال والنساء الآتين من خارج مدينة تروخييو والقرى المجاورة. وكان الصف الطويل، في أرتال رباعية أو خماسية، يمتد إلى عدة كيلومترات، ولا يكاد الحراس المسلحون يستطيعون السيطرة عليه. إنهم يقضون ساعات طويلة من الانتظار. وكانت هناك مشاهد مؤثرة، وبكاء، وصرخات هستيرية، بين أولئك الذين تمكنوا من الوصول إلى أدراج القصر وأحسوا أنهم قريبون من حجرة الجنراليسمو المأتمية.

لقد كان الدكتور بالاغير يعرف جيداً أن مستقبله ومستقبل جمهورية الدومينيكان يتعلقان بهذه المحادثة. ولهذا السبب، قرر الإقدام على أمر لا يلجأ

إليه إلا في الحالات القصوى، لأنه ضد طبيعته الحذرة: لقد قرر أن يقامر بكل شيء مقابل كل شيء، في نوع من المفاجأة. انتظر إلى أن جلس ابن تروخييو البكر قبالة منضدة مكتبه – ومن خلال النافذة كانت الحشود الهائجة تتحرك مثل بحر مائج بانتظار وصولها إلى حيث جثة **المنعم** – وبدأ بطريقته الهادئة، ودون أدنى قدر من القلق، يقول له ما كان قد أعدّه بدقة:

– عليك، وعليك وحدك يتوقف ضياع بعض أو معظم، أو عدم ضياع شيء من المنجزات التي حققها تروخييو. فإذا ما ضاع تراثه، ستسقط جمهورية الدومينيكان مجدداً في البربرية. وسنعود لننافس هايتي، مثلما كنا قبل 1930، على موقع الأمة الأكثر بؤساً وعنفاً في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية.

تحدث مطولاً، ولم يقاطعه رامفيس مرة واحدة. هل يصغي إليه؟ لم يكن يحرك رأسه بالموافقة ولا بالنفي؛ عيناه المثبتتان عليه لبعض الوقت تتيهان أحياناً، فيقول الدكتور بالاغير في نفسه إن نظرات مثل هذه كانت دون شك، بداية نوبات الذهول والكآبة القصوى تلك، التي أدت إلى إدخاله مصحات عقلية في فرنسا وبلجيكا. ولكن رامفيس يستمع إليه فعلاً، ويروز حججه. فعلى الرغم من كونه سكيراً، ماجناً، يخلو من الميول السياسية والهموم التمدنية، ورجلاً يبدو أن حساسيته تُستنفد في المشاعر التي تلهمه إياها النساء، والخيول، والطائرات، والشراب، ويمكن له أن يكون قاسياً جداً مثل أبيه. إلا أنه يعي بأنه ذكي. وربما كان الوحيد في هذه الأسرة الذي له دماغ قادر على رصد ما هو أبعد من أنفه، وبطنه، وقضيبه. فهو يملك ذهناً سريعاً، حاداً لو أتيحت له التربية المناسبة لأعطى ثماراً ممتازة. وإلى هذا الذكاء بالذات توجه بالاغير بعرضه، بصراحة متهورة. كان مقتنعاً بأنها الورقة الأخيرة المتبقية له، إذا كان لا يريد أن يُكنس كورقة غير نافعة لسادة المسدسات.

عندما صمتَ، كان الجنرال رامفيس أكثر شحوباً مما كان عليه وهو يتأمل جثة أبيه.

– يمكن لك أن تدفع حياتك ثمناً لنصف الأشياء التي قلتها يا دكتور بالاغير.

– أعرف ذلك أيها الجنرال. فالوضع لم يترك لي مخرجاً سوى التكلم بصراحة. لقد عرضتُ عليك السياسة الوحيدة التي أراها ممكنة. فإذا كنتَ ترى أن هناك سياسة أخرى، فلك تهاني. استقالتي جاهزة في هذا الدرج. هل عليّ أن أقدمها إلى الكونغرس؟

قال رامفيس «لا» بحركة من رأسه. استنشق هواء، وبعد لحظة من ذلك، أوضح بصوته المترنم الذي يشبه صوت ممثل في التمثيليات الإذاعية:

– لقد وصلتُ منذ زمن، وعبر دروب أخرى، إلى هذه النتائج نفسها – قام بحركة خضوع من كتفيه – والحقيقة أنني لا أرى سياسة أخرى ممكنة. ولكي نتخلص من المارينز ومن الشيوعيين، ولكي ترفع عنا منظمة الدول الأمريكية وواشنطن العقوبات، فإنني أتقبل خطتك. ولكن عليك أن تشاورني في كل خطوة، وكل إجراء، وكل اتفاق، وأن تنتظر موافقتي. أما قيادة الجيش والأمن فهي من اختصاصي. ولست أقبل أي تدخل، لا منك ولا من الموظفين المدنيين، ولا من الأمريكيين. ولن يفلت من العقاب أي من المشاركين بصورة مباشرة أو غير مباشرة بمقتل أبي.

نهض الدكتور بالاغير واقفاً. وقال بوقار:

– أعرف أنك كنتَ تحبه جداً. وأنت تعبر جيداً عن مشاعرك البَنَويّة برغبتك في الانتقام من مرتكبي هذه الجريمة المريعة. ولا يمكن لأحد، وأنا قبل الجميع، أن يعرقل مساعيك في إحقاق العدالة. فهذه أيضاً هي رغبتي المتأججة.

عندما ودّع ابن تروخييو، شرب كأس ماء في رشفات قصيرة. وكان قلبه قد بدأ باستعادة إيقاعه. لقد قامر بحياته، ولكنه كسب الرهان. وعليه الآن أن يضع ما اتُفق عليه موضع التنفيذ. بدأ بعمل ذلك في مأتم **المنعم**، في كنيسة سان كريستوبال. فخطابه التأبيني المليء بعبارات مديح مؤثرة للجنراليسمو، مخففة مع ذلك بتلميحات نقدية، جعل بعض الحضور غير المطلعين يذرفون الدموع، وحيّر آخرين، ورفع حواجب البعض، وزرع البلبلة في نفوس الكثيرين، ولكنه استحق تهنئة السلك الدبلوماسي. «لقد بدأت الأمور تتبدل أيها السيد الرئيس»، أكد قنصل الولايات المتحدة الذي قَدِمَ حديثاً إلى الجزيرة. وفي اليوم التالي وجه الرئيس بالاغير دعوة مستعجلة إلى الكولونيل أبيس غارسيا. وما إن رآه، بوجهه المنتفخ الذي ينهشه القلق – كان يمسح العرق بمنديله الأحمر المعهود – حتى قال في نفسه إن رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية يعرف تماماً سبب مجيئه.

– هل استدعيتني لتُطلعني على إقالتي؟ – سأله دون أن يحييه. وكان بالزي العسكري، بنطاله متهدل وقبعته مائلة بصورة مضحكة: وفضلاً عن المسدس المعلق بحزامه، كانت هناك بندقية رشاشة تتدلى من كتفه. ولمح بالاغير وراءه الوجوه الإجرامية لأربعة أو خمسة حراس شخصيين لم يدخلوا المكتب.

- بل لأرجوك أن توافق على تعيينك في منصب دبلوماسي. - قال الرئيس بلطف. وأشار له بيده الصغيرة إلى كرسي - فالوطني الموهوب يمكنه خدمة وطنه في ميادين شديدة التنوع.

ولم يكن أبيس غارسيا يداري إحباطه ولا غضبه:

- وأين سيكون المنفى الذهبي؟

- إلى اليابان - قال الرئيس - لقد وقّعتُ للتو على قرار تعيينك قنصلاً هناك. أما راتبك ونفقات التمثيل فستكون بمرتبة سفير.

- ألا يمكنك أن ترسلني إلى مكان أبعد؟

- ليس هناك مكان أبعد - اعتذر الدكتور بالاغير، دون سخرية - فالبلد الوحيد الأبعد هو نيوزيلندا، ولكن ليس لنا علاقات دبلوماسية معه.

تململ الرجل البدين في المقعد نافخاً. وأحاط بقزحيتي عينيه المتقافزتين خطٌ أصفر يشي باستياء غير متناهٍ. أبقى المنديل الأحمر لحظة قرب شفتيه، كما لو أنه سيبصق فيه.

- أنت تظن بأنك انتصرت يا دكتور بالاغير - قال بنبرة مهينة - ولكنك مخطئ. فأنت لا تقل تطابقاً عني مع هذا النظام. ولا تقل تلوثاً عني كذلك. ليس هناك من يبتلع اللعبة الميكافيلية بترؤسك عملية التحول إلى الديمقراطية.

- ربما أُخفق في ذلك. - وافق بالاغير دون عدوانية - ولكن عليّ أن أحاول. ومن أجل ذلك لا بد من التضحية بالبعض. ويؤسفني أن تكون أولهم، ولكن ليس ثمة مناص: فأنت تمثل أسوأ أوجه النظام. إنه وجه ضروري، بطولي، تراجيدي، أعرف ذلك. وقد ذكّرني به **الزعيم** نفسه وهو جالس على هذا المقعد الذي تشغله حضرتك. ولكن هذه الأسباب نفسها تحول دون نجاتك في هذه اللحظات. أنت رجل ذكي، ولستُ بحاجة لأن أوضح لك. لا تخلق تعقيدات غير مجدية للحكومة. غادر إلى الخارج وكن متحفظاً. لديك أعداء كثيرون. وهناك بلدان عديدة تريد إلقاء القبض عليك. الولايات المتحدة، وفنزويلا، والانتربول. والمباحث الفيدرالية الأمريكية، والمكسيك، وكل أميركا الوسطى. أنت أكثر اطلاعاً مني على هذه الأمور. واليابان مكان آمن، خصوصاً وأنت في منصب دبلوماسي. أدركُ أنك كنت مهتماً بالروحانيات على الدوام. محط اهتمامك هو مذهب طائفة الروزكروز، أليس كذلك؟ انتهز الفرصة إذن للتعمق في هذه الدراسات. أما إذا أردت الإقامة في مكان آخر، فأرجوك ألا تخبرني أين ستذهب، ولكنك ستتلقى

راتبك بانتظام. لقد وقعّت على مبلغ إضافي خاص، من أجل نفقات السفر والاستقرار. مئتا ألف بيزو، يمكنك سحبه من الخزينة. حظاً سعيداً.

لم يمد إليه يده، لأنه خمن بأن العسكري السابق (في اليوم السابق كان قد وقّع مرسوم فصله من الجيش) لن يصافحها. بقي أبيس غارسيا دون حراك لبعض الوقت، يتفحصه بحدقتين محتقنتين. ولكن الرئيس كان يعرف أنه رجل عملي، وأنه بدل القيام برد فعل صلف وأحمق، سيتقبل أهون الشرور. رآه ينهض وينصرف دون أن يقول وداعاً. وأملى هو نفسه على سكرتيره بياناً يعلن فيه أن **الكولونيل السابق** أبيس غارسيا قد استقال من جهاز الاستخبارات، لكي يقوم بمهمة أخرى في الخارج. وبعد يومين من ذلك، نشرت جريدة **الكاريبي** على خمسة أعمدة، ما بين أخبار موت واعتقال قتلة **الجنراليسمو**، إطاراً رأى فيه الدكتور بالاغير صورة أبيس غارسيا، متسربلاً بمعطف مرفوع الياقة وقبعة أوربية مثل شخصيات ديكنز، وهو يصعد سلّم الطائرة.

في أثناء ذلك كان الرئيس قد صمم على أن الزعيم البرلماني الجديد، المكلف بتحويل مجلس الشيوخ خفية نحو مواقف تلقى قبولاً أكبر من الولايات المتحدة والمجتمع الغربي، ليس أغوسطين كابرال، وإنما السيناتور هنري تشيرينوس. لقد كان يفضل مخيخ للقيام بهذا الدور، لأن عاداته القنوعة تتوافق مع طريقته في الحياة، بينما يثير الدستوري سكران قرفه. ولكنه اختار هذا الأخير لأن إعادة الاعتبار المفاجئة لشخص سقط في المحنة بقرار حديث لفخامته يمكن له أن يستفز أناساً من نخبة الوسط التروخييوي، ممن ما يزال بحاجة إليهم. فالوقت مازال مبكراً على استفزازهم بشدة. صحيح أن تشيرينوس مقرف جسدياً وأخلاقياً؛ ولكن موهبته كدساس ومحام متلاعب غير محدودة. فليس هناك من يعرف خيراً منه الأحابيل والحيل البرلمانية. ومع أنهما لم يكونا صديقين قط - بسبب الكحول الذي يثير قرف بالاغير -، إلا أنه ما أن استُدعي إلى القصر وأطلعه الرئيس على ما ينتظره منه، حتى تحمس السيناتور مثل حماسته عندما طلب منه أن يُسهّل بأكثر الطرق تكتماً ومداراة، تحويل أرصدة السيدة المهيبة إلى الخارج («لفتة نبيلة من جانبك أيها الرئيس: أن تضمن مستقبل سيدة بارزة في نكبتها.») في تلك المناسبة كان السيناتور تشيرينوس ما يزال يجهل ما يدور في الخفاء. فاعترف للرئيس بأنه نال شرف إخبار جهاز الاستخبارات العسكرية بأن أنطونيو دي لاماثا والجنرال خوان توماس دياث يتسكعان في المدينة القديمة

(كان قد لمحهما في سيارة متوقفة قبالة بيت أحد الأصدقاء، في شارع اسبايات) وطلب منه أن يبذل مساعيه الحميدة للطلب من رامفيس منحه المكافأة التي أعلن عنها لمن يقدم أية معلومات تتيح القبض على قتلة أبيه. فنصحه الدكتور بالاغير بأن يتخلى عن هذه المكافأة وألا يشيع خبر تلك الوشاية الوطنية: يمكن لذلك أن يضر بمستقبلك السياسي بصورة لا يمكن إصلاحها. وقد فهم ذلك الرجل الذي كان تروخييو يلقبه بين المقربين بالقذارة الحية، الأمر فوراً:

- اسمح لي أن أشكرك أيها السيد الرئيس - هتف وهو يحرك يديه، وكأنه يخطب من فوق منبر - لقد فكرتُ على الدوام بأنه لا بد للنظام من الانفتاح على الأزمنة الجديدة. وباختفاء **الزعيم**، ليس هناك من هو أفضل من سيادتك لمسايرة الرياح وقيادة السفينة الدومينيكانية نحو مرفأ الديمقراطية. يمكنك أن تعتبرني مساعدك الوفي والدؤوب.

وقد كان كذلك فعلاً. فهو من قدم إلى الكونغرس الاقتراح بمنح الجنرال رامفيس تروخييو الصلاحيات العسكرية العليا والسلطات العسكرية والبوليسية القصوى في الجمهورية، وثقف النواب والسيناتورات حول السياسة الجديدة التي يدفع بها الرئيس، والمُوجَّهة، ليس إلى التنكر للماضي ولا إلى رفض **عهد تروخييو**، وإنما إلى تجاوزه دياليكتيكياً ليتوافق مع الأزمنة الجديدة، بحيث يمكن لكيسكيّا كلما رسخت ديمقراطيتها - دون أن تتراجع خطوة إلى الوراء - أن تلقى القبول مجدداً من قبل أخواتها الأمريكيات في منظمة الدول الأمريكية، وأن تُرفع عنها العقوبات الاقتصادية، وتنضم مجدداً إلى المجتمع الدولي. وفي أحد اجتماعات العمل الكثيرة التي كان يعقدها مع الرئيس بالاغير، سأل السيناتور تشيرينوس، بشيء من القلق، عن خطط فخامة الرئيس بشأن السيناتور أغوسطين كابرال.

- لقد أمرتُ بإلغاء تجميد حساباته المصرفية وبأن يُعترف بخدماته التي قدمها للدولة، بحيث يمكنه أن يتلقى راتباً تقاعدياً - أخبره بالاغير - ولكن عودته إلى الحياة السياسية لا تبدو مناسبة في الوقت الراهن.

- إننا متطابقان في الرأي تماماً. - أكد السيناتور - فمخيخ الذي تربطني به علاقات قديمة، هو شخص خلافي ويوقظ العدوات.

- يمكن للدولة أن تستفيد من موهبته، ولكن دون التمادي في ذلك - قال الرئيس - لقد عرضتُ عليه منصب مستشار قانوني في الإدارة.

– قرار حكيم. – عاد تشيرينوس يؤكد – فأغوسطين تمتع على الدوام بدماغ حقوقي جيد.

كانت قد مضت خمسة أسابيع على موت **الجنراليسمو**، وكانت التغيرات التي جرت معتبرة. لا يمكن لخواكين بالاغير أن يتذمر: ففي هذا الوقت القصير تحول من رئيس العوبة، ومن السيد لا أحد، إلى رئيس دولة حقيقي، وهو منصب يعترف به الطرواديون والصوريون، وخصوصاً الولايات المتحدة. وعلى الرغم من تحفظها في أول الأمر، عندما شرح خططه للقنصل الجديد، إلا أنها تأخذ الآن بجدية أكبر وعوده بنقل البلاد قليلاً قليلاً نحو ديمقراطية كاملة، ضمن النظام، دون اتاحة الفرصة للشيوعيين باستغلال الوضع. وكان يعقد اجتماعات كل يومين أو ثلاثة مع المتعجل جون كالفين هيل – وهو دبلوماسي له جسد كابوي، يتكلم دون الدخول في التشعبات –، إلى أن تمكن من إقناعه بأنه لا بد في هذه المرحلة من الإبقاء على رامفيس كحليف. فالجنرال قد وافق على خطته في الانفتاح المتدرج. وهو يمسك زمام الأمور العسكرية بيده، وبفضل ذلك، يبقى أولئك المجرمون المتوحشون من أمثال بيتان وهيكتور، وكذلك العسكريون البدائيون المقربون من تروخييو عند حدهم. ولولا ذلك لكانوا عزلوه من الرئاسة. وربما كان رامفيس يعتقد بأن الصلاحيات المقتضبة التي منحها لبالاغير – السماح بعودة بعض المنفيين، ظهور نقد خجول لنظام تروخييو في الإذاعات والصحف (وأكثرها نضالية هي جريدة جديدة ظهرت في شهر آب باسم **الاتحاد التمدني**)، والاجتماعات الشعبية للقوى المعارضة التي بدأت بكسب الشارع، مثل القوة اليمينية الاتحاد التمدني الوطني بقيادة فيرخيليو فياو وآنخل سيفسيرو كابرال، وحركة 14 حزيران اليسارية الثورية – يمكن لها أن توفر له مستقبلاً سياسياً. كما لو أنه يمكن لأحد يحمل كنية تروخييو أن يعود للظهور في الحياة العامة للبلاد! ويجب عدم تنبيه رامفيس إلى خطئه في الوقت الراهن. فهو يتحكم بالمدافع ويحظى بولاء العسكريين؛ وتفكيك القوات المسلحة حتى تخليصها من التروخييوية سيحتاج للوقت. علاقات الحكومة مع الكنيسة عادت ممتازة من جديد؛ وقد كان بالاغير يتناول الشاي أحياناً مع القاصد الرسولي وكبير الأساقفة بيتيني.

المسألة التي لم يكن بإمكانه حلّها بصورة مرضية أمام الرأي العام الدولي هي «حقوق الإنسان». فقد كانت هناك احتجاجات يومية على وجود المعتقلين السياسيين، ومن يتعرضون للتعذيب، والاختفاء، والاغتيال في لافكتوريا،

والتاسع، والأربعين، وفي سجون وثكنات المدن الداخلية. وكانت تنهال على مكتبه بيانات، ورسائل، وبرقيات، وتقارير، ومذكرات دبلوماسية. ولكنه لم يكن قادراً على عمل الكثير. أو أنه لم يكن قادراً بكلمة أصح، على عمل أي شيء. اللهم إلا تقديم وعود غامضة، والنظر إلى اتجاه آخر. فقد كان ينجز الاتفاق بإطلاق يد رامفيس. ولم يكن بإمكانه عدم تنفيذ الاتفاق حتى لو رغب في ذلك. فقد كان ابن الجنراليسمو قد سفّر دونيا ماريا وأنخيليتا إلى أوربا، وواصل البحث دون كلل عن متواطئين، كما لو أن المؤامرة لقتل تروخييو كانت جماهيرية. وفي أحد الأيام سأله الجنرال الشاب مباشرة:

- هل تعرف بأن بيدرو ليفيو ثيدينيو أراد توريطك في مؤامرة قتل أبي؟

- لا أستغرب ذلك. - ابتسم بالاغير دون تأثر - فأفضل دفاع يلجأ إليه القتلة هو توريط الجميع. وخصوصاً الناس المقربين من المنعم. الفرنسيون يسمون ذلك «التسميم».

- لو أن واحداً آخر من القتلة أكد ذلك، لكنتَ لقيتَ مصير بوبو رومان - كان رامفيس يبدو متزناً، على الرغم من أنفاسه المخمورة - إنه يلعن في هذه اللحظات اليوم الذي ولد فيه.

- لا أريد معرفة ذلك أيها الجنرال. - قاطعه بالاغير وهو يمد له يده الصغيرة - أنت لك الحق الأخلاقي بالانتقام من مرتكبي الجريمة. ولكن لا تُطلعني على التفاصيل، أرجوك. فمواجهة الانتقادات التي أتلقاها من العالم بأسره ستكون أسهل، إذا كنتُ غير مطلع على صحة التجاوزات التي يدينونها.

- لا بأس. لن أخبرك إلا باعتقال أنطونيو إمبرت ولويس أمياما، إذا ما اعتقلناهما. - ورأى بالاغير أن وجه الشاب المتأنق يتيه، مثلما يحدث كلما يُذكر المشاركان الوحيدان في المؤامرة اللذان لم يُعتقلا ولم يموتا - هل تظن أنهما لا يزالان في البلاد؟

- أعتقد أنهما مازالا هنا. - أكد بالاغير - فلو أنهما هربا إلى الخارج، لكانا عقدا مؤتمرات صحفية، وتلقيا جوائز، وظهرا في التلفزيونات. ولكانا يستمتعان بوضعهما المزعوم كبطلين. إنهما مختبئان هنا دون شك.

- سيقعان عاجلاً أو آجلاً إذن. - غمغم رامفيس - لدي آلاف الرجال يبحثون عنهما، بيتاً بيتاً، وجحراً جحراً. إذا ما كانا في جمهورية الدومينيكان فسوف يقعان. وإذا لم يكونا هنا، فليس هناك مكان في العالم ينقذهما من دفع

ثمن موت أبي. حتى ولو أنفقتُ في سبيل ذلك آخر سنتافو.

- أتمنى أن تتحقق رغباتك أيها الجنرال. - قال بالاغير متفهماً - واسمح لي بتوسل. حاول الحفاظ على الشكليات. فالعملية الحساسة بإظهار انفتاح البلاد على الديمقراطية أمام العالم، ستُخفق إذا ما وقعت فضيحة. أعني حدوث قضية أخرى مثل قضية غالينديث، أو قضية بيتانكور أخرى.

لم يكن من الممكن التباحث مع ابن الجنراليسمو في مسألة المتآمرين وحدها. ولم يضيع بالاغير الوقت في التوسط للإفراج عنهم - فمصير المعتقلين قد تقرر، وسيكون كذلك مصير إمبرت وأمياما إذا ما اعتُقلا -، وهو أمر لم يكن متأكداً فوق ذلك مما إذا كان مفيداً لمخططاته. لقد كانت الأزمنة تتغير فعلاً. وكانت مشاعر الحشود متقلبة. فالشعب الدومينيكاني التروخييوي حتى الموت في 30 آيار 1961، كان مستعداً لانتزاع عيون وقلوب خوان توماس دياث، وأنطونيو دي لاماثا، وإستريّا سعد الله، ولويس أمياما، وهواسكار تيخيدا، وبيدرو ليفيو ثيدينيو، وفيفي باستوريثا، وأنطونيو إمبرت وشركائهم لو أنهم وضعوا في متناول يده. ولكن الاندماج الصوفي بالزعيم الذي عاشه الدومينيكانيون طوال إحدى وثلاثين سنة، ما لبث أن انخسف. فالاجتماعات السياسية في الشوارع التي كان يدعو إليها الطلاب، والاتحاد التمدني، وحركة 14 حزيران، كانت في البدء هزيلة، تضم حفنة من المذعورين، راحت تتضاعف بعد شهر، بعد شهرين، بعد ثلاثة شهور. ليس فقط في مدينة سانتو دومنغو (كان لدى الرئيس بالاغير اقتراح جاهز بإعادة الاسم السابق لمدينة تروخييو، وسيتولى السيناتور تشيرنيوس تأمين نجاحه في مجلس الشيوخ في الوقت المناسب)، حيث يملأ المجتمعون أحياناً حديقة الاستقلال؛ وإنما كذلك في سنتياغو، ولارومانا، وسان فرانثيسكو دي ماكوريس وغيرها من المدن. كان الخوف يتلاشى ويتزايد الرفض لتروخييو. وكانت حاسة شم الدكتور بالاغير الحادة تقول له إن هذه المشاعر الجديدة ستتعاظم بصورة لا تُقاوم. وفي أجواء شعبية معادية للتروخييوية، سيتحول قتلة تروخييو إلى شخصيات سياسية قوية. ومن الذي يناسبه ذلك؟ ولهذا أحبط محاولة خجولة للقذارة الحية، عندما جاء ليستشيره باعتباره الزعيم البرلماني لكتلة الحركة «البالاغيرية» الجديدة، عما إذا كان توافق الكونغرس على العفو عن متآمري 30 أيار سيُقنع منظمة الدول الأمريكية والولايات المتحدة برفع العقوبات.

- النية جيدة أيها السيناتور. ولكن، ماذا عن النتائج؟ فالعفو سيجرح مشاعر رامفيس الذي سيسارع إلى قتل كل من يطالهم العفو فوراً. ويمكن لكل جهودنا أن تتحول إلى ماء.

- إنك تفاجئني دائماً بسرعة بديهتك - هتف السيناتور تشيرينوس، بأقل من التصفيق قليلاً.

باستثناء هذا الموضوع. أبدى رامفيس تروخييو - الذي كان يعيش مستسلماً للسكر اليومي في قاعدة سان إيسيدرو وفي بيته على شاطئ البحر في بوكا تشيكا، حيث أحضر أمه، وعشيقته الأخيرة، وهي راقصة من ليدو باريس، وترك في تلك المدينة زوجته الرسمية الحبلى، الممثلة الشابة ليتا ميلان - أبدى استعداداً طيباً، يفوق ما كان يأمله بالاغير. فقد انصاع إلى إعادة تسمية مدينة تروخييو باسمها القديم «سانتو دومنغو»، وأن تعاد تسمية المدن، والبلدات، والشوارع، والساحات، والتضاريس الجغرافية، والجسور المسماة: جنراليسمو، أو رامفيس، أو أنخيليتا، أو راداميس، أو دونيا خوليا، أو دونيا ماريا، ولم يلح على فرض عقوبات مشددة على الطلاب المخلين بالنظام والمشاغبين الذين يحطمون تماثيل تروخييو وأسرته ولوحاتهم التذكارية، وتماثيلهم النصفية، وصورهم، وملصقاتهم في الشوارع والجادات والحدائق والطرق العامة. ووافق دون مناقشة على اقتراح بالاغير بأن يتنازل «في لفتة كرم وطني» للدولة، أي للشعب، عن أراضٍ ومزارع ومؤسسات الجنراليسمو وأبنائه الزراعية. وقد فعل رامفيس ذلك في رسالة علنية. وهكذا تحولت الدولة إلى مالكة أربعين بالمئة من مجمل الأراضي الزراعية، مما حولها، بعد كوبا، إلى مالكة أكبر مؤسسات عامة في القارة. وكان رامفيس يهدئ اندفاع أولئك المنحطين الأوغاد، اخوة الزعيم، الذين افقدهم صوابهم الاختفاء المنهجي للزينات والرموز التروخييوية.

وفي إحدى الليالي، بعد أن تناول بالاغير مع أخواته العشاء اليومي المتقشف، مرق دجاج، ورز أبيض، وسلطة، وحلوى حليب، ونهض واقفاً لكي يذهب للنوم، وقع مغمياً عليه. فقد الوعي لثوان قصيرة فقط، ولكن الدكتور فيلكس غويكو حذره: إذا ما واصلت العمل بهذه الوتيرة، فإن قلبك أو دماغك سينفجر مثل رمانة يدوية قبل انتهاء السنة. عليه أن يستريح أكثر - منذ موت تروخييو لم يعد ينام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات ،- وأن يمارس التمارين، وأن يسترخي في عطلة نهاية الأسبوع. أجبر نفسه على البقاء خمس ساعات في الفراش كل ليلة،

وصار يمشي بعد تناول الطعام، مع أنه لم يفعل ذلك في جادة جورج واشنطن، حتى لا يكون ثمة ترابط ملزم؛ بل كان يذهب إلى حديقة رامفيس السابقة التي أعيد تعميدها باسم حديقة أوخينيو ماريا دي هوستوس. وفي أيام الآحاد، بعد القداس، ومن أجل الاسترخاء الروحي كان يقرأ خلال ساعتين تقريباً أشعاراً رومنسية وحداثية، أو أشعار كلاسيكيي الأدب القشتالي في العصر الذهبي. وفي بعض الأحيان يشتمه أحد الغاضبين في الشارع - «بالاغير، دمية من ورق» - ولكن الناس في معظم الأحيان كانوا يلوحون له: «مرحباً أيها الرئيس». فيشكرهم باحتفاليه، رافعاً قبعته التي اعتاد أن يعتمرها غاطسة حتى أذنيه كيلا تختطفها الريح منه.

عندما أعلن في 2 تشرين الثاني 1961 في الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك، أنه «تولد في جمهورية الدومينيكان ديمقراطية حقيقية ووضع جديد»، واعترف أمام ما يقرب من مئة مندوب بأن دكتاتورية تروخييو كانت خطأ تاريخياً، وانتهاكاً فظاً للحريات والحقوق. وطلب من الأمم الحرة أن تساعده في إعادة القانون والحرية إلى الدومينيكانيين. تلقى بعد أيام قليلة رسالة مريرة من دونيا ماريا مارتينث، مرسلة من باريس. وفيها تشكو السيدة المهيبة من أن الرئيس قد رسم لوحة «ظالمة» لعهد تروخييو، دون أن يتذكر «كل الأشياء الجيدة التي حققها زوجي أيضاً، والتي طالما امتدحتها أنت نفسك على امتداد إحدى وثلاثين سنة». ولكن لم تكن ماريا مارتينث هي التي تثير قلق الرئيس، وإنما أخوة تروخييو. علمَ أن بيتان ونيغرو قد التقيا في اجتماع عاصف مع رامفيس، حيث استجوباه: هل ستسمح لهذا الصعلوك بالذهاب إلى الأمم المتحدة ليسخر من أبيك؟ لقد حان الوقت لإخراجه من القصر الوطني وإعادة أسرة تروخييو من جديد إلى السلطة، مثلما يطالب الشعب! فتعلل رامفيس بأن قيام الانقلاب سيجعل غزو المارينز أمراً محتماً: لقد حذره من ذلك جون كالفين هيل شخصياً. والإمكانية الوحيدة للحفاظ على شيء ما هي في تراص الصفوف وراء هذه الشرعية الهشة: فالرئيس بالاغير يناور بمكر لكي يتوصل إلى جعل منظمة الدول الأمريكية ووزارة الخارجية الأمريكية ترفع العقوبات. ولهذا يجد نفسه مضطراً إلى إلقاء خطابات مناقضة لقناعاته مثل الخطاب الذي ألقاه في الأمم المتحدة.

ومع ذلك، وخلال اجتماعه مع الرئيس بعد قليل من عودته من نيويورك، بدا ابن تروخييو أقل تسامحاً بكثير. وبلغ عداؤه حداً بدت معه القطيعة حتمية.

- هل ستواصل مهاجمة بابا مثلما فعلتَ في الجمعية العمومية؟ - كان رامفيس يجلس على المقعد الذي شغله الزعيم في مقابلتهما الأخيرة قبل ساعات من مصرعه، وكان يتكلم دون أن ينظر إليه، وبصره مسلط على البحر.

- لا يوجد أمامي مخرج آخر أيها الجنرال. - أكد الرئيس محزوناً - إذا ما أردتُ جعلهم يصدقون بأن كل شيء آخذ بالتبدل، وأن هذه البلاد تنفتح على الديمقراطية، فلا بد لي من تقديم نقد ذاتي للماضي. إنه أمر مؤلم بالنسبة إليك، أعرف ذلك. ولكنه ليس أقل إيلاماً بالنسبة إليّ. فالسياسة تتطلب تحمل الآلام أحياناً.

لم يجب رامفيس خلال بعض الوقت. أهو سكران؟ مخدر؟ أتقترب إحدى نوباته تلك التي تضعه على حدود الجنون؟ لقد كان يبدي تلك التكشيرة الغريبة، بدوائر كبيرة زرقاء تحيط بعينيه المتوقدتين والقلقتين.

- لقد أوضحتُ لك الأمر. - أضاف بالاغير - وقد التزمتُ بصرامة بما اتفقنا عليه. أنت وافقت على مشروعي. ومع ذلك، ما يزال قائماً ما قلته لك في ذلك الحين. فإذا كنتَ تفضل أن تمسك بالأعنة، فلن تحتاج إلى إخراج الدبابات من سان إيسيدرو. سأقدم لك استقالتي الآن حالاً.

نظر إليه رامفيس مطولاً باشمئزاز، وغمغم دون حماسة:

- الجميع يطلبون مني ذلك. أعمامي، قادة المناطق. العسكريون، أبناء عمومتي، أصدقاء بابا. ولكنني لا أريد أن أجلس هناك حيث أنت. فأنا لا تروقني هذه المهمة يا دكتور بالاغير. لماذا؟ ألأنهم سيدفعون لي مثلما يدفعون لك؟

- إذا كنت لا تريد السلطة أيها الجنرال، فساعدني إذن على ممارستها.

- أكثر من هذا؟ - ردّ رامفيس ساخراً - لولاي لكان أعمامي قد أخرجوك من هنا بالرصاص منذ زمن.

- هذا غير كافٍ - أجابه بالاغير - أنت ترى الهياج في الشوارع. واجتماعات الاتحاد التمدني وحركة 14 حزيران تصبح أشد عنفاً كل يوم. والأوضاع ستسوء أكثر إذا ما تفوقنا عليهم.

رجعت الألوان إلى وجه ابن الجنراليسمو. كان ينتظر برأسه المندفع إلى الأمام، وكأنه يتساءل عما إذا كان الرئيس سيتجرأ على أن يطلب منه ما يرتاب بأنه سيطلبه.

- أعمامك يجب أن يغادروا. - قال الدكتور بالاغير بنعومة - فما داموا هنا

لن يصدق المجتمع الدولي ولا الرأي العام صحة التغيير. وأنت وحدك القادر على إقناعهم.

هل سيشتمه؟ نظر إليه رامفيس بذهول، كما لو أنه لا يصدق ما سمعه. وكان هناك صمت طويل آخر.

– ألن تطلب مني أن أغادر أنا أيضاً هذه البلاد التي صنعها أبي، لكي يتقبل الناس بلاهة الأزمنة الجديدة؟

انتظر بالاغير بضع ثوانٍ.

– بلى، أنت أيضاً. – همس كما لو أن روحه معلقة بخيط – أنت أيضاً. ولكن ليس الآن. بعد أن تجعل أعمامك يغادرون. وبعد أن تساعدني في تعزيز الحكومة، وفي إفهام القوات المسلحة بأن تروخييو لم يعد هنا. وهذا ليس جديداً على حضرتك أيها الجنرال، فأنت تعرف ذلك منذ البداية. تعرف بأن الأفضل بالنسبة لك، ولأسرتك، ولأصدقائك هو أن يتقدم هذا المشروع قدماً. لأن صعود الاتحاد التمدني أو حركة 14 حزيران إلى السلطة سيكون أسوأ.

لم يسحب مسدسه، لم يبصق عليه. وامتقع وجهه من جديد، وعاد يتلوى في تكشيرات مختل. أشعل سيجارة وأطلق عدة أنفاس، وراح يتأمل تحلل الدخان الذي يطلقه. ثم غمغم:

– كنتُ سأغادر منذ زمن بلاد الحمقى والجاهلين هذه. ولو أنني عثرتُ على أمياما وإمبرت، لما كنتُ هنا الآن. إنهما الوحيدان المتبقيان. عندما أُنجز الوعد الذي قطعته على نفسي لبابا، سأغادر.

أخبره الرئيس بأنه سمح بعودة خوان بوش ورفاقه في الحزب الثوري الدومينيكاني من المنفى. وبدا له أن الجنرال لم يسمع شروحاته عن أن بوش والحزب الثوري الدومينيكاني سينهمكان في صراع قاس ضد الاتحاد التمدني وحركة 14 حزيران من أجل قيادة القوى المناهضة للتروخييوية. وسيقدمون بهذه الطريقة خدمة كبيرة إلى الحكومة. لأن الخطرين الحقيقيين هم السادة في الاتحاد التمدني الوطني، حيث يوجد أناس أثرياء ومحافظون ولهم تأثير في الولايات المتحدة، مثل سيفيرو كابرال؛ وهذا أمر يعرفه خوان بوش الذي سيفعل كل ما هو مناسب – وربما كل ما هو غير مناسب – ليكبح وصول مثل هذا المنافس القوي إلى الحكومة.

لقد بقي في سجن لافكتوريا حوالي مئتي متواطئ، حقيقي أو مزعوم، في

المؤامرة، وسيكون من المناسب إصدار عفو عن هؤلاء الناس عندما يغادر آل تروخييو. ولكن بالاغير كان يعرف أن ابن تروخييو لن يسمح أبداً بالإفراج عمن نفذوا عملية قتل أبيه أحياءً. سيكون شرساً معهم، مثلما كان مع الجنرال رومان الذي عذبه طوال أربعة أشهر قبل أن يعلن بأنه انتحر نادماً على خيانته (ولم يُعثر قط على الجثة)، ومثلما هو مع موديستو دياث الذي، إذا كان ما يزال حياً، فلا بد أنه يواصل تعذيبه. المشكلة هي أن المعتقلين - المعارضة تسميهم منفذي حكم الإعدام - يشوهون الوجه الجديد الذي يريده للنظام. فطوال الوقت تأتي بعثات، ووفود، وسياسيون، وصحفيون أجانب للاهتمام بهم، ويتوجب على الرئيس أن يقوم ببهلوانيات ليفسر عدم محاكمتهم حتى الآن، ويقسم بأن حيواتهم ستصان. وأن المحاكمة، وهذا جميل جداً، سيحضرها مراقبون دوليون. لماذا لم يقض عليهم رامفيس حتى الآن مثلما فعل بكل أخوة أنطونيو دي لاماثا تقريباً - ماريو، وبوليفار، وارنستو، وبيرولو، وكثير من الأقارب والأعمام وأبناء العمومة الذين قُتلوا بالرصاص أو بالضرب في يوم اعتقالهم بالذات - بدلاً من إبقائهم في محبس المحكومين بالإعدام، وتأجيج المعارضين؟ كان بالاغير يعرف أن دماء من نفذوا حكم الإعدام بتروخييو سوف تُلطخه: وكانت تلك القضية هي الثور الذي ما زال عليه أن يصارعه.

بعد أيام قليلة من تلك المحادثة، حملت إليه مكالمة هاتفية قصيرة مع رامفيس أخباراً رائعة: لقد أقنع عميه بيتان ونيغرو. وهما سيغادران البلاد في إجازة طويلة. في يوم 25 تشرين الأول طار هيكتور بينبنيدو مع زوجته الأمريكية إلى جامايكا. وأبحر بيتان في الفرقاطة «**الرئيس تروخييو**» في رحلة بحرية مزعومة عبر الكاريبي. واعترف القنصل الأمريكي جون كالفين هيل للرئيس بالاغير بأن إمكانية رفع العقوبات أخذت تتزايد الآن.

- عسى ألا يتأخر ذلك كثيراً أيها السيد القنصل. - استعجله الرئيس - فالجمهورية تختنق أكثر فأكثر كل يوم.

كانت المؤسسات الصناعية شبه مشلولة بسبب الاضطرابات السياسية ومحدودية القدرة على استيراد المواد؛ والمتاجر خاوية بفعل تردي المداخيل. وكان رامفيس يبيع بأبخس الأسعار الشركات غير المسجلة باسم آل تروخييو والأسهم التي تُدفع لحاملها، وكان على المصرف المركزي أن يحوّل تلك المبالغ إلى مصارف في كندا وأوربا بعد تحويلها إلى عملة صعبة بسعر الصرف الرسمي غير

الواقعي، أي بدولار مقابل كل بيزو. ولكن الأسرة لم تحوّل إلى الخارج مبالغ كبيرة جداً مثلما كان يخشى الرئيس بالاغير: فدونيا ماريا حوّلت اثني عشر مليون دولار، وأنخيليتا ثلاثة عشر مليوناً، ورادامیس سبعة عشر. وحوّل رامفيس حتى الآن اثنين وعشرين مليوناً، أي ما مجموعه أربعة وستين مليون دولار. كان يمكن للأمور أن تكون أسوأ. ولكن الاحتياطيات ستنضب خلال وقت قصير، ولن يكون بالإمكان دفع رواتب الجنود والمعلمين والموظفين الحكوميين.

في 15 تشرين الثاني اتصل به وزير الداخلية مذعوراً: فالجنرالان بيتان وهيكتور تروخييو قد رجعا إلى البلاد في وقت غير موات. وتوسل إليه أن يطلب اللجوء، ففي أي لحظة يمكن للإنقلاب العسكري أن يقع. معظم الجيش يؤيدهما. حدد بالاغير موعداً مستعجلاً مع القنصل كالفين هيل. شرح له الموقف. فما لم يمنع رامفيس ذلك، فإن حاميات كثيرة ستدعم بيتان ونيغرو في محاولتهما الانقلابية. وستقع حرب أهلية غير معروفة النتائج ومجازر شاملة ضد المناهضين للتروخييوية. وكان القنصل على علم بكل شيء. وأطلعه بدوره على أن الرئيس كيندي شخصياً، أمر للتو بإرسال أسطول حربي. وأنه تتوجه الآن نحو الشواطئ الدومينيكانية، قادمة من بويرتو ريكو، حاملة الطائرات **فاللي فورغ** والطراد ليتل روك، وسفينة قيادة الأسطول الثاني، والمدمرات **هيمان وبريستول وبيتي**. وسيتم إنزال حوالي ألفي جندي من المارينز إذا ما وقع انقلاب.

وفي مكالمة هاتفية مقتضبة مع رامفيس – وكان يحاول الاتصال به طوال أربع ساعات قبل أن يتوصل إلى ذلك – أطلعه هذا الأخير على خبر مشؤوم. فقد وقع جدال عنيف بينه وبين عميه. فهما لن يغادرا البلاد. وقد حذرهما رامفيس بأنه سيغادر هو نفسه البلاد إذن.

– ما الذي سيحدث الآن أيها الجنرال؟

– ما سيحدث هو أنك ستبقى وحيداً في قفص الوحوش أيها السيد الرئيس.

– وضحك رامفيس – أتمنى لك حظاً طيباً.

أغمض الدكتور بالاغير عينيه. فالساعات، والأيام التالية ستكون حاسمة. ما الذي يفكر بعمله ابن تروخييو؟ هل سيغادر؟ أم سيطلق رصاصة على نفسه؟ سيذهب إلى باريس، لينضم إلى زوجته، وأمه، وأخويه. ليعزي نفسه بمباريات البولو والنساء في البيت الجميل الذي اشتراه في «نويي». كان قد أخرج كل الأموال التي يمكنه إخراجها؛ وسيترك بعض الأملاك غير المنقولة التي سيتم

الحجز عليها عاجلاً أو آجلاً. هذا ليس مشكلة في نهاية المطاف. فالمشكلة هي في الوحشين غير العقلانيين. إذ سرعان ما سيبدأ أخوا الزعيم بإطلاق الرصاص، وهو الشيء الوحيد الذي يتقناه بمهارة. وفي كل قوائم الأعداء التي أعدها بيتان للذين يجب تصفيتهم، يُرد اسم بالاغير في المقدمة، كما تقول الاشاعات المتداولة. فكان لا بد له، مثلما يقول مثل شعبي يحب الاستشهاد به: «خوض هذا النهر بتمهل وعلى الأحجار». لم يكن خائفاً، وإنما كان حزيناً فقط من أن تتعرض الصياغة المتقنة التي بدأها إلى الفساد بسبب رصاصة يطلقها عليه قاتل.

في فجر اليوم التالي أيقظه وزير الداخلية ليخبره بأن جماعة من العسكريين قد أخرجت جثة تروخييو من مدفنها في كنيسة سان كريستوبال. ونقلتها إلى بوكا تشيكا، حيث يرسو اليخت أنخيليتا قبالة المرفأ الخاص بالجنرال رامفيس.

- أنا لم أسمع شيئاً أيها السيد الوزير. - قاطعه بالاغير - وأنت لم تقل لي أي شيء كذلك. أنصحك بأن تستريح بضع ساعات. فأمامنا يوم طويل جداً.

وعلى عكس ما نصح به الوزير، لم يستسلم هو للراحة. فرامفيس لن يغادر البلاد قبل أن يصفي قتلة أبيه، ويمكن لعملية قتلهم أن تؤدي إلى انهيار جهوده الدؤوبة التي بذلها خلال تلك الشهور لإقناع العالم بأن وجوده في الرئاسة بدأ يحوّل الجمهورية إلى الديمقراطية، دون وقوع حرب أهلية أو الفوضى التي تخشى وقوعها الولايات المتحدة والطبقات الدومينيكانية السائدة. ولكن، ما الذي يمكنه عمله؟ فأي أمر منه بشأن المعتقلين يتناقض مع أوامر رامفيس، لن يُطاع، وسيكشف انعدام سلطته المطلق على القوات المسلحة.

ومع ذلك، وباستثناء الاشاعات المتكاثرة، بصورة غامضة، حول تمردات مسلحة وشيكة ومجازر للمدنيين، لم يحدث في يوم 16 ولا في يوم 17 تشرين الثاني أي شيء. وواصل هو تصريف الأعمال العادية، كما لو أن البلاد تتمتع بالهدوء التام. وعند غروب يوم السابع عشر، أُخبر بأن رامفيس قد أخلى بيته على الشاطئ. وأنه شوهد بعد ذلك بقليل وهو ينزل من سيارة ويطلق شتيمة ورمانة يدوية - لم تنفجر - على واجهة فندق السفير. ومنذ ذلك الحين لم يعد يُعرف مكان وجوده. وفي صباح اليوم التالي، طالب وفد من الاتحاد التمدني الوطني برئاسة أنخل سيفيرو كابرال، بأن يوافق رئيس الجمهورية على استقباله فوراً: إنها مسألة حياة أو موت. استقبل الوفد، وكان سيفيرو كابرال متوتراً جداً.

يلوح بورقة مخربشة بخط هواسكار تيخيدا وموجهة إلى زوجته ليندين، مهربة من سجن لافكتوريا، وتكشف لها بأن المتهمين الستة بقتل تروخييو (بمن فيهم موديستو دياث وتوني كاثيريس) قد فُصلوا عن بقية السجناء السياسيين لنقلهم إلى سجن آخر. وتنتهي الرسالة بالقول: «سيقتلوننا يا حبيبتي». وطالب زعيم الاتحاد التمدني بوضع المعتقلين بين يدي السلطة القضائية أو إطلاق سراحهم بمرسوم رئاسي. وكانت زوجات المعتقلين يتظاهرن عند أبواب القصر مع محاميهم. وقد جرى تنبيه الصحافة الدولية، وكذلك وزارة الخارجية الأمريكية والسفارات الغربية.

أكد لهم الدكتور بالاغير المذعور بأنه سيتدخل في القضية شخصياً. وأنه لن يسمح بوقوع جريمة. وأن الهدف من نقل المتواطئين الستة، حسب تقاريره، هو تسريع التحقيق القضائي. وأن المسألة هي مجرد إجراء روتيني صرف لإعادة تمثيل الجريمة، وبعد ذلك ستبدأ المحاكمة دون تأخير. وبحضور مراقبين من محكمة العدل الدولية في لاهاي بالطبع، وسيتولى هو نفسه دعوة أولئك المراقبين إلى البلاد.

ما إن غادر قادة الاتحاد التمدني، حتى سارع إلى الاتصال بمدعي عام الجمهورية، الدكتور خوسيه مانويل ماتشادو: هل يعرف سبب إصدار قائد الشرطة الوطنية، ماركوس آ. خورخي مورينو، الأمر بنقل إستريّا سعد الله، وهواسكار تيخيدا، وفيفي باستوريثا، وبيدرو ليفيو ثيدينيو، وتونتي كاثيريس، وموديستو دياث إلى زنازين الحجز في قصر العدل؟ لم يكن مدعي عام الجمهورية يعرف شيئاً عن ذلك. وجاء ردّ فعله ساخطاً: فهناك من يستخدم اسم السلطة القضائية بصورة غير قانونية، وليس هناك أي قاضٍ أمر بإعادة تمثيل جديد للجريمة. وأبدى الرئيس قلقاً شديداً وهو يؤكد بأنه لا يمكن التسامح في ذلك. وبأنه سيأمر وزير العدل فوراً بأن يحقق بعمق. ويحدد المسؤوليات، ويجرم المسؤول أياً كان. ولكي يترك دليلاً مكتوباً عما يفعله، أملى على سكرتيره نص مذكرة، وأمر بنقلها فوراً إلى وزارة العدل. ثم اتصل بعد ذلك هاتفياً بالوزير. فوجده مشوشاً:

– لا أدري ماذا أفعل أيها السيد الرئيس. نساء المعتقلين أمام بابي. وأتلقى ضغوطاً من كل الجهات لكي أقدم معلومات، وأنا لا أعرف شيئاً. هل تعرف حضرتك لماذا جرى نقلهم إلى زنازين السلطة القضائية؟ ليس هناك من هو قادر

على تفسير ذلك لي. إنهم يأخذونهم الآن إلى الطريق العام، من أجل إعادة تمثيل جديد للجريمة لم يأمر أحد بإجرائها. لا سبيل إلى الاقتراب من المكان، فهناك جنود من قاعدة سان إيسيدرو يطوقون المنطقة. ماذا أفعل؟

- اذهب بنفسك واطلب تفسيراً لما يجري - وجّهه الرئيس - لا بد من وجود شهود على أن الحكومة قد بذلت كل ما تستطيعه من أجل الحيلولة دون خرق القانون. وخذ معك ممثلي الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى.

اتصل الدكتور بالاغير شخصياً بجون كالفين هيل، ورجاه أن يدعم مسعى وزير العدل. وأخبره في الوقت نفسه بأنه إذا كان الجنرال رامفيس يستعد كما يبدو لمغادرة البلاد، فإن الأخوان تروخييو سينتقلان إلى العمل.

واصلَ تصريف الأعمال، مستغرقاً ظاهرياً بالوضع المالي الحرج. لم يتحرك من المكتب في موعد الغداء، وبينما هو يعمل مع وزير المالية وحاكم المصرف المركزي، رفض تلقي أية اتصالات هاتفية أو زيارات. وعند الغروب قدم له سكرتيره ملاحظة من وزير العدل يخبره فيها بأن جنوداً مسلحين من سلاح الطيران منعوه هو والقنصل الأمريكي من الاقتراب من موقع إعادة تمثيل الجريمة. ويؤكد بأن أحداً في الوزارة أو النيابة العامة أو المحاكم لم يطلب ذلك الإجراء أو يعلم به، وأنه قرار عسكري صرف. ولدى وصوله إلى بيته في الساعة الثامنة والنصف ليلاً، تلقى مكالمة من ماركوس آ. خورخي مورينو الذي يشغل الآن منصب قائد الشرطة. فالشاحنة وفيها ثلاثة حراس مسلحون، قد اختفت وهي في طريقها إلى سجن لافكتوريا، بعد إنهاء الإجراء القضائي على الطريق العام.

- لا تدخر جهداً في العثور عليهم أيها الكولونيل. عبئ كل القوات التي تحتاجها. - أمره الرئيس - واتصل بي في اي وقت.

وقال لشقيقاته القلقات من الاشاعات القائلة بأن آل تروخييو قد اغتالوا مساء اليوم من قتلوا الجنراليسمو، إنه لم يعلم شيئاً. ربما هي اختلاقات من المتطرفين لمفاقمة أجواء الهياج وانعدام الأمن. بينما هو يهدئهن بأكاذيب وتكهنات: رامفيس سيغادر البلاد هذه الليلة، إذا لم يكن قد غادرها فعلاً. والمواجهة مع الاخوين تروخييو ستجري عند الفجر إذن. هل سيأمران بإلقاء القبض عليه؟ هل سيقتلانه؟ فعقلاهما الصغيران قادران على جعلهما يعتقدان أنهما سيتمكنان بقتله من وقف آلية تاريخية لن تلبث أن تكنسهما بعد قليل من السياسة الدومينيكانية. ولم يكن يشعر بالقلق، وإنما بالفضول وحسب.

وبينما هو يرتدي البيجاما، اتصل الكولونيل خورخي مورينو مرة أخرى. لقد تم العثور على الشاحنة: السجناء الستة هربوا بعد أن قتلوا الحراس الثلاثة.

- اقلب الأرض والسماء حتى تجد الهاربين. - رتل دون أن يتبدل صوته - أنت مسؤول أمامي عن حياة هؤلاء السجناء أيها الكولونيل. يجب أن يمثلوا أمام محكمة، وأن يحاكموا وفق القانون على هذه الجريمة الجديدة.

وقبل أن ينام، أحس بانقباض بشعور من الشفقة. ليس على السجناء الذين جرى اغتيالهم هذا المساء دون شك على يد رامفيس شخصياً، وإنما على الجنود الثلاثة الذين أمر ابن تروخييو بقتلهم كذلك لكي يضفي مظهر الحقيقة على مسرحية الهروب. ثلاثة حراس مساكين جرت تصفيتهم ببرود أعصاب لإضفاء مسحة الحقيقة على مهزلة لن يصدقها أحد مطلقاً. يا للدموية العبثية!

في اليوم التالي، وبينما هو في الطريق إلى القصر. قرأ في الصفحات الداخلية من جريدة الكاريبي عن هروب «قتلة تروخييو، بعد أن أجهزوا بغدر على ثلاثة حراس كانوا يعيدونهم إلى سجن لافكتوريا». ومع ذلك، فإن الفضيحة التي خشي منها لم تقع؛ إذ حجبتها أحداث أخرى. ففي العاشرة صباحاً، فتحت ركلة باب مكتبه. ودخل الجنرال بيتان تروخييو حاملاً بندقية رشاشة في يده وعنقوداً من الرمانات اليدوية والمسدسات في حزامه، يتبعه أخوه هيكتور، وهو بزي جنرال أيضاً، وسبعة وعشرون رجلاً مسلحون من حرسه الشخصي، وقد بدت له وجوههم مخمورة، فضلاً عن كونها دنيئة. الاستياء الذي أثارته فيه هذه الشرذمة غير المتحضرة كان أكبر من الخوف.

- لا يمكنني دعوتكم إلى الجلوس، فليس لدي مثل هذا العدد من المقاعد، إنني آسف. - اعتذر الرئيس الضئيل وهو ينهض. كان يبدو مطمئناً ووجهه المستدير يبتسم بتمدن.

- لقد حانت ساعة الحقيقة يا بالاغير. - زمجر البهيمة بيتان وهو يقذف اللعاب. وكان يداعب بندقيته الرشاشة مهدداً، ومر بها على وجه الرئيس. ولكن هذا لم يتراجع - كفى نذالات ونفاقاً! مثلما قضى رامفيس أمس على أبناء العاهرة أولئك، سنقضي نحن اليوم على من بقي منهم طليقين. وسنبدأ بنسل يهوذا، أيها القزم الخائن.

لقد كان التافه الفظ مخموراً بعض الشيء أيضاً. ووارى بالاغير سخطه واحتجازه بسيطرة كاملة على نفسه. وأشار إلى النافذة بهدوء:

- أرجوك أن ترافقني أيها الجنرال بيتان. - ثم توجه بعد ذلك إلى هيكتور - وحضرتك أيضاً، أرجوك.

تقدمهما، وأمام النافذة الكبيرة أشار نحو البحر. كان صباحاً مشرقاً. وقبالة الشاطئ كانت تظهر بوضوح، لامعة، هياكل ثلاث سفن حربية أمريكية. لم يكن بالإمكان قراءة أسمائها، ولكن كان ممكناً بالمقابل تقدير طول مدافع الطراد **ليتل روك** المزود بصواريخ، وحاملتي الطائرات **فاللي فورغ** و**فرانكلين د. روزفلت**، الموجهة نحو المدينة.

- إنهم ينتظرون أن تستوليا على السلطة لكي يبدؤوا القصف المدفعي. - قال الرئيس بتمهل شديد - ينتظرون أن تقدما لهم الذريعة، لكي يحتلونا مرة أخرى. أتريدان دخول التاريخ باعتباركما الدومينيكانيين اللذين تسببا بوقوع احتلال أمريكي ثان للجمهورية؟ إذا كنتما تريدان ذلك، فأطلقا النار واجعلا مني بطلاً. ولكن من سيخلفني لن يستطيع الجلوس على هذا الكرسي ساعة واحدة.

وبما أنهما سمحا له بقول كل هذه العبارة الطويلة، فقد قال لنفسه إنه من غير المحتمل أن يقتلاه. تهامس بيتان ونيغرو، وكانا يتكلمان في الوقت نفسه دون أن يتفاهما. وكان القتلة والحراس الشخصيون يتبادلون النظرات مشوشين. وأخيراً أمر بيتان رجاله بالخروج. وعندما وجد نفسه وحيداً في المكتب مع الأخوين، استنتج أنه قد كسب الجولة. جاءا للجلوس مقابله. يا للشيطانين البائسين! كم يبدو عليهما الاضطراب! إنهما لا يعرفان من أين يبدأان. يجب تسهيل المهمة عليهما.

- البلاد تنتظر منكما أمراً تقدمان عليه - قال لهما بلطف - أن تتصرفا بشهامة ووطنية الجنرال رامفيس. لقد غادر ابن أخيكما البلاد لكي يسهل إحلال السلام.

فقاطعه بيتان باستياء ومباشرة:

- من السهل أن يكون المرء وطنياً عندما يملك في الخارج ملايين رامفيس وأملاكه. أما أنا ونيغرو فلا نملك في الخارج بيوتاً ولا أسهماً، ولا حسابات مصرفية جارية. فكل ثروتنا هنا، في البلاد. لقد كنا الأحمقين الوحيدين اللذين أطاعا الزعيم حين منع إخراج الأموال إلى الخارج. هل هذا عدل؟ لسنا غبيين أيها السيد بالاغير. فكل الأراضي والثروات التي نملكها هنا سوف تُصادر.

هز رأسه موافقاً براحة. وقال لهما مطمئناً:

- هذه مسالة يمكن علاجها أيها السادة. يا للأمر السهل! فالجميل الذي تطلبه البلاد منكما يجب أن يُقابل بجميل مماثل.

منذ تلك اللحظة، صار كل شيء يتلخص في مفاوضة مالية مملة، أكدت للرئيس صحة إزدرائه للناس الجشعين إلى المال. وهو شيء لم يطمع به قط. ووافق أخيراً على مبالغ بدت له معقولة، بالنظر إلى السلام والأمن اللذين ستكسبهما الجمهورية مقابل ذلك. أصدر أمراً إلى المصرف المركزي بتسليم مليوني دولار لكل واحد من الأخوين، وأن يُستبدل بالعملة الصعبة مبلغ الأحد عشر مليون بيزو الذي يملكانه، جزء منه في علب أحذية، والجزء الآخر في بنوك العاصمة. ولكي يتأكدا من أن الاتفاق سيُحترم، طالب بيتان وهيكتور بأن يصادق عليه القنصل الأمريكي. وقد حضر كالفين هيل فوراً، وكان سعيداً بتسوية الأمور بالنوايا الطيبة ودون إراقة دماء. وهنأ الرئيس قائلاً: «في الأزمات يُعرف رجل الدولة الحقيقي». وأخفض الدكتور بالاغير عينيه بتواضع، وقال في نفسه إن مغادرة آل تروخييو ستؤدي إلى انفجار الحماسة والسعادة - وبعض الفوضى كذلك - ولن يتذكر إلا قلة من الناس مقتل السجناء الستة، والذين يشك بأن يتم العثور على جثثهم. ولهذا لن يسبب له ذلك الحدث ضرراً كبيراً.

وفي مجلس الوزراء، طالب باتفاق الحكومة بالإجماع على إصدار عفو سياسي عام، يبيض السجون ويُلغي كل المحاكمات بتهمة التمرد، وأمر بحل الحزب الدومينيكاني. نهض الوزراء واقفين وصفقوا له. وعندئذ، وبوجنتين محمرتين بشيء من الخجل، أعلمه وزير الصحة الدكتور تاباريه ألفاريث بيريرا، بأنه يخبي منذ ستة شهور في بيته - ومعظم الوقت محبوساً في خزانة ضيقة، ما بين أرواب وبيجامات - الهارب لويس أمياما تيو.

أطرى الدكتور بالاغير على روحه الإنسانية وطلب منه أن يأتي بنفسه إلى القصر الوطني برفقة الدكتور أمياما، لأنه هو والسيد أنطونيو إمبرت الذي سيظهر الآن دون شك بين لحظة وأخرى، سيُستقبلان من قبل رئيس الجمهورية شخصياً مع كل الاحترام والامتنان الذي تستحقه خدماتهما المقدمة للوطن.

الفصل الثالث والعشرون

حين غادر آماديتو، بقي أنطونيو إمبرت لبعض الوقت في بيت ابن عمه الدكتور مانويل دوران باريراس. لم يعد ثمة أمل بأن يتمكن خوان توماس دياث وأنطونيو دي لاماثا من العثور على الجنرال رومان. ربما تكون الخطة السياسية العسكرية قد اكتشفت وقُتل بوبو أو سُجن؛ وربما يكون قد جَبُنَ وتراجع. لم يبق أمام أنطونيو سبيل آخر سوى الاختباء. بحث مع ابن عمه مانويل عن المخابئ المحتملة، قبل أن يقع الخيار على قريبة بعيدة هي الدكتورة غلاديس دي لوس سانتوس، أخت زوجة دوران. وهي تعيش قريباً من هذا البيت.

في ساعات الفجر الأولى، وكان الظلام ما يزال مخيماً، اجتاز مانويل دوران وإمبرت بخطوات سريعة مسافة كتل الأبنية الست تلك، دون أن يلتقيا بسيارات أو مشاة. تأخرت الدكتورة في فتح الباب. ثم ظهرت بالروب البيتي وكانت تفرك عينيها بغضب بينما هما يشرحان لها. لم ترتعب كثيراً. واستجابت بهدوء غريب. لقد كانت امرأة وافرة اللحم، لكنها رشيقة، ما بين الأربعين والخمسين من العمر، تبدي رباطة جأش وتنظر إلى الدنيا بلا مبالاة.

– سأهيئ لكَ مكاناً كيفما اتفق – قالت لإمبرت – ولكن بيتي ليس بالمكان الآمن، فقد أعتُقلت مرة لدى الاستخبارات العسكرية وأنا مشبوهة عندهم.

ولتتفادى أن تكتشف الخادمة وجوده، هيأت له مكاناً إلى جانب الكراج، في حجرة مؤونة دون نوافذ، حيث وضعت فرشة قابلة للطي. لقد كان مكاناً ضيقاً ودون تهوية ولم يستطع أنطونيو إغماض عينيه بقية تلك الليلة. أبقى مسدس الكولت 45 إلى جانبه، فوق رف ممتلئ بعلب الأغذية المحفوظة، واحتفظ بأذنيه متيقظتين لأي ضجة مشبوهة. كان يفكر في بعض اللحظات بأخيه سيغوندو فيقشعر بدنه: إما أنهم يعذبونه أو أنهم قد قتلوه هناك في لافكتوريا.

صاحبة البيت التي أغلقت باب الحجرة بالمفتاح، جاءت لإخراجه من حبسه في التاسعة صباحاً.

- لقد منحتُ الخادمة إجازة لتذهب إلى خاراباكوا لزيارة أسرتها - قالت له مشجعة - يمكنك أن تتجول في كل أنحاء البيت. ولكن حاذر أن يكتشف الجيران وجودك. يا لليلة التي أمضيتها في ذلك الجحر.

بينما هما يتناولان في المطبخ الفطور المؤلف من منغو وجبن مقلي وقهوة، فتحا على الأخبار. ولم تذكر أي نشرة أخبار إذاعية شيئاً عن عملية الاغتيال. بعد قليل من ذلك ذهبت الدكتورة دي لوس سانتوس إلى عملها. فاستحم إمبرت ونزل إلى الصالة حيث استلقى على أريكة، وغلبه النعاس بينما الكولت 45 على ساقيه. نهض قافزاً وأنّ عندما أيقظوه.

- لقد اعتقل المخبرون مانويل فجر اليوم، بعد قليل من مغادرتك بيته - قالت له غلاديس دي لوس سانتوس بجزع كبير - سينتزعون منه عاجلاً أو آجلاً مكان وجودك. عليك أن تذهب بأسرع ما يمكن.

أجل، ولكن إلى أين؟ كانت غلاديس قد مرت من أمام بيت آل إمبرت ورأت الشارع يغلي بالشرطة والمخبرين؛ لا شك في أنهم قد اعتقلوا زوجته وابنته. بدا له أن أيادي غير مرئية بدأت تضغط على عنقه. لم يسمح لغمه بالظهور، كيلا يفاقم من ذعر صاحبة البيت التي كانت قد تبدلت: فالعصبية تجعلها تغمض عينيها وتفتحهما طوال الوقت.

- هناك «خنافس» فيها مخبرون وشاحنات ممتلئة بالحراس في كل مكان - قالت له - إنهم يفتشون السيارات، ويطلبون أوراقاً من الجميع، ويدخلون البيوت.

لم يكونوا قد أعلنوا شيئاً بعد في التلفزيون أو الإذاعات أو الصحف، ولكن الإشاعات كانت منفلتة. الوشوشات البشرية كانت تنشر في المدينة كلها بأنه قد جرى قتل تروخييو. والناس منطوون وقلقون مما يمكن أن يحدث. بقي طوال ساعة يشحذ ذهنه: أين الذهاب؟ لا بد أولاً من الخروج من هنا. شكر الدكتورة دي لوس سانتوس على مساعدتها وخرج إلى الشارع، ويده تمسك بالمسدس المخبأ في جيب البنطال الأيمن. تجول لبعض الوقت دون وجهة محددة، إلى أن تذكر طبيب أسنانه الدكتور كاميلو سويرو الذي يعيش قريباً من المستشفى العسكري. أدخله كاميلو وزوجته ألفونسينا إلى بيتهما. لا يمكنهما تخبئته، ولكنهما ساعداه في دراسة مخابئ محتملة. وعندئذ خطرت لذهنه صورة فرانسيسكو راينيري، وهو صديق قديم. ابن أيطالي وسفير رُهبانية مالطا؛ زوجة هذا الصديق فنيسيا ِوامرأته هو - غوارينا - اعتادتا تناول الشاي ولعب

الورق معاً. ربما استطاع هذا الدبلوماسي أن يوفر له طريقة للجوء إلى إحدى الهيئات الدبلوماسية. ولتشدده في الحذر، اتصل هاتفياً بمنزل آل راينيري ثم قدم السماعة إلى ألفونسينا التي تظاهرت بأنها الآنسة غوارينا تيسون، وهو اسم زوجة إمبرت وهي عازبة. وطلبت التحدث مع كيكو الذي أخذ الجهاز فوراً وأذهلها بتحيته الحميمة:

- كيف حالك يا عزيزتي غوارينا، يسعدني أن أحييكِ. أنت تتصلين من أجل موعدنا هذه الليلة، أليس كذلك؟ لا تقلقي. سأرسل السيارة لإحضارك. في الساعة السابعة تماماً، إذا كان يناسبك. هل تذكرينني بعنوانك من فضلك؟

- إما أنه متنبئ أو أنه مجنون، أو لا أدري أي شيء - قالت صاحبة البيت حين أغلقت الهاتف.

- والآن، ماذا سنفعل حتى الساعة السابعة يا ألفونسينا؟

- سنصلي إلى شفيعتنا عذراء آلتاغراثيا. - ورسمت إشارة الصليب - إذا ما وصل المخبرون قبل ذلك، فاستخدم مسدسك وحسب.

في الساعة السابعة تماماً توقفت أمام الباب سيارة بويك زرقاء لامعه، ذات لوحة دبلوماسية. وكان فرانسيسكو راينيري نفسه يقودها. وقد انطلق بها فور جلوس أنطونيو إمبرت إلى جانبه.

- علمتُ أن الرسالة منك لأن زوجتك غوارينا وابنتك موجودتان في بيتنا. - قال له راينيري على سبيل التحية - وبما أنه لا وجود لاثنتين تدعيان غوارينا في مدينة تروخييو، فقد أدركتُ أنك يجب أن تكون أنت.

كان هادئاً جداً، بل مبتهجاً، يرتدي سترة غوايابيرا مكوية حديثاً تعبق برائحة الخزامى. حمل إمبرت إلى منزل بعيد عبر شوارع جانبية، قائماً بالتفافة واسعة، لأن هناك في الجادات الرئيسية حواجز لإيقاف السيارات وتفتيشها. لقد أُعلن رسمياً قبل أقل من ساعة عن مصرع تروخييو. وكان يخيم جو مشحون بالهواجس، كما لو أن الجميع ينتظرون انفجاراً. السفير المتأنق كعادته لم يوجه إليه سؤالاً واحداً عن اغتيال تروخييو، ولا عن رفاقه في المؤامرة. بل علق بتلقائية، كما لو أنه يتحدث عن بطولة التنس القادمة في الكنتري كلوب:

- في ظل هذه الأوضاع السائدة من المستحيل أن تمنحك أي سفارة حق اللجوء. كما أن ذلك لن يكون مفيداً. فالحكومة، إذا كانت ما تزال هناك حكومة، لن تحترم ذلك. وسيُخرجونك بالقوة أينما تكون. الشيء الوحيد المتبقي لك في

الوقت الراهن هو الاختباء. في القنصلية الإيطالية حيث يوجد لي أصدقاء كثيرون، هناك حركة موظفين وزائرين دائمة. لكنني وجدتُ الشخص المأمون تماماً. وقد فعل ذلك مرة من قبل مع يويو دي أليساندرو، عندما كان مُلاحقاً. لقد وضع شرطاً واحداً. يجب أن لا يعرف أحد بالأمر، بمن في ذلك زوجتك غوارينا. من أجل سلامتها هي نفسها قبل كل شيء.

- بالطبع - دمدم طوني إمبرت مذهولاً من هذا الرجل الذي تربطه به صداقة خفيفة، ويجازف بمبادرة منه لإنقاذ حياته. لقد كان مذهولاً من شهامة كيكو المتهورة إلى حد أنه لم يتذكر أن يشكره.

في بيت راينيري، استطاع أن يعانق زوجته وابنته. وقد احتفظوا بهدوء كبير بسبب الظروف السائدة. ولكنه عندما عانق ابنته ليسلي، أحس بجسدها الصغير يرتعش. بقي معهما ومع الزوجين راينيري حوالي ساعتين. كانت زوجته قد أحضرت له حقيبة يدوية فيها ملابس نظيفة وأدوات حلاقته. لم يذكروا تروخييو. وروت له غوارينا أنها تقصت بعض المعلومات من خلال الجارات. لقد داهم رجال شرطة بالزي الرسمي وآخرون بالملابس المدنية بيتهم عند الفجر؛ وقد أفرغوه من محتوياته، وحطموا وكسروا ما لم يحملوه معهم في شاحنتين.

وعندما حان وقت المغادرة، غمزه الدبلوماسي بعينه وهو يشير له إلى الساعة. عانق غوارينا وليسلي وقبلهما ولحق بفرانسيسكو راينيري، عبر باب الخدم، إلى الشارع. بعد ثوان من ذلك توقفت أمامهما سيارة صغيرة تضيء أنوارها المنخفضة.

- وداعاً وحظاً سعيداً - ودّعه راينيري مصافحاً - لا تقلق بشأن أسرتك. لن ينقصهما شيء.

دخل إمبرت إلى السيارة وجلس بجوار السائق. كان رجلاً شاباً، يرتدي قميصاً وربطة عنق، ولكن دون جاكيت. وقدم نفسه بإسبانية سليمة، ولكن بلكنة إيطالية:

- اسمي كافاليري وأنا موظف في السفارة الإيطالية. سنبذل أنا وزوجتي كل ما يمكننا لتكون إقامتك في شقتنا لطيفة قدر الإمكان. لا تقلق، لن يكون هناك في بيتي شهود غير متكتمين. إننا نعيش وحيدين. لا يوجد لدينا طاهية ولا خادمة. فزوجتي مغرمة بالأعمال المنزلية. وكلانا نحب الطبخ.

ضحك، وخُيل لأنطونيو إمبِرت أن اللياقة تستدعي منه أن يحاول الابتسام.

كان الزوجان يعيشان في الطابق الأخير من بناء جديد، غير بعيد عن شارع مهاتما غاندي وبيت سلفادور إستريّا سعد الله. وكانت السيدة كافاليري أكثر شباباً من زوجها - إنها فتاة نحيلة، لها عينان لوزيتان وشعر أسود - وقد استقبلته بمجاملة غير متكلفة وباسمة، كما لو أنها تستقبل صديقاً قديماً للأسرة آتياً لقضاء نهاية الأسبوع معهما. ولم تكن تبدي أدنى قدر من المخاوف لإيوائها في بيتها شخصاً مجهولاً، اغتال سيد البلاد الأعلى، ويبحث عنه بلهفة وحقد آلاف الحراس والشرطيين. وخلال ستة الشهور وثلاثة أيام التي عاشها معهما، لم يجعله أي من صاحبي البيت يشعر على الإطلاق، ولو مرة واحدة، بأن حضوره يسبب لهما أدنى قدر من الضيق، على الرغم من كونه شديد الحساسية ووضعه يجعله مهيأ لرؤية الأشباح. أيعرف هذان الزوجان أنهما يقامران بحياتيهما؟ أجل بكل تأكيد. فقد استمعا ورأيا في التلفزيون الروايات التفصيلية للهلع الذي يثيره أولئك القتلة المأفونون بين الدومينيكانيين، وكيف أن كثيرين منهم لم يكتفوا برفض منحهم المخبأ، وإنما سارعوا كذلك للوشاية بهم. ورأيا وقوع أولهم، المهندس هواسكار تيخيدا الذي طُرد بصورة مخجلة من كنيسة سانتو كورا دي آرس من قبل الكاهن المذعور الذي ألقى به إلى ذراعي الاستخبارات العسكرية. وتلت ذلك، بالتفصيل، أوديسة الجنرال خوان توماس دياث وأنطونيو دي لاماثا، وهما يجوبان شوارع مدينة تروخييو في سيارة أجرة، وكيف وشى بهما الأشخاص الذين ألتجأا إليهم طلباً للمساعدة. ورأيا كيف اقتاد المخبرون العجوز المسكينة التي منحت ملجأ لآماديتو غارثيا غيريّرو، بعد قتله، وكيف راح الرعاع ينهبون بيتها ويخفونه من الوجود. ولكن تلك المشاهد والقصص لم ترعب الزوجين كافاليري ولم تؤد إلى فتور الحميمية التي يعاملانه بها.

منذ عودة رامفيس أدرك إمبرت وصاحبا البيت أن حبسه سيكون طويل الأجل. والعناق العلني بين ابن تروخييو والجنرال خوسيه رينيه رومان كان بليغاً: لقد خانهم هذا الأخير ولن يكون ثمة تمرد عسكري. ومن عالمه الضيق في بيت الزوجين كافاليري، رأى الحشود تصطف في أرتال طويلة لساعات وساعات لكي تلقي نظرة أخيرة على تروخييو، ورأى، على شاشة التلفزيون، صورته إلى جانب صورة لويس أمياما (ولم يكن يعرفه) تحت عناوين تقدم في البداية مئة ألف، ثم مئتي ألف، وأخيراً نصف مليون بيزو لمن يُبلّغ عن مكان وجودهما. وكان كافاليري يعلق:

– أوف، لم تعد بالصفقة المهمة بعد انهيار قيمة البيزو الدومينيكاني.

وسرعان ما اندغمت حياته ضمن روتين صارم. كانت هناك غرفة صغيرة مخصصة له وحده، فيها سرير وكوميدينو، ومضاءة بمصباح. فكان ينهض باكراً ويقوم بتمرينات الضغط، والجري في المكان، وتمارين للبطن لمدة ساعة تقريباً. ثم يتناول الفطور مع صاحبي البيت. وبعد مجادلات طويلة، تمكن من جعلهما يسمحان له بمساعدتهما في التنظيف. فتحول الكنس، والمرور بالمكنسة الكهربائية، ونفض الغبار عن الأشياء والأثاث بمنفضة الريش إلى تسلية وواجب، وهي أمور كان يقوم بها بوعي، وتركيز كامل وبشيء من السعادة. ولكن سيدة البيت لم تسمح له بالمقابل بالدخول إلى المطبخ. فهي تطبخ جيداً. وخصوصاً المعجنات التي تقدمها مرتين في اليوم. وكان هو يحب المعكرونة منذ طفولته. ولكن بعد ستة شهور من الحبس، لم يعد قط إلى تناول المعكرونة المسطحة، أو العريضة، أو الرفيولي أو أي نوع آخر من أطباق المطبخ الإيطالي تلك.

وبعد الانتهاء من واجباته البيتية، كان يقرأ لساعات طويلة. لم يكن قارئاً كبيراً في يوم من الأيام؛ ولكنه اكتشف في تلك الشهور الستة متعة القراءة. فكانت الكتب والمجلات هي أفضل مقاوم لحالات القنوط التي يسببها له الحبس والروتين والقلق أحياناً.

وعندما أعلن التلفزيون بأن لجنة من منظمة الدول الأمريكية قد جاءت لمقابلة المعتقلين السياسيين، عرف بأن زوجته غوارينا موجودة في السجن منذ عدة أسابيع، مثل زوجات كل أصدقائه المشاركين في المؤامرة. كان صاحبا البيت قد أخفيا عنه حتى ذلك الحين خبر اعتقال غوارينا. ولكنهما بالمقابل، وبعد حوالي أسبوعين من ذلك، نقلا إليه ببهجة خبر إطلاق سراحها.

لم يكن يتحرك مطلقاً، حتى وهو ينفض الغبار أو يكنس أو يمر بالمكنسة الكهربائية، دون أن يكون حاملاً مسدسه الكولت 45 مشحوناً. لقد كان قراره لا رجعة فيه. فهو سيفعل ما فعله آماديتو، وخوان توماس دياث وأنطونيو دي لاماثا. لن يستسلم حياً، وسيموت وهو يقتل منهم. إنها طريقة في الموت أكثر كرامة من الخضوع للتنكيل والتعذيب الذي تصوغه عقول رامفيس وأصحابه المنحرفة.

في المساء والليل كان يقرأ الصحف التي يأتي بها صاحبا البيت ويشاهد معهما نشرات الأخبار في التلفزيون. ودون أمل كبير، تابع تلك الثنائية المشوشة

التي يبحر بها النظام: حكومة مدنية يرأسها بالاغير تقوم بحركات وتصريحات مؤكدة أن البلاد تتحول إلى الديمقراطية، وسلطة عسكرية وبوليسية يديرها رامفيس الذي ما زال يواصل الاغتيالات، والتعذيب، وإخفاء الناس دون قصاص مثلما كان الحال في زمن الزعيم. ولكنه لم يستطع على أي حال إلا الشعور بالحماس مع عودة المنفيين، وظهور بعض مطبوعات المعارضة الصغيرة - جريدتي الاتحاد التمدني وحركة 14 حزيران - والاجتماعات الطلابية ضد الحكومة التي تنشر أخبارها أحياناً وسائل الإعلام الرسمية، وإن كانت تفعل ذلك لمجرد اتهام المتظاهرين بالشيوعية.

لقد أفقده صوابه خطاب بالاغير في الأمم المتحدة، وانتقاده دكتاتورية تروخييو وإلتزامه بإشاعة الديمقراطية في البلاد. أهذا هو الرجل الضئيل نفسه الذي كان طوال إحدى وثلاثين سنة الخادم الوفي والثابت لأبي الوطن الجديد؟ وفي أحاديث ما بعد الطعام الطويلة، عندما يتناول الزوجان كافاليري العشاء في البيت -- في أيام كثيرة يتناولان العشاء خارج البيت، فتترك له السيدة كافاليري في الفرن عندئذ المعجنات التي لا بد منها - كانا يكملان له المعلومات، بالإشاعات المتداولة في هذه المدينة التي استعادت اسمها القديم «سانتو دومنغو دي غوثمان». فمع أن الجميع يخشون وقوع انقلاب عسكري يقوم به أخوة تروخييو، يعيد الدكتاتورية الفظة والقاسية، إلا أنه كان واضحاً أن الناس بدؤوا يفقدون الخوف شيئاً فشيئاً، أو أنهم يتخلصون، بكلمة أدق، من السحر الذي كان يُبقي دومينيكانيين كثيرين مستسلمين جسداً وروحاً لتروخييو. ففي كل يوم تبرز أصوات، وتصريحات وممارسات جديدة مناهضة للتروخييوية، ومزيد من التأييد للاتحاد التمدني، أو لحركة 14 حزيران، أو للحزب الثوري الدومينيكاني الذي رجع قادته إلى البلاد وفتحوا لهم مقراً في وسط المدينة.

أكثر أيام مغامرته حزناً كان أكثرها سعادة أيضاً. ففي يوم 18 تشرين الثاني، وبينما كان يجري الإعلان عن مغادرة رامفيس للبلاد، أعلن التلفزيون أن قتلة الزعيم الستة (أربعة منفذين ومتواطئان) قد هربوا، بعد أن قتلوا ثلاثة حراس كانوا يعيدونهم إلى سجن لافكتوريا بعد إعادة تمثيل للجريمة. فلم يتمكن من التماسك قبالة شاشة التلفزيون، وانفجر بالبكاء. هكذا إذن جرى اغتيال أصدقائه - ومنهم التوركو، صديق روحه - مع ثلاثة حراس مساكين لإثبات صحة المسرحية. قدم له السيد كافاليري كأساً من الكونياك:

- تجلد يا سيد إمبرت. فكر بأنك ستلتقي قريباً بزوجتك وابنتك. لقد انتهى هذا الوضع.

بعد ذلك بقليل أُعلن عن المغادرة الوشيكة للأخوة تروخييو مع أسرهم. وكانت تلك هي نهاية الحبس حقاً. لقد استطاع حتى الآن على الأقل النجاة من حملات الصيد، وباستثناء لويس أمياما - وسرعان ما علم أن هذا الأخير قد أمضى ستة شهور وهو محشور في خزانة طوال عدة ساعات كل يوم - فإن كل المتواطئين الرئيسيين، فضلاً عن مئات الأبرياء، بمن فيهم أخوه سيغوندو، قد قُتلوا أو عُذبوا أو مازالوا في السجون.

في اليوم التالي لمغادرة الأخوة تروخييو، أُعلن عن عفو سياسي. وبدأ فتح السجون. وشكل بالاغير لجنة لتقصي الحقائق حول ما حدث «لمنفذي حكم الإعدام بالطاغية». وتوقفت الإذاعات والصحف والتلفزيون منذ ذلك اليوم عن تسميتهم بالقتلة؛ وسرعان ما تبدل لقبهم الجديد «منفذو حكم الإعدام»، ليصبح «الأبطال»، وبعد وقت غير طويل من ذلك بدأت تُطلق أسماؤهم على شوارع وجادات وساحات في كل أنحاء البلاد.

في اليوم الثالث، خرج من محبسه بتكتم عند الغروب - لم يسمح له صاحبا البيت حتى بالإعراب عن شكره لما فعلاه من أجله، والشيء الوحيد الذي طلباه منه هو ألا يخبراً أحد بهويتيهما كيلا يضر بوضعهما الدبلوماسي -، وتوجه وحيداً إلى بيته. تعانق هو وغوارينا وليسلي لوقت طويل دون أن يتمكنوا من الكلام. وبينما هم يتفحصون بعضهم بعضاً، تبين لهم أن غوارينا وليسلي قد هزلتا، بينما زاد وزنه خمسة كيلوغرامات. فأوضح لهما بأنهم في البيت الذي كان مختبئاً فيه - ولم يخبرهما أي بيت هو - يأكلون الاسباغيتي بكثرة.

لم يستطيعوا التحدث طويلاً. فبيت آل إمبرت المخرب بدأ يمتلئ بباقات الزهور، وبأقارب وأصدقاء وأناس لا يعرفهم راحوا يقتربون يعانقونه، ويهنئونه ويدعونه البطل - وهم يرتعشون أحياناً من الانفعال وتمتلئ عيونهم بالدموع - ويقدمون له الشكر على ما فعله. وظهر فجأة بين الحاضرين ضابط عسكري. إنه مرافق رئيس الجمهورية. وبعد التحيات البروتوكولية الصارمة، قال له الميجر تيوفرونيو كاثيدا إن رئيس الدولة يريد استقباله هو ولويس أمياما - الذي خرج للتو أيضاً من مخبئه، في بيت وزير الصحة الحالي بالذات - في القصر الوطني، غداً عند الظهر. وأعلمه بضحكة متواطئة بأن السيناتور هنري

تشيرينوس قدم للكونغرس («كونغرس تروخييو نفسه، أجل يا سيدي») مشروع قانون بتسمية أنطونيو إمبرت ولويس أمياما جنرالين بثلاث نجوم في الجيش الدومينيكاني، لخدماتهما الاستثنائية المقدمة إلى الأمة.

وفي صباح اليوم التالي، برفقة غوارينا وليسلي – الثلاثة بأفضل ملابسهم، وإن كانت ملابس أنطونيو ضيقة عليه – ذهب إلى الموعد في القصر. استقبلتهم سحابة من المصورين، وقدمت لهم السلاح ثلة الحرس العسكري بزي المراسم. وهناك، في قاعة الانتظار، تعرف على لويس أمياما، وهو رجل شديد النحول والرصانة، بفم دون شفتين، والذي سيصبح منذ تلك اللحظة صديقه المقرب. تصافحا واتفقا على اللقاء بعد الاجتماع بالرئيس، ليزورا معاً زوجات (أرامل) كل المتآمرين الميتين أو المختفين، لكي يرويا لهن مغامرتهم. وفي هذه الأثناء، فُتح باب مكتب رئيس الدولة.

تقدم نحوهما الدكتور بالاغير مبتسماً ومبدياً إمارات السعادة العميقة. وهو يفتح ذراعيه، تحت فلاشات المصورين.

الفصل الرابع والعشرون

- جاء مانويل ألفونسو بحثاً عني في الموعد الدقيق. - تقول أورانيا وهي تنظر إلى الفراغ - كانت ساعة الكوكو في الصالة تغرد على الثامنة تماماً عندما طرق الباب.

عمتها آديلينا، وابنتا عمتها لوثيندا ومانوليتا والحفيدة ماريانيتا لا يتبادلن النظرات فيما بينهن، ليتفادين مفاقمة التوتر. وكان شمشون نائماً، وقد دفن منقاره المعقوف في ريشه الأخضر.

وواصلت أورانيا باردةً، وشبه محايدة:

- هرع أبي إلى غرفته متذرعاً بأنه يريد الذهاب إلى الحمام. «باي باي يا ابنتي، أرجو لك قضاء وقت سعيد.» لم يتجرأ على وداعي وهو ينظر إلى عيني.

- أتتذكرين كل هذه التفاصيل؟ - تهز العمة آديلينا قبضتها المجعدة دون همة ولا قوة.

- لقد نسيتُ أشياء كثيرة - ترد أورانيا بحيوية - ولكنني أتذكر كل شيء في تلك الليلة. وسترين ذلك.

إنها تتذكر، مثلاً، أن مانويل ألفونسو كان مرتدياً ملابس سبور - أيذهب إلى حفلة عند الجنراليسمو بملابس سبور؟ - بقميص أزرق مفتوح وسترة خفيفة بلون القشدة، وخفّ من الجلد، ومنديل من الحرير يغطي الندبة في عنقه. قال لها بصوته العسير إن فستانها الذي من الأروغنزا الوردية جميل جداً، وإن حذاءها ذا الكعب الرفيع يزيد من عمرها. قبّلها من خدها: «فلنذهب بسرعة، لقد تأخرنا يا فاتنتي». فتح لها باب السيارة لتصعد، وجلس إلى جانبها، وانطلق السائق ذو البدلة والقبعة الذي مازالت تذكر اسمه: لويس رودريغيث.

بدل النزول إلى جادة جورج واشنطن، قامت السيارة بجولة عبثية. صعدت عبر شارع الاستقلال نحو المدينة الاستعمارية القديمة، واجتازتها في إضاعة للوقت. ما قاله عن التأخير كذب؛ فالوقت ما يزال مبكراً للذهاب إلى سان كريستوبال.

تقرّب مانوليتا يديها، وجسدها الممتلئ:

- ولكن، حين بدا لك غريباً، ألم تسألي مانويل ألفونسو؟ ألم تسأليه شيئاً؟

في البدء، لا. لم تسأله شيئاً. كان الأمر غريباً جداً بكل تأكيد، أن يتجولا في المدينة القديمة، وأن يرتدي مانويل ألفونسو للذهاب إلى حفلة عند الزعيم ملابس الذهاب إلى مضمار سباق الخيل أو إلى الكنتري كلوب، ولكن أورانيا لم تسأل السفير شيئاً. هل بدأت تستاء لأن أغوسطين كابرال والسفير قد كذبا عليها؟ بقيت صامتة، تستمع دون اهتمام إلى الكلام المتقطع والمعطل الذي يوجهه إليها مانويل ألفونسو، وكان يحدثها عن احتفالات تتويج الملكة إليزابيت الثانية في لندن، التي مضى عليها وقت طويل، حين ذهب هو وأنخيليتا تروخييو («وكانت آنذاك صبية صغيرة باهرة الجمال مثلك») لتمثيل **المنعم على الوطن**. كان تركيزها يتوجه أكثر نحو البيوت القديمة المفتوحة على مصاريعها، كاشفة عن حميميتها. والأُسر المتدفقة إلى الشارع - مسنون، مسنات، شبان، أطفال، كلاب، قطط، وحتى ببغاوات وكناريات - للاستمتاع ببرودة الليل بعد النهار الملتهب، والجميع يتبادلون الحديث وهم على كراسيهم الهزازة أو مقاعدهم أو على كراسٍ بلا مساند، أو يجلسون على عتبات البيوت أو على حواف الأرصفة العالية، محولين شوارع العاصمة القديمة إلى مجالس سمر، أو منتديات، أو حلقات شعبية ضخمة، لا يعبأ بها نهائياً أولئك المشدودون إلى موائدهم الصغيرة المضاءة بفوانيس أو مشاعل، في جماعات من أربعة أشخاص أو شخصين - جميعهم رجال، وجميعهم ناضجون - من لاعبي الدومينو. كان مشهداً مثل تلك المشاهد البهيجة التي تغص بالبسطات والرفوف الخشبية المطلية بالأبيض، والمترعة بالمعلبات والزجاجات ذات البطاقات المذهبة، وشراب خاكا والكباد، وعلب ملونة، حيث هناك على الدوام من يشتريها. وذاكرة أورانيا مازالت تحتفظ بذكرى نابضة لمشهد ربما يكون قد اختفى أو انقرض في سانتو دومنغو اليوم، أو ربما كان ما يزال موجوداً فقط في تلك البؤرة المربعة من البيوت، حيث أسست جماعات من المغامرين القادمين من أوربا قبل قرون أول مدينة مسيحية في العالم الجديد بالاسم المنغم الرخيم «سانتو دومنغو دي غوثمان». لقد كانت تلك هي آخر ليلة ترين فيها ذلك المشهد يا أورانيا.

- ما كدنا نتخذ الطريق العام، وربما في المكان نفسه الذي قتلوا فيه تروخييو بعد أسبوعين من ذلك، حتى بدأ مانويل ألفونسو - ولكن انعطافة استياء قاطعت قصة أورانيا.

– ما الذي تريدين قوله؟ – سألتها لوثينديتا، بعد صمت – بدأ بماذا؟

– بتهيئتي – تستعيد أورانيا ثباتها – بتلبيني، بإخافتي، باستثارتي. مثل عرائس مولوك[1] اللواتي كانوا يدللونهن ويُلبسونهن ثياب الأميرات قبل الإلقاء بهن إلى المحرقة، من خلال فم المسخ.

– أنت لم تتعرفي إذن على تروخييو، ولم تكلميه قط – هتف مانويل ألفونسو مبتهجاً – ستكون تجربة حياتك أيتها الصبية!

وستكون كذلك فعلاً. السيارة تتقدم نحو سان كريستوبال، تحت سماء مفعمة بالنجوم، ما بين أشجار جوز هند ونخيل، على شاطئ البحر الكاريبي الذي يلطم الحافة الصخرية بصخب.

– ولكن، ماذا كان يقول لك. – تشجعها مانوليتا، لأن أورانيا صمتت.

كان يصف لها نُبل الجنراليسمو الذي لا تشوبه شائبة في تعامله مع السيدات. فعلى الرغم من صرامته في الشؤون العسكرية والحكومية، إلا أنه حوّل المثل القائل: «المرأة تعامل ببتلة زهرة» إلى فلسفة. وبهذه الطريقة يتعامل مع الفتيات الجميلات.

– يا لك من محظوظة أيتها الصبية. – كان يحاول أن ينقل إليها عدوى حماسته، ذلك الانفعال المتهيج الذي يسبب تقطعاً أكبر في كلامه – تروخييو يدعوكِ شخصياً إلى بيت كاوبا. يا له من امتياز! من حظين بمثل ذلك لا يتجاوزن عدد أصابع اليدين. أنا من أقول لك ذلك يا صبية، وصدقيني.

وعندئذ وجهت إليه أورانيا أول وآخر سؤال في تلك الليلة:

– ومن دعوا أيضاً إلى هذه الحفلة؟ – تنظر إلى عمتها آديلينا وإلى لوثينديتا ومانوليتا –: لأرى بماذا سيُجيب. إذ كنت قد أدركت بأننا لسنا ذاهبين إلى أي حفلة.

يلتفت الوجه الذكوري الوقح نحوها وتلمح أورانيا البريق في حدقتي السفير.

– لا أحد سواكِ. إنها حفلة لك. حفلة لك وحدكِ! هل تتصورين ذلك؟ هل تلاحظين؟ ألم أقل لك أنه شيء فريد؟ تروخييو يقدم لك حفلة. هذا أشبه بكسب اليانصيب يا أورانيا.

---

[1] مولوك Moloc أو Moloch: من آلهة الآمونيين، كانت تقدم إليه قرابين بشرية، وذلك بإلقاء الأضاحي نحو ذراعي تمثال بشري من البرونز المتوهج له رأس عجل يمثل الإله.

- وأنتِ؟ وأنتِ؟ - تهتف الحفيدة ماريانيتا بصوت رفيع - ما الذي فكرتِ فيه أيتها الخالة؟

- بسائق السيارة، بلويس رودريغيث. ولا شيء سواه.

يا للخجل الذي أحسستِ به من ذلك السائق ذي القبعة، الشاهد على قول السفير التهريجي. كان قد أشعل مذياع السيارة، وكانوا يقدمون أغنيتين إيطاليتين رائجتين - **سأطير، ووداعاً وداعاً يا فتاتي** - ولكنها كانت واثقة من أنه لا يضيع كلمة واحدة من الحيل التي يحاول مانويل الفونسو تملقها بها، لكي تشعر بأنها سعيدة ومحظوظة. حفلة يقيمها تروخييو لها وحدها!

- أكنتِ تفكرين في أبيك؟ - يفلت السؤال من مانوليتا - بأن الخال أغوسطين قد أرسلك، بأنه...؟

تصمت دون أن تدري كيف تكمل كلامها. وتوجه إليها العمة آديلينا تأنيباً بعينيها. لقد غار وجه العجوز، وكشفت ملامحه عن قنوط عميق.

- مانويل ألفونسو هو الذي كان يفكر في أبي. - قالت أورانيا - ألستُ ابنة طيبة؟ ألا أريد أن أساعد السيناتور أغوسطين كابرال؟

وكان يقول ذلك بتلك المهارة المكتسبة خلال سنواته كدبلوماسي مكلف بمهمات صعبة. أليست هذه فرصة استثنائية كذلك لكي تساعد أورانيا صديقه مخيخ ليخرج من الفخ الذي نصبه له الحاسدون الأبديون؟ يمكن للجنراليسمو أن يكون رجلاً قاسياً، لا يرحم في ما يتعلق بمصالح البلاد. ولكنه في أعماقه رومنطيقي؛ قسوته تذوب حيال فتاة ظريفة مثلما يذوب مكعب من الثلج تحت الشمس. فإذا أرادت، وهي الذكية، أن تجعل **الجنراليسمو** يمد يد المساعدة إلى أغوسطين، وأن يعيد إليه وضعه، وسمعته، وسلطته، ومناصبه، فإنها ستحصل على ذلك. يكفيها أن تصل إلى قلب تروخييو، وهو قلب لا يستطيع رفض توسلات فتاة فاتنة.

وتقول أورانيا:

- وقدم لي كذلك بعض النصائح. ما هي الأشياء التي يجب ألا أفعلها، لأنها تزعج الزعيم. فهو يتلذذ بأن تكون الفتيات لينات، ولكن دون أن يبالغن في إظهار احترامهن له وحبهن. وكنت أتساءل: «أهو يقول هذه الأشياء لي أنا؟».

كانوا قد دخلوا سان كريستوبال، المدينة المشهورة لأنها مسقط رأس الزعيم، ولد فيها في بيت متواضع ملاصق للكنيسة الضخمة التي أمر تروخييو ببنائها،

والتي أخذ السيناتور كابرال ابنته أورانيا لزيارتها، وشرح لها مغزى اللوحات الجدارية التوراتية التي رسمها على الجدران فيلا زانيتي، وهو فنان إسباني منفي فتح له الزعيم الشهم أبواب جمهورية الدومينيكان. وفي تلك الرحلة إلى سان كريستوبال أراها السيناتور كابرال كذلك مصنع القوارير ومصنع الأسلحة، وجاب بها كل الوادي الذي يرويه نهر نيغوا. وها هو أبوها يرسلها الآن إلى سان كريستوبال كي تتوسل إلى الزعيم أن يعفو عنه، وأن يلغي تجميد حساباته وأن يعيده إلى رئاسة مجلس الشيوخ.

- هناك إطلالة بديعة من بيت كاوبا على الوادي، وعلى نهر نيغوا، وخيول ومواشي مزرعة فونداثيون - قال مانويل ألفونسو عارضاً التفاصيل.

وبعد أن اجتازت السيارة مركز حراسة أول، صعدت الرابية التي شُيّدَ على قمتها - من أخشاب أشجار الكاوبا (المهاغوني) الثمينة التي بدأت تنتشر في الجزيرة - البيت الذي يعتكف فيه **الجنراليسمو** حوالي يومين في الأسبوع، ليحتفل بمواعيد خاصة، وينجز أعمالاً قذرة أو صفقات جريئة، بكل سرية وتكتم.

- لوقت طويل لم أكن أتذكر من بيت كاوبا إلا السجادة. كانت تغطي الحجرة بكاملها، وقد نقش عليها رسم ضخم للشعار الوطني بكل ألوانه. ثم تذكرت فيما بعد أشياء أخرى. في غرفة النوم هناك خزانة زجاجية مملوءة بالبزات العسكرية، من كل الأنواع، وفوقها صف من القبعات والعمرات. بما في ذلك قبعة نابليونية ذات رأسين.

إنها لا تضحك. تبدو جدية، مع شيء من التقعر في العينين، في الصوت. ولا تضحك كذلك عمتها آديلينا، ولا مانوليتا، ولا لوثيندا، ولا ماريانيتا التي رجعت لتوها من الحمام، حيث ذهبت للتقيؤ (وقد أحست هي بغثيانها.) والببغاء ما تزال نائمة. لقد خيم الصمت على سانتو دومنغو: لا يُسمع صوت أي نفير، أو محرك، أو أي مذياع، أو ضحكة أي سكران، ولا نباح كلاب متشردة.

- اسمي بينيتا سيبولفيدا، تفضلي. - قالت لها السيدة عند بداية السلّم الخشبي. إنها متقدمة في السن، غير مبالية، ولكن هناك مع ذلك شيء أمومي في إيماءاتها وحركاتها، وهي ترتدي زياً خاصاً وتغطي رأسها بمنديل - تعالي من هنا.

- إنها مدبرة المنزل. - تقول أورانيا - المسؤولة عن وضع الأزهار كل يوم في كل الغرف. أما مانويل ألفونسو فبقي يتبادل الحديث مع الضابط الذي عند المدخل. ولم أره بعدها قط.

أشارت لها بينيتا سيبولفيدا بيدها اللحمية إلى الظلمة، فيما وراء النوافذ المحمية بشباك معدنية، وأوضحت لها أن «هذه» هي شجرة سنديان، وأن هناك في البستان الكثير من أشجار المانجا والأرز؛ ولكن أجمل ما في المكان هي أشجار اللوز وأشجار الكاوبا التي تحيط بالبيت وأغصانها العطرة تنفذ من كل الأركان. أتشمين؟ أتشمين؟ ستُتاح لكِ الفرصة، باكراً، لرؤية المنظر الطبيعي - النهر، والوادي، ومعصرة القصب، واسطبلات مزرعة فونداثيون - عندما تبزغ الشمس. هل تتناولين فطوراً دومينيكانياً، مع موز مخفوق، وبيض مقلي، وسجق أو قديد، وعصير فواكه؟ أم قهوة فقط، مثل **الجنراليسمو**؟

- عرفتُ من بينيتا سيبولفيدا أنني سأقضي الليل هناك، وأنني سأنام مع فخامته. يا للشرف العظيم!

أوقفتها مدبرة المنزل، بطلاقة الخبرة الطويلة، عند مصطبة السلّم الأولى، ثم أدخلتها إلى حجرة فسيحة، خافتة الإضاءة. إنه البار. كانت هناك مقاعد خشبية في محيط الحجرة، تلتصق مساندها بالجدار، تاركة فسحة واسعة للرقص في الوسط؛ وكان هناك جهاز موسيقى ضخم، ومنضدة كونتوار مع خزانة مترعة بزجاجات وكؤوس وأكواب من الكريستال. ولكن عيني أورانيا لم تريا إلا السجادة الرمادية الضخمة المزينة بالشعار الوطني الدومينيكاني، والمبسوطة من جانب إلى آخر في الغرفة الفسيحة. ولم تكد تلمح صور ولوحات **الجنراليسمو** - واقفاً، وعلى صهوة جواد، بالزي العسكري، والزي المدني، جالساً إلى مكتب أو على منصة وموشحاً بالوشاح الرئاسي - المعلقة على الجدران، ولم تكد تتنبه كذلك إلى الجوائز الفضية والشهادات والدبلومات التي أحرزتها أبقار مزرعة فونداثيون الحلوبة وخيولها الأصيلة، والمختلطة مع منافض سجائر من مواد بلاستيكية وزينات رخيصة مازالت تحمل بطاقات متاجر «مايسيس» النيويوركية، تزين المناضد الصغيرة والخزائن والرفوف في هذا النصب للـ kitsch. تركتها بينتا سيبولفيدا هناك بعد أن سألتها إذا كانت لا تريد حقاً أن تتناول كأساً من الخمر.

- لم تكن كلمة kitcsh قد وُجدت بعد على ما أظن - قالت موضحة، كما لو أن عمتها أو ابنتي عمتها طرحن ملاحظة ما - بعد ذلك بسنوات، عندما سمعتُ الكلمة أو قرأتها، وعرفتُ ما تمثله من حدود قصوى في ابتذال الذوق والادعاء، ورد إلى ذهني فوراً بيت كاوبا. إنه نصب لما هو kitsch.

وكانت هي نفسها جزءاً من ذلك الـ kitsch في تلك الليلة الحارة من شهر

أيار، وهي بفستانها الوردي الذي تلبسه لحفلات المجتمع، وبالعقد الفضي الذي تتوسطه زمردة، وبقرطيها المطليين بالذهب اللذين كانا لأمها، وسمح لها أبوها باستخدامهما بصورة استثنائية للذهاب إلى حفلة تروخييو. وكان ارتيابها بما حولها يجعل ما يجري غير واقعي. كان يبدو لها أنها ليست هي نفسها تلك الصبية الواقفة فوق سارية الشعار الوطني، في هذه الغرفة الشاذة. هل أرسلها السيناتور كابرال قرباناً حياً إلى **المنعم وأبي الوطن الجديد**؟ أجل، لم يكن هناك أدنى شك، لقد أعدّ أبوها كل ذلك مع مانويل ألفونسو، ولكنها مازالت تريد التشكك مع ذلك.

- في مكان ما، ولكن ليس في ذلك البار، وضعوا أسطوانة للوتشو غايتكا: **قبلني، قبلني كثيراً، كما لو أن هذه الليلة هي الأخيرة.**

- إنني أتذكر - تقول مانوليتا، خجلة لتدخلها، وتعتذر بإيماءة - لقد كانوا يعزفون أغنية «قبلني كثيراً» طوال اليوم، في الإذاعات والحفلات.

وبينما هي واقفة إلى جوار النافذة التي يدخل منها نسيم ساخن وعبير حقول وأعشاب وأشجار كثيف، سمعت أصواتاً. صوت مانويل ألفونسو المعلول. وصوتاً آخر حاداً، بنبرة تعلو وتنخفض، لا يمكن إلا أن يكون صوت تروخييو. أحست بدغدغة في عنقها وفي معصميها، حيث يقيس الطبيب نبضها، إنها حكة تأتيها على الدوام عند كل فحص طبي، وهي تأتيها الآن، حين تكون في نيويورك، قبل اتخاذ القرارات المهمة.

- فكرتُ في إلقاء نفسي من النافذة. فكرتُ في الركوع أمامه، التوسل إليه، البكاء له. فكرتُ في أنه عليّ أن أنقاد لعمل ما يريده، وأنا أشدّ على أسناني، كي أستطيع العيش، ولكي أنتقم يوماً من أبي. فكرتُ بألف شيء، بينما هما يتكلمان هناك في الأسفل.

تختلج العمة آديلينا في كرسيها الهزاز، وتفتح فمها. ولكنها لا تقول شيئاً. إنها شاحبة بمثل بياض الورق، عيناها الغائرتان ممتلئتان بالدموع.

توقفت الأصوات. وكان هناك فاصل صمت: وبعد ذلك خطوات تصعد السلّم. هل توقف قلبها؟ وفي ضوء حجرة البار الخافت، ظهر شبح تروخييو، ببدلة عسكرية ذات لون أخضر زيتوني، دون سترة ولا ربطة عنق. وكان يحمل كأس كونياك في يده. تقدم نحوها مبتسماً.

- ليلة سعيدة أيتها الفاتنة - همس وهو ينحني. ومد يده الطليقة نحوها،

ولكن عندما مدّت أورانيا يدها بحركة آلية، لم يصافحها تروخييو، وإنما رفعها إلى شفتيه وقبّلها - أهلاً بك في بيت كاوبا أيتها الفاتنة.

- كنتُ قد سمعتُ مرات كثيرة ما كان يقال عن عيني تروخييو وعن نظرته. سمعتُ ذلك من أبي ومن أصدقاء أبي. وحينئذ عرفتُ أن ما يقال صحيح. إنها نظرة تُعري، تصل إلى الأعماق. كان يبتسم بتودد شديد، ولكن تلك النظرة أفرغتني، أبقتني جلداً وحسب. عندئذ لم أعد أنا نفسي.

- ألم تقدم لك بينيتا شيئاً؟ - ودون أن يفلت يدها، اقتادها تروخييو نحو المكان الأكثر إضاءة في البار؛ كان هناك أنبوب نيون يطلق بريقاً مائلاً إلى الزرقة. دعاها للجلوس على أريكة تتسع لشخصين. تفحصها ماراً عليها بعينيه البطيئتين من أعلى إلى أسفل، من رأسها إلى قدميها، صاعداً ونازلاً دون مواراة، كما لو أنه يتفحص مقتنيات مزرعة فونداثيون من الأبقار والخيول الجديدة. ولم تلمح في عينيه البنيتين، الثابتتين، التفتيشيتين شيئاً من الشهوة أو الاستثارة، وإنما نظرة جَردٍ وتقويم لجسدها.

- لقد خاب أمله. الآن عرفتُ السبب، أما في تلك الليلة فلم أكن أعرف. لقد كنتُ نحيفة، شديدة النحول، وهو يفضلهن ممتلئات، بنهود ومؤخرات بارزة. يفضل النساء الوافرات. إنه ذوق تروبيكالي تقليدي. بل إنه فكر بإعادة ذلك الهيكل العظمي إلى مدينة تروخييو. أتعرفن لماذا لم يفعل ذلك؟ لأن تمزيق فرج فتاة عذراء يهيج الرجال.

تئن العمة آديلينا. قبضتها المجعدة مرفوعة. فمها شبه مفتوح، تتوسل إليها في تعبير ذعر وتوبيخ، وهي تكشر. ولكنها لا تتمكن من نطق كلمة واحدة.

- اعذري صراحتي أيتها العمة. هذا شيء قاله هو نفسه في ما بعد. إنني أكرره بحرفيته، أقسم لك: «تمزيق فرج فتاة عذراء يهيج الرجال. وبيتان، البهيمة بيتان، يتهيج أكثر بتمزيقه بإصبعه».

سيقول ذلك في ما بعد، عندما فقد صوابه وراح يتقيأ عبارات غير متماسكة، وزفرات، وكلمات بذيئة، وناراً من البراز لكي يطفئ ما يعانيه من مرارة. أما قبل ذلك، فكان ما يزال يتصرف بدقة مدروسة. لم يقدم لها من الشراب الذي كان يتناوله، لأن كونياك كارلوس الأول يمكن له أن يحرق أحشاء صبية صغيرة السن مثلها. سيقدم لها كأساً من نبيذ شيرش الحلو. سكبه لها هو نفسه وقرع كأسها في نخب. ومع أن أورانيا لم تكد تبلل شفتيها، إلا أنها أحست

بشيء حارق في حنجرتها. هل حاولت الابتسام؟ أم بقيت رصينة، مبدية رعبها؟
- لستُ أدري - تقول وهي تهز كتفيها - كنا على تلك الأريكة متلاصقين. وكان كأس النبيذ يرتجف بشدة في يدي.
- أنا لا آكل الصغيرات - ابتسم تروخييو وهو يأخذ كأسها ويضعه على المنضدة الصغيرة - هل أنت صموت دوماً، أم الآن فقط أيتها الفاتنة؟
- يقول لي فاتنة، وهو ما كان قد قاله لي مانويل ألفونسو أيضاً. لم يقل لي يا أورانيا، ولا يا أورانيتا، ولا يا فتاة. بل أيتها الفاتنة. إنها لعبة يمارسها الاثنان.
- هل تحبين الرقص؟ لا شك في ذلك، مثل كل البنات في سنك - قال تروخييو - أنا أحب الرقص كثيراً. إنني راقص جيد، مع أنني لا أجد متسعاً من الوقت لحفلات الرقص. تعالي، فلنرقص.
نهض واقفاً، وحاكته أورانيا. أحست بجسده المربوع، ببطنه المكور بعض الشيء يلامس معدتها، وبالأنفاس العابقة بالكونياك، واليد الدافئة التي أحاطت خصرها. خيل إليها أنها ستدوخ ولم يكن لوتشو غاتيكا يغني «قبلني كثيراً» وإنما «يا روحي».
- لقد كان يرقص جيداً بالفعل. كان جيد السمع، ويتحرك مثل شاب. وكنت أنا من تخطئ في الخطوات. رقصنا لحني بوليرو، ولحن غواراتشا لتونيا الزنجية. وكذلك على ألحان ميرينغي. وقال إن رقصة الميرينغي انتشرت في الأندية والبيوت المحترمة بفضله. وإنه كانت هناك من قبل أوهام ومزاعم، وإن الناس كانوا يقولون إنها موسيقى زنوج وهنود. ولا أعرف من استبدل الاسطوانة. وعندما انتهى لحن الميرينغي الأخير، قبلني من عنقي. قبلة رقيقة، فأحسستُ بقشعريرة.
وبينما هو يمسك بيدها، والأصابع متشابكة، أعادها إلى الأريكة، وجلس قريباً جداً منها. تفحصها مستمتعاً بينما هو يستنشق كونياكه ويشربه. كان يبدو مطمئناً وسعيداً.
- هل أنتِ دوماً أبو الهول؟ لا، لا. لا بد أنك تشعرين نحوي بكثير من الاحترام - ابتسم تروخييو - تروقني الفاتنات المتكتمات اللواتي يرغبن في إثارة الإعجاب. الآلهات غير المباليات. سأتلو عليك شعراً مكتوباً لأجلك.
- وتلا عليّ قصيدة لبابلو نيرودا. في مسمعي، ملامساً أذني، شعري، بشفتيه وشاربه: «تعجبينني حين تصمتين، لأنك تكونين كالغائبة؛ فأحس كما لو

أن عينيك قد طارتا، وأن قبلة قد أطبقت فمك». وعندما وصل إلى «فمك» حركت يده وجهي وقبّل شفتي. في تلك الليلة فعلت كومة من الأشياء لأول مرة في حياتي: شرب النبيذ، واستخدام مجوهرات أمي، والرقص مع عجوز في السبعين، وتلقي أول قبلة على فمي.

كانت قد ذهبت من قبل إلى حفلات فيها ذكور ورقص، ولكن في مرة واحدة فقط تلقت قبلة من فتى، على خدها، في حفلة عيد ميلاد في بيت آل فيشني الضخم، عند تقاطع شارع مكسيمو غوميث وجادة جورج واشنطن. اسم ذلك الفتى كاسيميرو سانتشيث، وكان ابن دبلوماسي. دعاها إلى الرقص، وعند انتهاء الرقصة، أحست بشفتيه على وجهها. وقد توردت حتى جذور شعرها، وعندما ذكرت تلك الخطيئة في الاعتراف لكاهن المدرسة يوم الجمعة، انقطع صوتها من الخجل. ولكن تلك القبلة لم تكن تشبه هذه: فشارب فخامته الذبابي خرش أنفها، وراح لسانه، برأسه اللزج الدافئ، يجاهد لفتح فمها. قاومت، ثم باعدت ما بين شفتيها وأسنانها: أفعى رطبة، نارية، توغلت بنزق في تجويف فمها، متحركة بشراهة. أحست بأنها تختنق.

- لا تعرفين كيف تقبلين أيتها الفاتنة. - ابتسم لها تروخييو وهو يقبل يدها مجدداً، وقد فوجئ ببهجة: - أنت عذراء، أليس كذلك؟

- كان قد تهيج - تقول أورانيا وهي تنظر إلى الفراغ - لقد توصل إلى انتصاب.

تفلت مانوليتا ضحكة هستيرية خافتة، قصيرة، ولكن أمها لا تحاكيها، ولا أختها، ولا ابنة أختها. فتخفض ابنة عمتها عينيها، مرتبكة.

- آسفة، يجب أن أتكلم عن انتصابات - تقول أورانيا - فالذكر إذا ما تهيج يتصلب عضوه ويكبر. وفخامته تهيج عندما أدخل لسانه في فمي.

- فلنصعد إلى فوق يا فاتنة - قال بصوت عجيني بعض الشيء - سنكون أكثر راحة. ستكتشفين الآن شيئاً رائعاً. الحب. اللذة. ستستمتعين. أنا سأعلمك. لا تخافيني. لستُ مثل البهيمة بيتان، فأنا لا أستمتع بمعاملة الفتيات بقسوة. إنني أحب أن يستمتعن أيضاً. سأُسعدك أيتها الفاتنة.

- كان في السبعين وكنتُ في الرابعة عشرة - تحدد أورانيا ذلك للمرة الخامسة أو العاشرة - وكنا نبدو ثنائياً متنافراً ونحن نصعد ذلك السلّم ذا الحاجز المعدني والقوائم الخشبية. وكان يمسك ذراعي، مثل عروسين. الجد والحفيدة إلى مخدع الزفاف.

كـان مصبـاح الكوميدينـو مضـاء، ورأت أورانيـا مسـتطيل السـرير المعدنـي المشغول يدوياً، والكلّة المرفوعة، وأحسـت بأذرع المروحة التـي تـدور ببـطء فـي السقف. هناك لحاف أبيض مطرز يغطي السرير ووسائد وحشايا كثيرة مكومة عند موضع الرأس. وكانت تفوح رائحة أزهار غضة ومرعى.

- لا تخلعي ثيابك يا فاتنة - غمغم تروخييو - أنا سأساعدك. انتظري، سأرجع.

تلتفت أورانيا إلى ابنة عمتها:

- أتتذكرين بأي عصبية كنا نتكلم عن فقدان العذرية يا مانوليتا؟ لم أكن أتصور يوماً أنني سأفقدها في بيت كاوبا، مع **الجنراليسمو**. وفكرت: «إذا ما ألقيت بنفسي من النافذة، فإنني سأسبب عذاب ضمير رهيب لأبي».

رجع بعد قليل، عارياً تحت روب حريري أزرق فيه بقع بيضاء، وخف مستو رماني اللون. شرب رشفة من الكونياك، ووضع كأسه في خزانة ما بين صورٍ له محاطاً بأحفاده، وأمسك أورانيا من خصرها، وأجلسها على حافة السرير، في الفراغ المفتوح ما بين تول الكلّة، جناحا فراشة كبيران معقودان فوق رأسها. بدأ بتعريتها، دون تسرع. فك أزرار الظهر، زراً بعد آخر، وسحب الحزام الذي يشدّ ثوبها. وقبل أن ينزعه، جثا على ركبتيه، وانحنى بشيء من الصعوبة، وخلع حذاءها. وبحذر شديد، كما لو أنه يمكن للطفلة أن تتفتت بحركة فظة من أصابعه، نزع جوربيها النايلون، مداعباً ساقيها في أثناء ذلك.

- قدماك باردتان يا فاتنة - دمدم برقة - هل تشعرين بالبرد؟ تعالي إليّ، دعيني أدفئهما لك.

راح يفرك قدميها، وهو ما يزال جاثياً، بكلتا يديه. وبين حين وآخر يرفعهما إلى فمه ويقبلهما. بادئاً من ظاهر القدمين، نزولاً إلى الأصابع وحتى الكعبين، وهو يسألها إذا ما كان ذلك يدغدغها، ضاحكاً ضحكة لاذعة، وكأنه هو نفسه الذي يحس بالدغدغة المبهجة.

- ظل على تلك الحال وقتاً طويلاً، يدفئ قدميّ. وإذا أردتن أن تعرفن شيئاً، فإنني لم أشعر بأدنى ارتباك، ولو لثانية واحدة.

وتستعجلها لوثيندا:

- أي خوف كنتِ تشعرين به يا ابنة الخال.

- في تلك اللحظة لم أكن أشعر بالخوف بعد. ولكنني أحسست بخوف شديد في ما بعد.

نهض فخامته بمشقة وعاد يجلس على حافة السرير. نزع عنها الثوب، وحمالة الصدر الوردية التي تثبت نهديها نصف الناميين، والسروال المثلث. وتركته هي يفعل ذلك، دون أن تبدي ممانعة، بجسد ميت. وبينما تروخييو يُنزل السروال الوردي على ساقيها، أحست بأن أصابع فخامته تتعجل، متعرقة، ومحرقة الجلد الذي تمر عليه. جعلها تتمدد ونهض، خلع الروب، واستلقى إلى جانبها عارياً. وبحذر شديد، تغلغلت أصابعه في زغب عانة الطفلة.

- أظن أنه كان ما يزال متهيجاً. عندما بدأ يلمسني ويداعبني. ويقبلني وهو يجبرني دوماً على فتح فمي بفمه. كان يقبلني في صدري، في عنقي، في ظهري، في ساقي.

لم تقاوم؛ تركته يلمس، يداعب، يقبّل، وكان جسدها ينصاع في حركاته وأوضاعه لما تشير به يدا فخامته. لكنها لم تستجب للمداعبات، وعندما لا تغمض عينيها، تثبتهما على أذرع مروحة السقف. وعندئذ سمعته يقول لنفسه «تمزيق فرج فتاة عذراء يهيج الرجال دوماً».

- أول عبارة بذيئة، أول ابتذال في تلك الليلة - تقول أورانيا محددة - بعد ذلك سيقول ما هو أسوأ. وعندئذ أدركتُ أن هناك شيئاً يحدث له. كان قد بدأ يغضب. ألأنني أبقى ساكنة، ميتة، ولا أقبّله؟

لم يكن هذا هو السبب، إنها تفهم ذلك الآن. فمشاركتها أو عدم مشاركتها في فض بكارتها لم يكن بالأمر الذي يهم فخامته. فلكي يبلغ النشوة يكفيه وجود فرج مغلق وتمكنه من فتحه، وجعلها تئن - تولول، تصرخ - من الألم، بعضوه الضامر والسعيد هناك في الداخل، مضغوطاً بين مصاريع ذلك الباطن الحميم المثقوب للتو. لم يكن حباً، بل وليس استمتاعاً هو ما ينتظره من أورانيا. فقد وافق على مجيء ابنة أغوسطين كابرال إلى بيت كاوبا كي يُثبت فقط أن رافائيل ليونيداس تروخييو مولينا ما زال قادراً، بالرغم من سنوات عمره السبعين، وبالرغم من مشاكل البروستات، وبالرغم من أوجاع الرأس التي يسببها له القسس، والأمريكيون، والفنزويليون، والمتآمرون، ما زال فحلاً كاملاً، تيساً بعضو قادر على التصلب وتمزيق فروج العذراوات اللواتي يعرضن عليه.

- لقد انتبهت إلى ذلك على الرغم من انعدام خبرتي - عمتها وابنتا عمتها والحفيدة يقربن رؤوسهن كثيراً ليسمعن همسها - لقد حدث له شيء ما، أعني هناك في الأسفل. إنه غير قادر. سيغضب، سينسى أساليبه الرقيقة.

- يكفيك لعب دور الميتة أيتها الفاتنة - سمعته يأمرها وقد تبدل - اركعي بين ساقيّ. هكذا. امسكيه بيديك وإلى فمك. ومصي، مثلما مصصت فرجك. إلى أن يستيقظ. ويا ويلك إذا لم يستيقظ أيتها الفاتنة.

- حاولتُ، حاولتُ. على الرغم من الخوف والقرف. فعلتُ كل شيء. جلستُ القرفصاء، أدخلته في فمي، قبلته، مصصت إلى حد الغثيان. ولكنه طري. طري. وتوسلتُ إلى الله أن ينتصب.

- يكفي يا أورانيتا، يكفي - العمة آديلينا لا تبكي. بل تنظر إليها برعب، دون شفقة. جفنا محجري عينيها العلويان مرفوعان، يكشفان بياض غشاء العينين الصلب؛ إنها مذهولة، متشنجة - لماذا كل هذا يا بنتي. رباه، يكفي!

وتلح أورانيا:

- ولكنني أخفقت. وضع ذراعه على عينيه. لم يقل شيئاً. وعندما رفعهما، كان يكرهني.

كانت عيناه حمراوين يتأجج في بؤبؤيهما ضوء أصفر، محموم، من الحنق والعار. كان ينظر إليها دون أي أثر من ذلك التودد السابق، بعدوانية محاربة، كما لو أنها هي التي تسببت له بذلك الضرر الذي لا يمكن إصلاحه.

- تخطئين إذا ظننت بأنك ستخرجين عذراء من هنا لتسخري مني أنتِ وأبوكِ - كان يتهجى الكلمات بغضب أصم، مطلقاً الصراخ.

أمسكها من ذراعها وألقاها إلى جانبه. ثم امتطاها مستعيناً بحركات ساقيه وخصره. ذلك اللحم كان يسحقها، يُغرقها في الفراش؛ والأنفاس العابقة بالكونياك والغضب تصيبها بالدوار. كانت تحس بعضلاتها وعظامها مسحوقة، مفتتة. ولكن الاختناق لم يمنعها من الإحساس بفظاظة تلك اليد، تلك الأصابع التي تستكشف، تكشط، وتدخل فيها بالقوة. أحست بأنها تتشطر، تُطعن؛ وومضَ برق من دماغها حتى قدميها. أنَّت وهي تشعر بأنها تموت.

- اصرخي أيتها الكلبة، لأرى إن كنتِ تتعلمين - بصق عليها صوتٌ فخامته الجارح والغاضب - والآن افتحي. دعيني أرى إذا كان قد تمزق حقاً ولستِ تصرخين تمثيلاً.

- كان صحيحاً. فقد كان هناك دم على ساقي؛ لوثه، ولوث لحاف السرير.

- يكفي، يكفي! لماذا المزيد يا بنتي - زعقت العمة - تعالي إليّ، فلنصلّب معاً. ألا تؤمنين بالرب؟ ألا تؤمنين بسيدتنا دي آلتاغراثيا، شفيعة

الدومينيكانيين؟ لقد كانت أمك شديدة الإيمان بها يا أورانيتا. إنني أتذكرها، كانت تستعد في كل حادي وعشرين من كانون الثاني لتحج إلى كنيسة هيغيي. إنك ممتلئة بالحقد والكراهية. وهذا ليس جيداً. مهما كان ما جرى لك. تعالي، ولنصلِ يا ابنتي.

– وعندئذ – تقول أورانيا دون أن توليها اهتماماً – عاد فخامته ليستلقي على ظهره، ولتغطية عينيه. بقي ساكناً، هادئاً. لم يكن نائماً. أفلت منه نحيب. وبدأ يبكي.

– يبكي؟ – هتفت لوثيندا.

ويرد عليها لغط غير مفهوم. وتدير النساء الخمس رؤوسهن: لقد استيقظ شمشون وهو يعلن عن ذلك بالثرثرة.

– لم يبكِ من أجلي – تؤكد أورانيا – وإنما من أجل بروستاته المتورمة، من أجل عضوه الميت، ولأنه مضطر إلى مضاجعة الآنسات بأصابعه، مثلما يفعل بيتان.

– رباه! بحق أحب ما لديك يا بنتي – تتوسل العمة آديلينا وهي ترسم إشارة الصليب – لا تقولي المزيد.

تداعب أورانيا قبضة العمة العجوز المجعدة والمغطاة بالنمش.

– إنها كلمات رهيبة، أعرف ذلك، أشياء ما كان علي أن أقولها أيتها العمة آديلينا – وتُضفي عذوبة على صوتها – لن أفعل ذلك مطلقاً، أقسم لك. ألم تكوني راغبة في معرفة سبب ما قلته عن أبي؟ ولماذا لم أشأ معرفة أي شيء عن الأسرة عندما ذهبتُ إلى أدريان؟ ها أنت تعرفين السبب.

كان يجهش بالبكاء بين حين وآخر، وكانت زفراته ترفع صدره. هناك بعض الشعر القليل المائل إلى البياض ما بين ثدييه وحول سرته القاتمة. وكان يخفي طوال الوقت عينيه بذراعه. هل نسي وجودها؟ أيكون الألم والمرارة المهيمنان عليه قد ألغياها؟ إنها أشد خوفاً من السابق، حين كان يداعبها أو يغتصبها. تنسى الحرقة، والندبة التي بين ساقيها، والخوف الذي تبعثه فيها لطخات الدم على فخذيها وعلى غطاء السرير. لا تتحرك. تريد أن تتحول إلى غير مرئية، غير موجودة. إذا ما رآها هذا الرجل ذو الساقين الخاليتين من الشعر، الذي يبكي، فلن يسامحها، وسيقلب عليها غضب عجزه، وعار بكائه، ويقتلها.

– كان يقول إنه لا وجود لعدالة في هذا العالم. لماذا يحدث له هذا بعد أن

ناضل طويلاً في سبيل هذه البلاد الجاحدة، في سبيل هؤلاء الناس الذين بلا شرف. كان يكلم الرب. أو القديسين. أو السيدة شفيعتنا. أو ربما الشيطان. يزمجر ويتوسل. لماذا يتعرض لكل هذه الاختبارات. حمل صليب أبنائه، والمؤامرات لقتله، ولتدمير ما أمضى حياته في بنائه. ولكنه لا يشكو من كل ذلك. فهو يعرف كيف يقارع الأعداء الذين من لحم وعظم. وقد فعل ذلك منذ شبابه. لا يمكنه أن يتسامح مع ضربة تحت الحزام، وأن لا يتاح له الدفاع عن نفسه. كان أشبه بمجنون من اليأس. الآن صرتُ أعرف السبب. لأن ذلك العضو الذي مزق الكثير من الفروج، لم يعد ينتصب. ذلك ما كان يُبكي المارد الجبار. أمر يدعو للضحك، أليس كذلك؟

ولكن أورانيا لا تضحك. إنها تصغي إليه وهي جامدة، لا تكاد تجرؤ على التنفس، حتى لا يتذكر أنها هناك. لم يكن مونولوجه متواصلاً، وإنما متقطعاً، غير متماسك، تتخلله فترات صمت طويلة؛ يرفع صوته ويصرخ، أو يُخمده حتى لا يعود مسموعاً. همهمة متأسية. كانت أورانيا مبهورة بذلك الصدر الذي يعلو وينخفض. تحاول ألا تنظر إلى جسده، ولكن عينيها تنزلقان أحياناً على البطن المترهل بعض الشيء، على العانة المبيضة، والعضو الصغير الميت والساقين الخاليتين من الشعر. هذا هو **الجنراليسمو، المنعم على الوطن، أبو الوطن الجديد، مصلح الاستقلال المالي**. هذا هو الزعيم الذي خدمه أبوها طوال ثلاثين عاماً بورع وإخلاص، والذي قدم له ألطف هدية: ابنته ذات الأربعة عشر عاماً. ولكن الأمور لم تجر مثلما يأمل السيناتور. وهذا يعني – وابتهج قلب أورانيا – أنه لن يعيد الاعتبار إلى أبي؛ وربما يُدخله السجن، وربما يأمر بقتله.

– وفجأة رفع ذراعه ونظر إليّ بعينيه المحمرتين، المنتفختين. عمري الآن تسع وأربعون سنة، وها أنا أعود إلى الارتجاف من جديد. لقد بقيت أرتجف طوال خمس وثلاثين سنة منذ تلك اللحظة.

تمدّ يديها، وتتأكد عمتها، وابنتا عمتها، والحفيدة: إنهما ترتجفان.

كان ينظر إليها بمفاجأة وحقد، كما إلى ظهور إعجازي. جمدتها عيناه الحمراوان، الناريتان، الثابتتان. لم تعد قادرة على التحرك. راحت نظرة تروخييو تجوبها، نزلت إلى فخذيها، وقفزت إلى اللحاف الملطخ ببقع الدم، وعادت تصعقها. وأمرها وهو يختنق من القرف:

– هيا، اغتسلي، ألا ترين كيف فعلتِ بالسرير؟ انصرفي من هنا!

- لقد كان سماحه لي بالخروج معجزة - تفكر أورانيا - بعد أن رأيته يائساً، باكياً، شاكياً، راثياً حاله. إنها إحدى معجزات شفيعتنا أيتها العمة.

نهضت، قفزت عن السرير، جمعت ملابسها المبعثرة على الأرض، واصطدمت بخزانة أدراج وهي تلتجئ إلى الحمام. كان هناك حوض استحمام من الخزف الأبيض، مملوء بالاسفنج وقطع الصابون، ورائحة عطر نفاذة سببت لها الدوار. وبيديها اللتين لا تكادان تستجيبان لها، نظفت ساقيها، ووضعت منشفة لتُوقف النزيف، ثم ارتدت ملابسها. تكلفت جهداً في تزرير فستانها، وفي تثبيت إبزيم الحزام. لم تلبس جوربيها، واكتفت بالحذاء. وحين نظرت إلى نفسها في إحدى المرايا، رأت وجهها ملطخاً بأحمر الشفاه وخضاب الجفون. لم تتوقف لتنظيفه؛ إذ يمكن له أن يبدّل رأيه. لا بد من الركض، من الخروج من بيت كاوبا، من الهرب. عندما رجعت إلى الغرفة، وجدت أن تروخييو لم يعد عارياً. لقد ارتدى روبه الحريري الأزرق، وكان يحمل في يده كأس الكونياك. أشار لها إلى السلّم:

- انصرفي، انصرفي - كان يختنق - ولتُحضر بينيتا ملاءات نظيفة ولحافاً، ولتبدل هذه القذارة.

- تعثرتُ على الدرجة الأولى من السلّم وكسرتُ كعب حذائي، وكدت أسقط متدحرجة على سلّم الطوابق الثلاثة. تورم كاحلي كثيراً في ما بعد. كانت بينيتا سيبولفيدا في الطابق الأول. وابتسمت لي وهي هادئة جداً. أردتُ أن أقول لها ما أمرني به. لم تخرج مني كلمة واحدة. استطعتُ فقط أن أشير لها إلى الطوابق العليا. أمسكتني من ذراعي وأخذتني إلى حيث الحراس عند المدخل. أرتني مكاناً خالياً فيه كرسي: «هنا يُلمّعون أحذية الزعيم». لم يكن هناك مانويل ألفونسو ولا سيارته. أجلستني بينيتا سيبولفيدا على صندوق مسح الأحذية، محاطة بالحراس. ذهبت، وعندما رجعت قادتني من ذراعي إلى سيارة جيب. كان السائق عسكرياً. وقد أحضرني إلى مدينة تروخييو. وحين سألني «أين موقع البيت؟»، أجبته: «إنني ذاهبة إلى مدرسة سانتو دومنغو. فأنا أعيش هناك». كان الظلام ما يزال مخيماً. الساعة الثالثة، الرابعة، من يدري. تأخروا في فتح البوابة الحديدية. لم أكن قادرة على الكلام بعد عندما ظهر الحارس. ولم أستطع الكلام إلا مع الأخت ماري، الراهبة التي كانت تحبني كثيراً. أخذتني إلى قاعة الطعام، قدمت لي ماء، وبللت جبهتي.

يعود شمشون الصامت منذ بعض الوقت للإعراب عن بهجته أو استيائه،

بنفش ريشه والصراخ. لا أحد يقول شيئاً. تتناول أورانيا كأسها، لكنها تجده فارغاً. تملأه لها ماريانيتا، ولعصبيتها تدلق الإبريق. تشرب أورانيا بضع رشفات من الماء البارد.

- آمل أن أشعر بالتحسن بعد أن رويت لكنَّ هذه القصة الفظيعة. والآن، عليكن نسيانها. لقد انتهى الأمر. فما جرى قد جرى ولا علاج له. ربما كان بإمكان واحدة غيري أن تتجاوز المشكلة. أما أنا فلم أشأ ولم أستطع تجاوزها.

- أورانيتا، يا ابنة خالي، ما الذي تقولينه - تحتج مانوليتا - كيف لم تتجاوزيها؟ انظري ما الذي حققته. وما تملكينه. لديك حياة تحسدك عليها كل الدومينيكانيات.

تنهض وتتجه نحو أورانيا. تعانقها، تقبّلها من خديها.

- لقد شوشتني يا أورانيتا - تؤنبها لوثيندا بمحبة - ولكن، كيف يمكن لك أن تتذمري يا فتاة. ليس لك الحق بذلك. ففي حالتك ينطبق القول «رب ضارة نافعة». لقد درستِ في أفضل جامعة، ونجحتِ في العمل. ولديك رجل يُسعدك ولا يعرقل عملك...

تربت أورانيا على ذراعها وتنفي برأسها. وتصمت الببغاء وتُصغي.

- لقد كذبتُ عليك، ليس هناك أي رجل يا ابنة عمتي - تبتسم نصف ابتسامة، وصوتها ما يزال مكسوراً - لم يكن لدي رجل قط، ولن يكون. أتريدين معرفة كل شيء يا لوثينديتا؟ لم يلمسني رجل منذ ذلك اليوم، منذ تلك المرة. رجلي الوحيد هو تروخييو. مثلما تسمعين. كلما اقترب مني أحدهم، ونظر إليّ كامرأة، أشعر بالقرف. بالرعب. بالرغبة في أن يموت، في أن أقتله. من الصعب تفسير ذلك. لقد درستُ، وأنا أعمل، وأكسب جيداً، هذا صحيح. ولكنني ما أزال خاوية وممتلئة بالخوف. مثل أولئك المسنين في نيويورك الذين يقضون النهار في الحدائق، ينظرون إلى لا شيء. إنني اشتغل، وأشتغل، وأشتغل حتى أقع منهوكة. حالة لا تستحق أن تحسدنني عليها، أؤكد لك. أنا التي أحسدكن في الحقيقة. أجل، أجل، أعرف أن لديكن مشاكلكن، وضائقاتكن، وخيبات أملكن. ولكن لديكن كذلك أسرة، وشريك حياة، وأبناء، وأقارب، وبلاد. هذه أشياء تملأ الحياة. أما أنا، فقد حولني أبي وفخامته إلى صحراء قاحلة.

بدأ شمشون يتمشى بعصبية بين عيدان القفص؛ يتبختر، يتوقف، يشحذ منقاره بقائمتيه.

- لقد كانت أزمنة أخرى يا عزيزتي أورانيتا - تلعثمت العمة آديلينا مبتلعة دموعها - عليكِ أن تغفري له. فقد تألم، ومازال يتألم. لقد كان ذلك فظيعاً يا بنيتي. ولكنها كانت أزمنة أخرى. كان أغوسطين يائساً. يمكن له أن يذهب إلى السجن، ويمكن لهم أن يقتلوه. لم يشأ أن يسبب لك الأذى. فكر في أنها ربما تكون الطريقة الوحيدة لإنقاذك. مثل هذه الأمور كانت تحدث، حتى وإن بدت غير مفهومة الآن. هكذا كانت الحياة، هنا. لقد أحبك أغوسطين أكثر من كل من في الدنيا يا أورانيتا.

تلوي العجوز يديها، أسيرة القلق. وتتململ في الكرسي الهزاز فاقدة السيطرة على نفسها. تقترب منها لوثيندا، تمسد شعرها، تقدم لها قطرات من ماء الناردين: «اهدأي يا ماما، لا تفعلي هذا بنفسك».

من النافذة المطلة على الحديقة، تتلألأ النجوم في ليل الدومينيكان الوديع. هل كانت أزمنة أخرى؟ موجات نسيم ساخن تدخل حجرة الطعام بين فينة وأخرى وتهز الستائر وأزهار الزهرية ما بين تماثيل قديسين وصور للأسرة. وتفكر أورانيا: «كانت ولم تكن. وما زال يطفو شيء من تلك الأزمنة هنا.»

- كان ما جرى فظيعاً، ولكنه أتاح لي التعرف على كرم، ورقة، وإنسانية الأخت ماري - تقول متنهدة - لولاها لكنتُ مجنونة أو ميتة.

وجدت الأخت ماري حلولاً لكل شيء وكانت نموذجاً في التكتم. فمنذ المساعدة الأولى في عيادة المدرسة، لوقف النزيف وتخفيف الألم، وحتى تعبئة رئيسة «الدومينيكان نونس» وإقناعها بتسريع الإجراءات لتقديم تلك المنحة إلى أورانيا كابرال، التلميذة المثالية التي تتعرض حياتها للخطر، من أجل الدراسة في كلية سيينا العليا في أدريان (ميتشيغان). وتكلمت الأخت ماري مع السيناتور أغوسطين كابرال (هل طمأنته؟ أم هددته وأخافته؟)، في مكتب المديرة، حيث التقى الثلاثة على انفراد، وحضته على السماح لابنته بالسفر إلى الولايات المتحدة. وأقنعته كذلك بالتخلي عن محاولة رؤيتها، بسبب الاختلال الذي أصابها بعد ما حدث في سان كريستوبال. أي وجه أبدى أغوسطين كابرال أمام الأخت ماري؟ لقد تساءلت أورانيا عن ذلك مرات ومرات. هل أبدى الإحساس بالمفاجأة المنافقة؟ أم الاستياء؟ أم الاضطراب؟ أم الندم؟ أم الإحساس بالعار والخجل؟ لم تسأل الأخت ماري عن ذلك، ولم تخبرها الأخت عنه أيضاً. ذهبت الراهبتان إلى القنصلية الأمريكية للحصول على الفيزا، وطلبن مقابلة الرئيس بالاغير لكي

يُسرّع إجراءات الحصول على التصريح الذي يتوجب على الدومينيكانيين الحصول عليه من أجل السفر إلى الخارج، وهي إجراءات تتأخر عادة لأسابيع. ودفعت المدرسة قيمة تذكرة سفرها، لأن السيناتور صار عاجزاً عن الدفع بعد تجميد أرصدته. ورافقتها الأخت ماري والأخت هيلين كلير إلى المطار. وعندما أقلعت الطائرة، كان إحساس أورانيا الأول بالامتنان تجاه الراهبات هو تنفيذهن لوعدهن بعدم جعلها ترى أباها، ولو من بعيد. وهي ممتنة لهن الآن أيضاً لأنهن أنقذنها من غضب تروخييو التالي، والذي كان يمكن له أن يُبقيها محتجزة في هذه الجزيرة أو يرسلها لتغذي أسماك القرش.

- لقد تأخر الوقت كثيراً - تقول وهي تنظر إلى ساعتها - إنها الثانية فجراً تقريباً. لم أُعدّ حقيبتي بعد، وطائرتي تغادر باكراً في الصباح.

- هل ستعودين غداً إلى نيويورك؟ - تقول لوثينديتا بحسرة - ظننت أنك ستبقين بضعة أيام أخرى.

- يجب أن أشتغل - تقول أورانيا - تنتظرني في المكتب أكداس من الأوراق تبعث على الدوار.

- لن تعود الحال الآن مثلما كانت في السابق، أليس كذلك يا أورانيا؟ - تعانقها مانوليتا - سنكتبُ إليك، وستردين على رسائلنا، وستأتين بين فترة وأخرى في إجازات لزيارة أسرتك، أليس هذا صحيحاً يا فتاة؟

- على كل حال - تهز أورانيا راسها، وتعانقها أيضاً. ولكنها ليست واثقة. ربما كانت تفضل، بعد خروجها من هذا البيت، من هذه البلاد، أن تنسى أسرتها من جديد، أن تنسى هؤلاء الناس، وماضيها، وأن تندم لأنها جاءت وتكلمت مثلما تكلمت هذه الليلة. أم أنها لن تفعل ذلك؟ ربما تريد أن تستعيد نوعاً من الروابط مع هذه البقايا المتبقية من الأسرة؟ - هل يمكنني طلب سيارة تكسي في مثل هذه الساعة؟

فتنهض لوثينديتا:

- نحن سنوصلك.

عندما تنحني أورانيا لتعانق عمتها آديلينا، تتشبث العجوز بها وتغرس فيها أصابعها الحادة والملتوية مثل خطافات. كانت تبدو وكأنها قد هدأت واستكانت، ولكنها الآن تبدي الاضطراب مرة أخرى، هناك ذعر مغموم في عينيها الغائرتين، وفي المحجرين المحاطين بالتجاعيد.

- ربما لم يعرف أغوسطين شيئاً من كل ذلك - تتلعثم بصعوبة، كما لو أن طقم أسنانها الاصطناعية سيفلت من مكانه - يمكن أن يكون مانويل ألفونسو قد خدع أخي، وهو في أعماقه ساذج جداً. لا تحقدي عليه كثيراً يا ابنتي. لقد عاش وحيداً، وتألم كثيراً. الرب يعلمنا أن نغفر. بحق أمك التي كانت كاثوليكية متدينة يا بنيتي.

تحاول أورانيا تهدئتها: «أجل، أجل ياعمتي، مثلما تقولين، لا تضطربي، أرجوكِ». ابنتا العجوز تحيطان بها محاولتين تهدئتها. فتنصاع هي أخيراً، وتنكمش على كرسيها، بوجه شاحب.

- اعذريني لأنني رويت هذه الأمور - تقبلها أورانيا من جبهتها - لقد كان تصرفاً جنونياً. ولكنها تحرقني منذ سنوات طويلة.

- ستهدأ الآن - تقول مانوليتا - أنا سأبقى معها. لقد أحسنتِ صنعاً بإخبارنا بذلك. أرجوكِ أن تكتبي لنا، اتصلي بين حين وآخر. يجب ألا نفقد الاتصال مرة أخرى يا ابنة الخال.

وتقول أورانيا:

- أعدك بذلك.

ترافقها حتى الباب، وتودعها إلى جانب سيارة لوثيندا العتيقة، إنها سيارة تويوتا مستعملة تقف عند المدخل. وعندما تعانقها من جديد، تفيض عينا مانوليتا بالدموع.

بينما هن في السيارة متوجهات إلى فندق خاراغوا، يجتزن شوارع حي غاثكوي المقفرة، تشعر أورانيا بالكآبة. لماذا فعلتِ ذلك؟ هل ستشعرين بأنك ستتغيرين، ستتحررين من هذه الشياطين التي جففت روحك؟ لن يحدث ذلك بكل تأكيد. لقد كان ما فعلتِه ضعفاً، وقوعاً في رقة القلب الكاذبة، في ذلك الإشفاق على الذات الذي طالما أثار اشمئزازك في أناس آخرين. أكنتِ تنتظرين أن يُشفقن عليك، أن يرثين لحالك؟ أهذا هو التعويض الذي كنتِ تريدينه؟

وعندئذ - وهذا علاج تلجأ إليه للتخلص من الغم أحياناً - تذكرت النهاية التي آل إليها جوني أبيس غارسيا. وقد أخبرتها بذلك قبل سنوات إسبيرانسا بوريكاو، زميلة عمل بارزة في مدينة بور لو برانس، حيث استقر رئيس الاستخبارات العسكرية السابق بعد أن جال على كندا وفرنسا وسويسرا - لم يذهب إلى اليابان قط - في ذلك النفي الذهبي الذي فرضه عليه بالاغير.

وكانت إسبيرانسا وأسرة أبيس غارسيا جيراناً في بور لو برانس. وكان أبيس غارسيا قد ذهب إلى هايتي كمستشار للرئيس دوفالييه. ولكنه بعد وقت قصير بدأ يتآمر على زعيمه الجديد، بدعمه خطط تمرد يعدّها الكولونيل دومينيك، صهر الدكتاتور الهايتي. وقد حلّ «بابا دوك» المشكلة في عشر دقائق. فقد رأت إسبيرانسا في ضحى أحد الأيام، حوالي عشرين عنصراً من الـ «تونتون ماكوت» ينزلون من شاحنتين، ويداهمون بيت جيرانها وهم يطلقون النار. عشر دقائق فقط. قتلوا خلالها جوني أبيس، وقتلوا زوجة جوني أبيس، وقتلوا ابني جوني أبيس الصغيرين، وقتلوا الدجاجات والأرانب والكلاب التي يملكها جوني أبيس. ثم أضرموا النار في البيت وانصرفوا. وقد احتاجت إسبيرانسا بوريكاو إلى علاج نفسي حين رجعت إلى واشنطن. أهذه هي الميتة التي تمنيتِها لأبيك؟ هل أنت ممتلئة بالحقد والكراهية حقاً مثلما قالت العمة آديلينا؟ وتشعر - مرة أخرى - بأنها فارغة.

- متأسفة جداً لذلك المشهد، لتلك الميلودراما يا لوثينديتا - تقول عند مدخل فندق خاراغوا. يجب عليها أن تتكلم بصوت عالٍ، لأن الموسيقى المنبعثة من كازينو الطابق الأول تطغى على صوتها - لقد مرمرتُ ليلة العمة آديلينا.

- ما الذي تقولينه يا فتاة. الآن أدركتُ ما الذي جرى لكِ، وفهمت معنى ذلك الصمت الذي كان يؤلمنا. ارجوك يا أورانيا، ارجعي لزيارتنا. إننا أسرتك، وهذه هي بلادك.

عندما ودعت أورانيا الحفيدة ماريانيتا، عانقتها هذه وكأنها تريد الالتحام بها، والغوص فيها. وكان جسد الصبية النحيل يرتعش مثل ورقة.

- أنا سأحبك كثيراً أيتها الخالة أورانيا - تهمس في أذنها وتشعر أورانيا بالحزن يخيم عليها - سأكتب إليك رسالة كل شهر. ولن يهمني ألا تردي على رسائلي.

تقبلها من خدها عدة مرات، بشفتيها النحيلتين، مثل نقر عصفور صغير. وقبل أن تدخل أورانيا إلى الفندق، تنتظر إلى أن تختفي سيارة ابنة عمتها العتيقة في جادة كورنيش جورج واشنطن، على خلفية صفٍ من الأمواج الصاخبة والبيضاء. تدخل إلى فندق خاراغوا، وإلى اليسار، حيث الكازينو وصالة الرقص يضجان: هناك إيقاعات، أصوات، موسيقى، آلات قمار وصرخات لاعبي الروليت.

عندما تتوجه نحو المصعد، تعترضها هيئة ذكورية. إنه سائح أربعيني، شعره أشقر مائل إلى الحمرة، يرتدي قميصاً ذا مربعات، بنطال رعاة بقر وحذاء خفيفاً، وهو مخمور قليلاً.

يقول لها وهو ينحني بتهذب:

- May I buy you a drink, dear lady? [1]

- Get out of my way, you dirty drunk [2] - ترد عليه أورانيا دون أن تتوقف. وقد تمكنت من رؤية ملامح الارتباك والخوف على عديم الحذر ذاك.

تبدأ في غرفتها بإعداد الحقيبة، ولكنها تجلس بعد قليل إلى جانب النافذة لتنظر إلى النجوم اللامعة وزبد الأمواج. تعرف أنها لن تستطيع النوم، وأن لديها كل ما في الدنيا من وقت لترتيب حقيبتها.

وتقول لنفسها: «إذا ما كتبت ماريانيتا إليّ فسوف أرد على كل رسائلها».

---

[1] هل يمكنني أن أدعوكِ إلى شراب يا سيدتي العزيزة؟

[2] ابتعد عن طريقي أيها السكير القذر.